شرح

كتاب التوحيد

للإمام الشيخ

محمد بن عبد الوهاب

- رحمه الله -

شرح الشيخ

عيسى بن سالم بن سدحان العازمي

- حفظه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

كتاب التوحيد

وقول الله تعالىٰ: }وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{[الذاريات: ٥٦].



قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

كتاب التوحيد من تأليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإمام المجدد وهو: محمد بن عبد الوهاب التميمي, من قبيلة بني تميم.

والإمام رَحِمَهُ اللهُ كان على منهج أهل السنة والجماعة -فيما نحسبه والله حسيبه-.

وقد برز في الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ والدعوة إلى التوحيد.

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ وُلد في بلدة العُيينة سنة (١١١٥) للهجرة, وحفظ القرآن قبل البلوغ, ثم طلب العلم على والده قاضي العيينة, ثم خرج رَحِمَهُ اللهُ إلى الحجاز والمدينة وخرج إلى البصرة, حتى أن الله عَزَّ وَجَلَّ فتح عليه وزقه العلم الكثير.

ثم لما رأى الناس فيما هم فيه من البدع والخرافات صدع بالحق وأمر الناس بعبادة الله وحده لا شريك له ونبذ الخرافات.

ولما أظهر الدعوة –الدعوة إلى التوحيد- يقول: وافقني العلماء, ولكن خالفوني في مسائل, منها الجهاد والقتال, قال: خالفوني فيه وخالفوني في التكفير.

والإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ ما يأتي بالتكفير من عند نفسه, وإنما يتبع الكتاب والسنة -فيما نحسبه والله حسيبه-.

لأن من أشرك بالله فقد أشرك, فلابد أن نطلق عليه أنه مشرك, ومن جحد ما أوجب الله فقد كفر, فلا بد أن نطلق عليه ما أطلقه الله عَزَّ وَجَلَّ عليه ورسوله.

ولذلك التكفير حق لله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم إنه رَحِمَهُ اللهُ دعا إلى الله وفتح الله عَزَّ وَجَلَّ عليه وأخرج الله عَزَّ وَجَلَّ الكثير من طلبة العلم على يديه, حتى وافته المنية رَحِمَهُ اللهُ سنة (١٢٠٦) للهجرة, في بلدة الدرعية قُرب الرياض.

فجزاه الله عَزَّ وَجَلَّ عنا خير الجزاء, وجعله الله عَزَّ وَجَلَّ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقًا.

ونسأل الله أن يجمعنا وإياه في جنات النعيم.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**كتاب التوحيد**.

وقول الله تعالى:}وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{[الذاريات: ٥٦].

قال **كتاب التوحيد**.

كتاب بمعنى: مكتوب, يعني مجموع, فالكتاب هو المجموع, فيجمع حروف أو كلمات أو مسائل, فتكون في مسمى واحد.

والشيء إذا تكتب تجمع.

ولذلك يقال: تكتب بنو فلان؛ يعني اجتمعوا.

ويقال: كتيبة الجيش؛ يعني: جماعة الجيش.

والكتاب في الاصطلاح: هو مجموعة من العلم داخلة في مسمى واحد, يجمعها مسمى واحد يعني كتاب.

قال: **كتاب التوحيد** .

التوحيد له معنى عام ومعنى خاص.

المعنى العام: هو إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثاني: المعنى الخاص: وهو إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بالتعبد.

وهو المراد في هذا الكتاب؛ لأن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ألَّف في توحيد العبادة, إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة.

إذًا: التوحيد عام وخاص.

والتوحيد في اللغة: مصدر وحَّد؛ أي: جعل الشيء واحدًا.

وهو بالنسبة لله عَزَّ وَجَلَّ ثلاثة أنواع:

- توحيد الربوبية.

- وتوحيد الألوهية.

- وتوحيد الأسماء والصفات.

أما توحيد الربوبية: فهو إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بأفعاله؛ من الخلق, والمُلك, والتدبير, والإحياء, والإماتة, وما أشبه ذلك.

الثاني: توحيد الألوهية: وهو إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة؛ بمعنى: أنك تخص الله عَزَّ وَجَلَّ بالتعبد ولا تعبد معه غيره.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو تسمية الله عَزَّ وَجَلَّ بما سمَّى به نفسه أو سماه به رسوله, أو وصف به نفسه أو وصفه به رسوله, من غير تكييف ولا تمثيل, ومن غير تعطيل ولا تحريف.

فالمؤلف هنا ألَّف في توحيد العبادة, وضمَّ إليه توحيد الأسماء والصفات, وأيضًا ذكر توحيد الربوبية في آخر باب.

فجمع المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الكتاب أنواع التوحيد الثلاثة, وإن كان الأكثر في توحيد العبادة.

قد يقول قائل: من أين أُتي بأن التوحيد ثلاثة أنواع؟

الجواب: أن في القرآن والسنة, مايدل على ذلك.

أما الأدلة عليه من القرآن: فكثيرة:

منها قوله تعالى: }رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا{؛ هذا توحيد الربوبية, }فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ{؛ هذا توحيد الألوهية, }هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا{[مريم: ٦٥]؛ هذا توحيد الأسماء والصفات.

وأيضًا في سورة الفاتحة, وفي سورة الناس.

أيضًا السنة, دلت على أن أنواع التوحيد ثلاثة:

كما في صحيح البخاري من حديث شداد بن أوس في سيد الاستغفار, لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي»؛ هذا توحيد الربوبية, «وَأَنَا عَبْدُكَ»؛ هذا توحيد الألوهية, ثم قال في آخر الحديث: «فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»؛ هذا توحيد الأسماء والصفات.

إذًا: أنواع التوحيد الثلاثة في القرآن والسنة.

فلا يقول قائل: من أين أتى شيخ الإسلام - أو الإمام محمد بن عبد الوهاب بهذه الأنواع؟ نقول: في الكتاب والسنة مايدل على ذلك.

تلاحظ أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ما وضع مقدمة, في كتابه وقد ذكر العلماء أقوال في ذلك:

منها قول عبد الرحمن بن حسن رحمه الله قال: أن بعض النسخ فيها مقدمة, يقول:وقد حصلت على نسخة فيها مقدمة.

وقيل -والله أعلم وهو الأقرب-: أن المؤلف أراد أن يؤلف في التوحيد, والتوحيد بينه الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله, فالتوحيد مبيَّن في القرآن ومبيَّن في السنة أشد بيان.

فكان من الأدب ألا يبين التوحيد وهو مبيَّن ولا يجعل مقدمة فيقول -مثلًا- فصل التوحيد كذا وكذا؛ لأنه بينه الله عَزَّ وَجَلَّ أشد بيان, وبينه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد بيان؛ ولذلك كان من الأدب ألا يتقدم بين يدي الله ورسوله.

قال:وقول الله تعالى:}وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{[الذاريات: ٥٦].

في هذه الآية الكريمة بيان أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الخلق لعبادته, فالخلق أوجدهم الله عَزَّ وَجَلَّ لعبادته.

فقوله: }وَمَا خَلَقْتُ{؛ يعني: أوجدت.

والخلق في اللغة: هو التقدير.

وخلق الله عَزَّ وَجَلَّ هو الإيجاد من العدم.

فقوله: }وَمَا خَلَقْتُ{؛ يعني: أوجدت, وهو الإيجاد من العدم.

}وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ.{

الجن: عالم غيبي, خلقهم الله عَزَّ وَجَلَّ من نار.

وقد اختلف العلماء هل إبليس أبو الجن ؟ أوأن إبليس أبو الشياطين والجن أبوهم غيره؟ فيه خلاف

لكن الأقرب -والله أعلم-: أن إبليس هو أبو الجن؛ لأن إبليس من الجن على الراجح.

والجن: عالم غيبي مُكلَّفون مأمورون ومنهيُّون, قد يدخل بعضهم الجنة وقد يدخل بعضهم النار.

وسُمُّوا (الجن) من الخفاء والتستر.

ولذلك يقال: أن الجيم والنون مادة في الستر والتغطية.

ولذلك يقال: الجنين؛ لأنه مستتر في بطن أُمه.

ويقال: الجنة؛ لأنها غُطيت بالأشجار.

قال: }وَالْإِنْسَ.{

والأنس: هم بنو آدم.

وسُمُّوا (إنس)؛ قيل: لأنه يأنس بعضهم لبعض ويجتمعوا, فلا تجد أن الإنسان يرتاح وحده, بل لابد أن يُجالس غيره.

وقيل: من النسيان.

وقيل: سُمُّوا بذلك من الظهور, فبشرة الإنسان ظاهرة.

ولذلك يقول: }آنَسْتُ نَارًا{؛ يعني: أبصرت نارًا, وهو الظهور.

وقيل: من النَّوس, وهو الاضطراب والحركة, فتجد أن بنو آدم يتحركون وينتقلون من ها هنا وها هنا.

قال: وقوله: }إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.{

(إِلَّا): أداة استثناء مفرغة من أعم الأحوال.

وقوله: }لِيَعْبُدُونِ{؛ يعني: ليوحِّدون ويتذللوا لي حبًّا وتعظيمًا.

وفي هذه الآية نفي وهو (ما) }وَمَا خَلَقْتُ{, واستثناء وهو (إِلَّا), والنفي مع الاستثناء يدل على الحصر.

فمعنى الآية الكريمة: أن الله عَزَّ وَجَلَّ ما أوجد الخلق ولا أتى بهم إلى هذه الدنيا إلا لأمر واحد وهو عبادة الله لا غير, فهذه الحكمة.

وقوله: }إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{, اللام هنا لام الحكمة؛ يعني: الحكمة من إيجاد الخلق هي عبادة الله, وليس هي لام الوقوع القدرية الكونية؛ إذا لو كانت لام الوقوع لعبد الخلق جميعًا الله عَزَّ وَجَلَّ, لو كانت لام الوقوع لام التحتم لكان الخلق كلهم عبيد لله, ولكنها لام الحكمة.

قال: }لِيَعْبُدُونِ.{

والعبادة نوعان: عبادة عامة, وعبادة خاصة.

فأما العبادة العامة: فهي عبادة القهر؛ بمعنى: أن الخلق جميعًا مقهورون, يجري عليهم أمر الله الكوني لا ينفك عن هذا أحد.

فهذا داخل فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر والملائكة والجن والإنس, جميع الخلق عبيد لله في هذا المعنى؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ تجري أموره الكونية عليهم؛ بمعنى: أنهم مقهورون, فقراء إلى الله, والله هو الغني الحميد.

ولذلك قال الله تعالى: }وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ{[يونس: ٣٠].

الثاني: العبادة الشرعية الاختيارية, وهذه خاصة بمن عبد الله عَزَّ وَجَلَّ باختياره, وهي التذلل لله حبًّا وتعظيمًا بفعل أوامره واجتناب نواهيه, وهذه خاصة بمن عبد الله ووحد الله باختياره.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: }وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا{[الفرقان: ٦٣].

وقد ذكر بعض العلماء أن هناك عبادة أخص, وهي: عبادة الرسل, فعبادة الرسل هي أخص.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: }سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ{[الإسراء: ١].

وقال تعالى: }وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ{[ص: ٤٥].

فذكر الله عَزَّ وَجَلَّ عبادة الرسل وهي أخص.

والعبادة مأخوذة من التعبد وهو الذل والاطمئنان والخضوع.

ومنه قيل: طريق مُعبَّد؛ يعني: ذللته الأقدام.

والعبادة: هي غاية الذل مع غاية الخضوع.

ولذلك قال ابن القيم:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ العِبَادَةِ دائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ القُطْبَانِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ{[النحل: ٣٦].



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ{[النحل: ٣٦].

في هذه الآية الكريمة يبين الله أنه ما من أُمة –يعني جماعة من الناس– إلا قد بعث إليهم رسول يأمرهم بالعبادة وينهاهم عن الشرك.

قال: }وَلَقَدْ.{

}لَقَدْ{, في القرآن فيها ثلاث مؤكدات:

- القَسَم المُقدَّر.
- واللام التوكيد.
- و(قد).

ففي هذه الكلمة ثلاث مؤكدات.

قال: }وَلَقَدْ بَعَثْنَا{, البعث في اللغة هو الإثارة, أثرت الشيء؛ يعني: بعثته.

فالبعث هو الإرسال ونحو ذلك.

}فِي كُلِّ أُمَّةٍ{؛ يعني:جماعة من الناس.

والأُمة تطلق في القرآن على أربعة معاني:

المعنى الأول: الجماعة, وهي المرادة في هذه الآية الكريمة.

المعنى الثاني: القدوة الذي يُقتدى به.

ومنه قوله تعالى: }إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً{[النحل: ١٢٠]؛ يعني: قدوة في الخير.

المعنى الثالث: الزمن والحقبة من الزمن.

قال تعالى: }وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ{[يوسف: ٤٥]؛ يعني: مدة من الزمن.

المعنى الرابع: الملة والشِّرع.

قال الله تعالى: }قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ{[الزخرف: ٢٢] ؛ يعني: على شِرعة ومِلة.

فهي لها أربعة إطلاقات في القرآن الكريم, والمراد هنا: الجماعة.

قال: }رَسُولاً{, والرسول: هو من أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه لقوم كافرين.

}أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ{؛ يعني: تذللوا لله حبًّا وتعظيمًا ورجاءً.

}أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا{؛ يعني: كونوا في حيز بعيد مجانب.

}وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ{, والطاغوت: هو كل ما عُبد من دون الله.

فإن كان المعبود راضي؛ فالعابد طاغوت والمعبود طاغوت, وإن كان المعبود غير راضي؛ فالطاغوت العابد فقط والمعبود غير طاغوت.

بل يبرأ من هذا الشيء.

وعلى هذا يُزال الأشكال الذي قد يقع .

والطاغوت من الطغيان وهو الزيادة.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ{[الحاقة: ١١]؛ يعني: تجاوز الحد.

فإذا طغى الإنسان في الشيء فهو طغى وزاد.

قال: }وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ{؛ يعني: اجتنبوا الشرك.

وهذه الآية فيها معنى (لا إله إلا الله).

فقوله: }اعْبُدُوا{؛ يعني: توجهوا لله بالعبادة.

}وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ{؛ يعني: ابتعدوا عن كل ما يُعبد من دون الله ولا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا{[الإسراء: ٢٣].



قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا{[الإسراء: ٢٣].

في هذه الآية الكريمة يوصي الله عَزَّ وَجَلَّ بألا يُعبد إلا الله, بأن يُعبد وحده ولا يُشرك به شيئًا, وأن يُحسَن إلى الوالدين بالقول والفعل ونحو ذلك.

قال: }وَقَضَى{؛ يعني: وصَّى وأمر.

والقضاء نوعان: قضاء شرعي, وقضاء كوني.

القضاء الشرعي: هو ما وصَّى الله عَزَّ وَجَلَّ به وأمر به شرعًا.

وهذا القضاء قد يُمتثل وقد لا يُمتثل, لا يلزم منه أن يُمتثل, هو واجب ولكنه قد يفعله الإنسان وقد يعصي ولا يفعل.

والقضاء الشرعي لا يكون إلا فيما أحبه الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثاني: قضاء كوني: وهذا لابد من وقوعه, ولا يلزم أن يكون الله عَزَّ وَجَلَّ يحبه, قد يكون محبوب إلى الله وقد يكون مبغض, ولكن محبوب لما يترتب عليه من مصالح أخرى.

والقضاء هنا القضاء الشرعي, إذ لو كان قضاء كوني لعبد الناس جميعًا الله عَزَّ وَجَلَّ ولأحسن جميع الخلق إلى آبائهم, ولكنه قضاء شرعي.

لأن بعض الخلق عبد الله وبعض الخلق لم يعبد الله, وبعض الخلق بر بوالديه وبعض الخلق لم يبر بوالديه, فهنا القضاء شرعي.

قال: }وَقَضَى رَبُّكَ{, }رَبُّكَ{؛ يعني: معبودك الذي خلقك ورزقك.

والرب يُطلق في الكتاب والسنة على المعبود, ويُطلق على الخالق, المالك, الرازق, المحيي, المميت.

ولذلك يُطلق على المعبود, ويُطلق على الخالق.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَدْخَلَ الرَّجُلَ الْقَبْرَ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟»؛ يعني: من معبودك الذي تعبُد.

فالرب قد يطلق ويراد به الخالق الرازق, وهذا الأصل, وقد يراد به المعبود.

قال: }وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ{؛ يعني: لا تتذللوا حبًّا وتعظيمًا إلا له وحده لا شريك له.

وهذه الآية الكريمة فيها الدلالة على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بالمطابقة؛ فقوله: }أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ{, }أَلَّا تَعْبُدُوا{؛ هذا نفي, }إِلَّا إِيَّاهُ{؛ إثبات.

وذلك أن كلمة التوحيد فيها نفي وإثبات؛ فقوله: (لا إله)؛ هذا نفي, وقوله: (إلا الله)؛ هذا إثبات العبادة لله وحده لا شريك له.

ففيها الدلالة بالمطابقة على هذه الكلمة.

قال: }وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا{, الوالدان: هما من تفرَّعت منهم, وأمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالإحسان إليهما.

والإحسان قد يكون بالفعل, وقد يكون بالقول.

فمن الإحسان بالفعل: كأن يأتيهم بحاجتهم التي لا مضرة فيها عليه.

ومن الإحسان بالقول: كقول: يا آبتاه, يا أُمَّاه, أبشر يا أبي, أبشري يا أمي, وهكذا.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآية الكريمة يبين أن أول الحقوق التي قضى الله وأمر بها التوحيد, فيدلك على أهمية التوحيد؛ لأن أهم المهمات وأهم الأمور هو توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ, فلابد من توحيد الله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا{[الأنعام: ١٥١].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

في هذه الآية الكريمة فيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ أمر رسوله أن ينادي الناس, أن يقول: هلُمُّوا تعالوا أقُص عليكم ما هو الذي أمركم الله عَزَّ وَجَلَّ به ونهاكم عنه, يعني بحق, وليس بما تعتقدون وتفعلون من تلقاء أنفسكم, بل انظروا إلى ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ منكم, فأمر الله عَزَّ وَجَلَّ رسوله أن يقص عليهم.

وهذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أن هذه الآية ثابتة على جميع بنو آدم, بل لم يُنسخ منها شيء".

}قُلْ تَعَالَوْا{؛ يعني: هلُمُّوا أقبلوا, }أَتْلُ{؛ يعني: أقص وأُبين لكم, }مَا حَرَّمَ{؛ يعني: ما منع.

التحريم: هو المنع.

ومنه قوله تعالى: }وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ{[الأنبياء: ٩٥]؛ يعني: ممنوع على قرية.

فالتحريم هو المنع.

قال تعالى: }وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ{[القصص: ١٢]؛ يعني: منعناه من أن يرتضع من غير أُمه.

قال: }مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ{؛ يعني: ما نهاكم عنه ومنعكم منه.

والمحرم: هو ما نُهي عنه على وجه الإلزام بالترك.

قال: }مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ{؛ يعني: خالقكم ورازقكم ومحييكم ومميتكم.

}عَلَيْكُمْ{, و(على): تدل على الوجوب, دلالة ظاهرة.

}عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ} ,{أَلَّا تُشْرِكُوا{؛ يعني: لا تساووا بين الله وبغيره فيما هو من خصائصه سبحانه.

}أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا{, و(شَيْئًا): نكرة في سياق النهي فتفيد العموم, فيدخل فيها الشرك الأكبر والأصغر, ويدخل فيها المُشرَك به والمُشرَك فيه.

المُشرَك به: يعني سواءً كان هذا المُشرَك به مَلك, أو نبي, أو حجر.

أو مُشرَك فيه: يعني كالسجود لغيره, أو دعاء غيره, أو الذبح لغيره.

فلا يجوز, هذا كله ممنوع ومحرم وشرك.

والشرك نوعان: عام وخاص.

الشرك العام: هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله, سواءً كان في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.

فقد يكون الشرك في الربوبية كأن يعتقد أن غير الله يخلُق.

وقد يكون في الألوهية؛ كأن يذبح لصنم أو لقبر يذبح له من دون الله.

وقد يكون في الأسماء والصفات؛ كأن يعتقد أن لله مثيل في أسمائه أو صفاته.

الثاني بمعناه الخاص: وهو تسوية الله عَزَّ وَجَلَّ بغيره في التعبد.

يعني: يعبد مع الله غيره ويتذلل ويرجو غير الله, كما يرجو الله ويتذلل لله.

ففي هذه الآية الكريمة ينهى الله عَزَّ وَجَلَّ عن الشرك, وبدأ به, ثم بدأ بباقي الحقوق.

وهذا يدلك على عظيم أهمية اجتناب الشرك, وأنه أعظم المحرمات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا{[النساء: ٣٦].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا{[النساء: ٣٦].

في هذه الآية الكريمة يأمر الله عَزَّ وَجَلَّ عباده بالتوجه إليه بالتعبد وألا يُشرَك معه غيره.

إذًا: في هذه الآية الأمر بعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ واجتناب الشرك.

قوله: }وَاعْبُدُوا اللَّهَ{؛ يعني: تذللوا لله حبًّا وتعظيمًا.

}وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ{؛ يعني: لا تساووا غير الله بالله بما هو من خصائص الله.

}بِهِ شَيْئًا{؛ (شَيْئًا): نكرة في سياق النهي فتفيد العموم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن مسعود:"من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالىٰ: }قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ{- إلىٰ قوله: }وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ{[الأنعام: ١٥٣]."

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الأثر أخرجه الترمذي بسند حسن.

وسبب هذا الأثر:

أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان حال احتضاره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ قال لأصحابه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام: «ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ». قَالَ عُمَرُ: "إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَلَبَهُ الْوَجَعُ، وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللهِ".

وكان قصد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الشفقة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ما أراد أن يُثقل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنده آية من القرآن, يعني: استنبط من قوله تعالى: }الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ{[المائدة: ٣], فعرف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الدين قد كمُل ولا أراد أن يُثقل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال بعض القوم: ائتوا بكتاب.

وقال بعض القوم: على ما قال عمر.

ثم اختلفوا, فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُومُوا عَنِّي».

ثم خرجوا وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **"إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ كِتَابِهِ"**.

فقال ابن مسعود هذا الحديث: **"من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ."**

"من أراد أن ينظر إلى وصية محمد"؛ يعني: ينظر بقلبه.

"إلى وصية محمد"؛ يعني: عهد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو كان أوصى.

لو كان أراد أن يوصي لن يوصي بأكثر مما قال الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الله أوصى في هذه الآية قال: }ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ{[الأنعام: ١٥٣].

ففي الآية توصية من الله عَزَّ وَجَلَّ, والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصي بما أوصى الله عَزَّ وَجَلَّ به لأنه رسول.

قال: **"من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتمه"**؛ يعني: عليها إذ لو كانت طُبعت.

الخاتم:هو حلقة فيها فص من غيره.

يعني بمعنى: أن لو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب الكتاب وختم عليه لن يزيد على هذه الآيات.

قال: "فليقرأ قوله تعالى:}قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ{- إلى قوله: }وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ{[الأنعام: ١٥٣] ."

وقوله: }وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي{, (هذا)؛ يعني: الذي نصبه الله عَزَّ وَجَلَّ.

}وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي{, أضافها الله عَزَّ وَجَلَّ إليه لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي نصبه للعباد.

وصراط الله عَزَّ وَجَلَّ: هو الطريق الموصل إليه, وهو الإسلام الموصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

}مُسْتَقِيمًا{؛ يعني: معتدل لا اعوجاج فيه ولا ميل, }فَاتَّبِعُوهُ{؛ يعني: سيروا عليه وكونوا عليه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْيفَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ حِمَارٍ فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟». فقُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟

قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

في هذا الحديث: بيان أن لله عَزَّ وَجَلَّ على الخلق حق مُلزم به لابد أن يأتوا به وهو: عبادة الله وحده لا شريك له, وأن للخلق حق على الله عَزَّ وَجَلَّ تفضلًا منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وإكرامًا إذا لم يشركوا به شيئًا أن يؤتيهم هذا الحق.

قال: **وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

كُنْتُ: يعني: يوم من الأيام رديف.

الرديف: هو الذي يكون خلْفك.

عَلَى حِمَارٍ: الحمار معروف, وهذا فيه تواضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ»؛ يعني: ناداه ليتنبه, ناداه باسمه, «أَتَدْرِي»؛ يعني: أتعرف, «مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ»؛ يعني: ما هو الحق المُلزم على العباد أن يأتوا به لله عليهم.

«وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟»؛ يعني: ما هو الحق الذي كتبه الله عَزَّ وَجَلَّ على نفسه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تفضلًا منه للعباد.

فقُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

يعني: الله ورسوله أعلم بهذا الشيء ما هو الحق للعباد وما هو الحق لله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»؛ يعني: حق الله الملزم به أن يتوجه إليه العباد بالعبادة ولا يشركوا معه أحد في التعبد, وهذا حق إلزام واجب متحتم لابد منه.

قَالَ: «وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»؛ يعني: حق جعله الله للعباد وهو إن أتى العبد بالأول أعطاه الله الثاني, لأن وعد الله عَزَّ وَجَلَّ حق, وهو حق ثابت تفضلًا من الله عَزَّ وَجَلَّ .

«وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ»؛ يعني: لا يُعذِّب.

والعذاب هو ما يؤلم الشخص ويحول بينه وبين مراده.

«مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»؛ يعني: لا يعبد معه غيره, بل يتوجه لله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة ولا يعبد مع الله غيره.

فَقُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ, أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟

يعني: ألا أُبشرهم بهذه البشارة العظيمة أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل للخلق حق؟

قَالَ:«لَا تُبَشِّرْهُمْ», والبشارة: هي ما يظهر على بشرة المُبشَّر, والغالب أنها تكون في الخير, فإذا بُشِّر الإنسان بما يسره استنار وجهه وتغيرت بشرته.

قَالَ:«لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»؛ يعني: يتَّكلوا على هذه الشهادة ويتركوا العمل.

قَالَ: أَخْرَجاهُ.يعني: البخاري ومسلم.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث:جواز الإرداف على الدابة إذا كانت تتحمل ذلك.

ومن الفوائد: تواضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَم ركب الحمار, وكان سيد الخلق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَم وأفضل بنو آدم.

لذلك جَاءَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَلَكٌ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا، أَوْ نَبِيًّامَلِكًا،فَنَظَرَإِلَى جِبْرِيلَ كَالْمُسْتَشِيرِلَهُ،فَأَشَارَإِلَيْهِ أَنْ تَوَاضَعْ، فَقَالَ: «بَلْ نَبِيٌّ عَبْدٌ», فاختار العبودية عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَم .

ومن الفوائد: حُسن تعليم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه قال: «يَا مُعَاذُ»؛ وغالبًا الإنسان إذا نودي يتنبه وينتظر ما يقال له.

واعلم أن من الطرق المُثلى في التدريس النداء, كأن تقول: يا فلان انتبه؛ فيتنبه لك حتى تلقي إليه الكلام.

ومنها إعادة القول؛ ولذلك في الصحيح: "أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا تكلم تكلم ثلاثًا حتى يُفهم عنه".

ومنها السكوت, لأنك إذا تكلمت تكلمت ثم سكت, إشرأب الناس, ونظروا إليك ماذا ستقول, فتأتيهم المعلومة منتبهين .

ومنها السؤال؛ كما في أول الحديث: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ؟»).

فهذه من الطرق المُثلى في التدريس.

ومن الفوائد: أن لله عَزَّ وَجَلَّ على العباد حق وهو حق إلزام, وحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا, وهذا الحق إلزام, ومن لم يأتي به ووقع في الشرك فإنه يُعذَّب –نسأل الله العافية–.

ومن الفوائد: أن العباد لهم حق على الله عَزَّ وَجَلَّ, العباد لهم حق ولكن ليس إلزام من الخلق, وإنما الله عَزَّ وَجَلَّ أوجب على نفسه تفضلًا وإحسانًا منه سُبْحَانَهُ.

وقد قال القائل:

وما للعباد عليه حقٌّ واجب … كلا ولا سعيٌ لديه ضائعُ

إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا … فبفضله وهو الكريم الواسعُ

فالله عَزَّ وَجَلَّ جعل حق للعباد تفضلًا منه وإكرامًا سُبْحَانَهُ.

ومن الفوائد: جواز كتم بعض العلم.

وذلك أن العلم نوعان:

الأول: علم واجب يترتب عليه عمل, هذا لا يجوز كتمه.

كما لو سُئلت –مثلًا– عن حكم قراءة الفاتحة في الصلاة وقلت: أريد أن أكتم على هذا الشخص, فهذا لا يجوز.

وقد جاء في حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍيَوْمَ الْقِيَامَةِ».

الثاني: المستحب الذي لا يترتب عليه عمل, فهذا يجوز كتمه إذا كانت المصلحة في ذلك.

كهذا الحديث؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا تُبَشِّرْهُمْ».

ولذلك جاء في الحديث أن معاذ أخبر به في آخر حياته تأثُّمًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب فضل التوحيد وما يُكفر من الذنوب

وقول الله تعالىٰ: }الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ{[الأنعام: ٨٢].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب فضل التوحيدومايُكفرمن الذنوب.**

مناسبة هذا الباب لما قبله: لما تكلم المؤلف عن التوحيد وأهميته وأنه هو الذي بعث الله عَزَّ وَجَلَّ من أجله الرسل بيَّن في هذا الباب مزايا التوحيد وفضله, وأنه سبب لتكفير الذنوب, وأنه سبب للأمن في الدنيا والآخرة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**بابفضل التوحيدومايُكفرمن الذنوب.**

قوله: **باب.**

الباب في اللغة: هو المدخل إلى الشيء.

وأما اصطلاحًا فهو: باب إلى مجموعة من العلم والمسائل, يعني: مدخل إلى مسائل وعلوم تحته غالبًا.

قال: **فضل.**

الفضل: هو المزية والزيادة.

فضل التوحيد.

التوحيد تقدم أنه مصدر وحَّد يوحِّد؛ أي: جعل الشيء واحد, وهو: إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بما يختص به.

قال: **ومايُكفرمن الذنوب.**

(ما) هنا قيل: أنها موصولة؛ أي: هذا فضل التوحيد والذي يُكفر من الذنوب.

وقيل: أنها مصدرية, والمعنى: فضل التوحيد وتكفيره الذنوب.

والثاني أعم؛ لأن التوحيد سبب في تكفير جميع الذنوب.

وقوله: **ومايُكفر**.

التكفير في اللغة: هو الستر والتغطية.

وأما شرعًا؛ فإن التوحيد يُذهب أثر الذنوب.

قال: **ومايُكفرمن الذنوب**.

(من) هنا بيانية وليست للتبعيض, بل هي بيانية؛ يعني: أنها تبين تكفير التوحيد للذنوب, إذا لو كانت للتبعيض لكان التوحيد يُكفر بعض الذنوب وبعضها لا يُكفرها, وهذا ليس مراد, بل التوحيد يُكفر جميع الذنوب.

قال: **الذنوب**.

الذنوب: هو ما يسوء الإنسان عاقبته.

قال: وقول الله تعالى: }الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ.{

في هذه الآية الكريمة يبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن الذين آمنوا ولم يخلطوا هذا الإيمان بشرك فإن لهم الاهتداء والأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة.

قال: وقول الله تعالى: }الَّذِينَ آمَنُوا.{

(الَّذِين): اسم موصول يدل على العموم.

}الَّذِينَ آمَنُوا{؛ يعني: آمنوا بقلوبهم وبجوارحهم وبألسنتهم؛ لأن الإيمان يشمل ثلاثة أمور: الإيمان بالقلب, والإيمان باللسان, والإيمان بالجوارح, فكلها داخلة في الإيمان.

}وَلَمْ يَلْبِسُوا{؛ يعني: لم يخلطوا هذا الإيمان.

واللبس هو الخلط.

ومنه قوله تعالى: }يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ{[آل عمران: ٧١]؛ يعني: لا تخلطوا الحق بالباطل.

قال: }إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ{؛ يعني: لم يخلطوا هذا الإيمان بظلم.

والظلم هنا المراد به: الشرك.

وذلك أن الظلم ثلاثة أنواع:

- الأول: ظلم الإنسان نفسه بالشرك.

- الثاني: ظلم الإنسان نفسه بالمعاصي.

- الثالث: ظلم الغير بالتعدي على أعراضهم أو أبدانهم أو أموالهم.

وهنا قوله: }بِظُلْمٍ{, عام؛ ولذلك الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم لما سمعوا هذه الآية أتوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَىٰ قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: }إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ{[لقمان: ١٣].»

فدل على أن الظلم هنا المراد به الشرك؛ كما بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه؛ وذلك أن المشرك وضع العبادة في غير موضعها فأصبح ظالم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِي اللهُ عَنْهُقال: قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ«:مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ.

في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبين أن من شهد شهادة الحق بأنه لا معبود بحق إلا الله, وأن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد لله ورسول من عنده مرسل, وأن عيسى عَلَيْهِ السَّلاَمَ عبد الله أيضًا ورسوله, وأنه كلمته التي ألقاها إلى مريم؛ بحيث خلقه بهذه الكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم, فنفخ في جيبها فحملت بعيسى.« وَرُوحٌ مِنْهُ»؛ يعني: روح من الأرواح التي خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ.

والجنة يعني البستان العظيم الذي أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ به ووعد به المتقين أنها حق, والنار كذلك التي وعد بها المجرمين والكفار أنها حق, أدخله الله عَزَّ وَجَلَّ وإن كان مُقصر بالعمل, أو أدخله الله الجنة وكان منزلته بحسب عمله.

قال رَحِمَهُ اللهُ« :مَنْ شَهِدَ», (من) هنا شرطية, وأسماء الشرط تدل على العموم.

»مَنْ شَهِدَ«.

الشهادة تُطلق ويراد بها الرؤية, يقول: شاهدت الشيء يعني: رأيته.

وتطلق ويراد بها العلم.

وهنا »مَنْ شَهِدَ«؛ علِم؛ يعني: شهد بلسانه مُقرًّا بقلبه أن (لا إله إلا الله)؛ أي: لا معبود بحق إلا الله.

وهذه الكلمة (لَاإِلَهَ إِلَّااللهُ) هي التي بعث الله عَزَّ وَجَلَّ من أجلها الرسل بأن يعتقد أنه لا معبود بحق إلا الله, وأن يتوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة دون ما سواه.

وهذه الكلمة لابد أن يقولها الإنسان عاملًا بمقتضاها عارفًا لمعناها.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: }إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{[الزخرف: ٨٦].

فلابد أن الإنسان يعرف المعنى ويعمل بالمقتضى.

إذًا هذه الكلمة معناها: (لا معبود بحق إلا الله).

قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وهذه الكلمة فيها نفي وإثبات.

النفي: في قوله: «لَا إِلَهَ»؛ هذا ينفي جميع الآلهة الباطلة.

وقوله: «إِلَّا اللهُ»؛ هذا إثبات؛ أي: إثبات الإله الحق بأنه الله وحده.

وهذه الكلمة من حيث الإعراب:

اللام: نافية للجنس.

و(إله): اسمها, والخبر محذوف تقديره حق؛ أي: لا إله حق.

ولفظ الجلالة (الله) عَزَّ وَجَلَّ: بدل.

وهذه الكلمة لها سبعة شروط:

سبعة شروط لابد أن يأتي بها المسلم, وهي مجموعة في قول الناظم:

عِلمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصِدْقُك مع ... محبةٍ وانقيادٍ والقُبُول لها

زادها بعضهم:

وزِيد ثامنها الكُفران منك بما ... سوى الإله من الأشياء قد أُلِّهَا

فلها سبعة شروط:

١- العلم.

٢- اليقين.

٣- الإخلاص.

٤- الصدق.

٥- المحبة.

٦- الانقياد.

٧- القبول.

لابد من سبعة شروط.

قال: وقوله: «وَحْدَهُ»؛ توكيد للإثبات.

وقوله: «لَا شَرِيكَ لَهُ»؛ توكيد للنفي.

«وَأَنَّ مُحَمَّدًا»؛ أيضًا تنطق بلسانك (أشهد)؛ يعني: ناطقًا بلساني مُعتقدًا بقلبي.

وهذا معنى (أشهد): أنطق بلساني مُعتقدًا بقلبي.

«وَأَنَّ مُحَمَّدًا»؛ يعني: محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، قدَّم العبودية على الرسالة؛ لأن أشرف مقام الإنسان أن يكون عبد لله.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أشرف المقامات وسماه (عبد).

قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾[الإسراء: ١].

وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾[الكهف: ١].

فذكر الله عَزَّ وَجَلَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه عبده في أشرف المقامات.

قال: «وَرَسُولُهُ»؛ أيضًا هو مرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الله.

والرسول: هو من أُرسل برسالة.

والرسول يُشعر بثلاثة أمور:

- أولًا: أنه مُرسَل.

- الثاني: أنه له مُرسِل.

- الثالث: أنه معه رسالة؛ لأن الرسول يأتي بشيء يُبلغك بشيء عن مُرسله.

والرسول: من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه لقوم كافرين.

قوله: «وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ».

عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامَ الذي خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ من أُم بلا أب.

قوله: «عَبْدُ اللهِ»، أيضًا ذكر عيسى عَلَيْهِ السَّلَامَ بالعبودية، وهي أشرف مقام للإنسان.

ولذلك حين وُلد عيسى حين تكلم أول كلمة قال: }إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا{[مريم: ٣٠].

أول كلمة نطق بها عيسى عَلَيْهِ السَّلاَم وهو في المهد قال: }إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ.{

فأشرف مقام يكون الإنسان فيه أن يكون عبد لله.

قال: «وَرَسُولُهُ»؛ أيضًا عيسى عَلَيْهِ السَّلاَم رسول من الله, وهو يُشعر بثلاثة أمور -كما تقدم-.

قوله: «وَكَلِمَتُهُ», كلمة الله؛ بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلقه بـ}كُنْ.{

عيسى عَلَيْهِ السَّلاَم خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ بـ}كُنْ{؛ لأنه قال: }كُنْ{؛ فكان, وليس عيسى هو }كُنْ {نفس الكلمة, لا؛ لأن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ صفة من صفاته ليس بمخلوق, وإنما عيسى كان بـ}كُنْ.{

كما قال الإمام أحمد: "عيسى كان بـ}كُنْ."{

قال: «أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ»؛ يعني: عيسى عَلَيْهِ السَّلاَم روح من الأرواح التي خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ, أرسل بها جبريل فنفخ في درع مريم عَلَيْهَا السَّلاَم فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: }كُنْ{؛ فكان عيسى عَلَيْهِ السَّلاَم.

قال: «وَالْجَنَّةُ حَقٌّ», الجنة: هي البستان العظيم الذي وعد الله عَزَّ وَجَلَّ بها المتقين.

«وَالنَّارُ حَقٌّ», النار: هي النار العظيمة الملتهبة التي فُضِّلت على نار الدنيا بتسع وستين جزءًا, وهي نار عظيمة وعد الله عَزَّ وَجَلَّ بها الكفار.

«أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»؛ يعني: إذا اعتقد الإنسان ما مضى وعمِل الأعمال التي تجب عليه كالصلاة والزكاة ونحو ذلك أدخله الله على ما كان من العمل.

وقوله: «أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»؛ يحتمل واحد من أمرين:

الأمر الأول: أن يكون أن يُدخله الله عَزَّ وَجَلَّ الجنة وإن كان مُقصرًا.

الأمر الثاني: أن يُدخله الله عَزَّ وَجَلَّ الجنة ويكون منزلته بحسب عمَله الذي عمِله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما في حديث عِتبان: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ» .

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديث فيه: أن الله عَزَّ وَجَلَّ منع على النار من نطق بشهادة التوحيد وعمل بمقتضاها مُبتغيًّا بذلك وجه الله؛ يعني: معتقدًا بقلبه, عاملًا بمقتضاه, مؤدي للوجبات, منتهي عن المحرمات.

«يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»؛ يعني: يريد وجه الله عَزَّ وَجَلَّ, فهو ما قالها إلا ابتغاء وجه الله, فحرمه الله على النار.

قال: ولهما في حديث عِتبان: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ» .

قوله: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ».

«حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ»؛ يعني: منع على النار.

وهذا يحتمل أنه يُمنع مطلقًا, ويحتمل أنه يُمنع الخلود فيها؛ لأن تحريم النار على الإنسان نوعان:

الأول: تحريم ابتدائي مؤبَّد؛ بحيث أن الإنسان ما يدخل النار أبدًا, تحرُم النار عليه أبدًا ما يدخلها.

وهذا لمن وحَّد الله عَزَّ وَجَلَّ, وأتى بجميع الوجبات وانتهى عن جميع المحرمات, وأتى بكل ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به وانتهى عن كل ما نهى الله عَزَّ وَجَلَّ عنه, فهذا تُحرَّم عليه النار مطلقًا.

كما قال تعالى: }لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا{[الأنبياء: ١٠٢].

لما الكفار أتوا يجادلون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: أن تقول أن الآلهة في النار؛ فإن عزير وعيسى قد عُبدوا من دون الله؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الآية: }إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ

لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: ١٠١-١٠٢].

الثاني: تحريم خلود, وهو لمن وحَّد الله عَزَّ وَجَلَّ ووقع منه تقصير في الواجبات أو انتهاك المحرمات, فترك واجب من الواجبات أو انتهك كبيرة من الكبائر أو وقع في بدع دون الكفر.

فهذا لا يؤبَّد في النار ان دخلها؛ بمعنى: أنه يكون في النار مدة من الزمن ثم تُحرَّم عليه و يخرج منها, يعني: يحرم عليها الخلود فيها.

قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

(مَنْ) هنا شرطية؛ يعني: من قال هذه الكلمة (لا إله إلا الله)؛ يعني: لا معبود بحق إلا الله.

«يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»؛ يعني: قال هذه الكلمة يريد وجه الله عَزَّ وَجَلَّ, ما قالها رياء, ولا قالها ليُحقن دمه كما يفعل المنافقون.

فالمنافق يقولها بلسانه غير معتقدًا بقلبه, فإذا قالها بلسانه ومعتقدًا بقلبه عاملًا بمقتضاها عارفًا لمعناها؛ فإنه يُحرَّم على النار؛ كما مر على التفصيل الماضي: إما يُحرم مؤبدًا, وإما يُحرَّم خلودًا.

وقوله: «يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»؛ يريد وجه الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوسَىٰ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا. قَالَ: يَا مُوسَىٰ لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

قَال الشَّارِحُ وفقه الله:

وقال في هذا الحديث: أن موسى عَلَيْهِ السَّلاَم موسى بن عمران أراد من الله عَزَّ وَجَلَّ كلمة يتوسل بها إلى الله ويذكره بها ويدعوه إذا سأله, يعني: يخصه الله عَزَّ وَجَلَّ بهذه الكلمة, أراد هذا موسى عَلَيْهِ السَّلاَم.

فقال له الله عَزَّ وَجَلَّ: (قل: لا إله إلا الله), وبيَّن له أن هذه الكلمة لو أن السماوات والأرضين السبع في كفة الميزان وهذه الكلمة في كفة وحدها لرجحت بهن.

يعني: لو كانت هذه المخلوقات في كفة سوى الله عَزَّ وَجَلَّ و(لا إله إلا الله) في كفة, رجحت بهن (لا إله إلا الله)؛ لعظيم قدر هذه الكلمة.

قال: وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِي اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَقَالَ: «قَالَ مُوسَىٰ:».

موسى: هو موسى بن عمران رسول من أولي العزم, وهو كليم الله عَزَّ وَجَلَّ.

«قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا», (شَيْئًا) نكرة, يريد أمر يخصه الله عَزَّ وَجَلَّ به.

قال: «قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ».

(أَذْكُرُكَ)؛ يعني: أذكرك بهذا الشيء.

(وَأَدْعُوكَ)؛ يعني: أتوسل إليك إذا دعوت وأقرن بدعائي هذا القول فيكون سبب في الإجابة.

«قَالَ: قُلْ يَا مُوسَىٰ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ يعني: عليك بهذه الكلمة (لا إله إلا الله).

قال موسى عَلَيْهِ السَّلاَم :«كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا»؛ يعني: كل العباد يقولون هذا, كأن موسى عَلَيْهِ السَّلاَم أراد شيء خاص.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ :«يَا مُوسَىٰ لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ», السماوات الطباق التي فوق المخلوقات التي في الأرض.

«السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وعَامِرَهُنَّ»: يعني: عامر هذه السماوات من الملائكة, الملائكة يعمرون السماوات بالعبادة, فهم يعمرون السماوات بعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: «غَيْرِي»؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ في السماء في العلو.

«وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ», هي الأرض التي عليها المخلوقات.

قال: «وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ», وهذا يدلك على أن الأرضين سبع أرضين.

«فِي كِفَّةٍ»؛ يعني: لو أن هذه المخلوقات والسماوات السبع والأرضين السبع في كفة الميزان, «وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ»؛ يعني: في الكفة الأخرى, «مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ يعني: رجحت بهن.

وهذا يدلك على عظيم هذه الكلمة.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: فضل موسى عَلَيْهِ السَّلاَم وشدة اهتمامه بأن يتقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ما استطاع؛ لأنه قال: «يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا»؛ يعني: أريد شيئًا يا ربِّ يكون محبوب لديك حتى أُثني عليك يا ربِّ وأدعوك فترضى عني.

هذا يدلك على شدة اهتمام موسى عَلَيْهِ السَّلاَم بالتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن الإنسان لابد أن يأتي بعبادة الله من الله, ولا يأتي بالعبادة من نفسه, فلا يبتدع عمله ويضيفه لشرع الله.

والدليل: أن موسى قال: «يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا»؛ أريد أن تعلمني شيء حتى أتعبد به لك يا ربِّ.

فلابد أن يأتي الإنسان بشيء من شرع الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن الإنسان يقرن دعائه بما يكون سبب في إجابته؛ لأنه قال: «أَدْعُوكَ بِهِ».

ما يقرن الإنسان به دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ؛ إما أن يكون باسم من أسماء الله الحسنى, أو صفة, أو عمل صالح, أو دعاء رجل صالح, أو يبين ضعفه وفقره.

بمعنى: أن الإنسان يقول مثلًا: يا غفور اغفر لي, أو يا عزيز انتصر لي, أو جبار اجبرني.

أو يقول مثلًا: يا ربِّ إن كنت تصدقت بهذه الصدقة ابتغاء مرضاتك فاغفر ذنبي أو فرِّج كُربتي.

أو يأتي إلى رجل صالح ويقول: يا فلان ادعوا الله لي.

فهذا قرن دعائه بما يكون سبب في إجابته.

ومن الفوائد: فضل هذه الكلمة وأنها أعظم كلمة منتشرة, من أعظم الكلام المنتشر بين الناس.

ولذلك قال: «كُلُّ عِبَادِكَ»؛ و(كُل) من صيغ العموم.

«كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا».

وهذه الكلمة يقولها من وحَّد الله عَزَّ وَجَلَّ, ما امتنع منها إلا الكافر والمشرك.

وقد يقولها المشرك لفظًا ويخالفها معنًى؛ كعباد القبور, يقولون هذه الكلمة لفظًا ويخالفونها معنًى.

بمعنى: أنهم يقولون: لا معبود بحق إلا الله ويتعبدون لغير الله, يسجدون للقبر ويدعو القبر ويسأله تفريج الكروب, ويقول ادعو الله لي, فيستشفع به إلى الله؛ فيجعل واسطة بينه وبين الله, فيخالفها معنًى.

بمعنى: أنه يقول: (لا إله إلا الله) باللفظ: لا معبود بحق إلا الله, ويفعل الأفعال التي تخالفها؛ بمعنى: أنه يتعبد لغير الله.

فلابد أن الإنسان يقول هذه الكلمة معتقدًا معناها عاملًا بمقتضاها.

ومن الفوائد: أن السماوات سبع.

لذلك قال: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ» .

وقد ورد في غير آية من القرآن الكريم ذكر ذلك.

قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[الطلاق: ١٢].

فالسماوات سبع.

ومن الفوائد: أن السماوات لها عامر.

والسماوات يعمرها الملائكة عَلَيْهِم السَّلاَم, الملائكة يعمرون السماوات بعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ.

والعمارة هنا معنوية.

ولذلك السماوات مليئة بالملائكة, فكل سماء لها ملائكة, وسيأتينا في الحديث: "أن جبريل إذا مر على كل سماء يقول ملائكته: ماذا قال ربنا يا جبريل؟".

فالسماوات مليئة بالملائكة.

ولذلك جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ» .

فهذا يدلك على أن السماوات مليئة بالملائكة.

ومن الفوائد: أن الله عَزَّ وَجَلَّ في العلو؛ لأنه قال: «غَيْرِي».

فالسماوات في العلو, واعلم أن ما علاك فهو سماء, فالله عَزَّ وَجَلَّ فوق سبع سماوات, وفوق العرش, مستوٍ عليه عَزَّ وَجَلَّ بائن من خلقه.

فالله عَزَّ وَجَلَّ فوق سبع سماوات؛ كما جاء في حديث زينب رَضِي اللهُ عَنْهَا أنها قالت: "**زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنّ وَزَوَّجَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ**". والحديث في صحيح مسلم.

فالله عَزَّ وَجَلَّ في العلو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يحيط به شيء من خلقه, وليس فيه شيء من خلقه, بل هو بائن من خلقه, عالٍ على الخلق.

ومن الفوائد: أن الميزان له كفتان.

لأنه قال: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فِي كِفَّةٍ».

والميزان حق الذي توزن به الأعمال.

قَال المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

وَللتِّرمِذيُّ وحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

في هذا الحديث الذي يرويه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال:

«يَا ابْنَ آدَمَ»؛ يعني: يا بني آدم.

«لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ»؛ يعني: ما يقارب الأرض أو ملؤها, «خَطَايَا»؛ يعني: ذنوب وسيئات, «ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا»؛ يعني: لم تعبد معي غيري, «لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»؛ يعني: لجازيتك على ما عملت بمغفرتي.

هذا يدلك على فضل توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: **وَللتِّرمِذيُّ وحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ.**

يعني: أنس سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول هذا الحديث.

يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:»؛ هذا الحديث يسمى حديث قدسي, وهو من الله عَزَّ وَجَلَّ لفظًا ومعنًى.

وبين الحديث القدسي والقرآن فروق:

منها: أن الحديث القدسي لا يُتعبد بتلاوته, والقرآن الكريم يُتعبد بتلاوته.

ومنها: أن القرآن متواتر, {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ}[فصلت: ٤٢], والحديث القدسي منه صحيح ومنه ضعيف, قد يكون فيه ضعف, بعض الأحاديث ضعيفة.

ومنها: أن القرآن الكريم مُعجز بلفظه ومعناه, بخلاف الحديث القدسي.

قال الله تعالى: «يَا ابْنَ آدَمَ».

آدم: هو أبو البشر.

وسُمي (آدم) قيل: من الأُدم وهو السُّمرة, فكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يميل إلى السُّمرة, آدم هو أسمر اللون.

وقيل: لأنه خُلق من أديم الأرض؛ يعني: من جميع الأرض.

وآدم عَلَيْهِ السَّلاَمَ هو نبي وليس رسول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمَ؛ لأن الرسل من نوح عَلَيْهِ السَّلاَمَ فما بعد.

قال عَزَّ وَجَلَّ :«يَا ابْنَ آدَمَ».

الابن: هو ما يكون من الصلب, وذلك أن جميع البشر أبناء آدم, وآدم هو أبو البشر.

قال: «لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ»؛ يعني: ما يقارب الأرض.

والأرض: هي التي يمشي عليها الإنس والجن والمخلوقات.

«لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ»؛ يعني: قريب منها, «خَطَايَا»؛ يعني: ذنوب.

والخطأ هنا يعني: الذنب المتعمد؛ لأن

الخاطئ: هو المذنب عن عمد.

والمخطئ: هو الواقع في الذنب بلا عمد.

فالمخطئ لا ذنب عليه, إذا فعل الإنسان ذنب مخطئ ما قصد ولكن وقع في ذنب, فهذا لا شيء عليه.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن المؤمنون : }رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا{[البقرة: ٢٨٦]؛ يعني: وقع منا بلا عمد.

وأما الخاطئ فهو الذي يتعمد الذنب.

فقال: «بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا»؛ يعني: ذنوب, «ثُمَّ لَقِيتَنِي»؛ يعني: بعد ذلك, يعني: لاقى العبد ربه عَزَّ وَجَلَّ لأنه يُبعث فيحاسبه الله عَزَّ وَجَلَّ ,«لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا»؛ يعني: لا تشرك بي شيئًا؛ لا شرك أكبر ولا أصغر, لا شرك كثير ولا قليل.

«لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا»؛ لأن (شَيْئًا) هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم؛ فيدخل فيها الشرك الأكبر والأصغر والخفي وكثير الشرك وقليل الشرك, شرك الأقوال وشرك الأفعال, كل الشرك داخل فيها.

«لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»؛ يعني: لأتيتك بما يقارب الأرض مغفرة؛ بمعنى: ستر لذنبك وتجاوز عنه؛ لأن من مات على التوحيد ولم يشرك بالله شيئًا فإن الله عَزَّ وَجَلَّ وعده أن يغفر ذنوبه.

وفي هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يروي عن ربه عَزَّ وَجَلَّ ويسمى الحديث القدسي؛ لأنه قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ», فهذا الحديث قاله الله عَزَّ وَجَلَّ, تكلم به الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن البشر جميعهم بنو آدم؛ لأنه قال: «يَا ابْنَ آدَمَ», فهذا داخل فيه جميع بني آدم.

ومن الفوائد: فضل التوحيد؛ بحيث أن الإنسان يموت ولم يقع منه لا شرك أكبر ولا أصغر ولا خفي ولا كثير ولا قليل, حتى لو وقع منه ذنوب فإنه من أعظم أسباب المغفرة التوحيد.

ولذلك جاء عند الترمذي بسند لا بأس به من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص, قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلّ سِجِلٍّ مَدُّالْبَصَرِ،ثُمّ يَقُول لَهُ: أَتُنْكِر شَيْئًا مِن هَذَا؟أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟فَيَقُولُ: لايَارَبِّ،فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌأَوْحَسَنَةٌ؟فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ وَيَقُولُ: لايَارَبِّ،فَيَقُولُ: بَلَىٰ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ لَهُ بِطَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ! فَيَقُولُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، قَالَ: فَلَا يَثْقُلُ اسْمَ اللهِ شَيْءٌ».

فهذا يدلك على فضل من مات على التوحيد مُخلصًا لله.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالىٰ: }إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{[النحل: ١٢٠].

وقال: }وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ{[المؤمنون: ٥٩].

قَال الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رحمه الله : **باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.**

مناسبة هذا الباب للذي قبله: أنه لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب أعقب بهذا الباب الذي فيه تحقيق التوحيد وتخليصه وأنه له فضل؛ وذلك أنه إذا حقق التوحيد وصفَّاه فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ففي هذا الباب بيان فضل من حقق التوحيد؛ بمعنى: أتى به على ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ .

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من حقق التوحيد.**

تحقيق التوحيد: هو تخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

وتحقيق التوحيد على درجتين:

الأول: مستحب, وهو: أن يكون الإنسان كلامه لله وسكوته لله وفعله لله وإمساكه لله, وأن يأتي بالتوحيد خالصًا عن الشرك مصفًّى؛ بحيث يخلصه عن الشرك الأكبر والأصغر والخفي, وعن البدع والمعاصي, ويأتي بجميع الوجبات وينتهي عن جميع المحرمات. هذا تحقيق مستحب.

الثاني: تحقيق واجب, وهو: أن يُخلِّص توحيده لله عَزَّ وَجَلَّ من الشرك والبدع والمعاصي, وأن يأتي بجميع الواجبات وينتهي عن جميع المحرمات. هذا واجب.

قال: **باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.**

يعني: أن من حقق التوحيد فإنه يدخل الجنة بغير حساب؛ بحيث أنه لا يُحاسب بل يدخل الجنة مباشرة.

قال المؤلف: وقول الله تعالى:{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[النحل: ١٢٠].

في هذه الآية الكريمة يبين الله عَزَّ وَجَلَّ ما كان عليه خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلامَ أنه كان مطيع لله, وكان مائلًا عن الشرك مُقبلًا على الله عَزَّ وَجَلَّ, وأنه فارق المشركين بقوله وبدنه وقلبه.

قال الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ.}

(إِنَّ): حرف توكيد.

(إِبْرَاهِيمَ): هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلامَ أبو الأنبياء, إبراهيم بن آزر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامَ كان خليل الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: {كَانَ أُمَّةً}؛ يعني: قدوة في الخير يُقتدى به, فالأُمة هنا هو القدوة الذي يُقتدى به.

{كَانَ أُمَّةً قَانِتًا}؛ يعني: مطيعًا, ويتوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بقلبه وجوارحه, مطيعًا لله عَزَّ وَجَلَّ.

{لِلَّهِ حَنِيفًا}؛ يعني: مائل عما سوى الله, مُقبل على الله عَزَّ وَجَلَّ.

{وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}؛ يعني: في هذا توكيد أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلامَ فارق المشركين مفارقة مطلقة بالقلب وبالقول وبالبدن.

بالقول؛ الدليل: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ}[الزخرف: ٢٦]؛ فتبرَّأ منهم.

بالقلب؛ الدليل: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا}[الأنعام: ٧٩].

بالبدن؛ الدليل: }وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{[العنكبوت: ٢٦]؛ فهاجر ببدنه, فخرج من عند قومه, ففارق المشركين مفارقة كاملة.

ففي هذه الآية الكريمة أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَم كان مفارق للمشركين.

وفيه أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَم كان محقق للتوحيد.

وقال: }وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ{[المؤمنون: ٥٩].

(الَّذِينَ): اسم موصول يدل على العموم.

}وَالَّذِينَ هُمْ{, و(هُمْ): ضمير فصل يدل على التوكيد ويدل على الحصر.

}وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ{؛ يعني: بخالقهم ورازقهم ومعبودهم.

}بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ{؛ يعني: لا يعبدون معه غيره, بل يتوجهون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالتعبد.

وهنا قدَّم الربوبية على الألوهية لأن من آمن بأن الله عَزَّ وَجَلَّ ربه يلزم من ذلك أن يتوجه له بالعبادة.

فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

ففي هذه الآية الكريمة أن المؤمنين قد حققوا التوحيد لربهم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَىٰ الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟ فَقُلتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال في هذا الحديث: **عَنْ حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟ فَقُلتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ** .

في هذا يذكر حصين بن عبد الرحمن التابعي أنه كان عند سعيد بن جبير, سعيد بن جبير أحد الفقهاء السبعة.

قال: **أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟**

الكوكب: هو النجم.

انقضَّ يعني: سقط.

والساقط: هو شهاب من النجم, وليس هو النجم بذاته؛ لأن بعض النجوم أكبر من الأرض بكثير, ولكن يخرج من هذا النجم شهاب.

قال: **أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟**

البارحة: هي الليلة الماضية, يقال: قبل الزوال رأيت الليل, ويقال: بعد الزوال رأيت البارحة.

فَقُلتُ: أَنَا.

قلت: أنا رأيت هذا الكوكب, يعني من؟ عبد الرحمن بن حصين.

ثم قال: **ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ.**

يعني: رأيت الكوكب ولكن لم أكن في صلاة, ما كنت أُصلي.

وَلَكِنِّي لُدِغْتُ.

يقول: ما كنت في صلاة ولكن, لكن: للاستدراك.

وَلَكِنِّي لُدِغْتُ.

واللدغة: هي قرصة ذوات السموم؛ كالعقرب والحيَّة.

قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟

يعني: ما صنعت لتلك اللدغة؟

قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ.

ارتقيت يعني: طلبت من يرقيني لهذه اللدغة بحيث ينفث ويقرأ عليه شيء من القرآن أو الأدعية الثابتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فينفث عليه.

قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟

يعني: لماذا صنعت هذا؟

قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ.

يقول: فعلت ذلك لعلم بلغني عن الشعبي.

قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الحُصَيْبِ.

بريدة بن الحصيب صحابي من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ.

في هذا الحديث نفي ولكن المراد أن لا رقية أفضل وأحسن للعين والحُمة من القراءة عليه, هذا معنى الحديث, وليس المقصود أنه لا يصح الرقية إلا لعين وحُمة, بل الرقية لأمور كثيرة, للسحر وللعين وللأمراض البدنية, كل هذا يصح له الرقية, ولكن أحسن ما يكون للعين والحُمة أن تُرقى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**».

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنهُمْ. قال: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**». ثم قامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنهُمْ. فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

قال الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ**.

قَالَ: **قَدْ أَحْسَنَ** -يعني يقول: سعيد بن جبير- **قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ**؛ إلى ما سمع من العلم.

قال: **وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ**.

ابن عباس هو ابن عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: **وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ**: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ**».

عُرضت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمم, يعني: عرضت جماعات جماعات.

وهل هذا العرض في المنام أو عُرضت عليه في الإسراء والمعراج؟

قيل: الأول, وقيل: الثاني.

ولكن في الحديث أنها عُرضت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فإن كان في المنام فرؤيا الأنبياء حق, وإن كان في الإسراء والمعراج فهو عُرضت عليه كما يكونون يوم القيامة, يعني: عُرضت عليه أي: جماعات.

الصفة الله أعلم بها, ولكن عُرضوا عليه.

قال: «عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ»؛ يعني: الجماعة ما دون العشرة.

«وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ»؛ يعني: النبي يأتي ومعه رجل والآخر معه رجلان.

«وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»؛ يعني: يأتي النبي وليس معه أحد, ما اتبعه أحد.

«إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ», والسواد: يعني: الجماعة الكثيرة.

«سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي»؛ يعني: ظننت أن هؤلاء الجماعة الكثيرة أُمتي.

«فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ»؛ يعني: هؤلاء الذين تراهم موسى وقومه.

«فَنَظَرْتُ»؛ يعني: في الأفق الآخر, «فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ»؛ يعني: سواد عظيم أيضًا, وقد جاء أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظر في سواد أكثر من الأول.

«فَقِيلَ لِي: فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ»؛ يعني: مُتبعوك, «وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا»؛ يعني: مع هؤلاء الذي رآهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعون ألفًا, «يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»؛ يعني: يدخلون بغير حساب, بحيث أنهم لا يُحاسبون؛ لأنهم حققوا التوحيد ولا عذاب عليهم.

ثُمَّ نَهَضَ -النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- **فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ**؛ فدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند هذا الكلام.

فَخَاضَ النَّاسُ؛ يعني: تذاكروا, والخوض: هو الإفضاء في الشيء, يعني: يتفاوضوا من هم هؤلاء؟ ما عسى أن يكونوا؟

فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ, فَقَالَ بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يعني: فازوا بهذه المنقبة بصحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ بَعْضُهُم -يعني: بعض الذين تكلموا-: **فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ**؛ أي: وُلد في الإسلام ولم يشرك بالله شيئًا.

قال: **فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ**؛ يعني: غير هذا الشيء.

فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ؛ يعني: أخبروه بما تكلموا فيه.

فعند ذلك أخبرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, قال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ» .

«لَا يَسْتَرْقُونَ»؛ يعني: لا يطلبون من يرقيهم لتوكلهم على ربهم.

«وَلَا يَكْتَوُونَ» ؛ يعني: لا يطلبون من يكويهم, والكي: هو حرق الجلد بحديدة أو نحو ذلك, حرق الجلد بحديدة طلبًا للشفاء.

«وَلَا يَتَطَيَّرُونَ», والتطير: هو التشاؤم بمرئي أو مسموع.

«وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يتَوَكَّلونَ», يعني: على الله عَزَّ وَجَلَّ يعتمدون؛ بحيث يفوضون أمرهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ معتمدين عليه, لا يلتفتون عنه سُبْحَانَهُ يمنة ولا يسرة.

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ.

عكاشة هو من المهاجرين الأُول رَضِي اللهُ عَنْهُ وقد مات شهيدًا رَضِي اللهُ عَنْهُ. **فَقَالَ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنهُمْ. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «أَنْتَ مِنْهُمْ».

وفي رواية لمسلم: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ», دعا له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثم قامَ رَجُلٌ آخَرُ؛ يعني: قام رجل آخر من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, **فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ», أي أنه سبقك إلى طلب الدعاء له.

وقيل: أنه «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ», إلى هذه المنقبة؛ بمعنى أنه حقق هذه المراتب. رواه البخاري ومسلم؛ يعني: في الصحيحين.

هذا الحديث طويل وفيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: حرص السلف رَحِمَهُم اللهُ على الإخلاص؛ بحيث أن الإنسان لا يجعل الناس يظنون به خيرًا لم يفعله.

ولذلك حصين بن عبد الرحمن رَحِمَهُ اللهُ قال: **أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ**؛ حتى لا يقال فلان قام يصلي؛ يعني: لما قام من الليل قد يظن ظان أنه قام يصلي, فنفى هذا الشيء قبل أن يتوقع, فهذا يدلك على حرص السلف رَحِمَهُم اللهُ على ألا يُحمد الإنسان بما لم يفعل.

ومن الفوائد: أن عادة السلف قيام الليل.

كيف أخذنا هذه الفائدة؟ لأنه قال: **أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ**, فكان من عادة السلف أنه إذا قام من الليل فإنه يقوم يصلي.

وقد ذكروا عن جارية باعها سيدها لقوم, فنام أولئك القوم حتى قبل صلاة الفجر, فرجعت لسيدها فقالت: أسألك بالله أن ترُدَّني, قال: لماذا؟ قالت: لم يقوموا حتى أذان الفجر, ما قاموا يصلون من الليل.

فكان السلف رَحِمَهُم اللهُ يقومون الليل, كان من عادة السلف قيام الليل.

وفيه أن الإنسان يحرص على قيام الليل.

ومن الفوائد: أن لدغة السام يُقرأ عليها.

إذا لُدغ الإنسان بمعنى قرصته عقرب –مثلًا– فإنه يقرأ عليها الفاتحة والمعوذات وآية الكرسي أيضًا؛ فإن هذا من أسباب الشفاء.

لذلك حصين بن عبد الرحمن قرأ على اللدغة, وأخبر أن بريدة بن الحصيب ذكر ذلك أنه قال: **لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**.

ومن الفوائد: أن العين حق؛ ولذلك قال: **لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**.

والعين فيها مسائل:

منها تعريف العين, العين: هي أن ينظر الإنسان فيُعجب بالشيء ويكون قلبه قد خالطه شيء من الحسد, فينظر إلى الشيء فيخرج منه نفس , تساعدها الأرواح الشيطانية, وقد تصيب المعيون فيمرض بإذن الله.

هذا تعريف العين.

والعين من حيث هي حق, وقد دل على حقيقة العين الكتاب والسنة:

فأما الدليل من الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾[القلم: ٥١].

وذلك أن المشركين كانوا ينظرون إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيحدُّون فيه النظر, فيكاد يسقط من أعينهم بسبب العين, كما ذكر ذلك بعض السلف.

وأما الدليل من السنة: فمنها ما جاء في صحيح مسلم من حديث ابن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ».

وجاء عند ابن أبي عاصم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أكثر مَا يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاء اللهِ وَقَدَرِه وَكِتَابِه بِالأَعْيُن» .

فالعين حق.

وفي حديث عامر بن ربيعة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ، أَوْ مِنْ نَفْسِهِ، أَوْ مِنْ مَالِهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيُبَرِّكْهُ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ» .

أما من حيث الوقاية من العين, يعني سبب الوقاية من العين.

أسباب الوقاية من العين كثيرة :

منها: أن يتوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾[التوبة: ٥١].

فيعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ ويفوض أمره إليه.

ومنها: أن يتعوذ بالله من شر كل ذي عين, يستعيذ بالله, يعتصم بالله من شر العين.

ومنها: أن يقرأ الإنسان الأوراد؛ كأذكار الصباح والمساء ويتحصن؛ كأن يقرأ مثلًا المعوذات, وأيضًا يقرأ الأذكار التي السبب في التحصين, سبب أن يحصنه الله عَزَّ وَجَلَّ من هذه العين.

أما إذا أُصيب الإنسان بعين.

فلا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يعرف من هذا الذي أصابه بعين؛ فإنه يأخذ من أثره ثم يغتسل به.

كما جاء في حديث عامر بن ربيعة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره أن يغتسل لسهل بن حنيف, فاغتسل له, توضأ وغسل داخل إزاره, فصُب على عامر فقام, كأن ما نشط من عقاب.

ويعرف الإنسان إذا تكلم الشخص عنده, أو سمع أناس يقولون فلان قال فيك كذا, أو نحو ذلك.

الحالة الثانية: ألا يعرف الإنسان من الذي تسبب في إصابته بالعين.

فهنا عليه أن يأخذ بما ورد أنه سبب في الشفاء من هذه العين.

منها: دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ أن يشفيه.

ومنها: أن يقرأ على نفسه, يرقي نفسه؛ كما في هذا الحديث قال: "لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ".

وأحاديث الرقية كثيرة.

ولذلك جاء في صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك أنه قال: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**».

وأيضًا جاء في "صحيح البخاري": أن الصحابة رقوا رجل لُدغ فقرأوا عليه, قرأ عليه الصحابي بالفاتحة.

أيضًا من مسائل العين: أن الناس في العين على أقسام ثلاثة:

منهم: من غلا في العين وأكثر من ذكرها ومن تحديث نفسه بها.

وهذا مُخطِئ, وهو سبب لضعف التوكل؛ لأن الإنسان إذا خاف من شيء فقد يضعف توكله.

وفيه أيضًا: أنه قد يتوهم أنه مصاب بعين وليس فيه شيء.

وفيه: أنه قد يصاب؛ لأن إذا ضعف التوكل أصبح الإنسان عُرضة للإصابة بالعين, فإذا زاد التوكل أصبحت العين بعيدة عنه بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ.

القسم الثاني من الناس: من نفى العين.

قال: لا يوجد شيء اسمه العين, وكل ما ذكر في العين فليس بصحيح, وهذا -نسأل الله العافية- ضلال وفيه تكذيب للنصوص, فقد ثبت بالكتاب والسنة أن العين حق, وأنه قد يصاب الإنسان بعين.

القسم الثالث من الناس من صدق بالعين وعتقد أنها قد تصيب الأنسان ولاكن اعتمد على الله وعلم أنه لن يصيبه الا ماكتب الله له وأخذا بالأسباب المشروعة وهولاء أهل الحق

هذا من مسائل العين.

أيضًا من مسائل العين: أن الإنسان عليه أن يتوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ ويأخذ بالأسباب المشروعة ولا يحدِّث نفسه بها؛ لأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

ومن مسائل العين أيضًا: أن الإنسان إذا رأى من نفسه أو من أخيه شيء فعليه أن يدعو بالبركة, يقول: بارك الله له, أو يقول: ما شاء الله بارك الله فيه.

والدليل: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ{[الكهف: ٣٩].

وعند النسائي من حديث عامر بن ربيعة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ أَخِيهِ شَيْئًا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ». هذا الحديث صححه الشيخ الألباني.

وأيضًا في الحديث عند مالك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ أَلَّا بَرَّكْتَ»؛ يعني: دعيت له بالبركة.

وأيضًا مسألة: إذا أُصيب الإنسان بعين فمات بسبب العين.

فقد ذهب بعض العلماء: أنه يُقتص من الشخص؛ الذيأصابه بالعين لأن بعض الناس قد يتحكم في عينه

وأيضًا قال بعض العلماء: أنه من عُرف بأنه صاحب عين وحصل منه إيذاء فإنه يُسجن ويُبعد عن المسلمين لئلا يؤذيهم.

مسألة أخيرة: أن الإنسان عليه أن يتقي الله عَزَّ وَجَلَّ فيما ينظر إليه؛ لأنه قد يتسبب في إصابة إنسان بعين فيمرض, وقد يموت, بسبب عينه فعليه أن يتوب الى الله تعالى.

ومن الفوائد: حُسن تعليم سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ, وذلك أنه ذكر له حديث فيه أن طلب الرقية له فضل.

ولذلك ما قال: اترك الرقى, لكن ذكر له فضل في حديث: أن سبعون ألف يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب, وذكر له الصفات حتى يتركها من نفسه.

وهذا يدلك على فضل علم السلف رَحِمَهُم اللهُ .

ومن الفوائد: أن بعض الأنبياء قد يأتي يوم القيامة ما تبعه أحد.

وهذا فيه تسلية للداعية إلى الله عَزَّ وَجَلَّ, إذا ما أحد أخذ بقوله فلا يحزن, ففيه من هو أفضل منه يأتي يوم القيامة ولم يتبعه أحد, هو أفضل منه لأنه نبي, ولا أفضل من الرسل والأنبياء.

ففيه تسلية للداعية إلى الله عَزَّ وَجَلَّ, لأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الله, أنت عليك أن تدعو إلى الله والله عَزَّ وَجَلَّ يهدي من يشاء, أنت تبين والله عَزَّ وَجَلَّ يهدي, أنت تهدي هداية بيان والله عَزَّ وَجَلَّ يهدي هداية إلهام وتوفيق, وشتان بين الهدايتين.

ومن الفوائد: كثرة أتباع موسى عَلَيْهِ السَّلاَم.

ولذلك لما نظر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا سواد عظيم, فقيل: هذا موسى وقومه.

فأتباع موسى عَلَيْهِ السَّلاَم كثير جدًا؛ لذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظن أنهم أُمته لكثرتهم.

ومن الفوائد: كثرة وفضل أتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فأتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرون ولهم مزية في عملهم.

ولذلك هذه الأمة لها فضل من حيث الكثرة, ولها فضل من حيث الكيفية؛ وذلك: **"أن النبي نظر فإذا سواد عظيم"**, وجاء في الحديث الآخر: **"أنه نظر للأُفق فإذا سواد عظيم, فنظر إلى الأُفق الآخر فإذا سواد عظيم قد سد الأفق"**.

هذا من حيث الكثرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, أكثر الأنبياء تبعًا.

ولذلك جاء في الحديث الصحيح أنه قال: «وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا».

وجاء في الصحيح: أن الصحابة قالوا : «قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»؛ يعني: نصف أهل الجنة.

فيدلك على كثرة هذه الأمة أتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأيضًا في الكيفية؛ بحيث أن الصفات هم أفضل.

والدليل: هذا الحديث: **"أن سبعون ألف يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب, وهؤلاء السبعون مع كل ألف سبعون ألف"**.

لما جاء عند أحمد بسند قواه الذهبي وحسنه ابن كثير, عن أبي أمامة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَعَدَنِي رَبِّي سُبْحَانَهُ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ».

والحديث لا يقل عن درجة الحسن.

فهم أكثر من حيث العدد وأفضل من حيث الصفة.

ومن الفوائد: أن الإنسان له يسترقي وأنه مشروع.

وهنا فائدة: عندنا مسترقي وراقي ومرقي.

هل بينهما فرق؟ نعم.

المسترقي: طالب, وهو يطلب أن يُقرأ عليه, وهو المقصود في هذا الحديث.

الثاني: راقي: وهو من يقرأ على المريض, وهذا غير داخل في الحديث لأن هذا محسن, هذا فعله حسن.

الثالث: مرقي: وهو الذي يُقرأ عليه بغير طلب, وهذا غير داخل في الحديث.

فالذي يدخل في هذا الحديث هو المسترقي فقط.

ولذلك المسترقي السين والتاء تدل على الطلب؛ يعني: يطلب أن يقرأ عليه؛ وإذا طلب من أحد فإنه غالبًا يلتفت قلبه لهذا السبب؛ فيكون سبب في ضعف التوكل.

وأما الراقي فهو محسن.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقى بعض أصحابه, وقال: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ».

أيضًا المرقي أن يُرقى عليه ولا يطلب, فهذا لا يدخل في الحديث لأنه يُقرأ عليه وهو لم يطلب ذلك, فالغالب أن قلبه ما يلتفت.

والدليل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقاه جبريل, وكان يرقي الحسن والحسين.

فإذا قرأ عليك شخص وأنت لم تطلب فهذا لا بأس به.

ومن الفوائد: فضل ترك الكيِّ.

والكيِّ تقدم أنه إحراق المكان المريض بحديدة ونحو ذلك طلبًا للشفاء.

وترك الكيِّ أفضل؛ لأن العرب كانوا قد يتعلق بعضهم بالكيِّ, يرى أنه سبب في الشفاء, يعني: قد يلتفت قلب بعض الناس إلى الكيِّ؛ ولذلك قد يُضعف التوكل, فيلتفت قلبه عن الله عَزَّ وَجَلَّ وقد يضعف توكله.

والكيِّ من حيث هو ورد فيه النهي عنه بدون تحريم.

ولذلك جاء في صحيح البخاري: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَأَنَا أَنْهَىٰ أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ» .

وورد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعل, فقد كوى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ بض أصحابة.

وأيضًا ورد الثناء على تركه, كهذا الحديث.

وورد فيه الإباحة.

ولذلك الكيِّ من الأسباب, ولكن تركه أفضل, وفعله إما أن يكون مباح وإما أن يكون تركه أولى.

لذلك بعض العلماء يرى أنه مكروه, ولأن فيه إحراق بالنار.

ومن الفوائد: أن الجامع لهذه الصفات هو التوكل على الله؛ بحيث أن الإنسان إذا اعتمد على الله ولم يشوب هذا التوكل شيء من المُنقصات؛ فإن هذا سبب أن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ومن الفوائد: فضل عكَّاشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ولذلك هو من السبعين ؛ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ».

ومن الفوائد: أن الرجل الثاني لا يصح ما قيل فيه, أنه منعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه كان منافق هذا خطأ ما يصح.

والظاهر –والله أعلم-: أنه لا يصح؛ وذلك لوجهين:

الوجه الأول: أنه لا يطلب مثل هذا إلا من صدق, يريد دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب, والمنافق ما يُصدِّق أصلًا, فما يطلب هذا الطلب إلا من صدق.

الوجه الثاني: أن الأصل في الصحابة العدالة, فلا يُظن بأحدهم أنه منافق بدون دليل.

فلذلك الصحابة الأصل فيهم العدالة, فلا يجوز أن إنسان يعتقد في صحابي غير العدالة, وقد نُقل الإجماع على عدالة الصحابة جميعًا, الأصل في الصحابة العدالة والصدق والأمانة والاعتدال.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب الخوف من الشرك

وقول الله تعالىٰ: }إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ{[النساء: ٤٨].

وقال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامَ: }وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ{[إبراهيم: ٣٥].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: **باب الخوف من الشرك.**

والخوف: هو اضطراب القلب من توقع شيء مكروه.

هذا هو الخوف عرَّفوه بهذا, هو: اضطراب القلب من توقع وقوع شيء مكروه.

ويأتينا باب إن شاء الله عن الخوف وأنواعه.

قال: **باب الخوف من الشرك.**

يعني: أن يخاف من الشرك.

وقبل هذا مناسبة هذا الباب للذي قبله–يعني الأبواب التي مضت–: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما ذكر وجوب التوحيد وفضله وتحقيقه أعقب ذلك بالخوف من الشرك, حتى يحذر الإنسان من الشرك؛ لأنه لابد أن يعرف الإنسان الشر لتوقِّيه, تعرف الشر لا لفعله ولكن لتحذر منه.

قال:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشر ولكن لتوقِّيه ومن لا يعرف الشَّر قد يَقَعْ فيهِ

ويقول القائل أيضًا: "وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ".

وقال حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ" :كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ،وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي".

فلابد للإنسان أن يعرف الشر لا للشر ولكن ليحذره.

نعم نقول: الخوف: هو اضطراب القلب من توقع شيء مكروه.

واعلم أن هذه معاني القلبية لا يمكن أن تُحدَّ بِحدٍّ؛ لأنها ليست شيء ملموس, وإنما هي معاني لا يمكن أن تُحدَّها بحدٍّ.

والتعريف الماضي هو مجرد تقريب للمعنى.

قال: **الخوف من الشرك**؛ يعني: يخاف من الشرك.

والشرك لغة هو: النصيب.

يقال: فلان شريك لفلان؛ يعني: له نصيب معه.

وأما شرعًا فهو: أن يصرف شيء مما اختص الله عَزَّ وَجَلَّ به لغيره, أو يساوي بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين غيره؛ إما في الربوبية, وإما في الألوهية, وإما في الأسماء والصفات.

والشرك من حيث هو على نوعين:

- **الأول:** شرك عام, وهو: أن يُشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ إما في ربوبيته, وإما في ألوهيته, وإما في أسمائه وصفاته.

- فمثال الشرك في الربوبية: كأن يعتقد أن غير الله يخلُق, أو يعتقد أن غير الله يُحيي ويُميت. فهذا شرك في الربوبية.

- الثاني الشرك في الألوهية: كأن يصرف عباده مما اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بها لغيره, كما لو ذبح لصاحب قبر, أو سجد لصنم, أو دعا ميت؛ فقد وقع في شرك الألوهية.

- الثالث شرك الأسماء والصفات: كأن يعتقد أن لله مثيل في أسمائه أو صفاته, فيقول: لله مثيل في صفة كذا, أو يقول: يد الله مثل أيدينا, أو سمع الله مثل أسماعنا؛ فهذا شرك في الأسماء والصفات.

هذا من حيث العموم.

- **الثاني:** الشرك من حيث الخصوص, وهو شرك التعبد, وهو: أن يصرف شيء من أنواع العبادة التي اختص الله بها لغيره.

الشرك في التعبد, وهو: أن يصرف شيء من أنواع العبادة التي أختص الله عَزَّ وَجَلَّ بها لغيره.

وإن شئت أن تقول: هو أن يجعل لله ندًّا, يدعوه ويرجوه ويحبه ويخافه, كما يرجو الله ويحب الله ويدعو الله ويخاف الله.

هذا هو الشرك الخاص, وهذا هو الشرك المراد في هذا الباب.

والنهي عن الشرك أكثر ما يكون الشرك في التعبد؛ لأنه هو الذي حصلت فيه الخصومة بين الأنبياء وأُممهم.

والشرك في التعبد على أقسام ثلاثة:

- **الأول:** شرك أكبر, وهو: أن يصرف نوع من أنواع العبادة التي اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بها لغيره, كما لو ذبح لصاحب قبر؛ فقد وقع في الشرك الأكبر, أو نذر لصاحب قبر, أو سجد لصنم؛ فقد وقع في الشرك الأكبر.
- **الثاني:** شرك أصغر, وهو: ما جاء في النصوص تسميته شرك ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

وقال بعض العلماء: أنه كل وسيلة إلى الشرك الأكبر فهو شرك أصغر.

وهذا فيه نظر, وذلك أن بعض الأعمال وسيلة للشرك الأكبر وليست شرك.

مثل: الصلاة عند القبور, هذه وسيلة لكن ليست بشرك.

فالأقرب -والله أعلم-: أنه ما جاء في النصوص تسميته شرك ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

- **الثالث:** الشرك الخفي, وهو: ما يخفى عن الناس؛ بمعنى: أن الإنسان يشرك في قلبه ولا يظهر على جوارحه.

سُمي خفي لأنه يخفى, ولكن لا يخفى عن علام الغيوب, فيخفى عن الناس ولا يخفى عن الله.

وسيأتينا إن شاء الله أن الرياء ينقسم إلى قسمين: أكبر وأصغر.

والشرك – له مفاسد:

من مفاسد الشرك: أنه تنقُّص لله عَزَّ وَجَلَّ.

فالمشرك مُتنقص لله تعالى؛ ولذلك تجد أن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا ذكر الشرك في القرآن قال: }سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ{[الطور: ٤٣], فيُنَزِّه نفسه.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ادَّعوا فيه الألوهية استغفر الله عَزَّ وَجَلَّ, قال: }أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ{[المائدة: ١١٦]؛ يعني: سبحانك أن يُشرَك بك.

لأن الشرك فيه تنقُّص لله تعالى, فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا يصح التعبد إلا له.

أيضًا من مفاسد الشرك: أنه تكذيب لله, الشرك تكذيب لله.

والدليل على ذلك: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ{[البقرة: ١٦٣]؛ يعني: معبودكم الذي يُعبد بحق ولا يجوز أن تُصرف العبادة لغيره واحد, فإذا صرف العبد العبادة لغير الله فهذا يستلزم تكذيب هذه الآية, ولا محيد عنه.

ومعنى ذلك: أنه يعتقد أن غير الله يجوز أن يُعبد, والله عَزَّ وَجَلَّ نفى هذا, فهو تكذيب لله عَزَّ وَجَلَّ .

أيضًا من مفاسد الشرك: أنه تكذيب لجميع الرسل والأنبياء.

لأن جميع الرسل جاءوا وقالوا لأقوامهم: }اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.{

فمن أشرك فقد كذَّب جميع الرسل.

الرسل قالوا: أنه لا إله إلا الله, وهذا المشرك قال: يوجد إله غير الله.

إذًا: هو كذَّب جميع الرسل.

أيضًا من مفاسد الشرك: أنه تكذيب للملائكة, تكذيب لجميع الملائكة.

الدليل: }شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ{[آل عمران: ١٨].

فجميع الملائكة يشهدون أنه لا معبود بحق إلا الله, والمشرك كذَّب الملائكة.

أيضًا من مفاسد الشرك: أنه تكذيب لجميع العلماء, جميع أُولي العلم.

والدليل: الآية, قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ{[آل عمران: ١٨].

أولو العلم يشهدون أنه لا معبود بحق إلا الله.

هذه مفاسد عظيمة في الشرك.

والشرك الأكبر والأصغر بينهما فروق:

- منها: أن الشرك الأكبر مُحبط لجميع الأعمال, والأصغر يُحبط العمل الذي قارنه إن كان رياء.

- الشرك الأكبر إذا مات صاحبه عليه خلد في النار –نسأل الله العافية-, الشرك الأصغر إذا مات عليه الإنسان ودخل النار بسببه لا يخلد فيها.

- الشرك الأكبر يُحل الدم والمال, الشرك الأصغر لا يُحل الدم ولا المال.

- الشرك الأكبر إذا مات عليه لا يُدعى له ولا يُغسَّل ولا يُكفَّن ولا يُصلى عليه ولا يُقبر في مقابر المسلمين, والشرك الأصغر إذا مات عليه دُعي له وصُلي عليه وغُسل ويقُبر في مقابر المسلمين.

فهذه من الفروق بين الشرك الأكبر والأصغر.

- أيضًا من الفروق: أن الشرك الأكبر إذا مات عليه الإنسان لا يمكن يُغفر له, والشرك الأصغر فيه خلاف.

والأقرب –والله أعلم-: أنه يُلحق بالشرك الأكبر لكنه أصغر.

فالشرك الأصغر أيضًا الظاهر -والله أعلم-: أنه ما يدخل تحت المشيئة؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ عمَّم, قال: }إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ{[النساء: ٤٨].

وقوله: }أَنْ يُشْرَكَ بِهِ{, هنا (أَنْ) وما بعدها في تأويل مصدر تقديره إشراكًا به؛ يعني يدخل فيه جميع الشرك, أكبر وأصغر, خفي وظاهر كثير وقليل, فهو عموم.

وقال بعض العلماء: أنه يُغفر تحت المشيئة.

والدليل: أنه جاء في القرآن آيات فيها عموم -عموم الشرك- والمقصود الشرك الأصغر.

منها قوله تعالى: }يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ{[المائدة: ٧٢].

فهنا الفعل عموم, لأنه دخل في سياق الشرط.

ونُقل الإجماع أن المراد: الشرك الأكبر؛ لأن الجنة لا تُحرَّم إلا على من وقع في شرك أكبر.

قال: **باب الخوف من الشرك.**

وقول الله عَزَّ وَجَلَّ} :إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ{[النساء: ٤٨].

في هذه الآية أن الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر وهو أصدق القائلين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه لا يغفر ولا يتجاوز عمن مات على الشرك, من مات على الشرك فإن الله لا يغفر له.

}وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ{؛ يعني: جميع المعاصي داخلة في الـ(دون), كل المعاصي ما سوى الشرك داخلة فيها دون الشرك.

ولكن هذه المغفرة لمن يشاء, مُقيَّد, وليست لكل من مات على معصية, لا, لمن أراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغفر الله له فهو تحت مشيئة الله.

قال:}إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ.{

}إِنَّ{ هنا توكيد, }لَا يَغْفِرُ.{

و}إِنَّ{ هنا في تأويل مصدر, دخلت على الفعل }لَا يَغْفِرُ{, في تأويل مصدر تقديره إشراكًا به, فهي للعموم, تفيد العموم.

}لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ{؛ لا شرك أكبر ولا أصغر, ولا كثير ولا قليل, ولا قديم ولا جديد, كل الشرك ما يُغفر لمن مات عليه.

}لَا يَغْفِرُ{؛ يعني: لا يتجاوز أن يُشرك به.

}وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ{؛ يعني: ما دون ذلك من الذنوب, جميع المعاصي تحت مشيئة الله, إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ عذَّب العبد ثم أدخله الجنة, وإن شاء غفر له ابتداءً إذا مات على غير الشرك وهو عنده ذنوب.

ثم قال: وقال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ} :وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ{[إبراهيم: ٣٥] .

وقال الخليل: الخليل: هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والخُلة: هي أعلى درجات المحبة.

ولذلك يقولون: أن الخليل: هو من يتخلل القلب.

وقد قال القائل:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا

يعني: تخللتِ قلبي حتى عمَّ القلب.

والخُلة هي أعلى درجات المحبة, وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلامَ خليل الله, ونبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا خليل الله.

قال: وقال الخليل عَلَيْهِ السَّلامَ} :وَاجْنُبْنِي.{

}وَاجْنُبْنِي{؛ يعني: أبعدني, بمعنى: أن اجعلني في جانب بعيد وحيِّز بعيد.

}وَبَنِيَّ{, هل المراد من صُلبي؟ يعني: بنيه عَلَيْهِ السَّلامَ من صُلبه أو من ذريته الذين يأتون بعده؟ قد يُراد الأول وقد يُراد الثاني.

قال: }وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ{؛ يعني: أن نتذلل ونخضع ونعبد الأصنام.

والأصنام: هو كل ما كان على صورة اتُّخذ للعبادة من دون الله عز وجل, كل ما جُعل على صورة؛ كصورة الحيوان, أو صورة الإنسان, أو صورة الطير, أو ما أشبه ذلك, فكل ما جُعل على صورة فهو صنم.

والوثن أعم, الوثن: كل ما عُبد من دون الله, سواءً كان حجر, أو شجر, أو قبر, أو صنم, كل هذا يدخل في الوثن.

والدليل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ».

ففي هذه الآية الكريمة أن الخليل عَلَيْهِ السَّلامَ دعا ربه عَزَّ وَجَلَّ أن يُجنِّبه أن يعبد الأصنام وأن يُجنِّب بنِيه.

وفي هذا أن يكون الإنسان على وجل وخوف من الشرك, فإذا كان الخليل عَلَيْهِ السَّلامَ الذي كسر الأصنام وفارق المشركين, فارق المشركين بقلبه ولسانه وقوله, خاف على نفسه وعلى بنِيه, فكيف بغيره؟! فكيف بمن هو دونه؟!

هذا فيه أن الإنسان يخاف من الشرك ويكون على وجل.

لذلك يقول إبراهيم التيمي: "من يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!".

يعني: إذا كان إبراهيم يخاف على نفسه فكيف لا تخاف أنت؟! فلابد أن تخاف الشرك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي الحديث: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصغرُ» فَسُئِلَ عَنهُ فقالَ: «الرِّيَاءُ».

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه اللهُ:

قال: وفي الحديث: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصغرُ», فَسُئِلَ عَنهُ, فَقَالَ: «الرِّيَاءُ».

رواه أحمد من حديث محمود بن لبيد.

في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاف على الصحابة, وقال: أشد ما أخاف عليكم هو الشرك الأصغر, فسُئل عنه, فقال: الرياء, أن يُبطن الإنسان ما لا يُظهر.

ففي الحديث: أن النبي خاف على سادات الأمة, وخاف عليهم من الشرك الأصغر الذي هو الرياء, وهذا فيه دليل على أن الرياء شرك أصغر.

قال: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ»؛ يعني: معشر الصحابة.

«أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصغرُ», فَسُئِلَ عَنهُ, فَقَالَ: «الرِّيَاءُ».

الرياء مصدر راء, وهو: أن يعمل الإنسان العمل ظاهرًا لله وباطنًا يُحب المدح من الناس.

أو يقال: هو أن يعمل الإنسان العمل لله يريد المدح عليه.

العمل لله, يصلي لله, ويصوم لله, ولكن يريد المدح والثناء من الناس.

والرياء – من أخوف الذنوب؛ لأن النفس تتوق إليه, إلا من عصم الله عَزَّ وَجَلَّ.

لذلك ابن القيم يقول: "أن شرك الرياء هو البحر الذي لا ساحل له".

فمن نجاه الله عَزَّ وَجَلَّ من الرياء فهو على خير عظيم؛ لأن النفس إذا أخلصت ما يكون لها شيء, النفس تحب الثناء وتحب المدح.

والرياء يدخل للإنسان إلا من عصم الله عَزَّ وَجَلَّ.

فخاف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة, ومن دون الصحابة أشد خوف.

فهذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاف على الصحابة.

وفيه دليل على أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يريد الخير لأصحابه ولأمته أيضًا, النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يشفق على الأمة.

أيضًا من الفوائد: أن الإنسان يكون على حذر ووجل من الرياء.

ولكن اعلم أن من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن يسر على عباده, وما يمكن أن يأمر الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء لا يطاق, ما يمكن أن يقول الإنسان: أنا لم أستطع أن أُخلِص عملي, ما يمكن هذا.

والدليل: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ{[الحج: ٧٨].

ما يمكن أن تقول: أني ما أستطيع أن أُخلِص, لا, بعون الله أنك تقدر, إذا يسر الله لك ذلك فإنه يسير على من يسره الله عَزَّ وَجَلَّ عليه.

وأسباب الإخلاص - كثيرة:

- منها: دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ, اسأل الله دائمًا أن يجعلك من الْمُخلصين.

- ومنها: أن تزهد في مدح الناس, ازهد في مدح الناس, لا تنظر مدحوا أو سبُّوا, سواءً مدحوك أو سبُّوك لا تنظر لهذا الشيء, ازهد في مدح الناس.

- ومنها أيضًا: أن يستحضر الإنسان عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

الله عَزَّ وَجَلَّ عظيم جليل, فكيف ترائي الخلق بين يدي ربك عَزَّ وَجَلَّ؟!

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: }وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ{[الزمر: ٦٧].

فلا يصح أن ترائي, والله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أمرك بعبادته.

- ومنها: أن تقرأ النصوص المحذرة من الرياء, النصوص التي فيها التحذير من الرياء؛ لأن الإنسان إذا عرف الشيء كان سبب في أن يتركه.

- ومنها أيضًا: أن يكون للإنسان أعمال خفية, يكون له قيام ليل, ويكون له صيام من النهار, فيكون سبب في البعد عنه الرياء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ». رواه البخاري.

قَالَ الشَّارِحُ وفَقَهُ اللهُ:

قال: وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» .

في هذا الحديث يبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من مات على الشرك الأكبر فإنه داخل النار لا محالة.

قال: وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«مَنْ مَاتَ»؛ يعني: خرجت روحه من بدنه في هذه الدنيا.

«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا» , قد يكون دعاء عبادة, وقد يكون دعاء مسألة.

«وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا», الند: هو المثيل والشبيه؛ بمعنى: أنه جعل لله مساوي, يدعوه ويرجوه ويحبه, كما يدعو الله ويرجو الله ويحب الله, فيجعل لله ندًّا في التعبد, فإذا كان كذلك دخل النار.

قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» .

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن الإنسان ما دام أنه في الدنيا فإنه يمكنه أن يتوب, حتى لو كان من الشرك الأكبر؛ فإنه ما دام في الدنيا فإن باب التوبة مفتوح.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ{[الأنفال: ٣٨].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ».

لما أتى عمرو بن العاص رَضِي اللهُ عَنْهُ وأراد أن يُسلِم, فمد يده إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم كفَّ عمرو يده, فقال: «مَالَكَ يَا عَمْرُو؟», قال: يا رسول الله أَشْتَرِطَ أَنْ يُغْفَرَ لِي, قال: «يا عَمْرُو إِنَّ الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ».

فإذا كان الإنسان في الحياة فإنه له أن يتوب, فإذا تاب تاب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه.

ومن الفوائد: أن الإنسان قد يجعل لله ند, ولكن هذا الند في التعبد وليس في الخَلْق والرزق, حتى المشركين ما كانوا يعتقدون أن غير الله يخلُق أو يُوجِد من العدم, ما كانوا يعتقدون هذا, ولكن كانوا يحبون غير الله كحب الله, ويدعون غير الله كدعاء الله؛ ولذلك يجعلون لله أنداد مُثلاء.

ومن الفوائد: أن من مات على الشرك دخل النار, وهذا مقطوع به إذا كان على الشرك الأكبر فدخول النار حتمًا.

وقد دل على ذلك الكتاب والسنة:

أما الدليل من الكتاب: قال تعالى: }إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ{[المائدة: ٧٢].

}وَمَأْوَاهُ النَّارُ{, ما يمكن أن يكون إلا إلى النار –نسأل الله العافية–.

وأيضًا الدليل من السنة: هذا الحديث, قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو لله نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» .

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولمُسلم عن جابر رَضِي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

قال: ولمُسلم عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

في هذا الحديث أن الإنسان إذا مات على التوحيد فإنه من أهل الجنة, إما ابتداءً وإما بعد ما يأخذ حظه من العذاب.

فإن مات على إيمان وعمل صالح فإنه يدخل الجنة ابتداءً, وإن مات على الإيمان وعنده معاصي وكبائر وذنوب فهذا تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذَّبه ثم مآله إلى الجنة, وإما أن يُدخله الله عَزَّ وَجَلَّ ابتداءً بأن يغفر له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويُدخله الجنة.

فإذا مات على التوحيد فمآله إلى الجنة, وأيضًا إذا مات على الشرك فإن مآله إلى النار, ولا يمكن أن يكون له طريق إلا إليها -نسأل الله العافية-.

قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا», (شَيْئًا): نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم.

يعني: مات ولم يشرك بالله شركًا أكبر ولا أصغر, ولا خفي ولا ظاهر, ولا قليل ولا كثير؛ لأنه قال: «شَيْئًا», (شَيْئًا): نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم.

«مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»؛ يعني: مات وهو موحد قد مات على التوحيد الخالص فإنه من أهل الجنة.

«وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا», (شَيْئًا): نكرة هنا, أيضًا يشمل الشرك الأكبر أو الأصغر, أو الكثير أو القليل, قال: «دَخَلَ النَّارَ».

ولكن إذا كان شرك أصغر فإنه لا يخلد في النار إذا دخلها -كما تقدم-, وإن كان أكبر فإنه يخلد فيها -نسأل الله العافية-.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: فضل الموت على التوحيد.

من مات على التوحيد فقد مات على خير عظيم؛ لأن مآله إلى الجنة, من مات موحد فمآله إلى الجنة, إما ابتداءً, وإما بعد أن يأخذ شيئًا من العذاب إن كان يستحق ذلك ولم يُغفر له.

ومن الفوائد: أن من مات على الشرك أن مآله إلى النار, إن كان أكبر خالدًا مخلدًا فيها إلى ما لا نهاية.

وفي هذا على الإنسان أن يكون على خوف ووجل من الشرك؛ لأن إذا مات على الشرك فإنه إلى النار ويخلد فيها.

وسيأتينا إن شاء الله كلام المؤلف من أنواع الشرك, سنُفصِّلها إن شاء الله في الأبواب القادمة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالىٰ: }قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{[يوسف: ١٠٨].

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه اللهُ:

قال المؤلف: **باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.**

مناسبة هذا الباب: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما تكلم عن وجوب التوحيد وفضله والخوف من ضده وهو الشرك ناسب أن يتكلم عن الدعاء إلى التوحيد, وهذا من حُسن صياغة المؤلف رَحِمَهُ اللهُ وصنعه.

ولذلك أن الإنسان أولًا يسعى في تكميل نفسه, في تحقيق التوحيد والخوف من الشرك, ثم بعد ذلك يسعى في أن يدعو إلى ما حقق, وأن يدعو إلى توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.**

الدعاء: يعني: دعاء الناس.

إلى شهادة أن لا إله إلا الله: أي: إلى أن يشهدوا, وإلى أن يقروا بقلوبهم ناطقين بألسنتهم.

أن لا إله إلا الله: أي: لا معبود بحق إلا الله.

قال المؤلف: وقول الله تعالى: }قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{[يوسف: ١٠٨].

هذه الآية الكريمة فيها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ على علم, وكذلك أتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعون إلى الله على علم وبصيرة.

قال: }قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي.{

(قُلْ): يعني: يا محمد.

(هذه): يعني: الدعوة والطريق الذي يسير عليه.

(سبيلي): يعني: طريقتي.

}أَدْعُو إِلَى اللَّهِ{؛ يعني: أدعو الناس إلى الله.

}أَدْعُو إِلَى اللَّهِ{؛ يعني: أدعو إلى عبادة الله وإلى توحيد الله وإلى ما يرضي الله عَزَّ وَجَلَّ.

}عَلَى بَصِيرَةٍ{؛ يعني: على علم وهدى, فالبصيرة هي العلم.

}عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي{؛ يعني: أنا وأتباعي أيضًا ندعو على بصيرة وعلم.

}أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ{؛ تنزيهًا لله عما لا يليق به.

}وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{؛ يعني: ولست من المشركين, يعني المشركين الذين يشركون بالله غيره, فنفى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون من المشركين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, بل هو أشد الناس توحيدًا لله عَزَّ وَجَلَّ, وأيضًا أتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موحدون لله عَزَّ وَجَلَّ.

فهذه الآية الكريمة فيها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلى الله على بصيرة.

وقوله: }قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ.{

بعض العلماء قيل: أن هنا وقف, }قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ{ , ثم تبتدئ وتقول: }عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي.{

فيكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه على علم وعلى بصيرة, والدعوة خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقيل: أن قوله تعالى: }قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي{؛ يعني: وأتباعي أيضًا يدعون إلى الله على بصيرة وعلم.

والمعنيان متلازمان, فأتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طريقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأيضًا يدعون إلى الله على بصيرة وعلى علم.

والبصيرة: هي العلم, وهي بصيرة القلب, كما أن العين تُبصر الأشياء المحسوسة فالقلب يُبصر العلوم الصحيحة.

ولذلك إذا أبصر القلب فالإنسان مبصر وهو عالم.

والبصر نوعان: بصر عين, وبصر قلب.

بصر القلب: هو أن يُبصر العلوم؛ فيُبصر المعاني ويعرف الحِكم, هذه بصيرة القلب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَىٰ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» .

-وفي رواية: «إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يوم وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذَلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ». أخرجاه.

قَالَ الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

المؤلف ذكر حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وفيه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أرسل معاذ إلى اليمن أمره أن يدعو أهل الكتاب الذين هناك أن يبتدئهم بالتوحيد أن يوحدوا الله, ثم ذكر لهم أركان الإسلام.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ.

لَمَّا بَعَثَ: بعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة ١٠ للهجرة, بعثه داعيًّا إلى التوحيد, وبعثه إلى اليمن.

قال: «إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ».

(إن): هنا توكيد, والكاف ضمير عائد إلى من؟ إلى معاذ رَضِي اللهُ عَنْهُ, إنك يا معاذ.

«إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»؛ يعني: هؤلاء القوم الذين ستأتيهم هم من أهل الكتاب.

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى, سمُّوا أهل الكتاب لأنهم أُنزل عليهم التوراة والإنجيل, التوراة على اليهود, والإنجيل على النصارى.

قال: «إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

يعني: هذا أول ما تبتدئ معهم وهو أن تدعوهم إلى توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ, فتدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله أن يقروا بقلوبهم ناطقين بألسنتهم ألا معبود بحق إلا الله, فشهادة أن لا إله إلا الله معناها: لا معبود بحق إلا الله.

قال: -وفي رواية: «إِلىٰ أن يُوَحِّدُوا الله».

هذا أيضًا معنى لا إله إلا الله, توحيد الله هو معناه: لا إله إلا الله؛ ولذلك لا إله إلا الله هي توحيد الله.

وفي هذا الحديث يقول: «إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذَلِكَ»؛ يعني: وحدوا الله وأطاعوك لذلك بحيث أن وحدوا الله.

«فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يومٍ وَلَيْلَةٍ».

(فَأَعْلِمْهُمْ)؛ يعني: أبلغهم (أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ)؛ يعني: أوجب عليهم وجعله فرض لازم عليهم (خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يومٍ وَلَيْلَةٍ)؛ يعني: الصلوات الخمس المكتوبة المعروفة.

«فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ»؛ أيضًا إذا هم أقروا بالتوحيد, يعني: هم أطاعوا لذلك.

«فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ».

أيضًا أعلمهم أن الله عَزَّ وَجَلَّ أوجب عليهم زكاة تؤخذ من الأغنياء فتُرد على الفقراء.

«فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ»؛ أيضًا إذا أقروا بالزكاة, «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»؛ يعني: إياك وفضائل أموالهم, الكريمة هي من الحُسن والبهاء.

لذلك الكرائم يعني: أفضل الأموال.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِيَّاكَ»؛ يعني: احذر, «وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»؛ يعني: أحاسن أموالهم.

«وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ»؛ يعني: اجعل بينك وبين دعوة المظلوم وقاية بأن لا تظلمه.

«فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»؛ يعني: دعوة المظلوم وهو من بُغي عليه ليس بينها وبين الله حجاب؛ بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يستجيب لها وينصر المظلوم, يعني: لا تُحجب عن الله, بل الله عَزَّ وَجَلَّ يقبلها وينصر هذا المظلوم.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: بعث الدعاة إلى الله.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث معاذ إلى اليمن, ولكن هذا الذي يُبعث لابد أن يكون عنده علم.

ولذلك معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان من علماء الصحابة, كان عنده علم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ, فبعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والدليل أنه بعثه لأهل الكتب, وأهل الكتاب عندهم علم.

ففيه: مشروعية بعث الدعاة.

ومن الفوائد: أن الإنسان يُنزل كل قوم منزلتهم من حيث العلم, الناس ليسوا سواء, من الناس من عنده علم, فلابد أن تتأهب له, ولذلك أهل الكتاب عندهم علم.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»؛ يعني: أهل الكتاب أُنزل عليهم كتاب؛ ولذلك منهم علماء ومنهم الرهبان, وإذا أتاهم الإنسان لابد أن يكون على هبة ويتعلم من دين الله عَزَّ وَجَلَّ ما يكون له سلاح.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّك»؛ يعني: يحتاط الإنسان لنفسه.

«إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»؛ يعني: ليسوا أناس ليس عندهم علم, بل هم عندهم كتاب.

ومن الفوائد: أن الإنسان يتدرج بدعوته, فيبدأ بالأهم فالأهم.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره أولًا بالتوحيد, أمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا إلا الله, هذا أول ما يبتدئ به الإنسان.

فكونك تدعو الإنسان إلى شيء دون ما هو واقع فيه فهذا خطأ, فلو كان مثلًا إنسان لا يصلي ويشرب الدخان, فتأتيه فتنصحه تقول: يا فلان اترك الدخان, ماذا تريد من الدخان؟! هذا خطأ, تبدأ معه بالصلاة, فإن صلى فتنهاه بعد ذلك عن الدخان, تبتدئ بالأهم فالأهم.

ولو رأيت إنسان مثلًا يزني وينظر إلى الحرام, فلا تقل له: اترك النظر إلى الحرام, تنهاه عن الزنا.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره أن يبتدئ أولًا بتوحيد الله.

ومن الفوائد: أن التوحيد ورد في السنة لفظًا.

وهو في هذا الحديث, قال: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ».

وجاء في حديث جابر أيضًا في صفة حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَلَمَّا عَلَا الْبَيْدَاء أَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ"

وأيضًا أتى في القرآن الكريم لفظة (التوحيد):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}[البقرة: ١٦٣].

والتوحيد: هو توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ؛ بحيث يوحَّد عَزَّ وَجَلَّ في عبادته فلا يُشرك معه أحد, وهو معنى (لا إله إلا الله).

ومن الفوائد: أهمية الصلاة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعلها بعد شهادة التوحيد, وهذا يدل على أهمية الصلاة.

فكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: أن تأمرهم بتوحيد الله, ثم تأمرهم بالصلاة؛ فهذا يدل على عِظم هذه الصلاة.

ومن الفوائد: أهمية الزكاة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعلها بعد الصلاة.

وقد ذُكرت الزكاة مقترنة بالصلاة في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ في أكثر من ثمانين موضع, في أكثر من ثمانين موضع يقرن الله عَزَّ وَجَلَّ الزكاة بالصلاة, هذا يدل على أهمية الزكاة.

ومن الفوائد: أن من مستحقي الزكاة الفقراء.

والفقير: هو من يجد نصف الكفاية أو أقل من نصف الكفاية.

ومن الفوائد: أن الزكاة تُرد على فقراء أهل البلد.

فقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ», الضمير هنا عائد إلى ماذا؟ الى أهل الزكاة.

قال: «مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ»؛ يعني: فقراء هذا البلد.

ولذلك الحنابلة يقولون: ما يصح أن يُخرج الزكاة مسافة قصر, فإن أخرجها فهو آثم.

والدليل: هذا الحديث: «فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ».

والمسألة فيها خلاف, ولكن بعض العلماء أخذ أنها تُرد على فقرائهم هم.

وقيل: أن الفقراء فقراء المسلمين؛ يعني: تؤخذ من أغنياء المسلمين فتُرد على فقراء المسلمين, وعلى هذا يجوز نقل الزكاة.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه يُرجع إلى الحاجة, فإن كان البعيد أحوج فإنها تُخرج له, وإلا الأصل أنها تخرج لفقراء البلد.

ومن الفوائد: أن الزكاة لا تؤخذ من أفضل المال, وأيضًا لا تؤخذ من أردى المال, بل تؤخذ من الوسط, هذا الأصل.

ولذلك في هذا الحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»؛ يعني: الأفضل لا تأخذ منه.

وأيضًا لا يؤخذ من السيء؛ ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾[البقرة: ٢٦٧].

فإذا جمعت بين الآية الكريمة والحديث الشريف عُلم أنك تأخذ من أوسط المال, ولكن إذا طاب للإنسان أن يُخرج من أفضل المال فهذا شيء راجع له.

ومن الفوائد: أن يحذر الإنسان من دعوة المظلوم.

واعلم أن دعوة المظلوم مستجابة ولو كان كافرًا, إذا ظُلم الإنسان ولو كافرًا فإنه يستجاب له.

ولذلك جاء في الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا فَفُجُورُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ». رواه أحمد وحسنه ابن حجر من حديث أبي هريرة.

ولكن لا يدل على محبة الكافر, لا, ولكن محبة للعدل, الله عَزَّ وَجَلَّ حكم عدل, وأيضًا لأن هذا من مقتضى ربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ لخلقه, الله عَزَّ وَجَلَّ رب المخلوقات, فيتقي الإنسان دعوة المظلوم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عن سَهْل بن سَعْد رَضِي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ**». فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**». فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ. فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ:

«انفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» .

«يَدُوكُونَ»؛ أي: يَخُوضُونَ.

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**وهما:** يعني: البخاري ومسلم, لأنه قال قبلها: أخرجاه؛ يعني: البخاري ومسلم.

قال: **عن سَهْل بن سَعْد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ.**

يوم خيبر سنة سبع من الهجرة, لما أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقاتل قبيلة من قبائل اليهود.

قال: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا».

الراية: هي راية الجيش, وقد كان راية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة بيضاء ومرة سوداء.

الراية هي علم الجيش.

قال: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا».

(رَجُلًا): هنا نكرة غير معروفة؛ ولذلك أتى بالنصب.

قال: «غَدًا», (غَدًا)؛ يعني: الليلة المقبلة.

قال: «رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»؛ يعني: هذا الرجل من صفاته أنه يحب الله ورسوله.

«وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»؛ وأيضًا هذا الرجل بذاته يحبه الله ورسوله.

فهو يحب الله ورسوله, والله ورسوله يحبوه.

قال: «يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ»؛ يعني: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يجعله سبب في الفتح والنصر, الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي فتح خيبر وجعلها على يدي هذا الرجل.

قال: **فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا.**

يَدُوكُونَ: يعني: يخوضون ويتناظرون من هذا الرجل؟

فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا.

غَدَوْا: يعني ذهبوا في الصباح الباكر, كل رجل منهم يريد ويتمنى أن يكون هو الذي يُعطى الراية, لا للنصر ولكن للوصف الذي وُصف به, فهم أرادوا الوصف؛ لأن هذا رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله, والذي شهد له هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, هذا قطعًا أنه حق.

فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟»؛ يعني: سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن علي بن أبي طالب, وهو الخليفة الراشد الرابع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. وقد كان في ذلك اليوم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أصابه الرمد في عينيه ولم يأتي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه كان مريض, ولم يخطر له على بال أنه هو الرجل.

قال: **فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ, فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ**؛ يعني: تفل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عينه ودعا له, يعني: دعا له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

وَدَعَا لَهُ, فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ؛ يعني: زال عنه هذا الرمد كأنه لم يُصب بشيء.

قال: **فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ, فَقَالَ:**«انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ».

انْفُذْ: يعني: اخرج.

عَلَى رِسْلِكَ: يعني: بيسر وسهولة, يعني: على مهلك.

«حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ», الساحة: هي ما يكون حول القوم فنائهم ونحو ذلك.

«بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ»؛ يعني: ادعهم إلى الإسلام, إلى أن يستسلموا لله بالتوحيد, وينقادوا له بالطاعة, ويبرؤوا من الشرك وأهله.

«وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ»؛ وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام؛ لأن لله عَزَّ وَجَلَّ حقوق في الإسلام فأخبرهم بهذه الحقوق.

«فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ», يحلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق.

«فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا»؛ يعني: يهدي الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الرجل بسببك «خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

حُمْرِ النَّعَم: هي الإبل الحسان عند العرب, يقول: خير لك منها.

قال المؤلف: «يَدُوكُونَ»؛ أي: يَخُوضُونَ.

هذا الحديث من حيث الإجمال أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث علي رَضِي اللهُ عَنْهُ يوم خيبر داعيًا إلى التوحيد وإلى الإسلام, ففيه رسالة الدعاة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ, وهو مناسب لباب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: أن علي رَضِي اللهُ عَنْهُ يحب الله ورسوله, ويحبه الله ورسوله, فنشهد لعلي رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه يحب الله ورسوله, ويحبه الله ورسوله؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بذلك.

ومن الفوائد: أن الجيش لابد له من راية, وهذه الراية يكون حولها الجيش, وفيها فائدة لأجل أن يُعرف الجيش ويكون له ظهور, فلابد من راية.

ومن الفوائد: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد يجعل للشيء أسباب؛ ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقدِّر الأسباب, فتكون هذه الأسباب سبب في وقوع المُسبَّب.

فالله عَزَّ وَجَلَّ جعلها أسباب وجعلها سبب لوقوع المُسبَّب؛ لذلك الله عَزَّ وَجَلَّ أراد أن يفتح خيبر وجعل علي رَضِي اللهُ عَنْهُ هو السبب الذي يفتحها به, الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي فتح خيبر, ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل علي رَضِي اللهُ عَنْهُ سبب, الله عَزَّ وَجَلَّ يُقدِّر الشيء ويجعل له أسباب, فلابد من الأخذ بالسبب والاعتماد على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن هو الذي يوفق.

لذلك قال: «يَفْتَحُ اللهُ»؛ الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي فتح على يدك, هذا السبب.

فالله عَزَّ وَجَلَّ يجعل أسباب؛ ولذلك لابد من الأخذ بالأسباب.

وقد قال القائل:

ألم تر أن الله قال لمريم إليكِ فهزِّي الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزِّها جنَتْه ولكن كل شيء له سبب

فالله عَزَّ وَجَلَّ يجعل أسباب, فلابد من الأخذ بهذه الأسباب.

ومن الفوائد: فضل الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم؛ بحيث أنهم انشغلوا بمن هذا الذي يحبه الله ورسوله, ويحب الله ورسوله عن الفتح, فانشغلوا بهذا الوصف عن الفتح؛ ولذلك كل واحد منهم تمنى أن يكون هو هو.

ولذلك جاء في صحيح مسلم أن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: "مَاتَمَنَّيْتُ الْإِمْرَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ". لأنه أراد أن يكون هذا الوصف له, فرجل يحبه الله ورسوله, ويحب الله ورسوله, هذا شيء عظيم.

ومن الفوائد: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُحِب ويُحَب, وهذه عقدية أهل السنة والجماعة, خلافًا المبتدعة.

وصفات الله عَزَّ وَجَلَّ تختص به, ليست كصفات المخلوقين, بل لله عَزَّ وَجَلَّ خصائص تخصه, وللمخلوق صفات تخصه تليق به وبحاله.

ومن الفوائد: علم من أعلام النبوة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر الفتح قبل أن يقع.

ولذلك قال: «يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ», قبل أن يقع هذا الفتح, وهذا يدل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول من الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أطلعه على هذا النصر, هو الذي أخبره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: فضل علي رَضِي اللهُ عَنْهُ؛ وذلك أنه يُحب الله ورسوله, ويُحبه الله ورسوله.

وفضائل علي رَضِي اللهُ عَنْهُ كثيرة, وهو رابع الخلفاء الراشدين في الفضل وفي الخلافة, وهذا هو الصحيح.

أما الخلافة فإجماع, ولا يخالف في هذا إلا مبتدع, وأما في الفضل فهو الراجح وعليه الأكثر أنه رابعهم في الفضل.

ومن الفوائد: بركة دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك لما دعا لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ برأ كأن لم يكن به وجع.

ومن الفوائد: أهمية الدعوة إلى الإسلام؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره بالدعوة إلى الإسلام, فيدعو الإنسان إلى الإسلام؛ لأن المتبع لنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا لابد أن يدعو إلى ما دعا إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه تقدم في الآية أن أتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعون إلى ما دعا إليه, فتدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله, وتدعو إلى الصلاة, تدعو إلى الزكاة, وهكذا.

فتكون داعيًا إلى الله؛ حتى تكون حقًّا من أتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, أما الذي لا يدعو إلى الله فهذا فيه خلل, فيدعو الإنسان على حسب علمه, كلما زاد علمه زاد في الدعوة.

ولذلك جاء في الحديث: «نَضَّرَ اللهُ امْرَءًاسَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ» .

لو حفظت حديث تُبلغه لعل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يبارك في هذا الشيء الذي أوصلت.

ومن الفوائد: فضل الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

والدعوة إلى الله فرض كفاية, لابد أن يكون في هذه الأمة من يدعو إلى الله, الدعوة إلى الله فرض كفاية.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

وقوله: (مِنْ) هنا للتبعيض؛ يعني: لابد أن يكون من الأمة.

وأيضًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث معاذ إلى اليمن, وأمر علي يدعو إلى الإسلام, الدعوة لابد منها, والدعوة إلى الإسلام فيها فضل, والدعوة إلى الصلاح فيها فضل.

ولذلك إذا دعا الإنسان إلى شيء فعُمل هذا الشيء فإنه يُكتب له مثل أجره, وهذا من فضل الله.

وقد جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا», فيُكتب لك مثل أجر هذا المدعو.

هناك فائدة عائدة إلى الآية: }أَدْعُو إِلَى اللَّهِ{[يوسف: ١٠٨].

وهي أن الإنسان يدعو إلى الله, لا يدعو لنفسه؛ لأنه قال: }أَدْعُو إِلَى اللَّهِ.{

والداعي إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لا يهمه ما قال الناس فيه؛ لأن يدعو إلى الله.

ولأنه قد يدعو الإنسان لنفسه, وعلامات الداعي لنفسه ثلاثة:

الأول: أن يحزن إذا انصرف الناس عنه, لا أن الناس انصرفوا عن الحق, بل لأنهم انصرفوا عنه فيحزن لنفسه.

الثاني: أن يكره أن يُعارَض, حتى لو كان مُخطئ؛ لأنه يدعو إلى نفسه ما يريد أن يُعارَض

.

الثالث: حُبُّه للشهرة وللظهور؛ بحيث يحب أن يشتهر بين الناس ويظهر صيته ويُشار إليه بالبنان.

ولذلك قال ابن القيم: "أن الإخلاص وحب الشهرة لا تجتمع في قلب عبد حتى يجتمع الحوت مع الضب".

هل يمكن أن يجتمع حوت مع ضب؟ لا, إذا خرج الحوت إلى الضب مات الحوت, وإذا الضب دخل مع الحوت مات الضب.

هكذا الإخلاص إذا أحبَّ الإنسان الشهرة فإنه قد لا يُوفق إلى الإخلاص.

ولذلك يحذر الإنسان بحيث يدعو إلى الله, لا يدعو لنفسه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالىٰ: }أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ{[الإسراء: ٥٧].

وقوله: }وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{[الزخرف: ٢٦-٢٧].

وقوله: }اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ{[التوبة: ٣١].

وقوله: }وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ{[البقرة: ١٦٥].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.**

مناسبة هذا الباب للأبواب التي قبله: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما تكلم عن أهمية التوحيد ووجوبه والدعوة إليه أعقب ذلك بتفسير التوحيد, يعني: ما التوحيد الذي يُدعى إليه؟

ففي هذا الباب أن فيه تفسير التوحيد.

فهنا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يفسر التوحيد, قال: **باب تفسير التوحيد.**

التفسير لغة: هو الكشف عن المغطى.

وأما شرعًا: فهو تبيين معنى التوحيد.

وقوله: **باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**؛ هذا من عطف التفسير؛ لأن التوحيد هو شهادة أن لا إله إلا الله.

فقوله: **باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**, فالمعنى لا يختلف؛ لأن التوحيد هو لا إله إلا الله.

قال المؤلف: **باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.**

وقول الله تعالى: }أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا{[الإسراء: ٥٧].

في هذه الآية الكريمة يبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن الذين يدعون من دونه هم يرجون الله عَزَّ وَجَلَّ, فيتسابقون في القرب من الله, فكيف يُدعون من دون الله؟! فهم عباد أمثال هؤلاء الداعين لهم.

فقوله: }أُولَئِكَ{, الضمير هنا المراد به: المدعوين من دون الله من الملائكة والصالحين والرسل ونحو ذلك.

وقوله: }الَّذِينَ يَدْعُونَ{, ضمير الفاعل هنا عائد إلى الكفار, يعني: الذين يدعون, فهو عائد إلى الكفار, فهم الذين يدعون غير الله.

قال: }يَبْتَغُونَ{, والضمير هنا ضمير الفاعل عائد إلى المدعوين من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين.

وقوله: }يَبْتَغُونَ{؛ يعني: يطلبون.

}يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ{؛ يعني: هؤلاء المدعوين من دون الله هم يبتغون إلى الله الوسيلة.

والوسيلة: هي كل ما يُقرب من الله عَزَّ وَجَلَّ, من صلاة وزكاة وحج وما أشبه ذلك, فكل ما يُقرب إلى الله فهو وسيلة؛ لأن الوسيلة هي الموصل إلى المقصود, فالوسيلة هي سبب تُقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من الأعمال الصالحة.

وقوله: }أَيُّهُمْ أَقْرَبُ{؛ يعني: هؤلاء المدعوين من دون الله يتسابقون في التقرب إلى الله, فهم يستبقون الخيرات, يتقربون إلى الله.

وقوله تعالى: }وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ{؛ يعني: يرجون رحمة الله.

}وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ{؛ يعني: يخشون عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي الآية الكريمة: أن الذين يدعون غير الله يدعون عباد لله, فهم دعوا غير الله, وهؤلاء المدعوين من دون الله هم عباد أمثالكم, فيكف يُدعون من دون الله وهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه, كيف يكون هؤلاء آلهة؟! لا يمكن.

ولذلك هؤلاء المشركون يدعون غير الله, وهؤلاء المدعوون هم عباد لله.

فالله عَزَّ وَجَلَّ في الآية الكريمة يبين خطأهم العظيم؛ بحيث أنهم عبدوا عبادًا, عبدوا عباد الله عَزَّ وَجَلَّ الذين يخشون الله ويخافون عذابه.

ففي هذه الآية الكريمة تفسير التوحيد؛ لأن العبادة حق لله وحده لا شريك له.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{[الزخرف: ٢٦-٢٧] .

في هذه الآية الكريمة يحكي الله عَزَّ وَجَلَّ عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمَ أنه أعلن لأبيه وقومه أنه بريء منهم, ومن الذي يعبدون من دون الله, ثم خص ربه عَزَّ وَجَلَّ أنه لا يتبرأ من ربه, بل هو معبوده الذي ليس له معبود سواه.

قال: }وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ{, إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمَ قال لأبيه آزر, }وَقَوْمِهِ{؛ يعني: عشيرته ونحو ذلك.

}إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ{؛ يعني: تبرأ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمَ من ما يعبد أبيه وقومه, هذه البراءة من المعبود غير الله عَزَّ وَجَلَّ .

}إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي{, هذا استثناء, استثنى الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا يتبرأ منه.

}إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي{؛ يعني: خلقني وأوجدني من العدم, فالفطر: هو الإيجاد من العدم.

}فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{؛ يعني: سيرشدني إلى عبادته حقًّا وسيوفقني إلى الصواب.

ففي هذه الآية الكريمة: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمَ تبرأ مما يعبد أبيه وقومه, وتوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة وخص ربه بها.

وفي هذه الآية الكريمة: الدلالة على معنى لا إله إلا الله بالمطابقة.

فقوله: }إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ{؛ فهذا معنى لا إله إلا الله من حيث النفي, (لا إله).

فقوله: }إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ{؛ يعني: هذا في جانب لفظ كلمة التوحيد (لا إله).

وقوله: }إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي{؛ هذا في الجانب الآخر وهو (إلا الله).

فهي موافقة لـ(لا إله إلا الله) بالمطابقة, ففيها نفي وإثبات.

لأن شهادة التوحيد لها ركنان:

- الركن الأول: النفي, في قوله (لا إله).
- الركن الثاني: الإثبات, وهو (إلا الله).

فلابد من النفي والإثبات, والآية الكريمة فيها نفي وإثبات.

وقوله: }إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ{, تبرأ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامَ من ما يُعبد من دون الله.

والبراءة نوعان: براءة من عابد, وبراءة من عمل.

الأول: البراءة من عابد, فإن كان هذا العابد كافر أو كان مشركًا فيتبرأ منه على كل حال, وإن كان مسلم عنده شيء من المعاصي فيتبرأ منه من وجه ويوالى من وجه, فيتبرأ مما عنده من معصية ويوالى لما عنده من توحيد وإيمان.

الثاني: البراءة من عمل, فيتبرأ من كل عمل خالف الشرع, سواء كان هذا العمل كفر أم فسق, يتبرأ من كل عمل خالف شرع الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومعنى البراءة من العمل الذي يخالف الشرع: هو ألا تفعله, ولا ترضاه, وتعادي أهله, وتبغض هذا العمل.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ{[التوبة: ٣١].

في هذه الآية الكريمة يبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن النصارى }اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ{؛ يعني: علماؤهم, }وَرُهْبَانَهُمْ{؛ يعني: عُبادهم, }أَرْبَابًا{؛ يعني: مُشرِّعين, }مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي هذه الآية الكريمة يُنكر على هؤلاء الذين اتخذوا غير الله مُشرِّع لهم الأحكام.

وقد جاء عند الترمذي عن عدي بن حاتم أنه لما سمع هذه الآية يقرأها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا رسول الله, إِنَّهُم لَيْسُوا يَعبدُونهم. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَيْسَ يُحَلِّلُونَ الحَرَامَ وَيُحَرِّمُون الحَلَال فَيُوقِعُونَهُم؟». قال: بلى. قال: «تِلْكَ عِبَادَتَهُمْ».

ففي هذه الآية الكريمة يقول الله تعالى: }اتَّخَذُوا{؛ يعني: جعلوا لهم هؤلاء متخذين لهم.

}أَحْبَارَهُمْ{؛ يعني: علماؤهم, الحبر هو العالِم, سُمي حَبر أو حِبر, لأنه يُحَبِّر الكلام, يعني: يُزيِّن الكلام يسلب العقول بكلامه.

}وَرُهْبَانَهُمْ{, والراهب: هو العامل الذي عنده شيء من الخوف والعمل, والمراد به: العُباد.

}أَرْبَابًا{؛ يعني: مُشرِّعين, يُشرعون لهم الأحكام التي تخالف أمر الله ويعلمون أنها تخالف أمر الله ويُطيعونهم على ذلك.

}مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي الآية الكريمة أن الشرع أو التشريع هومن خصائص الله عَزَّ وَجَلَّ, الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يضع الشرع, بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يجعل هذا الشيء حرام ويجعل هذا الشيء حلال, وليس هذا للخلق أبدًا, بل هو من خصائص الله أنه يجعل الشيء حرام ويجعل الله حلال.

ولذلك هؤلاء اتخذوهم أربابًا من دون الله؛ لأن التشريع من خصائص الربوبية, فمن أطاع غير الله عَزَّ وَجَلَّ في تحليل الحرام وتحريم الحلال, عالمًا بذلك أنه مغير لشرع الله فهو مشرك.

مثلًا قال: الخمر حلال, وهو يعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ حرم الخمر,فأطاعه فهو مشرك وكافر.

إذًا: التشريع من خصائص ربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ لخلقه, فليس للخلق أن يُحرموا أو يُحللوا ما شاءوا, بل هذا لله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك جاء في الصحيح لما فُتحت خيبر وقع الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم في البصل وكانوا على جوع, فأكلوا من البصل أكلًا شديدًا, ثم ذهبوا إلى المسجد, فوجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رائحة البصل, فقال: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ شَيْئًا فَلَا يَقْرَبَنَّا فِي الْمَسْجِدِ». فَقَالَ النَّاسُ: حُرِّمَتْ! حُرِّمَتْ! فَبَلَغَ ذَاكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لِي، وَلَكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا».

البصل مباح, ولكنه يُكره لمن اراد صلاة الجماعة, فالتحليل والتحريم من خصائص الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ{[البقرة: ١٦٥] .

في هذه الآية الكريمة يبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن من الناس من جعل لله ندًّا في المحبة؛ بحيث أنه يتوجه لغير الله بالحب الذي لا يصح إلا لله, ثم بيَّن سبحانه أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله؛ لأن محبتهم خالصة.

قال: }وَمِنَ النَّاسِ{, (مِن) هنا للتبعيض.

}وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ{؛ يعني: يجعل له شيء يأخذه يكون عليه, }مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

}أَنْدَادًا{, جمع ند, والند هو المثيل والنظير ونحو ذلك.

}يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ{, الكاف هنا للتمثيل؛ يعني: يحبون هذه الأنداد كمحبتهم لله؛ يعني: ساووا بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين هذه الأنداد في المحبة.

وقيل: أن قوله: }يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ{؛ أي: يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله.

قال: }وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ{؛ أي: أن الذين آمنوا بقلوبهم وجوارحهم وألسنتهم أشد حبًّا لله, يعني: أعظم محبة لله, لأن محبتهم لله خالصة, ومحبة المشركين مختلطة مُشرَك بها غير الله.

وقيل: أن }وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ{؛ يعني: من محبة هؤلاء لأندادهم.

والصحيح -والله أعلم-: أن المراد أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله؛ لأن محبتهم خالصة, يحبون الله أكثر من محبة المشركين لله؛ لأن محبة المشركين مختلطة, ومحبة المؤمنين لله خالصة, فهم أشد حبًّا لله.

وفي الآية الكريمة: أن المشركين يحبون الله, ولكن أحبوا معه غيره كحبهم له, فأشركوا, فلا تنفعهم هذه المحبة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي "الصحيح" عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». وشَرحُ هَذهِ التَّرجَمَةِ: ما بَعْدَها مِنِ الأَبوابِ.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

وفي الصحيح, فيه: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

في هذا الحديث يبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من نطق بشهادة الحق (لا إله إلا الله) وكفر بما يُعبد من دون الله أن دمه وماله محرم, وحسابه على الله عَزَّ وَجَلَّ, فهو الذي يتولى حسابه عَزَّ وَجَلَّ.

قال: وفي "الصحيح" عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

(من) هنا شرطية.

وقوله: «قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ», هذا فعل الشرط.

وقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ أي: لا معبود بحق إلا الله.

وقوله «وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»؛ كَفَر بمعنى: جحد.

«بِمَا يُعْبَدُ»؛ يعني: يتذلل له سوى الله, فلابد من الكفر بما يُعبد من دون الله.

«مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ»؛وهذا جواب الشرط يعني: أصبح دمه وماله حرام؛ بحيث لا يجوز الاعتداء لا على دمه ولا على ماله, ولا يحل دمه ولا ماله.

«وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يتولى حسابه, فيجازيه إن كان صادقًا في قوله أحسن الجزاء, وإن كان كاذبًا في قوله فإن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يتولى حسابه.

ففي هذا الحديث فوائد:

منها: أنه لابد من الكفر بما يُعبد من دون الله.

وقد يقول قائل: أليس (لا إله إلا الله) فيها نفي وإثبات؟ بلى.

(لا إله)؛ نفي, أي أكفر بما يُعبد من دون الله, (لا إله)؛ يعني: لا معبود.

(إلا الله)؛ إثبات العبادة لله وحده.

ففيها نفي, وهذا معنى الكفر بما يُعبد من دون الله, و(إلا الله)؛ هذا إثبات العبادة لله وحده.

فهل المراد هنا تفسير أم أن هذا معنى زائد؟

قيل: أنه تفسير.

والظاهر -والله أعلم-: أنه معنى زائد, لأن الكفر بما يُعبد من دون الله لابد منه, فلابد أن يكفر الإنسان بكل ما يُعبد من دون الله, ويعتقد أن كل ما يُعبد من دون الله باطل ويجحد هذا الشيء, ويتوجه لله عَزَّ وَجَلَّ وحده بالعبادة.

لا يكفي أن يعبد الإنسان الله عَزَّ وَجَلَّ ويتوجه إليه ولا يشرك به أحدًا, ولا يكفر بما يُعبد من دون الله, ما يكفي هذا ولا يصح إسلامه.

لو قال قائل: أنا أتوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة وأوحد الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة, ولا أُشرك به شيئًا, ولكن لا أكفر بما يُعبد من دون الله, أترك هؤلاء وآلهتهم, هم وآلهتهم, نعم هي آلهتهم ودينهم صحيح لكن أتركها؟

فهذا نقول: كافر ما يصح إسلامه؛ لأنه لابد من الكفر بما يُعبد من دون الله.

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما تقدم في الآية قال: }إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ.{

فلابد أن يتبرأ الإنسان من كل ما يُعبد من دون الله ويكفر به, ويُثبت العبادة لله وحده ويعبد الله وحده.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ».

ومن الفوائد: أن من لا يقول (لا إله إلا الله) ولا يكفر بما يُعبد من دون الله فماله ودمه حلال, إلا إذا كان معاهد أو مستأمن أو ذمِّي, فهؤلاء لا يجوز التعرض لا لدمائهم ولا لأموالهم.

فلو كان مثلًا دخل بلاد المسلمين بعهد, فلا يجوز أن يتعرض لا لماله ولا لدمه, أو عاهد المسلمين, أو كان بينه وبين المسلمين عهد, أو كان له ذمة مع المسلمين, فلا يجوز التعرض لا لماله ولا لدمه.

وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ».

إذًا: يوجَّه للحربي, الحربي الذي ليس بيننا وبينه لا عهد ولا ذمة ولا مستأمن.

ومن الفوائد: حُرمة دم المسلم؛ لأنه قال: «حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ».

ودم المسلم من أعظم الأشياء التي يتعرض لها بأذى أو قتل؛ ولذلك إذا قتل الإنسان مسلم بغير حق؛ فإنه وقع في جُرم عظيم, وهو على خطر عظيم.

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[النساء: ٩٣].

فهذه خمس عقوبات.

وجاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا».

فإذا أصاب الدم الحرام - فإنه ضاقت عليه الوسيلة.

وجاء في الحديث: «يُؤْتَى بِالْمَقْتُولِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِالْقَاتِلِ يَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَىٰ الْعَرْشِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟».

وجاء في الصحيحين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا الْتَقَىٰ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» .

وأيضًا من الفوائد: حُرمة مال المسلم.

فمال المسلم محرم؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ».

ومن الفوائد: أن حساب الخلق على الله, فأنت ليس لك إلا الظاهر, فمن أظهر لك الخير فخُذ به, ولا تقُل هذه يرائي أو هذا قلبه أسود أو هذا قلبه به كذا وكذا, أنت لك الظاهر, فحساب الخلق على الله عَزَّ وَجَلَّ.

فلذلك جاء عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: " لما مات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن الوحي قد انقطع, وإنما نأخذ بما يظهر لنا".

فالإنسان ليس له إلا الظاهر من الناس, فمن أظهر لك الخير فخُذ به, ومن أظهر لك الشر فخُذ به, ليس لك إلا الظاهر.

فحساب الخلق على الله عَزَّ وَجَلَّ, هو الذي يتولى السرائر سبحانه, فسرائر الناس لا يعلمها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ .

ولذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[الطارق: ٩]؛ يعني: تظهر الخفايا.

قال المؤلف: **وشَرحُ هَذِهِ التَّرجَمَةِ.**

يعني: ترجمة الباب, المؤلف ترجم للباب قال: **تفسير وشهادة أن لا إله إلا الله**, هذا ترجمة الباب.

ما بَعْدَها مِنَ الأَبوابِ؛ أي: أن المؤلف ذكر هنا تفسير التوحيد إجمالًا, وسيأتي ما بعده من الأبواب يفسر التوحيد وأنواعه, والشرك وأنواعه.

فهذا معنى هذه الترجمة: تفسيرها ما بعدها من الأبواب, وشرح هذه الترجمة وما بعدها من الأبواب؛ لأن المؤلف سيفصل بعدها فيما بعد عن أنواع التوحيد, وأنواع الشرك, ونحو ذلك.

ولذلك قال: **ما بَعْدَها مِنَ الأَبوابِ**, ليس باب واحد, بل الأبواب القادمة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالىٰ: }قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ{[الزمر: ٣٨].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف: **باب من الشرك:لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بيَّن فيه نوع من أنواع الشرك المضاد للتوحيد, فبدأ من هنا يذكر أشياء من أنواع الشرك.

قال: **باب من الشرك.**

(من) هنا للتبعيض؛ لأن أنواع الشرك كثيرة ومنه هذا الشرك.

قال: **باب من الشرك:لبس الحلقة.**

الحلقة: هو الشيء المستدير الذي يوضع على اليد أو على القدم أو نحو ذلك, فحلقة شيء يستدير على اليد مثلًا.

قال: **والخيط.**

الخيط: يوضع على اليد, من حبال أو نحو ذلك.

ونحوهما؛ يعني: نحو هذه الأشياء, ما يوضع على اليد ويراد به ما يراد من هذا الشيء.

وقوله: **لرفع البلاء.**

البلاء: وهو المرض ونحوه مما يبتلى به الإنسان فيقع عليه.

وقوله: : **لرفع**؛ يعني: بعد وقوعه, يعني: يرفع هذا المرض بعد وقوعه.

وقوله: **أو دفعه**.

(أو) هنا للتنويع, والدفع: هو قبل الوقوع, بمعنى: يجعل هذا الشيء سبب قبل أن يقع المرض عليه مثلًا.

هنا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر: **باب من الشرك:لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.**

ولبس الحلقة والخيط ونحوها لرفع البلاء أو دفعه, لا تخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يلبس هذه الحلقة أو الخيط ويعتقد أنها تدفع الضر بذاته دون الله عَزَّ وَجَلَّ, أو ترفع الضر بذاتها دون الله عَزَّ وَجَلَّ, فهذا شرك أكبر.

والعلة: لأنه اعتقد أن غير الله يخلُق.

الحالة الثانية: أن يعتقد أن هذه الحلقة أو الخيط ونحوها سبب لرفع البلاء أو دفعه, يعتقد أنها سبب وأن الشافي وأن الرافع للبلاء أو الدافع له هو الله عَزَّ وَجَلَّ, ولكن عتقد أن هذا الشيء سبب, فهذا شرك أصغر.

والعلة: أنه جعل شيء ليس بسبب لا شرعًا ولا قدرًا, الله عَزَّ وَجَلَّ ما جعل هذا الشيء سبب.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقول الله تعالى:}قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ{[الزمر: ٣٨] .

هذه الآية يبين الله عَزَّ وَجَلَّ فيها أنه يقول: انظروا لهذه المعبودات التي اتخذتموها من دون الله, إذا أرادني الله عَزَّ وَجَلَّ بمرض أو نحوه هل هذه المعبودات تكشف هذا الشيء؟

والجواب: لا تكشف, ولا تستطيع.

فالله عَزَّ وَجَلَّ ينكر عليهم في هذه الآية الكريمة يقول: قُل لهم.

قال تعالى: }قُلْ{؛ يعني: يا محمد, }أَفَرَأَيْتُمْ{؛ يعني: أخبروني, }مَا تَدْعُونَ{؛ يعني: ما تتوجهون له بالدعاء, }مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: سوى الله.

وعبَّر بهذا التعبير }دُونِ اللَّهِ{؛ لأن كل ما عُبد فهو دون الله عَزَّ وَجَلَّ, والله عَزَّ وَجَلَّ هو الأكبر وغيره الأذل, الله عَزَّ وَجَلَّ هو الغني وغيره فقير؛ ولذلك هذه المعبودات لا تنفع ولا تضر.

قال: } إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ{؛ يعني: إرادة كونية.

}إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ{, (ضُر) هنا نكرة؛ فتشمل جميع الضُّر, سواءً كان مرض بدني, أو مرض من أمراض الدين, كأن يمرض قلبه, أو ضُر بدني, أو ضُر في الدنيا, أو ضُر في الآخرة, فداخل في جميع الضُّر.

}إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ{, ما يضر الإنسان ويتضرر به.

}هَلْ{, هنا استفهام, }هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ{؛ يعني: مزيلات, والكشف: هو إزالة المغطى.

هل هذه المعبودات تكشف هذا الضُّر؟

وهذا فيه إنكار أنها لا تستطيع أن ترفع الضر ولا أن تدفع الضر, فدل على أن هذه التي عُبدت من دون الله باطلة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ, فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟». قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. فقَالَ: «انْزِعْهَا فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا فإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عليك مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رواهُ أحمدُ بسندٍ لا بأس بهِ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِي اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ, فقَالَ: «مَا هَذِهِ؟». قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. فقَالَ: «انْزِعْهَا فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا فإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عليك مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا».رواهُ أحمدُ بسندٍ لا بأس بهِ.

في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى رجلًا وضع على يده حلقه, يعني: شيء مستدير على يده, فأنكر عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, قال: «مَا هَذِهِ؟», هذا قد يكون إنكار, وقد يكون استفهام.

قَالَ: "مِنَ الْوَاهِنَةِ", والواهنة: مرض يقع في اليد فتتعب.

قَالَ: "مِنَ الْوَاهِنَةِ"؛ يعني: أردت هذا الشيء أن يكون لهذا المرض.

قال: «انْزِعْهَا», والنزع: هو الجذب بقوة, «فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا»؛ يعني: لا تزيدك إلا ضعف, «فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ»؛ يعني: وقع عليك الموت, وهذه في يدك ما أفلحت أبدًا.

هذا يدل على أنه واقع في شيء عظيم.

في هذا الحديث يقول عمران بن حصين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى رجلًا.

هل هو رأى بقلبه أو رأى بعينه؟

الجواب الثاني: رأى بعينه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ .

"رَأَى رَجُلًا", رجُلًا هنا لم يُسمى, والأصل أن الحكم ما يتغير, ما دام أن الحكم لا يتغير فلا حاجة, لمعرفته يعني: ما يحتاج الإنسان أن يبحث عن هذا الرجل.

وإبهام من حصل له حادثه في الحديث له فوائد:

الفائدة الأولى: الستر على هذا الشخص.

الثاني: أن الحكم لا يتغير, سواء ذُكر هذا الشخص أم لم يُذكر.

الثالث: أن يقال أن الراوي نسي من هذا الشخص, فلئلا يُضيف هذه الحادثة لغيره من حصلت له يقول (قال رجل), والرجل يدخل فيه جنس الرجال.

"رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ", والحلقة كما تقدم أنها الشيء المستدير على اليد, كقطعة حديد مثلًا مستديرة على اليد.

"مِنْ صُفْرٍ", والصُفر: هو النحاس.

فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟». هنا قد يكون استفهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ما هذا الشيء؟ هذا استفهام, وكان من عادته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أنه يسأل قبل الإنكار.

وقيل: أنه إنكار, فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟». مُنكِر عليه.

قَالَ: "مِنَ الْوَاهِنَةِ", يعني: هذه الحلقة من صفر وضعتها للواهنة, والواهنة مرض يصيب اليد فتمرض, فوضعها لتكون هذه الحلقة سبب في إزالة هذا المرض.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :انْزِعْهَا», والنزع: هو الجذب بقوة, »فَإِنَّهَا», هنا للتعليل, » فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا»؛ يعني: ضعفًا على ضعف, من حيث يضعُف توكل الإنسان, وأنها سبب في هلاكه, ليست هي مُضرة بذاتها ولكن بما يترتب عليها من المضار؛ لأنها سبب في ضعف التوكل, وسبب في أن الإنسان يُعذَّب بسببها, فهي تزيده مرض.

قال: »لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا»؛ يعني ضعفًا, «فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ»؛ يعني: لو خرجت روحك من هذه الدنيا, «وَهْيَ عليكَ»؛ وأنت تعتقد بهذا الاعتقاد, «مَا أَفْلَحْتَ أَبدًا».

والفلاح: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

وقوله: «أَبَدًا», هنا للتأييد؛ لأن هذا النوع إذا وقع فيه الإنسان فقد لا يُفلح أبدًا.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن إنكار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون عادة بعد سؤال, وهذا هو الطريقة الصحيحة, فطريقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي الطريقة المثلى التي ينبغي للإنسان أن يسلكها, فلا يُنكر الإنسان حتى يسأل, لأنك قد تُنكر على شخص وهو غير واقع في منكر.

فمثلًا: وجدت إنسان في نهار رمضان في مكة يشرب ماء, هل تُنكر أو تسأل؟

الجواب الثاني: تسأل, قد يكون مسافر,وهنا أنكرت على من لم يقع في المنكر, فلابد أن تسأل ثم تُنكر.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل قال: «مَا هَذِهِ؟».

وأيضًا الرجل الذي اعتزل ولم يصلي في القوم, ما صلي معهم العشاء, فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«مَا لَكَ لَمْ تُصَلِّ مَعَ النَّاسِ؟». قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ. قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ».

فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يسأل ثم يكون بعد ذلك الأمر أو النهي, وهكذا الطريقة الصحيحة في سلوك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, فسأل أولًا ثم تُنكر ثانيًا, لأنك قد تُنكر على من لم يقع في منكر, أو تأمر بمعروف على من ليس في حقه معروف.

ومن الفوائد: عِظم الشرك, وأن الشرك سبب لهلاك الإنسان في الدنيا والآخرة.

وأيضًا من الفوائد: شدة إنكار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للشرك؛ ولذلك قال: «انْزِعْهَا», والنزع: هو الجذب بقوة.

فما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ: أزلها, بل قال: «انْزِعْهَا», فالنزع: هو الجذب بقوة, فدل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنكر الشرك أشد الإنكار.

ومن الفوائد: أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله عَزَّ وَجَلَّ, فالذي ينفع ويضر هو الله عَزَّ وَجَلَّ, أما من اعتقد الضر في غير الله أو النفع في غير الله فهو قد أخطأ الطريق.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا»؛ يعني: لا تنفع ولا تضر.

وفي الآية التي مضت يقول الله عَزَّ وَجَلَّ} :إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ.{

والجواب: لا؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الشافي وهو الذي يضر وينفع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن الفوائد: أن الشرك سبب للهلاك في الآخرة.

ولذلك من مات على الشرك الأكبر فإنه خالد مخلد في نار جهنم –نسأل الله العافية– لا يمكن أن ينجو.

ومن الفوائد: أن الفلاح قد يُنفى أبدًا, وقد يُنفى مقيدًا.

وذلك أن نفي الفلاح نوعان:

الأول: نفي مطلق, بحيث يُنفى عنه الفلاح عامة, وهذا خاص بمن وقع في الشرك الأكبر– لا يُفلح أبدًا.

الثاني: نفي مطلق الفلاح, فهذا قد يُنفى عنه بعض الفلاح ويُفلح في البعض, كما لو كان الإنسان وقع في الكبائر ومات عليها ولم يُغفر له, فهذا يُنفى عنه الفلاح مقيد, يُعذَّب ثم يُفلح يدخل الجنة إذا مات على التوحيد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وله عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ». وفي روايةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ».

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وله عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ».

في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبين حكم من تعلق هذه الأشياء.

والتميمة: توضع لتمام الشيء, يراد منها أن يتم شيء معين.

«فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ», هذا دعاء عليه لأنْ لا يتم ما أراد.

«وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً», والودعة: هي ما يُخرج من البحر, كالصدف ونحو ذلك, «فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ», أيضًا هذا دعاء عليه.

قال: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ». هذا صريح في أن من تعلق التميمة قد وقع في الشرك.

قال: "وله"؛ يعني: لأحمد رَحِمَهُ اللهُ, "وله عن عقبه بن عامر مرفوعًا", مرفوعًا: يعني: مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحديث المرفوع: هو ما رُفع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, أُطلق عليه مرفوع لأن له شأن ورفعة, لأنه مضاف إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحديث المرفوع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن له مقام رفيع, وأيضًا الحديث القدسي لأن له قدسية وطهر, لأنه مضاف إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

فما أُضيف إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطلق عليه مرفوع.

قال: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً», يعني: وضعها, علقها على يده أو نحو ذلك, وأيضًا يشمل تعلق بقلبه.

ولا شك أن الإنسان إذا وضع هذه التميمة فلابد أن يتعلق قلبه , فالأصل أن الإنسان يتعلق قلبه بهذه التميمة إذا وضعها.

«مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً», والتميمة: توضع لأجل العين ونحو ذلك, فتوضع على اليد لاتقاء العين.

«فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ»؛ يعني: لا أتم الله ما أراد, وهذا دعاء من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً», والودعة: هي شيء يُخرج من البحر, يشبه الصدف ويُطلق عليه القوقعة, فتوضع في سلك , فتوضع لاتقاء العين أو السحر أو نحو ذلك.

قال: «فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»؛ يعني: لا تركه الله, بل حرك عليه أموره حتى يصبح في هَمٍّ وغم, هذا دعاء عليه.

وفي رواية: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ».

التميمة: توضع لأجل العين.

«فَقَدْ أَشْرَكَ»؛ يعني: وقع في الشرك.

ومن تعلق تميمة فلا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يُعلق التميمة على أنها تدفع الأذى بذاتها دون الله عَزَّ وَجَلَّ, أو ترفع بذاتها المرض دون الله عَزَّ وَجَلَّ, فهذا شرك أكبر؛ لأنه جعل غير الله عَزَّ وَجَلَّ يتصرف في الكون.

الثاني: أن يضع هذه التميمة أو الودعة يعتقد أنها سبب في دفع البلاء, فهذا شرك أصغر؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يجعل هذه الأشياء لا سببًا شرعيًا ولا سبب قدريًا.

وهنا إذا وضعها كما تقدم فإنه قد يقع في شرك أكبر أو أصغر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولابن أبي حاتم عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه رأىٰ رجُلًا في يده خَيطٌ من الحُمَّىٰ فقَطَعَهُ، وَتَلَا قوله: }وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ{[يوسف: ١٠٦].

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

قال: ولابن أبي حاتم عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه رأى رجُلًا في يده خَيْطٌ من الحُمَّى فَقَطَعَهُ،وَتَلَا قوله: }وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ{[يوسف: ١٠٦].

في هذا الأثر الذي ذكره ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللهُ: أن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأى رجلًا في يده خيط من الحمَّى, الحمَّى: مرض, يريد أن تذهب عنه أو لا تصيبه.

"فَقَطَعَهُ", قطع هذا الخيط, وَتَلَا قوله: }وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ{[يوسف: ١٠٦].

قرأ هذه الآية الكريمة, وهي نازلة في الشرك الأكبر, فدل على أن الشرك الأصغر يستدل بما نزل في الشرك الأكبر عليه.

قال: "ولابن أبي حاتم": هو أبو حاتم الرازي رَحِمَهُ اللهُ صاحب الجرح والتعليل.

قال: "عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه رأى رجُلًا", رجلًا: هنا لم يُذكر للفوائد السابقة.

"في يده خَيْطٌ", والخيط: معروف.

"خَيْطٌ من الحُمَّى", الحمَّى: هي مرض يصيب البدن, فيسخن البدن.

والحمَّى من فيح جهنم؛ كما جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْحُمَّىٰ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ».

قال: "من الحُمَّى", قد يكون الرجل وضعها لئلا تصيبها الحمى, وقد يكون الرجل وضعها لتزول عنها الحمى, فسواء فعل الأول أو الثاني فقد وقع في الشرك.

قال: "فَقَطَعَهُ، وَتَلَا"؛ يعني: قرأ هذه الآية مباشرة.

قطعه: يعني: قصمه وأزال عن يده بالقطع.

قال: وَتَلَا قوله: }وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ{[يوسف: ١٠٦].

}وَمَا يُؤْمِنُ{؛ يعني: بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت, يعني: يؤمن بربوبية الله.

}أَكْثَرُهُمْ{؛ يعني: أكثر هؤلاء, }بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ{؛ يعني: يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت, ثم يقعون في الشرك, يتوجهون لغيره ويشركون به.

ولذلك جاء عن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: "مِنْ إِيمَانِهِمْ أنهم إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَّنْ خَلَقَ السماوات؟ وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ وَمَنْ خَلَقَ الجِبَالِ؟ قَالُوا: اللَّهُ,وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ".

في هذا الأثر فوائد:

من فوائد الأثر: أن حذيفة رَضِي اللهُ عَنْهُ أنكر الشرك؛ ولذلك قطع الخيط, لم يتمالك نفسه في أن قطعه.

ومن الفوائد: الإنكار باليد, والإنكار باليد مشروع, بل هو من مراتب الإنكار, ولكن هذا يكون لمن كان له سلطة أو ولاية فيُنكر بيده ولم يترتب عليه مفاسد؛ ولذلك الإنكار باليد مشروع.

فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَىٰ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْه بِيَدِهِ،فَإِن لَمْ يَسْتَطِعِ فَبِلِسَانِهِ،فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ،وَذلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» .

حذيفة رَضِي اللهُ عَنْهُ قطع الخيط, فإن كان لا يترتب عليه منكر أنكر منه فتُنكر, وذلك أن ما يترتب – على إنكار المنكر درجات, إذا أنكر الإنسان المنكر فلا يخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن يُنكر المنكر فيأتي منكر أعظم منه, هذا لا يجوز له أن يُنكر.

فإذا أنكر الإنسان المنكر وكان سبب في أن يأتي منكر أعظم منه".

كما لو أنكر على أبيه مثلًا وسبَّ أباه بسبب الإنكار, وجد أباه على معصية –مثلًا– فسبَّ أباه, هنا وقع منكر أعظم منه, هذا محرم, لا يجوز الإنكار بهذه الطريقة, أو وجد إنسان –مثلًا– يشرب الخمر فأنكر عليه فقتله, هذا لا يجوز الإنكار.

الحالة الثانية: أن يُنكر المنكر فيأتي منكر مثله مساوي له, هذا تنظر إلى المصلحة, إذا كان الأصلح أن تُنكر فتُنكر, وإن كان الأصلح ألا تُنكر لا تُنكر.

الحالة الثالثة: أن يُنكَر المنكر فيخف ولا يزول, فيجب الإنكار.

كما لو نهى إنسان عن شرب الخمر فتركه وشرب الدخان, فيجب الإنكار

الحالة الرابعة: أن يُنكر المنكر فيزول بالكلية, فهذا هو المطلوب وهو الواجب.

ولذلك حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قطع الخيط وانتهى المنكر.

ومن الفوائد: أن الآيات التي نزلت في الشرك الأكبر يُستدل بها على الشرك الأصغر, لأن كل من تعلق بغير الله فإنه يُنكَر عليه ويستدل عليه بالآيات التي نزلت في الشرك الأكبر.

ولذلك الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم كان يستدلون بما نزل في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر, هذه الآية في الشرك الأكبر وذكرها حذيفة في الشرك الأصغر.

هذا الباب المتقدم فيه أن من اعتقد أن شيء سبب لم يجعله الله عَزَّ وَجَلَّ سببًا لا شرعيًا ولا قديرًا فإنه قد وقع في الشرك, وذلك أن الإنسان – في الأسباب عليه أن يتفطن لأشياء:

الأول: ألا يعتقد في شيء ليس سبب لا شرعي ولا قدري أنه سبب.

والثاني: ألا يعتمد على هذا السبب, بل يفعل السبب إذا ثبت أنه سبب شرعي أو قدري يفعله مع اعتماده على الله.

الثالث: أن الإنسان إذا فعل السبب فلا يعتقد أن السبب سيمضي بنفسه, وإنما هو بما أودعه الله عَزَّ وَجَلَّ فيه, فإن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ أمضى هذا السبب, وإن شاء سلب هذه الخاصية في هذا السبب.

والسبب الشرعي: هو ما ثبت كونه سبب شرعي في الكتاب أو السنة.

مثلًا: الحبة السوداء سبب للشفاء, العسل سبب للشفاء, هذا ثبت شرعًا.

ولذلك جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْحَبَّةَ السَّوْدَاءَ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا مِنَ السَّامِ», يعني: الموت.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ:», وذكر منها: «أَوْشَرْبَةِ عَسَلٍ», هذا سبب شرعي.

الثاني سبب قدري, السبب القدري: أن يُقدِّر الله عَزَّ وَجَلَّ أن هذا الشيء سبب لإزالة هذا المرض.

فمثلًا: بعض الأدوية التي أُكتشفت, قد يوجد بعض الأدوية سبب لإزالة هذا المرض.

فمثلًا: (البنادول) سبب لإزالة الصداع, هذا سبب قدري, بالتجارب عُلم أن هذا الشيء سبب, فلو أكل الإنسان (البنادول) واعتقد أنه سبب فلا إشكال.

ولكن لو وضع الإنسان شيء ليس بسبب لا شرعي ولا قدري فقد وقع في الشرك, وقع في الشرك الأصغر أن اعتقد أنه سبب, فهذه مهمة في الأسباب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح عن أَبَي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيَّ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِا فَأَرْسَلَ رَسُولًا أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ.

قَالَ الشَّارِحُ وفقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في الرقى والتمائم**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ مازال يذكر أشياء في التوحيد.

وقوله: **باب ما جاء**؛ يعني: ما جاء في حكمها.

والباب الذي قبله قال: **باب من الشرك**, وهنا قال: **باب ما جاء**.

وفي هذا دقة المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لأن من الرقى ما هو جائز؛ ولذلك قال: **باب ما جاء في الرقى والتمائم**.

ومن التمائم ما هو مختلف فيه؛ فلذلك ذكر الباب بهذه الصيغة.

قال: **باب ما جاء في الرقى**.

الرقى جمع رقية, والرقية: هي أن ينفث الإنسان بريقه على مريض مع قراءة شيء من الآيات أو الأدعية المذكورة.

قال: **والتمائم**.

التمائم: شيء يُعلَّق على الأولاد يزعمون أنه يُتقى به العين, شيء يُعلَّق على الأولاد من الخرز ونحو ذلك, وكان يزعمون أنه يُتقى به العين وأنه سبب في إبعاد العين.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**في الصحيح عن أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيّ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ, فَأَرْسَلَ رَسُولًا أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ**.

في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث رجل -وكان في سفر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ- أن تُقطع الأوتار المعلقة في رقاب الإبل التي يُعتقد فيها.

قوله: "**في الصحيح**"؛ يعني: في صحيح البخاري.

قال: "**عن أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيَّ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ**"؛ يعني: كان مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر.

"**فَأَرْسَلَ رَسُولًا**"؛ يعني: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل رسولًا, بعث رجل.

"**أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ**"؛ يعني: قلادة من الوتر, والوتر: هو واحد الأوتار.

"**أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ**", وقوله "**أَوْ**", الظاهر -والله أعلم- أنها للشك, هل قال: "قلادة من وتر" أو أنه أطلق قال: "قلادة إلا قُطعت"؟.

ففي هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بقطع هذه الأوتار, فدل على النهي, لأنه لما أمر بقطعها فالأمر للنهي.

فهذه الخيوط التي توضع على رقاب الإبل لا تخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن يُعتقد أنها سبب في إبعاد العين عن الإبل, فهذا شرك أصغر؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ما جعل هذه الخيوط سبب, لا قدري ولا شرعي.

الحالة الثانية: أن توضع هذه الخيوط على رقاب الإبل ويُعتقد أنها تنفع وتضر وتجلب النفع وتدفع الضر بذاتها دون الله عَزَّ وَجَلَّ؛ بحيث أنها تدفع وتجلب النفع من دون الله عَزَّ وَجَلَّ, فهذا شرك أكبر؛ لأن هذا اعتقد أن فيه فاعلين غير الله عَزَّ وَجَلَّ يعني يَخْلُقون.

ولذلك هذه الخيوط إذا كان يُعتقد فيها شيء من هذا فإنه يُنهى عنها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: « **إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**». رواه أحمداً وأبو داود.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

في هذا الحديث الذي ساقه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قال: وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**». رواه أحمد, وأبو داود.

سبب هذا الحديث: أن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأى امرأته زينب وقد وضعت عليها خيط, فلما رآه قطعه وقال: "إِنَّ آلَ عَبْدِالله لَأَغْنِيَاءُعَنِ الشِّرْكِ". ثم ذكر هذا الحديث قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**». رواه أحمد.

فنهى عن ذلك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله في الحديث: «**إِنَّ الرُّقَىٰ**».

الرقى -كما تقدم-: هي القراءة, ولكن الرقى هنا ليست الرقى مطلقًا, إنما هي رقى خاصة, وهي ما كانت تُفعل في الجاهلية, يعني: التي يكون معها نوع من الشرك.

وذلك أن الرقى نوعان:

نوع جائز, وهو الرقى بالقرآن الكريم أو بالأدعية المأثورة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا».

فهذا النوع جائز.

الثاني: الرقى التي يكون فيها شرك, كالتي يستعان بأسماء الشياطين, أو تكون بنوع من أنواع الشرك يستعان فيها بغير الله, فهذه لا تجوز.

ولذلك هذا الحديث يُحمل على الثاني, يعني النوع المحرم.

قال: «وَالتَّمَائِمَ».

التمائم كما تقدم: يوضع لأجل اتقاء العين, وسيأتي أن المؤلف يذكر هذه التفاسير.

قال: «وَالتِّوَلَةَ».

سيأتي أن المؤلف يقول: يزعمون أنها تحبب الرجل إلى زوجته, وأنها تجلب المودة.

ولذلك هنا أطلق قال: «وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ», أما الرقى فتُحمل على المحرمة التي فيها شرك.

قال: «وَالتِّوَلَةَ».

التِّولة: هي شيء يوضع يزعمون أنه يحبب الرجل إلى زوجته, ويحبب المرأة لزوجها, كأن توضع خيوط أو غير ذلك.

وإذا وضعت هذه (التولة) فلا تخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يضعها ويعتقد أنها تجلب الحب بذاتها وتدفع البغض بذاتها, بمعنى: أنها تخلق في قلبه هذا الشخص الحب وتجلب الحب بذاتها وتدفع البغض بذاتها, فهذا شرك أكبر.

الحالة الثانية: أن يعتقد أنها سبب في جلب المودة ودفع البغض, فهذا شرك أصغر؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ما جعل سبب لا شرعي ولا قدري.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ». رواه أحمداً والترمذي.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

في هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ». رواه أحمد, والترمذي.

فيه أن من علَّق قلبه بشيء وكله الله عَزَّ وَجَلَّ لهذا الشيء.

قال: وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا».

(شَيْئًا): هنا نكرة, فيشمل الخيوط والخرز والتولة وغير ذلك.

وقوله: «وُكِلَ إِلَيْهِ»؛ يعني: من تعلق قلبه بهذا الشيء وعلقه معتقدًا فيه فإنه يوكل إلى هذاالشيء.

ففيه أن إذا تعلق الإنسان بغير الله فإنه يُخل بتوحيده, فيوكل لهذا الشيء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

"التَّمَائِمُ": شيء يُعلَّق على الأولاد يتّقون به العين، لكن إذا كان المُعَلَّقُ من القرآن، فرخَّص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخِّص فيه ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ.

"والرُّقَى": هي التي تسمى العزائم، وخصَّ منها الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخَّص فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العين والحُمة.

"والتِّوَلَةُ": شيء يصنعونهاً يزعمون أنه يُحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: "التَّمَائِمُ": شيء يُعلَّق على الأولاد يتَّقون به العين.

وكانوا يعلقون خرز يوضع في خيط ويزعمون أنه سبب في أن يقي الإنسان من العين.

يقول المؤلف: "لكن –هنا للاستدراك– إذا كان المُعَلَّقُ من القرآن".

التمائم لا تخلو من حالتين:

الأولى: إن كانت من غير القرآن فلا تجوز.

الثانية: وإن كانت من القرآن ففيها خلاف.

ولذلك قال: "فرخَّص فيه بعض السلف".

بعض السلف رأى أن إذا كان المعلق من القرآن؛ بحيث أنه يضع مثلًا آية الكرسي فتُعلق على الطفل, فرخص فيه بعض السلف.

وقيل: أنه لا يجوز, وهو الظاهر والله أعلم, فالأقرب: أنه لا يجوز, لعموم حديث ابن مسعود أنه قال: «وَالتَّمَائِمَ», ولم يخص شيء منها.

ولأنه قد يُظن فيه ظن سوء, إذا رُئ وقد علق القرآن مثلًا علق ورقة ووضعها في شيء من القرآن فقد يُظن فيه سوء, ويُظن أنه قد وضع شيء غير القرآن وعلق قلبه بغير الله.

وأيضًا أنه سبب في تعليق ما لا يجوز, فاليوم يُعلق قرآن وغدًا يُعلق طلاسم, فإنه يقود إلى المحرم, لأن الإنسان إذا بدأ يفعل الشيء قد يتجرأ على غيره مما هو محرم.

الرابع: أنه سبب في أن يمتهن القرآن الكريم؛ بحيث أنه يدخل الخلاء, أو يقضي حاجته والقرآن مُعلق عليه, أو يأتي زوجته والقرآن مُعلق عليه.

فلهذه الأسباب لا يجوز تعليق القرآن الكريم.

فلذلك ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ وأصحابه كانوا يرون أنه لا يجوز.

فالأقرب -والله أعلم-: أنه لا يجوز.

ولذلك المؤلف قال: "وبعضهم لم يرخَّص فيه ويجعله من المنهي عنه, منهم ابن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ."

لأن ابن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ عمم في الحديث ما خص شيء.

قال: "والرُّقَى": هي التي تسمى العزائم.

العزائم: هي التي يُكتب في ورقة -مثلًا- وتُشرب مع الماء.

قال: "وخصَّ منها الدليل ما خلا من الشرك".

المؤلف يرى أنها نوعان؛ لذلك قال: "وخصَّ منها الدليل ما خلا من الشرك, فقد رخَّص فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العين والحُمة".

كما تقدم أن الرقية إذا كانت من القرآن أو من المأثور عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التعويذات فلا بأس.

والرقى تجوز بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن تكون من القرآن أو من المأثور عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التعويذات بصفات الله أو بأسمائه بما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشرط الثاني: أن تكون باللغة العربية أو بما يُعرف معناه, فلا تكون بطلاسم أو لغة لا تُعرف.

والعلة: لئلا يكون فيها نوع من الشرك.

الشرط الثالث: ألا يعتقد أنها مؤثرة بذاتها, وإنما هي سبب, فإذا شاء الله عَزَّ وَجَلَّ أجرى هذا السبب, وإذا شاء سلب خاصية هذا السبب, فهي سبب, الله عَزَّ وَجَلَّ هو المسبب, فلا يعتقد أنها مؤثرة بذاتها.

فإذا تمت هذه الشروط جازت الرقية.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رخص فيها من العين والحُمة.

وفي حديث بريدة الذي تقدم قال: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ».

والحُمة: هي لسعة العقرب والحية أو نحو ذلك.

والعين: أن يصاب الإنسان بعين شخص, فهي مرخصة, وأيضًا مرخصة للسحر والأمراض العضوية وما أشبه ذلك.

وعندنا: راقي, ومرقي, ومسترقي.

الراقي: هو الذي يقرأ على غيره وينفث عليه بالقرآن وبالتعوذات المأثورة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهذا محسن.

والدليل على ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ».

الثاني: مرقي, فهذا بالنسبة له جائز, بحيث أن يُرقى فهذا جائز في حقه.

والدليل على ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ».

فالإنسان إذا أصيب بعين فرقاه أحد فلا شيء عليه.

وأيضًا لأن جبريل رقى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, كما جاء في الصحيح.

ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعوِّذ الحسن والحسين.

الثالث: المسترقي, وهو الطالب, وهذا ما ينبغي أن يطلب من غيره أن يرقيه.

ولذلك -تقدم- أن من السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب, منهم: «الَّذِين لَا يَسْتَرْقون»؛ يعني: لا يطلبون من أحد يرقيهم.

ولذلك جاء أيضًا: "أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بايع أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا".

و(شيئًا): نكرة, فيدخل فيها طلب الرقية وطلب الدعاء وغير ذلك, فما ينبغي للإنسان أن يطلب من غيره شيء, ولكن لو طلب جاز, مع أنه ما ينبغي.

والإنسان من حيث تعلقه بالراقي لا يخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن يعتقد أنه يجلب النفع ويدفع الضر بذاته دون الله عَزَّ وَجَلَّ, بحيث أنه يعتقد في هذا الراقي أنه يزيل عنه المرض بذاته, له قدرة على ذلك, هذا شرك أكبر مخرج من الملة.

الحالة الثانية: أن يعتمد على هذا الراقي ويميل قلبه إليه, فهذا شرك أصغر؛ لأن الإنسان إذا مال قلبه إلى السبب واعتمد عليه دون الله عَزَّ وَجَلَّ فقد وقع في شرك أصغر.

الحالة الثالثة: أن يعتقد أنه مجرد سبب, وأن الشافي هو الله عَزَّ وَجَلَّ ولا يميل قلبه إليه, أن لا يعتمد عليه ولا يميل قلبه إليه, وإنما يعتقد أنه مجرد سبب وأن الشافي والمعافي هو الله, فيعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ, فهذا جائز, وإن كان الأفضل أن لا يطلب.

قال: "والتِّوَلَةُ".

التِّولة: هي شيء يُصنع يعتقدون أنه سبب في تحبيب الرجل في زوجته والمرأة لزوجها.

هذا تقدم أنه يعتقد أنها تأتي بالحب بذاتها دون الله عَزَّ وَجَلَّ, فهو شرك أكبر, وإذا اعتقد أنها سبب فهو شرك أصغر, لأن الأسباب لها ضوابط.

الإنسان من حيث إثبات الأسباب أو نفيها لا يخلو من حالات:

أولًا: يجب على الإنسان أن لا يُثبت سبب, ليس بسبب لا كوني ولا شرعي.

كوني: كما يقدِّر الله عَزَّ وَجَلَّ أن هذا العلاج سبب لإبعاد هذا المرض.

سبب شرعي: أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل الرقية سبب لإبعاد العين.

ثانيًا: أن لا يعتمد على هذا السبب, لا يجوز للإنسان أن يعتمد على السبب, وإنما يفعل السبب على أنه سبب ثم يعلق قلبه بالله عَزَّ وَجَلَّ.

فالإنسان لا يلتفت, إلى الأسباب بل يمضي وينسى السبب خلفه ما يلتفت إليه, أما إن بدأ يُحدِّث نفسه لعل هذا السبب يؤثر, لعله يقوم بكذا وكذا, فهذا يبدأ يتعلق قلبه بسبب شيئًا فشيئًا.

فالضابط: أن الإنسان إذا فعل السبب يمضي يترك هذا السبب, لا يلتفت فيقول هل أثر فيَّ؟ هل ذهب هذا المرض؟ لا يلتفت إلى الأسباب .

والأسباب إن كان قدرها الله عَزَّ وَجَلَّ كونًا أو شرعًا فلابد أن يأخذ بها الإنسان ويعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن نفي الأسباب ضلال في الدين وقدح فيه, ما يجوز للإنسان ينكر الأسباب؛ لأن الأسباب مؤثرة بما أودع الله عَزَّ وَجَلَّ فيها.

فمثلًا: النار مُحرقة, ما يأتي أحد ويقول: النار ليست بمُحرقة لا تؤثر, بل لابد أن يعتقد أن الأسباب لها تأثير بإذن الله, فالأسباب لها تأثير بإذن الله.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وروىٰ أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَترًا، أَوْ اسْتَنْجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ» .

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوْ اسْتَنْجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ» .

في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر رويفع -أحد الصحابة- أن الحياة ستطول به يبقى مدة من الزمن, فإذا بقي هذا الوقت فعليه أن يخبر من بعده, أنه من تعلق وترًا معتقدًا فيه أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمدًا بريء منه.

قال: وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«يَا رُوَيْفِعُ», ناداه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسمه, قال: «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ», ستبقى مدة من الزمن.

ولذلك رويفع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقي بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدة من الزمن وطالت به الحياة بعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ».

(عَقَدَ لِحْيَتَهُ)؛ يعني: يعقد اللحية بحيث أنه يجعل لها عقد ويدخل بعضها في بعض.

قيل: أنهم كانوا يفعلون ذلك لأجل التكبر والفخر والخُيلاء.

وقيل: لأجل التأنث ومشابهة النساء والتميل.

قال: «أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا»؛ يعني: تقلد هذا الوتر وهو السلك الذي يكون في وتر السهام إذا تعلقه معتقدًا فيه أن يدفع الضر أو يجلب نفعًا.

«أَوْ اسْتَنْجَىٰ»؛ يعني: أزال النجوى: هو ما يخرج من القُبُل أو الدُّبر, ويُزال هذا الشيء.

«بِرَجِيعِ دَابَّةٍ», الرجيع: هو روث الدابة, وسُمي رجيع لأنه تغير عن حالته الأولى ورجع, بحيث أنه كان طعام وأصبح الآن روث.

«بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ», عظْم: هو العظم المعروف, «فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ»؛ يعني: إن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريء منه.

وهذا فيه تشديد, وإذا برأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحد فإن هذا يدل على أن الفعل كبيرة من كبائر الذنوب.

ولذلك قال بعض السلف: هذه النصوص تبقى على ظاهرها.

ولكن إذا كان الإنسان ما فعل كفر فإنه لا يكون قد كفر, وهذه النصوص للزجر.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بما سيكون بعده من أمور الغيب التي أطلعه الله عَزَّ وَجَلَّ عليها؛ ولذلك أخبر رويفع بأمر مما أخبره الله عَزَّ وَجَلَّ به.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعلم الغيب, وإنما يُطلعه الله عَزَّ وَجَلَّ على بعض الغيب الذي يشاءه سبحانه.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: }عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ{[الجن: ٢٦-٢٧].

فالله عَزَّ وَجَلَّ قد يُطلع بعض رسله على ما شاء من الغيوب التي ستكون في المستقبل؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر رويفع بما سيقع له, ووقع كذلك.

ومن الفوائد: أنه لا يجوز عقد اللحية, لا تكبرًا ولا تأنثًا, النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأ ممن يفعل ذلك, فإذا فُسر بالأول فلا يجوز, وإذا فُسر بالثاني فلا يجوز أيضًا, النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطلق هنا قال: «مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ» .

ومن الفوائد: أن من تعلق شيئًا معتقدًا فيه أنه جالب للنفع أو دافع للضر فإنه لا يجوز؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأ منه.

ولكن هنا مسألة: إذا علَّق الإنسان شيء, علَّق خيط, أو سوارة, أو قطعة من النحاس, فهذا لا يخلو من حالات:

- الحالة الأولى: أن يضعها تقليدًا للكفار, فلا يجوز؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

- الحالة الثانية: أن يضعها تشبهًا بالنساء, فلا يجوز؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَعَنَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ» .

- الحالة الثالثة: أن يضعها غير ناوي لأي أمر, فلا يجوز؛ لأنه تشبه بمن يضعها لجلب نفع أو دفع ضر, فلا يجوز التشبه بمن فعل شرك.

الحالة الرابعة: أن يضع هذه الأشياء يعتقد أنها تدفع بذاتها أو تجلب النفع بذاتها دون الله عَزَّ وَجَلَّ؛ بحيث أنها تخلق العافية, أو تنفي المرض بذاتها, فهذا شرك أكبر؛ لأنه أشرك بربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ.

الحالة الخامسة: أن يعتقد أنها سبب, يضع هذه الأشياء يعتقد أنها سبب, فهذا شرك أصغر؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يجعل هذا الشيء لا سببًا شرعيًّا ولا سببًا كونيًّا.

فهذا هو ملخص من تعليق هذه الأشياء.

ومن الفوائد: أنه لا يجوز الاستنجاء برجيع الدابة.

والاستنجاء برجيع الدابة لا يجوز؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عنه.

ورجيع الدابة الاستنجاء به لا يخلو من حالتين:

- الأول: أن يكون الرجيع طاهر, كما لو كان روث بعير, أو شاة, أو ما أشبه ذلك, فهذا لا يجوز؛ لأنه طعام للبهائم إخواننا من الجن.

- الثاني: أن يكون نجس, كروث حمار, أو روث خنزير, أو عذرة إنسان, فلا يجوز؛ لأنه نجس, والنجس لا يزال به النجاسة.

ومن الفوائد: أن العظم لا يجوز الاستنجاء به.

والعظم أيضًا لا يخلو من حالتين:

- الحالة الأولى: أن يكون عظم ميتة طاهر, شاة طاهرة, فهذا لا يجوز؛ لأنه طعام إخواننا من الجن.

- الحالة الثانية: أن يكون نجس, كعظم ميتة مثلًا, أو عظم كلب, فلا يجوز؛ لأنه نجس, كيف تزال النجاسة بنجس؟!

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن سعيد بن جُبير رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: "مَنْ قَطَعَ تَمِيمةً مِن إِنسانٍ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ". رواه وكيع.

ولهُ عن إبراهيم قال: "كانُوا يَكْرَهُونَ التَّمائِمَ كُلَّها، مِنَ القُرآنِ وغيرِ القُرآنِ".

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

في هذا الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قال: **وعن سعيد بن جُبير رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: "مَنْ قَطَعَ تَمِيمةً"**؛ يعني: من أزال, **"مِن إِنسانٍ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ"**؛ لأنه كان سبب في انفكاك هذا الإنسان من رق المعصية.

قال: **ولهُ عن إبراهيم قال: "كانُوا يَكْرَهُونَ التَّمائِمَ كُلَّها، مِنَ القُرآنِ وغيرِ القُرآنِ"**.

وذكر الأثر عن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ قال: **"كانُوا يَكْرَهُونَ"**؛ يعني: أصحاب ابن مسعود, كان أصحاب ابن مسعود يكرهون التمائم كلها, من القرآن ومن غيره.

فالكراهة عند السلف تُطلق ويراد بها التحريم, فلا يجوز تعليق التمائم لا من القرآن ولا من غيره.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من تبرك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما

وقول الله تعالىٰ: }أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ{[النجم: ١٩-٢٠].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من تبرك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما**.

مناسبة هذا الكتاب لكتاب التوحيد: أن المؤلف ما زال يذكر أشياء من أنواع الشرك, لأن من التبرك ما يكون شرك, منه ما هو أكبر, ومنه ما هو أصغر, بحسب نية فاعله.

قال: **باب من تبرك**.

التبرك: هو طلب البركة من الشيء.

والبركة: هي الخير الكثير الثابت.

قيل: أنها مأخوذة من البِركة، لاجتماع الماء فيها وثبوته.

وقيل: من بروك البعير, لثبوته بمكانه، هذه البركة.

والتبرك: هو طلب البركة من الشيء.

قال: **بشجرٍ**.

الشجرة معلومة، والشجرة سُميت شجرة لتداخل أغصانها، ومنه تشاجر القوم؛ يعني: اختلطوا واختصموا فيما بينهم.

وقوله: **حجرٍ**؛ حجر معروف، الحجارة معروفة.

ونحوهما؛ يعني: نحو الحجر, كالأضرحة والقبور ووالأماكن وما أشبه ذلك.

قال: **باب من تبرك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما**.

البركة من الله عَزَّ وَجَلَّ، الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يبارك في الشيء فيجعله مباركًا.

والبركة تُطلب من الله عَزَّ وَجَلَّ ولا تُطلب من غيره، فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ الذي يجعل الشيء مبارك.

ولذلك جاء في صحيح البخاري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ».

والعبد مبارك؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي وضع فيه البركة وجعله مبارك.

البركة من الله والعبد هو المبارك؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي وهبه البركة.

والبركة تنقسم إلى قسمين:

الأول: بركة موهومة.

الثاني: بركة مشروعة.

أما الأول: البركة الموهومة، فقد يتبرك الإنسان بالدواب أو الأماكن أو الزمان أو الأقوال، فيتبرك بالشيء ليس مشروع.

فيتبرك -مثلًا- بالدواب, كما لو تبرك الإنسان بإنسان من هذه الأمة غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذاته أو بأثره, فهذه بركة موهومة لا تصح، وسيأتي حكمها إن شاء الله.

أو يتبرك بزمان، كما لو تبرك -مثلًا- بمولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تبرك بالنصف من شعبان فيصلي تلك الليلة, فهذه بركة موهومة ليس فيها دليل.

أو يتبرك بأقوال -مثلًا- كأن يقول أذكار ليست مشروعة ويتبرك بها ويرى أن لها فضل، فيطلب الخير ويظن أنها سبب للخير, فهذه بركة موهومة، كما يقع من بعض الصوفية يقولون: الله الله، يريدون الخير، هذا بركة موهومة.

أيضًا بالأماكن، كما لو تبرك الإنسان بشجر أو حجر أو قبر أو حجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيتبرك بمكان, فهذه بركة موهومة ليس فيها دليل وليست مشروعة.

الثاني: بركة مشروعة، وقد تكون بركة في مكان أو في زمان أو في ذات أو في قول.

الأول: البركة في مكان؛ كما لو صلى الإنسان في المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، ومسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمسجد الأقصى، فهذه بركة مكان الصلاة هناك تعادل الكثير من الصلوات في غيرها.

الثاني: البركة في زمان؛ كما لو صلى الإنسان في ليلة القدر فالعمل فيها خير من ألف شهر.

الثالث: البركة في ذات، في شخص وهذا خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجوز التبرك بذاته وآثاره، كعرقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو ما يخرج من ريقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبارك بركة ذاتية، بحيث أن الإنسان إذا تبرك به تنتقل إليه بركة بإذن الله.

والدليل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توضأ مرة، فلما توضأ يقول الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم: "كدنا أن نقتتل على وضوئه, فمنا النائل ومنا الناضح"، فكانوا يتبركون بذاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ جعله مبارك بركة ذاتية، بحيث أن الإنسان إذا تبرك به تنتقل بإذن الله.

أيضًا الرابع: البركة بالقول، من ذلك القرآن, التبرك بالقرآن، القرآن مبارك, فيتبرك الإنسان بتلاوته ونحو ذلك، قال الله تعالى: }كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ{[ص: ٢٩].

أما من حيث الحكم.

فالتبرك بما هو غير مشروع -مثلًا- يتمسح بذات شخص أو قبر أو حجر ويعتقد أنه يمنح البركة بذاته، يعتقد أن البركة يُنشئها هذا الشيء بذاته، فهذا شرك أكبر، لأنه جعل مع الله عَزَّ وَجَلَّ خالقين.

الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يهب البركة، فمن اعتقد أن غير الله يهب البركة فقد أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا شرك أكبر.

الثاني: أن يعتقد أن البركة من الله وأن هذا الشيء الموهوم مبارك ويجعله سبب ولم يجعله الله سبب لا شرعًا ولا قدرًا، هذا شرك أصغر، لأن الإنسان إذا تبرك بشجرة أو حجر أو قبر ورأى أنه سبب في البركة فهذا شرك أصغر.

الثاني: البركة المشروعة.

والضابط في البركة المشروعة أن الإنسان يتبرك بكل ما ورد بحسب ما ورد في الشرع ولا يزيد.

بمعنى: أن الإنسان إذا تبرك بمكان يصلي فيه -مثلًا- إذا تبرك بالمكان مثل المسجد الحرام بالصلاة فيه لا أنه يتمسح بالحيطان ويعتقد أن البركة تنتقل إليه، لا، وإنما يتبرك بما ورد في الشرع, كأن يصلي فيه ويرى أن الصلاة فيه فيها فضل.

أيضًا بالذوات، يتبرك بذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو آثاره، ولا يوجد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآن أثر، فلا يُشرع التبرك بشيء من آثاره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لأنه لا يوجد من آثاره شيء، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات, فلا يُتبرك بشيء من هذا.

أيضًا الأقوال, يتبرك بالقرآن لما ورد, أن يتلوا القرآن ويقرأ على نفسه به، وهكذا.

أيضًا الزمان , يصلي ليلة القدر ولا يبتدع فيه كأن يفعل عبادات ما وردت.

أيضًا هذه الأشياء المشروعة هي سبب وليست هي مسبب بذاتها, إنما هي سبب، فيعتقد الإنسان أنها سبب؛ بمعنى: أن الإنسان قد يتبرك بهذا الشيء ولا يأتيه بركة.

فمثلًا القول, كما لو قرأ الإنسان على نفسه يعتقد أنه مجرد سبب، لا أنه إذا قرأ على نفسه أنه سيُشفى بذاته, لا، إنما يعتقد أنه سبب.

أيضًا التبرك بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو سبب, لا يعتقد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهب البركة بذاته، لا، إنما هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ سبب، والله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي جعله مبارك، فيطلب البركة من الله, ويعتقد أن الله هو الواهب للبركة وأن هذا الشيء سبب إذا كان مشروع.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من تبرك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما.**

ونحوهما؛ مثل: القبور والصخرة عند بيت المقدس، ومقام إبراهيم، وما أشبه ذلك.

وملخص ما مضى أن البركة تنقسم إلى قسمين: بركة مشروعة، وبركة ممنوعة.

البركة المشروعة كأن يتبرك الإنسان بمكان يصلي فيه.

يتبرك بذات كذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا خاص بذات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يتبرك بزمان كأن يصلي ليلة القدر.

يتبرك بقول كأن يقرأ القرآن ويتلوه.

أيضًا الثاني: بركة ممنوعة، وهي لا تخلو من حالتين, إن اعتقد الإنسان أن هذه الأشياء تهب البركة بذاته.

مثلًا: القبر يأتي بالبركة بذاته، يخلق البركة، أو أن –مثلًا- الحجر يخلق البركة بذاته، فهذا شرك أكبر.

الثاني: أن يعتقد أنه سبب ولم يجعله الله عَزَّ وَجَلَّ سبب, لا كونًا ولا شرعًا، فهذا شرك أصغر.

والعلة: لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ما جعله سبب، وقد تقدم أن من أثبت سببًا ليس سبب لا شرعي ولا كوني واعتقد أنه سبب فقد وقع في الشرك الأصغر.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقول الله تعالى:}أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى{[النجم: ١٩-٢٠].

في هذه الآية الكريمة يُبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن هذه الأصنام التي اتخذها المشركون لا تُغني ولا تُسمن من جوع، فهي لا تُغني عن عابديها شيء وأن عبادتها باطلة، وأنها لا تستحق العبادة.

قال الله تعالى: }أَفَرَأَيْتُمُ{؛ يعني: أخبروني.

}اللَّاتَ{، روي بالتشديد وهو من لتَّ يلوت، رجل كان يلت السويق ويطعمها للحجاج فمات فعكفوا على قبره فعبدوه من دون الله.

وروي اللات بالتخفيف وهي اسم لصخرة كان تُعبد صخرة كبيرة منقوشة كانت تُعبد من دون الله.

قال: }وَالْعُزَّى{، والعزى شجرة كانت تُعبد من دون الله.

}اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ{، مناة أيضًا صخرة كانت تُعبد من دون الله، وسميت مناة إما مأخوذة من اسم الله عَزَّ وَجَلَّ المنان، وإما لكثرة ما يُمنع عندها من الدماء تقربًا لها.

قال: }أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى.{

كان المشركون يقولون: أن الملائكة بنات الله، وكانوا يأنفون أن يأتي الرجل بنت إذا أتاه بنت غضب وكان يأنف ويضيفها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ} :أَلَكُمُ الذَّكَرُ{؛ يعني: تحبون لأنفسكم الذكور، }وَلَهُ الْأُنْثَى{، وتجعلون لله الأنثى.

}تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى{[النجم: ٢٢]؛ يعني: هذه القسمة جائرة كيف تجعلون لله عَزَّ وَجَلَّ ما تبغضون وتجعلون لأنفسكم ما تحبون؟!

وإن كان إضافة الولد لله عَزَّ وَجَلَّ ظلم مطلقًا سواء الذكر أو الأنثى، لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولكن وبخهم الله عَزَّ وَجَلَّ على هذه القسمة الجائرة.

}أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى.{

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن أبي واقِدٍ اللَّيْثيِّ قال: خَرَجنا مع رسُول اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ حُنَيْنٍ ونَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ، وللمُشرِكِينَ سِدرَةٌ يَعكُفُونَ عِندَها ويَنُوطُونَ بها أَسلِحَتَهُم؛ يُقالُ لها: ذاتُ أَنواطٍ، فَمرَرنا بِسدرَةٍ؛ فقلنا: يا رسول الله اجعَلْ لنا ذاتَ أَنواطٍ كما لَهُم ذاتُ أَنواطٍ. فقال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُ أَكبرُ إنَّها السُّننُ، قُلتُم والذي نَفسِي بِيَدِهِ كَمَا قالت بَنُو إسرائيلَ لِمُوسىٰ:** }اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ{[الأعراف: ١٣٨]؛ **لَتَركَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**». رواه الترمذي وصححه.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

في هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج لقتال قبيلة هوازن في السنة الثامنة للهجرة، وخرج إلى حنين وكان معه بعض الصحابة الذين

أسلموا للتو، ومروا بالطريق على شجرة كان المشركون يُعلقون بها الأسلحة يريدون منها البركة ويعظمونها.

فرأوا أولئك هذا الشيء فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا مثلها، فأنكر عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا السؤال لا يجوز، فقال: «قُلتُم كَمَا قالت بَنُو إسرائيلَ لِمُوسىٰ: }اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ.«{

ثم قال: «لَتركَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ يعني: طرقهم.

قال: **عن أبي واقِدٍ اللَّيثيِّ قال: خَرَجنا مع رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حُنَيْنٍ**؛

يعني: إلى قتال قبيلة هوازن في السنة الثامنة، وحنين موقع قرب الطائف.

قال: ونَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ.

حُدَثَاءُ؛ يعني: قريبي عهد بكفر؛ بمعنى: أنهم للتو أسلموا.

قال: **وللمُشرِكِينَ سِدرَةٌ.**

سِدرَةٌ؛ هي شجرة معروفة.

يَعكُفُونَ عِندَها، العكوف هو المُكث عند الشيء.

وقيل: أنه المكث المقترن بتعظيم، يعكف على الشيء ويكون معه شيء من التعظيم، كما حكى الله عَزَّ وَجَلَّ عن خليله قال تعالى: }مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ{[الأنبياء: ٥٢]، كانوا يعكفون عندها ويعظمونها.

قال: **عِندَها ويَنُوطُونَ بها أَسلِحَتَهُم.**

ويَنُوطُونَ، النوط هو التعليق، وسميت ذات أنواط لكثرة تعليقهم الأسلحة عليها.

بها أَسلِحَتَهُم، كالسيف والسهام ونحو ذلك.

يُقالُ لها: ذاتُ أَنواطٍ .

ذاتُ؛ يعني: صاحبة أنواط، والنوط هو ما يُعلق عليه الشيء، سميت ذات أنواط لكثرة ما ينوطون عليها؛ يعني: يعلقونها.

فَمرَرنا بِسدرَةٍ؛ يعني: شجرة أخرى، يعني: الصحابة الذين كانوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقلنا: يا رسول الله اجعَلْ لنا ذاتَ أَنواطٍ؛ يعني: اجعل لنا شجرة ننوط بها أسلحتنا كما يفعلون.

كما لَهُم ذاتُ أَنواطٍ.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُ أَكبرُ»، وهذه كلمة تُقال عند التعجب.

قال: «اللهُ أَكبرُ»، هو أجل وأعظم.

«إِنَّها السُّننُ»؛ يعني: الطرق.

«قُلتُم والذي نَفسِي بيَدِهِ»؛ يعني: أقسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالذي نفسه بيده وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: «قُلتُم كَمَا قالت بَنُو إسرائيلَ لِمُوسىٰ»، بنو إسرائيل قالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ.﴾

بنو إسرائيل لما أنجاهم الله عَزَّ وَجَلَّ من الغرق وأغرق فرعون وقومه مروا على قوم لهم آلهة يعبدونها من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، فلما رأوه قالوا لموسى: اجعل لنا كما لهؤلاء، فأنكر عليهم موسى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ يعني: جاهلون بالصواب، كيف تريدون أن تشركوا بالله؟!

لأن الله عَزَّ وَجَلَّ واحد أحد.

«لَتركَبُنَّ سُنَنَ من كانَ قَبْلَكُمْ».

سَنن وسُنن، «سُنَنَ من كانَ قَبْلَكُمْ»؛ يعني: الطرق التي سلكوها.

«من كانَ قَبْلَكُمْ»، كاليهود والنصارى ونحو ذلك.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن الإنسان يُعذر إذا كان حديث عهد بكفر، إذا كان حديث عهد بكفر؛ بمعنى: أنه قريب الإسلام، إذا كان قريب الإسلام فإنه يُعذر بجهله حتى يعرف أحكام الدين.

ولذلك اعتذر أبي واقد الليثي رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ.

ولذلك يقول العلماء: أن الإنسان قد يُعذر بالجهل، كما لو كان الإنسان حديث عهد بالإسلام؛ يعني: قريب الإسلام، أو يكون الإنسان يعيش في مكان لم يبلغه قرآن ولا سنة، فقد يُعذر الإنسان.

كما قال الله تعالى: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[الأنعام: ١٩]؛ يعني: بلغه القرآن، فمن بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة، ومن لم يبلغه القرآن ولا السنة فإنه حكمه حكم أهل الفطرة؛ فلذلك قال: حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ.

ومن الفوائد: أن طلب البركة من الأشجار والأحجار شرك، فإن كان يقترن به التعظيم واعتقاد أن هذا الشيء يهب البركة فهو شرك أكبر، كما كان يفعل المشركون عند هذه الشجرة، بل كانوا يعكفون عندها ويعظمونها ويطلبون البركة منها، بل يعلقون الأسلحة يعتقدون أنها تهب البركة، وأيضًا يقترن بها تعظيم كان عندهم تعظيم لها، فإذا طلب الإنسان من الأشجار أو الأحجار أو القبور كما لو تمسح على قبر فظن أنه يهب البركة بذاته، هذا شرك أكبر مُخرج من ملة الإسلام، ولذلك قال: وللمُشرِكِينَ.

ومن الفوائد: شدة إنكار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للشرك، ولذلك قال: «اللهُ أَكبرُ».

وهنا مسألة: الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم الذين كانوا حدثاء عهد بكفر لم يقعوا في الشرك لأمرين:

- الأول: لأنهم حدثاء عهد بكفر، الإنسان إذا كان حديث عهد بكفر فإنه يُعذر حتى يعرف أحكام الدين.

- الثاني: لأنهم لم يفعلوا فلما زجرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهوا فلم يفعلوا، ولذلك ما وقعوا في الشرك.

ومن الفوائد: شدة جهل الذين طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة كما لأولك، وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ أريهم كيف أغرق فرعون وقومه وأنجاهم، فمن رأى الآيات العظام حري به أن لا يعبد إلا الله ولا يشرك به شيء.

فإذا طلب أن يشرك بالله بعد هذا فهو يدل على الجهل، وأيضًا بنو إسرائيل ما فعلوا فلم يقعوا في الشرك لأنهم لم يفعلوا، فالإنسان إذا ما فعل الشرك وإن كان طلب الشرك فقد أخطأ ولكن ما يشرك.

ومن الفوائد: أن هذه الأمة ستلحق بالأمم التي قبلها: ليس الأمة كلها ولكن بعض الأمة سيشابه اليهود والنصارى ومن قبلهم.

ولذلك قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنتم أشبه ببنو إسرائيل سمتًا وهديًا، فقد يلحق بعض هذه الأمة بالمشركين.

والتشبه بالمشركين إن كان في الأقوال والأمور الدنيوية فهو محرم، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»، ولذلك يجب الحذر من التشبه بالكفار والمشركين.

هنا مسائل: تقدم أن البركة لابد فيها من دليل على أن هذا الشيء مبارك ويتبرك به الإنسان على الوجه الذي ورد شرعًا.

فمثلًا: ماء زمزم يتبرك به بشربه، كما جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: »إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ«، فإذا شرب الإنسان ماء زمزم واعتقد أنها سبب في ذهاب الجوع فلا بأس، ويعتقد أنها سبب وأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يهب البركة. وأيضًا إذا تبرك بذات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تبرك بزمان فيتبرك بالوجه المشروع مثل قيام ليلة القدر يصلي، ولا يتبرك على وجه غير مشروع كما -مثلًا- لو الإنسان قال: كل ليلة من الليالي العشر أتصدق بريال، هذا ما فيه دليل ؟

قال: أريد البركة، نقول: لا، لابد أن يكون فيه دليل، أما الصلاة فقد ورد عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أيضًا القول يتبرك بالقول كأن يقرأ القرآن، فمثلًا: لو تمسح بالقرآن قال: أريد البركة، القرآن فيه بركة؟ أريد أن أنتقل إلى البركة، نقول: هذا لا يصح، لأن التبرك بالقرآن تلاوته.

وهنا مسألة أيضًا: مكة أو البيت الحرام مباركة كما تقدم، والحجر الأسود مبارك، فالتبرك بالمسجد الحرام بالصلاة فيه، ولا يمسح الحيطان ويريد البركة، وأيضًا الحجر الأسود مبارك فيمسحه طلبًا للأجر لا طلبًا لانتقال البركة كما لو كان- به مرض فيمسحه ويعتقد أنه يذهب المرض؛ هذا لا يجوز.

أيضًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبارك في ذاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ وفي آثاره كعرقه وسيفه وثوبه، والملابس التي تنفصل منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ملازمة له، فيتبرك بها، لكن على ما ورد في الشرع ويعتقد أنها سبب.

ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات فلا يتبرك بحجرته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ، لأن البركة في ذاته وقد مات عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

أيضًا التبرك بآثاره فلا يأتي الإنسان بشعر ويقول: هذا شعر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن آثار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد انتهت، وآثار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسية وقد ذهبت مثل: ثوبه وشعره وسيفه هذا لا يوجد الآن، ومن زعمه أنه يوجد فلا دليل عنده.

الثاني: بركة معنوية وهي التبرك بسنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ وأحاديثه؛ بمعنى: أن يقرأها الإنسان ويحفظها، فهذه مشروعة ويتبرك البركة المعنوية، لأن الإنسان إذا حفظ الحديث وعمل بالسنة فإنه فيها خير كبير.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالىٰ: }قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ{[الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وقوله: }فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{[الكوثر: ٢].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في الذبح لغير الله.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ما زال يُبين شيء من أنواع الشرك، ومن ذلك الذبح لغير الله إن كان على وجه التقرب والتعظيم فهو شرك أكبر مُخرج عن ملة الإسلام.

قال: **باب ما جاء في الذبح لغير الله.**

الذبح: هو إزهاق الروح بقطع الودجين والحلقوم والمريء على صفة مخصوصة.

وقوله: **الذبح لغير الله**؛ أي: أن الذبح لغير الله، فقد يكون على وجه التعبد وقد يكون لا يُراد به التعبد، وسيأتينا إن شاء الله, لأنه قال: **لغير الله**، ما قال من الشرك.

فالذبح قد يكون شرك إن قصد به التقرب والتعظيم، وقد يكون مباح إذا أراد به اللحم ونحو ذلك، وسيأتينا هذا التفصيل إن شاء الله.

قال: **باب ما جاء في الذبح لغير الله.**

وقول الله تعالى: }قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.{

في هذه الآية الكريمة يُبين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه أمر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول: }إِنَّ صَلَاتِي{، الصلاة المعروفة.

}وَنُسُكِي{؛ يعني: ذبيحتي.

}وَمَحْيَايَ{؛ يعني: ما أحيا عليه.

}وَمَمَاتِي{؛ يعني: ما أموت عليه.

}لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{؛ يعني: لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى اختصاصًا.

قال: }قُلْ{؛ يعني: يا محمد.

﴿إِنَّ صَلَاتِي.﴾

﴿إِنَّ﴾، هنا لتوكيد.

و ﴿صَلَاتِي﴾؛ يعني: الصلاة فرضًا ونفلًا.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾؛ يعني: تعبدي بالصلاة, سواء كانت هذه الصلاة فرضًا أم نفلًا.

﴿وَنُسُكِي﴾؛ يعني: ذبيحتي، والنسك هي الذبيحة.

﴿وَمَحْيَايَ﴾؛ يعني: ما أحيا عليه طيلة عمري، وما آتيه في هذه الدنيا من أعمال صالحة وتعبد.

﴿وَمَمَاتِي﴾؛ يعني: ما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح، وما أخرج به من هذه الدنيا.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، اللام هنا لام الاختصاص؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يختص بالتعبد والتوكل.

وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: الرب هو الخالق المالك المدبر.

والتربية هي التنشئة شيئًا فشيء، الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي خلق الخلق وهو الذي يرزقهم, فينشئون على تقدير الله عَزَّ وَجَلَّ لهم.

و ﴿الْعَالَمِينَ﴾؛ ما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ, كعالم الملائكة وعالم البشر وعالم الجن وعالم الطيور, وغير ذلك من العوالم.

ففي هذه الآية الكريمة أن الصلاة وكذلك الذبيحة، لله عَزَّ وَجَلَّ، فالذبح يختص به الله عَزَّ وَجَلَّ إذا كان على وجه التقرب والتعظيم.

قال: وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ.﴾

في هذه الآية الكريمة لما منَّ الله عَزَّ وَجَلَّ على رسوله بالكوثر وهو نهر في الجنة أعطاه الله إياه أعطاه نبيه, فقال له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: اشكر ربك بأن تصلي له وتنحر، فالنحر هو الذبح.

قوله: (فاء) الفاء هنا سببية.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ.﴾

﴿لِرَبِّكَ﴾؛ يعني: خالقك ومعبودك الذي ليس لك معبود سواه.

﴿وَانْحَرْ﴾؛ يعني: اذبح وتوجه له بالنحر.

ففي هذه الآية الكريمة: أن الذبح لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه قُرن بالصلاة، والصلاة من أعظم العبادات.

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن أعظم العبادات المالية هو الذبح.

والذبح عبادة من أجل العبادات، فيجب أن يتوجه الإنسان بذبحه لله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حدثني رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربع كلمات: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ». رواه مسلم.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وعن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حدثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربع كلمات: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»؛ يعني: من توجه بالذبح لغير الله تعبدًا وتقربًا.

وقوله: «لَعَنَ»، يُحتمل أنها خبر، ويُحتمل أنها دعاء.

يُحتمل أن «لَعَنَ اللهُ»، خبر، يخبر أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد لعن من ذبح لغير الله وهو أبلغ لأنه واقع.

ويحتمل أن «لَعَنَ اللهُ»؛ أي: دعاء, يدعو عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللعن.

«مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»؛ يعني: على وجه التقرب والتعبد.

«لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»، لعن الوالدين لا يجوز, ويترتب عليه أن الإنسان يُلعن إذا لعن والديه.

ولعن الوالدين له صورتان:

الصورة الأولى: أن يتوجه لهم باللعن، أن يواجههم باللعن, وهذا ملعون –نسأل الله العافية–.

الصورة الثانية: أن يتسبب في لعن والديه، كأن يلعن والديه شخص فيرد عليه بالمثل.

لما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ»، قالوا: يا رسول الله: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يَسُبُّ أبا الرَّجُلَ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ».

فإذا تسبب الإنسان في لعن والديه فإنه قد وقع في المنهي عنه، هذه الصورة الثانية.

قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا».

«مَنْ آوَىٰ»؛ يعني: ضم وجمع.

والمُحدِث –بكسر الدال– مُحدِث يعني: جاني، كقاتل النفس بغير حق.

وروي مُحدَث – بفتح الدال–: وهو المبتدع، يعني: ضم مبتدع, واقع في بدعة فضمه اليه, فهذا ملعون.

قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ».

قوله: «لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ»؛ يعني: غيَّر التحديد، والمنار: هي المراسيم والحدود للأرض، بحيث أنه زاد في أرضه وأخذ من أرض جاره، فهذا ملعون, لأنه أخذ ما ليس له واقتطع مال أخيه المسلم.

وهذا له صورتان:

الصورة الأولى: أن يأخذ من مال خاص، كأن يقتطع من أرض جاره, يزيد في أرضه ويأخذ من أرض جاره, يُغيِّر المنار؛ يعني: المراسيم حتى يأخذ من أرض جاره بغير حق.

الصورة الثانية: أن يأخذ من مال عام، كأراضي الدولة –مثلًا–, فهذا داخل في هذا النهي، لأنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ ما ليس له بغير حق.

فالمال العام مال المسلمين العام لا يجوز أن يقتطع منه الإنسان بغير حق، كمن يأخذ -مثلًا- من الشوارع ويأخذ من الطرق والأسواق ونحو ذلك.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن اللعن يجوز إذا كان عام.

ولذلك قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»، بدون تعين.

واللعن ينقسم إلى قسمين:

لعن عام, فهذا جائز -والله أعلم- كأن يلعن الكفار يقول: لعن الله الكفار، لعن الله اليهود جائز، أيضًا لعن الله السارق، لعن الله شارب الخمر، فهذا جائز؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن السارق قال: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ»، ولعن شارب الخمر، ولعن آكل الربا، قال: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ»، ولعن آكل الرشوة قال: «لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ»، وما أشبه ذلك.

الثاني: لعن خاص, فهذا لا يجوز, لا للكافر ولا للمسلم الفاسق، وهذا الأقرب -والله أعلم-.

أما المسلم لا يجوز، أما الكافر أيضًا يُنهى عنه ان كان خاص، فالأقرب والله أعلم أن يُنهى عن ذلك.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن بعض المشركين، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}[آل عمران: ١٢٨].

وأيضًا لما جيء بالرجل الذي شرب الخمر قال له رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلْعَنْهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ».

فاللعن الخاص لا يجوز، أما للمسلم لا يجوز، أما للكافر فإنه ينهى عن ذلك -والله أعلم-.

فالأقرب أنه لا يُلعن المعين حتى الكافر.

واللعن: هو الطرد من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ والإبعاد.

فإذا قال العبد: لعن الله فلان، كأنه يقول: طرده الله عَزَّ وَجَلَّ من رحمته.

ولذلك لا يجوز لعن المسلم، وهو من كبائر الذنوب أن يلعن الإنسان أخيه المسلم.

والله عَزَّ وَجَلَّ يطرد من رحمته من يشاء ويلعنه، فإن كان المطرود هذا مسلم فاسق فإنه قد يُبعد عن رحمة الله في الآخرة, يعني يبقى في النار مدة ثم يرحمه الله عَزَّ وَجَلَّ ويدخله الجنة، وإن كان كافر فاللعن عليه –نسأل الله العافية– دائم، لأنه خالد في النار، الكفار خالدون في النار.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ**». قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يا رسول الله؟ قَالَ: «**مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ فقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ**». رواه أحمد.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

في هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قال: **وعن طارق بن شهاب**.

طارق بن شهاب لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يسمع منه.

يقول ابن حجر: أنه لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يسمع منه، فهو مرسل صحابي.

وقد احتج العلماء رَحِمَهُم اللهُ بمرسل الصحابي، إذا ثبت أنه لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يحتج بحديثه.

وقد روي هذا الحديث أنه موقوف على سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: **وعن طارق بن شهاب أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»؛ يعني: كان سبب دخول هذا الرجل الجنة ذبابة.

قال: «وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»؛ يعني: أيضًا كان سبب دخول رجل النار ذبابة.

قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يا رسول الله؟ هذا استفهام، كيف رجل يدخل الجنة بسبب ذبابة؟ ورجل يدخل النار بسبب ذبابة؟ شيء عجيب.

قال: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ»؛ يعني: لا يتعداه.

لا يتعداه «أَحَدٌ»، (أحد) نكرة؛ يعني: يشمل جميع من يأتيه.

«حَتَّىٰ يُقَرِّبَ»، (حتى) هنا للغاية؛ يعني: حتى يحصل منه التقريب.

«حَتَّىٰ يُقَرِّبَ»؛ يعني: يذبح على وجه التقرب.

«لَهُ شَيْئًا»، (شيئًا) نكرة أيضًا, يشمل ذوات الأرواح من البهائم .

«فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ»؛ يعني: يذبح على وجه التقرب والتعظم لهذا الصنم.

«قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ»؛ يعني: لا أملك شيء حتى أقربه له، لا شاة ولا بعير ولا بقرة، يقول: ما أملك هذا الشيء، ولا دجاجة ولا أرنب ولا غير ذلك.

«قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا»؛ يعني: تقرب لهذا الصنم ولو ذبابة، والذبابة مايذب عن الوجه، يعني: ولو حصل منك هذا الشيء.

«فَقَرَّبَ ذُبَابًا»؛ يعني: ذبح للصنم متقربًا له ذبابة يريدون الفعل، وأن يُعظم هذا الصنم.

«فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ»؛ يعني: تركوه ومشى في الطريق.

«فَدَخَلَ النَّارَ»، بسبب هذا الفعل لأنه أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ وعظَّم غيره.

«وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ»؛ يعني: اذبح لهذا الصنم على وجه التقرب.

«فقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»، يعني قال: ما يكون لي أن أذبح تعبدًا لغير الله.

«فَضَرَبُوا عُنُقَهُ»؛ يعني: قتلوه، والعنق: هو الجامع بين الرأس والجسد، وإذا قُطع العنق مات الإنسان.

قال: «فَدَخَلَ الْجَنَّةَ»؛ يعني: بسبب هذا العمل لأنه مات شهيد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن العمل اليسير قد يكون سبب في دخول الجنة، فلا يحتقر الإنسان العمل مهما كان؛ ولذلك قد يدخل الإنسان بسبب صدقة، أو بسبب عبادة يتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بها فيدخل الجنة.

ومن الفوائد: عِظم شأن التوحيد، لأن الإنسان لما وحد الله حتى لا يذبح لغيره دخل الجنة.

ومن الفوائد: أن الإنسان قد يدخل النار بسبب ذنب، قد يقود هذا الذنب اليسير إلى ذنب عظيم.

ومن الفوائد: عِظم شأن الشرك وأنه سبب في دخول النار؛ ولذلك الرجل دخل النار بسبب ذبح ذبابة، لأنه تعبد لغير الله.

ومن الفوائد: أن الرجلين كانا مسلمين، كيف نعرف؟ لأن أحدهما دخل الجنة وثبت على الإسلام، قال: «مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»، والثاني أشرك: «فَدَخَلَ النَّارَ»,وسبب دخوله هذه الذبابة، ليس أمر ثاني، ولو كان مشرك قبلها لدخل بالشرك الأول، ولذلك في فقوله: دخل النار في ذباب هذا يدل على أن الرجل مسلم ثم أشرك فدخل بسبب هذا الشرك.

ففيه أن الإنسان يحذر من الذبح لغير الله, حتى لو كان شيء يسير.

ومن الفوائد: أن الجنة قريبة والنار مثل ذلك، فالإنسان مجرد أن يموت يدخل الجنة أو يدخل النار.

ولذلك جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ،وَالنَّارُ مِثْل ذَلِكَ».

فمجرد أن يموت الإنسان يدخل أحدهما،أو يدخل النار يُعذب مدة إذا كان على المعاصي ثم يدخل الجنة، ولكن المآل إما إلى الجنة وإما إلى النار، فالجنة قريبة؛ ولذلك هذا دخل الجنة وهذا دخل النار.

ومن الفوائد: أن الرجل الأول لم يُكره، وقد اختلف العلماء هل أُكره أم لم يُكره؟

فمن قال: أنه أُكره فقال: أن هذا في شرع من كان قبلنا، وشرع من كان قبلنا لا يُعذر فيه الإكراه، فالإكراه خاص بهذه الأمة.

ومن قال: أنه لم يُكره -وهو الأقرب والله أعلم-؛ لأن الرجل قال: «لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ»، ما قال: لا أريد أن أُقرب لغير الله، لا تكرهونني، وإنما قال: «لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ».

فهو أراد أن يُقرب, ولكن لا يملك شيء، ولو ملك غير الذبابة لقرَّب ما يمتنع، فهو لم يُكره.

فلو أُكره قد يُعذر؛ ولذلك الإكراه عذر، والإكراه في هذه الأمة عذر، إذا كان أُكره الإنسان فيُعذر، إذا أُكره على الشرك يُعذر.

قال الله تعالى: }مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{[النحل: ١٠٦].

والإكراه لا يخلو فيه الإنسان من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: ألا يوافق لا ظاهرًا ولا باطنًا, يُكره فيمتنع أن يجيب، كما فعل هذا الرجل وقتل في سبيل الله، فهذا هو الأفضل, وهو قول جمهور العلماء.

والدليل على ذلك: حديث خباب بن الأرت رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه أتى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشكى إليه الحال، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ وَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَتُحْفَرُ لَهُ الْحُفْرَةُ، ثُمَّ يُوضَعُ فِيهَا ثُمَّ يُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى رَأْسِهِ،ثُمّ يُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَادُونَ عَظْمِهِ فَمَا يَصْرِفُه ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ». هذا الحديث في الصحيح.

وأيضًا لأن الكفر في هذه الحالة رخصة, والأخذ بالعزيمة أفضل، والإنسان يصبر على ألا يشرك بالله لا ظاهرًا ولا باطنًا ويموت, فهذا أفضل.

الثاني: أن يُكره ظاهرًا لا باطنًا، فهذا جائز, بحيث أن الإنسان يوافقهم في الظاهر ويخالفهم في الباطن، يكره الكفر يرى أنه باطل، وهنا يتأول, لو قالوا: اسجد لصنم يسجد لله ويجعل -مثلًا- الصنم أمامه ويتأول, ويكره الكفر ويبغضه.

لابد أن يكره الكفر ويبغضه ويطمئن قلبه بالإيمان, ويرى أن الفعل الذي يفعله باطل، كما عَزَّ وَجَلَّ قال: }مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.{

فإذا أُكره الإنسان ظاهرًا لا باطنًا فإن هذا جائز.

الحالة الثالثة: أن يوافق ظاهرًا وباطنًا، وهذا كفر وردَّة عن الإسلام -نسأل الله العافية- كحال هذا الرجل لما وافقهم ظاهرًا وباطنًا, هذا الأقرب من فعله.

فيطمئن للكفر ويرى أن الكفر صواب, أو أنه جائز أن يسجد لغير الله يسجد لصنم -مثلًا- أو يذبح لغير الله تقربًا، فهذا كفر وشرك.

والإكراه له شروط:

الأول: أن يكون مُلجئ، وهو الذي لا حيلة للإنسان فيه.

وهذا الإلجاء له شروط:

أن يكون المُكرَه غير قادر على الدفع.

الثاني: أن يكون المُكرِه قادر على إنفاذ ما وعد به.

الثالث: أن يغلب على ظن المُكرَه أن المُكرِه سيوفي ما وعد به.

وهنا يجوز, ويكون الإكراه في حقه جائز.

هذا الباب ذكر المؤلف فيه: **ما جاء في الذبح لغير الله.**

واعلم أن الذبح ينقسم إلى قسمين:

الأول: ذبح يراد به التقرب والتعبد والتعظيم، فهذا خاص لله عَزَّ وَجَلَّ وصرفه لغيره شرك.

إذا قصد التقرب والتعظيم فهذا خاص لله عَزَّ وَجَلَّ وصرفه لغيره شرك، كالذبح -مثلًا- أوقات الأضاحي هذا يُراد به التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ، يُراق الدم تعبدًا لله.

القسم الثاني: أن يذبح ويريد اللحم، أن يريد اللحم ولا يريد التقرب ولا التعظيم، فهذا جائز، وقد يكون مستحب، وقد يكون واجب وقد يكون مباح كما لو ذبح الإنسان ذبيحة وأراد أن يُطعم أهله, يضعها في الثلاجة يريد لحم، فهذا جائز.

وقد يكون مستحب، كما لو ذبح الإنسان في وليمة العرس, هذا مستحب، لأن الإنسان يريد اللحم.

أيضًا قد يكون واجب, كإكرام الضيف، إكرام الضيف واجب, وقد يذبح الإنسان إكرامًا للضيف, لا على وجه التعبد والتقرب, إنما يذبح للضيف يريد اللحم, يكرمه بهذا اللحم.

ولذلك تعرف أن الذبح للضيف جائز, ليس من الذبح لغير الله, لأن الذابح للضيف لا يريد التعظيم ولا يريد التقرب لهذا الضيف، ما يقع في قلبه تعظم، ولكن في هذه الصورة الماضية يجب أن يذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: بسم الله، في كل الصور الماضية لابد أن يذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ.

فالإنسان من حيث القصد في الذبح والتسمية لا يخلو من أربع حالات:

الإنسان من حيث القصد -يعني: النية- والتسمية -يعني: الاستعانة- لا يخلو من أربع حالات:

الحالة الأولى: أن يذبح لله ويذكر اسم الله، فهذا هو التوحيد، كما لو ذبح الإنسان أضحية وقال: بسم الله، فهذا من أعظم العبادات.

الثاني: أن يذبح لله ويذكر اسم غير الله، كأن يقول -مثلًا- يريد أن يضحي ويقول: بسم البدوي، فهذا شرك في الربوبية، لأنه استعان بغير الله، شرك في الربوبية.

الثالث: أن يذبح لغير الله ويذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ، كأن يذبح للميت المقبور على وجه التقرب والتعظيم ويقول: بسم الله.

يذبح -مثلًا- يقول: هذا لزينب يأتي عند قبرها ويقول: بسم الله ويريد التقرب لها والتعظيم، فهذا شرك في التعبد شرك بالعبادة لأنه تقرب لغير الله وعظَّم غير الله.

الرابع: أن يذبح لغير الله ويذكر اسم غير الله عَزَّ وَجَلَّ، كأن يذبح للبدوي ويقول: بسم البدوي، فهذا شرك في الربوبية وشرك في الألوهية، فهذا أعظم شرك -نسأل الله العافية-.

وهنا مسألة: الذبح للعظماء، كانوا إذا دخل عظيم أو نحو ذلك أتوا بالذبائح فذبحوها أمامه، يذبحون الذبائح أمامه.

كما لو أتى أمير -مثلًا- فاستقبلوه فذبحوا الذبائح أمامه فسالت الدماء أمام هذا الأمير، فهذا إن أراد التقرب والتعظيم فهو شرك أكبر لأنه تعبد لهذا المُعظم بالذبح الذي لا يصح أن يتقرب به إلا لله.

الثاني: أن يذبح له إكرامًا، يريد بالذبيحة, إكرامه,لا يريد التعبد والتعظيم له, فهذا لا يجوز بدعة، وسيلة من وسائل الذبح لغير الله فلا يجوز.

ولذلك جاء في حديث أبي داود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا عَقْرَ فِي الْإِسْلَامِ».

كانوا في الجاهلية إذا مات كريم أتوا بالذبائح عند قبره فذبحوها، إشعار بأن هذا الرجل كان صاحب كرم، ما يريدون التعبد له ولكن يريدون أن يُكرموه أو يكون هذا شعارًا أنه كان كريم.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«لَا عَقْرَ فِي الْإِسْلَامِ».

وهنا مسألة: ذبيحة اليهودي والنصراني.

ذبيحة اليهودي والنصراني لا تخلو من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ ويذبح، فهذه يجوز الأكل منها، يجوز أن تأكل من ذبيحة اليهودي والنصراني الذي ذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قد أحل ذلك؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ{[المائدة: ٥].

الثاني: أن يذكر اسم غير الله عَزَّ وَجَلَّ، كأن يقول: بسم عيسى، أو بسم وزير، هذا لا يجوز الأكل منه، لأن هذا مما أُهل لغير الله؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ{[الأنعام: ١٢١].

وقال: }وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ{[البقرة: ١٧٣].

الثالث: أن تجهل, لا تعلم هل ذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ عليه أم لم يذكر، يعني: هذا اليهودي أو النصراني ذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ على الذبيحة أم لم يذكر, تجهل ذلك، فهذه يجوز الأكل, لما جاء في صحيح البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله إن قومًا حدثاء عهد بكفر ويأتوننا باللحم فلا نعلم أذكروا اسم الله عَزَّ وَجَلَّ عليه أم لا؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا«.

وهذا الباب باب مهم وهو في الذبح لغير الله، لأن الذبح إذا أريد به التقرب والتعظيم فهو يكون لله وصرفه لغيره شرك، فالذين يذبحون للقبور والأضرحة ويقال عنهم: مشركون لأنهم أشركوا بالله في الذبح على وجه التقرب والتعبد، لا يمكن أن يأتي بالذبيحة ويذبحها لصاحب القبر يقول: أريد أن أُكرمه، ما يكون هذا، هل يأتي أحد عند القبر ويذبح يريد إكرام هذا المقبور؟ لا، المقبور مات, فأنت تريد التعبد له وتريد التعظيم، وهذا هو الشرك، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{, وهذا المشرك نحر لغير الله، وفعل العبادة لغير الله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالىٰ: }لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ{[التوبة: ١٠٨].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله.**

مناسبة هذا الباب للذي قبله: هو أن هذا الباب وسيلة إلى الشرك، والباب الذي قبله غاية في الشرك، لأن الباب الذي قبله ذكر المؤلف فيه آيات وأحاديث تدل على أن الذبح لغير الله لا يجوز وأنه متوعد عليه.

فالباب الذي قبله الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد فيه أن يُبين حكم الذبح لغير الله، لأنه أتى بآيات يُبين بها حكم الذبح لغير الله.

وأيضًا أراد أن يُبين فيه الشرك، أراد أن يُبين فيه الوعيد لمن ذبح لغير الله، وأتى بالأحاديث أن فيه لعن، وفيه أنه سبب لدخول النار.

وهذا الباب وسيلة من وسائل الشرك، وسيلة إلى الذبح لغير الله، وهذا من حسن تصرف المؤلف رَحِمَهُ اللهُ، لأن الباب الذي قبله غاية وهو الذبح لغير الله، وهذا وسيلة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله.**

قوله: **لا يُذبح لله**: أي: لا يُتقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالذبح, **بمكان:** يعني بقطعة من الأرض أو ما أشبه ذلك.

يُذبح فيه لغير الله: أي: أن هذا المكان يُذبح فيه لغير الله، فهذا منهي عن أن يذبح الإنسان في هذا المكان الذي يُذبح فيه لغير الله.

والذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله وسيلة إلى الشرك، فلا يجوز الذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله لعدة أمور:

الأول: لأنه وسيلة إلى الشرك وطريق موصل إليه.

الثاني: أن فيه مشابهة لمن ذبح لغير الله.

فالناظر للذابح لله والذابح لغير الله يرى الصورة واحدة, فالصورة الظاهرة واحدة والصورة الباطنة لا يعلمها إلا الله؛ بمعنى: أن الظاهر أن الصورة واحدة, فهذا يذبح وهذا يذبح، أما الباطن هذا ينوي أنها لله، وهذا ينوي أنها لغير الله، فالرائي لهذا لا يميز إذا رآه ما يميز.

الثالث: أنه يُكثر سواد المشركين.

أيضًا من أهمها: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك، بل هو من أهمه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى أن يُذبح بهذا المكان الذي يُذبح فيه لغير الله.

فلهذه الأسباب لا يجوز الذبح بمكان يُذبح فيه لغير الله.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ الآية قال: }لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ.{

هذه الآية الكريمة ينهى الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصلي في مسجد الضرار، المسجد الذي بُني على غير تقوى من الله، فبُني هذا المسجد للتفريق بين المسلمين، وللكفر بالله ورسوله، ومجمعًا لمن حاد الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله.

فنهى الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه أن يقوم في هذا المسجد، وأمره أن يقوم في المسجد الذي أُسس على تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ بمعنى: أنه بُني وأريد به وجه الله من أول يوم, وهو مسجد قباء.

قال رَحِمَهُ اللهُ: وقول الله تعالى: }لَا تَقُمْ فِيهِ.{

اللام هنا لام النهي, ينهى الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه، }لَا تَقُمْ فِيهِ{؛ يعني: لا تصلي فيه, يعني: إلى الأبد، يعني ما دمت حيًا لا تقم في هذا المسجد أبدًا.

ثم قال الآية: }لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ{؛ يعني: من حين بُني وهو على التقوى مرادًا به وجه الله عَزَّ وَجَلَّ، ومرادًا به أن تُقام فيه الصلاة المكتوبة لله، فهو أُريد به وجه الله.

}لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ{؛ يعني: هو المسجد، والحق: يعني: الشيء الثابت اللازم.

}أَنْ تَقُومَ فِيهِ{؛ يعني: تصلي فيه وهو مسجد قباء.

}لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا{؛ يعني: في هذا المسجد رجال يحبون أن يتطهروا من النجاسات الحسية والنجاسات المعنوية، فهم يطهرون ثيابهم وأبدانهم من النجاسات الحسية.

وأيضًا ليصلوا لله عَزَّ وَجَلَّ، وأيضًا يطهرون قلوبهم من الشرك والأضغان والحسد وهو النجاسة المعنوية.

}يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ{؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يحب من تطهر, فطهَّر ظاهره وطهَّر باطنه، طهَّر ظاهره من النجاسات الحسية، وطهَّر باطنه من الشرك والحسد والغش للمسلمين ونحو ذلك، الله عَزَّ وَجَلَّ يحب هذا.

ففي الآية الكريمة: أنه ينهى أن يُصلى في مكان الذي يُراد به غير وجه الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففيه دليل على أن الذبح بمكان يُذبح فيه لغير الله لا يُذبح فيه, لأنه على غير تقوى من الله.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يستدل بالآية على هذا النحو؛ أي: أنه لا يُذبح بمكان يُذبح فيه لغير الله، كما أنه لا يُصلى في مكان لا يُراد به وجه الله، كذلك لا يُذبح بمكان يُذبح فيه لغير الله.

وفي الآية فائدة فيها: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يحب المتطهرين، ومحبة الله عَزَّ وَجَلَّ صفة فعلية تتعلق بمشيئته، فهي صفة فعلية بمعنى: أنه إذا وجد السبب فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يحب هذا الشخص، لها أسباب:

من أسبابها: أن الإنسان يتطهر فيحبه الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي صفة في الله عَزَّ وَجَلَّ .

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ رَضِيِ اللهُ عَنْهُ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟». قَالُوا: لَا. قَالَ:

«**فهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**». قَالُوا: لَا. فقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**». رواه أبو داود، وإسنادُهُ علىٰ شرطهما.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

عن ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ.

نَذَرَ: يعني: أوجب على نفسه عبادة ليست واجبة بأصل الشرع.

وقوله:**رَجُلٌ** هنا لم يُذكر نكرة، والحكم لا يتغير؛ لأنه عرفنا الرجل أو لم نعرف لا يتغير الحكم.

نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ.

والنحر يكون للإبل وهو أن يضرب بالسكين ونحوها منتهى رقبة البعير مما يلي النحر، أو مما يلي الصدر، منتهى الصدر حين يلاقي الرقبة الواهدة، هذا النحر للإبل.

قال: **يَنْحَرَ إِبِلًا.**

الإبل هي النوق.

بِبُوَانَةَ؛ وبوانة مكان قريب من ينبُع.

قال: **فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة، أو سأل أصحابه الذين معه.

فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:«**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ؟**».

«**هل**»: هنا استفهام.

«**كان**»: يعني: في الماضي.

«**كَانَ فِيهَا**»؛ يعني: في هذا المكان وثن.

والوثن: هو ما عُبد من دون الله عَزَّ وَجَلَّ على أي شيء كان، فيدخل فيه القبر والصنم والشجرة والحجر، فهو أعم من الصنم، الوثن أعم فيدخل فيه الحجارة والأشجار والقبور.

«مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ»؛ يعني: ما قبل الإسلام، والجاهلية هي ما قبل الإسلام، وسميت جاهلية نسبة إلى الجهل وهو عدم العلم.

«وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ»؛ يعني: يتوجه له بالعبادة ذلًا وخضوعًا ومحبة ورجاء.

قَالُوا: لَا: قال أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يا رسول الله.

قَالَ: «فهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟». هذا السؤال عام.

فسأل مرة أخرة فقال: «فهَلْ كَانَ فِيهَا؟»، و (كان) أيضًا هنا للماضي.

«كَانَ فِيهَا عِيدٌ»، والعيد هو اسم لما يعود ويتكرر على وجه معتاد، ويشمل العود في المكان ويشمل العود في الزمان.

فالعود في المكان أن يعود إلى مكان يتكرر كل مرة، كما لو كان يأتي قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يذهب, ثم يعود، ثم يذهب, ثم يعود.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»؛ يعني: تعاودون الرجوع إليه.

الثاني: عود في الزمان؛ كعيد الأضحى وعيد الفطر, لأنه يعود كل سنة، فيعود كل زمان.

«فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ»؛ يعني: أعياد الجاهلية المبتدعة؟

قَالُوا: لَا. فقَالَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:يعني: عند ذلك.

«أَوْفِ بِنَذْرِكَ»، والوفاء: هو تحقيق ما ألزم نفسه به، يعني: تأتي بما أردت.

«أَوْفِ بِنَذْرِكَ».

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»؛ أي: أن الإنسان إذا نذر أن يعصي الله فلا يجوز أن يوفي فلا وفاء فيه، فنذر المعصية لا يجوز للإنسان أن يأتي به.

كما لو قال الإنسان -مثلًا-: نذرٌ علي لله أن أشرب الخمر؛ هذا لا يجوز الوفاء به.

قال: «وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»، ما لا يملك ابن آدم قدرًا أو شرعًا.

قدرًا؛ كما لو قال: نذرٌ علي لله أن أطير في السماء، أو نذرٌ علي لله أن أشرب البحر، هذا لا يملكه ابن آدم ولا يستطيع هذا قدرًا.

أو قال: نذرٌ علي -مثلًا- لأخرقن الجبل، هذا لا يملكه ابن آدم، هذا لا وفاء فيه.

أيضًا ما لا يملكه شرعًا؛ كما لو قال: نذر علي لأعتقن عبد فلان؛ هذا ما يملك.

لو قال: نذر علي لأتصدقن بسيارة فلان وأعطيها الفقراء، هل يجوز هذا؟ لا يجوز، هذا لا يملكه ابن آدم، هذا شرعًا، فهذا لا وفاء فيه.

«وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»، لا قدرًا ولا شرعًا.

قال: **رواه أبو داود، وإسنادُهُ على شرطهما:** يعني: شرط البخاري ومسلم.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أنه لا يجوز الذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ يُعْبَدُ؟»، بأي عبادة كأذبح له، فلا يجوز أن يذبح الإنسان بمكان يُذبح فيه لغير الله.

وهذا موافق لما أراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ من ذكر الترجمة.

ومن الفوائد: أنه ينبغي للمسلم أن لا يشابه أهل الجاهلية لا في الأفعال ولا في الأقوال ولا في الاعتقادات ولا غير ذلك.

فالأفعال كالنياحة على الميت، وأيضًا كالطعن في الأنساب، وكالفخر بالأحساب، يعني: يفخر بأجداده، فهذا مشابه لأهل الجاهلية؛ لذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اثنتان فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالنِّيَاحَةُ علىٰ الميت».

وقال في حديث الآخر: «أَرْبَعٌ مِنْ أمورِ الْجَاهِلِيَّةِ»، فهذه في الأقوال، فيحذر المسلم أن لا يشابه أهل الجاهلية في أقواله.

أيضًا في الأفعال؛ كأن يفعل كفعلهم، مثل ماذا؟ مثل لطم الخدود، وشق الجيوب، كلطم الخدود وشق الجيوب.

وأيضًا أن يذبح لغير الله الذبح لغير الله من مشابهة أهل الجاهلية.

ولذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في مسائل الجاهلية ذكر: (ومنها الذبح لغير الله من مسائل أهل الجاهلية).

أيضًا في الاعتقادات كأن يعتقد أنه ليس هناك جنة ولا نار، فهذا يشابه أهل الجاهلية؛ كما قال تعالى: }وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ{[الجاثية: ٢٤]، يقولون: ما في يوم قيامة.

}زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ{[التغابن: ٧]، فهذا في الاعتقادات.

ومن الفوائد: أن المسلم يجب عليه الحذر من أن يشابه غير المسلمين أهل الجاهلية في الأعياد.

والأعياد قد يُراد بها التعبد، فهذه بدعة إذا أراد أن يفعل العيد ويريد التعبد لله فهذا بدعة ولا شك، كالمولد النبوي يريدون التقرب إلى الله به فهذا بدعة ولا شك، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فعله وأصحابه ما فعلوه، ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

ولأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ{[الشورى: ٢١].

فأذا عاود شيء وأراد به التعبد، يعني: يضع عيد ويريد به التقرب إلى الله فهذا بدعة ولا شك.

الثاني: أن يريد مناسبة، كعيد -مثلًا- الأم، أو عيد الميلاد، فهذا أيضًا بدعة، وهو مضاهاة لأعياد المسلمين، وأيضًا مشابهة للمشركين فهو لا يجوز من هذا الوجه، لأن فيه مضاهاة لأعياد المسلمين، وأيضًا فيه مشابهة للمشركين، ولأنه مسمى العيد واقع عليه، فالعيد يجمع فرح وسرور أو يجمع عبادات، إما أن يجمع فرح وسرور أو يجمع عبادات أو يجمع الكل.

ولذلك كل عيد غير أعياد المسلمين فهو مبتدع ولا يجوز, سواء كان أريد به التعبد ، أو أراد به مجرد الفرح والسرور وهذا لا يجوز.

وأعياد المسلمين معروفة, عيد الأضحى وعيد الفطر، وأيضًا الجمعة عيد؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن الفوائد: أنه لا وفاء لنذر في معصية الله، وسيأتينا باب إن شاء الله لا وفاء في نذر في معصية الله.

وهنا مسألة: هل يوجد فرق بين النذر لله في معصيته والنذر لغير الله؟

الجواب: نعم، النذر لله في معصيته, هذا معصية, كأن يقول -مثلًا-: نذرٌ علي لله أن أشرب الخمر، هذا معصية.

الثاني: نذر لغير الله, كأن ينذر لصاحب قبر أو لصنم يتقرب إليه, فهذا شرك مُخرج عن الملة، ففيه فرق، فسيأتينا باب إن شاء الله للنذر.

ومن الفوائد: أن النذر فيما لا يملكه ابن آدم لا وفاء فيه.

وهل فيه كفارة؟ الظاهر: أنه فيه كفارة -والله أعلم- يُكفر كفارة يمين، لأن النذر ينقسم إلى قسمين:

- الأول: نذر طاعة، فهذا فيه الوفاء.
- الثاني: نذر يُلحق باليمين، كمثل: اللجاج والغضب، وكنذر المباح، وكنذر ما لا يملك ابن آدم، هذا فيه كفارة يمين, وأيضًا النذر الذي لم يسمى فيه كفارة يمين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالىٰ: }يُوفُونَ بِالنَّذْرِ{[الإنسان: ٧].

وقوله: }وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ{[البقرة: ٢٧٠].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: باب من الشرك النذر لغير الله.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ما زال يذكر شيء من أنواع الشرك، وذكر هنا النذر.

والمؤلف قال: **باب من الشرك النذر لغير الله**؛ لأن النذر لغير الله شرك, فلا يمكن أن يكون إلا شرك ، لأن النذر عبادة وصرفه لغير الله شرك.

ولذلك المؤلف قال: **باب من الشرك**, و(من) هنا للتبعيض.

قال: **باب من الشرك**.

(من) هنا للتبعيض؛ أي: أن النذر لغير الله من أنواع الشرك.

قال: **باب من الشرك النذر**.

النذر لغة: هو الإلزام.

وأما شرعًا: هو أن الإنسان يُوجب على نفسه عبادة ليست واجبة لأصل الشرع.

وقوله: **لغير الله**.

لغير؛ أي: صرْف هذا النذر لغير الله, كائنًا ما كان هذا المصروف له، فإذا وقع هذا فقد وقع الإنسان في الشرك؛ بمعنى: أن الإنسان إذا صرف النذر لغير الله فقد أشرك، والعلة في ذلك أن النذر عبادة, ولا يكون النذر إلا عبادة.

والنذر يتضمن غاية الذل وغاية الخضوع، ويتضمن أيضًا التقرب للمنذور له, فهو عبادة، النذر يتضمن غاية الذل وأيضًا غاية التعظيم، وأيضًا يتضمن التقرب للمنذور له لأنه يتعبد له، فإذا صُرف لغير الله وقع الإنسان في الشرك.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**وقول الله تعالى:**}يُوفُونَ بِالنَّذْرِ.{

هذا مدح من الله عَزَّ وَجَلَّ للمؤمنين الذين يوفون بما ألزموا أنفسهم لله من عبادة، وهذا مدح على الإيفاء لا على العقد؛ لأنه قال: }يُوفُونَ بِالنَّذْرِ{، فهم يوفون بما عاهدوا الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، وهذا للموفي بالعهد.

أما عقد النذر فهو مكروه، وسيأتينا إن شاء الله.

قال: وقوله: }وَمَاأَنْفَقْتُم مِنْ نَفَقَةٍ أَوْنَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ.{

في هذه الآية الكريمة يبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن المكلفون إذا تصدقوا أو أنفقوا من أموالهم، أو ألزموا أنفسهم عبادة لله، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعلمه ويعلم نياتهم ويعلم أحوالهم، فلا يخفى عليه شيء سبحانه.

قال: }وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ .{

}وَمَا{، قد تكون موصولة.

}أَنْفَقْتُمْ{، الإنفاق هو إخراج الشيء من مال ونحوه.

قال: }أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ{؛ يعني: من مال أو زكاة أو نحو ذلك.

}أَوْنَذَرْتُمْ{؛ أي: ألزمتم أنفسكم بعبادة لله عَزَّ وَجَلَّ.

}مِنْ نَذْرٍ{؛ يعني: أي نذر نذرتموه تعبدون به لله عَزَّ وَجَلَّ }فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ{؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم ما انطوت عليه قلوبهم، ويعلم هذا النذر الذي نذرتموه لا يخفى عليه شيء.

وفي هذا تحذير وفيه تبشير، فيه تحذير أنك إذا نذرت يجب عليك أن توفي إذا كان طاعة لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم أنك نذرت، وأيضًا فيه تبشير لأنك إذا أوفيت بالنذر فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعلمه يجازيك عليه.

ففي الآية الكريمة أن النذر عبادة، وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ قرنه بالنفقة والنفقة عبادة كالزكاة والصدقة عبادة، كذلك النذر عبادة.

قال المصنف رحمه الله:

وفي الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ نَذَرَأَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ،وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ» .

قال الشارح وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**وفي الصحيح**: يعني: صحيح البخاري.

عن عائشة: يعني: زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا،أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ»؛

يعني: من ألزم نفسه أن يطيع الله عَزَّ وَجَلَّ يطيع الله بعبادة.

«فَلْيُطِعْهُ»؛ أي: فليتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بما ألزم به نفسه.

«وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ»؛ أي: من ألزم نفسه معصية لله, قال: «فَلَا يَعْصِهِ»؛ أي: لا يعصي الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي الحديث هذا أن النذر عبادة, وذلك أنه سماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاعة، قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»، فالنذر عبادة.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الإنسان إذا نذر نذر الطاعة فيجب عليه الوفاء، والنذر ينقسم إلى قسمين:

الأول: نذر يجب الوفاء به وهو نذر الطاعة، ونذر الطاعة قد يكون مقيد وقد يكون مطلق.

مثال الأول المقيد: كأن يقيِّد التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بحصول نعمة أو اندفاع نقمة.

كما لو قال -مثلًا-: لله علي إن شفى الله ولدي أن أتصدق بمائة ريال، فهذا يسمى مقيد بشيء.

أو تقول -مثلًا- المرأة: إن أنجاني الله من هذا الحمل وولدت -مثلًا- بسلام لله علي أن أتصدق بمائة ريال، هذا اندفاع نقمة.

فهذا إذا حصلت النعمة أو اندفعت النقمة وجب عليه أن يوفي، هذا نذر مقيد.

الثاني: النذر المطلق؛ كأن يُطلق لا يُقيد بشيء، كأن يقول -مثلًا-: لله علي أن أصلي الليلة عشر ركعات، فهذه يجب عليه أن يوفي يصلي الليلة عشر ركعات, واجب عليه، أصبح الآن واجب في حقه.

القسم الثاني: النذر الذي قد يكون يجب الوفاء به، أو يكفر عنه كفارة يمين، قد يفي به أو يكفر عنه كفارة يمين وهو أنواع:

الأول: نذر اللجاج والغضب، الذي يريد الإنسان منه أن يحمل نفسه على فعل، أو منع، أو تصديق.

فمثال التصديق -مثلًا- كأن يقول: إذا ماجاء فلان اليوم نذر علي أن أصلي عشر ركعات لله، هذا نذر تصديق.

أيضًا نذر المنع؛ كأن يقول لابنه -مثلًا-: إن خرجت اليوم من البيت فلله علي أن أصلي عشر ركعات، هذا يمنع.

أيضًا الحث؛ كأن يقول -مثلًا-: يحث نفسه فيقول: إذا ما ذهبت إلى المكان الفلاني لله علي أن أصلي عشر ركعات، يحث نفسه.

فهذا للإنسان أن يوفي أو يكفر كفارة يمين، يجوز أن يكفر كفارة يمين.

أيضًا من هذه الأنواع: نذر المباح؛ كأن يقول: لله علي أن ألبس هذا الثوب اليوم، هذا نذر مباح، فيجوز أن يلبس ويجوز أن يُكفِّر كفارة يمين.

أيضًا نذر المكروه؛ كأن يقول: لله علي أن أطلق زوجتي، فهذا الأفضل أن يكفر كفارة يمين ولا يفي، هذا نذر مكروه.

أو قال -مثلًا-: نذر علي لأكلن البصل إذا ذهبت إلى المسجد، هذا نذر مكروه، فهذا الأفضل أن يكفر كفارة يمين ولا يفي.

أيضًا نذر المحرم, فهذا لا يجوز له أن يفي وعليه كفارة يمين، وهذا المشهور من مذهب الإمام أحمد، وهو الأقرب والله أعلم.

لما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: "النذر نذران: فما كان لله فكفارته الإيفاء به، وما كان لشيطان فلا وفاء فيه وعليه كفارة يمين".

أيضًا من أنواع النذر: أن ينذر أمر ولا يُسميه، فهذا عليه كفارة يمين.

كأن يقول -مثلًا-: لله علي ويسكت، هذا عليه كفارة يمين، لما جاء في الحديث: «مَنْ نَذَرَ نَذْرًا فَلَمْ يُسَمِّهِ، فَعَلَيْهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ».

أيضًا من أنواع النذر كما تقدم معنا: نذر ما لا يملك الإنسان؛ كأن يقول -مثلًا-: لله علي أن أطير في السماء، أو لله علي أن أعتق عبد فلان، فهذا لا وفاء فيه وعليه كفارة يمين.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا نذر نذر فعليه أن يفي إذا كان نذر طاعة.

وهنا يرد مسألة: هل النذر مشروع؟ بمعنى: أنه مستحب أم مباح أم مكروه؟

الأقرب والله أعلم: أنه مكروه, عقد النذر مكروه والوفاء به واجب.

ولذلك قال بعض العلماء: أن باب النذر من الأبواب الغريبة، لأن عقده مكروه والوفاء به واجب، فيقولون: أن النذر خالف قاعدة الأمور بمقاصده، خالف هذه القاعدة، الوسائل لها أحكام المقاصد, خالف هذه القاعدة.

الوسائل لها أحكام المقاصد, لأن الوسيلة مكروهة والغاية واجبة، والقاعدة على أن الشيء إذا كان واجب فالوسيلة اليه واجب، وإذا كان مكروه فالوسيلة اليه مكروه ، وهكذا، أما النذر خالف هذه القاعدة فهو غريب في العلم.

فعقد النذر مكروه؛ لما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ النَّذْرَ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ».

وجاء في الحديث الآخر قال: «إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُؤَخِّرُ».

فما قدَّر الله عَزَّ وَجَلَّ لابد أن يقع فهو مكروه، وأما الوفاء به فواجب يجب على الإنسان أن يفي، إذا كان نذر طاعة فيجب.

واعلم أن النذر الذي يجب الوفاء به هو نذر الطاعة المقيد والمطلق، هذا هو الواجب، أما الثاني يُخير الإنسان به (القسم الثاني).

وذهب شيخ الإسلام أن النذر مُحرم قال: يحرُم على الإنسان أن ينذر، وذكر العلة قال: إن كان الإنسان يعتقد أن الله لا يعطيه إلا إذا نذر فهذا سوء ظن بالله، ولا يبعد أن الإنسان إذا ظن أن الله عَزَّ وَجَلَّ ما يعطيه حتى ينذر فهذا إلى التحريم أقرب.

ومن الفوائد: أن النذر عبادة، فصرفه لغير الله، شرك.

ومن الأمثلة في صرف النذور لغير الله: أن ينذر للقبور، كما لو قال –مثلًا– للميت: يا سيدي فلان إن رد الله غائبي نذر علي أن لك من الزيد كذا وكذا، أو لك من المال كذا وكذا، أو من الطعام كذا وكذا، هذا نذر، فيتوجه بالعبادة لغير الله.

وأيضًا من أنواع النذر لغير الله: كأن ينذر للأشجار والأحجار –مثلًا– يقول: نذر علي أذبح لهذه الشجرة، هذه من النذر لغير الله، لأن النذر عبادة فهو يتضمن التقرب والتعظيم والذل، هذه عبادة ما تُصرف إلا لله.

حتى لو لم يعتقد في الأموات أنهم ينفعونه ويضرون، مجرد أن ينذر لهم هذه عبادة وقع في الشرك، أما إذا ظن أنهم ينفعون ويضرون هذا زاد الشرك شرك وقع في شرك الربوبية أيضًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من الشرك الاستعاذة بغير الله.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ما زال يذكر أنواع الشرك، ومنها الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قال: **باب من الشرك الاستعاذة.**

الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام، فهي أن الإنسان يعتصم بالله لينجيه، ففيه التجاء واعتصام، وهي طلب الإعاذة؛ بحيث أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعيذه ويعصمه مما يخاف، هذه الاستعاذة.

وقوله: **بغير الله**: أي: أن الاستعاذة بغير الله شرك، لأن الاستعاذة فيها التجاء واعتصام وتوجه بالقلب، فمن فعل ذلك لغير الله فقد وقع في الشرك.

قال: **باب من الشرك الاستعاذة بغير الله.**

وقول الله تعالى: }وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا.{

هذه الآية الكريمة فيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر حال بعض الإنس أنهم كانوا يلتجئون لبعض الجن ليعصموهم من مخوف.

ففيها أن الاستعاذة فيها التجاء واعتصام.

قال: وقول الله تعالى: }وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ{؛ يعني: رجال من بني أدم.

}يَعُوذُونَ{؛ يعني: يعتصمون ويلتجئون.

}بِرِجَالٍ{؛ يعني: برجال من الجن، ببعض الجن، والجن هم عالم غيبي خلقهم الله عَزَّ وَجَلَّ لعبادته فهم مكلفون وهو دليل على أن الجن يطلق عليهم رجال فيهم رجال.

قال: }بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ{، ففيهم ذكور وفيهم أناث.

قال: }فَزَادُوهُمْ رَهَقًا{؛ يعني: زاد الجن الإنس خوفًا وذعرًا؛ بمعنى: أن الإنس لما استعاذوا بهم زاد خوفهم وقلقهم.

وقيل: زاد الإنس الجن طغيانًا وكفرًا، أو طغيانًا وتجبرًا؛ بمعنى: أن الإنس لما استعاذوا بالجن زاد الجن تعاظمًا.

ففيها: أن الاستعاذة عبادة.

وهذه الآية الكريمة يقول ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية: أنه كان رجال من أهل الجاهلية ينزلون في وادي، فإذا نزلوا خافوا من الجن فقالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قوم، فيبيتون آمنين، فأنكر الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم؛ ولذلك حتى الذين أسلموا من الجن أنكر أفعالهم.

قال المصنف رحمه الله:

وعن خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ رَضِي اللهُ عَنْهَا قالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فقاَلَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ». رواه مسلم.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث قال: **وعن خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ رَضِي اللهُ عَنْهَا قالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:**«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا»، (مَنْ) هنا شرطية.

«نَزَلَ مَنْزِلًا»، (منزلًا) نكرة في سياق شرط, فتعم أي منزل, سواء كان هذا المنزل للإقامة الدائمة أو للإقامة المؤقتة.

الإقامة الدائمة؛ كما لو بنى الإنسان بيت ودخله أول مرة، أو للإقامة المؤقتة؛ كما لو كان الإنسان مسافر فوقف في مكان وخاف أن يصيبه شيء, فيقول هذا الدعاء.

قال: «فقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ»؛ يعني: يلتجئ ويعتصم بكلمات الله، وكلمات الله هنا يعني: القرآن، اعتصموا بكلمات الله.

وقيل: أنه يشمل كلمات الله عَزَّ وَجَلَّ الكونية والشرعية، وهذا من الاستعاذة بصفة من صفات الله, وهو جائز.

قال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ»؛ يعني: التامات التي لا يلحقها نقص، فكلمات الله عَزَّ وَجَلَّ صدق وعدل.

قال: «التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»، الشر يعني: ما وجد فيه شر من مخلوق.

«مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»؛ يعني: خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ وأوجده.

قال: «لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ».

قوله: «يَضُرَّهُ»؛ أي: لم يلحقه الضرر مما أصابه حتى لو أصابه.

انتبه قال: «لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ»، ما قال لم يصبه شيء، يوجد فرق؟ نعم، قال: «لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ»؛ أي: أنه حتى لو أصاب شيء فأن هذا الشيء لا يضره؛ بمعنى: أن الإنسان لو قال هذا الدعاء ولدغته عقرب فلا تضره، ليس المعنى أنه لا يصيبه الشيء، لو قال: لا يصيبه

الشيء ما لدغته العقرب، ولكن قال: «لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ»؛ أي: قد يُصاب بشيء, ولكن لا يضره.

و «شَيْءٌ»، نكرة يشمل أي مخلوق فيه شر من العقارب والحيات والجن, يعني الذين يؤذون الإنسان -مثلًا- من الجن، أو من الإنس الذين يؤذون الإنسان، أو من الحيوانات من الطيور والأسود وغير ذلك والذئاب، هذا داخل في كلمة (شَيء).

«حَتَّىٰ يَرْحَلَ»؛ يعني: حتى يذهب، يعني: يركب راحلته ويذهب من هذا المكان، فهو كناية عن التحرك من هذا المكان.

«مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»؛ يعني: الذي أقام فيه.

رواه مسلم.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن الله عَزَّ وَجَلَّ والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نهى عن شيء فإنه يُفتح للإنسان البديل، فلما نهى الله عَزَّ وَجَلَّ ونهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الاستعاذة بغير الله وجَّه الإنسان لهذا الدعاء.

لأن الإنسان إذا نهاه الله عَزَّ وَجَلَّ عن شيء فإنه يوجه لما هو فيه فائدة له، وأيضًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نهى عن شيء فإنه يوجه الإنسان لما فيه فائدة له.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نهى عن الاستعاذة بغير الله أمر بالاستعاذة بالله بهذا الدعاء.

ومن الفوائد: أن الإنسان يحرص على هذا الدعاء في كل مكان ينزل فيه, سواء كان هذا المكان للإقامة المؤقتة أو الإقامة الدائمة فيقول هذا الدعاء، فإنه بإذن الله لا يضره شيء.

ومن الفوائد: أنه يجوز الاستعاذة بكلمات الله، وأيضًا يجوز الاستعاذة بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ، والاستعاذة بصفات الله جائز.

فلذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»، فالاستعاذة بصفات الله جائز.

ولكن انتبه.. دعاء صفات الله لا يجوز، بل قال شيخ الإسلام: أنه كُفر.

دعاء صفات الله لا يجوز، كأن يقول -مثلًا-: يا رحمة الله ارحميني، إذا قال هذا يقول شيخ الإسلام: أنه كفر.

ووجه ذلك: أنه جعل الصفة إله يُدعى من دون الله واعتقد أنها غير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فمن دعاء صفة من صفات الله فيقول شيخ الإسلام: أن هذا كفر.

فلو قال -مثلًا-: يا رحمة الله ارحميني، يا عزة الله انصريني، يا قوة الله قويني، هذا لا يجوز، بل ذكر شيخ الإسلام أنه كفر.

ووجه ذلك: أنه جعل الصفة كأنها منفصلة عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وكأنها إله يُدعى من دون الله، فهو تعبد للصفة ولم يتعبد لله، فلا يجوز هذا.

أما الاستعاذة بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ فهو من الاستعاذة المشروعة، ومنها قول: اللّٰهم برحمتك استغيث، هذا من الاستعاذة بصفات الله، وليس دعاء للصفات، لأنه قال: اللّٰهم برحمتك استغيث.

ومن الفوائد: أن كلمات الله عَزَّ وَجَلَّ تامة، وكلمات الله عَزَّ وَجَلَّ كونية وشرعية.

الكونية هي ما يكون بها الله عَزَّ وَجَلَّ الشيء ويخلق بها المخلوقات؛ كما قال تعالى: }إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{[يس: ٨٢].

الثاني: شرعية وهي الوحي, ما أوحاه الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه، كلمات شرعية.

ومن الفوائد: أن المخلوقات منها ما فيه شر، واعلم أن المخلوقات على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: ما هو خير محض، أو مخلوقات فيها الخير محضًا، مثل: الملائكة، والأنبياء، والجنة، وما أشبه ذلك، هذا خير محض لا شر فيها بوجه من الوجوه بل هي خير محض خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ وفيها الخير فهي خير.

القسم الثاني: ما هي شر محض، مخلوقات فيها الشر المحض، مثل: الشياطين، ومثل: النار، هذه شر محض، ولكن الشر من حيث المفعول، أما الفاعل لها فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وفعله

كله خير؛ بمعنى: أن المخلوق هو الذي به الشر وأما الخالق ففعله خير وكله عدل، فالله عَزَّ وَجَلَّ ما خلق شيء إلا لحكمة.

من حيث خلق الله عَزَّ وَجَلَّ خير، ومن حيث هذا المخلوق ففيه شر، وأما فعل الله عَزَّ وَجَلَّ له خير، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق لحكمة، لما يترتب عليه من المصالح.

الثالث: باقي المخلوقات فهذه فيها خير وفيها شر، بعضها قد يوجد فيها خير وبعضها يوجد فيها شر، كالإنسان -مثلًا- قد يوجد به خير وقد يوجد به شر.

نعم باقي المخلوقات قد يوجد بها خير وقد يوجد بها شر، وأيضًا الجن قد يوجد به خير ويوجد به شر.

والاستعاذة كما تقدم: هي عبادة وهي اعتصام والتجاء القلب، والاستعاذة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يعتصم في أمر لا يقدر عليه إلا الله، فهذا عبادة لله وصرفه لغيره شرك، هذا إذا توجه به الإنسان لله فهو عبادة، وإذا صرفه لغيره فهو شرك.

كأن يقول -مثلًا-: اللّهم إني أعوذ بك من النار، هذه لا يقدر عليه إلا الله ما يعيذ أحد من النار إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا توجه بهذا لغير الله فقد وقع في الشرك.

فمثلًا لو قال للميت: أعوذ بك من النار، فهذا قد وقع في الشرك الأكبر المُخرج من الملة.

ولو قال لحي -مثلًا-: أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن، هذه ماذا نقول عنه؟ نقول: وقع في الشرك الأكبر لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله ما يعيذ الإنسان من الفتن ما ظهر منها وما بطن إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا يشمل الحي والميت والحاضر والغائب، إذا كان لا يقدر عليه إلا الله، فإذا صرف لغير الله فقد وقع في الشرك.

الضابط: أنه إذا كان أمر لا يقدر عليه إلا الله، مثاله: مغفرة الذنب هل يقدر عليها أحد غير الله؟ ما أحد يقدر، -مثلًا- النصارني لو أتى عند القسيس وقال: أعوذ بك أن تغفر ذنبي، أعوذ بك من ذنبي؛ هذا وقع في الشرك الأكبر المُخرج من الملة.

القسم الثاني: أن يستعيذ بالحي الحاضر فيما يقدر عليه، فهذا فيه خلاف من العلماء من قال: لا يجوز، لأن الاستعاذة اعتصام بالقلب وتوجه.

والظاهر والله أعلم: أنه جائز إذا كان بشروط للأدلة الكثيرة.

منها ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي مسعود البدري أنه كان يجلد غلام له - يضربه يعني- وكان الغلام يقول: أعوذ بالله، أعوذ بالله، فلما جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أعوذ برسول الله - لأنه لما حضر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو قادر على أن يعيذه من أبي مسعود، ولذلك لما أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تركه.

وأيضًا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ»، والبيت يعني: مكة، يعني: يعتصم بها يهرب حتى يعتصم بها.

وأيضًا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ، والْقَائِمُ خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، ومن وجد ملاذًا أو معاذًا فليَعُذْ به»، هذا يعتصم بالمخلوق فيما يقدر عليه.

فالأقرب والله أعلم: أنه يجوز إذا كان حاضر وحي وفيما يقدر عليه.

الثالث: أن يستعيذ بغير الله عَزَّ وَجَلَّ فيما لا يقدر عليه إلا الله, فهذا شرك, سواء كان هذا المستعاذ به حي أم ميت، حاضر أم غائب.

مثال الاستعاذة بالميت: كأن يقول لميت -مثلًا-: أعوذ بك من المرض الذي في، فهذا شرك.

أيضًا لو قال لحي غائب: سقط في النار فقال: أعوذ بك يا فلان من النار، فهذا شرك أكبر.؛ لأن الاستعاذة عبادة إذا كان التوجه والاعتصام فيما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ فهو عبادة.

وهنا مسألة: ما هو الفرق بين الاستعاذة واللياذ؟ مثلًا قال: ألوذ بالله، أو قال: أعوذ بالله.

اللياذ: لطلب الخير، تريد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعطيك الخير، والاستعاذة لدفع الشر؛ بمعنى: أنك تخاف من شيء فتستعيذ بالله أن يُبعد عنك هذا الشيء.

ولذلك قال الشاعر:

يامن ألوذ به فيما أؤمّلُهُ ... وأعوذ به مما أحاذرُهُ

لا يجبر الناسُ عظمًا أنت كاسرُهُ ... ولايَهضمون عظمًا أنت جابرُهُ

وهذا يقوله الشاعر لمخلوق، ولكن هذا لا يجوز أن يُقال إلا لله عَزَّ وَجَلَّ.

فمر معنا بابان:

الأول فيه: النذر لغير الله شرك.

والثاني فيه: الاستعاذة لغير الله شرك.

لأن النذر عبادة ولا يكون إلا عبادة، ولأن الاستعاذة إذا كان في أمر لا يقدر عليه إلا الله فهو عبادة، لأنه إذا استعاذ بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فإنه يتوجه بقلبه ويكون عنده ذل وخضوع والتجاء كامل لهذا الشيء.

إذا استعاذ بمخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله فيكون عنده التجاء تام؛ بمعنى: أنه يكون في قلبه ذل وخضوع واعتصام وطلب النجاة، هذا عبادة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالىٰ:﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[يونس: ١٠٦-١٠٧].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ما زال يذكر شيء من أنواع الشرك, لأن دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك, وأيضًا الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك؛ ولذلك قال: **من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.**

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من الشرك.**

(من) هنا للتبعيض, لأن أنواع الشرك كثيرة, ومنها ما ذكره المؤلف هنا رَحِمَهُ اللهُ.

قال: **من الشرك أن يستغيث بغير الله.**

الاستغاثة: هي طلب الغوث, وهو الإنجاء من الشدة, ولا تكون إلا من مكروب.

قال: **بغير الله**؛ يعني: سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

أو يدعو غيره.

والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فإذا دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك, وأيضًا إذا تعبد لغير الله يرجو ثوابه أو يخشى عقابه فقد أشرك.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[يونس: ١٠٦-١٠٧].

في هذه الآية الكريمة ينهى الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويشمل الأمة أيضًا أن يدعو غير الله ما لا ينفعه, ولا يجلب له نفع ولا يدفع عنه ضر.

قال: فإنه إن فُعل ذلك فقد يكون الإنسان من الظالمين؛ أي: المشركين, وأن الإنسان إذا مسه الله بضر بمرض أو نحو ذلك فلا يكشفه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي الآية: النهي عن دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قال: وقول الله تعالى: }وَلَا تَدْعُ.{

اللام هنا لام النهي.

}تَدْعُ{, الدعاء هنا يشمل دعاء المسألة, وأيضًا يشمل دعاء العبادة.

}وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: سوى الله.

وعبر الله بـ(الدون)؛ لأن كل من دُعي فهو دون الله عَزَّ وَجَلَّ, الله عَزَّ وَجَلَّ هو العلي الكبير, وما سوى الله هو الذليل الفقير إليه.

قال: }وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ{؛ أي: لا ينفعك إذا توجهت له بالعبادة, فإذا تعبدت له وطلبت منه فإنه لا ينفعك.

قال: }وَلَا يَضُرُّكَ{؛ أي: إذا تركت عبادته وأحجمت عنها فإنه لا يضرك.

قال: }فَإِنْ فَعَلْتَ{؛ يعني: إذا حصل منك, }فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ{؛ أي: من المشركين, والظلم هنا هو الشرك؛ لأن الشرك أعظم الظلم.

قال: }وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ .{

قال: }وَإِنْ يَمْسَسْكَ{؛ يعني: يصبك, }بِضُرٍّ{؛ بأي: ضر؛ لأن الضر هنا في سياق الشرط.

و(ضر): نكرة في سياق الشرط فتفيد جميع الضر, سواء كان ضر في الدين أو في الدنيا, في البدن أو في المال أو في الولد أو في العقل أو غير ذلك؛ لأنه قال: }بِضُرٍّ .{

}فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ{؛ يعني: لا مزيل, والكشف: هو الرفع, يعني: لا رافع لهذا الضر إلا هو, والضمير هنا عائد إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ أي: أنه لا يفع هذا الضر إلا الله عَزَّ وَجَلَّ .

ففي الآية الكريمة النهي عن دعاء غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

والآية هنا يخاطب الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه, والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبعد الناس عن الشرك, ولكن هذا يحذر منه غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قد يقع في الشرك, فإن كان الله عَزَّ وَجَلَّ خاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الخطاب أنه لو قُدِّر أنه وقع منه كان من

الظالمين فغير الله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب أولى, أنه إذا فعل الشرك أصبح من الظالمين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ{[العنكبوت: ١٧].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ{[العنكبوت: ١٧].

في هذه الآية الكريمة يأمر الله عَزَّ وَجَلَّ عباده أن يطلبوا الرزق منه, وأن يتوجهوا له بالعبادة.

ففيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يُدعى وحده ويخص بالدعاء لا يُدعى غيره سُبْحَانَهُ في طلب الرزق ونحوه.

قال: }فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ.{

}فَابْتَغُوا{؛ يعني: اطلبوا, الابتغاء هنا الطلب.

}فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ.{

الرزق: هو ما يكون رزق بدني أو رزق ديني.

وذلك أن الرزق ينقسم إلى قسمين:

الأول: رزق ديني, بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرزق الإنسان الطاعة والعلم النافع والتوجه إلى الخير ونحو ذلك, فهذا رزق من الله.

الثاني: الرزق البدني, ما يكون به قيام البدن, من المأكل والمشرب والملبس فتطلبه من الله سُبْحَانَهُ.

}وَاعْبُدُوهُ{؛ يعني: توجهوا له بالعبادة, فذلُّوا واخضعوا له سُبْحَانَهُ لا شريك له.

وهذا من عطف العام على الخاص, وذلك أن طلب الرزق من العبادة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ{[الأحقاف: ٥].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ{[الأحقاف: ٥].

في هذه الآية الكريمة فيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ يبين أنه لا ضال ولا تائه من امرئ يدعو غير الله وهو لا يستجيب له, إما ميت, وإما صنم, وإما شجر, فهو في غفلة عن دعائه, فهذا ما أضل منه ولا أسوأ حال منه, لا يستجيب له إلى يوم القيامة, لو بقي عنده يدعو حتى تقوم القيامة ما استجاب له, فهو غافل عنه.

ففي الآية الكريمة أن دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ضلال وبُعد عن الحق غاية البُعد.

قال: }وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو.{

الضلال: يطلق ويراد به التيه, وهو المراد هنا, يعني: من هو ضال للطريق تائه عن الطريق.

}وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو{؛ يعني: يتوجه بالدعاء, دعاء العبادة أو دعاء المسألة, }مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

}مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ{؛ يعني: لا يعطيه, إذا سأل شيء لا يعطيه, وأيضًا إذا تعبد له لا يثيبه, فهو لا يستجيب له, لا سؤاله ولا يثيبه.

}مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ{؛ يعني: لو بقي يدعو هذا الشيء ويسأله أن يعطيه لا يستجيب له؛ لأنه إما حجر, وإما شجر, وإما ميت قد انتقل إلى عالم الآخرة, في غفلة عن دعائه.

ففي الآية الكريمة: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يبين أنه لا أحد أضل ممن توجه لغير الله بالدعاء.

ففيه معنى ترجمة المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله: }وَمَنْ أَضَلُّ.{

هنا مسألة: وهو أنه ورد هنا أنه لا أضل ممن فعل كذا, يعني: من دعا غير الله.

وفي بعض النصوص: أنه لا أضل ممن فعل كذا كقوله ما أهلك من كان من قبلكم إلا كذا, فيحصر في هذا الشيء.

فيقال -والله أعلم-: أنه إذا حُصر الشيء فهو في الصفة هذه, بمعنى: أنه لا أضل ممن يتوجه بالعبادة لغير الله, هذا أعظم الضلال في العبادة.

وقوله «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ».

فهذا من أعظم الظلم في صفة الظلم, فيكون كل صفه في بابه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله:}أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ{[النمل: ٦٢].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ{[النمل: ٦٢].

في هذه الآية الكريمة يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه هو المستحق للعبادة وحده دون غيره, لأنه هو الذي يجيب المضطر.

فالمضطر: هو الذي حصل له اضطراب, بمعنى: أنه أوشك على الهلاك فاحتاج للإنقاذ من هذه الشدة, فالله عَزَّ وَجَلَّ ينقذه, فلا أحد يفعل ذلك إلا الله عَزَّ وَجَلَّ وهو القادر عليه وحده.

قال: }أَمَّنْ يُجِيبُ{؛ يعني: من هذا الذي يجيب, هذا استفهام إنكاري.

}أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ{, والمضطر: هو الذي أوشك على الهلاك, لأن الضرورة هو أن يوشك الإنسان على الهلاك.

}أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ{؛ يعني: إذا توجه هذا المضطر له فإنه يكشف عنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهذا عام لجميع من هو مضطر, سواء كان مؤمن أم كافر, موحد أم مشرك, صالح أم فاسد, بر أم فاجر, لأن هذا صفة إذا وُجدت في الإنسان وتوجه إلى الله وأخلص فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يجيبه.

}وَيَكْشِفُ السُّوءَ{؛ يعني: يزيله, والسوء: هو ما يسوء الإنسان, بمعنى: أنه يود لو أنه زال عنه.

ففي الآية الكريمة: أنه لا يجيب المضطر ولا يكشف السوء إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ففي الآيات التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أنه لا يجيب دعوة المضطر, وأن الدعاء لا يصح أن يتوجه به لغير الله.

واعلم أن الدعاء ينقسم إلى قسمين:

- الأول: دعاء تعبد, وهو أن يعبد المرء الله عَزَّ وَجَلَّ يرجو ثوابه ويخشى عقابه, وهذا صرفه لغير الله شرك.

بمعنى: أن الإنسان إذا صلى فهو يدعو الله؛ لأنه يرجو ثوابه ويخشى عقابه, لو صام فهو داعي لله؛ لأنه يرجو ثوابه ويخشى عقابه, لو زكَّى فهو يدعو الله؛ لأنه يرجو ثوابه ويخشى عقابه.

- الثاني: دعاء مسألة, وهو ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ فيما لا يقدر عليه إلا الله.

فهذا التوجه به لله من أعظم العبادة.

وقد جاء عند الترمذي من حديث النعمان بن بشير أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الدُّعاءُ هو العِبادةُ». والحديث حسن.

الثاني: أن يتوجه به لغير الله, فهذا شرك.

القسم الثاني: أن يدعو غير الله فيما يقدر عليه المدعو ويكون حي حاضر, فهذا جائز.

كما لو قال: يا فلان وهو عنده يقول: ائتني بماء, هذا دعاء ولكنه جائز.

فقوله: (يا) هذا يا النداء, يا فلان ائتني بماء, فهذا دعاء, ولكن يقدر عليه وهو حاضر وقادر.

القسم الثالث: أن يدعو غير الله عَزَّ وَجَلَّ وهو غائب أو ميت أو فيما لا يقدر عليه إلا الله, فهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

كما لو دعا صاحب قبر ميت, قال: يا فلان ادعو الله لي, فهذا شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام.

إذا قال للميت: يا فلان ادعو الله لي, فهنا دعاه قال: يا فلان, وهذا ميت, والميت في عالم البرزخ, في حياة غير الحياة التي يعيشها هذا الإنسان, فهذا بمنزلة من قال للصنم: يا صنم ادعو الله لي, لو قال للصنم ادعو الله لي حكمه مشرك, كذلك إذا قال للميت يا فلان ادعو الله لي فقد وقع في الشرك الأكبر.

وأيضًا إذا أتى إلى ميت وقال يا فلان فإنه يقع في قلبه من الذل والخضوع والتوجه لغير الله ما لا يصح إلا الله.

أيضًا إذا كان غائب فدعاه فهذا شرك أكبر, وذلك أنه توجه له بالدعاء قال: يا فلان انقذني مثلًا.

كما لو قال مثلًا: يا شيخ انقذني من هذا الشيء, أو يا شيخ أعطني كذا, والشيخ في مشرق الأرض وهو في مغربها, هذا شرك أكبر.

وذلك أنه ينبني على هذا أمور:

أولًا: لأنه هنا دعاه واعتقد أن له صفات من صفات الربوبية, يعتقد أنه يعلم الغيب, أو أنه يسمع كل ما يدور في الأرض, وأنه يجيب المضطر, فهو قد يقع في عقائد تزيد على ما دعاه به.

ثانياً من حيث النداء فهو شرك؛ لأنه نادى غائب, واعتقد أنه له تصرف في الكون أو نحو ذلك, وأيضًا خضع له وتذلل, فالدعاء عبادة.

أيضًا إذا دعا غير الله عَزَّ وَجَلَّ فيها لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك.

كما لو قال: يا شيخ اغفر ذنبي, أو قال: يا شيخ اشفني من مرضي, هذا حكمه شرك أكبر.

أو قال: يا شيخ: أدخلني الجنة وأنجني من النار, هذا شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر عليه إلا الله.

وملخص القول: أن دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك, وهذا المراد من قول المؤلف: **أو يدعو غيره** .

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وروى الطَّبَراني بإسنادِه: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ بعضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيث بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **وروَى الطَّبَرَانِي بإسنادِهِ**؛ يعني: بإسناد الطبراني عن عبادة بن الصامت رَضِي اللهُ عَنْهُ, **أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ**؛ يعني: حال حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, في الزمن الذي كان فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيًّا.

مُنَافِقٌ, والمنافق: هو الذي يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر, وهذا النفاق الأكبر.

يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ, الأذى يكون بالقول, يعني يؤذيهم بقوله.

فَقَالَ بعضُهُمْ -يعني: بعض المؤمنين-: **قُومُوا بِنَا**.

القيام هنا ليس القيام الوقوف, وإنما هو القيام للتوجه إلى الشيء.

قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني: نطلب أن يُغيثنا من هذا المنافق فينجينا من شدة أذاه.

بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ, فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي»؛ يعني: لا يتوجه إلي بطلب الاستغاثة.

والنهي هنا للتنزيه, لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ قادر أن يأمر بهذا المنافق فيُقتل أو ينهاه عن أذية المؤمنين, ولكن أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون الاستغاثة والتوجه الكامل لله وحده لا شريك له.

قال: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ»؛ يعني: يُطلب الغوث من الله, فاسألوا الله أن ينجيكم منه ومن غيره, فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القادر وحده لا شريك له, على كل شيء قدير.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: شدة أذى المنافقين للمؤمنين, وذلك أن المنافق يؤذي المؤمنين بلسانه.

فلذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[محمد: ٣٠], يعني: سيء القول, تجد أن لسانه سيء بذيء, يشتم ويسب, يعني يشتم المؤمنين ويسبهم ويؤذيهم في حال غيبتهم, وأيضًا حتى لو كانوا حضور, فالمنافق يؤذي؛ لأنه في قلبه كفر.

وقد قيل: أن اللسان دليل ما في القلب.

الإنسان إذا كان قلبه سيء لابد أن يكون زلة في لسانه, قد يزل فتخرج على فلتات لسانه ما في قلبه, لابد أن يخرج ما في قلبه على لسانه, يزل يوم من الأيام.

ومن الفوائد: أنه لا يُستغاث برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ولكن هنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو استغاث به المؤمن قادر أن يغيثه من أذى هذا المنافق, فيأمر بردع هذا المنافق أو نحو ذلك.

أما أن يغيث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شيء لا يقدر عليه إلا الله؛ فهذا لا يقدر عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره, لا يقدر عليه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: حُسن تعليم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك أنه نهى المؤمنين أن يستغيثوا به حتى لو كان يقدر على الشيء, أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون التوجه لله عَزَّ وَجَلَّ وحده, فيسأل الإنسان ربه أن يغيثه وحده لا شريك له.

ومن الفوائد: أن الاستغاثة بالله؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ يُنجي من جميع الشدائد كبرت أو صغرت, فإذا توجه إليه الإنسان؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ ينجيه منها.

وهنا مسألة: الاستغاثة -كما تقدم- هي طلب الغوث وهي الإنجاء من الشدة, والاستغاثة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يستغيث بالله عَزَّ وَجَلَّ فيما لا يقدر عليه إلا الله, وهذا يتضمن غاية الذل وغاية الخضوع وغاية الافتقار, فهذا من أعظم العبادات لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الله تعالى: }إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ{[الأنفال: ٩], فاستجاب الله عَزَّ وَجَلَّ لهم.

القسم الثاني: أن يستغيث بغير الله فيما يقدر عليه المغيث, ولابد أن يكون حاضر وحي ويكون قادر على هذا الشيء, فهذا جائز.

والدليل على ذلك: قوله تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامَ قال: }فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ{[القصص: ١٥].

ففيها: أن الذي من شيعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامَ استغاث به طلب الغوث, وهو الإنجاء من شدة هذا الرجل الذي كان يُقاتله, فأغاثه, وموسى قادر على هذا الشيء وهو حاضر وحي, فهذه الشروط توفرت إذا كان حي حاضر قادر فيجوز أن يُستغاث به.

القسم الثالث: أن يستغيث بالأموات أو بالغائبين أو بأمر لا يقدر عليه إلا الله, فهذا شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام, كما تقدم في الدعاء.

فلو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله, كما لو كان مكروب أُصيب بمرض, فاستغاث بالطبيب قال: اشفني من هذا المرض وزله عني, قد مسني الضر؟ هذا شرك أكبر؛ لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله.

وأيضًا لو قال للشيخ مثلًا: يا شيخ أدخلني الجنة فأنا أكثرت من الذنوب, فأنا في شدة المعاصي والذنوب فأنجني من هذه الذنوب كفِّرها عني وأدخلني الجنة, حكم هذا؟ شرك أكبر؛ لأنه استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

أيضًا لو استغاث بغائب, إنسان سقط في بئر مثلًا وشيخ حي ولكنه في مشرق الأرض وهذا في مغربها, فقال: يا شيخ انقذني من هذه البئر أخرجني من هذه الشدة؟ فهذا شرك أكبر؛ لأنه توجه بالتعبد لغير الله, وذلك أن الدعاء عبادة.

وأيضًا قد يكون يصاحبه عقائد فاسدة, يعتقد أن له تصرف في الكون, وأيضًا وقع في قلبه غاية الذل وغاية الخضوع؛ لأنه تعبد الآن له.

وأيضًا إذا استغاث بميت, فهذا شرك أكبر.

كما لو قال: يا عبد القادر الجيلاني أخرجني من هذه الورطة التي أنا فيها, أخرجني من هذه البئر مثلًا؟ هذا شرك أكبر؛ لأنه توجه بالعبادة لغير الله.

وهنا مسألة: ما هو الفرق بين الدعاء والاستغاثة؟

الدعاء أعم, فهو يكون حال الرخاء ويكون حال الشدة, وأما الاستغاثة فهي أخص لا تكون إلا في حال الشدة.

وأيضًا الاستغاثة هي نوع من الدعاء, ولكنها نوع خاص تكون في حال الشدة.

إذًا: هنا ذكر المؤلف أن من الشرك الاستغاثة بغير الله أو دعاء غيره.

وهذا يتوجه على لا يقدر عليه إلا الله, يعني: إذا كان أمر لا يقدر عليه إلا الله فإذا دعا هذا الشيء أو استغاث به فقد أشرك.

وهنا مسألة -وهي شُبهة-: قد يقول المشرك: إني دعوت صاحب القبر فأُزيل عني هذا الضر.

نقول: زال عنك الشيء بسبب من واحد من أمور ثلاثة:

السبب الأول: أن يكون هذا السبب فتنة لك, فيكون القدر وافق أنك أُعطيت عند سؤالك لا بسؤاله, بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قدَّر أنك حين تدعو تُعطى, قبل أن تدعو صاحب القبر, فيعتقد هذا الداعي أنه أُعطي بسبب هذا الميت.

وفي الحقيقة: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أعطاه قبل أن يدعو أصلًا, لأن الميت لن يستجيب له, الله عَزَّ وَجَلَّ أخبرنا أنه لن يستجيب؛ قال: }وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ{[الأحقاف: ٥].

فالميت لن يستجيب له, ولكن أُعطي عند السؤال لا بالسؤال, يعني: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قدَّر عليه أن يعطيه قبل أن يسأل ثم سأل, فظن أنه أعطاه صاحب القبر.

السبب الثاني: أن يكون قد أُذي الإنسان من ناحية الشياطين, الشياطين فيما يقدرون عليه يؤذونه, فيسأل الميت فيزول عنه الشيطان حتى يفتتن, فيظن أنه أعطاه صاحب القبر.

وفي الحقيقة: أن الشيطان زال عنه.

فمثلًا: امرأة لا تحمل, وكان هذا بسبب الشيطان, في ما يقدر عليه كأن يبقى في الرحم أو نحو ذلك, هذا مما أقدرهم الله عَزَّ وَجَلَّ عليه, والشيطان يريد للإنسان الضلال والشرك.

فتأتي هذه المرأة إلى الميت فتقول: يا فلان ارزقني بولد, فيخرج الشيطان, من رحمها فتظن أن الميت أعطاها, والشيطان أراد أن تفتتن, فيكون بسبب خارج وليس بسبب هذا الميت, يكون بسبب الشيطان في الأمر الذي يقدر عليه ثم يزول عنها حتى تفتتن وتقع في الشرك, فيكون قلبها متعلق بهذا الميت.

السبب الثالث: أن يكون بسبب أن هذا المشرك أتى للميت فتوسل إلى الميت ثم دعا الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الحالة مخلصلا له وهو مضطر.

يعني: أشرك أولًا ثم توجه إلى الله, والله عَزَّ وَجَلَّ يجيب المضطر, فيظن هذا المشرك أنه أعطاه صاحب القبر فيكون فتنة له, والمعطي له مَنْ؟ الله عَزَّ وَجَلَّ, لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يجيب المضطر, إذا وقع الإنسان في اضطراب حتى لو كان مشرك فإن الله عَزَّ وَجَلَّ قد يعطيه.

والدليل على ذلك: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ{[العنكبوت: ٦٥].

فالأموات والغائبين والأمور التي لا يقدر عليها إلا الله لا يجوز أن يُدعى فيها غير الله, هذا هو الضابط.

وأيضًا هنا مسألة مهمة: إذا قال قائل: إن قول الإنسان للميت يافلان ادع الله لي ليس بشرك لأن الميت يسمع.

فالجواب على هذه الشبهة:

أولًا: إبطال هذا القول أن الميت يسمع؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ{, فالميت لا يستجيب ولا يسمع, فالميت في غفلة عن دعائه.

أيضًا: يقال له: إن قولك إنه ليس بشرك غير صحيح؛ لأن عند قوله: يا فلان ادعو الله لي, هذا (يا) النداء, وتوجه بها لمن لا يقدر عليه, ومعلوم أنه إذا دعا أحد في أمر لا يقدر عليه إلا الله فقد وقع في الشرك, فالميت لا يقدر على هذا الشيء قد مات.

وأيضًا: حين أتى إلى هذا الميت وسأله وقع في قلبه ذل وخضوع وتوجه بالعبادة لهذا الميت ولابد,أن يكون هذا لا يمكن أن يأتي إنسان ويسأل الميت ويقول: يا فلان ادعو الله لي, إلا وقد وقع في قلبه غاية الذل وغاية الخضوع وغاية التعظيم ما لا يجوز إلا لله, فهو أشرك من هذا الوجه.

وأشرك من وجه آخر: أنه ناداه, قال: يا فلان وهو ميت في عالم آخر.

فقول: يا فلان ادعو الله لي, هذا شرك أكبر.

والملخص على ذلك: أن قول: الأنسان للميت يا فلان ادعو الله لي, قد وقع في الشرك من وجهين:

الوجه الأول: أنه دعاه, قال: يا فلان, وهذا نداء, وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ{[غافر: ٦٠], فمن دعا غير الله فقد وقع في الشرك.

الوجه الثاني: أنه خضع له وذل وعظَّمه في أمر لا يقدر عليه إلا الله, ولابد, ما يمكن أن يأتي إلى ميت ويسأله إلا وفي قلبه غاية الذل وغاية الخضوع لهذا الميت, ومعلوم أن غاية الذل وغاية الخضوع عبادة, فمن توجه بها لغير الله فقد أشرك.

ولذلك ابن معمر قال ما معناه: أن لم يأتي في النصوص مثل النهي عن دعاء غير الله؛ وذلك أنه قد يشتبه على الإنسان هذا الباب فيقع الإنسان في الشرك وهو يظن أنه مباح له.

فالآن عُباد القبور وعُباد الأضرحة الذين يعبدون البدوي أو عبد القادر أو الحسين, هؤلاء يعبدونه لأنهم ينادونه يسألونه, والله عَزَّ وَجَلَّ أمر ألا يُعبد غيره, فالعبادة محض حق لله.

فالدعاء عبادة.

والدليل على ذلك: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي{[غافر: ٦٠], فسمَّى الدعاء عبادة.

وجاء في حديث النعمان أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الدُّعاءُ هو العِبادةُ». رواه الترمذي.

وذلك: كأن معنى الحديث أن العبادة انحصرت في الدعاء, فإذا توجه لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك, فلا يجوز دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: }أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ{[الأعراف: ١٩١-١٩٢]

وقوله: }وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ{[فاطر: ١٣-١٤].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ}:أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ{[الأعراف: ١٩١-١٩٢].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بيَّن فيه بطلان عبادة المشركين، وأن المشركين يتوجهون بالعبادة لمن ليس مستحق لها، وأن ما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ لا يستطيع أن ينصر أحد.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب قول الله تعالى:** }أَيُشْرِكُونَ{، الآية.

هذه الآية الكريمة فيها يُبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن المشركين اتخذوا معبودات لا تنفع ولا تضر, وتوجهوا لها بالعبادة وهي لا تستحق ذلك، وبيَّن أنها تُخلق ولا تخلُق.

قال الله تعالى: }أَيُشْرِكُونَ{، هذا استفهام إنكاري؛ يعني: أيعبدون سوى الله عَزَّ وَجَلَّ ويتوجهون له بالعبادة ويشركون بالله غيره.

}مَا لَا{، (ما) هنا اسم موصول يفيد العموم، واللام بعدها نفي.

}مَا لَا يَخْلُقُ{؛ والخلق هو الإيجاد من العدم، فالله عَزَّ وَجَلَّ نفى عن هؤلاء أنهم يخلقون، يعني: كيف تعبدون ما لا يخلق؟!

وهنا في قوله: }يَخْلُقُ شَيْئًا{، (شَيْئًا) هنا نكرة في سياق النفي فتفيد ماذا؟ فتفيد العموم؛ يعني: لا يخلقون حتى الذرة ولا حبة ولا شعيرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

ثم قال تعالى: }وَهُمْ يُخْلَقُونَ{، الضمير هنا عائد إلى المعبودين من دون الله؛ أي: أن هذه المعبودات هي تُخلق وذلك أنهم صنعوا أصنام بأيديهم ثم عبدوها، فالعابد والمعبود مخلوق فهم يعبدون من هو مخلوق مثلهم.

قال: }وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا.{

}وَلَا يَسْتَطِيعُونَ{؛ يعني: لا يقدرون.

}لَهُمْ نَصْرًا{، والنصر هو الظفر والفوز بالشيء، فهم لا يستطيعون أن ينصرونهم.

}وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ{؛ أي: أن هذه المعبودات الباطلة لا تنصر أنفسها، لأنها إما أموات وإما جمادات وإما أشياء فقراء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لا تنصر أنفسها.

ويراد هنا –والله أعلم– أنها أصنام لا تستطيع أن تنصر أنفسها لأنها جمادات، فكيف تنصر وهي جماد؟!

ففي الآية الكريمة بطلان عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك أن المعبود من دون الله مخلوق، كل معبود من دون الله وهو مخلوق، والله عَزَّ وَجَلَّ هو الخالق، لأنه لا يوجد في الوجود إلا خالق ومخلوق، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الخالق الموجد من العدم وما سواه مخلوق، فهم توجهوا بالعبادة لمخلوقات مثلهم، فكل من عبد غير الله فهو قد عبد مخلوق، هذا عام.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ{[فاطر: ١٣].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ.{

في هذه الآية الكريمة يُبين فيها الله عَزَّ وَجَلَّ أن الذين يدعون من دونه ويتوجه لهم بالعبادة أنهم ما يملكون أحقر شيء وهو اللفافة التي تكون على التمر فهم لا يملكون هذا الشيء، ففيها بطلان عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ، فعبادة غير الله باطلة.

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ ترجم بالآية الكريمة أراد في الترجمة أن يُبين أن كل معبود سوى الله عَزَّ وَجَلَّ فهو فقير ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا فضلًا عن غيره، ليُبين أن المشركين عبدوا من لا يستحق العبادة, فتوجهوا بالتعبد لغير مستحق، ولا يستحق التعبد إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: }وَالَّذِينَ تَدْعُونَ{، (الَّذِينَ) اسم موصوف يفيد العموم.

}وَالَّذِينَ تَدْعُونَ{؛ يعني: تتعبدون لهم تدعونهم دعاء عبادة أو دعاء مسألة.

}وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ{؛ يعني: دون الله عَزَّ وَجَلَّ، فالضمير في قوله: }دُونِهِ{؛ يعني: دون الله عَزَّ وَجَلَّ، والضمير عائد إلى الله، يعني: سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

}مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ{، ما يملكون استقلالًا من قطمير.

والقطمير: هو اللفافة الرقيقة التي تكون على النواة، فهم لا يملكون مثل ذلك، فكيف يُدعون من دون الله وهم ما يملكون هذا الشيء الصغير الحقير؟!

ففي الآية الكريمة بطلان عبادة غير الله؛ وذلك أن المدعو لابد أن يكون مالك للشيء استقلالًا، ولابد أن يكون قادر على الشيء، ولابد أن يكون سامع للداعي، فهذه الشروط منتفية عن عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ، فغير الله عَزَّ وَجَلَّ لا يملك استقلالًا؛ بمعنى: أنه يملك الشيء استقلالًا فيكون له ملك مطلق هذا لا يوجد.

كل الأملاك هي ملك لله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ يُعطي بعض المخلوقات عطاء مقيد؛ بمعنى: أنه يملكه والتمليك مقيد، وذلك أن الملك ينقسم إلى قسمين:

الأول: ملك مطلق، وهذا خاص بالله عَزَّ وَجَلَّ، قال الله تعالى: }تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ{[الملك: ١]، هذا الملك المطلق العام.

فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي خلق، وهو الذي يملك استقلالًا؛ بمعنى: أنه له التصرف في مخلوقاته بما شاء سبحانه، فهو يملك ملك مطلق.

الثاني: ملك مقيد، وهذا قد يُملِّكه الله عَزَّ وَجَلَّ بعض المخلوقات ولكنه ملك مقيد، بمعنى: أنه في يد هذا المخلوق مقيد ليس له التصرف فيه بما شاء.

ولذلك الآن لو كان مع الإنسان مائة ريال فأحرقها هل يجوز هذا؟ نقول: هذا حرام لأن هذا مال لله، فأنت المال الذي بيدك والأملاك التي يملكها البشر هي ملك لله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما ابتلى الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الإنسان بأن ملَّكه ملك مقيد.

والدليل على ذلك: أنه جاء في صحيح مسلم أن العبد يوم القيامة يقول: يا ربِّ أعطيتني مالك، فيقول: ما فعلت في مالي الذي ملَّكتك؟ فالمال مال الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثالث: أن يكون قادر, فلا يقدر إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يقدر أن يجيب المضطر ويعطي كيف شاء إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

أيضًا الله عَزَّ وَجَلَّ لا يخفى عليه شيء, فهو يسمع جميع المسموعات، وما سوى الله يخفى عليه كثير، بل لا يسمع إلا ما كان عنده قريب, كلٌّ بحسبه، أما الله عَزَّ وَجَلَّ لا يخفى عليه مسموع, يسمع كل مسموع.

إذًا: بطل عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن كان غير الله لا يملك قشرة الشيء الرقيق يعني الغلاف الرقيق الذي يكون على النواة بعد أكل التمرة يبقى غلاف رقيق هذا غير الله ما يملك استقلا، يعني: أقل من التمرة، فكيف يُدعى غير الله وهو بهذه المثابة؟! هذا يدلك على بطلان عبادة غير الله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي الصحيح عَنْ أَنَسٍ قال: شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟».فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران: ١٢٨].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وفي الصحيح؛ يعني: صحيح البخاري.

قال: **وفي الصحيح عَنْ أَنَسٍ قال: شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فقال:«كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» .فنزلت:﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.﴾**

في هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيه: أن أفضل البشر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما استطاع أن يدفع عن نفسه من دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففيه: أن المؤلف أراد إن كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما استطاع أن يدفع عن نفسه وهو أفضل البشر، فلا يجوز دعاؤه, ولا يجوز دعاء غيره من باب أولى، ولا التوجه له بالتعبد، هذا مراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

قال: **شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ.**

يَوْمَ أُحُدٍ: يعني: يوم غزوة أُحُد، وهذه الغزوة غزاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة الثالثة للهجرة، وكان أول الأمر أن انتصر المسلمون, وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرماة ألا ينزلوا عن الجبل قال: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَاحَتَّىٰ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ».

أمرهم وحصل ما حصل لاجتهاد الرماة اجتهدوا رأوا أن الغزوة انتهت فنزلوا، فرجع عليهم المشركون فحصل ما حصل، ومن ذلك أنه شُج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر المؤلف هنا.

قال: **وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ.**

الرباعية: هي السن الذي يلي الثنية، وذلك أن الإنسان له أربع رباعيات: اثنتان فوق, واثنتان تحت، فما يلي الثنية يمسى رباعية.

وقال ابن حجر: "أنها كُسرت ولم تُقلع ".

والله أعلم هل هي العليا أم السفلي؟ الله أعلم.

قال: **وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فقال:**«كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟».

«كَيْفَ»، هذا استفهام.

«يُفْلِحُ»؛ يعني: يفوز بالمطلوب وينجو من المرهوب.

«قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ»؛ يعني بمعنى: أن جرحوا خده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، وذلك أنه لما ضُرب فدخل الخوذة في خده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ وأخرجها أحد الصحابة بأسنانه حتى سقطت أسنانه.

قال: «شَجُّوا نَبِيَّهُمْ»؛ يعني: كيف يحصل لهم الفلاح وهم شجوا نبيهم؟

فنزلت: يعني: هذا سبب النزول.

فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.﴾

﴿لَيْسَ﴾، هذا نفي.

﴿لَكَ﴾؛ يعني: لام المُلك، ليس لك من أمر الخلق.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ﴾؛ يعني: الشأن.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، (شَيْءٌ) نكرة؛ يعني: ليس لك في الخلق تصرف, بل الخلق للخالق سبحانه هو الذي خلقهم وهو الذي يتصرف فيهم كيف شاء، فإن كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له من الأمر شيء وليس له في الخلق شيء فغيره من باب أولى، فهو لا يملك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ في أمر الخلق شيء.

ذلك أن الخلق لله، ففيه أنه يبطل عبادة سوى الله، حتى عبادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باطلة، إذا توجه أحد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعبادة فعبادته باطلة لأنه توجه لمن لا يجوز أن يُتعبد له، حتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالله عَزَّ وَجَلَّ قال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، فأمر الخلق إلى الخالق سبحانه.

فهذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر يصيبه ما يصيب البشر؛ ولذلك شُج عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

وقد مر عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ كثير من ما يمر على البشر، منها أنه سُحر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، ومنها أنه كان يصيبه الصداع، وقد قال عند عائشة قالت: وارأساه، قال: «بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ».

وأيضًا يصيبه الحمى، وقد دخل عليه ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله إنك توعك، قال: «نعم، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلَانِ مِنْكُمْ».

فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ بشر يصيبه ما يصيب البشر، وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا حب إنسان ابتلاه، ولا شك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب البشر إلى الله لأنه خليل الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن الخلق أمرهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو الذي خلقهم وهو الذي يتولى أمورهم، فليس لسوى الله عَزَّ وَجَلَّ في الخلق شيء، فالله عَزَّ وَجَلَّ خلق الخلق وهو يدبر أمورهم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفيه: عن ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إِذا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ في الرَّكْعَةِ الأخِيرَةِ من الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ». فَأَنْزَلَ اللهُ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} [آل عمران: ١٢٨].

وفي رواية: "يدعو على صفوان بن أمية, وسُهيل بن عمرو, والحارث بن هشام فنزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}."

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **وفيه**: يعني: في صحيح البخاري.

قال: **عن ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأخِيرَةِ من الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ». فَأَنْزَلَ اللهُ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.}**

وفي رواية: "يدعو على صفوان بن أمية, وسُهيل بن عمرو, والحارث بن هشام فنزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.}"

في هذا الحديث: فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يلعن هؤلاء الذين ذُكروا في صلاة الفجر بسبب ما حصل منهم، فنهاه الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}؛ يعني: ليس لك في الخلق شيء، فالخلق للخالق هو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي يتولى أمورهم.

قال: **وفيه: عن ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أَنَّهُ سَمِعَ**: يعني: سمع بأذنيه، وأسنده للشيء المحسوس وهو الأذن وهو أعلى ما يكون.

قال: **سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ من الْفَجْرِ**: يعني: في الركعة الأخيرة يقنت عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إذا رفع رأسه من الركوع، وهذا في الفريضة فريضة الفجر.

يقول: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»؛ هنا ما سمى في الحديث، ولكن في الرواية الأخرى سماهم.

يقول: **«اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ»**؛ يعني: بعد الركوع.

فنزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}؛ يعني: ليس لك من شأن الخلق شيء.

وفي رواية: "يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}؛ يعني: ليس لك من أمر هؤلاء شيء، فالأمر لله عَزَّ وَجَلَّ.

وهؤلاء الثلاثة أسلموا وحسُن إسلامهم، وهذا يدلك على أن تصريف الخلق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول كريم, رسول ليس له إلا أن يُبلغ رسالات الله عَزَّ وَجَلَّ، أما الخلق فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يتولى حسابهم ويتولى شأنهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن القنوت يكون بعد الركوع؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قنت بعد الركوع.

وقد ورد عن بعض الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم أنه قنت قبل الركوع, إذا انتهى من القراءة قنت ثم ركع، فيجوز هذا وهذا.

ومن الفوائد: أنه يجوز القنوت في الفريضة، ولكن القنوت في الفريضة يكون في النوازل.

وذهب بعض العلماء: أنه يُقنت في صلاة الفجر دائمًا، وهذا مذهب الشافعي رَحِمَهُ اللهُ يرى أن القنوت مطلق, في كل صلاة فجر قنوت.

وأيضًا من الأحاديث التي استدل بها قال: "فما زال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقنت حتى مات"؛ يعني: بعد هذه الحادثة ما زال يقنت حتى مات، وهو في الصحيح.

ولكن معنى قوله: "يقنت حتى مات"؛ أي: يطيل القراءة, وليس يقنت يعني يدعو، لأن من معاني القنوت: طول القيام.

والصحيح: أنه لا يقنت إلا عند النوازل.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا نزل بالمسلمين نازلة قنت، فقد قنت عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شهر يدعو على قبائل من العرب.

ومن الفوائد: أنه يجوز لعن المعين على قول بعض العلماء استدلالًا بهذا الحديث، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن وخص فلان وفلان وفلان.

ولكن الصحيح: أنه لا يجوز لعن المعين كما في هذا الحديث، هذا هو الصحيح، وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ نهاه أن يدعو على المعين.

فالصحيح: أن أنه لا يجوز لعن المعين بهذا الحديث، وبأدلة أخرى.

واعلم أن اللعن ينقسم إلى قسمين:

الأول: لعن عام، فهذا يجوز، كما لو قال الإنسان: لعن الله الكفار والمشركين فيجوز هذا، أو قال: لعن الله السُّراق، أو لعن الله الراشي والمرتشي, بدون أن يقيد بأحد, هذا يجوز.

والدليل على ذلك: ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة أنه قال: "لَأُصَلِّيَنَّ لَكُمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ"، فكان يدعو للمؤمنين ويدعو على الكافرين بدون أن يخص.

وأيضًا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ».

وقال: «لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ».

«لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا», مطلقًا.

فيجوز اللعن العام لمن استحق ذلك, سواء كان كافر أو فاسق بدون أن يقيد.

يقول: "لعن الله السُراق"، "لعن الله شاربي الخمر"، "لعن الله الكفار"، "لعن الله المشركين"، يجوز.

القسم الثاني: اللعن المقيد بشخص بعين، مثل أن يقول: لعن الله فلان.

فهذا الأقرب والله أعلم: أنه لا يجوز إن كان مؤمن أو مسلم، إن كان مسلم فعل ما يستحق عليه اللعن فإنه لا يُلعن.

فلو سرق شخص -مثلًا- فلا يجوز أن تلعنه، ما تقول أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ»، فأنت ملعون، لا، ما يجوز هذا.

والدليل على ذلك: أنه أُتي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برجل قد شرب الخمر، فقال رجل: أخزاه الله، أو قال: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلْعَنْهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ».

وفي حديث آخر قال: " النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن الخمر وشارب الخمر وعاصرها"، هذا مطلق، ولكن لما قُيد بشخص نهاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يُلعن المقيد هذا إذا كان مسلم فاعل للكبيرة.

وإن كان كافر معين أيضًا لا ينبغي أن يُلعن، هذا هو الأقرب والله أعلم.

والدليل: أن الله عَزَّ وَجَلَّ نهى رسوله، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن أناس وخصهم لما كانوا على الكفر فنهاه الله عَزَّ وَجَلَّ قال: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.}

لأنه قد يلعن الإنسان معين ويُسلم هذا المعين، قد يسلم كما أسلم هؤلاء الثلاثة وحسُن إسلامهم، فإذا كان معين فلا يُلعن حتى لو كان كافر، ولأن الإنسان لا يعلم ما يموت عليه هذا الشخص, قد يُسلم قبل الموت.

والدليل على ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل على يهودي وهو في مرض الموت، فأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يشهد أن لا إله إلا الله، فنظر هذا اليهودي إلى أبيه فقال: أطع أبا القاسم, فأسلم فمات للتو، فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»، فقد يُسلم الكافر في آخر حياته, فلا يُلعن المعين.

واللعن هو: الطرد والإبعاد من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

فإذا قال الإنسان: لعن الله فلان فهو كأنه يقول: اللّهم أبعده عن رحمتك.

ومن الفوائد: أن الخلق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يتصرف فيهم كيف شاء، فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يُقدر أمورهم ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يتصرف في شأن الخلق؛ ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفيه: عن أبي هُريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ أُنزِلَ عليهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]. فقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شيئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

قَال الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**وفيه:** يعني: في الصحيح.

عن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ أُنزِلَ عليهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، فقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

في هذا الحديث الذي يذكره أبا هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ فيه: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لما أنزل على رسوله: أنذر أقربائك أنذرهم، قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخصَّ وعمَّ، فعمَّ قريش ثم خص أقربائه حتى خصَّ ابنته عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامَ، فقال: «**لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شيئًا**».

ففيه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك للخلق نفعًا ولا ضرًا وغيره من باب أولى، فبطلت عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ، فعبادة غير الله باطلة فلا يجوز أن يُدعى ولا يتوجه بالتعبد إلا لله وحده، لأنه هو وحده سبحانه المستحق للعبادة.

فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل الخلق لا يملك لأقربائه شيء، فغيره من باب أولى أنه لا يملك شيء ولا يُدعى ولا يتوجه له بالعبادة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**وفيه**: يعني: في الصحيح.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: **قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

قَامَ؛ القيام هنا يعني: توجه للشيء وليس القيام يعني الوقوف.

قال: **قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ أُنزِلَ عليهِ: }وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ.{**

يعني: حين نزلت هذه الآية الكريمة.

}وَأَنْذِرْ{؛ يعني: خوف، والنذارة: هي التذكير المقرون بالترهيب.

}وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ.{

}عَشِيرَتَكَ{، العشيرة هنا يعني: قومه أقربائه، وعشيرة الإنسان: يعني: أناسه المقربين؛ ولذلك قال: }الْأَقْرَبِينَ{؛ يعني: الأقرب فالأقرب.

فقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ**»، المعشر: يعني: الجماعة، يا جماعة قريش، وقريش هم قوم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«**-أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ**».

«**اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ**»؛ أي: من الله عَزَّ وَجَلَّ؛ أي: أطيعوه ووحدوه ولا تشركوا به شيئًا ولا تعصوه، فمن أطاع الله عَزَّ وَجَلَّ وعبده وحده لا شريك له فقد اشترى نفسه من الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: »**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»؛ أي: لا أصرف عنكم شيء أراده الله عَزَّ وَجَلَّ بكم، ولا أنفعكم بشيء أبدًا.

ولذلك قال: «شَيْئًا»، وشيئًا هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم, لا كثير ولا قليل، ما أملك لكم شيء.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصدق البشر قال: «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شيئًا، يَا عَبَّاسُ»، هنا خص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أولًا: عم قريش، وهنا بدأ يخص، والعباس هو عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، المطلب هو جد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أبو العباس.

«يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا»؛ يعني: لا أدفع عنك شيء أراده الله عَزَّ وَجَلَّ بك، لا أغني شيئًا لا كثير ولا قليل.

«يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ»، صفية هي عمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: أخت أبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك قال: «يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»؛ يعني: لا أدفع عنك شيء أراده الله عَزَّ وَجَلَّ.

«وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ»، فاطمة هي بنت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالآن خص أقرب الناس إليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، وهي فاطمة، قال: «وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ»؛ ولذلك سمى نفسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

«سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ»؛ يعني: مما أقدرني الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، وهذا الملك المقيد.

«سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»؛ يعني: لا أصرف عنكِ مما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ بكِ شيء.

هذا الحديث فيه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك لمن هو قريب منه شيء، والبعيد من باب أولى، فإن كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك لفاطمة وهي بضعة منه شيئًا فغيره من باب أولى, البعيد عامة المسلمين لا يملك لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنذر عشيرته الأقربين؛ ولذلك يستفيد من هذا الداعية أن يبدأ بالأقرب فالأقرب، الداعية عليه أن يبدأ بالأقرب فالأقرب فيدعو أقربائه، يدعو أباه ويدعو أمه ويدعو أخيه وأخته وابنه وبنته وزوجه، وهكذا، فيبدأ بالأقربين ثم لعامة المسلمين؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنذر عشيرته الأقربين.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك لأقربائه مما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ بهم شيء، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُنجي أحد من النار ولا يُدخل أحد الجنة.

والدليل على ذلك: أن أبا لهب وهو عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات على الكفر، فما أغنى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء، وأبا طالب لما مات مات على الكفر فقال له العباس: يا رسول الله أغنيت عن عمك شيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ»، فما أخرجه من النار.

فإن كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل البشر وأحب البشر إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لا يملك لأحد شيء، فغيره من باب أولى، فبطلت عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك لأحد شيء في حال حياته وبعد مماته من باب أولى، وهذا يدلك على ضلال من يأتي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسأله عند قبره الآن، هذا يدلك على شدة ضلاله.

فإن كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ وهو حال حياته ما يملك لفاطمة ولا العباس ولا عمته شيء، فكيف يملك لهذا الإنسان الذي أتى بعد قرون وبعد موته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ كيف يملك له شيء؟ ما يملك له شيء.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لما قالت: وارأساه، قال: «وما يضُركِ ذلك ولو كنت أنا حي، فأستغفر لكِ»؛ يعني: يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغفر لها.

وقوله: «وأنا حي»؛ دليل على أنه بعد موته لا يُقال له اسأل الله لي.

وفي هذا الحديث معنى الباب الذي ذكره المؤلف: فيه أن غير الله عَزَّ وَجَلَّ لا يملك شيء.

فالمؤلف أراد أن يُبين أن المعبودات الباطلة التي اتخذت غير الله عَزَّ وَجَلَّ هي لا تملك شيء ولا تضر ولا تنفع، كمن يتوجه للأضرحة أو يتوجه للأشجار أو يتوجه للأصنام فإنه في ضلال بعيد، وقد توجه لمن لا يستحق من العبادة شيئًا.

وهنا مسألة: لو قال قائل -مثلًا-: الله عَزَّ وَجَلَّ قال لرسوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[النساء: ٦٤].

لو قال: أنا الآن أريد أن أذهب إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقول: يا رسول الله ادعوا الله لي واستغفر لي الله، هل يجوز هذا؟

الجواب: أن هذا الفعل شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام كما تقدم، أن هذا الفعل شرك أكبر مُخرج من ملة الإسلام للدليل والتعليل:

أولًا: الدليل: أنه جاء في الصحيحين أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: وارأساه، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما يضركِ يا عائشة إن متِّ وأنا حي فأستغفر الله لكِ».

فقوله: «وأنا حي»؛ دليل على أنه بعد موته لا يستغفر لأحد ولا يدعوا لأحد.

أيضًا للتعليل: لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك لنفسه شيئًا حال حياته، فكيف يملك بعد مماته لغيره شيء؟! فهو لا يملك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ حال الحياة شيء استقلالًا، فما يستطيع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أن يغفر لأحد ولا يعطي أحد في حال حياته فكيف بعد مماته؟!

ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠]، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات فلا يُسأل بعد موته شيئًا، لأن سؤاله بعد موته وقول: يا رسول الله ادع الله لي هذا شرك.

وذلك أنه إذا قال هذا يكون توجه بالدعاء لغير الله والدعاء ماذا؟ عبادة، والتوجه بالعبادة لغير الله شرك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾[الأحقاف: ٥]، الآية، فلا يُدعى غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأيضًا لأنه حين يأتي إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقع في قلبه من الذل والخضوع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لا يصح إلا لله.

وهنا فائدة: كل من توجه لغير الله بالدعاء لميت أو صنم أو شجر لابد أن يكون في قلبه غاية الذل وغاية الخضوع، وهذا الشيء لا يجوز أن يُصرف لغير الله.

وذلك أن تعريف العبادة: هي غاية الذل وغاية الخضوع، هذه العبادة، فإذا صُرف هذا الشيء لغير الله فقد وقع الشرك، فالعبادة هي غاية الذل وغاية الخضوع، ومن يتوجه للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أو لغيره من الأموات فإنه يكون في قلبه غاية الذل وغاية الخضوع، ولابد أن يكون هذا في قلبه لأنه ما يأتي إلى الميت إلا وقد وقع في قلبه غاية الذل وغاية الخضوع، وهذه هي العبادة، العبادة هي غاية الذل مع غاية الخضوع.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ :

وَعِبَادَةُ الرَّحْمن غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِه هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ العِبَادَةِ دائرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قامَتِ القُطْبَانِ

فالعبادة هي غاية الذل مع غاية الخضوع، فإذا صرفها الإنسان لغير الله فقد وقع في الشرك.

فهذا الباب باب مهم، وفيه أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يُبين للإنسان الذي يشرك بالله أنه صرف العبادة لمن لا ينفعه ولا يضره ولا يملك له شيء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: }حَتّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ{[سبأ: ٢٣]

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب قول الله تعالى:** }حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ{[سبأ: ٢٣].

مناسبة هذه الآية الكريمة لكتاب التوحيد: أن المؤلف أراد أن يبين بطلان عبادة من عَبَد غير الله, وأن كل من عُبد من دون الله فلا يستحق العبادة, وذكر عبادة أعظم المخلوقات التي عُبدت من دون الله وهي الملائكة, وبيَّن حالهم كيف يكونون عند كلام الله لهم ونحو ذلك, كيف يغشاهم من الخوف والذل لله عَزَّ وَجَلَّ, فدل على بطلان عبادة ما سوى الله.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب قول الله تعالى:** }حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.{

قوله تعالى:}إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ{,}فُزِّعَ{؛ يعني: أزيل الفزع وهو الخوف,}عَنْ قُلُوبِهِمْ{؛ يعني: عن قلوب الملائكة عَلَيْهِم السَّلاَمُ, }قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ{, قال الملائكة بعضهم لبعض ماذا قال ربكم.

ثم قال تعالى:}قَالُوا الْحَقَّ{؛ يعني يقول بعضهم لبعض أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال الحق,}وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.{

العلي: الذي له العلو من جميع الوجوه, علو الذات وعلو الصفات وعلو القهر.

الكبير: الذي لا أكبر منه سبحانه, فهو أكبر من كل شيء.

ففي هذه الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف فيها: أن الملائكة عَلَيْهِم السَّلاَمَ يغشاهم من الذل والخوف والفزع من الله عَزَّ وَجَلَّ إذا تكلم, فيخافون, وهذا فيه دليل على عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ, وأنه سبحانه وتعالى الإله الحق, لا إله إلا هو.

ويدل على أن الملائكة وهم أعظم المخلوقات خائفون من الله عبيد له سبحانه, فدل على بطلان عبادة كل ما سوى الله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَصَفه سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ التِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ, في ذكر حديث ابي هريرة الطويل قال: وفي الصحيح: يعني: صحيح البخاري.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الْأَمْرَ»؛ يعني أوحى بالشيء, والقضاء هنا القضاء الكوني, إذا قضى الله عَزَّ وَجَلَّ الأمر, والأمر: يعني الشأن.

«فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا»؛ أي: أن الملائكة عَلَيْهِم السَّلاَمَ إذا سمعوا قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ ضربوا بأجنحتهم, يعني ذلوا لله عَزَّ وَجَلَ.

«بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ»؛ أي حال كونهم خاضعين لله, يعني ذُلًّا وخضوعًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: «كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ»؛ أي أن الصوت المسموع كأنه جر السلسلة على الحجر الأملس, فقوله: (السلسلة)؛ يعني السلسلة المعروفة من حديد.

«عَلَىٰ صَفْوَانٍ»؛ يعني على صفاة ملساء.

قال: «يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ»؛ أي ينفذهم القول, بمعنى أنه يخلص إلى قلوبهم.

قال: }حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ{, تقدم تفسير هذه الآية في أول الباب.

قال: «فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ»؛ يعني يسمع هذه الكلمة مسترق السمع, وهو نفر من الجن الذين يسترقون السمع.

قال: «وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ»؛ أي أن الجن الذين يسترقون السمع يصعد بعضهم على بعض.

قال: «وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ», سفيان: أحد رواة هذا الحديث قال: (وصفه بكفه), والكف: هذه الكف.

قال: «وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا»؛ يعني أمالها, هذا معنى التحريف.

«وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»؛ يعني: قال هكذا, بدَّد: يعني وسَّع, فحرفها هكذا ثم بدد بين أصابعه؛ أي أنهم يصعد بعضهم فوق بعض.

قال: «فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ»؛ يعني الكلمة التي قُضيت في السماء, «فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ»؛ لأن كل واحد فوق الآخر, فالأول يسمع ثم يُلقي إلى من تحته, ثم الثاني, ثم الثالث, وهكذا.

«ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ»؛ أي هذه الكلمة حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن, وهذا فيه دليل على أن الساحر يقول هذه الكلمة والكاهن يقولها, وهي كلمة حق.

والساحر: هو المموه, وسيأتي إن شاء الله باب عن السحر, وهو الذي يستعمل الشياطين.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

قال: «فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ», الشهاب: هو القطعة من النجم, يخرج من النجم وهو ملتهب.

قال: «قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا», وهذه هي النجوم التي يُرمى بها الشياطين.

قال: «فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ»، رُبَّ: للتقليل.

قال: «أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا»؛ يعني أصابه الشهاب قبل أن يلقي هذه الكلمة.

قال: «وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ»؛ يعني في بعض الحالات يُلقي هذه الكلمة قبل أن يُدركه الشهاب قبل أن يصيبها.

قال: «فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ»، هل الضمير هنا عائد إلى الجن الشيطان أو عائد إلى الساحر؟ يحتمل هذا وهذا.

والظاهر -والله أعلم-: أنه يعود إلى الجن.

«فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ»، يقول كلمة الحق التي سمعت من السماء فيكذب معها مئة كذبة، وقد يكون الساحر أيضا؛ لأنه لا غرابة على الساحر والكاهن أن يكذب.

قال: «فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ:»، الضمير هنا ضمير الغيبة، يعني يقول بعض الناس.

«فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟»؛ يعني يقول الناس بعضهم لبعض أليس قد قال كذا وكذا ووقع؟ كيف هذا؟ هل يعلم الغيب؟

الجواب: لا يعلم الغيب، ولكنه سمع الكلمة التي قُضيت في السماء فقالها للناس ووقع كما قال، يعني الساحر تأتيه كلمة والكاهن من السماء، فيقول هذه الكلمة فتقع.

يقول -مثلًا-: سيأتي كذا وكذا في السنين القادمة فيقع؛ لأنه سمع هذه الكلمة من السماء، ولكن الحاصل أنه يكذب معها مائة كذبة، والناس تتعلق قلوبهم بهذه الكلمة وينسون المائة كذبة.

قال: «فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

إذًا: هذه الكلمة سمعت من السماء وليست من الساحر؛ لأن الساحر لا يعلم الغيب ولا أحد يعلم الغيب غير الله عَزَّ وَجَلَّ، لا أحد يعلم الغيب سوى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن هذا الكاهن أو هذا الساحر سمع هذه الكلمة وقالها ووقع كما قال، وهذا ابتلاء من الله عَزَّ وَجَلَّ يبتلي به العباد.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يتكلم.

ولذلك قال: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ»؛ يعني: تكلم به سبحانه بالوحي, فالله عَزَّ وَجَلَّ يتكلم, وكلام الله عَزَّ وَجَلَّ لا يماثل كلام المخلوقين؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثل الشيء وهو السميع البصير.

ومن الفوائد: أن الملائكة لها أجنحة لها أجنحة.

ولذلك قال: «ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا», والملائكة لها أجنحة وتختلف نعم, لها أجنحة, قد يكون له جناحان, وقد يكون له أربعة, وقد يكون له ثلاثة, وقد يكون له ستمائة جناح.

قال الله تعالى: {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[فاطر: ١].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رأيت جبريل قد سدَّ الأُفق وله ستمائة جناح».

فالله عَزَّ وَجَلَّ جعل للملائكة أجنحة, هذا ثابت في الكتاب والسنة أن الملائكة لها أجنحة.

ومن الفوائد: أن الملائكة يخافون الله عَزَّ وَجَلَّ ويخشونه, والملائكة عبيد لله عَزَّ وَجَلَّ خلقهم الله عز وجل لعبادته, لا يعصون الله عَزَّ وَجَلَّ ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ولذلك إذا سمعوا قول الله عَزَّ وَجَلَّ خضعوا وذلوا واستكانوا لربهم سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

ومن الفوائد: أن قول الله عَزَّ وَجَلَّ حين يقع في قلوب الملائكة شديد عليهم, فينفذهم ويخافون, وكلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب, كلام الله عَزَّ وَجَلَّ يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب.

والدليل على أن الملائكة يخلص في قلوبهم:

قوله: «يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ».

وقوله هنا: «كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ», هنا تشبيه للسماع بالسماع, لا المسموع بالمسموع , كما أن الإنسان إذا سمع السلسلة تجر على الصفاة الملساء له شدة في قلبه؛ كذلك صوت الله عَزَّ وَجَلَّ إذا سمعه الملائكة له شدة في قلوبهم, لا أن صوت الله عَزَّ وَجَلَّ كجر السلسلة على الصفوان مماثل له, لا, الله عَزَّ وَجَلَّ ليس كمثله شيء, ولكن المراد والله أعلم: أنه تقريب للفهم؛ أي أن الإنسان إذا سمع السلسلة العظيمة الكبيرة تجر على الصفاة كيف يكون وقعها في قلبه؟ يكون شديد يخلص إلى قلبه, هكذا الملائكة إذا سمعوا كلام الله عَزَّ وَجَلَّ خلصوا إلى قلوبهم وخافوا , فهوله شدة في قلوبهم.

ومن الفوائد: أن الملائكة لهم قلوب.

ولذلك قال: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾, فالملائكة لهم قلوب, وهم أجسام, لا كما يقول بعض الضُلَّال أنهم عقول فعَّالة ونحو ذلك, بل هم أجسام ويسمعون ويبصرون, ولكنهم لا يأكلون ولا يشربون؛ كما قال الشيخ الإسلام بن تيمية.

وأيضا لا يتناسلون, الملائكة ما يتناسلون.

ومن الفوائد: أن الجن قد يستمع الكلمة التي يوحي بها الله عَزَّ وَجَلَّ في السماء.

وهل السماء هنا السماء المبنية أو السحاب؟

الظاهر والله أعلم: أنها الثاني السحاب.

والدليل على ذلك: ما جاء في صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ -وَهُوَ السَّحَابُ- فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ، فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ».

فهذا هو الظاهر والله أعلم, فيسمع الكلمة التي في السحاب, والسحاب دون السماء, السماء بعيدة.

ومن الفوائد: أن الجن لهم قدرات تختلف عن قدرات الإنس, وقد أعطاهم الله عَزَّ وَجَلَّ قدرة تختلف عن قدرة الإنس.

ولذلك لما قال لسليمان العفريت من الجن -العفريت: يعني الشديد من الجن- قال لسليمان:}أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ{[النمل: ٣٩].

كان سليمان يجلس في مكان ثم يقوم منه, يعني في آخر النهار أو نحو ذلك, فقال العفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من هذا المقام, وسليمان كان في الشام وملكة سبأ كانت في اليمن, قال آتيك بهذا الشيء في نصف يوم أو أقل من ذلك.

وقال في الآية:}وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ{[النمل: ٣٩]؛ يعني أعطاني الله عَزَّ وَجَلَّ قدرة استطيع أن آتي به في هذا الوقت وأحمله, الله عَزَّ وَجَلَّ أعطاهم قدرة.

ومن الفوائد: أن الجن قد يسمع الكلمة, الشيطان الذي يستمع الكلام قد يأخذ هذه الكلمة يسمعها.

والدليل: قال:«فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ»؛ يعني يستمع لهذه الكلمة ويأخذها, فيذهب بها إلى الساحر والكاهن فيلقي هذه الكلمة ويكذب معها مائة كذبة.

ومن الفوائد: أن الساحر والكاهن أولياء للشيطان.

والدليل: أن الكاهن والساحر بينهم تعاون لإضلال الناس وأيضا لأذاهم.

وأعلم أن الشيطان لا يفعل مع الإنس كما يفعل الإنس معه, الساحر والكاهن قد يتذلل للشيطان ويعبده من دون الله ويخضع له ويسجد له ونحو ذلك, ولكن الشيطان لا يفعل معه هذا؛ لأنه يرى أنه أعظم منه إذا فعل معه هذا, فهو يطيعه لأنه عصى الله, الشيطان يطيع هذا الإنس لأنه عصى الله, فهو يفرح بهذا الشيء, يريد أن الإنسان هذا يضل ويريد أن يعصي الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فلذلك يفرح.

والشيطان لا يتذلل للإنس,ما يسجد له ولا يطيعه يريد منه شيء, لا, يطيع هذا الإنس لأنه أطاعه وأذلَّه فيرى أنه أضله, فهم أولياء لبعض.

ولذلك يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض,}وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ{[الأنعام: ١٢٨].

ولذلك كان يستمتع بعضهم ببعض,فالإنس يستمتع بالجن فيما ينفعه فيه, والجن يستمتع بالإنس في عبادته له وطاعته له.

ومن الفوائد: أن الساحر والكاهن قد يقول الكلمة وتقع كما قال.

واعلم أن هذه الكلمة التي قالها هي التي سُمعت في السماء, فهي التي قضى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون.

فمثلا: الله عَزَّ وَجَلَّ يقضي في السماء أن يموت فلان من الناس, فيأتي هذا الساحر أو الكاهن فيقول سيموت فلان, للكلمة التي سمعها من السماء فيقع, فتتعلق قلوب الناس بهذا الساحر أو هذا الكاهن.

ولذلك تجد أن بعض الناس يقول: أنا قال لي هذا الساحر كذا ووقع كما قع, والساحر والكاهن لا يعلم الغيب, ولا يعلم الغيب إلا الله عَزَّ وَجَلَّ, ولكنه قال الكلمة التي سُمعت من السماء, وفي هذا ابتلاء من الله عَزَّ وَجَلَّ, والله عَزَّ وَجَلَّ يبتلي الخلق.

ومن الفوائد: أن بعض الناس يتعلق بالشيء الوهمي ويتعلقون بما يسمعون.

ولذلك هؤلاء الناس كذب عليهم الكاهن والساحر مائة كذبة وقال كلمة واحدة حق سمعها نُقلت إليه من السماء فتعلقوا به بسبب هذه الكلمة, ونسوا المائة كذبة.

يعني: الساحر يقول سيحصل كذا ولا يقع, ويقول سيحصل كذا ولا يقع, كلها كذب, ويقول سيحصل كذا ولا يقع, حتى يصل إلى مائة, ثم يقول في المئة سيحصل كذا ثم يقع, ثم تتعلق قلوب هولاء الناس به يقولون: يعلم الغيب! كيف عرف هذه الكلمة؟والكذبات الماضية نسوها!!.

هذا يدلك على شدة الخطأ, لأنه يكذب عليك مائة كذبة وتصدقه بكلمة واحدة! مائة كذبة يكذب عليك وتصدقه بكلمة واحدة! هذا يدلك على أن بعض الناس يتعلق بالشيء الوهمي.

ومن الفوائد: أن الساحر والكاهن لا يعلم الغيب.

وهنا قاعدة: الغيب الذي يكون في المستقبل لا يعلمه إلا الله, ولكن الساحر والكاهن يسمع هذه الكلمة ثم يلقيها إلى الناس ويقول سيحصل كذا فتقع, وليست هي منه, ولكنها قضاها الله عَزَّ وَجَلَّ في السماء واسترقها هؤلاء الجن وأتوا بها إلى هذا الكاهن أوهذا الساحر.

وفي ذلك ابتلاء من الله عَزَّ وَجَلَّ, لو شاء الله عَزَّ وَجَلَّ لما وصلت له الكلمة, ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ يبتلي من يشاء, والغيب لا يعلمه إلا الله.

واعلم أن الغيب ينقسم إلى قسمين:

الأول: غيب مطلق عام في الأمور المستقبلة ؛ يعني: من يدخل الجنة, من يدخل النار, من يموت, من يُولد له, من يتزوج, وهكذا, فهذه أمور غيبية مستقبلة, فهذه لا يعلمها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ}[النمل: ٦٥]؛ يعني في السماء والأرض لا يعلم الغيب إلا الله, فالله عَزَّ وَجَلَّ نفى عن كل مخلوق أنه يعلم الغيب, فلا يعلم الغيب المطلق العام إلا الله عَزَّ وَجَلَّ, فالأشياء الماضية التي في الأزل والأشياء المستقبلة هذه لا يعلمها إلا الله.

القسم الثاني: الغيب المقيد, الذي يغيب عن بعض الناس أو بعض المخلوقات ويعلمه البعض, هذا يسمى غيب مقيد أو غيب نسبي؛ بمعنى: أنه بالنسبة لك غيب وبالنسبة لي شهادة.

فمثلًا: الآن نحن في المسجد, ما يحصل في السوق غيب بالنسبة لنا, ولكن الذين عند السوق بالنسبة لهم شهادة, فهذا معنى الغيب النسبي, يعني بالنسبة لفلان غيب, وبالنسبة لفلان ليس بغيب شهادة.

ولذلك الكاهن أو العراف أو الساحر إذا قال أمك فلانة أو أنت أتيت من البلد الفلاني فهذا غيب نسبي؛ لأن القرين الذي مع هذا الإنسان يعرفه, يعرف فلان ويُبلغ هذا الساحر, يقول هذا اسمه فلان وأنت ما تسمع, وأتى من القرية الفلانية, وهكذا,فيعتقد الإنسان أن

هذا الساحر يعلم الغيب, لكنه لا يعلم الغيب؛ لأنه غيب نسبي, يعني بالنسبة لهذا القرين يعرفه يعرف حال هذا الشخص.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن النَّوَّاسِ بن سَمعانَ رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذا أَرادَ اللهُ تعالىٰ أَن يُوحِي بالأَمرِ تَكَلَّمَ بالوُحْيِ أَخَذَتِ السَّماواتِ مِنهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِذا سَمِعَ ذلك أَهْلُ السَّماواتِ صَعِقُوا وَخَرَّوا للهِ سُجَّدًا فَيكونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بما أَرادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبريلُ على الملائكةِ، كُلَّما مَرَّ بِسَماءٍ سَأَلهُ مَلائِكَتُها: ماذا قالَ رَبُّنا يا جِبريلُ؟ فيقولُ جبريلُ: قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فيقولونَ كُلُّهُمْ مِثلَ ما قَالَ جِبريلُ فَيَنْتَهِي جِبريلُ بالوَحْيِ إلىٰ حيثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ». رواه ابن أبي حاتم.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

في هذا الحديث الذي ذكره المؤلف فيه مسائل:

قال:وعن النَّوَّاسِ بن سَمعانَ رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«إِذا أَرادَ اللهُ تعالىٰ أَن يُوحِي بالأَمرِ»؛ يعني يوحي بالشأن.

«تَكَلَّمَ بالوُحْيِ أَخَذَتِ السَّماواتِ مِنهُ رَجْفَةٌ»؛ يعني ارتجفت ارتعدت.

«أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ», ترتجف السماء من خشية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ,«خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ».

«فَإِذا سَمِعَ ذلك أَهْلُ السَّماواتِ», أهل السماوات: هم الملائكة, وهذا دليل على أن جميع أهل السماوات يحصل لهم ذلك.

قال:«صَعِقُوا»؛ يعني أُغشي عليهم,«وَخَرَّوا للهِ سُجَّدًا»؛ يعني سجدوا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«فَيكونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْريلُ»؛ أي: بعد السجود أول من يرفع رأسه جبريل عَلَيْهِ السَّلاَم.

«فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِما أَرادَ»؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يكلم جبريل بالوحي كما شاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على ما تقتضيه حكمته سُبْحَانَهُ.

«ثُمَّ يَمُرُّ جِبريلُ علىٰ الملائكةِ»، بعد أن أوحى الله عَزَّ وَجَلَّ له ينزل، فيمر على الملائكة، يمر عليهم؛ فيمر بكل سماء.

قال: «ثُمَّ يَمُرُّ جِبريلُ علىٰ الملائكةِ، كُلَّما مَرَّ بِسَماءٍ»؛ هذا دليل على أنه ينزل إلى السماوات.

«سَألهُ مَلائِكَتُها»؛ مثل ملائكة السماء السابعة، السماء السادسة، الخامسة، وهكذا، يسألون جبريل.

«ماذا قالَ رَبُّنا يا جِبريلُ؟»، يسألون ما هو القول الذي قاله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ «فيقولُ جِبريلُ: قَالَ الْحَقَّ»؛ أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال القول الحق، وقوله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حق.

«وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»؛ يعني: العلي الذي له العلو من جميع الوجوه، الكبير الذي لا أكبر منه سُبْحَانَهُ والذي هو أكبر من كل شيء.

«فيقولونَ»؛ يعني: الملائكة يقول بعضهم لبعض، «كُلُّهُمْ»، و(كل) تدل على العموم، كل الملائكة يقولون هذا القول، «فيقولونَ كُلُّهُمْ مِثلَ ما قَالَ جِبريلُ»؛ يعني: يقولون: قال الحق، يقول بعضهم لبعض، هذا فيه دليل على تعظيمهم لربهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«فَيَنْتَهِي جِبريلُ بالوَحْيِ إلىٰ حيثُ أَمَرهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»؛ يعني: ينتهي بالوحي إلى ما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ، إن كان وحي إلى رسول فينتهي إلى ذاك الرسول، وإن كان وحي يعني يحصل كذا فينتهي إلى ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن السماء لها شعور، ولكن هذا الشعور يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ ولذلك أنها إذا سمعت كلام الله ارتجفت وخافت.

والمخلوقات لها شعور, كل مخلوق بحسبه, والله عَزَّ وَجَلَّ يعلم حال هذه المخلوقات جميعًا؛ ولذلك السماء إذا مات رجل صالح بكت عليه وتبكي عليه الأرض أيضًا.

والدليل في القرآن: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ}[الدخان: ٢٩].

فالسماء والأرض تبكي على الرجل الصالح, إذا مات الرجل الصالح بكت عليه السماء وبكت عليه الأرض, أما الرجل الفاسد والفاجر فإن السماء لا تبكي عليه ولا الأرض؛ كما قال تعالى: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ.}

فالمخلوقات لها شعور, كُلٌّ بحسبه, وقد كان في مكة حجر يسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة, يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في المدينة: «واللهِ إنِّي أَعرفُهُ الآن», يُسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "السلام عليك يا رسول الله".

والله عَزَّ وَجَلَّ قال: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}[الإسراء: ٤٤].

فما من شيء إلا ويسبح بحمد الله, السماء تسبح, والحجر يسبح, وكل شيء يسبح, ولكن ما نفقه.

فالمخلوقات لها شعور؛ ولذلك السماء تخاف.

ومن الفوائد: أن الملائكة يسمعون كلام الله عَزَّ وَجَلَّ, وكلام الله عَزَّ وَجَلَّ مسموع يُسمع, وهو بصوت وحرف ويُسمع.

ولذلك قال: «فَإِذا سَمِعَ ذلك أَهْلُ السَّماواتِ صَعِقُوا».

ومن الفوائد: أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامَ هو السفير بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين خلقه, فجبريل هو الرسول المَلَك, فهو الذي يأتي بالوحي إلى الأنبياء, وهو أفضل الملائكة؛ ولذلك يكون أول من يرفع رأسه.

هذا الباب ذكر فيه المؤلف مسائل:

من المسائل التي أراد أن يوصلها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: أن الملائكة أعظم المخلوقات, ولهم قدرات عظيمة أقدرهم الله عَزَّ وَجَلَّ, ولهم صفات عظيمة.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ،إِنَّ مَابَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ».

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ عن جبريل: }عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى{[النجم: ٥].

وقد جاء في الأثر: "أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حمل قوم لوط بطرف من جناحه, فحملهم حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة, ثم قلبهم", وكانوا أربعمائة قرية؛ يعني: فيها تقريبًا أربعمائة ألف ساكن, وحملهم بطرف من جناحه, فالملائكة لهم خلْق عظيم.

وقد جاء في الأثر: أن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا قال للملائكة خذوه -قال للكافر الذي يكون من أهل النار- تبادره سبعون ألف".

وأن بعض الملائكة الذين يُعذبون أهل الناء لو شاء أحدهم لحمل سبعون بيده.

فالملائكة لهم خلْق عظيم, ومع ذلك هذا حالهم حين يسمعون كلام الله ويعرفون عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ, فإذا كان هذا في الملائكة وهم أعظم من عُبد من دون الله فمن دونهم من باب أولى.

المؤلف أراد أنه إذا كان الملائكة هذا حالهم وهم أعظم من عُبد من دون الله؛ فعبادة غيرهم من باب أولى أنها باطلة, فالذي يعبد الحجر أو يعبد ميت يتوجه له بالدعاء ويتوجه له بالذبح, أو يعبد حجر أو يعبد صنم أو يعبد شجرة, هذه ما توازي القليل من الملائكة عَلَيْهِم السَّلَامُ .

فإذا كان الملائكة مع هذه العظمة هذا حالهم عند سماع كلام الله وخوفهم من الله وأنهم يصعقون ويُغشى عليهم وأنهم يخافون من الله فكيف تُعبد هذه الشجرة وهي أضعف من الملائكة؟! وكيف يُعبد هذا الميت وهو أضعف من الملائكة؟!

وهذا يدلك على بطلان عبادة ما سوى الله, وأنه لا يجوز أن يتوجه بالعبادة إلا لله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب الشفاعة

وقول الله تعالىٰ: }وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{[الأنعام: ٥١] .

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب الشفاعة.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد فيه أن يرد على الذين يعبدون غير الله ويتوجهون لهم بالعبادة, ثم يزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله, فأتى بهذا الباب ليرد عليهم؛ وذلك أن فعلهم هو الشرك بعينه.

قال رَحِمَهُ اللهُ:**باب الشفاعة.**

الشفاعة لغة: هي ضد الوتر, بمعنى الشفع, بمعنى: أن الواحد يضم قوله للآخر فيصير شفعًا بعد أن كان وترًا.

فالشفع في اللغة: هو الزوج.

وأما شرعا: فهو التوسط للغير في جلب منفعة أو دفع مضرة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:وقول الله تعالى: }وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{[الأنعام: ٥١].

في هذه الآية الكريمة فيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لنبيه أنذر بالقرآن الذين يخافون الله عَزَّ وَجَلَّ ويخافون أن يُحشروا إليه, ليس لهم من دون الله ناصر ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم, لعلهم يخافون الله عَزَّ وَجَلَّ ويتقونه.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:وَأَنذِرْ بِهِ{, الانذار: هو الإعلام المقترن بالتخويف, هذه النذارة.

وقوله:}بِهِ{, الهاء هنا يعني الضمير هنا عائد إلى القرآن,}وَأَنذِرْ بِهِ{؛ يعني: بالقرآن.

}الَّذِينَ يَخَافُونَ.{

الخوف: هو اضطراب القلب من توقع وقوع مكروه, ف}يَخَافُونَ{؛ يعني: يخافون من ربهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى .

وقوله:}أَنْ يُحْشَرُوا.{

الحشر هو, بمعنى الجمع , يعني يُجمَعون عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى للحساب.

}إِلَى رَبِّهِمْ{؛ يعني: إلى خالقهم ومعبودهم الذي ليس لهم معبود سواه.

وقوله تعالى:}لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ.{

}ليس{: نفي.

}لَهُمْ مِنْ دُونِهِ{؛ يعني: من دون الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

}وَلِيٌّ{, والولي: هو الناصر والمعين.

}وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ{, والشفيع: هو الذي يشفع لهم ويتوسط لهم.

}لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{,}لَعَلَّهُمْ{؛ أي: ليحصل لهم التقوى.

والتقوى: هي فعل الأوامر واجتناب النواهي خوفاً من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ بحيث أن الإنسان يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

في هذه الآية الكريمة فيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ نفى الشفاعة التي يعتقدها المشركون , والشفاعة المنفية هنا هي الشفاعة التي ليست بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ ولم يأذن بها الله عَزَّ وَجَلَّ ولم يرضاه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا{[الزمر: ٤٤].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ{ :قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا{[الزمر: ٤٤].

في هذه الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيها: أن الشفاعة مُلك لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, مُلك له وحده ليست لأحد غيره سبحانه.

ولذلك أكَّد بـ}جَمِيعًا{ التي تفيد التوكيد وهي المصدر المؤكد.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :قُلْ{؛ يعني يا محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ} ,قُلْ لِلَّهِ{, اللام لام الملك,اللام في لفظ الجلالة لام الملك.

}قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ{؛ يعني: الشفاعة كلها.

قال:}قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا{, (جميعاً): مصدر مؤكِّد.

ففي الآية الكريمة: أن الشفاعة مُلك لله عَزَّ وَجَلَّ ليست لأحد سواه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ{[البقرة: ٢٥٥].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:وقوله: }مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ{[البقرة: ٢٥٥].

في هذه الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يشفع ولا يتقدم بين يديه للشفاعة إلا أن يأذن كوناً وشرعًا, فلابد من الإذن.

وقوله: }مَنْ ذَا الَّذِي{,(مَنْ): هنا استفهام, وهذا الاستفهام يتضمن التحدي, يعني كأن معنى الكلام: من هذا الذي هو يتقدم بين يدي الله؟

}مَنْ ذَا الَّذِي{؛ يعني: من هذا؟

}الَّذِي يَشْفَعُ{؛ يعني: يتقدم بالشفاعة يتوسط لغيره.

}عِنْدَهُ{؛ يعني: عند الله عَزَّ وَجَلَّ, والضمير هنا عائد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

}إِلَّا بِإِذْنِهِ{؛ يعني: إلا أن يأذن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ بحيث أن يُلهم هذا العبد كوناً أن يشفع, وبحيث أن يأذن شرعاً, فلابد من الإذن من الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي الآية الكريمة: أن الشفاعة لابد فيها من إذن من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ{[النجم: ٢٦].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَاتُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًاإِلَّامِنْ بَعْدِأَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى{[النجم: ٢٦].

في هذه الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيها: أن السموات مليئة بالملائكة, وشفاعتهم لا تجدي ولا تغني لأحد شيئاً.

و}شيئاً{: هنا نكره, يعني ما تفيد.

}إلا{: أن يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ.

}لِمَنْ يَشَاءُ{؛ يعني: يأذن للشافع ويرضى للمشفوع له.

فهنا في هذه الآية الكريمة: الشرط ثاني وهو الرضى عن المشفوع له, ففيها الرضى عن المشفوع له.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }وَكَمْ{,(وكم): للتكثير, غالباً تأتي للتكثير, وقد تأتي للتقليل, والأغلب: أنها للتكثير, يعني ما أكثر الملائكة في السماء.

}وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ{, المَلَك: من الألوكة وهي الرسالة, فالمَلَك مُرسل من الله عَزَّ وَجَلَّ.

}مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ{؛ يعني: في السماوات المبنية فوق العباد, يعني ما أكثر الملائكة في السماوات في السماء الدنيا والسماء التي تليها والتي بعدها والتي بعدها حتى السابع.

}لَاتُغْنِي{؛ يعني: لا غنى لها, يعني لا تغني أحد ولا تنفعه.

}لَاتُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ{؛ يعني: توسطهم.

}شَيْئًا{, و}شيئاً{: هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم, يعني: لا تُغني لا كثير ولا قليل, ما تغني لا شفاعة قليلة ولا كثيرة, يعني لا يقدرون أن يشفعون في شيء لا كثير ولا قليل.

}إلا{: هذا استثناء,}إِلَّا مِنْ بَعْدِ{؛ يعني: من بعد أن يحصل هذا.

}إِلَّا مِنْ بَعْدِأَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ{؛ أن يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ كوناً؛ بحيث أن يُلقي في قلب هذا المَلَك أن يشفع, وأيضاً يأذن شرعاً؛ بحيث يقبل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

}لِمَنْ يَشَاءُ{؛ يعني: للمشفوع له؛ بحيث يأذن للشافع أن يشفع في المشفوع له, فيأذن عن المشفوع له؛ بحيث يكون من أهل التوحيد والإخلاص.

}وَيَرْضَى{,وأن يرضى عن الشافع والمشفوع له.

ففي الآية الكريمة: لابد من شرطين:

الشرط الأول: الإذن؛ بحيث أن يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ للشافع أن يشفع.

والشرط الثاني: الرضا, ويشمل الرضا عن الشافع والمشفوع له.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ{[سبأ: ٢٢-٢٣].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ{[سبأ: ٢٢-٢٣].

في هذه الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيها: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لهؤلاء المشركون يقول ادعوهم إن كانوا يجيبون.

}مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: سوى الله, لا يملكون هؤلاء شيء لا في السماء, ولا في الأرض لا يملكون مثقال ذرة –والذرة: النملة الصغيرة-, وليس لهم في هذه الأشياء من شرك وليس له معين, ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له.

ففي الآية الكريمة: نفى الله عَزَّ وَجَلَّ عن غيره أنه يملك شيء, وأن له شرك في ملكوت الله أو أنه معين لله, أو أنه يشفع عند الله بدون إذنه.

وهذه الآية الكريمة يقول ابن القيم:"إنها قطعت عروق الشرك الذي تعلَّق به المشركون"؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ نفى فيها أن غيره يملك شيء, ونفى فيها أن غيره له شرك في ملكوته سبحانه, ونفى أنه له معين, ونفى أنه يشفع أحد عنده بدون إذنه, فلا سبيل للمشرك في شيء مما أراد,انقطعت حجته, فقطعت عروق الشرك من أصله.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله: }قُلِ ادْعُوا{, يقول الله عَزَّ وَجَلَّ للمشركين: ادعوا إن كانوا يُجيبون.

}قُلِ ادْعُو االَّذِينَ زَعَمْتُمْ{؛ يعني: زعمتم كذبًا و زورًا.

}مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: زعمتم أنها تُعبد ويتوجه إليها من دون الله.

}لَايَمْلِكُونَ{, لا يملكون استقلالًا,}مِثْقَالَ ذَرَّةٍ{, والذرة: هي النملة الصغيرة.

}فِي السَّمَاوَاتِ وَلَافِي الْأَرْضِ{؛ يعني: ما يملكون من السماوات السبعة الطباق ولا الأرض مثقال ذرة, ليس لهم مثقال ذرة.

}وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا{؛ يعني: ليس لهؤلاء الذين تعتقدون أنهم آلهة ليس لهم في السماوات والأرض.

}شِرْكٍ{؛ يعني: نصيب؛ بحيث أنهم يشاركون الله عَزَّ وَجَلَّ في خلقها أو في تدبيرها.

}وَمَا لَهُ{, الضمير عائد إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

}وَمَا لَهُ مِنْهُمْ{؛ يعني: من هؤلاء المعبودات التي تعتقدون أنها تُعبد من دون الله.

}مِنْ ظَهِيرٍ{؛ يعني: معين, يعني: ليس لله عَزَّ وَجَلَّ من هؤلاء معين.

}وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ{؛ يعني: عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما تنفع ولا تجدي.

}إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ{؛ يعني: إلا من أذن الله عَزَّ وَجَلَّ له أن يشفع فإنه يشفع بإذنه.

ففي الآية الكريمة: قطع الله عَزَّ وَجَلَّ فيها أصول الشرك من أصله, فانقطعت حجة المشركون.

ساق المؤلف رَحِمَهُ اللهُ آيات كريمات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فيها أن الشفاعة لابد فيها من شروط, واعلم أن الشفاعة لابد فيها من شرطين:

الشرط الأول: الإذن للشافع أن يشفع؛ بحيث يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ للشافع أن يشفع.

والدليل عليها: قوله تعالى:}مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ{[البقرة: ٢٥٥].

الشرط الثاني: الرضا عن المشفوع له؛ بحيث يكون من أهل التوحيد والإخلاص.

والدليل عليها: قوله تعالى:}وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى{[الأنبياء: ٢٨].

ويجمع هذين الشرطين قوله تعالى:}وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى{[النجم: ٢٦].

والشفاعة هي مُلك لله عَزَّ وَجَلَّ, من القواعد في الشفاعة أنها مُلك لله.

ولذلك قال:}قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا{؛ فهي مُلك لله فلا تُطلب من غيره, لأن اللام في قوله:}لِلَّهِ{, لام المُلك.

وعلى هذا لا يُطلب إلا من الله, فإذا أردت أن يشفع لك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتقول اللَّهم شفع فيَّ نبيك, أو تعمل الأسباب التي تكون سبب في شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحيث أن الله عَزَّ وَجَلَّ يأذن له.

والحكمة من الشفاعة: إظهار فضل الشافع, وأيضا رحمة المشفوع له.

واعلم أن الشفاعة عند الله عَزَّ وَجَلَّ ليست كالشفاعة عند المخلوق, فلا مشابهة بينهم.

ولذلك الشفاعة عند الله تفارق الشفاعة عند المخلوق المعظم في فروق كثيرة:

من الفروق: أن الشفاعة عند الله لابد فيها من الإذن, لابد أن يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ؛ بحيث أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُلهم هذا الشخص أن يشفع.

ولذلك جاء في حديث أنس الطويل قال:"فيُلهمون الشفاعة"؛ يعني: الناس يوم القيامة.

فلابد أن يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ كونًا؛ بحيث أن الله عَزَّ وَجَلَّ يلقي في قلب هذا العبد اشفع لفلان, وأما الشفاعة عند المخلوق من ملوك الدنيا ونحوهم؛ فإنه يُشفع عندهم بلا إذن, فيأتي الشافع عند المَلِك من ملوك الدنيا فيشفع عنده وهو لم يعلم, يدخل عليه فيُسلم عليه ثم يشفع يتوسط.

أيضا من الفروق: أن الشفاعة عند الله عَزَّ وَجَلَّ لابد فيها من الرضا, بمعنى أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرضى عن المشفوع له, لابد أن يرضى, فإذا لم يرضى سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فلا تقع الشفاعة, لايمكن أن تقع, وأما الشفاعة عند المخلوق يعني من الملوك مثلًا في الدنيا؛ فإنه قد يُشفع لمن لا يرضاه المَلِك.

ولذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ لعظيم سلطانه وعظمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا أحد يتقدم بين يديه في الشفاعة لأي أحد حتى يرضى, أما الشفاعة عند المخلوق في الدنيا فإنه قد يشفع عنده وهو لم يرضى.

فمثلًا: يدخل الوزير على المَلِك فيشفع في فلان, والمَلِك لا يرضى فلان ولكن يقبل شفاعة الأمير لأجل الأمير لا لأجل فلان, مع أنه يكره فلان, أما عند الله لا أحد يتقدم بالشفاعة إلا إذا رضي الله عَزَّ وَجَلَّ عن المشفوع له.

أيضا من الفروق: أن الشفاعة عند الله عز وجل على وجه الذل والخضوع, فيأتي الشافع وهو عبد ذليل فقير راجي لله يخافه ويخشاه.

ولذلك جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي».

وجاء في رواية أخرى: «أسجد سبتًا»؛ يعني: اسبوع كامل, فيتذلل لربه عَزَّ وَجَلَّ, ثم يقال له: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ».

وأما الشفاعة عند المخلوق من ملوك الدنيا ونحوهم؛ فإن الشافع يأتي وهو له سُلطة, وله مهابة عند الملك.

ولذلك إذا دخل مثلًا الوزير أو الأمير على الملك؛ فإن الملك يقول تفضل هنا وتعال هنا, فيُقدمه ويكرمه ثم بعد ذلك يشفع, أما عند الله لا, يأتي وهو ذليل خاضع.

ومن الفروق: أن الشفاعة عند الله عَزَّ وَجَلَّ ليست لحاجة للشافع ولا المشفوع له, فالله عَزَّ وَجَلَّ غني عن الشافع وعن المشفوع له, فالله عَزَّ وَجَلَّ يأتي إليها العبد فيشفع وهو غني عن الشافع هذا العبد وعن المشفوع له, غني سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لا يحتاج لا لهذا ولا لهذا, ولكنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يقبل شفاعة الشافع لإكرامه ويرحم المشفوع له فيقبلها فيه.

وأما الشفاعة عند المخلوق من المعظمين من أهل الدنيا كالملوك مثلًا؛ فإن الأمير يأتي عند الملك فيشفع فيقبل الملك شفاعته لحاجته لهذا الشافع.

فمثلًا: إذا دخل الأمير أو الوزير على الملك, فإن الملك من ملوك الدنيا يقبل شفاعته, يخشى أن هذا الأمير ينقلب عليه أو ينازعه مُلكه فيقبل شفاعته, أما عند الله عَزَّ وَجَلَّ فهو غني سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لا أحد يضره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فهو الغني ذو الرحمة.

فهذه فروق عظيمة لابد أن ينتبه لها الإنسان.

والمشركون كانوا يعتقدون أن آلهتهم الباطلة تشفع لهم عند الله بدون إذن, وهذا أبطله الله عَزَّ وَجَلَ.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ{, قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{[يونس: ١٨]؛ فأبطل الله عَزَّ وَجَلَّ ما ظنوا.

والمشركون كانوا يعبدون غير الله, بمعنى: أنهم يتوجهون لغير الله بالعبادة, فيصرفون العبادة لغير الله من الذل والخضوع والطلب, ثم يزعمون أنها تشفع لهم عند الله, فجمعوا بين سوءتين:

الأول: أنهم عبدوا غير الله, فاشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا.

الثاني: أنهم كذبوا على الله عَزَّ وَجَلَّ, لأنهم زعموا أنها تشفع والله عَزَّ وَجَلَّ أبطل ذلك, فهم عبدوا غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وكذبوا عليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والمشركون كانوا يعتقدون أن الشفاعة عند الله كالشفاعة عند الملك من ملوك الدنيا, وهذا باطل من وجوه كثيرة, وفعلهم هذا باطل ويترتب عليه أمور:

منها: تنقص الله عَزَّ وَجَلَّ, لأنهم يشركون به سبحانه, فهم يتذللون لغيره. أولًا.

ولأنهم شبهوا الله عَزَّ وَجَلَّ واسع العلم بالمخلوق الجاهل الضعيف, فالله عَزَّ وَجَلَّ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء, وأما المخلوق من ملوك الدنيا فإنه يخفى عليه أمور الشعب ونحو ذلك, فيخفى عليه ما يعلم, ما يدري, حتى يأتي شخص فيبلغه, أما الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

أيضًا منها: أنهم تنقصوا الله عَزَّ وَجَلَّ من حيث أنهم ظنوا أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يعطي حتى يسأله شخص مثلًا, فيجعلون واسطة تسأل لهم الله عَزَّ وَجَلَّ, وهذا باطل, الله عَزَّ وَجَلَّ واسع العطاء.

وأما المخلوق قد يمتنع من العطاء إما بخلًا وإما خوف ذهاب الشيء الذي عنده ونحو ذلك, وأما الله عَزَّ وَجَلَّ فعطاؤه واسع.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال أبو العباس: نَفَىٰ اللهُ عما سِواهُ كل ما يتعلق به المشركون، فنفىٰ أن يكون لغيره مُلك أو قِسطٌ منه، أو يكون عونًا لله ولم يبق إلا الشفاعة، فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذِنَ لهُ الرب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[الأنبياء: ٢٨]، فهذه الشفاعةُ التي يظُنُّها المشْرِكون هي مُنْتَفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يأتي فَيسْجُد لربه ويَحمَدُهُ، لا يبدأ بالشفاعةِ أولًا، ثم يُقَالُ له: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**».

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك؟ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**». فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ هِيَ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللهِ وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ.

وحَقِيقَتُهُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ هو الذي يتَفضَلُ علىٰ أَهْلِ الإِخْلَاصِ فَيَغفِرُ لهُم بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أذن له أن يَشْفَع؛ لِيُكْرِمَهُ وينالَ المقَامَ المحمُود.

فالشَفَاعَةُ التي نفاها القرآن ما كَانَ فيها شِرْك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وهو كالتفسير لهذا الباب.

قال أبو العباس:

أبو العباس: هو أحمد بن عبد الحليم بن تيمية, وهو لقب له رَحِمَهُ اللهُ, وليس له ولد.

قال:**نَفَى اللهُ عما سِواهُ:** يعني: نفى الله عَزَّ وَجَلَّ عن غيره, **ما يتعلق به المشركون:** المشركون كانوا يتعلقون بغير الله ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله.

فنفى أن يكون لغيره مُلك: يعني: الله عَزَّ وَجَلَّ نفى أن يكون لغيره من الخلق مُلك, **أو قِسطٌ منه:** يعني: شيء منه, القسط: يعني الجزء منه.

أو يكون عونًا لله: يعني: يكون هذا الغير يعين لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ على ملكوته, **ولم يبق إلا الشفاعة:** يعني: كل ماضي منفي, نفى الله عَزَّ وَجَلَّ الملك لغيره, ونفى أن يكون له شرك, ونفى أن يكون معينًا لله, ولم يبق إلا الشفاعة.

فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أَذِنَ لهُ الرب: يعني: بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ أن الشفاعة عنده لا تقع إلا بإذنه.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:٢٨]؛ يعني: رضي الله عَزَّ وَجَلَّ عنه , بحيث يكون من أهل التوحيد والإخلاص.

فهذه الشفاعةُ التي يظُنُّها المشرِكون.

(هذه): اسم إشارة, فهو يُقرب الشيء الواقع, وإن لم يكن شيء محسوس, يكون معنى وقعوا فيه.

فهذه الشفاعةُ التي يظُنُّها: يعني: يظنونها بعقولهم.

التي يظُنُّها المشرِكون هي مُنْتَفِيةٌ: يعني: منفية, **يوم القيامة:** يعني: يوم القيامة هذه الشفاعة التي ظنها المشركون أن غير الله إذا توجهوا له بالعبادة أنه يشفع لهم عند الله, هذه منتفية.

كما نفاها القرآن: يعني: نُفيت في القرآن الكريم.

وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يأتي فَيَسْجُد لربه ويَحْمَدُهُ، لا يبدأ بالشفاعَةِ أولًا، ثم يُقَالُ له: «ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ».

أي: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل الخلق لا يشفع ولا يتقدم بين يدي الله حتى يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ, فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن دونه لا يشفع ولا يتقدم بين يدي الله حتى يأذن الله, حتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان لا يشفع ولا يتقدم إلا بإذن الله فغيره من باب أولى.

قال: **وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك؟**

يعني: من هو يا رسول الله أسعد الناس الذي يسعد بشفاعتك؛ بحيث أنك تسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يدخله الجنة أو ينجيه من النار؟

قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»؛ أي: من قال هذه الكلمة عالمًا بمعناها عاملًا بمقتضاها.

وقوله: «خَالِصًا»؛ يعني: مخلصًا, حال كونه قائلًا هذه الكلمة, فلابد أن يقولها بلسانه وقلبه ويعمل بها.

قال: **فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ هِيَ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ:** أي: أن الشفاعة التي تقع يوم القيامة هي لأهل الإخلاص, ولا تقع إلا بإذن الله.

وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ: يعني: المشرك ما يكون له الشفاعة, ما يشفع أحد في مشرك.

وحَقِيقَتُهُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يتَفَضَّلُ: يعني: حقيقة الشفاعة أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يتفضل؛ بحيث يُلهم العبد أن يشفع.

وحَقِيقَتُهُ: أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى **هو الذي يَتَفَضَّلُ على أَهْلِ الإِخْلَاص:** يعني: المشفوع له يتفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عليه, **فَيَغفِرُ لهُم بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أذن له أن يَشْفَع.**

فهنا ذكر أنها تكون لأهل الإخلاص, وأنه يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ للشافع أن يشفع.

لِيُكْرِمَهُ وينالَ المقَامَ المحمُود: يعني: يُكرم الشافع وينال المقام المحمود.

فالشَفَاعَةٌ التي نفاها القرآن ما كَانَ فيها شِرْك: هذه الشفاعة المنفية في القرآن هي ما كان فيها شرك؛ بحيث أن الإنسان يعبد غير الله, ثم يزعم أنه يشفع له عند الله, فهذه المنفية, في القرآن منفية.

ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع: يعني: الله عَزَّ وَجَلَّ أثبت الشفاعة بإذنه في القرآن في مواضع, يعني: في القرآن.

وقد بيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بيّن: يعني: أظهر.

وقد بيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص.**

هذه الشفاعة التي تقع يوم القيامة لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص.

انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

ففي ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لكلام شيخ الإسلام ملخص وبيان لهذه الشفاعة الصحيحة والمنفية, فكلام شيخ الإسلام فيه فوائد كثيرة.

فالشفاعة كما في كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ التي يعتقدها المشركون أنها منفية يوم القيامة, بمعنى: أن المشركين كانوا يتوجهون بالعبادة من الدعاء والذل والخضوع والسجود ونحو ذلك لغير الله, ثم يزعمون أنها تشفع عند الله, فهذه منفية.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس: ١٨].

يعني: سمى هذا الفعل شرك.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}؛ يعني: العبادة الخالصة, {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}؛ يعني: تولوا غيره بالعبادة والذل والخضوع, {مَا نَعْبُدُهُمْ}؛ يعني: نتوجه لهم بالعبادة والذل, {إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}[الزمر: ٣].

فسمى فعلهم هذا كذب, وبلغوا النهاية في الكفر, (كَفَّار): صيغة مبالغة.

فالشفاعة التي كان يعتقدها باطلة.

واعلم أن الشفاعة المنفية في القرآن نوعان:

الأول: الشفاعة الشركية, بمعنى: أن الإنسان يتذلل لغير الله حبًّا وتعظيمًا ودعاءً وذبحًا وسجودًا, ثم يزعم أنه يشفع له عند الله, فهذا باطل, هذا منفي في القرآن.

الثاني: الشفاعة لمشرك؛ بحيث أن يُشفع لمشرك, فهذه منفية في القرآن.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[المدثر: ٤٨].

وأما الشفاعة المثبتة في القرآن فهي لابد فيها من شرطين: الإذن والرضا, وتكون لأهل الإخلاص؛ بحيث يكون المشفوع له من أهل التوحيد, فلا تقع إلا لموحد, أما المشرك فلا تنفعه شفاعة أحد.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[المدثر: ٤٨]؛ فالمشرك لا تنفعه لا تنفعه شفاعة أحد, الشفاعة تكون لأهل التوحيد.

والشفاعة من حيث هي هي تنقسم إلى قسمين:

الأول: شفاعة منفية, وتقدمت.

الثاني: شفاعة مُثبتة, وهي لابد فيها من شرطين:

- الإذن للشافع أن يشفع.
- والرضا عن المشفوع له أن يُشفع فيه.

وهي عامة وخاصة.

- الأول: الخاصة, وهي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهي ثلاثة أنواع:

الأول: المقام المحمود, وهي التي يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه أن يشفع في الخلق يوم القيامة ليُحاسبوا.

فهذه خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشاركه فيها أحد, هي لا تقع إلا بإذن الله؛ بحيث أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُلهم الناس أولًا ان يطلبوا من أحد يشفع لهم, ثم يُلهم نبيه أن يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ.

كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة وحديث أنس: "أن الأنبياء يأتيهم الناس, يأتون آدم, ثم نوح, ثم إبراهيم, ثم موسى, ثم عيسى, ثم يأتون محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم جميعًا, ثم ينطلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقع ساجدًا لربه, ثم يفتح عليه من المحامد وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبله, ثم يقول له: ارْفَعْ رَأْسَكَ, وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ".

الثاني من شفاعات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها.

وهذه خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما جاء في صحيح مسلم من حديث أنس, قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: يَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ», فيدخل, ويدخل الناس بعده.

ولذلك قال: «لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

وقد جاء في الحديث يقول: «أَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ فِي الْجَنَّةِ».

الثالث: شفاعته في عمه أبي طالب.

وهذه خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخاصة في أبي طالب.

وأبو طالب مات على الشرك, ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ أذِن إذن خاص لأبي طالب أن يشفع فيه ليخفف عنه العذاب وليس أن يُخرج من النار.

فهذا إذن خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإذن خاص بأبي طالب, لا أنه يُخرج من النار ولكنه ليخفف عنه العذاب.

كما جاء في حديث العباس أنه قال: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، وَلَوْلا أَنَا كَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ», فيشفع فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفاعة خاصة, وهذه الشفاعة ليست لإخراجه من النار, وإنها هو لتخفيف العذاب؛ ولذلك هو أخف أهل النار عذابًا.

وقد جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أخف أهل النَّار عَذَابًا أبي طالب عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ».

هذه الشفاعات خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- النوع الثاني: العامة, وهي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللملائكة وللنبيين وللصديقين وللشهداء وللصالحين ولمن أذن له الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهي ثلاثة أنواع:

الأول: شفاعة في من دخل النار أن يخرج منها.

وقد جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» .

الثاني: شفاعة لمن دخل النار أن يخرج منها.

كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«مَا مُجَادَلَةُ أَحَدِكُمْ فِي الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيَا بِأَشَدَّ مُجَادَلَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أُدْخِلُوا النَّارَ، قَالَ: يَقُولُونَ: رَبَّنَا، إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَحُجُّونَ مَعَنَا، فَأَدْخَلْتَهُمُ النَّارَ! قَالَ: فَيَقُولُ: اذْهَبُوا، فَأَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ مِنْهُمْ، قَالَ: فَيَأْتُونَهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِصُوَرِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ إِلَى كَعْبَيْهِ، فَيُخْرِجُونَهُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، قَدْ أَخْرَجْنَا مَنْ أَمَرْتَنَا، قَالَ: وَيَقُولُ: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ دِينَارٍ مِنَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ نِصْفِ دِينَارٍ، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ».

الثالث: الشفاعة لمن دخل الجنة أن تُرفع منازلهم.

ويُستأنس بحديث أبي سلمة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مات قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ».

وأيضًا لما مات أحد الصحابة قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اجعله فوق كثير من عبادك».

وأيضًا يُستأنس برفع الله عَزَّ وَجَلَّ لذريات المؤمنين, قال الله تعالى: }وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ{[الطور: ٢١].

والناس انقسموا في الشفاعة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المشركون الذين أثبتوا الشفاعة لمن لم يأذن له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى, الذين عبدوا غير الله وزعموا أن غير الله عَزَّ وَجَلَّ يشفع لهم بدون إذنه, فهذه باطلة.

القسم الثاني: من نفوا الشفاعة, وهؤلاء الخوارج والمعتزلة, نفوا أنواع من الشفاعة.

منها: أن من دخل النار أنه لا يخرج منها, نفوا هذه الشفاعة.

ونفوا في من حُكم عليه بالنار ألا يدخلها, نفوا هذه الشفاعة.

فهؤلاء ضُلَّال, لأن هذه الشفاعة ثابتة.

القسم الثالث: من أثبت الشفاعة على وفق ما جاء في الكتاب والسنة, وهم أهل السنة والجماعة, فأثبتوا الشفاعة التي أثبتها القرآن, وأثبتها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته, أثبتها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثه التي فيها الشرطان المتقدمان.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: }إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{[القصص: ٥٦]

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :باب قول الله تعالى: }إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{[القصص: ٥٦].

مناسبة هذه الآية لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد فيها أن يُبطل فيها التوجه لغير الله, فإن كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينفع عمه الذي كان يحوطه ويغضب له ولم ينفعه بشيء, فإذا لم يصح أن يتوجه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغيره من باب أولى.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ}:إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} ,}إِنَّكَ{,(إِنْ) هُنَا تَوْكِيد, والكاف عائدة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}إِنَّكَ{,يعني: يا محمد }لَا تَهْدِي{؛ يعني: لا تُلْهِم؛ بمعنى: لا تهدي قلب من أحببت.

وقوله:}مَنْ أَحْبَبْتَ{؛ أحببته إما لقرابته, وإما محبة لهدايته.

}إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ},}وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي{؛ يعني يُرشد ويُلهم, من شاء أن يهديه.

ففي هذه الآية الكريمة فيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ نفى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهداية, والهداية المنفية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي هداية الإلهام والتوفيق التي هي هداية القلوب.

بمعنى: أنك لا تهدي من أحببت فتُحبب إليه الإيمان وتزينه في قلبه, وتبغض إليه الكفر والفسوق والعصيان وتخلق في قلبه الهداية, هذا ليس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس لغيره من الخلق, وإنما هو إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ففي الآية الكريمة فيها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقدر على أن يهدي ويرشد من أحب, فمن باب أولى غيره لا يستطيع أن يهديه ولا يرشده.

ففيها أن الضر والنفع إلى الله وحده ليس إلى الخلق, إذا كان ليس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغيره من باب أولى.

وقوله:}إِنَّكَ لَا تَهْدِي{, الهداية المنفية هنا كما تقدم هي هداية القلوب.

وأعلم أن الهداية تنقسم إلى أقسام:

الأول: الهداية العامة, وهي هداية كل مخلوق لما ينفعه في معاشه, وهداية الخلق لما ينفع , وهداية الصبي إلى الثدي, وهداية البهائم إلى المرعى, فهذه إلى الله وحده لا شريك له, هذه تسمى هداية عامة يدخل فيها جميع الخلق.

قال الله تعالى:}الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{[الأعلى: ٢-٣].

وقال الله تعالى حكاية عن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ}:رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى{[طه: ٥٠].

هذه هداية الخلق جميعًا؛ بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ هدى الرضيع إلى معرفة الثدي, وهدى البهائم إلى ما يصلحها, وهدى الطيور إلى أوكارها, وهدى البهائم إلى الطعام, وهدى الأسماك في البحار, وما أشبه ذلك.

فالله عَزَّ وَجَلَّ هدى جميع الخلق, فتجد أن البهائم لا تُقدِم على ما يضرها وتأتي إلى ما ينفعها, هذه هداية, الله عَزَّ وَجَلَّ دل كل مخلوق إلى ما يصلحه.

الثاني: هداية البيان والإرشاد, وهذه خاصة بالمكلفين, وهذه حجة الله عَزَّ وَجَلَّ على خلقه التي لا يُعذب الله المكلف حتى تصل إليه, وهي أن الله عَزَّ وَجَلَّ يدل على الطريق, فيبين له طريق الخير وطريق الشر, هذه تسمى هداية البيان والإرشاد, وهذه لا يكلَّف الإنسان حتى تصل إليه, وهذه شاملة لجميع المكلفين.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ}:رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ{[النساء: ١٦٥].

فبين الله عَزَّ وَجَلَّ للخلق الطريق حتى لا يحتجوا يوم القيامة.

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ}:وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى{[فصلت: ١٧]؛ يعني: بيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ لهم الطريق ولكنهم حبّوا الغواية على الرشد.

وهذه يملكها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجميع من دعا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ على بصيرة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ{[الشورى: ٥٢]؛ يعني: تُرشد وتُبين الطريق.

الثالث: هداية الإلهام والتوفيق؛ بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يخلق في قلب العبد حب الخير وبغض الشر, ويحبب إليه الإيمان ويزينه في قلبه, ويُكره إليه الكفر والفسوق والعصيان, فهذه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ولا يملكها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ{, هذه منفية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره من باب أولى, وهذه خاصة لمن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ, ومشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ مقترنة بالحكمة, فإذا علم الله عَزَّ وَجَلَّ من العبد أنه أهل الهداية هداه, وإذا علم أن العبد أهل الغواية يُغوى—نسأل الله العافية-.

فالله عَزَّ وَجَلَّ يهدي من يشاء, ومشيئة الله مقترنة بحكمته.

الرابع: هداية طريق الجنة ؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ يهدي المؤمن يوم القيامة إلى الجنة.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي موسى:«فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا», فيهديه الله عَزَّ وَجَلَّ إلى منزله في الجنة.

الخامس: هداية الكافر إلى طريق النار, فالكافر يُهدى إلى النار.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ{[الصافات: ٢٣].

وأيضا هداية الله عَزَّ وَجَلَّ للمسلم تنقسم إلى قسمين: هذا قسم آخر هداية الله عَزَّ وَجَلَّ للمؤمن أو المسلم تنقسم إلى قسمين:

الأول: هداية مجملة؛ بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يوفقه للدخول في الإسلام, فهذا هُدي, إلى الدخول في الإسلام فقد هداها الله عَزَّ وَجَلَّ إلى الحق, هذه هداية مجملة.

الثاني: هداية مفصلة؛ بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يهديه في جميع شؤونه العلمية والعملية,بمعنى يهديه لأداء الصلاة في وقتها ولصيام رمضان, وأن يأتي بجميع النوافل, ولطلب العلم وللدعوة إلى الله وللإخلاص, ولمتابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهلُم جرًّا.

فيُهديه الله عَزَّ وَجَلَّ في كل شؤون الدينية, هذه تسمى هداية مفصلة, وهذه الهداية التي ندعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن يهدينا إياها في كل صلاة, فإذا قلت:}اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ{؛ فأنت تريد الهداية المفصلة, تريد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يزيدك هدى, وهداية الله عَزَّ وَجَلَّ لا تتناها

.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ}:وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى{[محمد: ١٧].

فيهدى حتى يصل الإنسان إلى درجات عالية من الهداية ولا تنتهى الهداية؛ لأن أهدى الخلق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ الهداية: «وَاهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ», وكان يقرأ الفاتحة ويقول:}اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.{

إذا كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو أهدى هذه الأمة يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ الهداية فمن باب أولى نحن؛ لأننا نحتاج أن الله عَزَّ وَجَلَّ يهدينا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي الصحيح عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ قال: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جاءه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ له: «يا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». فَقَالَا له: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فأعاد عليه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأعادا فكان آخِرَ ما قَالَ: هو عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: }مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ{[التوبة: ١١٣].

وأنزل الله في أبي طالب: }إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{[القصص: ٥٦].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وفي الصحيح: يعني صحيح البخاري.

قال**وفي الصحيح عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ:**ابن المُسيب: أحد التابعين الإعلام.

قال:**عَنْ أَبِيهِ قال: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ.**

لَمَّا حَضَرَتْ: يعني: أوشك على الموت, يعني: بدأت علامات الموت تقرب منه ولم تصل الروح للحلقوم, لأنه حينئذ لا ينفع, لا ينفع الإيمان عند ذلك, ولكنه قرُب منه الموت, ليس المعنى أن حضر يعني بدأ يحتضر, لا, ولكن علامات الموت ظهرت فيه.

قال: **لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ:** أبا طالب: هو عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال:**جاءه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ:** جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزوره ويدعوه, يدعوه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: عبد الله ابن أمية لما كان في هذه الحالة كان على غير الإسلام, وقد أسلم في فتح مكة.

قال:**وأَبُو جَهْلٍ:** أبو جهل سمي بذلك لأن هذا وصف له, أبو جهل: وهو أبي الحكم.

فَقَالَ له:«يا عَمِّ», (يا عم) هنا نادى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمه, وفي هذا شيء من التلطف.

«يا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ أي: قُل هذه الكلمة معتقدًا معناه عاملًا بمقتضاها.

«قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ يعني: أقر أنه لا معبود حق إلا الله, معتقدًا ذلك بقلبك عاملًا بمقتضاها.

«كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ», (كلمة)؛ يعني هذه الكلمة,والكلمة في اللغة العربية تُطلق على الجملة وعلى الكلمة الواحدة, فالجملة يُطلق عليها كلمة.

ولذلك يقول مثلًا: أريد أن ألقي عليكم كلمة, مع أنه يتكلم عشرين كلمة, ولكن في اللغة الكلمة يدخل فيها الكثير والقليل.

قال:«كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»؛ يعني أجعلها حجة لك, بمعنى: أشهد لك بها عند الله؛ كما جاء في رواية أخرى: «كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» .

فَقَالَا له: يعني: قال له عبد الله بن أمية وأبو جهل,**أَتَرْغَبُ:** يعني أترك رغبة,**عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ:** يعني: عن دين عبد المطلب الذي هو عبادة الأوثان, فذكَّروه بالحجة بدين آبائه, قالوا: كيف تترك دين آبائك؟!

فَأعاد عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:يعني:أعاد عليه يقول: يا عم قل لا إله إلا الله,**فَأعادا:**يعني: فأعاد عليه الجملة الماضية:(**أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟**.)

فكان آخِرَ ما قَالَ: هو عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: يعني معنى كلامه: يبقى هو على ملة عبد المطلب ما يخرج عنها التي هي عبادة الأوثان.

(هو), الضمير هنا ضمير الغيبة, لم يضف الضمير إليه, هذا تصرف من الرواة, ما أراد أن يضيف هذه الكلمة له, فقال:(هو), فأتى بضمير الغيبة.

قال:**هو على ملة عبد المطلب:** يعني على دين عبد المطلب الذي هو عبادة الأوثان.

وَأَبى: يعني: امتنع,**أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ:** أن يشهد شهادة الحق التي هي معناها: لا معبود بحق إلا الله.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ**», السين والتاء تدل على الطلب, يعني: سأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ لك المغفرة.

وفي هذه الجملة مؤكدات:

المؤكدالأول: القَسَم المُقدَّر, فمعنى الكلمة: والله لأستغفرن لك.

وأيضا النون مثقلة, فهي للتوكيد أيضا, ففيها مؤكدات.

قال:«**مَا لَمْ**», فاستدرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ,«**مَا لَمْ أُنْهَ عَنْك**»؛ يعني عن الاستغفار لك, فكأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شعر أنه سينهى عن ذلك فقيد هذه الكلمة, لما قال:«**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ**», وعد, ولكن «**مَا لَمْ أُنْهَ عَنْك**», إذا نهيت فلابد من طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

فَأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ–على إثر هذا-: }مَاكَانَ{, (ما) للنفي, يعني ما ينبغي ولا يجوز ولا يصح.

}مَاكَانَ لِلنَّبِيِّ{؛ يعني: للنبي المرسل المنبَّأ من عند الله عَزَّ وَجَلَّ والمرسل.

}وَالَّذِينَ آمَنُوا{؛ يعني: آمنوا بقلوبهم وبألسنتهم وبجوارحهم, يعني ما كان لهم هذا.

}أَنْ يَسْتَغْفِرُوا{, (أن) مخففة هنا,}أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ{؛ يعني: يسألوا لهم المغفرة.

والمشرك هو من جعل لله عَزَّ وَجَلَّ شيء من العبادة التي اختص بها, أو من سوَّى بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين غيره فيما هو من خصائصه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فهذا مشرك.

}يَسْتَغْفِرُوا{؛ يعني: يطلب المغفرة.

والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه, فإذا قلت: أستغفر الله؛ فأنت تسأل الله عَزَّ وَجَلَّ المغفرة, وهي ستر الذنب والتجاوز عنه, مأخوذة من المِغفر الذي يوضع على الرأس اتقاء السهام في الحرب.

قال:**وأنزل الله:**أيضا هذا السبب الثاني,**في أبي طالب:**يعني: هذه خاصة بأبي طالب, واللفظ عام, السبب خاص واللفظ عام, يدخل فيها غير أبي طالب.

}إِنَّكَ لَاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ{؛ يعني: ما تُلهم أحد وتزرع الهداية في قلبه وتلهمه الرشد, فإن هذا لله عَزَّ وَجَلَّ ليس للخلق.

ففي الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قدِر أن يهدي عمه الذي كان يحوطه ويغضب له وكان من أشد الناس عناية بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, حتى أنه كان يُبعد ابنائه ويضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُربه إذا نام, فكان يحوط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويغضب له, ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ مشيئته نافذة في خلقه, ولله الحكمة البالغة فيما يفعل سُبْحَانَهُ.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث:أن الإنسان له أن يتوب ما لم تبلغ الروح الحلقوم.

فلو كان الإنسان فيه مرض من أشد الأمراض وتاب إلى الله تاب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه, ما دام أنه في زمن الإمهال.

فمثلًا: إنسان أُصيب بسرطان فتاب إلى الله؛ فإنه يُتاب عليه؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يتوب على العبد ما لم يغرغر.

الدليل على ذلك: ما جاء عند الترمذي وحسنه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ».

الغرغرة: هي تحشرج الروح في الحلقوم, إذا بدأ النزع وعاين الملائكة؛ فإنه عند ذلك لا تنفع التوبة, أما قبل ذلك فإن الإنسان في زمن الإمهال.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر أبا طالب وهو قد حضره الموت أمره أن يتوب وأن يقول: لا إله إلا الله.

ومن الفوائد: أن الكافر عند الموت يُلقن(لا إله إلا الله), ويُلقن مشافهة؛ بمعنى: أنه يقول له قل:(لا إله إلا الله), لأنه إذا قالها فقد دخل في الإسلام, وإن لم يقُلها فقد مات على الكفر الذي هو عليه قبل النزع.

والدليل على أنه يلقن: ما جاء في حديث أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لليهودي: "قل لا إله إلا الله وهو قد حضره الموت", وأيضا قال لعمه أبي طالب.

ومن الفوائد: أنه يجوز عيادة الكافر إذا كان لمصلحة راجحة, يجوز عيادة المشرك أو اليهودي أو النصراني أو الكافر أوالمجوسي ونحوه إذا كان لفائدة راجحة.

والدليل على ذلك: "أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زار عمه أبي طالب".

فإذا كان فيه مصلحة بمعنى أن يدعوه إلى الإسلام فيكون سبب في هدايته فهذا مطلوب.

والدليل على ذلك: ما جاء عند البخاري من حديث أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زار يهودي صغير كان يخدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فمرض, فزاره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فقال له النبي:«قُل: لا إله إلا الله», فنظر الصبي لأبيه, فقال له أبوه: أطِع أبا القاسم, فقال: لا إله إلا الله, فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقول:«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ».

وهذه رواية عن الإمام أحمد, واختيارها شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء, وهو الأقرب الله أعلم.

ومن الفوائد: أن الكلام الكثير في اللغة يُطلق عليه (كلمة).

فلو قال مثلًا: أريد أن أُلقي عليكم كلمة, فتكلم نصف ساعة فلا إشكال, فلا تقُل أنت قلت لن أتكلم إلا بكلمة والآن تكلمت نصف ساعة أو خمس دقائق أو عشر أو أكثر.

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "كلمة" وهو قال لا إله إلا الله, هذا أكثر من كلمة.

ومن الفوائد: أن حجة المشركين اتباع الآباء, فهذا من أعظم ما يصد الإنسان عن دينه أن يقول كان أبي وكان جدي وكان عادتنا كذا, فلا يترك ما هو عليه؛ ولذلك هذه حجة المشركين.

قال الله تعالى:}قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ{[الزخرف: ٢٢].

وفي الآية الأخرى:}إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ{[الزخرف: ٢٣].

فوجدوا الآباء على ملة فاتبعوها, هذه حجة المشركين.

ولذلك لابد أن الإنسان ينظر هل كان أبوه على ملة صحيحة فيتبعه, أو كان على ملة خاطئة فيترك ملته؟

فلابد أن ينظر الإنسان, وليس للإنسان إذا كان الآباء على ضلال أن يتبعهم ويقول أنا وجدت أبي على ضلال فأنا معه سأنجو, لا, لابد أن يتبع الحق.

ومن الفوائد: شدة حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هداية أبي طالب, فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يود لو أسلم أبا طالب, وأبا طالب أيضًا يود لو كان أسلم هو بنفسه, ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ شاء ألا يُسلم, فمشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ نافذة, ما شاء الله كان, وما لم يشأ لم يكن.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حريص, وكان يناديه: «يا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ», ولكن وقع ما شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأيضًا أبا طالب كان يرجو أن يُسلم, ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ شاء ألا يُسلم, ويعلم أن دين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق, فقد كان له أبيات يقول فيها:

ولقد علمت بأن دين محمدٍ   من خير أديان البرية دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبة   لوجدتني بذاك سمحًا مبينًا

ويقول عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ودعوتني وعلمت أنك ناصحي   ولقد دعوت وكنت ثم أمينًا

فيعرف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد له الخير ويعرف أن دينه هو الحق, ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ شاء ألا يُسلم, لمشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ وحكمة الله عَزَّ وَجَلَّ النافذة.

ومن الفوائد: أن أبا طالب مات على الكفر.

والدليل: أنه قال: "هو عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ", ومعلوم أن ملة عبد المطلب هي الكفر, فأبا طالب مات على الكفر.

ولذلك جاء في الصحيح أن العباس قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَغْضَبُ لَكَ، وَيَحُوطُكَ، قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ», فدل على أنه في النار.

هذا هو الحق الثابت.

ومن الفوائد: أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين.

والدليل: أن الله عَزَّ وَجَلَّ نهى رسوله ونهى المؤمنين أيضًا, ففي الآية الكريمة وجَّه الله عَزَّ وَجَلَّ الأمر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين.

والآية فيها نفي, والنفي أبلغ من النهي, لأنه نهي وزيادة, فكان معنى الكلام لا يمكن أن يوجد هذا الشيء, لا ماضي ولا الآن ولا في المستقبل, هذا معنى النفي, لأنه أشد من النهي, نهي وزيادة.

فالاستغفار للمشرك لا يجوز, سواء كان في الحياة أو بعد الممات.

فلو مات كافر, لا يجوز لمسلم أن يقول: غفر الله له, رحمه الله, أسأل الله أن يعفي عنه, هذا ما يجوز.

أما الدعاء للكافر في حال الحياة بالرزق أو الهداية فهذا جائز؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يرزق جميع الخلق, ومن ذلك الكافر, وأما الهداية فلأن هداية الكافر مطلوبة, فنحن نرجو أن الله عَزَّ وَجَلَّ يهدي الكافر ويدخله الإسلام.

ولذلك جاء عند الترمذي أن اليهود كانوا يتعاطسون عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجاء أن يقول رحمكم الله, فيقول: "يهديكم الله", هذا دليل على أنه يجوز أن تدعو له بالهداية.

فلو وجدت كافر وقلت: اللّهم اهده, فهذا لا بأس به, فالدعاء للكافر بالهداية هذا جائز.

وأيضًا أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كانت أمه تقع في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فقال: يا رسول الله أمي, فدعا لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهداها الله عَزَّ وَجَلَّ, فدخل عليها فوجدها تغتسل وتنطق الشهادة.

وأيضًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا لدوس, أتاها الطفيل فقال: يا رسول الله, ادعُ على دوس, فقال: «اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ».

إذًا: الدعاء للكافر بالمغفرة بعد الموت أو الرحمة, هذا لا يجوز بنص هذه الآية, وأما الدعاء لها بالهداية في الدنيا أو الرزق فهذا جائز, بل قد يكون مطلوب.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحب الهداية لأبي طالب.

ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾, وهذا اختيار الطبري, لأن المحبة هنا أن الله عَزَّ وَجَلَّ يهديه.

وقال بعض العلماء: أن المحبة هنا هي المحبة الطبيعية, وذلك أن المحبة الطبيعية لا يُلام عليها الإنسان, كمحبة الطعام والشراب, فهذه محبة طبيعية يجوز للإنسان أن يحب فيها غير المسلم, وهي المحبة الطبيعية الغريزية, هذه جائزة؛ لأن الإنسان قد يبغض الكافر لدينه ولذاته ويحبه لأنه قريبه, هذه محبة طبيعية.

وأيضًا محبة الزوجة, لو كان الإنسان تزوج نصرانية أو يهودية, فأحبها محبة غريزية هذه جائزة.

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: }وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً{[الروم: ٢١], مَوَدَّة يعني: محبة.

هذه تسمى محبة غريزية, مع أنه يبغض الكافر, يبغض ذاته ويبغض دينه, لابد أن يبغض الكافر في ذاته وفي دينه.

قد يقول قائل: كيف يكون محبة مع بغض؟ يكون, أو يقال: لا بأس أن يكون.

والأمثلة على ذلك كثيرة:

منها: أن الإنسان قد يحب الشيء ويبغضه لذاته ويحبه لشيء آخر.

فمثلًا: الإنسان إذا اكتوى هل هو يحب الكي لذاته؟ ما يحب الكي لأنه فيه ألم فيه تعب عليه, ولكن يحبه لمآله, لأنه يؤول أنه يكون سبب بإذن الله للشفاء, فيحبه لغيره.

وأيضًا: الإنسان يكره الدواء, العلاج يكرهه الإنسان لمرارة طعمه ونحوه, ويحبه لأنه سبب للشفاء بإذن الله.

هذا الباب فيه أن المؤلف أراد أن يوصل أن الهداية إلى الله عَزَّ وَجَلَّ, وأن النفع والضر من خصائص الله عَزَّ وَجَلَّ, فهو الذي ينفع ويضر, ويهدي هداية القلوب إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فلا يتوجه بالسؤال والدعاء والتعبد إلا له سُبْحَانَهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء أن سبب كُفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله عَزَّ وَجَلَّ: }يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ{[النساء: ١٧١].

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب ما جاء أن سبب كُفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين** .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما بيّن شيء من أنواع الشرك حذّر في هذا الباب أن السبب الرئيسي في ارتكاب الشرك هو الغلو في الصالحين؛ ولذلك ذكر أشياء في هذا الباب يُحذّر من الغلو في الصالحين, وأنه سبب الوقوع في الشرك.

قال المؤلف:**باب ما جاء أن سبب كُفر بني آدم**.

قوله:**ما جاء**: يعني: ما جاء في الأدلة من الكتاب والسنة.

أن سبب.

السبب: هو ما يوصل إلى الشيء, هذا هو في اللغة.

ومنه: قوله تعالى:}فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ{[الحج: ١٥].

قال:**أن سبب كُفر بني آدم**.

كفرهم يعني وقوعهم في الكفر,والكفر يعُمّ الشرك,والمراد هنا أن كفرهم: وقوعهم في الشرك, فالكفر أعمّ من الشرك, فهو يدخل فيه الشرك.

وقوله:**بني آدم**: يعني البشر .

وتركهم دينهم: لأنهم إذا وقعوا في الشرك فقد فارقوا دينهم الذي هو التوحيد.

هو الغلو في الصالحين.

الغلو: يعني مجاوزة الحد في محبة الصالحين والغلو فيهم, حتى يوصلوهم إلى العبادة, حتى يتذلّلوا لهم ويخضعوا لهم ويحبّونهم كحب الله.

وقوله:**الصالحين**. الصالح: هو القائم بحقوق الله وحقوق عباده.

ففي هذه الترجمة: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بيّن فيها السبب؛ وجعل هذا السبب الرئيسي في الكفر وهو الغلو في الصالحين, وهذا أول سبب تسبب في وقوع الإنسان في الشرك هو الغلو في الصالحين, هذا أول سبب, وسيأتينا إن شاء الله الآثار في ذلك.

قال:**وقول الله عَزَّ وَجَلَّ**:}يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ{[النساء: ١٧١].

في هذه الآية الكريمة: يحذّر الله عَزَّ وَجَلَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى, يحذّرهم عن الغلو في دينهم يعني في تعبدهم فلا يغلوا في الدين.

وهذه الآية خطاب لأهل الكتاب, وفيها تحذير لهذه الأمة.

قال:}يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ.{

}يَاأَهْلَ{؛ يعني: يا أصحاب الكتاب, و}الْكِتَابِ{؛ يعني: التوراة والإنجيل, والمراد بهم هم اليهود والنصارى.

قال:}لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ{؛ يعني: لا تتجاوزوا الحد الذي حده الله عَزَّ وَجَلَّ.

}فِي دِينِكُمْ{؛ يعني: في تعبدكم وتذلّلكم, والدِّين: هو ما يدين به الإنسان.

ففي هذه الآية الكريمة: يُحذّر الله عَزَّ وَجَلَّ أهل الكتاب من الغلو في الدين, وهذه الأمة قد بيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها سيكون منها من يتبع أهل الكتاب, ففيها تحذير من الغلو كما غلا أولئك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي الصحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله تعالىٰ: }وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا{[نوح: ٢٣] قال: "هذه أسماءُ رِجالٍ صَالحِينَ من قوم نُوحٍ، فلما هَلَكُوا أوْحَىٰ الشَّيطانُ إلىٰ قَومِهِم: أن انصِبُوا إلىٰ مَجالِسِهِمُ التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسمُّوهَا بأسمائِهِم، فَفَعَلُوا، ولم تُعبَد، حتىٰ إذا هلك أولئك ونُسي العِلمُ، عُبِدَت".

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**وفي الصحيح**: يعني:في صحيح البخاري.

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قول الله تعالى:يعني في تفسير هذه الآية الكريمة.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ﴾؛ يعني: لا تتركن,﴿آلِهَتَكُمْ﴾؛ يعني: معبوداتكم,﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾؛ وهذا تخصيص بعد تعميم, عمُّوا أولاً المعبودات ثم خصّوا هؤلاء بالذات.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾؛ يعني: لا تذرن عبادتكم.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ ,﴿وَدًّا﴾, من المعبودات التي كان يعبدهاأولئك, يعني لا تذرن ولا تتركن هؤلاء بالذات.

﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾, أيضاً ﴿سُوَاعًا﴾ لا تتركوه من التعبّد له والتوجّه له.

﴿وَلَا يَغُوثَ﴾, أيضاً ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾, فقالوا: لا تتركوا هذه المعبودات, بل تمسكوا بعبادتها.

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:**هذه أسماء رجال صالحين:** يعني: هؤلاء الخمسة أسماء لرجال صالحين, **من قوم نوح**.

فلما هلكوا -يعني ماتوا- **أوحى الشيطان إلى قومهم**.

أوحى: إيحاء خفي وهي الوسوسة, وسوس لهم الشيطان.

إلى قومهم: يعني: إلى قوم هؤلاء الخمسة.

أن انصبوا: يعني: ضعوا أنصاب,والنُّصُب: هو الشيء القائم.

إلى مجالسهم: الأماكن التي كانوا يجلسون إليها.

التي كانوا يجلسون فيها أنصابا: يعني: ضعوا شيء قائم.

وسموها بأسمائهم: يعني: سموا هذه الأنصاب بأسماء أولئك الرجال.

وسموها بأسمائهم: يعني سموا (ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا).

ففعلوا: يعني: فعلوا ما قال لهم الشيطان.

ولم تُعبد: يعني: ما عُبدت لأنهم أرادوا ماذا؟ أرادوا أن يتذكروا أولئك الصالحون ويتعبدوا لله حتى يكون سبب في تقويتهم على العبادة.

ولم تُعبد, حتى إذا هلك أولئك: يعني: مات الذين وضعوا الأنصاب.

ونُسي العلم. العلم هنا: علم التوحيد, نُسي علم التوحيد.

عُبدت: يعني: توجهوا لها بالعبادة؛ وذلك أن الشيطان أتاهم وقال: إن آباءكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فاعبدوها, فتوجهوا إليها, وهم على جهل.

ففي هذا الأثر فوائد:

من فوائد الأثر: شدة تمسك المشرك بمعبوده, إلا من هدى الله عَزَّ وَجَلَّ وفتح على قلبه؛ ولذلك أوصى بعضهم بعض:}وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ{؛ يعني: تمسكوا بعبادته وحافظوا عليه.

ففيها أن المشرك يتمسك بمعبوده, إلا من فتح الله عَزَّ وَجَلَّ على قلبه وهداه؛ ولذلك أوصى بعضهم بعض}وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ{؛ عموما ثم خصُّوا.

ومن الفوائد: أن(ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا) كانوا رجال صالحين, وكانوا قبل نوح عَلَيْهِ السَّلاَمَ, ولما مات أولئك أراد الناس خيرًا, أرادوا أن يضعوا هذه الأنصاب ويرون هذه الصور ويتذكرون أولئك الصالحين فيتوجهوا لله بالعبادة, فيكون سبب في زيادة العبادة لهم.

ومن الفوائد: أن (ودًّا وسواعًا ويغوث) يختلفون عن(يعوق ونسرًا).

هذه نكتة علمية قالها بعض العلماء: أن في قوله تعالى:}وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا{, فذكر اللام هنا, ثم ذكر اللام قبل يغوث وقال }وَلَا يَغُوثَ{, ثم قال: }وَيَعُوقَ وَنَسْرًا{, فدل على أن معبوداتهم تتفاوت, بمعنى: أنهم يتعبدون لبعضها أكثر ويعظمونها أكثر, فنصُّوا على (سواعًا ويغوث), وجمعوا بين (يعوق ونسرًا) والله أعلم, لكن هذه قد يكون ذلك, والله أعلم.

ومن الفوائد: أن الإنسان قد يريد الخير ولا يصيبه؛ ولذلك الإنسان ينظر هل عمله يوافق شرع الله فيفعل, فإن لم يوافق شرع الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يفعل.

ولذلك لما خرج الخوارج في ذلك الوقت كان قبل ذلك يجلس بعضهم في المسجد, ويأخذ حصى في يده ويقول سبِّحوا مائة, ويسبحون حتى يصلون للمائة.

ورآهم أبو موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلم يُنكر عليهم حتى أخبر أبو مسعود, فأتاهم أبو مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: ما هذا الذي تصنعون؟ قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا

إلا الخير, قال: وكم من مريد للخير لم يصيبه, والله إنكم لعلى أهدى مما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أنكم مفتتحوا باب شر.

قال الراوي: فرأينا أكثر أولئك يُقاتلون في النهروان مع الخوارج.

فالإنسان قد يفعل الشيء ويريد الخير ويقع في الشر؛ ولذلك هؤلاء أرادوا ماذا؟ أرادوا أن يتعبدوا لله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن الإنسان يحذر من خطوات الشيطان.

والشيطان لا يأمر إلا بفحشاء أو منكر, لا يأمر بخير, فإذا أحسست في نفسك أنك تؤز إلى معصية أو إلى منكر فأعرف أنه من الشيطان, أو إلى بخل أو إلى كذب أو إلى محرم أو إلى أي شيء يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ فأعرف أنه من الشيطان؛ ولذلك الشيطان ما يأتي للإنسان ويأمره بالخير.

ومن الفوائد: أن الإنسان أيضا يحذر من طرق الشيطان.

لأن الشيطان يتدرج مع الإنسان, ما يأتي للإنسان فيوقعه في الشر مباشرة , ما يأتي للإنسان فيقول أشرك بالله, لا, يتدرج معه بحب الصالحين, وأن العبادة عند قبورهم لها فضل, وأن وضع الصور لهؤلاء الصالحين فيه فضل, ثم شيئًا فشيئًا حتى يقع في الشرك , وأيضا إذا أراد أن يدعوه إلى معصية ما يدعوه إلى الزينة مثلًا مباشرة, لا, يأتي شيئًا فشيئًا, خاطرة, ثم هَمٍّ, ثم نظرة, ثم كلام, ثم لقاء, ثم وقوع في الزنا, لو قال له ازني ارتبك الإنسان قال: أعوذ بالله, ولكن يأتي شيئًا فشيئًا, فيحذر الإنسان من خطوات الشيطان؛ ولذلك الشيطان أوحى إلى أولئك.

ومن الفوائد: أن الصالحين الواجب علينا أن نحبهم ونقتدي بهم ولا نغلوا فيهم؛ وذلك أن الناس انقسموا في الصالحين إلى أقسام ثلاثة:

- القسم الأول: من غلوْا في الصالحين حتى جعلوهم آلهة مع الله عَزَّ وَجَلَّ, وأنكروا وصاحوا بمن خالفهم, وقالوا: أنتم لا تحبون الصالحين, فأنكروا على من خلفهم, فإذا قلت

الواجب عليك أن تحب الصالحين ولا تشرك بهم مع الله ولا تدعوهم من دون الله, قال: أنت لا تحب الصالح, وهذا خلاف الحق.

- القسم الثاني: من جافوا مع الصالحين, حتى رموهم بالإفك والعدوان, وقالوا: هؤلاء فيهم, وهؤلاء متشددون, وهؤلاء غلوا في الدين, وهؤلاء ضالون –نسأل الله العافية-؛ ولذلك هذا لا يجوز.

- القسم الثالث: من هداه الله عَزَّ وَجَلَّ فأحب الصالحين, ولم يغلوا فيهم, بل اعتقد أنهم عبيد لله وأنهم بشر, وهذا هو الحق.

ومن الفوائد: أن العلم له فضل, فالعلم مثل النور في ظلمة الليل, فإذا طفئ هذا النور أصبح الإنسان في ظلام لا يرى ما أمامه, هكذا العلم للإنسان كالنور في ظلمة الليل, إذا طفئ هذا النور ضاع الإنسان؛ ولذلك العلم سبب في كل خير, والجهل سبب في كل شر.

وقد ذكر العلماء أن من أعظم الأبواب التي يدخل الشيطان على الإنسان فيها هو باب الجهل, فيدخل عليه من باب الجهل.

ولذلك الشيطان يجد أبواب الجاهل مفتحة يدخل منها, وأبواب العالم مسددة أمامه؛ لأن العالم يعلم, فالجاهل قد يفتن نفسه وقد يقع في معصية ويقنط من رحمة الله, أما العالم حتى لو وقع في معصية عرف أن الله عَزَّ وَجَلَّ غفور رحيم فتاب إلى الله, فالجهل سبب في كل شر, والعلم سبب في كل خير.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال:}وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا{[البقرة: ٢٦٩], والحكمة: هي العلم والفهم, فإذا آتى الله الإنسان العلم فقد أُوتي خيرًا كثيرًا.

ومن الفوائد: أهمية علم التوحيد.

ولذلك التوحيد هو أهم المهمات على الإنسان أن يتعلمه؛ لأنه السبب في نجاة الإنسان التوحيد, فلو عَبَد الإنسان الله عبادةً كثيرة ثم أشرك ولو بسجدة لغير الله فإن ما مضى يحبط, كان لم يكن.

فيدلك على أن علم التوحيد مهم جدًا, وخاصةً إذا كثرت الفتن والشبهات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: "لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَىٰ قُبُورهم، ثم صَوَّروا تماثيلَهُم، ثم طال عليهم الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم".

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف: **وقال ابن القيم: قال غير واحدٍ من السلف.**

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:**قال غير واحد:** يعني: أكثر من واحد, فقوله:**غير واحد:** يعني: أكثر من واحد من السلف.

والسلف: هم المتقدمون, والسلف هنا يعني: السلف وقتناً,يعني الذين كانوا من القرون المفضلة.

لما ماتوا: يعني: مات أولئك الصالحون,**عكفوا على قبورهم:** يعني: مكثوا عند قبورهم.

فهنا يوجد زيادة ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وهي:(العكوف عند القبور), في أثر ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إلى مجالسهم), وهنا (عند قبورهم).

قال:**عَكَفُوا عَلَى قُبُورهم، ثم صَوَّروا تماثيلَهُم.**

(ثم) للترتيب والتراخي, يعني أولا: عكفوا, ثم ثانيا: صوَّروا تماثيلهم.

التماثيل: هي النصب التي على صورة.

هذا دليل على أن قوله:(**أن انصِبُوا إلى مَجالِسِهمُ التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا**)؛ أنها كانت صور.

ولذلك قال:**ثم صَوَّروا.**

والصورة: هي التي تكون على شكل معين.

تماثيلَهُم, والتمثال: هو الذي على صورة أيضًا.

ثم طال عليهم الأَمَدُ: يعني: طال عليهم أمد العلم فنُسي العلم؛ كما جاء في آثر ابن عباس.

فَعَبَدُوهُم: يعني: توجهوا لهم بالعبادة, والذين عبدوا هم الذين أتوا بعدهم, يعني الذرية, فالآباء وضعوا التماثيل ووضعوا الصور والذرية عبدوا تلك الصور والتماثيل ظنًّا أن آباءهم كانوا يعبدونها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن عمر أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**». أخرجاه.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :وعن عمر أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لَا تُطْرُونِي».

الإطراء: هو مجاوزة الحد في القول.

«كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ»؛ يعني: كما غلى النصارى في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامَ بالإطراء فجاوزوا فيه الحد حتى زعموا أنه ابن لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ» ,(إنما): أداة حصر, ومعناها: حصر الحكم في المذكور ونفيه عما سواه.

«إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ»؛ يعني: عبد لا أُعبد.

«إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»؛ فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ عبد لا يُعبد, ورسول لا يُكذَّب, فهذا أحسن ما وُصف به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تقول هو عبد الله ورسوله, وهذا هو الذي رضيه لنفسه, وهو الذي يرضاه الله عَزَّ وَجَلَّ أن تقول: عبد الله رسوله.

قوله:**أخرجاه:** يعني: أخرجه البخاري ومسلم.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: الحذر من الغلو في الإطراء وتجاوز الحد فيه؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك.

والإطراء: هو مجاوزة الحد في المدح.

وقوله :«كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ», الكاف هنا كاف التشبيه الناقص, يعني أي وجه من وجوه الإطراء فلا تفعله كما فعلت النصارى.

وقد زعم بعض أهل البدع: أن الإطراء هنا هو الإطراء الكامل أو التشبيه الكامل؛ أي: لا تقول هو ابن الله, وما سوى ذلك فقولوا ما أردتم.

ولذلك يقول البوصيري:

دع ما قالت النصارى في نبيهم وقل بما شئت فيه واحتكم

يعني: أهم ما عليك لا تقول هو ابن الله, وما سوى ذلك فقل ما شئت, حتى أنه وقع في البردة الشرك؛ ولذلك غُلي فيها حتى تجاوز فيها الحد.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الإطراء.

البوصيري قال: لا تقل مثل ما قال النصارى أنه ابن الله, وما سوى ذلك فقل ما شئت.

ولذلك قال في البردة يخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن يوم معادي آخذًا بيدي عفوًا وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

نسأل الله العافية بعض العلماء قال ما ترك لله, شيء.

فقوله: يا أكرم الخلق: ينادي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك: يعني: ما عندي أحد اعتصم به إلا أنت.

عند حلول الحادث العمم: يعني الحادث الذي يعم الناس ويعم الخلق ما لي إلا أنت يا رسول الله ألتجي إليه.

إن لم تكن يوم معادي آخذًا بيدي: يعني: يوم القيامة إذا لم تأخذ بيدي وتعفو عني.

وإلا فقل يا زلة القدم: يعني: يا ضياع طريقي ويا هلاكي إذا لم يعفو عني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإن من جودك الدنيا وضرتها.

الجود: يعني العطاء, من عطائك الدنيا:(من)هنا للتبعيض, يعني: شيء من عطائك الدنيا, جميع الدنيا من عطاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وضرتها: يعني: الآخرة, فالدنيا والآخرة شيء من عطاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإن من علومك علم اللوحي والقلم: يعني: جميع ما في اللوح المحفوظ هذا شيء وجزء من علوم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, يعني الله عَزَّ وَجَلَّ لما خلق القلم قال:"اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة", يقول: جميع ما في هذا اللوح شيء من علمك يا رسول الله.

فما بعد هذا الغلو!

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذّرم من مثل هذا.

ومن الفوائد: أن الغلو سبب في الشر.

ولذلك إذا نظرت لأهل البدع فتجد أنهم قد وقعوا في الغلو, إما غلو في التنزيه, وإما غلو في الإثبات, وإما غلو في المحبة, وإما غلو في البغض, وما أشبه ذلك.

قد قيل: أن أهل البدع وقعوا في الغلو.

الآن إذا نظرت للرافضة وقعوا في الغلو بمحبة آل البيت وبغض الصحابة, وإذا نظرت للخوارج غلو في تكفير المسلم بالكبيرة, فغلو في جانب التكفير, فأخذوا بنصوص الوعيد وغلو فيه وتركوا نصوص الوعد.

وإذا نظرت إلى المرجئة وجدت أنهم غلو في جانب الإرجاء, وهو جانب الوعد وتركوا جانب الوعيد, وإذا نظرت إلى الجهمية غلو في جانب التنزيه, أرادوا أن ينزهوا الله عَزَّ وَجَلَّ حتى نفوا عنه الصفات, وإذا نظرت إلى الممثلة غلو في جانب الإثبات حتى مثَّلوا الله عَزَّ وَجَلَّ بالخلق.

هذه قاعدة, النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إياكم».

ومن الفوائد: أن النصارى قد غلو في ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ, وقد زعموا أنه ابن لله – تعالى عَزَّ وَجَلَّ عن قولهم علوًا كبيرًا –.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ»؛ يعني: وقع منهم.

ولذلك النصارى قالوا: ابن الله, {وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}[التوبة: ٣٠], تعالى عَزَّ وَجَلَّ عن قولهم علوًا كبيرًا.

وقد جاء في الصحيحين: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول للنصارى يوم القيامة: «مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نعبد المسيح بن اللهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ: أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ» .

وقول أن لله عَزَّ وَجَلَّ ابن هذا كفر.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد ورسول, فهو عبد الله ورسول الله, وقدَّم العبودية عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأن أشرف مقام للإنسان أن يكون عبد لله.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ في أعظم المقامات نادى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعبودية ولم يناديه بالرسالة.

قال: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}[الفرقان: ١].

وقال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى}[الإسراء: ١].

ففي أعظم المقامات نادى الله عَزَّ وَجَلَّ رسوله بالعبودية؛ ولذلك قدَّمها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث قال: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ .»

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله, وهذا لابد أن يُعتقد, يُعتقد من كل إنسان بعد مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فمن لم يعتقد أن محمدًا رسول الله فهو ليس بمسلم, حتى لو قال: أشهد أن لا إله إلا الله, ولم يقر بأن محمدًا رسول الله, فهذا ليس بمسلم, فلابد أن يعتقد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ».

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**وقال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ».

هذا الحديث هو حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُم, قال: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ».

الغلو: هو مجاوزة الحد.

والغلو يكون في القول وفي الفعل وفي الاعتقاد.

قال: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ»؛ (إياكم), هذه كلمة يؤتى بها للتحذير, يعني: احذروا الغلو.

«فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»

(أهلكهم)؛ يعني: كان سبب في هلاكهم.

(قَبْلَكُمْ)؛ يعني: من الأمم التي كانت قلبنا التي هلكت.

قال: «الْغُلُوُّ»؛ يعني: بسبب الغلو, غلو فوقعوا في الهلاك.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أنه يجب على الإنسان أن يحذر من الغلو.

والغلو يكون في الاعتقاد, ويكون في العبادة, ويكون في المعاملات, وغير ذلك.

فمن ذلك الغلو في العقيدة, كغلو الجهمية, أو المعطلة, حين غلو في جانب التنزيه فعطلوا الله عَزَّ وَجَلَّ عن صفاته, فهم أرادوا أن ينزهوا الله عَزَّ وَجَلَّ ولكن غلو حتى وقعوا في نفي الصفات.

ولذلك غلاة الجهمية يقولون: أن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس له أسماء ولا صفات, يقولون: ليس الله رحمن, وليس من أسمائه الرحيم, ولا يرحم ولا يغفر ولا ينزل ولا يسمع ولا يبصر, ويقولون: ليس من أسماء السميع ولا البصير ولا الحي ولا القيوم –نسأل الله العافية–.

بسبب ماذا؟ بسبب الغلو.

أيضًا الممثلة غلو في العقيدة, غلو حتى وقعوا في تمثيل الله عَزَّ وَجَلَّ بخلقه, فقالوا: لله يد مثل أيدينا, ولله عين مثل أعيننا, وهكذا, فغلو في جانب الإثبات حتى وقعوا في التمثيل.

أيضًا المشركون الذين أشركوا بالصالحين, فحبوهم وعظموهم ورفعوهم فوق منزلة العبودية حتى وقعوا في الغلو, فجعلوهم آلهة مع الله, فهم وقعوا بسبب حب الصالحين في الغلو, فغلو فيهم حتى ادَّعوا أنهم معبودات مع الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك الذين يعبدون الأولياء ويعبدون القبور, هؤلاء غلو في الصالحين حتى عبدوهم من دون الله, فجعلوهم آلهة مع الله.

وهؤلاء ينكرون على الموحدين يقولون: أنتم لا تحبون الصالحين, قال الصالحون لهم: لِما؟ قالوا: لأنكم لا تعبدونهم من دون الله, فردَّ عليهم الصالحون قالوا: نحن نحب الصالحون ولكن لا نجعلهم آلهة مع الله, فأنتم أيها المشركون جعلتموهم آلهة مع الله فعبدتموهم وأشركتم بالله وتنقصتم الله عَزَّ وَجَلَّ, فجعلتم معه آلهة تُعبد, فزعمتم أن معه آلهة تُعبد, والله عَزَّ وَجَلَّ نفى ذلك ونزه نفسه عن ذلك, وقالوا: لهم احذروا من الغلو؛ فإنه السبب في وقوعكم في الشرك.

أيضًا الغلو في العبادة, كأن يغلو الإنسان في العبادة, كأن يصوم الدهر لا يُفطر, وأن يقوم الليل لا ينام, فهذا غلو.

ولذلك لما أُخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أناس قال بعضهم: أقوم الليل ولا أنام, وقال بعضهم: لا أتزوج النساء, وقال بعضهم: لا أفطر النهار, فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

فحذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغلو.

وأيضًا الغلو في جوانب كثيرة من العبادة, كالغلو مثلًا في الوضوء, فيغلو الإنسان حتى يزيد على الثلاثة, وحتى يصاب بالوسواس, هذا بسبب الغلو.

أيضًا الغلو في المعاملات, كأن يغلو إنسان فيُحرم كل معاملة جديدة, إذا رأى أن شيء أتى جديد حرَّم, مع أنه لا يعرف هل هو حلال أم حرام, بسبب الغلو, فلابد أن يُنظر, هل هي توافق الشرع فتكون مباحة أو تخالفه فتكون محرمه.

فالغلو سبب في الهلاك.

ومن الفوائد: أن الذين من قبلنا سبب هلاكهم هو الغلو.

وقوله: (إنما) هنا أداة حصر, حصر الحكم في المذكور ونفيه عما سواه.

وهنا إشكال: وهو أنه جاء في بعض الأحاديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ», فكيف الجمع بين هذا الحديث والحديث الآخر؟

الجمع -والله أعلم-: أن الحصر هنا حصر إضافي وليس حصر حقيقي, بمعنى: أن الهلاك هنا: «فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ»؛ يعني: الغلو في جانب التعبد, فهلكوا بسبب الغلو في جانب العبادة.

وأما الحديث الآخر فهو حصر بالنسبة للمعاملة بين الناس, فإنما أهلك الذين من قبلنا معاملتهم للشريف غير معاملة لغير الشريف, فوقعوا في الهلاك بسبب ذلك.

أو يقال: إن الهلاك في كل جانب على بابه, في جانب التعبد الهلاك سببه الغلو في الصالحين, والهلاك في جانب المعاملة الغلو في التفرقة بين الناس, وهكذا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ -قَالَهَا ثَلَاثًا-».

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ -قَالَهَا ثَلَاثًا-».

هلك: يعني: وقع في الهلاك.

المتنطعون: هم المتعمقون في الشيء.

ففيه نهي عن التعمق؛ ولذلك كررها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ثلاثًا, قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»؛ يعني: المتعمقون.

والتعمق سبب في الهلاك؛ ولذلك يحذر الإنسان من التعمق والتنطع, فيحذر من ذلك.

كالتعمق في البحث في الأمور الغيبية التي أخفاها الله عَزَّ وَجَلَّ عن الخلق, فيبحث فيها, فهذا يهلك.

فمثلًا: لو إنسان بحث كيف صفات يد الله عَزَّ وَجَلَّ؟ كيف عين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ فهذا يهلك؛ لأنه لابد أن يقع في الهلاك, إما أن يعطل وإما أن يُمثل, ما يمكن أن يخرج منها, فالتعمق والبحث عن الكيفيات والأمور التي غيبها الله عَزَّ وَجَلَّ عنا سبب في الهلاك.

فعلى الإنسان أن يؤمن ويكل ما أخفاه الله عَزَّ وَجَلَّ إلى الله, فالكيفيات ما أخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ بها, أخبرنا بالمعاني حتى نعتقدها, معاني صفات الله عَزَّ وَجَلَّ, معاني القيامة والجنة والنار, لابد أن نعتقدها.

ولكن الكيفيات لم يُخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ بها ولم يأمرنا بها, ما أُمرنا أن نبحث عن كيفية صفة النار أو كيفية صفة الجنة أو كيفية صفة القيامة, هذا ليس الإنسان مأمور بالبحث فيه, لم يأمرك الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا, ولكن أمرك الله عَزَّ وَجَلَّ أن تؤمن بيوم القيامة, أمرك أن تؤمن بالجنة والنار وهكذا, فلا تتعمق وتبحث عن صفة الغيبيات.

وأيضًا التنطع في الكلام, تجد أن الإنسان يتفصح ويبحث في اللغة الغامضة على كثير من الناس, حتى أنه إذا تكلم لا تفهم الكلمة حتى ترجع إلى المعاجم, هذا يهلك –نسأل الله العافية–.

لذلك جاء في الحديث: «وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ».

ولذلك يحذر الإنسان من التنطع, وهذا التنطع يحذر منه في كل جانب.

ففي هذا الباب فيه ذكر المؤلف النصوص التي فيها التحذير من الغلو, وأن الغلو سبب في الشر عامة وسبب في الشرك خاصة؛ لأنه إذا غلا في الصالحين قد يعبدهم من دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك من أعظم الأبواب التي يدخل فيها الشيطان على الإنسان أن يدخل من جانب الحب للصالحين, إذا أحب الإنسان الصالحون فهذا جيد وحسن وقد يثاب عليه الإنسان, ولكن الحذر من أن يغلو فيهم فيجعلهم آلهة مع الله.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥], فيساوون بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين خلقه في المحبة.

وذلك أن الحقوق ثلاثة:

الأول: حق لله عَزَّ وَجَلَّ لا يشاركه فيه أحد, وهو حق ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وألوهيته وأسمائه وصفاته, فلا يجوز للإنسان أن يشرك غير الله مع الله عَزَّ وَجَلَّ, لا في ربوبيته, ولا في ألوهيته, ولا في أسمائه وصفاته, لأن هذا حق محض لله, التعبد حق لله, لا يجوز للإنسان أن يشرك مع الله غيره.

الثاني: حق للرسل, وهو محبتهم وتوقيرهم وتصديقهم, واعتقاد أن ما جاءوا به حق, وأن يُتبعوا, فهذا حق للرسل, جعله الله عَزَّ وَجَلَّ حق لهم.

الثالث: حق مشترك بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين رسله, وهو الإيمان بالله وبرسله, الإيمان حق مشترك ولكنه لله عَزَّ وَجَلَّ أصلًا وللرسل تبعًا.

فيحذر الإنسان من أن يجعل حق الله عَزَّ وَجَلَّ لغيره.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟

|

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف: **باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف أراد فيه أن يبين وسيلة من وسائل الشرك, وأن يُحذَر منها, وما جاء فيها من الوعيد والتغليظ.

قال المؤلف:**باب ما جاء من التغليظ:** يعني: التشديد.

ما جاء: يعني: من النصوص,**من التغليظ:** يعني: التشديد,**فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح:** يعني: تعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بعبادة, كصلاة أو دعاء أو نحوه,**عند قبر رجل صالح**.

والقبر: هو محل الميت الذي يوارى فيه.

رجل صالح: رجل, الذي يظهر والله أعلم أن هذا للتغليب, حتى لو كان امرأة.

رجل صالح: الصالح: هو القائم بحقوق الله عَزَّ وَجَلَّ وحقوق عباده.

قال:**فكيف إذا عبده؟** فكيف إذا توجه لهذا العبد بالدعاء أو السجود له أو نحو ذلك, فهذا أغلظ وأشد.

ففي الباب أن الإنسان إذا عبد الله عَزَّ وَجَلَّ وتعبد له عند قبر رجل صالح فإن هذا فيه تغليظ في النصوص, فكيف إذا توجه له بالعبادة؟ فهو أشد لأنه شرك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

في الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصوراً فقال: «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ**

الصَّالِحُ أو العَبْدُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ». فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **في الصحيح**: يعني: في صحيح البخاري ومسلم, عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة: أم سلمة: هي زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وقد كانت قبل أن يتزوج بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أبي سلمة, وقد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها, فذكرت تلك الكنيسة.

قال: **ذكرت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كنيسة**, والكنيسة: هي معبد النصارى التي يتعبدون فيها.

رأتها بأرض الحبشة: يعني: في أرض الحبشة,الحبشة الآن إثيوبيا جهة إفريقيا.

قال: **بأرض الحبشة وما فيها من الصور**: أي: أن هذه الكنيسة ملئت بالصور, وضعت فيها الصور.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُولَئِكَ», أولئك: المشار إليه يعني أولئك القوم, وضُبطت بـ(أولئكِ) إشارة لأم سلمة,يعني يبلغ أم سلمة الحديث (أولئكِ وأولئكَ).

قال: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ»؛ يعني: أولئك القوم إذا مات فيهم الرجل الصالح,«أو العَبْدُ الصَّالِحُ», الظاهر والله أعلم أنه للشك, لأن الرجل هو العبد, فلعله والله أعلم للشك,: فالرجل الصالح هو العبد الصالح.

«بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا»؛ أي: أنهم إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا, بمعنى أنه يُقبر ثم يُبنى عليه مسجد.

«وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ», هذا الثاني, صوروا فيه تلك الصور كالتي رأتها أم سلمة.

ثم قال: «أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»؛ يعني: أولئك الناس شرار الخلق عند الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة أو في الدنيا أيضًا.

ثم قال:**فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين:** هذا كلام من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ

قال:**فهؤلاء:** يعني: هؤلاء القوم,**جمعوا بين فتنتين:** يعني: وقعوا في فتنتين:

فتنة القبور: أي: أنهم بنوا عليها.

وفتنة التماثيل: أي: أنهم صوَّروا فيها, فهم وقعوا في أمرين.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: النهي عن بناء المساجد على القبور, فهذا فيه خبر وفيه ذم؛ لذلك قال في آخر الحديث:«أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ», ففيه خبر وذم, ففيه النهي عن بناء المساجد على القبور, وسيأتينا أن بناء المساجد على القبور محرم ولا يجوز؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن من فعل ذلك, أو أخبر بأنه ملعون.

وبناء المسجد على القبر, إذا وضع قبر ثم بُني عليه مسجد فإنه يتحتم إزالة المسجد, لأن هذا يأخذ حكم مسجد الضرار, يقاس عليه, فيُهدم المسجد.

الحالة الثانية: أن يُبنى مسجد ثم يوضع فيه قبر, فيتعين ويتحتم نبش هذا القبر وإخراجه ووضعه في مكان آخر؛ لأنه لا يجوز وضع القبور في المساجد, ولا أن تُبنى المساجد على القبور.

ومن الفوائد: أن الفتنة في الصالحين عظيمة؛ ولذلك أول شرك وقع بسبب الغلو في الصالحين, والشيطان يدخل على الإنسان من محبة الصالحين, فيزيِّن للإنسان حتى يغلو في هذا الصالح ويجعل له شيء من العبادة, فيقع عند ذلك الشرك.

ولذلك قال:«أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أو العَبْدُ الصَّالِحُ», فمفهوم ذلك: أن الذي ليس بصالح لا يُبنى عليه مسجد.

ومن الفوائد: منع أو النهي عن وضع التماثيل والصور في المساجد؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرنا أن الذين يفعلون هذا هم من شرار الخلق؛ ولذلك ينهى عن وضع التماثيل والصور في المساجد؛ لأن الصور والتماثيل من أسباب الغلو ووقوع الشرك, فالصورة إذا وضعت كالتمثال مثلًا أو صوِّر, وخاصة إذا كان من العظماء؛ فإن هذا من أسباب وقوع

الشرك, خاصة إذا كان الإنسان ميت فإن الناس قد يغلون فيه,فيزيِّن لهم الشيطان, يُزيِّن لهم التوجه إلى هذه الصورة بالعبادة أو تعظيمها.

ومن الفوائد: أن من بنى على المساجد قبور وصوَّر فيها الصور فإنه من شرار الخلق؛ ولذلك قال:«شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ».

ومن الفوائد: أن الناس عند الله عَزَّ وَجَلَّ على مراتب, فقد يكون الإنسان عند الله عَزَّ وَجَلَّ مُبغَض ويكون الآخر أبغض منه عند الله عَزَّ وَجَلَّ, فالناس في الشر على مراتب ليسوا على مرتبة واحدة .

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أبي جهل:«**هذا فرعون هذه الأمة**», فالناس في الشر ليسوا على درجة واحدة, فمن كفر بالله عَزَّ وَجَلَّ وقتل الأنبياء وحارب دين الله عَزَّ وَجَلَّ هذا ليس كالرجل الذي أشرك ولم يفعل هذا كله, فالأول أشر.

ولذلك لما كان الناس في الشر على درجات كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار, فالناس في الشر على درجات.

ومن الفوائد: أن الإنسان قد يفتن نفسه, وهذا مأخوذ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ, فمن وضع القبر في المسجد ووضع في المسجد صور؛ فإن هذا من أسباب الغلو فالإنسان قد يفتن نفسه, إذا رأى القبر مثلًا في المسجد فإن هذا قد يقوده إلى تعظيم هذا المقبور ثم يعبده من دون الله, وأيضا التماثيل.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عنها قالت: لما نزل برسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يطرح خميصة له عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بها كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». يُحَذِّرُ مَا صنعوا، ولولا ذلك أُبْرِزَ قَبرُهُ، غَيرُ أنه خُشِيَ أَن يَتَّخِذَ مَسْجِدًا. أخرجاه.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**ولها:** يعني: البخاري ومسلم,**عنها:** يعني: عن عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا,**قالت: لما نزل:** يعني: نزل الموت بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو نزل به ملك الموت لقبض روحه.

لما نزل برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ: يعني: أخذ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ , **يطرح:** يعني: يضع.

خميصة: الخميصة: هي كساء له أعلام,**عَلَى وَجْهِهِ:**عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ على وجهه الكريم.

فَإِذَا اغْتَمَّ بها كَشَفَهَا: يعني: إذا اغتم وأحس بشدة الموت كشف هذه الخميصة.

فقال:**وَهُوَ كَذَلِكَ:**«لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ», لعنة الله,اللعنة من الله عَزَّ وَجَلَّ هي الطرد والإبعاد من رحمته, وهذا يُحتمل أنه خبر؛ أي: أن هذا قد وقع من الله عَزَّ وَجَلَّ على اليهود والنصارى الذين فعلوا هذا الشيء, ويحتمل أنه انشاء؛ أي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو عليهم باللعنة.

«لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ», اليهود هم أتباع موسى عَلَيْهِ وَالسَّلاَم, والنصارى أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلاَمَ, والمراد: الذين في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وليسوا الذين مع موسى وعيسى, فأولئك منهم مسلمون.

فالمراد الذين في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, الذين كفروا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واليهود سُموا بذلك: من قولهم:﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٥٦]؛ يعني: تُبنا إليك يا ربنا, وكان اسم مدح.

وقيل: اسم لأبيهم يهوذا.

والنصارى نسبه لمكان يسمى الناصرة.

وقيل: من قول عيسى عَلَيْهِ السَّلاَمَ﴾:مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴿[آل عمران: ٥٢].

فكان أيضًا اسم مدح, ولكن أصبح لازم عليهم.

فاليهود الذين كانوا مع موسى عَلَيْهِ السَّلاَم الذين اتبعوه كانوا مسلمين, وأيضًا الذين كانوا مع عيسى عَلَيْهِ السَّلاَم و اتبعوه كانوا مسلمين, أما الذين جاؤوا بعد فكفروا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهؤلاء كفّار.

قال:«اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ», اتخذوا: يعني: جعلوها.

«قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ أي: أنهم يتعبدون عندها أو أنهم يبنون عليها المساجد.

قال:**يُحَذِّرُوا ما صنعوا:** أي: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أخبر بهذا يحذِّر صنيعهم.

قال:**ولولا ذلك أُبْرِزَ قَبْرُهُ:** وهذا من قول عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا, تقول: لولا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاف أو خشي أن يتوجه له بالعبادة لأُبرز قبره,فأُخرج خارج بيت عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا.

غَيْرَ أنه خُشِيَ أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِدًا:فلم يبرز قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لئلا يُتخذ مسجدًا من بعد الصحابة, إذا أتى بعد القرون المفضلة قد يأتي أناس يغلون في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيتخذونه مسجد.

وأيضا لعلة أخرى: لأنه ما من نبي يموت إلا ويُقبر في المكان الذي مات فيه؛ كما جاء عند الترمذي أن أبا بكر رَضِي اللهُ عَنْهُ قال:"ادفنوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثما, فإني سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي المَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ», هذا الحديث صححه الألباني.

إذًا: لعلتين:

العلة الأولى:لئلا يُغلى فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَم.

والعلة الثانية: لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَم أخبر: أن «مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي المَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ»؛ ولذلك دُفن في بيت عائشة.

هذا الحديث فيه فوائد :

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجد ما يجد البشر من الشدة؛ ولذلك كان يغتم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عند الموت.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشدد عليها أكثر من غيره, ليرفع الله عَزَّ وَجَلَّ درجته, ولأنه أفضل الخلق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُبتلىٰ المرءُ علىٰ حسب دينه، فإنْ كان في دينه صلابة شُدِّدَ», فيبتلى المرء على قدر دينه, فإن كان في دينه صلابة شُدد عليه.

ولذلك جاء في الحديث الآخر قال:أيُّ النَّاس أشدُّ بلاءً؟ قال: « الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ» .

ومن الفوائد: أنه لابد من الحذر من اتخاذ القبور مساجد؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن اليهود والنصارى الذين فعلوا ذلك.

ولذلك هذا مما يدلك على أن بناء المساجد على القبور محرم, وأن الصلاة عند القبور محرم لا يجوز.

وقد عدَّ ابن حجر الهيثمي بناء المساجد على القبور في الكبائر عدها في الكبائر, لأن اللعن يدل على أن هذا الفعل كبير.

ولذلك الكبائر إذا كان فيه لعن أو حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فإنه كبيرة.

قال ابن عبد القوي:

ما فيه حد بالدنا أو توعد ... بأخرى فسمِّ كبرى على نص أحمد

وزاد حفيد المجد أو جا وعيده ... بنفي إيمانٍ أو لعنٍ لمبعدِ

حفيد المجد من؟ شيخ الإسلام ابن تيمية, زاد هذا القول.

فإذا كان فيه وعيد في الدنيا بلعنة أو حد أو نحوه أو توعد في آخرة بنار أو بعذاب أو بغضب؛ فإن هذا يدل على أن هذه كبيرة.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُفن في بيت عائشة؛ لأنه خُشي أن يتخذ قبره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مسجدًا.

ولو قال قائل: أليس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبره الآن في مسجده؟

فالجواب: لا, لأن قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآن في بيت عائشة إلى اليوم, ولأن بيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وُضع عليه ثلاثة جدران, فأصبح بمعزل عن المسجد, ولأن المسجد زيد فيه فأُدخلت الحجرة, والمنهي عنها أن يبنى المسجد على قبر أو أن يُدخل الميت في المسجد, أما أن يُزاد المسجد ويدخل فيه القبر فهذا الخطأ من الذي زاد المسجد.

ولذلك الوليد بن عبد الملك لما كان في وقته اجتهد وزاد المسجد وأدخل حجرة عائشة, كان هو الوالي وأدخل حجرة عائشة وفيها قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه, فأنكر عليه بعض السلف, كسعيد أنكر عليه ونهى عن ذلك, وأنكر عليه بعض التابعين, ولكنه رأى أن يوسع المسجد, فدخلت الحجرة في المسجد, فالآن قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت عائشة, وأيضا محاط بثلاثة جدران, وأيضا لم يُدخل في المسجد من أول يوم ولم يُبنى عليه المسجد, الآن لم يُدخَل في المسجد ولم يُبنى عليه, وإنما زيد في المسجد فدخل, وفرق بين أن يُدخل الإنسان في المسجد وبين أن يُبنى عليه المسجد وبين أن يُزاد المسجد فيدخل بيتك فيه, فرق.

فمثلًا الآن لو زيْد من الناس في بيته ثم مسجد قريب منه زيد في هذا المسجد وأدخل بيته فيه, فقلت: يا زيْد أين أنت؟ سيقول: في بيتي, مع أن الصورة كأنه في المسجد, وسيقول: هؤلاء أخطوا وأدخلوا بيتي في المسجد.

ولذلك قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآن في معزل, أيضا له ثلاثة جدران, وسيأتينا إن شاء الله أنه دعا أن لا يتخذ قبره مسجد, وأجاب الله عَزَّ وَجَلَّ دعاءه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وَدَعَا بِأَلَّا يُجْعَلَ القَبرُ الَّذِي قَدْ ضَمَّهُ وَثَنًامِنَ الأَوْثَانِ

فأجَابَ رَبُّ العَالِمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الجُدْرَانِ

حَتَّى اغْتَدَتْ أرْجَاؤهُ بدُعَائِهِ فِي عِزَّةٍ وحِمَايةٍ وَصِيَانِ

فصان الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه بحيث أنه لا أحد يستطيع أن يتوجه له بالعبادة.

ولذلك الآن غرفة عائشة وُضع عليها ثلاثة جدران محرَّفة, بمعنى مثلثة ومحرَّفة, ما يمكن أحد أن يستقبل القبر, ما يمكن حتى لو كان في المسجد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا؛ كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا؛ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا؛ أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

فقد نهىٰ عنه في آخر حياته؛ ثم إنه لعن -وهو في السياق- من فعله؛ والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد، وهو معنىٰ قولها: "خُشي أن يتخذ مسجدًا" ، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا، وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا، بل كل موضع يُصلىٰ فيه يسمىٰ مسجدا؛ كما قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**».

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**ولمسلم**: يعني: رواه مسلم,**عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ**:يعني: بخمس ليال.

وهو يقول: يعني: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول هذا القول.

وَهُوَ يَقُولُ:«إِنِّي أَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ», أبرأ: يعني:أتخلى.

«إِنِّي أَبْرَأُ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ»؛ يعني: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخلّى ويبين أنه ليس له من أمته خليل.

والخلة: هي أعلى درجات المحبة, وهي أن يتخلّل الحبيب القلب ويسلكه و يدخل فيه.

ولذلك قال القائل:

ولقد تخلَّلتِ مسلك الروح منِّي وبذا سُمِّي الخليل خليلًا

يعني: دخلتِ سويداء قلبي فأصبحت أُحبك حبًّا شديدًا.

فالخلة هي أعلى درجات المحبة.

قال:«فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا»؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ, و(قد) هنا للتحقيق, يعني قد حصل.

«اتَّخَذَنِي»؛ يعني جعلني خليلًا, يعني: محبوبًا له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اتخذه ربه عَزَّ وَجَلَّ خليلًا.

ثم قال:«كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»؛ أي: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتخذه الله عَزَّ وَجَلَّ خليلًا كما اتخاذ الله عَزَّ وَجَلَّ إبراهيم خليلًا, إبراهيم أيضا خليل لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال:«وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»,(ولو) هنا حرف امتناع لامتناع,يعني: امتنع الأول لامتناع الثاني.

«وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي»؛ يعني: أمة الإجابة,«خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»؛ يعني: لجعلت أبا بكر أعلى محبوب عندي.

«أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ يعني: من الأمم كاليهود والنصارى,«كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يعني: كان هذا الحاصل منهم, كان يحصل منهم أنهم يتخذون القبور مساجد, إما بالبناء عليها وإما بالصلاة عندها, كما سيأتينا إن شاء الله.

«أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ», (ألا): أداة تنبيه.

«أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»؛ يعني: فيه نهي, (لا) هنا نهي.

«تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِداً فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ», (إن) هنا توكيد, والياء عائدة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, «فَإِنِّي»؛ يعني: أنا, النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ», والنهي هو الأمر بترك الشيء على الاستعلاء.

فقد نهى عنه في آخر حياته: أي: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن اتخاذ القبور في آخر حياته؛ وذلك في حديث عائشة.

من فوائد هذا الحديث حديث جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتخذ من أمته خليل, لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ خليل الرحمن.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امتلأ قلبه بمحبة ربه, فلا يسع لغير ربه أحدًا, فهو يحب ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولم يتخذ خليلًا سوى ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومحبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تختلف عن محبة المخلوق؛ لأن محبة الله عَزَّ وَجَلَّ محبة تعبد وذل وخضوع وتعظيم, أما محبة المخلوق فهي ليست على وجه الذل والخضوع والتعظيم.

ومن الفوائد: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليل الله عَزَّ وَجَلَّ, والخليل أعلى من المحبوب.

ولذلك من الخطأ أن يقال: محمد حبيب الله, وإبراهيم خليل الله, هذا خطأ, ووجه الخطأ: أن الخلة أعلى من المحبة.

وقد يكون الإنسان محبوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ولكن ليس بخليل؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ», فهذه محبة, ولكن الخلة أعلى.

فلذلك الواجب أن يقال: محمد خليل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وإبراهيم خليل الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ, فهذا هو الصحيح.

ومن الفوائد: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامَ خليل الله.

وإبراهيم خليل الله وهو أبو الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامْ, فجميع الأنبياء بعد إبراهيم من بنيه, وقد اتخذه الله عَزَّ وَجَلَّ خليلًا.

والدليل: هذا الحديث والآية, قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[النساء: ١٢٥].

ومن الفوائد: فضل أبي بكر رَضِي اللهُ عَنْهُ.

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا», هذا يدلك على أن أبا بكر قد وصل في درجات عالية من المحبة عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهو كذلك رَضِي اللهُ عَنْهُ.

ولذلك لما سأله عمرو بن العاص: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ ؟قَالَ: «عَائِشَةُ»,قَالَ: مِنَ الرِّجَالِ؟قَالَ: «أَبُوهَا». فهو أحب الرجال إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن الفوائد: النهي عن اتخاذ القبور مساجد للصلاة عندها أو البناء عليها؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى في هذا الحديث وحذر.

- الأول: أنه أخبر أن هذا من فعل الذين قبلنا, الذين لا ينبغي أن نتبعهم.
- الثاني: أنه نهى, قال: «فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ».
- الثالث: النهي الصريح, قال: «فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» .

ففيها النهي عن البناء والصلاة عند القبور من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه أخبر أن الذين قبلنا كانوا يفعلون ذلك وقد نُهينا عن اتباع الذين يفعلون مثل هذا, لأنهم لعنوا على فعلهم هذا.

الثاني: أنه نهى, قال: «فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ».

الثالث: أنه أكَّد النهي باللفظ الصريح, قال: «فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»؛ يعني: عن هذا الفعل, هذا يدل على أن البناء على المساجد منهي عنه.

والقبر: هو موضع الميت, ولو كان قبر واحد فيسمى مقبرة.

قال: **فقد نهى عنه في آخر حياته:** يعني: نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث عائشة.

ثم إنه لعن – وهو في السياق – من فعله: يعني: من فعل البناء على القبور.

والصلاة عندها من ذلك: هذا الأول, الصلاة عند القبور كالبناء عليها مساجد, وذلك أن اتخاذ المساجد على القبور ينقسم إلى قسمين:

الأول: ببناء المساجد عليها, هذا يسمى اتخذ القبر مسجد.

الثاني: بالصلاة عندها, فهذا يسمى اتخذ القبر مسجد.

فلو أتى إنسان إلى مكان خالي في الأرض ثم صلى عند القبر متعمدًا القبر فإن هذا يسمى اتخذ هذا القبر مسجد, لا يلزم أن يبني بناء.

ولذلك قال: **والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد، وهو معنى قولها: "خُشي أن يتخذ مسجدًا" ، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا, وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا، بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجدا؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»:جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا«.**

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية, وهو شرح للأحاديث الماضية.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: »**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**«. ورواه أبو حاتم في صحيحه.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف: ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا:«إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ».

(إن) هنا توكيد.

(من): للتبعيض.

«شِرَارِ النَّاسِ»؛ يعني: من أشر الناس, «مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ»؛ أي: وهم على قيد الحياة.

«وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»؛ أي: أيضًا الذين يتخذون القبور مساجد من شرار الناس.

فذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ صنفين من شرار الناس: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء, والذين يتخذون القبور مساجد.

قال: **ورواه أبو حاتم في صحيحه.**

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء.

والمراد -والله أعلم-: أنه نفس قيام الساعة, الذين يدركهم قيام الساعة, فتقوم الساعة وهم أحياء, فهؤلاء هم شرار الخلق.

وهنا إشكال.. ورد في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ حَتَّىٰ تَأْتِيَ السَّاعَةُ» .

وهنا يقول: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ».

فكيف الجواب عن هذا؟

الجواب –والله أعلم-: أن الطائفة التي أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها على الحق المراد فيهم بقوله: «حَتَّىٰ تَأْتِيَ السَّاعَةُ»؛ أي: ساعة موتهم وهم على بابه, أو قُرب قيام الساعة.

ويفسر هذا ما جاء في حديث عمرو بن العاص: "أنه قبل قيام الساعة يرسل الله عَزَّ وَجَلَّ ريح مسها كالحرير, فلا تدع أحدًا في قلبه إيمان إلا قبضته, حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخلت معه".

فإذا قربت الساعة فإنه يموت من كان في قلبه إيمان, ولا يبقى إلا شرار الخلق.

والدليل على ذلك: أنه جاء في الصحيح من حديث أنس أنه قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهَ اللهَ».

فإذا مات الصالحون بقي شرار الخلق عليهم تقوم الساعة, فالإشكال هنا يزول.

فالمراد في الحديث الذي في الصحيح: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ حَتَّىٰ تَأْتِيَ السَّاعَةُ»؛ يعني: قُرب قيام الساعة ببعث الريح, الريح التي تُبعث من جهة الشام فتقبُض أرواحهم.

ومن الفوائد: أن من شرار الخلق من يتخذون القبور مساجد.

واتخاذ القبور مساجد هو بالصلاة عندها, أو الدعاء عندها, أو بناء القبور عليها, أو ما أشبه ذلك.

ولابد أن يكون الإنسان مع القبور وسط, لا يغلو ولا يجفو.

لا يغلو بمعنى: أنه يُعظم القبور ويصلي عندها, أو يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ عندها, أو يضعها في المساجد.

وأيضًا لا يجفو, بمعنى: أنه يهين القبور فيطأ عليها, ويجعلها فراش وينام عليها.

ولذلك رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل قد وضع ذراعه على قبر فقال: «لَا تُؤْذِهِ» .

ورأى رجل يمشي بنعليه بين القبور فقال: «يَاصَاحِبَ السَّبْتَيْنِ أَلْقِهِمَا».

فلا تُهين القبور ولا تعظمها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصيِّرها أوثانًا تُعبد من دون الله

روىٰ مالك في الموطأ: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف: **باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصيِّرها أوثانًا تُعبد من دون الله.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف لما ذكر أن الغلو في الصالحين سبب في عبادتهم من دون الله.

ذكر في هذا الباب أن من أسباب عبادة الصالحين: تعظيم قبورهم، فحذر في هذا الباب من تعظيم قبور الصالحين وذكر النصوص المحذرة في ذلك.

قال:**باب ما جاء أن الغلو**؛ يعني: ما جاء من النصوص أن الغلو، والغلو: هو مجاوزة الحد, إما في القول أو في العمل أو في الاعتقاد.

وقوله:**في قبور الصالحين**؛ قبور الصالحين يعني: الأماكن التي قُبروا فيها، والقبر: هو موضع الميت الذي يوضع فيه.

ولذلك يقول القائل:

لكل أناس مقبر بفنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد

فالقبر هو موضع الميت الذي يوضع فيه، فإذا وضع فيه سُمي قبر.

والصحيح: أن المقبرة يُطلق عليها مقبرة حتى لو لم يكن فيها إلا واحد، فيقال عنها مقبرة.

قال:**في قبور الصالحين**؛ والصالح: هو القائم بحقوق الله وحقوق عباده.

قال:**يُصيِّرها**: يعني: يقلبها ويكون مآل حالها.

أوثانًا تُعبد من دون الله: يعني: يصير هذه القبور أوثانًا، والوثن: هو كل ما عبد من دون الله على أي حال كان، فيشمل الصنم والقبر والحجر والشجر وغير ذلك، فهو أعم من الصنم أعم.

قال:**تُعبد**؛ يعني: يتذلل لها ويخضع لها.

من دون الله؛ يعني: سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال:**روى مالك في الموطأ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:**«اللَّهُمَّ».

هذا دعاء من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و«اللَّهُمَّ»،(الميم) عِوض عن الياء المحذوفة، فأصلها يا الله، ولكن حُذفت (الياء) وأُبدلت (بالميم).

والفائدة في ذلك: أن يجمع الإنسان قلبه على ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«اللَّهُمَّ»؛ يعني: يا الله، «لا تَجْعَلْ»؛ يعني: لا تصير،«قَبْرِي»؛ يعني المكان الذي قُبر فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ،«وَثَنًا يُعْبَدُ»؛ يعني: مكان يُتخذ معبود من دون الله، يصير هذا القبر مما يُعبد من دون الله، فسأل ربه أن لا يجعله كذلك.

ثم قال:«اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ».

«اشْتَدَّ»؛ يعني: عظُم غضب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«عَلَىٰ قَوْمٍ»؛ يعني: جماعة،«اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يعني: صيروها مساجد.

و «قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ أي: أنهم جعلوا القبور مساجد إما بالبناء عليها وإما بالعبادة عندها.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلجأ لربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يدعو ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا مصداق لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ»؛ ولذلك كان يكثر من دعاء ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال أنس: كان أكثر دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

فكان يكثر من دعاء ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ومن ذلك هذا الدعاء، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بخيري الدنيا والآخرة، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يحب من العبد أن يدعوه، بخلاف بني آدم فإنه إذا سُئل يغضب.

ولذلك قال القائل: الله يغضب إن تركت سؤاله، وبني آدم حين يُسأل يغضب، لأن بني آدم ضعيف وفقير وإذا سألته المرة والأخرى فيخاف أن يذهب ما عنده، ولأنه لا يقدر

إلا على الشيء القليل الضعيف، أما الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو واسع العطاء وهو على كل شيء قدير، ولا يغيظ مما ينفق مما في يده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى شيء، فهو يعطي عطاء كثير سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَمِينُ اللهِ مَلْأَىٰ لايغيضها سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَأَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَفَإِنَّهُ لَمْيَغِضْ مَافِي يَمِينِهِ»؛ يعني: لم ينقص.

فالله عَزَّ وَجَلَّ واسع العطاء، فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر من دعاء ربه.

ومن الفوائد: أن قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمكن أن يُعبد.

ووجه ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا الله عَزَّ وَجَلَّ ألا يكون قبره وثنًا يُعبد، إذ لو كان ممنوع أو أن الله عَزَّ وَجَلَّ عصم أن لا يقع هذا لما دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الشيء.

ولذلك دعا الله عَزَّ وَجَلَّ أن لا يُصير قبره وثنًا يُعبد؛ وفي وقت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي وقت الصحابة وفي وقت القرون المفضلة الثلاثة لا يُعرف عبادة القبور، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنه -والله أعلم- أنه أُخبر أو أُوحي إليه أنه سيكون من يعبد القبور أو يتوجه إليها بالعبادة.

فسأل الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولذلك في القرون المفضلة ما يُعرف شيء يسمى عبادة القبور، لا يُذبح عند القبور، ولا تُدعى القبور، ولا يقال للميت اسأل الله لي في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين وتابعين.

وقد كان السلف يقولون: أن تجصيص القبور والكتابة عليها مكروه، يقولونه، ما كانوا يظنون أنها تُعبد من دون الله، ما كانوا يظنون.

ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: أن البناء على القبور ما عُرف إلا عند الفاطميين الذين يسمون أنفسهم كذبًا وزورًا الفاطميون، وهو في القرن الرابع من الهجرة بنوا على القبور ثم عُبدت القبور بعد ذلك.

ومن الفوائد: أن من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه يغضب، والغضب من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ الفعلية التي تتعلق بمشيئته، فالله عَزَّ وَجَلَّ من صفاته أنه يغضب والغضب يكون عند وجود السبب، ولذلك إذا توجه الإنسان للقبر أو بنى على القبر فإنه من أسباب غضب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه إذا كانت قبور أنبياء.

وغضب الله عَزَّ وَجَلَّ صفة تليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يشابه فيها خلقه، ولذلك إذا قيل: غضب الله فهو يختص به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يشارك أحد في هذا الغضب، خلافًا لمن نفى هذه الصفة وقال: أن الغضب هو الانتقاء، وهذا تفسير للغضب بأثره.

وفي هذا القول نفيه للصفة، فالله عَزَّ وَجَلَّ له الصفات، وإن كانت هذه الصفات مسمى عندنا في البشر فإنها إذا أضيفت إلى الله فهي تختص به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تختص به لا يشاركه فيها أحد، ولذلك فعلى الإنسان الإنسان أن يحذر من غضب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن اتخاذ القبور مساجد من أسباب غضب الله عَزَّ وَجَلَّ وخاصة إذا كانوا معظمين كالأنبياء –مثلًا– فإنه من أسباب أن يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ على العبد؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

واتخاذ القبور مساجد إما بالصلاة عنده، يأتي عند القبر فيصلي عنده فهذا يسمى اتخذه مسجد، وإما بالبناء عليه بمعنى يأتي إلى قبر فيبني عليه البناء فهذا من اتخاذها مساجد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾[النجم: ١٩], قال: "كان يَلُتُّ السَّويقَ فمات فَعَكَفُوا على قَبْرِهِ".

وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: "كان يَلُتُّ السَّويق للحاج".

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**ولابن جرير بسنده**:يعني: سند ابن جرير،**عن سفيان عن منصور عن مجاهد**؛ يعني في قوله تعالى:}أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{؛ يعني: يفسر مجاهد هذه الآية الكريمة.

قال:}أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{، قال: "كان يَلُتُّ السَّويقَ"، والسويق: هو حب محموس يوضع عليه الزيت فيُلت.

قال:"كان يَلُتُّ السَّويقَ فمات"؛ يعني: مات هذا الرجل.

"فَعَكَفُوا على قَبْرِهِ"؛ يعني: واظبوا على البقاء عند قبره تعظيمًا له.

قال:**وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس**؛ يعني: ينقل عن ابن عباس، أنه قال: "كان يَلُتُّ السَّويق للحاج"؛ يعني: زيادة ابن عباس أنه كان يضع هذا للحجاج.

في هذه الآية الكريمة يقول الله عَزَّ وَجَلَّ}:أَفَرَأَيْتُمُ{؛ يعني: أخبروني عن حال هذه الأصناف.

}أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ{، (اللَّات) روي بالتخفيف وبالتشديد.

فأما على الأول على التخفيف فهو رجل كان يلت السويق للحجاج فمات فعكفوا على قبره.

وروي بالتشديد (اللَّات) بتشديد (التاء): من لت يلوت ، وهو رجل صالح كان يلت السويق.

وبالتخفيف (الْلَّاَتَ): صخرة كانت تُعبد من دون الله عَزَّ وَجَل.

إذًا يقال:(الْلَّاَتَ) روي بالتخفيف وبالتشديد.

فأما بالتشديد (اللَّاَتَ) فهو رجل صالح كان يلُتُّ السويق، فمات فعكّفوا على قبره.

وأما بالتخفيف (اللاَت) فهو اسم صخرة كان يوضع عليها ستور و عندها سدنة وكانت صخرة كبيرة تُعبد من دون الله، و كانت لأهل الطائف ثقيف و موا لاة.

ففيه في هذا الأثر: أن العكوف و البقاء عند القبر من أسباب تعظيم القبور، فيحذر الإنسان من تعظيم القبور، و خاصة إذا كان هذا المقبور صالح، إذا كان له شأن في حال حياته

كما لو كان يطعم الناس، أو صاحب علم، أو صاحب منصب و له صلاح، و نحو ذلك، فإن البقاء عند قبره من أسباب تعظيمه الذي يؤول إلى عبادته.

و ذلك أن التعبد عند قبور الصالحين أو المكث عند القبور على وجه التعظيم أو نحو ذلك، هذا من أسباب أن يؤول بالإنسان إلى عبادة هذه القبور، من أسباب أن يؤول بالإنسان أن يعبد هذه القبور و يتوجه إليها؛ ولذلك يُقطع وسائل الشرك،وسائل الشرك لابد أن تُقطع.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: "لَعَنَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المسَاجِد والسُّرُج". رواه أهل السنن.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

و قال:**وعن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: "لَعَنَ رَسُول الله صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

اللعن: هو الدعاء من العبد، اللعن من العبد هو أن يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن يطرد معين من رحمته أو عام أيضًا، يعني: يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يطرد فلان من رحمته أو يطرد من اتصف بهذا الوصف من رحمته.

قال: "زَائِرَاتِ القُبُورِ"؛ الزائر: هو الذي يأتي و يرجع و لا يبقى، فهذا هو الزائر.

قال: و "القُبُورِ"؛ يعني: موضع الموتى.

"وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المسَاجِد"؛ يعني: الذين يأخذون على القبور المساجد؛ بمعنى: يبنون عليها المساجد و السرج.

و السرج: هي المصابيح، كالسراج عندنا اليوم؛ أي: معنى أنهم يضعون عليها أنوار ونحو ذلك.

قال:**رواه أهل السنن.**

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أنه فيه لعن موجه لزائرات القبور دعا عليهم باللعنة؛ولذلك قال:"زَائِرَاتِ الْقُبُورِ"؛ و هذا يتوجه للمؤنث؛ يعني: المرأة التي تزور القبر، فهذا فيه دليل على منع المرأة من زيارة القبر.

ومسألة زيارة المرأة للقبور اختلف في حكمه العلماء، والأقرب -والله أعلم-: أنه محرم ولايجوز، فلا يجوز للمرأة أن تزور القبور، لهذا الحديث, لأن فيه لعن، ولأنه ورد عند الترمذي بسند حسن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ».

فهذا فيه حديثان عن نهي المرأة عن زيارة القبور, وذلك لعدة أمور؛ يعني الحكمة - والله أعلم-في نهي المرأة عن زيارة القبور أمور: منها أن فيه سبب للنياحة، زيارة المرأة للقبور سبب في النياحة، فالمرأة إذا رأت الميت سبب أن تنوح فتقع في محرم، والنياحة محرمة ولا شك.

وأيضًا مما يدل على أن المرأة ممنوعة من زيارة القبور: أن خروج المرأة سبب للفتنة بها والفتنة عليها، فإذا خرجت إلى المقابر ورآها الرجال أو رأت الرجال سبب في أن تفتتن أو يُفتتن.

ومنها: أنها سبب لتضييع حق الزوج، فإذا خرجت فإنه قد يستلزم من ذلك أنها تضيع حق الزوج فتخرج بلا إذن.

ومنها: أنه سبب للنظر المحرم، فإذا خرجت المرأة فإنها سبب في أن الرجال هناك عند المقابر قد يرونها فيقع النظر المحرم.

ومنها: أنه سبب لتضييع المقصود، سبب في تضييع المقصود، لأن المقصود من زيارة القبور تذكر الآخر، فإذا رأى الرجل المرأة تذكَّر الدنيا، لأن المرأة مما يُعلق الإنسان بالدنيا، وقد ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ الشهوات في الدنيا فذكر أول ذلك النساء:}زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ{[آل عمران: ١٤]، ثم قال سبحانه:}مِنَ النِّسَاءِ{، أول الدنيا.

فإذا ذهبت المرأة للمقابر وذهب الرجل للمقبرة فرأى المرأة فإنه يتذكر الدنيا وينسى الآخرة؛ فيذهب المقصود من زيارة القبور.

وهذا القول ورواية عن الإمام أحمد اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية وأئمة الدعوة: أن الذهاب إلى القبور محرم ولا يجوز.

أما قول من قال من العلماء: أن الأمر نُسخ، أنه كان منهي عن زيارة القبور ثم نُسخ فالصواب: أن النسخ في حق الرجال دون النساء؛ وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا».

وهذا اللفظ يتوجه للذكور (زُورُوهَا) معشر الرجال، ولأن هذا لفظ عام والنهي للنساء خاص.

والخاص يقول العلماء: أنه يقدم على العام، فيبقى الخاص على خصوصه فهو يُقدم على العام وهو مخصص للنهي؛ بمعنى: أن الرجال يُستحب لهم زيارة المقابر، والنساء محرم عليهن، هذا هو الأقرب -والله أعلم-.

وزيارة القبور منها مشروعة ومنها ممنوعة، أما المشروعة فهي تزار القبور لأجل تذكر الآخرة، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الموت».

وفي رواية: «تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ».

ومنها أيضًا ما هو مشروع في زيارة القبور، أن الإنسان إذا ذهب إلى المقابر يدعو للموتى عمومًا ويدعو لقريبه خاصة، فهذا مشروع، مشروع إذا ذهب إلى القبور أن يدعو للمسلمين هناك، أو يدعو لقريبه خاصة؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم إذا أتوا للمقابر أن يقولوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ».

فيُشرع للإنسان إذا ذهب إلى القبور أن يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ لهم، فهذه مشروعة.

وأيضًا من المشروع أن الإنسان يزور القبور حتى لو كانت لكفار، بشرط: أن لا يدعو لهم إنما يتذكر بهم الآخرة.

والدليل على ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زار قبر أمه قال: «اسْتَأْذَنْت رَبِّي أَنْ أَزُورَ قَبْرَ أُمِّي فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي» .

فإذا زار الإنسان قبور الكفار فإنه سبب أن يتذكر الآخرة.

الثاني: زيارة ممنوعة وهي أنواع:

الأول: زيارة شركية؛ بمعنى: أن الإنسان يذهب إلى القبور ويقع في الشرك، وصورة ذلك أن الإنسان يذهب إلى القبر فيسأله من دون الله فيقول للميت: يا فلان ارزقني بولد – مثلًا– أو يا فلان ارزقني بوظيفة، أو يا فلان اغفر ذنبي للميت، فهذا شرك في الربوبية وفي الألوهية، شرك في الربوبية وشرك في الألوهية.

شرك في الربوبية لأنه ظن أن غير الله عَزَّ وَجَلَّ يخلق ويوجد الشيء من العدم، قال: ارزقني بولد وهذا إيجاد من العدم.

وأيضًا شرك في الألوهية؛ لأنه تذلل وتعبد لغير الله وسأل غير الله.

الثاني: أن يذهب إلى القبور ويقول للميت: اسأل الله لي ما يدعوه يقول: اسأل الله لي، أو يقول: يا فلان اشفع لي عند الله؛ فهذا شرك في الألوهية، لأنه الآن في قوله: يا فلان،(الياء) ياء النداء فهو نادى غير الله، الآن وقع في نداء غير الله عَزَّ وَجَلَّ في أمر لا يقدر عليه إلا الله.

ولأنه لما ذهب إلى هذا القبر فإنه ذهب وقلبه مملوء تعظيمًا وحبًا وخشية لهذا الميت، ذهب وقلبه مملوء حبًا وخشية وتعظيمًا لهذا المقبور الميت، وهذه هي العبادة، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول:﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[الأعراف: ٥٥].

وقال:﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء: ٩٠]، هذه هي العبادة أن يكون الإنسان راهب راغب، فإذا توجه بهذه الرغبة والرهبة لغير الله فقد وقع الشرك.

الثالث: أن يزور القبور لأجل أن يدعو الله عندها، كأن يأتي عند القبر فيقول: اللَّهم إني أسألك أن تغفر ذنبي، اللَّهم وفقني لما تحب وترضى، فهذا بدعة ووسيلة من وسائل الشرك وهو لا يجوز، لأنه يؤول بالإنسان لتعظيم القبر وعبادته من دون الله.

الرابع: أن يزور القبر لتجديد الأحزان، كما لو جاء عند قبر أمه ثم بكى وجدد الحزن، فهذا منهي عنه.

والدليل على ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجد امرأة عند قبر وهي تبكي فناداها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ فقال: «اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي»، فقالت: إليك عني، وكانت لم تعرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: إليك عني، وكانت لم تعرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أُخبرت قيل لها: يا فلانة هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ارتجفت المرأة وذهبت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم تجد عنده بوابة فقالت: يا رسول الله إني لم أعرفك، قال: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَىٰ»، فتجديد الأحزان منهي عنه، هذه مسألة زيارة القبور.

ومن الفوائد: أن الذين يوقدون القبور بالأنوار ونحوه مما يُنهى عنه، فعلهم مما يُنهى عنه.

ولكن هذه اللفظة (والسُّرُج) يقول الألباني: أنها ما تثبت، ، ولكن معناها صحيح -والله أعلم-.

معناها صحيح فإن إسراج القبور أو البناء عليها أو وضع العلامات عليها، كل هذا منهي عنه، قد جاء فيه آثار يُنهى عن ذلك.

ولذلك البناء على القبور منهي عنه، والكتابة على القبور منهي عنها، وهو مُحرم أن يكتب الإنسان على قبر كما لو كتب -مثلًا- اسم الميت ووقت موته وحياته التي كان يعيش، أو يكتب -مثلًا- قصائد عند المقبور، فهذا محرم ولا يجوز.

وأيضًا البناء على القبر كما لو بنى قبة، أو بنى وضع عليه الجص، فهذا محرم ولا يجوز.

والدليل على ذلك: حديث جابر في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَاتَجْلِسُوا عَلَىٰ الْقُبُورِ وَلَاتُصَلُّوا إِلَيْهَا».

زاد سعيد بن منصور قال: «وَلَا تَكْتُبُوا عَلَيْهَا»، وهي زيادة صحيحة: «وَلَا تَكْتُبُوا عَلَيْهَا».

ففيه أن الإنسان يحذر من تعظيم القبور، لأن تعظيم القبور وسيلة وطريق موصل إلى الشرك، فالشرك إنما وقع لما بُني على القبور وعُظمت ثم وقع الشرك.

ولأن أول شرك وقع هو بسبب تعظيم القبور، ولذلك كما تقدم في قصة قوم نوح أنهم عكفوا على القبور فبنوا عليها ثم عبدوها الذين أتوا من بعدهم، فالقبور لابد أن الإنسان يحذر من تعظيمها، وذلك أن القلوب تتعلق بالموتى، أو قد تتعلق بالموت.

فمثلًا الآن الإنسان لو نام عند قبر ولم يعلم به ما علم به، فلو قام ورأى القبر لقام مرعوب يقول: كيف أنام عند قبر؟ أليس كذلك؟ بلى، وهذا يدلك على أن النفوس تتعلق بالميت وتخاف منه.

وأيضًا لأن من الناس من إذا أتى عند قبر خشع وذل لله ورأى أنه في وقت عبادة وذل، فهذا من أسباب تعظيم القبور الذي يؤول ويرجع إلى عبادتها من دون الله، لذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سد هذا الباب نهى عن ذلك كما تقدم، وأيضًا دعا الله عَزَّ وَجَلَّ أن لا يجعل قبره وثنًا يُعبد، فيُسد الباب.

فلذلك هذا الباب مهم وهو أن الإنسان يحذر من وسائل الشرك، ومن وسائل الشرك تعظيم القبور وخاصة إذا كانوا صالحين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في حماية المصطفىٰ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب ما جاء في حماية المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرص على الأمور التي تُحذر من الشرك، وأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ سد الطرق التي سبب في الوصول إليه، وأنه حمى جنابه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ.

قال:**باب ما جاء:** يعني: ما جاء من النصوص, **في حماية المصطفى**.

الحماية: هي الرعاية.

والمصطفى: هو المختار.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جناب التوحيد.

الجناب: ما يقارب الشيء؛ يعني: جانب الشيء.

وقوله:**التوحيد**؛ يعني: عقيدة التوحيد وهي شهادة أن لا إله إلا الله.

وسده؛ يعني: ووضع السد وهو المانع.

كل طريق يوصل إلى الشرك.

كل؛ يعني: الطرق التي سبب في أن يصل الإنسان إلى الشرك بسببها سد هذه الطرق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ.

قال: يوصل إلى الشرك؛ يعني: يكون سبب ووسيلة إلى الوصول إلى الشرك، فسد ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ بما بلَّغ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ وحذر من ذلك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ: }لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ{[التوبة: ١٢٨].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وقول الله تعالى:}لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ{.

في هذه الآية الكريمة: يُبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه بعث إلينا رسول يشق عليه ما يُعنتنا، وأنه حريص علينا، وأنه بالمؤمنين شديد الرحمة والرأفة، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حريص على هذه الأمة وحريص على المؤمنين أيضًا.

قال: وقول الله تعالى:}لَقَدْ{، (لقد) فيها ثلاث مؤكدات:

الأول: القسم المقدر.

الثاني: قد.

الثالث: اللام.

فهذه ثلاث مؤكدات.

قال:}جَاءَكُمْ{؛ يعني: أتاكم.

}رَسُولٌ{؛ الرسول هو الذي بُعث برسالة، وكلمة الرسول تشعر بثلاثة أمور:

الأول: أنه مرسَل.

الثاني: أن له مرسِل بالكسر.

الثالث: أنه معه شيء يبلغه.

فلفظة (الرسول) يشعر بهذه الأمور الثلاثة.

والرسول هو من بُعث برسالة وأُمر بتبليغها لقوم كافرين.

قال:}مِنْ أَنْفُسِكُمْ{ ،}مِنْ{، بيانية، و}أَنْفُسِكُمْ{؛ يعني: من جنسكم، فهو بشر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس ملك بل هو بشر من بني آدم.

وفي قراءة:(من أنفسَكم) بفتح السين؛ أي: من أفضلكم وأشرفكم، فهو أشرف الناس عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله:}عَزِيزٌ عَلَيْهِ.{

}عَزِيزٌ{؛ يعني: شاق يشق عليه، و}عَلَيْهِ{، الهاء عائدة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الضمير هنا عائد إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: شديد عليه.

}مَا عَنِتُّمْ{؛ يعني: ما يشق عليكم.

و قوله: }حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ{، الحرص: هو بذل الهمة في الشيء، حيث يحرص عليه و يداريه و نحو ذلك، فهو حريص عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

}حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ{،والضمير هنا عائد إلى الأمة،}حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ{؛ يعني: معشر هذه الأمة،}حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ.{

}بِالْمُؤْمِنِينَ{، المؤمنون هم الذين آمنوا بالله بقلوبهم، و أقروا بتوحيده بألسنتهم وعملوا بأوامر الله بجوارحهم واجتنبوا نواهيه؛ هؤلاء هم المؤمنون.

و قوله: }رَءُوفٌ{؛ الرأفة: هي أرق الرحمة فهي رحمة و زيادة، و فيها رقة؛ يعني: رقة للمرحوم بحيث أنه رق له و لا يحب أن يصيبها الشر فهي رحمة و زيادة فهي أخص من الرحمة، لأنها رحمة و معها شيء من الشفقة على المرحوم بحيث لا يحب أن يصاب بمكروه.

وقوله: }رَحِيمٌ{؛ والرحيم: هو الذي متصف بالرحمة،والرحمة هي بالنسبة للبشر معنى قلبي يقوم في قلب الإنسان فيرق للمرحوم.

في الآية الكريمة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جبله الله عَزَّ وَجَلَّ على صفات:

منها: أنه من جنسنا فهو بشر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ومنها: أنه لا يحب ما يشق علينا ما يحب هذا الشيء.

ومنها: أنه حريص غاية الحرص على هداية الأمة، هداية أمته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ومنها: أنه حريص على المؤمنين.

ومنها: أن من صفاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ الرأفة والرحمة، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ في قلبه رحمة ورأفة لأمته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ولذلك جاء في حديث جبريل كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم من الليل فبكى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ثم قال:«اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، فبعث الله عَزَّ وَجَلَّ جبريل إليه فقال: سله لما يبكي والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم، ثم قال:»يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى:«إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَانَسُوءُكَ».

فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ حريص على هذه الأمة، فإن كان كذلك فهو أشد ما يحرص عليه عادة ما يكون سبب في العذاب الذي لا ينتهي وهو الشرك، فمقتضى الرحمة أنه يحذرهم من هذا الشرك يحذرهم منه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**». رواه أبو داود بإسناد حسن، رواتُهُ ثقاتٌ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»، اللام لام النهي؛ يعني: لا تفعلوا هذا.

«**تَجْعَلُوا**»؛ يعني: تُصيروا.

«**بُيُوتَكُمْ**»؛ يعني: مساكنكم التي تأوون إليها وتبيتون فيها.

وقوله: «**قُبُورًا**»؛ يعني: بمثابة القبور لا يُصلى فيها ولا يُقرأ فيها ولا يُتعبد لله فيها.

وقوله: «**وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**»؛ أي: لا تُصيروا قبري عيدًا، والعيد من المعاودة بمعنى: أن تعاود الرجوع إليه الفينة والأخرى، بحيث أن الإنسان يذهب ثم يعود، يذهب ثم يعود، فكرر العود إليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

وقوله: «**وَصَلُّوا عَلَيَّ**»؛ يعني: أدعو الله عَزَّ وَجَلَّ لي بالصلاة، والصلاة من العبد هي الدعاء يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ، وصلاة الله عَزَّ وَجَلَّ على عبده هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، كما قال أبو العالية في صحيح البخاري، هذا أقرب ما قيل فيه.

وقوله: «**فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**».

«فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ»؛ يعني: دعاءكم بأن الله عَزَّ وَجَلَّ يُثني علي،«تَبْلُغُنِي»؛ يعني: يُبلغ هذه الصلاة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، وتبلغ إليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ«حَيْثُ كُنْتُمْ»،(حيث) ضرف مكان؛ يعني: في أي مكان كنتم من الأرض في المشرق أو المغرب أو غير ذلك.

«حَيْثُ كُنْتُمْ»؛ يعني: في أي مكان كنتم فيه.

قال:**رواه ابو داود بإسناد حسن، رواته ثقات.**

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أنه يُنهى عن تعطيل البيوت من الصلاة فيها؛ ولذلك قال:«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»، بحيث أنه لا يُصلى فيها ولا يُتعبد لله فيها.

وقد تقرر عند الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم أن المقابر لا يصلى فيها، ففيه أنه ينبغي للمسلم أن يصلي في بيته، والمراد هنا: صلاة النافلة لا الفريضة بالنسبة للرجل المخاطب بالصلاة؛ ولذلك قال:«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا».

ولذلك جاء في صيح مسلم قال:«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّمِنَ الْبَيْتِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»؛ يعني: لا يُقرأ فيها، فأفضل صلاة العبد في بيته إلا الفريضة إن كان ممن يخاطب بذلك.

ولذلك جاء في الصحيح من حديث زيد بن ثابت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«أَفْضَلَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَاّ الْمَكْتُوبَةَ»، فالأفضل للمسلم أن يصلي النافلة في بيته ويصلي الفريضة في المسجد.

من الفوائد: أنه لا يكرر زيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحيث يعود إليه مرة بعد مرة، فهذا يُنهى عنه بحيث أنه يأتي الصباح ثم يأتي العصر ثم يأتي، أو يكرر اليوم ثم غدًا ثم بعد غد ثم بعد غد، فهذا يُنهى عنه، والذي نهى عن ذلك هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا».

ولذلك كان ابن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ لا يأتي قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا إذا أراد أن يسافر أو إذا أتى من سفر، فكان الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم يمتثلون هذا.

وقد كره الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ أن يقول الرجل: زرت قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،: العلة -والله أعلم- أنه لئلا يكون في قلب الإنسان تعظيم لغير الله، ولكن زيارة قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشروعة إذا كان لا يشد لها الرحل وإذا كان لا يكرر ذلك، بقيدين:

القيد الأول: ألا يشد الرحل إليه؛ بمعنى: يكون في مكان بعيد فيذهب مسافة قصر إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا لا يجوز.

والدليل على ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لَا تَشُدُّواالرِّحَالإِلا إِلَىٰ ثَلَاثَةِمَسَاجِدَ:مَسْجِدِي هَذَا،وَالْمَسْجِدِالْحَرَامِ،وَالْمَسْجِدِالْأَقْصَىٰ»،

والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

وقوله:«لَا تُشَدُّ الرِّحَالَ»؛ يعني: تُشد لأجل التعبد هناك إلا لهذه المساجد.

القيد الثاني: ألا يكرر فإذا كان يكرر فلا يجوز.

والدليل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»، بحيث تأتون مرة بعد مرة، أما إذا كان يأتيه الإنسان بدون تكرار فإن هذا مشروع بل هو مستحب داخل في استحباب زيارة القبور، فهو داخل في ذلك.

ومن الفوائد: أن الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبلغه ممن كان في أي مكان في الأرض في المشرق أو المغرب أو غير ذلك؛ ولذلك قال:«وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

ولذلك قال بعض السلف: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء؛ يعني:في الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيصلي عليه المسلم في أي مكان كان من الأرض فإنها تبلغه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ.

ولذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ :«إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»، قالوا: يا رسول الله كيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أرمت -يعني: بليت-؟ قال:«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَىٰ الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ».

وهذا الحديث عند أبي داود من حديث أوس بن أوس صححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله: «تُعْرَضُ عَلَيَّ»؛ فيه دليل على أن الصلاة تُعرض علي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالصلاة تعرض عَلَيْهِ ، فإذا صليت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرض صلاتك عليه، فلان بن فلان صلى على النبي فتعرض على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما عرض الأعمال على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعمال أمته فقد ورد فيها آثار:

منها: ما جاء عند البزار أنه روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ، فإذا رَأَيْتُ فيها ما هو سيء اسْتَغْفَرْتُ اللهَ لَكُمْ»، ولكن هذا الحديث قال ابن القيم: أنه لا يصح .

فالأقرب -والله أعلم-: أنه لا يعرض عليه أعمال الأمة.

والدليل: أنه جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين يقوم على الحوض يذاد عنه رجال -يعني: يُرد- فيقول: «أَصْحَابِي أَصْحَابِي فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَاأَحْدَثُوابَعْدَكَ»، فيه دليل على أنه ما يعلم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأما الصلاة فهي تعرض عليه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن علي بن الحسين أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا يَجِيءُ إِلَىٰ فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُ فيها فَيَدْعُوا فَنَهَاهُ فَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْته مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ». رواه في المختارة.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وعن علي بن الحسين:** علي بن الحسين هو زين العابدين وهم أفضل التابعين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: **أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا**؛ (رَجُلًا) هنا نكره ولا يضر معرفة هذا الرجل، لأن المراد معرفة القصة دون معرفة الشخص، فالحكم ما يتغير.

أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ؛ يعني: يأتي إلى فُرجة والفُرجة هي الفتحة، وقد كان قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه فتحة يأتي الشخص قريب منه إذا أراد أن يُسلم .

قال:**كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُ فيه فَيَدْعُو**؛ يعني: يدخل في هذه الفتحة فيدعو الله عَزَّ وَجَلَّ.

فَنَهَاهُ؛ يعني: نهاه علي بن الحسين زين العابدين.

فَنَهَاهُ، قال: لا تفعل هذا لا تدعو عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال:**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْته مِنْ أَبِي**، يعني أبيه من؟ الحسين.

عَنْ جَدِّي؛ يعني: عن علي.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ؛ يعني: جد أبيه من جهة أمه جد الحسين.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ:«لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»؛ أي: لا تكثروا المعاودة إليه مرة بعد مرة، هذا كما مر معنا في الحديث الذي قبله قال.

«وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»؛ يعني: لا تُصيروا بيوتكم قبورًا بحيث لا يُصلى فيها ولا يُتعبد الله فيها.

قال:**«وصلوا علي»**؛ يعني: أثنوا علي وادعوا الله عَزَّ وَجَلَّ أن يصلي عليه.

«فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ»؛ يعني: صلاتكم تبلغني حيث كنتم؛ يعني: في أي مكان كنتم من الأرض، فيُبلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة أمته عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

قال:**رواه في المختارة**، والمختارة للضياء المقدسي رَحِمَهُ اللهُ.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أن تصحيح ضياء في المختارة أقوى من تصحيح الحاكم رَحِمَهُم اللهُ جميعًا.

هذا الآثر فيه فوائد:

من فوائد الأثر: أنه لا يُدعى عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يؤتى عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعمد هذا الشيء ثم يدعو، لأن علي بن الحسين نهى عن ذلك وأخبر

أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك، فالدعاء عند القبر لا يجوز لأنه وسيلة إلى الشرك.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك وسد هذا الطريق، لأن الدعاء عند القبر قد يجلب للإنسان تعظيم هذا الميت ثم يسأله من دون الله بسبب هذا الشيء، ولذلك يُنهى عن الدعاء عند القبور، ولكن الدعاء عند القبور لا يخلو فيه الإنسان من حالات:

الحالة الأولى: أن يأتي مع الجنازة –مثلًا- فيسلم ،ويدعو للموتى عامة ويدعو لنفسه معهم ما يخص نفسه، فيجوز أن يدعو للموتى ولنفسه معهم، كما جاء في الحديث:«وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُمْ»، وكما جاء في الحديث أنه يدعو لهم وله، ولكن لا يخص نفسه عند القبور.

الحالة الثانية: أن يأتي زائر للقبور فيسلم أيضًا ويدعو لهم ولنفسه تبعًا، يجوز أن يدعو لنفسه تبعًا فيقول: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين أنتم السابقون ونحن اللاحقون يغفر الله لنا ولكم، نسأل الله لنا ولكم العافية، هذا ادعى لنفسه ولهم.

الحالة الثالثة : أن يأتي للقبور ثم يدعو لنفسه خاصة، هذا من أسباب وسائل الشرك وتعظيم القبور فلا يتعمد أن يأتي عند القبور فيدعو لنفسه خاصة لأنه إذا فعل ذلك فهو دليل على أنه جعل هذه البقعة لها مزية.

ولذلك القبور ما يُدعى عندها للنفس خاصة، لأن هذا من الأسباب والوسائل إلى الشرك وتعظيم القبور.

ومن الفوائد: أنه يجوز زيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما نهى عن ذلك ما قال لا تزر قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففيه دليل أنه جائز،ولكن المنهي عنه أن يدعو عنده، ولذلك أنكر عليه الدعاء عند القبر ولم ينكر عليه زيارة القبر.

وزيارة القبور مشروعة كما تقد بالنسبة للرجال مستحبة، ولكن لا يخصص يوم معين يأتي للقبر فيه، بمعنى: يجعل –مثلًا- يوم من الأسبوع يأتي فيه للقبر كالجمعة –مثلًا- كل جمعة يأتي للقبر لأن هذا التحديد لابد له من دليل، والعبادات توقيفية.

ولكن إذا عرض له أن أتى الجمعة في يوم من الأيام بدون تخصيص فهذا جائز، أما أن يحدد يوم الجمعة من كل أسبوع يأتي فيه فهذا التحديد لابد فيه من دليل.

ومن الفوائد: حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إبعاد هذه الأمة عن وسائل الشرك، ولذلك قال: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ سد الطرق الموصلة إلى الشرك.

ففي هذا الأثر: أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ حذر هذه الأمة من وسائل الشرك، ومن وسائل الشرك: تعظيم القبور والدعاء عندها والصلاة عندها والدعاء عندها، وقراءة القرآن أيضًا عندها، وأيضًا الصدقة عندها.

وهنا مسألة يقع فيها بعض الناس: وهو أنه إذا رأى الناس يأتون بالجنازة أتى بالماء فتصدق على الناس بهذا الماء وهذا لا ينبغي، لماذا؟ لأن هذا الرجل لما أتى بالماء ظن أن هذه الصدقة هنا لها مزية، قد يظن أن لها مزية يعني الصدقة عند القبور، فإذا أراد أن يفعل ذلك فاليضع الماء خارج المقابر خارج السور ، ومن أراد أن يشرب إذا خرج يشرب، والناس ليسوا بحاجة للماء، وإن كانوا عطشى فيشربون خارج المقابر لا داخل المقابر.

ولذلك مسألة القبور من المسائل التي يُشدد فيها، موضع الموتى لابد أن يُبتعد عنه، لأن الفتنة في القبور عظيمة.

ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر حياته يقول: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، كان يحذر من ذلك في آخر حياته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

بل في مرضه الذي مات فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ كان يلعن اليهود والنصارى لأنهم فعلوا ذلك، وهو يُخبر أنهم لُعنوا لفعلهم ذلك، فالفتنة في القبور عظيمة.

ولذلك أول شرك وقع في بني آدم هو بسبب تعظيم القبور، لأنه مر علينا قول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: قال غير واحد من السلف أنهم عكفوا على قبورهم، هذا الأول، ثم، (ثم)

تفيد الترتيب، ثم صوروا تماثيل، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، فالفتنة في القبور من أشد ما يكون.

فلابد للمسلم أن يحذر غاية الحذر من القبور، والإنسان مع القبور لابد أن يكون بين أمرين:

الأول: أن يحذر من التعظيم، لأن هذا الإنسان ميت ما تعظمه مات ذهب إلى الدار الآخرة، فهو في حياة تختلف عن الحياة التي أنت فيها.

وأيضًا يحذر من إهانة القبور لا يهين هذه القبور وخاصة إذا كانت لمسلمين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما ذكر الشرك وصور منه وذكر التوحيد وفضله والخوف من ضده وهو الشرك بيَّن في هذا الباب أن هذه الأمة وهي أمة الدعوة سيقع في بعضها الشرك؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بذلك, ويريد الرد على من أنكر ذلك.

قال:**باب ما جاء أن بعض:**البعض يعني: الجزء من هذه الأمة.

قال:**باب ما جاء أن بعض:** يعني: جاء في النصوص.

أن بعض هذه الأمة: الأمة هنا الظاهر والله أعلم: أنها أمة الإجابة.

قال:**يعبد الأوثان:** يعني: يتذلل ويخضع ويتعبد للأوثان, والأوثان جمع وثن, وهو كل ما عُبد من دون الله على أي صورة كان.

ففيه: أن من هذه الأمة من سوف يعبد الأوثان, ففيه رد على الذين أنكروا ذلك.

وقد ورد آثار استدلّ بها من يُنكر أن هذه الأمة يقع فيها الشرك:

منها ما جاء في صحيح مسلم من حديث جابر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ».

قالوا: أن هذا الحديث يدل على أن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة, وهذا ليس بالصحيح, لأنه ورد من الأدلة ما يدل على أن الشرك سيقع في بعض هذه الأمة.

منها ما جاء في الصحيح من حديث عائشة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ».

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَىٰ ذِي الْخَلَصَةِ».

وقد وقع الشرك في هذه الأمة, قد وقع في بعض هذه الأمة كما هو مشاهد, فوقع عبادة القبور ووقع الشرك.

وأما الجواب عن حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ», فالجواب عن هذا الحديث من وجوه:

الأول: أن الشيطان آيس في نفسه وظن أن الشرك قد انمحى, ولم يعتقد في نفسه أنه سيقع الشرك, فوقع بخلاف ما ظن فهو آيس في نفسه ولم يؤيَّس.

وجواب آخر أيضًا: أن الحديث يراد به من كان في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم, لأن الصحابة الإيمان في قلوبهم مثل الجبال فلا يمكن أن يقع منهم الشرك أبدًا؛ ولذلك قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ».

وأيضًا من الأجوبة: أن (ال) في المصلين للعهد, يعني: الذين يقيمون الصلاة ويحافظون عليها ويداومون على عبادة الله, فهؤلاء لا يمكن أن يقعون في الشرك, لأنهم بلغوا في العبادة مبلغ.

والأقرب والله أعلم: أن الشيطان لما رأى الفتوحات ورأى الإسلام انتشر في مشارق الأرض ومغاربها -كما سيأتينا في الحديث- أنه عند ذلك آيس, وقع في قلبه أن الشرك قد انمحى ولا يمكن أن يقع؛ ولذلك ذهب إلى التحريش بينهم, ثم بعد ذلك وقع الشرك كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ: }أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا{[النساء: ٥١].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

في هذه الآية الكريمة يبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حال أولئك الذين أوتوا نصيبًا من العلم وأعطوا شيئًا من العلم, أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون عن المشركين أنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلًا, ففيها أن حالهم لا تُرضي.

قال:}أَلَمْ تَرَ إِلَى{؛ يعني: ألم تنظر وتعلم.

}أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا{؛ يعني: أُعطوا,}نَصِيبًا{؛ يعني: حظًّا,}مِنَ الْكِتَابِ{؛ يعني: من العلم.

والمراد هنا بهم: فرقة من اليهود,}أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ{؛ يعني: من العلم,}يُؤْمِنُونَ{؛ يعني: يُصدقون,}بِالْجِبْتِ{, والجبت: كلمة تطلق على الساحر وعلى الشرك ونحوه.

}وَالطَّاغُوتِ{, الطاغوت: أيضا كلمة تطلق على عبادة الأوثان وعبادة الشيطان ونحو ذلك.

}يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ{؛ يعني: هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يقولون,}لِلَّذِينَ كَفَرُوا{؛ يعني: للمشركين الذين في مكة,}هَؤُلَاءِ{؛يعني: هؤلاء المشركين,}أَهْدَى{؛ يعني: أصوب,}مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا{؛ يعني: من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وأصحابه, وذلك أن هذا الرجل الذي أتى إلى قريش قالوا له: أنحن أهدى أم محمد؟ فقال: بل أنتم أهدى, فردَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عليه بهذه الآية الكريمة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله تعالىٰ: }قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ{[المائدة: ٦٠].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: وقوله تعالى: }قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ{[المائدة: ٦٠].

في هذه الآية الكريمة يبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حال اليهود الذين جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أنهم شر مكان وأضل سبيل مما قالوا في المسلمين؛ لأنهم قدحوا في المسلمين, فردَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم.

قال: وقوله تعالى: }هَلْ أُنَبِّئُكُمْ{, (هل) هنا استفهام.

}هَلْ أُنَبِّئُكُمْ{ ,}أُنَبِّئُكُمْ{؛ يعني: أخبركم.

}بِشَرٍّ{؛ يعني: بشر مما قالوا, فهم قالوا قولًا كذبًا وزورًا, ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ ردَّ عليهم بأنهم أشر.

}بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ{؛ يعني: مما قالوا,}مَثُوبَةً{؛ يعني: جزاءً,}عِنْدَ اللَّهِ{؛ يعني: من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى},مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ{؛ يعني: طرده من رحمته,}وَغَضِبَ عَلَيْهِ{؛ يعني: غضب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه,}وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ{؛ يعني: جعل من,(من) هنا للتبعيض, يعني:

منهم القردة -القردة المعروفة- بحيث أن الله عَزَّ وَجَلَّ قلبهم إلى قردة, وهم أصحاب السبت الذين عتوا في السبت.

}وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ.{

والخنازير: هي المعروفة.

وهم أيضا من أصحاب السبت.

وقيل: أن القردة هم أصحاب السبت من اليهود, والخنازير هم الذين كذبوا بالمائدة التي أنزلها الله عَزَّ وَجَلَّ من النصارى.

وقيل: أنهم جميعا من اليهود, القردة في الكبار والخنازير في الشباب.

}وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ{, أيضا جعل منهم من يتعبد ويتذلل للطاغوت.

}أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ{؛ يعني: هؤلاء هم شر مكان في الآخرة؛ لأنهم -نسأل الله العافية- يصلون إلى النار.

}وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ{؛ يعني: أضل عن الطريق المستقيم, فأولئك هم الضُلَّال, و هم الذين جعل الله عَزَّ وَجَلَّ منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله تعالىٰ: }قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا{[الكهف: ٢١].

|

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:وقوله تعالى: }قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا{[الكهف: ٢١].

في هذه الآية الكريمة:فيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر عن حال أصحاب الكهف الذين وُجدوا فيه وهم الشباب الذين خرجوا بدينهم, فوجدوا فيه بعد موتهم, أو أنهم لما عثروا عليهم وماتوا, فاختلفوا فيهم الذين وجدوهم:

فقال بعضهم: نتخذ عليهم مسجدًا, وهم الأكابر.

وقال الآخرون: بل نبني عليهم بنيان ونتركهم.

قال:وقوله تعالى: }قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا{؛ يعني تسلطوا وكان لهم السلطة والقدرة غلبوا على أمر أولئك أصحاب الكهف.

}عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ{؛ يعني:لنَفعلَنَّ, واللام هنا موطئة للقسم, وفيها مؤكِّد النون المشددة المثقلة, فهي مؤكدة.

}لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا{؛ يعني:لنَبنيَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا يُصَلَّى فِيه.

وهذه الآية الكريمة فيها إخبار عن حال أولئك وليس مدح لهم, بل هو مجرد إخبار؛ ولذلك لا يُستدل بهذه الآية على بناء القبور على المساجد؛ لأن هذا مجرد إخبار من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وقد بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن اتخاذ القبور على المساجد محرم ولا يجوز؛ لأنه قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

فلا يُستدل بهذه الآية الكريمة على البناء على القبور؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَّر القرآن وبيَّنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ, فهذا مجرد إخبار.

كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ», فقوله: "أنا بن عبد المطّلب"؛ هذا مجرد إخبار, مع أنه لا يجوز أن يُعبَّد لغير الله, ففرق بين الإخبار وبين الأمر.

والآيات الكريمات التي تقدمن هن في أهل الكتاب, المؤلف أتى بهؤلاء الآيات لأن من هذه الأمة من سيتبع اليهود والنصارى, فأتى بالآيات أولًا ثم ذكر الحديث بعد ذلك, إذ لو قرأ أحد الناس من هذه الآيات ما عرف المناسبة حتى يقرأ الأحاديث بعدها, فيعرف أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يبين أن من هذه الأمة من سيتبع اليهود والنصارى في بناء المساجد على القبور أو الإيمان بالجبت والطاغوت أو غير ذلك مما وقع فيه أولئك؛ ولذلك سيبين في الحديث الذي بعده.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن أبي سعيد رَضِي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فَمَنْ؟». أخرجاه.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: عن أبي سعيد رَضِي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لَتَتَّبِعُنَّ»؛ يعني: لتسلكنَّ,وهذه اللفظة موطئة للقسم, وأيضا فيها نون التوكيد المشددة المثقلة.

قوله:«سَنَنَ», روي بفتح السين والنون والنون(سَنَنَ)؛ يعني: طريق, والأشهر الفتح,وروي بالضم (سُنَنَ), جمع طُرق, يعني: طُرق الذين من قبلكم, والفتح أشهر.

قال:»سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ يعني: من الأمم الماضية وهم اليهود والنصارى كما عيَّنهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ في آخر الحديث.

قال:«حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ», القذَّة: هي ريشة السهم, والسهم له ريشتان, وهاتين الريشتين متوازيتين, فكما أن هذه القذة مساوية لهذه القذة فسيكون منكم من يفعل هكذا في اتباعه لليهود والنصارى.

قال:«حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ»,(حتى) هنا يعني: لو حصل منهم هذا.

والظاهر والله أعلم :أنها للغاية, حتى يعني لو حصل منهم هذا الشيء.

«لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ»؛ يعني: لو دخل أولئك القوم جحر ضب, والضب: معروف.

وذكر جحر الضب لأن جحر الضب يكون ملتف وضيق, حتى لو دخلوا هذا الجحر الضيق الملتف لدخلتموه.

هذا يدل على أن من هذه الأمة من سيتبع اليهود والنصارى ويسلك طريقهم,إلا من عصم الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك قال:«لَدَخَلْتُمُوهُ»؛ يعني: لو قُدِّر أن هذا اليهودي أو هذا النصراني دخل جحر الضب مع ضيقه ومع التوائه لدخل المتبع لهم من هذه الأمة معه.

ثم سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قالوا يا رسول الله: يعني قال ذلك الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ هذا استفهام.

قال:«فَمَنْ؟»؛ يعني: من القوم غير ذلك, يعني هم اليهود والنصارى, وهذا الاستفهام هذا جوابه, كأنه قال نعم هم اليهود والنصارى, ولكن أتى بهذا اللفظ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ليشعر أنه لا أحد غير اليهود والنصارى

أخرجاه: يعني أخرجه البخاري ومسلم.

ففي هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن من هذه الأمة من سيتبع الأمم الماضية, كاليهود والنصارى, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقسم وهو الصادق المصدوق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ الذي لا ينطق عن الهوى, والاتباع سيكون من بعض الأمة وليس الكل, والمقصود: أن من هذه الأمة من سيتبع من كان قبلنا, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقسم على ذلك.

ومن الفوائد: أن الاتباع سيكون في غاية الاتباع ونهايته, بحيث أنه سيفعل فعلهم.

ولذلك جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال:«حتَّىٰ إنْ كانَ منهم من أتَىٰ أمَّهُ عَلانيةً لكانَ في أُمَّتي من يصنعُ ذلكَ», وإن كان الحديث فيه مقال ولكن له شواهد في بعض ألفاظه, وهذا يدلك على شدة الاتباع.

ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ», والسهم ما تختلف الريشة عن الأخرى.

ومن الفوائد: أن من هذه الأمة من سيسلك طريق اليهود والنصارى حتى ولو كان فيه هلاكه؛ لأنه قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ»:حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ.«

ففيه دليل على أن من هذه الأمة من سيتبع اليهود والنصارى, حتى لو كان في هذا السبب هلاكه.

ومن الفوائد: أن هذا الحديث مبيِّن للآيات التي ساقها المؤلف في الباب؛ لأن الآيات التي مرت في أهل الكتاب وفي الحديث ما يبين أن من هذه الأمة من سيفعل فعل أهل الكتاب؛ ولذلك هذا الحديث بيّن الباب.

ومن الفوائد: أن من هذه الأمة من سوف يكون منهم بناء المساجد على القبور, وقد وقع, ولذلك في كثير من أماكن الآن في بلاد المسلمين تجد أن فيها قبور في المساجد, وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من هذه الأمة من سوف يتبع اليهود والنصارى.

ولذلك المؤلف ذكر الآية قوله تعالى:﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[الكهف: ٢١].

فقد وقع من بعض الناس من بنى المساجد على القبور, كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهذا للتحذير, والمسلم إذا سمع مثل هذه النصوص يحذر ويكون على حذر, ويكون وجل, ويتق الله عَزَّ وَجَلَّ ويحذر من هذه الأفعال؛ لأنه إذا سلك هذا الطريق فقد سلك طرق من كان قبلنا الذين حذروا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طرقهم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولمسلم عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».ورواه البرقاني في صحيحه.

وزاد: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَيكم الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وُقِعَ عليهم السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلْحَقَ حيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.»

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديث حديث عظيم, وفيه آية من آيات الله عَزَّ وَجَلَّ, وفيه ما أخبر بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من معجزات نبوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال: ولمسلم عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ»؛

يعني: جمع لي الأرض حتى رآهاعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ, فجمع له الله عَزَّ وَجَلَّ الأرض.

«فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا»؛ يعني: رأى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ المشرق والمغرب, فرأى جميع الأرض إلى المشرق وجميع الأرض إلى المغرب.

قال: «وَإِنَّ أُمَّتِي»؛ يعني: أمة الإجابة, «سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا»؛ يعني: ما تملك ويدخل الإسلام, «مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»؛ يعني: ما ضُم إلي منها وهو المشرق والمغرب, وقد وقع ذلك.

قال: «وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ»؛ يعني: أُعطي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ الكنزين, والكنزان وقع أخذهما بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فأخذ أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الكنوز, لأنهم أتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيضافون إليه.

قال: «وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ», الأحمر: عبارة عن الذهب, وهو كنز قيصر, وكان غالب ما يكون عندهم الذهب.

«وَالأَبْيَضَ», والأبيض: عبارة عن الفضة واللآلئ والجوهر, وهو غالب ما كان عند كسرى.

وذلك أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم فتح الله عَزَّ وَجَلَّ بهم هذه البلاد.

قال: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي»؛ يعني: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا الله عَزَّ وَجَلَّ وسأله.

يقول: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ»؛ يعني: سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن لا يُهلك أمته بقحط عام بحيث يموتون جميعًا بسبب قحط, سأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن لا يحصل ذلك.

«وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ.»

«وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ»؛ يعني: يقوي عليهم, فيكون مقوى عليهم ويغلبهم, «عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ»؛ يعني: من غيرهم, كأن يأتيهم من الخارج فيُسلط عليهم حتى يغلبهم, سأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن لا يكون ذلك.

«فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ»؛ يعني: يستبيح الأماكن التي تكون بساحتهم, البيضة: هي الساحة وما يقارب القوم.

«وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً»؛ يعني: القضاء هنا قضاء كوني.

وقول الله عَزَّ وَجَلَّ» :إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً –يعني: قدرت أمر كوني– فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ»؛ فلابد أن يقع, ما قدَّر الله عَزَّ وَجَلَّ كونًا فلابد أن يقع, لو اجتمع الإنس والجن والخلق جميعًا على أن يردوه ما استطاعوا ذلك, لأنه لابد أن يقع, فما قدَّر الله عَزَّ وَجَلَّ واقع لا محالة؛ ولذلك قال: «فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ.»

«وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ»؛ يعني: استجاب الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه في أمر الأمة أمور.

قال: «أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ»؛ يعني: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أمَّن هذه الأمة أن لا يقع عليها قحط عام, فهذا لا يمكن أن يقع قحط عام فيموت جميع أتابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, هذا ما يمكن أن يكون, لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قدَّر كونًا ولا يمكن أن يقع.

قال: «وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ», وهذا أيضًا لا يمكن أن يُباد الإسلام عن الأرض أبدًا؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قدَّر كونًا أن الإسلام باقي, فلو اجتمع أهل الأرض على أن يبيدوا الإسلام ما استطاعوا لذلك سبيلًا؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ منع ذلك كونًا ولا يمكن أن يقع, ما منعه الله عَزَّ وَجَلَّ لا يمكن أن يقع.

قال: «وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ»؛ يعني: لا أُقوي ولا أجعله متسلط عليهم, «عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ»؛ يعني: ينزل بساحتهم ويقتلهم, فهذا لا يمكن أن يقع, فمنعه الله عَزَّ وَجَلَّ.

«وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا»؛ يعني: من بأقطار الأرض, فلو أتوا من اليمين والشمال والأمام والخلف على أن يبيدوا الإسلام ما استطاعوا لذلك سبيلًا؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ منع ذلك.

«حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا»؛ يعني: إذا حصل هذا بحيث أن المسلمين بدأوا يقتتلون فيما بينهم.

»حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا«, فإذا وقع هذا فسُلط عليهم عدو من سوى أنفسهم.

لذلك إذا اقتتل المسلمون بينهم سُلط عليهم الأعداء, وهذا كما هو واقع, إذا وقع بين المسلمين اقتتال تسلط عليهم الأعداء, وإذا كانوا يدًا واحدة كان الأعداء في خوف ووجل منهم, هكذا هو الواقع.

قال: ورواه البرقاني في صحيحه: يعني: روى هذا الحديث, وأيضًا رواه أبو داود.

قال: »وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَيكم الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ«, يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ إنما أخشى على أمتي –يعني أتباعي– الأئمة, الأئمة: هم المتبوعون, كالأمراء, والعلماء, والعُبَّاد ومن اتَّبع.

»الْمُضِلِّينَ«؛ يعني: الضالين عن الطريق المضلين لغيرهم.

ولذلك قال: »الْمُضِلِّينَ«؛ فهم يضلون غيرهم مع ضلالهم ويذهبون بهم عن سواء الطريق.

قال: «وَإِذَا وُقِعَ عليهم السَّيْفُ»؛ يعني: إذا وقع على هذه الأمة السيف, «لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»؛ إذا وقع السيف فلا يرتفع إلى يوم القيامة, وقد وقع السيف في عهد عثمان رَضِي اللهُ عَنْهُ لما خرج عليه الخوارج فقتلوه رَضِي اللهُ عَنْهُ, وما زال السيف في هذه الأمة إلى أن يشاء الله عَزَّ وَجَلَّ إلى يوم القيامة, كما وقع في التاريخ, فوقع السيف في مقتل عثمان إلى يومنا هذا, إلى يوم القيامة كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فالقتل وقع؛ ولذلك قال: «وَإِذَا وُقِعَ عليهم السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

«وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ»؛ يعني: ما يمكن أن يذهب الليل والنهار وتأتي الساعة يعني القيامة, «حَتَّىٰ يَلْحَقَ حيٌّ», الحي: واحد الأحياء, وهو القبيلة ونحو ذلك.

«حيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ»؛ يعني: يلحقون بهم, الظاهر والله أعلم: بالعبادة؛ بحيث أنهم يشركون كما أشركوا, وليس في المكان, , وقد يذهبون إلى أماكنهم مع التعبد معهم.

«وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ فِئَامٌ»؛ يعني: جماعات, «مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»؛ يعني: يتعبدون للأوثان, فهذا فيه دليل على أنه سيقع في هذه الأمة الشرك.

قال: «وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ».

(وَإِنَّهُ)؛ يعني: أن هذا سيقع, «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي»؛ يعني: في هذه الأمة, «كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ»؛ يعني: ثلاثون رجل كذابون يكذبون, «كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ», كلهم يقول: أنا نبي مرسل من الله, وقد وقع كثير ممن اشتهر, كالأسود العنسي, ومسيلمة الكذاب, وغيرهم, وأيضًا في الوقت الحالي في الهند القدياني, وآخرهم الكذاب الأعور.

وليس المراد من ادَّعى النبوة, لأن من ادَّعى النبوة كثير, ولكن المراد الذين لهم شوكة وكان لهم أتباع, لأنه قد يدَّعي النبوة من هو مجنون, يقول: أنا نبي أنا نبي وهو مجنون, لكن المراد والله أعلم: أنهم الذين كان لهم شوكة وأتباع.

قال: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»؛ أي: أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ خُتم به النبوة, فلا نبي بعده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

«لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي», طائفة: يعني جماعة, لا تزال, هذا يدل على الاستمرار.

«مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ»؛ يعني: على الصواب وعلى شرع الله عَزَّ وَجَلَّ, «مَنْصُورَةً»؛ يعني: ينصرهم الله عَزَّ وَجَلَّ ويُظهرهم ولا يستطيع أحد عليهم.

«لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ»؛ يعني: لا يضرهم من خذلهم وترك اعتنهم.

«حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»؛ وذلك بهبوب الريح التي تأتي من الشام فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة, فلا يبقى في الأرض أحد.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه جمع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأرض حتى رآها كالمرآة, فرأى المشرق ورأى المغرب, فرآها رأي عين.

ومن الفوائد: أن أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستبلغ المشرق والمغرب, ولا يدخل في ذلك الشمال والجنوب, وهو وقع كما أخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ولذلك يقول بعض العلماء: أن الواقع أنه انتشر الإسلام إلى المشرق والمغرب, بخلاف الجنوب والشمال, فما انتشر مثل انتشاره في المشرق والمغرب.

ومن الفوائد: أن كنوز كسرى وقيصر ستُفتح, وقد حصل ذلك في زمن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم, وسيقت لعمر الكنوز رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

ومن الفوائد: أنه لا يمكن أن يقع على هذه الأمة هلاك بسبب قحط يصيب الأمة فتموت جميعًا, هذا لا يمكن أن يقع؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أعطى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يقع ذلك.

ومن الفوائد: أنه لا يمكن لأعداء المسلمين أن يقتلوهم جميعًا أو أن يسلطوا عليهم؛ بحيث يقع لهم الغلبة على المسلمين؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك فأعطاه إياه.

ومن الفوائد: أن قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ إذا قضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لابد أن يقع, وهذا القضاء الكوني.

وذلك أن قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ ينقسم إلى قسمين: قضاء كوني, وقضاء شرعي.

فأما الكوني فلابد أن يقع, ولابد أن يقع كما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيه قال: «إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ».

ومن الفوائد: أن الأمة إذا اختلفت فإنها قد يُسلط عليها الأعداء, فإذا وقع الاختلاف بين الأمة وقع التسلط من الأعداء.

ولذلك من أسباب قوة المسلمين أن يجتمعون, الراعي مع الرعية, والإمام مع رعيته, ويكونون يد واحدة, لأن الأعداء إذا رأوا أن المسلمين يدهم واحدة خافوا منهم. والمقصود: أن المسلمين عليهم أن يكونون يد واحدة.

ولذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لحذيفة عندما تخرج الفتن آخر الزمان: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ».

فكن مع الجماعة, لا تخالف الجماعة, ولا الإمام هذا وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة.

ولذلك قال في صحيح مسلم: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ».

فلا تخالف, لأن الخلاف شر, إذا وقع الخلاف بين المسلمين وبين حكامهم وقع الشر وتسلط الأعداء, لأن الأعداء لا يحبون الاجتماع للمسلمين, ولا يحبون للمسلمين النصر, ولا يحبون للمسلمين الفوز بالمطلوب, بل يريدون لهم الهلاك.

ولذلك على المسلم العاقل أن يلزم جماعة المسلمين وإمامهم, كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأوصى حذيفة بذلك, قال: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ», فيكون المسلمون لهم شوكة ومنعة.

ولذلك إذا اقتتلوا فيما بينهم تسلط الأعداء, فيكون طريق أمام الأعداء سهل ميسر؛ لأن القتال إذا وقع في الداخل أتى الخارج, وإذا قوي الداخل كان هذا سبب بإذن الله أن يخاف الخارج.

ومن الفوائد: أن مما يُخشى على هذه الأمة الأئمة المضلين, وهم المتبوعون الذين لهم أتباع والذين هم على ضلال, فإذا حصل من المتبوعين ضلال وأمروا الناس بذلك أو سنوا لهم ذلك فهذا مما يُخاف.

ولذلك قد يكون الإمام إمام في الضلال, كحال فرعون, فإنه إمام ولكنه في الضلال.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: }يَقْدُمُ قَوْمَهُ{؛ يعني: إمامهم يقتدون به, }يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ{[هود: ٩٨].

فالإمام قد يكون إمام في الضلال ويُقتدي فيه في الضلال, فهذا مما خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته.

ومن الفوائد: أن السيف إذا وقع في هذه الأمة ما يرتفع؛ لأنه قال: «وَإِذَا وُقِعَ عليهم السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ», وقد وقع السيف حين قُتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ, وقُتل وهو فوق الثمانين, وقُتل والمصحف في يده, وكان الخوارج أنَّبوا عليه واجتمعوا وكانوا يقدحون فيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لأنه كان أناس في مصر وفي غيره من البلاد يأتيهم رسائل أن عثمان فعل كذا وعثمان فعل كذا, حتى شُحنت قلوب الناس, فخرجوا على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو فوق الثمانين, وكان

في ذلك اليوم صائم رَضِي اللهُ عَنْهُ, ودخلوا عليه وقتلوه رَضِي اللهُ عَنْهُ, وقال عثمان لابن عمر: "أتراني أترك هذا الشيء؟", يعني: أترك الخلافة؟ قال: "لا تنزع ثوبًا ألبسك الله عَزَّ وَجَلَّ إياه", وهي الإمامة.

لذلك العلماء اختلفوا, هل للإمام أن يخلع نفسه؟

بعض العلماء قال: لا يجوز له أن يخلع نفسه, يجب عليه أن يبقى, ويجب على الرعية إذا قُتِل بغير حق أن يُقاتلوا معه.

ولذلك قُتل رَضِي اللهُ عَنْهُ ووقع قطرة من الدم على قوله تعالى: }فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ{[البقرة: ١٣٧].

قيل:أنهم قُتلوا ما بقي منهم أحد يعني الذين قتلوا عثمان رَضِي اللهُ عَنْهُ, إلا رجل كان يطوف حول الكعبة ويقول: "اللّهم اغفر لي ولا أظن أن تغفر لي", فسمع رجل فقال: أعوذ بالله, ما هذا الكلام؟! قال: "إني دخلت على عثمان فصفعته وهو ميت, فشُلَّت يدي, فخت عند ذلك".

ولذلك لما وقع السيف وقع الفتن؛ ولذلك الإنسان يحذر ويكون على حذر.

ومن الفوائد: أن من هذه الأمة من سيتبع المشركين في عبادتهم.

ولذلك قال: «يَلْحَقَ حيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ», كما تقدم في حديث عائشة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ» .

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ في حديث أبي هريرة: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَىٰ ذِي الْخَلَصَةِ», وهو طاغية دوْس.

فهذا خبر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيقع.

ومن الفوائد: أنه سيخرج كذابون ثلاثون كلهم يدَّعي أنه رسول الله.

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ» .

وقد وقع في التاريخ شيء من ذلك, كمسيلمة الكذاب في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, والأسود العنسي, وغيرهم ممن ادَّعى النبوة.

ومن الفوائد: أنه لا يزال في هذه الأمة من هو على الحق ومنصور ولا يضره من خذله, فالطائفة المنصورة لابد أن تبقى, والطائفة المنصورة التي نُصرت في الدنيا بالعلم والبيان, وأيضًا بالسيف والسنان غالبا, وإن كانوا قد يقع عليهم شيء من الابتلاء ولكن الغلبة لهم في النهاية, وهم يبقون حتى قُرب قيام الساعة بخروج الريح التي من قِبل الشام, فيُقبض كل مؤمن ومؤمنة.

|

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في السِّحر

|

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في السحر**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عقد هذا الباب لأن السحر لا يتأتى إلا بالشرك, فعقد هذا الباب ليُحذر من السحر.

قال المؤلف: **باب ما جاء:**يعني: ما جاء في النصوص من النهي عنه والتحذير منه وبيان حكمه,وبيان حكم فاعل الشرك.

قال:**في السحر**.

السحر لغة: هو ما خفي ولطف سببه.

وسمي بذلك: لأنه لا يتأتى إلا بأمور خفية, فالشيء إذا كان يأتي بخفاء فيسمى سحر,وذلك أن السين والحاء والراء تدل على الاختفاء والتستر.

ومنه السحر آخر الليل؛ لأن فيه خفاء ويستر ما فيه.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى:{وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[الذاريات: ١٨]؛ يعني: في آخر الليل, في وقت الخفاء وظلمة الليل والانقطاع عن الناس فإنهم يستغفرون الله عَزَّ وَجَلَّ ويتوبون إليه.

وأما شرعا: فهو عُقد وكلام وتعوذات, وهذه العُقد يُنفث فيها وتدخينات وأدوية تضر بالأبدان وبالقلوب وتقتل بإذن الله وتُفرق بين المرء وزوجه بإذن الله.

والسحر من حيث هو له حقيقة ووجود, وقد دل على ذلك الكتاب والسنة:

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى:{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}[البقرة: ١٠٢].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ», وذكر منها:(السِّحر).

فالسحر له حقيقة ووجود.

والسحر من حيث تأثيره, قد يؤثر في القلوب, وقد يؤثر في الأبدان, فيصاب الإنسان بمرض, أو يصاب بخبل, أو يصاب بتفريق بينه وبين زوجه, أو سبب في أن الإنسان يحب زوجه أكثر مما هو عليه, فله أثر.

ولكن من حيث أنه يقلب الأعيان إلى أعيان أخرى فهذا لا يتأتى, بمعنى: أن الساحر لا يقلب العين إلى عين أخرى, فما يستطيع أن يقلب الحمار إلى كلب, ولا يقلب العصا إلى حية, هذا لا يستطيعه الساحر, وإنما يُخيَّل في عين الناظر أنها صارت حية أو صارت حمار, فهو تخييل وليس هو نقل للأعيان, لأن نقل للأعيان هذا خاص بالله عَزَّ وَجَلَّ, هذا خلق والخلق من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والسحر من حيث نوعه ينقسم إلى قسمين:

الأول: سحر تخييل, بمعنى: أنه يُخيل في عين الناظر أن هذا الشيء انقلب إلى كذا, فيُخيل إلى الناظر أن العصا أصبحت حية, خيالة لا حقيقة.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى:{يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}[طه: ٦٦], فيُخيل في العين.

الثاني: السحر الذي يقع على البدن أو القلب,فيكون سبب في قتل الإنسان يموت بسببه, أو يُفرق بينه وبين زوجه بسببه, أو يُحبب إليه زوجه, أو ما أشبه ذلك, فهذا هو النوع الثاني الذي يكون له أثر, إما في القلب وإما في البدن.

والسحر اختلف العلماء في حكمه, اختلف العلماء في حكم الساحر:

فذهب الأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك وأحمد رَحِمَهُم اللهُ: إلى أن الساحر يكفُر.

والدليل على ذلك: قوله تعالى:}وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا{[البقرة: ١٠٢].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ{[البقرة: ١٠٢].

يعني: السحر كفر.

إلا أن أصحاب الإمام أحمد قالوا: إذا كان سحره بواسطة التدخينات والأدوية التي لا يتوصل بها مع الشيطان فإنه لا يكفر.

وذهب الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ إلى التفصيل, فقال: نقول صف سحرك, فإن كان يوجب الكفر كفر, كما لو كان يتقرب إلى الشيطان, بذبح أو عبادة أو يدنس المصحف, فهنا يكفُر, أما إذا كان يستخدم التدخينات والأدوية التي لا يتوصل بها مع الشيطان ولا يتقرب إليه فهنا إن استحل كفر وإن لم يستحل فسق.

والأئمة الأربعة يتفقون على أنه إذا كان يوجب الكفر كفر, فالأئمة الأربعة يقولون إذا كان الساحر يتقرب للشيطان بعبادة أو يدنس المصحف فإنه يكفُر.

وأثار السحر كثيرة:

منها: المحبة, بحيث أن الساحر يفعل السحر فيكون سبب في محبة الشخص للآخر, كسحر العطف، بأن يعطف الزوج على الآخر.

ومنها: التفريق, وهو أن الساحر يفعل ما يكون سبب في بُغض الشخص للآخر كما يكون بين الزوجين,بحيث أن الساحر يفعل السحر الذي يكون سبب في بغض الزوج للآخر, فيخيل للزوج أن زوجته على منظر قبيح, فقد يراها كأنها في صورة قبيحة, وكذلك

الزوجة قد ترى الزوج كأنه في صورة قبيحة,فيكون سبب التفريق؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى : }يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ{[البقرة: ١٠٢].

الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر أنه سبب في التفريق بين الزوج وزوجه: }فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ{[البقرة: ١٠٢].

ومنها: الجنون, وذلك أن الشيطان يتلبس بأعصاب عقل الإنسان فيصاب بالجنون والخبل.

ومنها : المرض, وهذا المرض يكون مرض عضوي غير معروف للأطباء, بمعنى أن الإنسان مريض, ولكن إذا كشف عند الأطباء قالوا ليس فيك بأس, هذا نوع من الأمراض, وذلك أن الشيطان قد يصل إلى بدن الإنسان فيضر بإذن الله.

ومنها: التهييج على فعل الفاحشة, وهذا من أشر أنواع السحر, بحيث أن الساحر يتسبب بسحره أن يُهيج هذا الشخص على الآخر, فيأتيه شهوة ليست بطبيعية فيحب أن يقع في الآخر, كالرجل يُوضع له هذا السحر في إمرأة فتزيد هذه المرأة في قلبه شهوته, حتى لا يملك نفسه إلا أن يعصي الله عَزَّ وَجَلَّ, هذا يسمى سحر التهييج.

ومنها: الخمول والانعزال والانقطاع عن الناس, بحيث أن الساحر يضع لهذا الشخص سحر ويتسبب في أنه ينعزل عن الناس وينقطع ويبقى وحيد .

وكيف يُعرف الساحر؟الساحر له علامات:

من علامات الساحر: أنك تجده على غير استقامة, تجد أنه يشرب الدخان أو يحلق لحيته أو تجده على غير استقامة ويترك الصلاة وما أشبه ذلك.

ومن علامات الساحر: الانقطاع والانعزال عن الناس في أماكن مظلمة وبعيدة, بحيث أن الساحر ينقطع, وغالباً تكون هذه الأماكن قذرة منتنة, تجد أن الساحر يكون في مكان مظلم في مغارة أو في بيت ويكون هذا البيت مظلم منتن.

ومن علامات الساحر: أنه يسأل عن اسم الأُم, فيقول ما هو اسم أمك؟ فالغالب على الساحر أنه يسأل عن الأم.

ومن علامات الساحر: أنه يأمر بذبح طائر أو دجاجة من غير أن يذكر الإنسان اسم الله عَزَّ وَجَلَّ, يأمر الشخص بأن يذبح دجاجة أو حيوان أو طائر ويقول له لا تذكر اسم الله.

ومن علامات الساحر: أنه يعطي المريض أعواد أو نحو ذلك, فيقول: أشعل عليها النار واستنشقها, يعطيه تدخينات أو نحو ذلك فيقول:استنشقها.

ومن علامات الساحر: أنه إذا قرأ على المريض فإنه يتمتم, ما يقرأ القرآن, وإنما يقرأ كلام لا يُعرف معناه.

ومن علامات الساحر -وهي واضحة في الساحر-: أنه يُخبر المريض عن مرضه, فيقول فيك كذا, ولم يخبره المريض, ويُخبر المريض ببلده يقول أنت من البلد الفلاني, ويُخبر المريض بالألم الذي يحس به, ويخبر المريض بعائلته يقول أنت أمك فلانة, وذلك أن القرين الذي مع الساحر يخبره القرين الذي مع الشخص الذي أتاه.

فهذا من علامات الساحر.

والسحر يقع بأسباب:

منها: العقد, بمعنى: أن الساحر يأخذ من آثار هذا الشخص فيعقد له عُقد وينفث فيها ويقرأ فيها كلام وطلاسم ثم يقع السحر بإذن الله, أو يأخذ شيء من آثار هذا المسحور كشعر أو أظفار أو ثياب فيعقد لها عُقد ويربطها؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}[الفلق: ٤].

فالساحر يأخذ عُقد ثم ينفث فيها فيقع السحر بإذن الله.

وقد يحصل السحر بسبب أكل أو شرب, هذا يسمى السحر المأكول أو المشروب, فيقع بإذن الله السحر, فيضع لهأشياء يفعلها الساحر ثم يشربها هذا الرجل ثم يمرض بإذن الله ويصاب بالسحر, هذا يسمى السحر المأكول أو المشروب.

وأسباب علاج السحر

منها: أن يعثر الإنسان على العُقد فيحل هذه العقد وينفث عليها فيقرأ عليها المعوذات ثم يحرقها أو يضعها في ماء أو يتلفها فيبطل السحر بإذن الله.

كما جاء في المسند من حديث زيد بن أرقم: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشتكى,وكان يهودي يدخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمنه, فسحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فاشتكى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, جاء في حديث عائشة أنه اشتكى ستة أشهر, وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يخيل إليه أنه يفعل شيء ولم يفعله, ثم إن جبريل نزل عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ بالمعوذتين وأخبره أن السحر في بئر رجل من الأنصار, وأنه عقد له اليهودي فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعقد فأخرجت, فقرأ عليها وحلَّها وقرأ عليها المعوذتين فبرئ بإذن الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

فإذا وجد الإنسان السحر فيُتلفه بهذه الطريقة.

ومن أسباب علاج السحر: الرقية الشرعية فإذا لم يجد العُقد فمن أسباب إبطال السحر الرُّقية الشرعية.

وقد ورد عن بعض السلف آيات تُقرأ على المسحور:

منها قوله تعالى:}مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ{[يونس: ٨١].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى{[طه: ٦٩].

وأيضا من الآيات التي تُقرأ:}فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ{[الشعراء: ٤٦-٤٨].

وقد قال بعض السلف: أنه بلغني أن هؤلاء الآيات تُقرأ على ماء ثم تُصب على المريض.

وأيضا آية الكرسي, والفاتحة, وأيضا بالمعوذتين والإخلاص, تُقرأ على المريض ويُشفى بإذن الله.

وقد قال وهب بن منبه: أن المسحور يأخذ له سبع ورقات من السدر, ثم يدق هذه الورقات, ثم يضعها في ماء ويقرأ عليها الفاتحة وآية الكرسي والمعوذات, فإن هذا السبب بإذن الله مجرب أنه يُبطل السحر.

وقد ذكروا عن ابن باز رَحِمَهُ اللهُ أنه كان يجرب ذلك في المريض ويقول أنه نافع بإذن الله لمن حُبس عن زوجه.

وهذا إذا ثبت يكون من العلاج المأذون به بالتجربة, لأن العلاج إذا كان بالتجربة نافع فلا بأس به.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ: }وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ{[البقرة: ١٠٢].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال: وقول الله تعالى: }وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ{[البقرة: ١٠٢].

في هذه الآية الكريمة يبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن من استبدل دينه بالسحر فإنه ليس له في الآخرة نصيب, من باع دينه بالسحر فإنه ليس له في الآخرة نصيب.

قال سُبْحَانَهُ} :وَلَقَدْ{,(وَلَقَدْ) فيها ثلاث مؤكدات: القَسَم المقدر, وَاللَّامْ, وَقَدْ.

}عَلِمُوا{؛ يعني: الذين اشتروا السحر.

}عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ{؛ يعني: استبدل دينه بالسحر.

}مَالَهُ{؛ يعني: ليس له,}فِي الْآخِرَةِ{؛ يعني: في الحياة الآخرة التي هي بعد الموت.

}مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ{؛ يعني: من نصيب, فليس له في الآخرة من خلاق, يعني: لا نصيب له في الآخرة, بمعنى أنه يصير إلى النار وليس له في الجنة نصيب, لأنه باع دينه بالكفر وهو السحر والأخذ به.

ففي الآية الكريمة: فيها أن من استبدل دينه بالسحر فإنه ليس له نصيب في الآخرة, ومن ليس له نصيب في الآخرة فإنه يدل على أنه خارج من الدين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ{[النساء: ٥١].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: }يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ{؛ يعني: يُصدِّقون.

والجبت: هي كلمة تطلق على ما لا خير فيه, ويدخل فيها السحر ويدخل فيه الساحر, كما قال عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ, ويدخل فيه الصنم, وغير ذلك مما لا خير فيه.

قوله:}وَالطَّاغُوتِ.{

الطاغوت على وزن فعلوة, وهو مجاوزة الحد والطغيان, فمن جاوز حده فقد طغى.

ومنه قوله تعالى:}إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ{, طغى الماء: يعني: تجاوز الحد,}حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ{[الحاقة: ١١].

فالطغيان هو مجاوزة الحد.

الطاغوت يدخل فيها كل من عُبد وهو راض, ويدخل فيها الشيطان, فالطاغوت يدخل فيه كل من تجاوز الحد وعتى عن أمر الله عَزَّ وَجَلَّ وأمر الناس بعبادته, أو أشرك بالله أو غير ذلك, فهو داخل في الطغيان ومجاوزة الحد.

في الآية الكريمة أنهم-يؤمنون يعني: يصدقون- بالجبت والطاغوت.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ: "الجبت السحر، والطاغوت الشيطان".

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال عمررَضِي اللهُ عَنْهُ: "الجبت السحر، والطاغوت الشيطان".

ففيه: أن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ فسر الجبت بالسحر, يعني يُصدقون بالسحر, وهذا التفسير من عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ بالمثال, لأن الآية الكريمة تشمل هذا وغيره, وهذا من الأمثلة.

أو يقال تفسير الآية الكريمة بجزء معناها.

"**والطاغوت الشيطان**", أيضًا الشيطان تفسير الآية الكريمة بجزء معناها, وهذا مثال على أحد الطواغيت وهو الشيطان,لأن الشيطان تجاوز الحد في الطغيان.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال جابر: "الطواغيت كهان كان ينْزِل عليهم الشيطان، في كل حي واحد".

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وقال جابر: "الطواغيت كهان".

كهان جمع كاهن, والكاهن: هو الذي يُخبر بالمغيبات في المستقبل, أو يُخبر عما في الضمير.

قال: "**كان ينْزِل عليهم الشيطان**".

الشيطان هنا اسم جنس, وليس هو إبليس بعينه, وإنما هو داخل فيه جميع الشياطين, حتى لو لم يكن إبليس بعينه.

والشيطان سُمي بذلك لأنه بعُد من رحمة الله.

"**في كل حي واحد**"؛ يعني: في كل قبيلة واحدة.

وهذا التفسير من جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو تفسير بالمثال, أو جزء معنى الآية الكريمة, فالآية تدخل فيها هذا وغيره.

ففيه: أن الصحابيين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عمر وجابر فسَّرا الجبت والطاغوت بالسحر والشيطان والكهان, فهو داخل في معنى الآية الكريمة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي**

حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ». متفق عليه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ».

«اجْتَنِبُوا»؛ يعني: ابتعدوا, والاجتناب: هو الابتعاد والتزحزح ببعد.

«السَّبْعَ»؛ يعني: هؤلاء السبع.

«الْمُوبِقَاتِ»؛ يعني: المهلكات.

قَالُوا: يَارَسُولَ اللَّهِ،وَمَاهُنَّ؟ يعني: ما هن هؤلاء السبع المهلكات؟

قال:«الشِّرْكُ بِاللهِ», الشرك بالله أول المهلكات, والشرك بالله أن يساوي بين الله وغيره فيما هو من خصائص الله.

قال:«وَالسِّحْرُ», وهذا موضع الشاهد, والسحر من الموبقات المهلكات, فهو من المهلكات السبع.

قال:«وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» ,«وَقَتْلُ النَّفْسِ», النفس هنا نفس المعصوم.

«وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ»؛ يعني: حرم قتلها, كنفس المسلم.

«إِلَّا بِالْحَقِّ», هذا استثناء, إلا أن تُقتل هذه النفس بحق, كما لو كان هذا الذي قُتل زنا بعد إحصان أو فارق الجماعة وكفر وارتد عن الدين, أو قتل نفس أخرى مكافِئة له فيُقتل بها.

قال:«وَأَكْلُ الرِّبَا»؛ يعني: أكل المال الذي فيه الربا.

والربا: هو الزيادة في أشياء مخصوصة أو النَّساء فيما هو جنسه أو علته الربا فيه واحدة, فأكل الربا من الموبقات.

قال:«وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيم»,(أكله) يعني أخذه بأي صورة كان, وعبر بالأكل لأن غالب ما يكون الأكل, إذا أخذ المال فإن غالب ما يكون أكله.

واليتيم: هو الذي مات أبوه وهو دون البلوغ.

«وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ», التولي: هو الهروب أو ترك القتال.

«يَوْمَ الزَّحْفِ»؛ يعني: يوم مقابلة أهل الكفر والشرك في الجهاد في سبيل الله فيتولى.

والزحف: سمي زحف لأن بعض الجيشين يزحف بعضهم لبعض, فكأنه يريد الرجوع وهذا يريد الرجوع, فيكون زحف حتى يلتقيان.

قال:« وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ », القذف: هو الرمي بالزنا.

وسمي قذف: لأنه يرمي بهذه الكلمة.

«الْمُحْصَنَاتِ»؛ يعني المصونات اللاتي أُحصن, بمعنى: منعهنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ من الفواحش.

«الغَافِلَاتِ»؛ يعني الغافلات عن ما رُمين به, فهي غافلة ما تعلم أنها رُميت, وأيضا غافلة عن الفاحشة, ما تطري لها على بال.

قال:«الْمُؤْمِنَاتِ»؛ يعني: المصدقات بالله, العاملات بشرعه, المقرات بألسنتهنَّ بالتوحيد.

قال:**متفق عليه:** يعني: أخرجه البخاري ومسلم.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن من المعاصي سبع مهلكات.

و(ال) هنا في (السبع) للاستغراق,(ال) هنا في السبع لا تدل على الحصر, لأن الموبقات كثير.

كما سيأتينا إن شاء الله في الأثر عن ابن مسعود أنه "ذكر من أكبر الكبائر القنوط من رحمة الله".

فالمهلكات كثير, ولكن هؤلاء السبع نصَّ عليهنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليَحذر الإنسان منهنَّ.

ومن الفوائد: أن من الذنوب ما هي سبب في هلاك الإنسان إذا وقع فيها, فإذا وقع فيها كان سبب في هلاكه, إلا أن يتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ إن كان حي, فيتوب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه.

ومن الفوائد: أن الشرك أعظم الموبقات, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأ به قال:«الشِّرْكُ بِاللهِ», والشرك هو أعظم ذنب عُصي الله عَزَّ وَجَلَّ به.

ولذلك قال ابن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ يا رسول الله أيَّ الذنب أعظم؟ قال:«أَنْ تَجْعَلَ لَهُ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ», هذا أعظم الذنوب على الإطلاق, ما في ذنب أعظم من الشرك.

والدليل على ذلك: أن الله عَزَّ وَجَلَّ حكم على المشرك وهو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء حكم عليه بالخلود في النار, الخلود السرمدي, إذا مات على الشرك فهو إلى النار خالدًا مخلدًا, وفي هذا أنه على الإنسان أن يعرف الشرك حتى يحذر منه.

كما قيل:

عرفت الشرلا للشر ولكن لتوقِّيه ومن لا يعرف الشر قد يقع فيه

فلابد أن الإنسان يعرف الشرك حتى يحذر منه, لأنه أعظم الذنوب على الإطلاق.

ومن الفوائد: أن السحر من الموبقات؛ لذلك جعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع هذه السبع.

ومن الفوائد: أن قتل النفس التي حرم الله عَزَّ وَجَلَّ إلا بالحق من الموبقات المهلكات, فيجب على الإنسان أن يبتعد عن قتل النفس بغير حق, سواءً كان هذا المقتول مسلم أم كافر معاهد, أو مستأمن أو ما أشبه ذلك, فيحذر من قتل النفس بغير حق, وأما قتل المسلم فهو من أعظم الذنوب؛ لأنه سبب في غضب الله عَزَّ وَجَلَّ, وسبب في لعنة الله, وسبب في أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُخلد العبد في النار.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى}:وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا{[النساء: ٩٣], فهو سبب لهلاك الإنسان.

وقد جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لَا يَزَالُ الْمُسْلِمِ فِي فسْحة مِنْ دِينِهِ مَا لَم يُصِب دَمًا حَرَامًا».

ومعنى الحديث: أنه على خير وعلى رجاء أن ينجو حتى يهريق الدم الحرام ثم تضيق عليه الأمور.

وجاء في الحديث الأخر -وإن كان فيه مقال-: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ».

وجاء في الحديث الأخر أيضاً: «يُؤْتَىٰ بِالْمَقْتُولِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِالْقَاتِلِ يَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَىٰ الْعَرْشِ فَيَقُولُ: رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟».

ولأن أول ما يُقتص بين العباد في الدماء؛ كما جاء في حديث ابن مسعود: «أَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».

فيه أن النفس إذا قُتلت بغير حق فهو من أعظم الذنوب إن كانت مسلمة, وأيضاً إذا كان ذمِّي أو معاهد أو مستأمن فإن قتله لا يجوز, بل هو من الذنوب العظيمة.

ولذلك جاء في حديث عبد الله بن عمرو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ».

فهذا فيه دليل على أن قتل الكافر سواء كان نصراني أو يهودي أو مجوسي معاهد أو له ذمة أو دخل بلاد المسلمين باستئمان؛ فإن هذا من الذنوب الكبار, لأنه سبب في أن لا يرح رائحة الجنة.

ومن الفوائد: أن أكل الربا من عظائم الذنوب؛ ولذلك سماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموبقات, فأكل الربا من عظائم الذنوب.

ولذلك آكل الربا يقوم يوم القيامة كأنه متلبس به شيطان, كأنه قد صُرع بسبب الشيطان.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى}: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ{[البقرة: ٢٧٥], فهو يقوم يوم القيامة كأنه مجنون دخل فيه الجن, يتروح بين الناس بسبب أكل الربا.

وقد لعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكل الربا, فدعا عليه باللعنة, ففي الصحيح: "لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَآكِلَ الرِّبَا, وَمُوكِلَهُ،وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ".

وقد قال ابن دقيق العيد: "أن آكل الربا مُجرَّب فيه سوء الخاتمة"؛ يعني: غالبا أنه يختم له بسوء خاتمة -نسأل الله العافية-. ولذلك ذكر العلماء من هذا الشيء الكثير.

ومن الفوائد: أن أكل مال اليتيم من الموبقات؛هو من أسباب أن يُعذَّب الإنسان في النار.

واليتيم ضعيف مسكين, فآكل ماله قد عرَّض نفسه للعذاب.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا{[النساء: ١٠].

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :أُحَرِّجُ عَلَيْكُم حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْمَرْأَةِ وَالْيَتِيمِ«.

فيحذر الإنسان من أكل مال اليتيم لأنه من المهلكات.

ومن الفوائد: أن التولي يوم الزحف من الموبقات, وذلك إذا هرب الإنسان وولى الكفار ظهره بعد أن قابلهم فإن هذا من الموبقات المهلكات.

فيجب على الإنسان إذا كان في الجهاد في سبيل الله ولاقى الكفار أن يقاتل ولا يوليهم دبره, إلا في حالات يجوز للإنسان أن يتولى فيها:

- الأول: أن يكون متحرف لقتال, بمعنى: أنه يُري الكفار أنه هرب وهو يريد الرجوع والكرّة.

- الثاني: أن يهرب من وجوه الكفار لينضم إلى مجموعة قادمة أو مجموعة قريبة منه تقاتل الكفار.

- الثالث: أن يكون الكفار أكثر من مثليه, فهنا يجوز له الرجوع.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{[الأنفال: ١٦].

الحالة الثانية: أن يكون أكثر من مثليه؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ{[الأنفال: ٦٦].

خفف الله عَزَّ وَجَلَّ عن المسلم, فإذا كان الذين أمامه اثنين فيجب عليه أن يصبر, وإذا زادوا فيجوز له أن يرجع.

ومن الفوائد: عِظم قذف المرأة المؤمنة التقية الغافلة عن الفواحش وعن ما رُميت به, فهذا من الموبقات؛ ولذلك توعد الله عَزَّ وَجَلَّ من رمى المؤمنات, توعده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى .

كما جاء في القرآن الكريم: }إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{[النور: ٢٣].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ», وذكر منهن: «وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ».

فقذف المرأة المحصنة من الكبائر, بل من الموبقات المهلكات.

فالشاهد من هذا الحديث: السحر, فهو داخل في الموبقات المهلكات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن جندب مرفوعًا: »**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ**«. رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: "كَتَبَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قال: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ".

وصح عن حفصة رَضِي اللهُ عَنْهَا أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت. وكذلك صح عن جندب قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال: **وعن جندب مرفوعًا:**»حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ«؛ يعني: قتله بالسيف.

قال: **رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف:** يعني: موقوف على جندب رَضِي اللهُ عَنْهُ.

وجندب: هو جندب الخير الأزدي رَضِي اللهُ عَنْهُ.

وذكر البخاري في التاريخ أن جندب رَضِي اللهُ عَنْهُ أتى إلى أمير وكان عنده ساحر, وهذا الساحر يضرب الرجل فيقطع رقبته, ثم يُرجع رقبة الرجل والناس ينظرون وهم قد أعجبهم ذلك, فأتي إليه جندب فضربه بالسيف, فقال: إني سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ», فقتله رَضِي اللهُ عَنْهُ.

وكان الساحر يخيل للناس أن رقبة هذا الرجل تُفصل, وإنما هو في النظر, وجندب عرف أنه ساحر فضربه.

ففيه: دليل على أن الساحر يُقتل.

قال: **وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: "كَتَبَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قال: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ".**

ففيه: أن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ أمر بقتل الساحر والساحرة.

قال: **"فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ"**. فقتل الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم ثلاث سواحر.

فيه أن حد الساحر قتله.

قال: **وصح عن حفصة رَضِي اللهُ عَنْهَا أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت.**

الجارية: هي الأَمة, وقد يراد بالجارية البنت الصغيرة, والظاهر هنا أنها أَمَة؛ لذلك قال: (لها)؛ يعني: مملوكة عندها.

سحرتها: يعني: سحرت حفصة رَضِي اللهُ عَنْهَا.

وقد ذُكر -والله أعلم- أن حفصة قد دبَّرت هذه المرأة, يعني: إذا ماتت تكون حرة, فأراد قتل حفصة رَضِي اللهُ عَنْهَا, فلما فعلت ذلك قتلتها حفصة رَضِي اللهُ عَنْهَا.

قال: **فقُتلت. وكذلك صح عن جندب, قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

يقول الإمام أحمد أنه صح عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَتْل الساحر.

والساحر يُقتل, وهذا قول جمهور العلماء أنه يُقتل ويجب قتله, وهو اختيار المؤلف الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ أن يُقتل ولا يُستتاب, وهذا هو الصحيح والله أعلم؛ لأنه ثبت عن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما قتله فإنه لا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يتوب, فهنا يُقتل حدًّا ويُصلى عليه ويُدعى له ويُغسل ويُكفن ويُقبر في مقابر المسلمين إذا قُتل على توبة, أما من حيث الظاهر فإن نقتله وأمره في الآخرة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بقتل الساحر.

الحالة الثانية: أن يبقى على كفره, بمعنى: أنه بقي على الكفر, فهنا يُقتل ردَّة, فلا يُدعى له, ولا يُصلى عليه, ولا يُدفن مع المسلمين, بل يُرمى بعيد كما يُرمى الكافر لأنه مرتد, ففيه هذا الحكم.

والساحر غالبًا لا يتأتى معه السحر حتى يكفُر.

ولذلك الساحر يقع في الكفر من وجهين:

الوجه الأول: أنه إما أن يتقرب للشيطان بما يحب أو يذبح له فيقع في الشرك, أو يتعبد له بأي نوع من العبادة, وإما يدنس المصحف الكريم.

لذلك بعض السحرة يدنس كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ فيقع في الكفر.

الوجه الثاني: أنه يدَّعي معرفة المغيبات في المستقبل, الساحر يدَّعي معرفة المغيبات, فيقول سيحصل كذا, وسيحصل كذا, فيقع في الكفر, لأن علم الغيب من خصائص الله, فهو يدَّعي معرفة الغيب أو علم الغيب, والله عَزَّ وَجَلَّ أخبرنا أنه لا يعلم الغيب إلا هو.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل: ٦٥].

فلذلك المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أتى بهذا الباب لأن السحر لا يتأتى إلا بالوقوع في الشرك وفي الكفر, فأتى بهذا الباب ليُحذر منه ويكون الإنسان على حذر منه.

من فوائد الآثار -آثار الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم:- امتثال قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ», فيُقتل الساحر؛ وذلك أن الساحر شره عظيم, فهو سبب في التفريق بين الزوجين, وسبب في وقوع الأمراض في بعض الناس, وغير ذلك مما يفعله الساحر.

ومن الفوائد: أن السحر قد يقع بإذن الله, وإذن الله عَزَّ وَجَلَّ الكوني لا الشرعي, لأن الله عَزَّ وَجَلَّ شرعًا ما يأذن بالكفر, أما كونًا قد يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء كونًا وإن كان كفر لحكمة يعلمها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك قال: {وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ١٠٢]؛ يعني: الكوني.

ومن الفوائد: أن الساحر يُقتل بالسيف, فلا يُقتل بالرمي بالحجارة, أو بحرقه بالنار وإنما يُقتل بالسيف؛ كما قال: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ».

ومن الفوائد: أنه قد صح عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتل الساحر؛ ولذلك قال الإمام أحمد: (**صح عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**), والإمام أحمد إمام حافظ, فضبط المسألة فقال: ثبت عن ثلاثة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب بيان شيء من أنواع السِّحر

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب بيان شيء من أنواع السحر**.

مناسبة هذا الباب للباب الذي قبله: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر أنواع السحر هنا، لأن السحر أنواعه كثيرة، فذكر هذا الباب ليبين ذلك.

قال:**باب بيان.**

البيان: هو الإيضاح والتجلية وإجلاء الشيء.

قال:**باب بيان شيء.**

(شيء) هنا نكره, وأراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن يبين شيء من هذه الأنواع وليس يريد الكل, لأن الأنواع كثيرة.

قال:**شيء من أنواع السحر.**

من أنواع السحر: يعني الأنواع التي يكون منها سحر.

والسحر: هو ما خفيا ولطف سببه، هذا هو في اللغة .

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيهأ أنه سمع رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ والطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ**».

قال عوف: العيافة: زجر الطَّير. والطَّرْق: الخط يُخط بالأرض.

والجبت: قال الحسن: "رنة الشيطان" إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه, أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ والطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ».**

قال عوف: العيافة: زجر الطَّير.

وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يزجرون الطير, فإذا مال إلى اليمين تفاءلوا ومضوا إن كانوا يريدون أسفار, وإذا ذهب ذات الشمال رجعوا وتشاءموا,يتشاءمون به.

قال:**والطَّرْق: الخط يُخط بالأرض**.

يقول عوف رَحِمَهُ اللهُ: أن الطَّرْق هو الخط يُخط بالأرض.

الطَّرق: خط يضعه الكاهن أو نحوه على الأرض, ويستدل به على ما سيحصل لهذا المريض, فيضع خط في الأرض ويقول سيحصل لك كذا أو كذا.

ولذلك قال: الخط يُخط بالأرض, فيقول سيحصل لك كذا أو كذا, ويجعل هذه علامة على هذا الشيء.

قال: **والجبت: قال الحسن: "رنة الشيطان"**.

قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: أنها رنة الشيطان.

قال:**إسناده جيد:**يعني: إسناد هذا الحديث جيد.

ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه: يعني: بدون قول عوف المسند منه فقط ,يعني هذا الحديث بدون قول عوف رَحِمَهُ اللهُ المسند منه فقط.

والطِّيرة: هي التشاؤم بمرئي أو بمسموع, كان أهل الجاهلية إذا رأوا الشيء تشاءموا به أو سمعوا الشيء تشاءموا به, فيجعلون هذا علامة على حصول الشر, أو علامة على حصول الخير بالنظر إليه أو بسماعه.

فمثلًا أراد أحدهم أن يسافر فسمع غراب يتشاءم ويرجع, يقول سيحصل لي قتل أو اغتيال أو سرقة.

أو مثلًا يريد السفر فيرى رجل أعرج مفقوع العين فيرجع, يقول سيحصل لي كذا وسأموت في الطريق, فيجعل هذا علامة على وقوع الشر عليه, وهذا من الشرك.

قال:«مِنَ الْجِبْتِ».

الجبت: هو ما لا خير فيه.

يقول الحسن: أنه رنة الشيطان.

قال المصنف رحمه الله:

وعن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ». رواه أبو داود وإسناده صحيح.

قال الشارح وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:وعن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«مَنْ اقْتَبَسَ».(من) هنا شرطية, و(اقتبس)؛ يعني: أخذ شيئًا من العلم.

قال:»شُعْبَةً»؛ يعني: جزءًا وحظًّا,»مِنْ النُّجُومِ»؛ يعني: من علم النجوم.

«فَقَدْ اقْتَبَسَ»؛ يعني: أخذ شعبة, يعني قطعة وجزءًا من السحر, يعني قد وقع في شيء من السحر, لأن السحر في عمومه الخفاء.

قال:«زَادَ مَا زَادَ»؛ يعني: كلما زاد من الاقتباس زاد في الأخذ من السحر.

قال:**رواه أبو داود وإسناده صحيح**.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن علم النجوم من أنواع السحر, وذلك أن الذي يتعلم علم النجوم وهو علم التأثير يستدل به على الحوادث الأرضية, وهذا سبب خفي ليس سبب ظاهر صحيح,بل هو سبب باطل وغير صحيح, فهو يستدل بالأفلاك والنجوم على الحوادث الأرضية, يقول سيحصل كذا ويقع كذا, فيقول أن النجم الفلاني إذا خرج ستموت, سيأتيك ولد, فهذا خفاء, فهو نوع من السحر.

وعلم النجوم نوعان:

- الأول: علم التسيير, وهو الاستدلال بالنجوم على جهة القبلة, وعلى الجهات, وعلى مواسم الزراعة ونحو ذلك, فهذا لا بأس به, وقد دل عليه القرآن, وسيأتينا باب في ذلك.

- الثاني: علم التأثير, هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية, وهو المراد في هذا الحديث؛ بحيث أنه ينظر إلى النجوم فيقول سيحصل لك كذا, ومنه علم

الأبراج, الذين يقولون أن كان برجك كذا فستكون سعيد, فهذا نوع من أنواع السحر, وسيأتينا باب إن شاء الله في ذلك.

ومن الفوائد: أن شُعب السحر كثير؛ ولذلك قال: «فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ», فأنواع السحر كثيرة.

والسحر في اللغة: هو الخفاء, الذي يقع في صورة خفية, فهو أنواع كثيرة, منها ما ذكرها المؤلف هنا.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا زاد في تعلم علم النجوم الذي هو علم التأثير زاد في تعلم السحر,وزاد منه حظه من السحر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وللنسائي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف:وللنسائي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» :مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً».

(من): هنا أيضا شرطية,و «عَقَدَ عُقْدَةً»؛ يعني: عقد ليريد بها السحر, المراد هنا: أراد بها السحر.

«ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا»؛ يعني: نفث فيها بالأقوال السحرية,«فَقَدْ سَحَرَ»؛ يعني: فقد وقع في السحر.

«وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ», وهذا فيه دليل على أن السحر شرك, وذلك أن السحر يقع فيه تقرب إلى الشيطان وذلة وتعبُّد, ويقع فيه نوع من أنواع عبادة للشيطان, يعني يذبح للشيطان أو يدعوه من دون الله أو يسجد له, هذا قد يفعله الساحر فيقع في الشرك؛ لذلك قال: «وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ».

قال: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا»، (شيئًا): هنا نكرة، أيَّ شيء يتعلق به الإنسان بقلبه، «وُكِلَ إِلَيْهِ»؛ يعني: وُكِلَ لهذا الشيء، ومن وُكِلَ إلى غير الله ضل.

وفيها: أن الإنسان إذا تعلق بغير الله عَزَّ وَجَلَّ وُكِلَل إلى ذلك الشيء، وإذا تعلق الإنسان بشيء غير الله عَزَّ وَجَلَّ وُكِلَ إليه، كما لو تعلق الإنسان بنفسه، فرأى أنه ذو علم أو ذو جاه أو ذو منصب؛ فإنه يُوكَل لهذا الشيء فيهلك.

ولذلك نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن طلب الإمارة، وقال: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا»؛ لأن الإنسان يرى أنه مجيد في هذا الشيء وأنه سيكون مؤدي للأمانة، فيوكل لنفسه فيهلك، فإذا وكل الله عَزَّ وَجَلَّ العبد لنفسه هلك، أو إذا وُكِلَ لشيء هلك دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففيه أن الإنسان يُعلق قلبه بالله عَزَّ وَجَلَّ، وأيضا إذا علق الإنسان قلبه بساحر أو كاهن؛ فإنه يُوكَل لهذا الساحر أو الكاهن فيهلك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن مسعود أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَلَا هَل أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». رواه مسلم.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: وعن ابن مسعود أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَلَا». (أَلَا): أداة استفتاء تدل على التنبُّه لما بعده، «أُنَبِّئُكُمْ»؛ يعني: أُخبركم، «مَا الْعَضْهُ»، العضه: هي القطع، يعني: ما هو السحر الذي يصرف.

«هِيَ النَّمِيمَةُ»، النميمة: هي نقل الكلام بين الناس لأجل الإفساد بينهم.

«هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ».

بمعنى: أنه يأتي إلى الشخص فيقول: فلان قال فيك كذا, ثم يأتي إلى الآخر فيقول: فلان قال فيك كذا, حتى تحصل العداوة, فهذا نوع من أنواع السحر, لأنه يفعل ما يفعل السحر, السحر يكون فيه تفريق, والنميمة يكون فيها تفريق, فهذا وجه الشبه بين النميمة وبين السحر, أن السحر قد يُفرق والنميمة قد تكون أعلى من السحر في التفريق؛ وذلك أن الإنسان إذا نُقل إليه كلام من شخص فيه ثم أُتي إلى الآخر فنُقل من هذا الشخص إليه نفس الكلام, هنا يحصل الشر العظيم.

ولذلك قد جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ». الحديث في الصحيح.

وليس المراد أن من وقع في النميمة وقع في الشرك, لا, ولكنه يشابه الساحر في التفريق, في التفريق بين المرء وزوجه, وبين الرجل وأخيه, وبين الرجل وصاحبه, وهكذا.

ففي الأحاديث المتقدمة أن السحر أنواعه كثيرة:

منها: علم النجوم

ومنها: العُقد.

ومنها: النميمة, النميمة نوع من أنواع السحر تفعل ما يفعله السحر؛ بحيث أنها تفرق بين الرجل وصاحبه, والرجل وأبيه, والرجل وأخيه, والرجل وزوجه, وهكذا, فتفعل ما يفعل السحر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» .

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: **ولهما**: يعني: البخاري ومسلم رَحِمَهُم اللهُ, عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ الْبَيَانِ».

البيان: هو الإيضاح, إيضاح الكلام, وإيضاح الشيء.

«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»؛ يعني: يجذب القلوب ويعمل فيها عمل السحر من حيث خفاءه, فالساحر قد يُوقع في قلب الشخص محبة الآخر, لأن البيان يجذب القلب, فيكون في بيانه وكلامه جذب للقلوب, فيكون فيه نوع من الخفاء, بحيث أن الإنسان إذا سمع هذا المبين في كلامه ينجذب إليه حتى لو كان يقول الباطل, قد ينجذب إليه ولو كان يقول باطل.

وهذا الحديث لا يدل -والله أعلم- على أن البيان مذموم, وإنما يدل - أن البيان يسلب القلوب, فيُوقع في القلب الانجذاب لهذا الشخص.

والبيان ينقسم إلى قسمين:

الأول: بيان مذموم, وهو الذي يُلبس الحق بالباطل, فلو أن رجل فصيح مبين في كلامه ويذكر الشبهات ويأتي بكلام يسلب العقول فيلبس الحق الباطل, فهذا مذموم, لأنه قد ينجذب الشخص لهذا الملقي وهو يقول الباطل.

الثاني: البيان المحمود, وهو البيان في إظهار الحق وردع أهل الباطل؛ بحيث أن الإنسان يكون عنده بيان ويأتي بالأدلة ويدحض حجج أهل الباطل ويُبين في كلامه, فيبين الحق ويوضح الحق, فيكون إلقاءه واضح, فهذا محمود -والله أعلم-.

ولكن البيان فيه نوع من أنواع فعل السحر, وذلك أن السحر فيه أسباب خفية, كذلك البيان يقع فيه خفاء, وهو أن قلب الإنسان ينجذب لهذا الملقي ويحب الاستماع له ويجد من قلبه انجذاب إليه.

ولذلك إذا كان الإنسان على باطل وكان عنده شيء من البيان فهذا خطر, أخطر ما يكون على الناس.

ولذلك جاء في الحديث الذي مر معنا: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ», الإمام في الشر, الذي يكون عنده بيان وإيضاح في الكلام ويُلبس على الناس هذا من أخطر ما يكون.

فلذلك يحذر الإنسان من هؤلاء ولا يستمع إليهم, أما إذا كان الإنسان يُبين في كلامه ويوضح الحق ويأتي بالأدلة ويقمع أهل الباطل فهذا محمود.

ففي هذا الباب ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أنواع من السحر, وذلك أن السحر أنواعه كثيرة, لأنه في اللغة هو الشيء الخفي, فيقع في أسباب خفية, أو أسباب غير ظاهرة, أو أسباب موهومة, كما في العيافة والطيرة والجبت, وقد يكون في الاستدلال على النجوم وسيرها, فيكون فيها أسباب خفية, فأنواعه كثيرة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في الكهان ونحوهم** .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أتى بهذا الباب ليُبين حكم الكهانة، حكم تصديق الكهان وما جاء في نحوهم كالرمالين،والمنجمين.

قال:**باب ما جاء في الكهان**.

الكهان جمع كاهن، والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير.

وقوله:**ونحوهم**؛ يعني: من نحى نحو الكهان كالرمالين والمنجمين فهم داخلون في هذا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

روىٰ مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقهُ لَمْ تُقْبَلْ له صَلَاةٌ أَرْبَعِين يَوْمًا» .

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

قال: **روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي:** عن بعض أزواج النبي وهي حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ أَتَىٰ»؛ يعني: جاء.

«مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا»؛ يعني: أتى إليه وجاء إليه.

«عَرَّافًا»، والعراف هو الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها.

«فَسَأَلَهُ»؛ يعني: سأله عن شيء واستفهمه.

وقوله: «عَنْ شَيْءٍ») ،شَيْءٍ) نكرة تفيد العموم؛ يعني: عن أي شيء، كما لو سأله عن شيء ضائع، أو عن متى يموت؟ أو متى يولد له؟ أو غير ذلك؛ لأنه قال: «عَنْ شَيْءٍ».

قال: «فَصَدَّقَهُ») ،فَصَدَّقَهُ) يعني: صدق الكاهن بما قال له.

«لَمْ تُقْبَلْ لهُ صَلَاةٌ»؛ يعني: لا يُثاب على الصلاة وإن كان يسقط بها الطلب، ولكن عقوبة له لا يثاب عليها.

لا يُقبل بمعنى: أنه لا يُثاب عليها.

«أَرْبَعِينَ يَوْمًا»؛ يعني: أربعين يوم بلياليه، لأنه صدَّق الكاهن فيما قال.

ويُنبه على أن قوله: «فَصَدَّقَهُ»، ليست في صحيح مسلم، وهي في مسند الإمام أحمد، رَحِمَهُ اللهُ و ليس فيه (فَسَأَلَهُعَنْشَيْءٍ).

أتى في مسند أحمد: «مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»، هذا الذي في مسند الإمام أحمد.

وأما لفظة: (فَصَدَّقَهُ)، ليست في مسلم.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: التحذير من اتيان العرافيين فلا يأتي إليهم الإنسان.

ومن الفوائد: أن من سأل عرافًا فصدقه فهو لا تُقبل له صلاة أربعين يوم، ونفي القبول هنا أي: لا يُثاب على الصلاة وإن كان يسقط فيها الطلب، ولذلك لو صلى فإن صلاته صحيحة ولكن لا يُثاب عليها ليس له أجر بسبب هذه المعصية.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَقال:«**مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فصدَّقه بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمِا أُنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**». رواه أبو داود.

وللأربعة والحاكم وقال: صحيح على شرطهما قال: «**مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ: فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**» .

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال:**وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:**«مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا»؛ يعني: من جاء إلى كاهن، والكاهن تقدم أنه الذي يخبر عما في الضمير، أو يخبر عن المغيبات في المستقبل.

«**فصدَّقه**»؛ يعني: صدقه بما يقول.

«**بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمِا أُنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ**»؛ يعني: كفر بشرع الله عَزَّ وَجَلَّ، لأن ما أنزل على محمد هو شرع الله عَزَّ وَجَلَّ.

رواه أبو داود.

قال:**وللأربعة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما**؛ يعني: شرط البخاري ومسلم.

عن أبي هريرة:«**مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا**»؛ يعني: من جاء إلى عراف.

والعراف: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان الضالة ونحو ذلك.

«أَوْ كَاهِنًا»؛ والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو يخبر عن ما في المستقبل بواسطة القرين.

قال:«فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ»؛ يعني: صدقه في قوله، قال له –مثلًا-: سيحصل لك كذا في المستقبل فصدقه.

«فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ »؛ يعني: كفر بشرع الله، لأن ما أنزل على محمد هو شرع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ.

قال: ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا؛ يعني: موقوف على ابن مسعود.

ففي هذين الحديثين والأثر بيان حكم من أتى الكاهن والعراف، ومن أتى عراف أو كاهن أو من يدَّعي معرفة الغيب فهو لا يخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن يصدقه في شيء في المستقبل من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ويعتقد أنه عنده علم الغيب، يعتقد أن هذا العراف يعلم الغيب كعلم الله عَزَّ وَجَلَّ للغيب، فهذا كافر ،مشرك في ربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ{[النمل: ٦٥].

فمن اعتقد أن الكاهن أو العراف أو من يدَّعي علم الغيب أنه يعلم الغيب واعتقد ذلك فهو كافر خارج من ملة الإسلام، ويحمل عليه هذين الحديثين والأثر.

الحالة الثانية: أن يأتي إلى الكاهن أو العراف أو من يدَّعي علم الغيب ويصدقه بغيب واقع أو مضى، فهذا قد وقع في كبيرة من كبائر الذنوب ولا تُقبل له صلاة أربعين يومًا، وعليه يُحمل«فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ».

الحالة الثالثة: أن يأتي إلى الكاهن أو العراف أو من يدَّعي علم الغيب فيكذبه، يقول في نفسه: تكذب فيكذبه، فهذا محرم ولا يجوز، حتى لو أتى إليه ليكذبه فهذا محرم ولا يجوز، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ»، فلا يجوز أن يأتيه حتى لو كذبه.

الحالة الرابعة: أن يأتي إليه ويسأله ليستخبره حتى يقبض عليه، كما لو أرسل الإمام شخص وقال: اذهب إلى هذا انظر هل هو ساحر أو لا؟ هل هو كاهن او لا؟ هل هو عراف او لا؟ فيسأله ليستخبره فهذا جائز،بل قد يكون مطلوب، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى إلى ابن صياد فقال له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قَدْخَبَأْتُ لَكَ»، فقال ابن صياد:الدخ، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستخبره فهذا جائز، وقد يكون مطلوب إذا كان يريد القبض عليه.

ويُنبه على أن الغيب ينقسم إلى قسمين:

الأول: غيب مطلق وهو ما يكون في المستقبل والأمور الغائبة التي لا يعلمها إلا الله، فهذه خاصة بالله عَزَّ وَجَلَّ، وقد يُطلع الله عَزَّ وَجَلَّ بعض خلقه على ما شاء من هذا الغيب كأن يُطلع ملك من الملائكة أو رسول من الرسل على أمر غيبي يأتي في المستقبل.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا{[الجن: ٢٦-٢٨].

فمن ادعى علم هذا الغيب غير من استثناه الله عَزَّ وَجَلَّ فهو كافر، ومن صدقه في ذلك واعتقد أنه يعلم الغيب فهو كافر؛ لأن الغيب مما استأثر الله عَزَّ وَجَلَّ به.

القسم الثاني: الغيب المقيد: وهو الغيب النسبي، وهو الذي يغيب عن بعض الناس أو بعض الخلق دون بعض، كما أن بعض الناس إذا كانوا في مكان يغيب عنهم ما يحصل في المكان الآخر.

فمثلًا: نحن الآن في المسجد يغيب عنا ما يحصل السوق، هذا بالنسبة لنا غيب وبالنسبة لأولئك شهادة، فهذا قد يطلع عليه الكاهن والعراف أو الساحر بإخبار القرين هذا يسمى غيب مقيد واقع.

ولذلك قد يأتي الرجل إلى الكاهن والعراف فيقول له الكاهن أو العراف: أنت فلان ابن فلان، أنت قد ضاع لك هذه السلعة، أنت قد حصل معك كذا وكذا، هذا غيب واقع

يعلم بسبب القرين الذي مع هذا الشخص، القرين الذي مع الساحر يخبره القرين الذي مع هذا الشخص.

فهنا قد يلتبس على الإنسان ويعتقد أن هذا الكاهن يعلم الغيب، وهو ليس بغيب إنما هو غيب نسبي.

ولذلك يُنبه على أن الإنسان إذا أتى إلى كاهن أو العراف فقال له: أنت فلان، أنت تشكو من كذا، أنت حصل معك هذه المشكلة، هذا يسمى غيب نسبي، هذا ليس من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله هذا يسمى غيب نسبي، لأن الكاهن معه قرين وهذا الذي أتى معه قرين، والقرين الذي مع الكاهن يسأل القرين الذي مع هذا الشخص فيخبره بهذا كله ثم يخبر الكاهن فيعتقد هذا الشخص وهو لا يدري عن هذه الأمور أن هذا من علم الغيب، وهو ليس من علم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن عمران بن حُصَين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «لَيْسَ مِنَّا من تَطيَّرَ أو تُطُيِّر لهُ أو تَكهَّنَ أو تُكهِّنَ لهُ أو سَحَرَ أو سُحِرَ له، ومَن أتىٰ كاهِنًا فصدَّقَه بما يقولُ؛ فقد كَفَرَ بِما أُنزِلَ علىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». رواه البزار بإسناد جيد، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دون قوله: «وَمَنْ أَتَىٰ..» إلخ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وعن عمران بن حُصَين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا:** «**لَيْسَ مِنَّا من تَطيَّرَ أو تُطُيِّر له**».

«**لَيْسَ مِنَّا**»؛ يعني: ليس من سنتنا ومن شرعنا ومن جماعتنا.

«**من تَطيَّرَ**»؛ يعني: من تطير بنفسه وقع له الطيرة.

«**أو تُطُيِّر له**»؛ يعني: تطير من غيره.

«**أو تَكهَّنَ أو تُكهِّنَ له**»؛ يعني: عمل الكهنة بنفسه أو عُملت له.

«**أو سَحَرَ**»؛ يعني: سحر بنفسه.

«أو سُحِرَ له»؛ بمعنى: فعله له غيره برضاه.

«ومَن أتىٰ كاهِنًا فصدَّقَه بما يقولُ؛ فقد كَفَرَ بِما أُنزِلَ علىٰ مُحَمَّدٍ».

كما تقدم إذا صدقه بالغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، أما إذا صدقه بالغيب النسبي فهذا محرم ولا يكفر -والله أعلم- إلا إن اعتقد أنه يعلم الغيب، إذا اعتقد أنه يعلم المغيبات فهذا أمر آخر.

ولذلك العلماء اختلفوا في هذه هل يكفر من صدق الكاهن والعراف أو لا يكفر؟ بعضهم قال: لا يكفر وإنما هو كفر دون كفر.

وبعضهم قال: يكفر.

وبعضهم قال: بالتفصيل، فإن كان صدقه في الغيب النسبي الواقع فهذا لا يكفر وهو محرم، وإن كان صدقه في الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله واعتقد أنه يعلم الغيب فهذا كافر خارج عن ملة الإسلام.

والعلة في ذلك: أنه اعتقد أنه مع الله عَزَّ وَجَلَّ مشارك في علم الغيب فهو شرك في الربوبية؛ لذلك الشرك قد يقع في الربوبية، كما لو اعتقد أن غير الله يخلق، أو غير الله يرزق كخلق الله ورزق الله فهنا يشرك بربوبية الله، كذلك من اعتقد أن أحد غير الله يعلم الغيب كعلم الله فقد أشرك بربوبية الله.

قال: **رواه البزار بإسناد جيد**؛ يعني: إسناده جيد حسن.

ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن، من حديث ابن عباس دون قوله: «وَمَنْ أَتَىٰ..»؛ يعني: من غير قوله: ومن أتى كاهنًا إلى آخره ما ذكرها، ما ذكرت في هذا الأثر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **قال البغوي: العراف**: الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات يُستدل بها علىٰ المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، **والكاهن**: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال:**قال البغوي :العراف**: هنا يعرف البغوي رَحِمَهُ اللهُ العراف.

قال:**هو الذي يدَّعي معرفة الأمور**؛ يعني: يدَّعي أنه يعرف الأمور الأشياء، يعني: يعرف مكان الضالة واسم الشخص ونحو ذلك.

بمقدمات؛ كما لو كان يخط على الأرض أو يضع على الفنجان أو نحو ذلك.

قال: يُستدل بها على المسروق؛يعني: على الشيء المسروق، كما لو خط في الأرض وقال: سرق سلعتك فلان.

على المسروق ومكان الضالة؛ الضالة يُطلق على البهائم، كالبهيمة الضالة، أو البعير الضال، ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن؛ يعني يقول البغوي رَحِمَهُ اللهُ: أن العراف هو الكاهن، هل العراف شيء والكاهن شيء آخر أم أن الكاهن هو العراف؟

يقول لك البغوي:**وقيل هو الكاهن**؛يعني: العراف وهو الكاهن.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل؛ يعني: يخبر عن ما هو غائب في المستقبل.

كمن يقول: إذا كان برجك في البرج الفلاني ستموت في الوقت الفلاني، أو سيولد لك ولد، أو ستتزوج بفلانة، فيخبر بأمور مستقبلة.

وقيل: هو الذي يخبر عن ما في الضمير؛ هذا من الغيب النسي.

الأول: الغيب المطلق الذي في المستقبل.

والثاني: الذي في الضمير الذي يخفيه يعرفه القرين، يعرف أن هذا الشخص حصل معه كذا وكذا ويخفيه في ضميره فيخبره هذا الكاهن به.

قال:**وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن.**

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: أن العراف هو اسم للكاهن -يعني يشمل هذا كله-.

يقول:**العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم**؛ يعني: كلهم داخلين في هذا؛ بمعنى: أن المعنى واحد واللفظ يختلف، هذا يسمى الترادف اتحاد المعنى واختلاف اللفظ، كما لو قيل للسيف -مثلًا- السيف والبتار والمهند دال على شيء واحد.

قال: والرمال، الرمال الذي يخط في الأرض، يخط خط في الرمل ويقول: سيحصل معك كذا أو نحو كذا، فيستدل بها على أشياء.

ونحوهم؛ يعني: يدخل فيهم المنجم وغير ذلك.

ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق؛ يعني: يدَّعي معرفة الأمور بهذه الطرق.

والكاهن والعراف ونحوهم كفار، لأن الكاهن لا يخلو من الكفر والشرك، وذلك أن العراف أو الكاهن يدَّعي علم الغيب فيقع في شرك في توحيد الربوبية، لأنه يدَّعي أنه يشارك الله عَزَّ وَجَلَّ في علم الغيب الذي لا يعلمه إلاهو.

الثاني: أن الكاهن أو العراف لا يخلو من التعبد للشيطان التذلل له، لأنه لا يمكن أن الشيطان يخبره بالشيء أو يأتيه بما يريد إلا بعد ما يقع في التقرب له والعبادة له، ولذلك الكاهن أو العراف يعبد الشيطان فيسجد له أو يذل له أو يذبح له، ثم بعد ذلك يأتي إليه الشيطان بما يريد، وذلك أن الشيطان أحب ما يكون له الشرك، فإذا أشرك الإنسان هذا أحب ما يكون عنده، أحب ما يكون عند الشيطان الشرك، فإذا أشرك الإنسان هذا هو الذي يريد.

واعلم أن طاعة الشيطان للإنسان ليست كطاعة الإنسان للشيطان، فطاعة الشيطان للإنسان لا يذل له ولا يخضع له، أما طاعة الإنسان للشيطان فإنها ذل وخضوع وتعبد،ولذلك الكاهن عبد للشيطان، والعراف عبد للشيطان فهو من عبيد الشياطين فهو يكفر، يكفر لسببين:

السبب الأول: أنه يدَّعي علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فيدَّعي أنه يشارك الله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته.

السبب الثاني: أنه يتذلل ويخضع ويتعبد للشيطان أو يذبح له، أو يهين المصحف فيضع عليه النجسات أو غير ذلك،فهو لا يخلو من الشرك والكفر.

ولذلك يحذر المسلم من الذهاب لهؤلاء إذا كانوا بهذه المثابة يهينون كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ أو يشركون بالله ويتذللون للشياطين، كيف يرجوا من هؤلاء الذين بلغوا في هذا السوء منزلتهم؟!

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقال ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم: ما أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من خلاق.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**وقال ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ في قوم يكتبون**؛ يعني: يكتبون هذه الحروف.

)**أبا جاد**) أبا جاد هي حروف يُدعى بها معرفة الغيب، وهي أنهم يأتون بهذه الحروف مثل (أبجد، هوز، حطي) ونحو ذلك من هذه الكلمات،فيدَّعون بها معرفة الأشياء.

قال: **وينظرون في النجوم**؛ يعني: ينظرون في النجوم ليتعرفوا بها على الوقائع في المستقبل فينظرون إلى النجوم ويقول: إذا كان البرج الفلاني فأنت ستموت، أو سيأتيك ولد، أو ستتزوج فلانة، أو سترزق بمال، أو نحو ذلك.

فينظرون إلى النجوم، وذلك أن علم التأثير بالنجوم هو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية فينظر إلى النجم الفلاني فيقول: إذا خرج النجم الفلاني سيولد لك ولد، إذا رأيت النجم الفلاني فإن هذا الشخص سيموت، وهكذا، فيدَّعي علم الغيب بالنجوم.

قال: **ما أرى**؛ يعني: ما أعلم، بفتح الهمزة ما أعلم، وبضمها يعني: ما أظن.

من فعل ذلك له عند الله من خلاق؛ يعني: لا أظن أنه له عند الله خلاق، لأنه ليس له خلاق؛ يعني: أنه لا نصيب له في الآخرة.

وحكم تعلم الحروف أو كتابة الحروف بهذه الطريقة لا تخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يكتب هذه الحروف ويتعلمها ليستدل بها على علم الغيب أو معرفة الأشياء، فهذا لا يجوز؛ يعني: محرم.

الحالة الثانية: أن يكتب هذه الحروف أو يتعلمها لمعرفة الجمل، لمعرفة الكلام، ومعرفة كلام العرب، فهذا جائز، فلا يدخل في هذا الأثر.

إذا تعلم هذه الحروف -مثلًا- الألف والباء والتاء وهكذا يريد معرفة اللغة لغة العرب، فهذا جائز.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في النشرة

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **باب ما جاء في النشرة**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر هذا الباب ليبين أن من النشرة ما هو ممنوع ونوع من الشرك, فأتى بهذا الباب ليحذر منها, لأن من النشرة ما هو نوع من الشرك.

قال: **باب ما جاء**.

ما جاء: يعني: من النصوص, **في النشرة**.

النشرة: هي حل الشيء ونشره, وهي حل السحر عن المسحور, وهي تنقسم إلى قسمين:

الأول: حل السحر عن المسحور بأمور جائزة, كالرقية الشرعية مثلًا, فهذا جائز.

الثاني: حل السحر عن المسحور بسحر مثله, فهذا محرم ولا يجوز, وهذا ما عليه جمهور العلماء أنه لا يحل ولا يجوز حل السحر عن المسحور بسحر مثله, وإن ذهب بعض العلماء الى أنه يجوز حال الضرورة, قالوا: يجوز حال الضرورة.

فيقال -والله أعلم-: أن الضرورة هنا غير حاصلة؛ لأن هذه الضرورة لها طريق جائز وهي الرقية الشرعية, فالرقية الشرعية كافية لهذه الضرورة بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ, ولأنه لا يُعمل الكفر لإحياء النفوس المريضة, فالسحر كفر, فلا يباح الكفر لأجل العلاج.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ شِرْكًا», وهذا نص صريح في منع حل السحر عن المسحور.

وجاء في حديث ابن مسعود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَ أُمَّتِي فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْهَا», والسحر محرم, فلا يمكن أن يكون علاج.

فالصواب: أنه لا يجوز حل السحر عن المسحور بسحر مثله, ولأنه إذا عُمل السحر الآخر فإنه قد يقع الآخر في الشرك, فإذا رضي به قد يكون رضي بالشرك,وهذا خطير.

ولذلك حل السحر عن المسحور بسحر مثله لا يجوز؛ لأن هناك طريق وهو الرقية الشرعية, ولأنه لا يُعمل الشرك لإحياء النفوس, ولأنه إذا عمل السحر الآخر فقد يقع الشرك بالسحر الآخر, فإذا رضيه فإن هذا يكون على خطر في ذهاب الدين, لأن من رضي الشرك فهو مشرك كافر, وإذا لم يرضاه فإنه يعمل الشرك وهو كاره له فيكون سبب في وقوع الشرك.

فلذلك لا يجوز حل السحر عن المسحور بسحر مثله, وأما بالطريقة الشرعية فجائز, كما سيأتينا إن شاء الله في هذا الباب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن جابر أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عن النُشرة فقال: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». رواه أحمد بسند جيداً وأبو داود.

وقال: سُئِلَ أحمد عنها فقال: ابنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هذا كُلَّهُ.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

عن جابر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عن النُّشرة: يعني: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل عن النشرة, و(ال) هنا في النشرة للعهد الذهني؛ أي: النشرة التي كانت تُعمل في الجاهلية.

فقال:«هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». (هي) الضمير عائد إلى هذه النشرة التي كانت تُعمل في الجاهلين.

«هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»؛ يعني: من دلالة الشيطان وتسويله, ودل الإنسان عليه.

قال:**رواه أحمد بسند جيد, ورواه أبو داود, وقال وسئل أحمد عنها:** يعني: سئل أحمد عن هذه النشرة التي هي من عمل أهل الجاهلية,**فقال: ابنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هذا كُلَّهُ.**

والكراهة هنا والله أعلم أنها كراهة التحريم, لأن السلف كانوا يطلقون الكراهة على ما هو محرم, فيقولون يكره وهو محرم, فإن كانت من عمل الشيطان فإنها لا تجوز.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن النشرة التي تُعمل في الجاهلية لا تجوز, وهي التي من عمل الشيطان؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أضافها للشيطان, وما أضيف للشيطان فهو لا يجوز.

ومن الفوائد: أن حل السحر عن المسحور بسحر مثله لا يجوز؛ لأنه من عمل الشيطان, فالشيطان هو الذي يُعلم الناس السحر, فإذا حُل السحر عن المسحور بسحر مثله فإن هذا من عمل الشيطان؛ ولذلك الشيطان يحب أن يقع السحر لأنه مما يدعو إليه.

فيستدل بهذا الحديث على أن حل السحر عن المسحور بسحر مثله لا يجوز.

ومن الفوائد: احتياط الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ, وأنه يحتاط في الفُتية, ما قال رَحِمَهُ رحمه محرم, ولكن قال:(ابن مسعود يكره هذا كله), فهذا يدلك على ورع الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

وقد ذكروا عنه رَحِمَهُ اللهُ أنه أفتى بستين ألف مسألة يقول فيها قال الله وقال رسوله, فهو إمام رَحِمَهُ اللهُ, وهذا يدلك على ورعه, فيستفيد طالب العلم أن يكون ورع فلا يفتي بغير علم.

ومن الفوائد: أن ابن مسعود رَحِمَهُ اللهُ ينهى عن النشرة التي هي من عمل الشيطان, ينهى عنها لأنه يكرهها, والظاهر والله أعلم أنها كراهة الشيء الذي لا يجوز.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي البخاري عن قتادة قُلْتُ لابن المُسَيّبِ: رجُلٌ بِهِ طِبٌ أو يُؤخَّذُ عَن امرأَتِهِ، أَيُحَلُّ عنهُ أو يُنشَّرُ؟ قال: لا بأسَ بهِ، إنما يُريدُونَ به الإصلاحَ، فأمَّا ما يَنْفَعُ فلم يُنْهَ عَنْهُ. انتهىٰ.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال:**وفي البخاري:** يعني: في صحيح البخاري,**عن قتادة قُلْتُ لابن المُسَيّبِ:** يعني: يسأله,**رجُلٌ بِهِ طِبٌ:** يعني: رجل به طب.

والطب هنا: هو الرجل الذي أُصيب بسحر, وكن عنه بالطب تفاؤلًا.

أو يُؤخَّذُ عَن امرأَتِهِ.

(أو) هنا الظاهر والله أعلم أنها بمعنى (و) ويؤخَّذ عن امرأته, أو بمعنى: الواو, يعني: يؤخَّذ عن امرأته أيضًا, يعني مطبوب مريض بسحر ويؤخَّذ عن امرأته, يعني: يُحبس عنها, بحيث لا يستطيع أن يأتي امرأته بسبب السحر.

أَيُحَلُّ عنهُ أو يُنشَّرُ؟ يُحل عنه هذا السحر أو ينشر, يعني يُعمل لها النشرة.

قال: لا بأسَ بهِ: يعني: لا بأس بهذه النشرة.

والمراد هنا -والله أعلم-: النشرة الجائزة -كما تقدم- يعني النشرة التي هي بالرقية الشرعية.

لذلك قال:**إنما يُريدُونَ به الإصلاحَ:** يعني: هذه النشرة يريدون بها الإصلاح, وهي الرقية الشرعية يراد به الإصلاح.

قال:**فأمَّا ما يَنْفَعُ فلم يُنْهَ عَنْهُ:** الرقية الشرعية تنفع بإذن الله فلا يُنهى عنها.

ولذلك لما سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: يا رسول الله ما ترى في رقانا؟ قال: «لَا بَأْسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وروىٰ عن الحسن أنه قال: "لا يحل السحر إلا ساحر".

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وروي عن الحسن أنه قال:"لا يحل السحر إلا ساحر"**.

هذا يراد به -والله أعلم -القسم الأول الذي يُعمل بالسحر, يعني الساحر عنده قدرة بإذن الله الكوني أنه يحل السحر عن المسحور, فهو يقدر على ذلك بإذن الله, لأنه يعمل أعمال سحرية فيبطل السحر الآخر, وهذا في النشرة التي لا تجوز؛ ولذلك سيأتي تفصيل ابن القيم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان. وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلىٰ الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة. فهذا جائز.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور.

هذا تعريف من ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ للنشرة, فالنشرة: هي من النشر وإزالة الشيء المغطى.

قال: **النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:** يعني: تنقسم إلى قسمين.

قال: **حل بسحر مثله:** هذا الأول حل السحر عن المسحور بسحر مثله.

قال:**وهو الذي من عمل الشيطان:** هذا كما تقدم أنه الذي كان يُعمل في الجاهلية هو الذي من عمل الشيطان, وهو حل السحر بسحر مثله.

قال:**وعليه يُحمل قول الحسن:** يعني: يحمل قول الحسن لا يحل السحر إلا ساحر على النشرة التي من عملا الساحر, يعني على النوع الأول.

فيتقرب الناشر والمنتشر.

فيتقرب الناشر: يعني: الفاعل الذي يريد حل السحر عن المسحور.

والمنتشر: يعني: الذي يُحَل عنه السحر.

إلى الشيطان: يعني: يتقرب إلى الشيطان بما يحب؛ لذلك قال:**بما يُحب.**

والشيطان ماذا يحب؟ يحب الكفر والشرك, من أحب ما يكون عند الشيطان الكفر والشرك, وهذا فيه أن حل السحر بسحر مثله لا يجوز, لأنه كيف للإنسان أن يرضى أن يتقرب للشيطان بما يحب؟ وكيف يرضى أن الساحر يتقرب للشيطان بما يحب؟

قال:**بما يحب:** لأن الشيطان يريد الأمر العظيم, فالمرض عنده أسهل من الشرك, فالشرك عند الشيطان أحب إليه من مرض الإنسان, الشيطان يحب أن يكون المسلم مريض وحزين كل هذا محبوب عنده, ولكن الشرك عنده أحب, فإذا تقرب إليه الإنسان بالشرك والكفر فإنه يرضى به ويبطل الفعل عن المسحور.

قال:**والثاني: النشرة بالرقية.**

هذا القسم الثاني من النشرة بالرقية, والرقية: هي النفث على المريض بريق وقراءة آيات من القرآن أو أدعية مما وردت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والتعوذات: يعني:التعوذات الواردة في الكتاب والسنة.

ومما ورد عن بعض السلف أن بعض الآيات تُقرأ على المسحور:

مثل قول تعالى:}مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ{[يونس: ٨١] , فيقرأ الراقي على المسحور وينفث عليه فيبطل بإذن الله السحر.

وأيضا قوله تعالى:}إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى{[طه: ٦٩].

وقوله تعالى:﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾[البقرة: ١٠٢].

إلى آخر الآيات, فينفث على هذا المريض فيبرأ بإذن الله.

وأيضا يقرأ عليه ما ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ:«أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ».

«بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَرٍّ يُؤْذِيكَ، مِنْ كُلِّ عَيْنٍ وَحَاسِدٍ، وَاللهُ يَشْفِيكَ».

فيقرأ عليه مثل هذه الأدعية وهذه الآيات فيبرأ بإذن الله.

قال:**والأدوية:** يعني: مما ثبت أنه سبب في إبطال السحر من الأدوية التي تُعمل.

والدعوات: يعني: يدعو لهذا المسحور, فهذا جائز لا شك فيه.

ولذلك: الذي يُحبس عن امرأته يقرأ مثلًا في ماء بآية الكرسي ويقرأ بالمعوذات ونحو ذلك, وأيضا لو دق سبع ورقات من السدر ووضعها مع هذا الماء فيُصب على هذا المريض فيبرأ بإذن الله.

وهذا السدر دواء مجرب, لأنه جُرِّب فنفع بإذن الله, وهذه مجرد أسباب, كل الذي مر مجرد أسباب, والله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يسبب الأسباب, فإن شاء جعلها تعمل وإن شاء سلبها العمل فأصبح وجودها كعدمها, فيعتقد الإنسان أن هذا مجرد سبب, وأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بيده الشفاء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في التطير

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال:**باب ما جاء في التطير**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن من التطير ما هو نوع من الشرك, أو أن التطير نوع من الشرك, فأتى به المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ليحذر من هذا الشيء, وليبين هذا النوع ويُحذر منه وما هو تعريفه.

قال:**باب ما جاء**.

ما جاء: يعني من الآيات والنصوص والأحاديث,**في التطير**.

التطير: هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

التشاؤم بمرئي؛ كما لو رأى شي فتشاءم به, أراد السفر فرأى أعور فتشاءم ورجع.

أو مسموع؛ كما لو خرج في طريق فسمع غراب وهو مريد للسفر ثم رجع خاف.

أو معلوم؛ كما لو تشاءم في شهر من الشهور أو يوم من الأيام, كما لو قال في شهر صفر لا أخرج ولا أسافر ولا أعمل أي عمل, أو لا أتزوج النساء, فهذا كله من التشاؤم والتطير.

والإنسان إذا وقع له تطير بحيث تشاءم بشيء, أراد السفر مثلًا ثم عرضت له الطيرة , فلا يخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن يُحجم ويرجع ويتشاءم, ويقول هذا السفر سيحصل لي حادث أو موت أو كذا, فهذا وقع في الشرك؛ لأنه جعل هذا سبب للنفع أو الضر, ولم يجعله الله عَزَّ وَجَلَّ كذلك.

الحالة الثانية: أن يعزم على فعل شيء -كسفر مثلًا- ثم يعرُض له التطير, كما لو رأى شيء أو سمع شيء ثم مضى وفي قلبه خوف من وقوع هذا الشيء, يعني يخشى أن يقع عليه شيء في سفره, فهذا لا يجوز هذا لا يجوز, وهو سبب لضعف التوكل, مضعف للتوكل؛ لأن الإنسان عليه أن يسير في طريقه ولا يخشى إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الحالة الثالثة: أن يعزم على فعل شيء -كسفر مثلًا- ثم يعرُض له التطير ويتشاءم بمسموع أو مرئي ثم يمضي ويجاهد نفسه, يجاهد نفسه حتى يُذهب الله عَزَّ وَجَلَّ عنه هذا, فهذا لا يضره إن شاء الله.

لما جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ عَفَا عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْهُ أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ» .

الحالة الرابعة: أن يعزم على فعل شيء -كسفر مثلًا- ثم يرى ما يتشاءم به ولا يلتفت إليه ولا يخطر بباله الطيرة, بل يمر كأنه ما سمع شيء, فهذا هو الموحد, بحيث يتكل على الله عَزَّ وَجَلَّ ويعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ: }أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{[الأعراف: ١٣١].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وقول الله تعالى:}أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{[الأعراف: ١٣١].

في هذه الآية الكريمة يبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن تشاؤم هؤلاء إنما هو بتقدير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فهو الذي قدَّر الأمور وهم يتشاءمون ويظنون أنه بسبب أشياء, وهو إنما أتاهم من تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وقضائه.

قال: }أَلَا إِنَّمَا{,(ألا): أداة استفتاح, و(إنما) أداة حصر, والحصر تدل على حصر الحكم في المذكور ونفيه عما سواه.

}أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ{؛ يعني: تشاؤمهم,}عِنْدَ اللَّهِ{؛ يعني: من قِبل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بتقديره وإرادته الكونية سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

}وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{؛ يعني: أكثر هؤلاء يظنون أنه بأسباب دنيوية, وهم لا يعلمون أنه من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ففي الآية الكريمة: يبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن الطيرة لا تنفع ولا تضر, وإنما يصاب الإنسان بتقدير الله عَزَّ وَجَلَّ, فإذا قدَّر على شيء وقع وإذا ما قدَّر الشيء لا يقع.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ الله:

وقوله تعالىٰ: }قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ{[يس: ١٩].

قَال الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: وقوله تعالى: }قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ{[يس: ١٩] .

في هذه الآية الكريمة يبين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن تشاؤم هؤلاء ليس بسبب شيء أن له سبب, وإنما وقع عليهم ما وقع بسبب ذنوبهم, فهذا من باب الذنوب, أن الذنوب هي السبب في وقوع الشيء عليهم.

قال:}قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ{؛ أي: تشاؤمكم إنما هو من قِبلكم, جاءكم من قبلكم بسبب ذنوبكم وسيئاتكم.

}أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ{؛ يعني: متجاوزون الحد.

ففي الآية الكريمة: أن ما يقع على الإنسان بسبب ذنبه, فإذا وقع عليه الشيء فليلم نفسه, ينظر إلى نفسه ما هو السبب الذي وقع؟

فالآية الأولى ليست معارضة للآية الثانية؛ لأن الآية الأولى قال:}أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ{؛ يعني: من قِبل الله, وفي الآية الأخرى الثانية قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ{؛ يعني: من قِبلكم.

فالآية الأولى هي تقدير الله؛ أي أن الله قدَّر عليكم أن يقع, والآية الثانية بسبب؛ يعني وقع عليكم هذا بسبب ذنوبكم, فهي في الأول من باب التقدير والثاني من باب التسبب.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ الله:

وعن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا عَدْوَىٰ ولا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ**». أخرجاه. زاد مسلم: «**وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ**».

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا عَدْوَىٰ»؛ يعني: لا يُعدي شيء شيءبغير تقدير الله, لا يُعدي شيء شيء بغير إذن الله, أو أن الشيء لا ينتقل بذاته دون تقدير الله.

فالمنفي هنا العدوى التي تنتقل بغير تقدير الله؛ أي: أن العدوى ليس هي بذاتها تنتقل دون أن يُقدر الله ذلك.

قال: «ولا طِيَرَةَ»؛ يعني: ولا تشاؤم, التشاؤم هنا منفي, ليس نفي وجود, بل نفي أن له الأثر.

قال: »وَلَا هَامَةَ«.

والهامة: نوع من الطيور كانوا يتشاءمون بها في الجاهلية, قيل: أنها البومة, كانوا يتشاءمون بها, إذا رأوها على بيت أحد من الناس قالوا: هذه الهامة تنعي أنه سيموت , أو أنهم إذا مات الميت قالوا إن عظام الميت تصبح طير, فيطير في السماء وينادي يطلب الثأر للميت, فهذا نفي, لا يوجد هذا الشيء.

قال: »وَلَا صَفَرَ«.

قيل: هي (حية) تصاب بها الإبل , يقولون: إذا أُصيبت بهذا المرض انتقل لغيرها أقوى من انتقال الجرب.

وقيل: أنه الشهر المعروف (صفر), وكانوا في الجاهلية يتشاءمون بهذا الشهر في شأن النكاح, فكانوا لا يتزوجون في هذا الشهر, فيقولون: صفر شهر مشؤوم لا تنكحوا فيه, كما جاء عند أبي داود, وهذا الأقرب والله أعلم, وهو الذي رجحه ابن رجب.

قال: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ».

النوء: هو الكواكب أو منازل الكواكب.

قال: »وَلَا غُولَ«.

والغول: هو نوع من الجن والشياطين يعرضون إلى الناس في الصحراء ويضلونهم عن الطريق, يتلونون لهم, والنفي هنا ليس نفي وجود, وإنما نفي تأثير, فهذه الغول ليس لها تأثير.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أنه لا عدوى؛ يعني: العدوى لا تنتقل إلى الصحيح من المريض.

والنفي هنا هو نفي الانتقال بذاته, كما كان يعتقد أهل الجاهلية, أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن العدوى تنتقل بذاتها دون تقدير الله عَزَّ وَجَلَّ, فالنفي هنا نفي الانتقال بالذات؛ أي: أنها ليست هي التي تخلق المرض وتنتقل بنفسها, هذا منفي, أما انتقال المرض من الصحيح إلى المريض بتقدير الله فهذا موجود.

ولذلك جاء عند أحمد وصححه البيهقي عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ». وهذا من باب اتقاء السبب, من باب الأخذ بالأسباب.

وجاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يُورِدُ مُمرِضٌ علىٰ مُصِحٍّ».

وجاء في حديث الشريد الثقفي: لما جاء وفد ثقيف إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان في وفد ثقيف رجل مجذوم, فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ فَارْجِعْ». الحديث في صحيح مسلم.

فهنا اتقاء السبب, فالمرض سبب بإذن الله أن ينتقل من الصحيح إلى المريض ولكن بإذن الله وتقديره ؛ ولذلك لو شاء الله ما انتقل.

ولذلك روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه جاءه رجل مجذوم, فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده فقال: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: إن هذا الحديث يُحمل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما عظُم توكله على الله عَزَّ وَجَلَّ أبطل الأسباب, أصبحت الأسباب ما تنتقل بإذن الله.

فإذا توكل الإنسان وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له, وأن الأسباب لا يمكن أن تنتقل إلا بتقدير الله واعتمد على الله حق الاعتماد أبعد الله عَزَّ وَجَلَّ عنه هذه الأسباب, حتى لو لابس الأسباب ما تنتقل إليه.

يقول ابن رجب: أنه أخذ به بعض الصحابة.

وإن كان الحديث فيه مقال, فيه من ضعف الحديث, لكن الإنسان عليه أن ينظر نظرات:

النظر الأول: أن هذه الأمراض لا تنتقل بذاتها؛ بحيث أنها تخلق الفعل بنفسها, هذا لا يجوز أن يعتقد ذلك, وهذا ما نفاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك لما قال له الرجل: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّا نَأْخُذُ الشَّاةَ الْجَرِبَةَ فَنَطْرَحُهَا فِي الْغَنَمِ فَتَجْرَبُ؟ قال: «مَنْ أَجْرَبَ الْأَوَّلَ»؛ يعني: من أمرض الأول.

النظر الثاني: أن يتقي الأسباب ويعتمد على الله, فيأخذ بما شرع الله عَزَّ وَجَلَّ ويتقي ماقد يضره, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يُورِدُ مُمرِضٌ على مُصِحٍّ».

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ كما في حديث عبد الرحمن بن عوف: «إِذَا وَقَعَ الطَّاعُونُ بِأَرْضٍ فَلا تَدْخُلُوهَا». الطاعون سبب للانتقال بإذن الله, فهذا من باب اتقاء الأسباب.

ومن الفوائد: أن الطيرة منفية, والنفي هنا نفي التأثير, فالطيرة لا تأثير لها, ولكن قد توجد من بعض الناس, فليس النفي نفي الوجود, وإنما نفي التأثير.

ومن الفوائد: أن الهامة لا أثر لها, فالطيور ليس لها أثر فيما قدَّر الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك كان رجل عند ابن عباس وقد مر طير, فقال هذا الرجل: خير خير, فقال ابن عباس: "لا خير ولا شر"؛ يعني: أين الخير في هذا الطير؟!

فالطير ليس هو سببًا للخير ولا سببًا للشر, فلا يوجد شيء يُعلق الإنسان قلبه عليه في الطير.

ومن الفوائد: أن التشاؤم بشهر صفر ليس بصحيح, فشهر صفر مثل غيره من الشهور, فما قد يقع على الإنسان في صفر قد يقع عليه في غيره من الشهور أو باقي الشهور.

ومن الفوائد: أنه لا يُعتقد في النجوم والكواكب, وسيأتينا إن شاء الله لها باب.

ومن الفوائد: أنه لا تأثير للغول, فالنفي هنا نفي التأثير؛ أي: أن الغول لا تستطيع أن تضل أحد بغير تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, أو تعرض لأحد فتضره ولم يقدر الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الشيء, وليس نفي للوجود, فقد توجد هذه الغول.

ولذلك جاء عند أحمد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا تَغَوَّلَتْ لَكُمُ الْغِيلَانُ فَبَادَرُوا بِالْأَذَانِ»؛ يعني: إذا ظهر لك هذا الغول يريد أن يضلك عن الطريق فأذِّن فإنه يختفي بإذن الله.

والغول هو شيطان يخرج ويتلون بألوان, ويريد أن يُخيف هذا الإنسان ويضله عن الطريق, ولكن إذا رأيت هذا فأذِّن.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا تَغَوَّلَتْ لَكُمُ الْغِيلَانُ فَبَادَرُوا بِالْأَذَانِ», فإذا أذَّنت اختفى بإذن الله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا عَدْوَىٰ وَلَا طِيَرَةَ ويُعْجِبُنِي الْفَأْلُ». قالوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قال: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

قَالَ الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

قال: **ولهما:** يعني: للبخاري ومسلم, **عن أنس قال: قال رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»:لَا عَدْوَىٰ»؛ يعني: كما تقدم أن العدوى لا تنتقل بذاتها, والنفي هنا نفي الانتقال بالذات دون تقدير الله, هذا منفي.

»وَلَا طِيَرَةَ»؛ يعني: الطير ليس له تأثير, لا ينفع ولا يضر.

«ويُعْجِبُنِي الْفَأْلُ» ,«ويُعْجِبُنِي»؛ يعني: استحسنه, والعجب هنا عجب استحسان, وذلك أن العجب ينقسم إلى قسمين:

الأول: عجب إنكار.

كقوله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ{[الصافات: ١٢].

وفي قراءة: }عَجِبْتُ{, أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي عجِب.

وفي القراءة المشهورة: }بَلْ عَجِبْتَ{؛ يعني: أنت يا محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمُ.

وفي قراءة: }بَلْ عَجِبْتُ{؛ هذا عجب إنكار.

الثاني: عجب استحسان.

كهذا الحديث.

وكقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الله عجِب من صنيعكما البارحة»؛ يعني: استحسنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, أو أن هذا الشيء حسن.

فقوله: «ويُعْجِبُنِي»؛ يعني: يستحسنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمُ.

«الْفَأْلُ».

والفأل: عرَّفه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمُ يعني التفاؤل, قال: هو الكلمة الطيبة.

هذا تعريف الفأل, ولا يتقدم بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, لأنه عرَّفه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمُ بالكلمة الطيبة.

والكلمة الطيبة يعني: يتفاءل بها إذا سمعها وكان له حاجة.

فمثلًا: مريض سمع رجل يقول: يا سالم, فتفاءل أن الله يشفيه.

أو رجل سافر وأخذ الطريق وسمع رجل يقول: يا واصل, فتفاءل أن الله عَزَّ وَجَلَّ يوصله بسلامة.

فهذا معنى التفاؤل.

والفأل حسن, وأما الطيرة فهي مذمومة.

والفرق بين الفأل والطيرة من وجوه:

أولًا: أن الفأل هو حُسن ظن بالله, والإنسان مأمور أن يُحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وأما الطيرة: فهي سوء ظن بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فيظن أن الله يوقع عليه شيء بسبب الذي رآه.

الثاني: أن الفأل فيه تعلق بالله, إذا سمع الإنسان ما يتفاءل به تعلق بالله وأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ينجيه ويزيد طمعه فيما عند الله عَزَّ وَجَلَّ, وهذا مطلوب أن الإنسان يلجأ إلى الله, وأما الطيرة ففيها تعلق بما رأى أو سمع, فيقع عنده ضعف في توحيده ويتعلق بغير الله, فيتعلق بما رأى أو بما سمع, فيميل قلبه إلى هذا الشيء الموهوم.

والفرق الثالث: أن الفأل سبب في أن ينشرح صدر الإنسان, وأما الطيرة فهي سبب في أن يحزن, والإنسان منهي عن الحزن.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**» .

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا الحديث قال ابن حسن وصوابه عن عروة بن عامر القرشي كما في قرة عيون الموحدين **قال ولأبي داود بسند صحيح:** يعني: هذا الحديث مسند بالسند الصحيح. والسند: هو سلسلة الرجال الموصلة إلى المتن. هذا هو السند.

والصحيح: هو ما نقله العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة. هذا هو الحديث الصحيح و.

قال: **عن عقبة بن عامر قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال.**

يعني: ما ذكر هذا الرجل الذي ذكر الطيرة, لأن الحكم ما يتغير, فالمهم هو الحكم, فلا يتغير الحكم بذكر الشخص.

قال: **ذُكرت الطيرة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:**«أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ»؛ يعني: أحسن الطيرة الفأل,التفاؤل.

«وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا»؛ يعني: الطيرة, ما ترد مسلم عن طريقه؛ لأنها لا تنفع ولا تضر, فيمضي الإنسان وكأنه ما رأى شيء, لا يتشاءم.

«فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ», إذا رأى مثلًا شيء يكرهه, مثل إنسان سافر فرأى أعور في طريقه.

قال: «فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ», الحسنات هنا يعني النِّعم, «إِلَّا أَنْتَ»؛ يعني: إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«وَلَايَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ»؛ يعني: النِّقم والمصائب, «إِلَّا أَنْتَ»؛ يعني: إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

«وَلَا حَوْلَ»؛ يعني: لا تحول من حال إلى حال, «وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»؛ إلا بتيسيرك وتسديدك, فالإنسان لا يستطيع أن يتحول من حال إلى حال إلا بتسديد الله عَزَّ وَجَلَّ له, فلا يتحول من معصية إلى طاعة إلا بتوفيق الله وإعانة الله له, ولا يثبُت على طاعة إلا بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وتثبيته, فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ففي هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن الفأل حسن؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ».

ومن الفوائد: أن الطيرة ليس لها تأثير, فلا ترد المسلم, وهنا النفي نفي أن يتخذها شيء يعمل به.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا عرض له ما يكره فعليه أن يأخذ بأسباب ذهاب هذا الذي يكرهه.

والإنسان إذا عرض له طيرة بحيث أنه أراد أن يسافر مثلا فرأى غراب, ووقع في قلبه أنه سيحصل عليه شيء في هذا الطريق بسبب رؤية هذا الغراب, فماذا يفعل؟

عليه أولًا: أن يتوكل على الله, يفوض أمره إلى الله؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا}[التوبة: ٥١].

الثاني: أن يأخذ بما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فيقول: «اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

الثالث: أن يمضي في طريقه ولا يرجع.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن مسعود مرفوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». رواه أبو داود والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وعن ابن مسعود مرفوعًا:** «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»؛ يعني: نوع من الشرك.

«الطِّيَرَةُ شِرْكٌ», وهذا توكيد, فاللفظ الثاني توكيد للأول, وهذا فيه دليل على أن الطيرة شرك.

«وَمَا مِنَّا», هذا الذي من قول ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: «وَمَا مِنَّا إِلَّا»؛ يعني: يقع عليه شيء من هذا الشيء, «وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»؛ يعني: يُذهب هذه الذي يجده الإنسان في قلبه بالتوكل والاعتماد على الله.

وقول ابن مسعود: «وَمَا مِنَّا», هذا من قول ابن مسعود, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم من الشرك, لا يمكن أن يقع منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ولذلك رجح ابن القيم أن هذا من قول ابن مسعود.

ففي هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن الطيرة شرك, والشرك لا يُغفر إلا بالتوبة, فيحذر الإنسان من التطير, يعني: التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم, فيحذر لأن هذا نوع من الشرك, لأنه علق قلبه بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى, فاعتمد على سبب لم يجعله الله عَزَّ وَجَلَّ سبب, لا شرعي ولا كوني, ولذلك أكَّد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه شرك.

ومن الفوائد: أن المسلم المؤمن التقي قد يقع في قلبه شيء من التطير, ولكنه إذا اعتمد على الله أذهب هذا عنه.

ولذلك هذا يستفيد منه الإنسان إذا وقع في قلبه خوف من العين أو السحر أو المس فإنه يتوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ وقد قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{[الطلاق: ٣]؛ يعني: كافيه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عن حاجَتِهِ فقد أَشْرَكَ» قالوا: فما كَفَّارَةُذَلِكَ؟ قال: «أن تَقُولَ: اللَّهُمَ لا خَيْرَ إلا خَيْرُكَ، ولا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ، ولا إِلهَ غَيْرُكَ».

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال:**ولأحمد من حديث ابن عمرو:**«من رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عن حاجَتِهِ»؛ يعني: أحجم عن الحاجة التي أراد أن يذهب إليها بسبب ما وقع له من تشاؤم, «فقد أَشْرَكَ»؛ يعني: فقد وقع في الشرك, لأنه جعل ما ليس له تأثير جعل له تأثير.

ولذلك قال أحد العلماء: إنما كانت الطيرة نوع من الشرك لأن الإنسان يعتقد في غير الله النفع والضر.

يعتقد أن الطير ينفع ويضر من دون الله, أو يعتقد أنه سبب, ولم يجعله الله سبب, لا كوني ولا شرعي؛ ولذلك يقع في الشرك.

قال: **قالوا: فما كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟** يعني: ما هو الشيء الذي يستر هذا الفعل ويذهبه؟

قال:«أن تَقُولَ»؛ يعني: يقول هذا القول, قال:«اللَّهُمَ»؛ يعني: يا الله, «لا خَيْرَ إلا خَيْرُكَ»؛ يعني: ما من خير إلا منك يا رب, «ولا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ»؛ يعني: لا تشاؤم ولا غير ذلك ولا هذه الطيور إلا طيرك, فالمُلك لله وحده لا شريك له, «ولا إِلهَ غَيْرُكَ»؛ يعني: لا معبود بحق سواك.

ففي هذا الأثر فوائد:

من فوائد هذا الأثر: أن من أحجم عن حاجته وهو يريدها وأحجم بسبب مرئي أو سبب مسموع فإنه قد وقع في الشرك.

فمثلًا: إنسان أراد أن يتزوج, فخرج إلى بيت هذا الشخص ليخطب هذه المرأة, ثم رأى كلب مكسور القدم, قال: هذا الزواج سيكون فاشل وغير صحيح, ثم رجع وترك هذه المرأة, فهذا وقع في الشرك؛ لأنه اعتقد النافع والضار في هذا الكلب الذي ليس له تأثير؛ ولذلك يحذر الإنسان من الشرك.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا عرض له شيء من هذا فإن له كفارة فعليه أن يمضي ويقول: "اللَّهُمَ لاخَيْرَ إلا خَيْرُكَ"؛ يعني: ما يأتينا الخير إلا من قِبلك يا رب, "ولاطَيْرَ إلا طَيْرُكَ، ولا إِلَهَ غَيْرُكَ", فيعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وله من حديث الفضل بن العباس رَضِي اللهُ عَنْهُ: «إنما الطِّيَرَةُ ما أمْضَاكَ أو رَدّك».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وله من حديث الفضل**: يعني: للإمام أحمد, **من حديث الفضل بن العباس رَضِي اللهُ عَنْهُ**: «**إنما الطِّيَرَةُ**»؛ يعني: تعريف الطيرة, هذا الحديث فيه تعريف الطيرة, ما هي الطيرة؟

قال: «**ما أَمْضَاكَ**»؛ يعني: جعلك تمضي بسببه, هذا يسمى طيرة.

«**أو رَدَّكَ**»؛ رأيت طير لا تحبه ثم رجعت, أو رأيت شيء تسمعه ثم رجعت, هذا يسمى طيرة.

ولكن هذا الأثر فيه انقطاع, ولو ثبت لكان تعريف للطِّيرة, فيؤخذ منه أن الطيرة هي ما أمضاك في الطريق أو ردَّك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في التنجيم

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في التنجيم**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان نسبة اجاد الأشياء على وجه الاستقلال إلى النجوم شرك أكبر, وجعل النجوم سبب لنزول الأمطار أو نحو ذلك شرك أصغر أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليبين ما جاء في ذلك, ويبين ما المقصود من النجوم, والتحذير من الاعتقاد فيها غير ما خُلقت له.

قال:**باب ما جاء في التنجيم**.

ما جاء: يعني من النصوص,**في التنجيم**.

والتنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

والتنجيم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير, وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير, وهو الاستدلال بالنجوم على الأمور الدينية والدنيوية, فالأمور الدينية كاتجاه القبلة, والأمور الدنيوية كفصول السنة والجهات, إذا كان الإنسان ساعي في طريق وأضاع الطريق فيستدل بالنجوم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: "خلق الله هذه النجوم لثلاثٍ: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدىٰ بها فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به" انتهىٰ.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: قال البخاري في صحيحه: قال قتادة-قتاده من دعامة رَحِمَهُ اللهُ-**خلق الله هذه النجوم لثلاثٍ:** يعني: أوجد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هذه النجوم لثلاثة أمور.

قال:**"زينة للسماء"**؛ أي: أن النجوم زيُنت بها السماء الدنيا؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ{[الملك: ٥].

الثاني قال قتاده: "ورجومًا للشياطين", هذا الثاني رجومًا للشياطين؛ أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى جعلها رجوما للشياطين إذا أرادوا أن يسترقون السمع من السماء فيرجم الشيطان بهذا النجم.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ{[الحجر: ١٨].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ{[الملك: ٥].

قال: **"وعلامات يُهتدى بها"**؛ أي: يجعلها دليل على الطريق أو جهة القبلة أو نحو ذلك.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ{[النحل: ١٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ{[الأنعام: ٩٧].

قال: **"فمن تأول فيها غير ذلك"**؛ يعني: اعتقد فيها غير ذلك أو يستدل بها على غير ذلك.

" أخطأ"؛ يعني: أخطأ الطريق؛ لأن النجوم ليس لها إلا هذه الثلاثة, وهي مذكورة في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

"وأضاع نصيبه"؛ يعني: أضاع نصيبه, من الأجر ونحو ذلك, إذا كان يعتقد أنها تخلق أو ترزق أو يستدل بها على علم الغيب فهذا أضاع النصيب بالكلية, حيث أنه ليس له في الآخرة من خلاق.

"وتكلف ما لا علم له به"؛ يعني: تكلف وطلب علم ما لم يُطلب منه.

ففي هذا الأثر الذي ذكره البخاري رَحِمَهُ اللهُ عن قتادة أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى اوجد النجوم لهذه الثلاثة, وهي مذكورة في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وعلى هذا من اعتقد فيها غير ذلك فقد أخطأ وقد وقع في الخطأ وتكلف ما لا علم به, كما قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

"وكره قتادة تعلُّم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه". ذكره حرب عنهما ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: "**وكره قتادة تعلُّم منازل القمر**".

منازل القمر: هي النجوم التي ينزل فيها القمر, والقمر له ثمان وعشرون منزلة ينزلها كل ليلة, وهي نجوم تخرج.

قال: "**ولم يرخص ابن عيينة فيه**"؛ لم يرخص ابن عيينة في تعلم منازل القمر, يعني في تعلم علم النجوم ونحو ذلك.

قال:**ذكره حرب عنهما**. حرب ذكر هذا القول.

قال:**ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق**؛ أي: أن أحمد وإسحاق قالوا لا بأس بتعلم منازل القمر.

وقد تقدم أن علم النجوم ينقسم إلى قسمين:

علم النجوم تأثيرًا, بحيث أنه يجعل للنجوم والكواكب أثر في الأرض, وهذا لا يخلو من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يعتقد أن النجوم تخلق أو ترزق أو تُوجِد الشيء, فهذا شرك أكبر في ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الحالة الثانية: أن يستدل بالنجوم على علم الغيب,كالأبراج مثلًا,يقول إذا كان برجك كذا فسيولد لك ولد, أو ستموت أو ستتزوج فلانة, فهذا شرك أكبر أيضًا, وهو شرك في الربوبية, لأن علم الغيب لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الحالة الثالثة: أن يعتقد أن النجوم سبب في نزول الغيث, يعني الله عَزَّ وَجَلَّ هو الفاعل ولكن يجعل النجوم سبب في نزول الغيث.

كما لو قيل: إذا خرج النجم الفلاني نزل المطر,فيجعلها سبب, هذا شرك أصغر, لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما جعل النجوم سبب,ليست سبب لنزول المطر,فمن اعتقد ذلك فقد وقع في الشرك الأصغر.

هذا من حيث التأثير.

أما علم النجوم من حيث التسيير؛ فهذا أيضا لا يخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن يستدل بالنجوم على أموره الدينية, كاتجاه القبلة, فهذا جاهز يستدل بالنجوم ويعرف مواقع النجوم ويستدل بها على القبلة, فهذا جائز.

الحالة الثانية: أن يستدل بالنجوم على أموره الدنيوية, فهذا أيضًا له صور:

الصورة الأولى: أن يستدل بالنجوم على الطريق, كما لو ضاع في مكان ونظر إلى النجوم واستدل بأن الطريق هاهنا, فهذا جائز أيضا, لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أباحه في كتابه:}وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ{[النحل: ١٦].

الصورة الثانية: أن يستدل بالنجوم على فصول السنة, مثل: الشتاء, ومثل وقت الزراعة, هذا الذي كرهه بعض السلف.

والعلة في ذلك: قالوا: لئلا يعتقد أن النجوم لها أثر فيما يقع في الأرض فسُدَّ الباب.

والقول الثاني ونسبه ابن رجب للجمهور: أنه جائز.

وهذا هو الأقرب والله أعلم أنه جائز؛ لأن الأصل الجواز, بشرط ألا يعتقد في النجوم شيء, بحيث أنه لا يقول إذا خرج النجم الفلاني نزل المطر, قطعًا لا, وإنما يقول مثلًا إذا خرج النجم الفلاني فهو وقت البرد, يعني يستدل بنجوم على الأوقات, هذا جائز, وهو ما ذهب إليه الإمام أحمد وإمام إسحاق بن راهويه رَحِمَهُم اللهُ.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ». رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«ثَلَاثَةٌ»؛ يعني: ثلاثة أصناف, وليس ثلاثة أشخاص, بل ثلاثة أصناف, بحيث أن من فعل هذا فهو داخل في هذا الوصف.

قال:«ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ», لا يدخلون الجنة ابتداءً إذا كان مات على الإسلام.

»مُدْمِنُ الْخَمْرِ«؛ يعني: المستمر على الخمر لا يدعها, أدمن عليها بحيث أنه لا يتركها.

قال:»وَقَاطِعُ الرَّحِمِ«, القطع: هو الحز والبتر, أي: القاطع لرحمه.

والرحم: هم قرابة الإنسان من أصوله وفروعه وحواشي فروعه, الأقرب فالأقرب.

قال:»وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ«؛ يعني: مصدِّق بعلم النجوم, لأن تعلم النجوم نوع من السحر كما تقدم,«مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ», فمن صدَّق بعلم النجوم فهو داخل في هؤلاء الثلاث.

قال:**رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.**

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن نفي الجنة قد يراد به نفي الدخول مؤبد, وقد يراد به نفي الدخول إلى أمد, فالأول في الكافر والمشرك,فالكافر والمشرك محرم عليه دخول الجنة أبدًا.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى} :إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ{[المائدة: ٧٢].

فمن مات مشرك فهو محرم عليه دخول الجنة أبدًا, لا يمكن أن يدخل الجنة.

الثاني: تحريم دخول الجنة إلى أمد, وهذا لمن مات على الإسلام وعنده معصية ولم يعفو الله عَزَّ وَجَلَّ عنه, فهذا قد يدخل النار, وقد يأخذ مدة من الزمن طويلة, وقد تصل آلاف السنين في النار والله أعلم .

لذلك الإنسان لا يتساهل, ولذلك النار عظيمة لا يستطيع الإنسان أن يبقى فيها لحظة, فكيف إذا بقي ساعة أو يوم أو شهر أو سنة أو مئة سنة أو ألف سنة؟! قد يبقى الإنسان الذي يموت على الإسلام في النار مدة طويلة الله أعلم بها, فلا يتساهل.

ولذلك جاء في الحديث: "أن الرجل الذي يكون أنعم أهل الأرض يغمس في النار غمسه, ثم يخرج منها فيقال له: هل رأيت خيرًا قط؟فيقول: لا", نسي هذا الخير كله, بسبب غمسه, فكيف بالذي يبقى في النار أيام وليالي ودهور,النار عظيمة؛ لذلك الإنسان ما يتساهل.

ومن الفوائد: أن إدمان الخمر خطير؛ ولذلك قال: أن من مات وهو مدمن للخمر فإنه يُمنع من دخول الجنة.

وقد جاء في الحديث: "أن على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عهد لمن شرب المُسكر في الدنيا لم يتب أن الله عَزَّ وَجَلَّ يسقيه من طينة الخبال", وطينة الخبال هي عصارة أهل النار, يعني الصديد وما ينزل من جلوده يشرب هذا الشيء.

ولذلك جاء في الأثر أيضًا: "أن من مات وهو مدمن للخمر كعابد الصنم".

فالخمر خطير.

وجاء أيضًا عن عثمان رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه سمها: "أُم الخبائث".

فالإنسان إذا شرب الخمر قد يقتل, قد يزني, وقد يسرق, وقد يفعل الموبقات, لأنه يصبح لا عقل له, فالخمر أُم الخبائث ؛ فاليحذر المسلم منها.

ومن الفوائد: عظيم جُرم من قطع رحمه؛ لأنه من الثلاثة الذين لا يدخلون الجنة.

وقد جاء في الصحيحين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ».

فقطيعة الرحم من أعظم الذنوب.

وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ}[محمد: ٢٢-٢٣].

فقاطع الرحم على خطأ, لأنه إذا قطع رحمه فإنه سبب في أن يُعمي الله عَزَّ وَجَلَّ بصره, ويلعنه.

}أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ.{

والرحم: هم أصول الإنسان وفروعه.

أصوله: مثل الأب والأم والجد والجدة وإن علا.

وفروعه: مثل الابن والبنت وابن الابن وابن البنت وإن نزل.

هؤلاء يجب على الإنسان أن يصلهم.

وأيضا فروع آبائه مثل الأخ والأخت ونحو ذلك, وفروع الجد والجده, فهؤلاء يجب أيضا أن يصلهم,مثل: العم والعمة,الخال والخالة, ونحو ذلك.

وأيضا فروع فروع آبائه الأقربين, مثل:فروع الأخ والأخت, فهؤلاء يجب على الإنسان أن يصلهم, مثل:ابن الأخ وابن الأخت وإن نزلوا, هؤلاء يجب على الإنسان أن يصلهم.

وأما فروع فروع آبائه الأعلون, مثل:ابن العم وابن الخالة, فهؤلاء يستحب أن يصلهم, ولا يجب والله أعلم,ابن العم وابن الخالة وابن ابن العم, وابن وابن الخالة, ونحو ذلك,فهؤلاء يستحب أن يصلهم.

ومن الفوائد: أن تصديق من ادَّعى علم النجوم من أسباب عدم دخول النار.

وقد تقدم التفصيل في أن من صدَّق من يدَّعي علم الغيب للمستقبل أنه يكون كافر, وأما من صدَّقه بأمر واقع فإن هذا يكون من الذنوب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالىٰ: }وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ{[الواقعة: ٨٢].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: **باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الاستسقاء بالأنواء إذا كان يعتقد أنها تخلق وتُنزل الغيث بذاتها فهو شرك أكبر, وإن اعتقد أن الأنواء سبب لنزول الغيث فهذا شرك أصغر, فأتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليحذر من هذا الشيء.

قال: **باب ما جاء** :يعني: ما جاء من النصوص,**في الاستسقاء**.

السين والتاء تدل غالبًا على الطلب.

والاستسقاء: هو طلب السُّقيا.

بالأنواء, والأنواء جمع نوء وهو ما ينوء يظهر ويختفي, وهي النجوم.

والأنواء: المنازل التي ينزل فيها القمر, وهي الثمان وعشرون منزل ينزلها القمر,فينزل هذا القمر ثم تخرج هذه النجوم .

والاستسقاء بالأنواء: يعني: طلب السُّقيا من النجم.

الاستسقاء بالأنواء له حالات:

الحالة الأولى:أن يعتقد أن النجم يخلق ويُنزل المطر, بنفسه فهذا شرك أكبر؛ لأنه جعل مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خالق آخر.

الحالة الثانية:أن يسأل النجوم أن تُنزل الغيث, يسألها يدعوها من دون الله,فهذا شرك أيضًا؛ لأنه جعل آلهة مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولو اعتقد أن الله هو الذي يخلق ولكن دعا هذه النجوم سألها,فهذا شرك في الألوهية؛ لأنه جعل آلهة مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال المؤلف: وقول الله تعالى:﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة: ٨٢].

في هذه الآية الكريمة يقول سُبْحَانَهُ وَتعَالَى موبخ لأولئك الذين نسبوا نعمته لغيره.

يقول سُبْحَانَهُ: إنكم جعلتم الرزق الذي رزقناكم إياه بالمطر أنكم تنسبونه للنجوم والانواء.

قال سُبْحَانَهُ﴿ :وَتَجْعَلُونَ﴾؛ يعني: تُصيرون رزقكم, يعني ما رزقناكم من المطر.

}أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ{؛ يعني:آل أمركم إلى التكذيب وهو نسبة الأنواء الى النجوم, وهذا كذب, لأن الذي أنزل المطر هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

في هذه الآية الكريمة يوبخ الله عَزَّ وَجَلَّ من نسب المطر لغيره واعتقد أن النجوم سبب في نزول الغيث أو أنها تُنزل الغيث بنفسها.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أبي مالك الأشعري رَضِي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ».

وقال: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ». رواه مسلم.

قَال الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وعن أبي مالك الأشعري رَضِي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي»؛ يعني:أربع خصال, «فِي أُمَّتِي», والأمة هنا الظاهر والله أعلم أنها أمة الإجابة.

قال:«مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ»؛ يعني: هذه الأربع هي من خصال أهل الجاهلية.

قال:«لَا يَتْرُكُونَهُنَّ»؛ يعني: سيبقون يفعلون هذه الاشياء, وهذا ليس للإقرار, وانما هو للإخبار.

«الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ», الفخر: هو ذكر المناقب, «بِالْأَحْسَابِ»؛ يعني: بالآباء ونحوهم, فيفخر بآبائه وأجداه.

«وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ»؛ يعني: التنقص من أنساب الناس؛ بحيث يطعن الشخص فيقول: ليس ابن لفلان, أو هذا الشخص فيه كذا فيطعن في آبائه وأجداده.

قال: «وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»؛ يعني: طلب السُّقيا من النجوم, طلب المطر من النجوم.

قال: «وَالنِّيَاحَةُ», والنياحة من النوح, وهو رفع الصوت بذكر مآثر الميت والتجزع عليه.

وقال: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ»؛ يعني: المرأة النائحة التي تنوح, وخص النساء لأنهن والله أعلم أكثر في نوح.

«النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ»؛ يعني: لم تتب قبل موتها.

قال: «قَبْلَ مَوْتِهَا»؛ يعني: قبل أن تموت, «تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ يعني: تقام من قبرها, وتخرج من قبرها.

«وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ», سربال يعني: ثوب.

«سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ», قطران يعني: نحاس مذاب.

«وَدِرْعٌ», والدرع: هو ما يُتقى به السهام في الحرب ويوضع على صدر الإنسان.

«مِنْ جَرَبٍ»؛ يعني: من مرض الجرب.

فيكون هذه المرأة عليها ثوب من نحاس, وعليها أيضًا درع من جرب مرض الجرب, فيكون النحاس على جرب, فيكون العذاب أعظم, عذاب على عذاب نسأل الله العافية.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن فيه خصال لم تدعها هذه الأمة, وذكر منها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعة.

ومن الفوائد: أن ما نُسب إلى الجاهلية فهو مذموم, والجاهلية نسبة إلى الجهل وهو عدم العلم, والناس قبل مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا في جاهلية جهلاء, جاهلية في الأشخاص, جاهلية في المكان, جاهلية في الأفعال, وجاهلية في الاتباع, فهم في جاهلية جهلاء.

والجاهلية تنقسم إلى قسمين:

الأول: جاهلية مطلقة عامة شاملة, فهذه قبل مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان الناس في الجاهلية, فكانوا في جاهلية في المكان والأشخاص والأفعال والاتباع.

ولذلك كانوا في جاهلية, حتى بعث الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فأخرج الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الناس من هذه الجاهلية, فهذه الجاهلية كانت قبل مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتهت بمبعثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

الثاني: جاهلية مقيدة, وهذه قد تكون في مكان, كبلاد الكفر, بلاد الكفر الآن في جاهلية عن الحق وعن الدين.

وقد تكون في شخص, وقد تكون عامة في الشخص وقد تكون مقيدة فيه.

فعامة في الشخص الكافر, الكافر جاهل, الجاهلية عامة فيه؛ لذلك إذا أسلم خرج من هذا الجهل, إذًا الكافر جاهل لأنه ما قدر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حق قدره.

وقد تكون مقيدة في شخص, في وصف من صفاته, كالذي يطعن في الأنساب, فهذا فيه جاهلية, وإن كان على الإسلام ولكن فيه جاهلية.

ولذلك لما عيَّر أبو ذر رَضِي اللهُ عَنْهُ الرجل فقال: يا ابن السوداء, فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ». قَالَ: قُلْتُ: عَلَى حَالِ سَاعَتِي مِنَ الْكِبَرِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَلْيُلْبِسْهُ مِنْ لِبَاسِهِ، وَلَا يُكَلِّفْهُ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ».

فالإنسان قد يكون فيه جاهلية وهو على الإسلام, ولا يمنع هذا أن يكون مسلم, لأنه قد يكون في المسلم خصال من خصال الكفر ولا يكون كافر حتى يكون به حقيقة الكفر, كما بيَّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وأما بعد مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يوجد جاهلية عامة, ومن الضلال أن يقول الإنسان الناس في جاهلية, هذا خطأ ولا يصح, أو جاهلية القرن العشرين أو كذا, فهذا كلام باطل, الجاهلية العامة بعد مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهت.

لذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىَ الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىَ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ».

فلابد للحق أن يبقى, والله عَزَّ وَجَلَّ متم نوره.

ومن الفوائد: أن الفخر بالأحساب لا يدعه الناس.

والفخر بالأحساب: هو أن يفتخر الإنسان على وجه الكِبر ورؤية النفس, فيفتخر بحسبه فيقول: أنا ابن فلان الفلاني, ابن البلد الفلاني, وأنا الذي فيَّ كذا وكذا, فيفتخر على غيره.

ولذلك هذا من الأشياء المذمومة أن يفتخر الإنسان إما ببلده أو بلونه أو بشكله أو بعلمه أو بجاهه أو بقبيلته أو غير ذلك, وهذا من السفه, وأيضًا من الخطأ لأنه قد يُذم -نسأل الله العافية.

ولذلك جاء عند الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنمَ أو ليكونن أهون على الله من الجعلان».

والجعلان: هي التي تدفع الأذى بأنفها.

ولذلك قال في بداية الحديث: «كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ».

تفتخر على شخص وهو وأنت من رجل واحد من آدم, وآدم خُلق من تراب, وكيف تفتخر وأنت راجع إلى التراب.

ومن الفوائد: أن الطعن في الأنساب مذموم, بحيث يطعن في نسب الإنسان, فيقول: هذا الشخص ليس ابن لفلان, أو هذا الشخص ليس من آل فلان, فيطعن فيه, فهذا على خطر.

ومن الفوائد: أن الاستقساء بالنجوم مذموم, طلب السقيا من النجوم مذموم.

ولذلك الاستقساء بالنجوم كما تقدم, من اعتقد أنها تخلق وترزق أو سألها وتوجه إليها, فهذا من الشرك.

ومن الفوائد: الحذر من النياحة, والنياحة من النوح وهو صوت الحمام.

والنياحة هي الاعتراض على قدر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, بحيث أنه يبكي بكاء المعترض على الله عَزَّ وَجَلَّ, كأنه يقول لِمَ فُعل بي كذا, لِمَ حصل لي كذا, فيبكي, أو أنه يضرب الوجه ويشق الجيب اعتراضًا على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره, فهذا من النياحة, والنياحة لا تجوز.

ولذلك جاء عن أبي موسى رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه قال: "أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ وَالْحَالِقَةِ وَالشَّاقَّةِ".

وعن أم عطية أنها قالت: "أخذ علينا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَيْعَةَ عَلَى أَنْ لاَنَنُوحَ".

وأيضًا تُقام يوم القيامة بصورة شديدة, وهي أنها تلبس ثوب من نحاس مذاب, ويكون هذا النحاس عليه درع من جرب, والجرب لا يحب الحرارة, فيكف إذا كان عليه نحاس مذاب؟! هذا عذاب على عذاب -نسأل الله العافية-.

ومن الفوائد: أن النوح عند النساء أكثر.

ولذلك قال: «وَالنِّيَاحَةُ», ثم قال: «النَّائِحَةُ»؛ فدل على أن النوح عند النساء أكثر, لأن المرأة لضعف عقلها قد تنوح ولا تعرف عاقبة هذا الشيء.

وليس من النوح البكاء, إذا كان بكاء رحمة.

وأيضًا ليس من النوح حزن القلب, بحيث يحزن ويشعر بالألم هذا جائز, بل إن شيخ الإسلام قال: ان البكاء الذي فيه رحمة مستحب.

والدليل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعل ذلك.

ولذلك لما رُفع إليه ابن ابنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ بكى, فقيل له: يا رسول الله, ما هذه؟ قال: «هَذِهِ رَحْمَةٌ يَجْعَلُهَا اللهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ».

ولما مات إبراهيم قال: «وَإِنَّا لِفِرَاقِكَ يَا إِبرَاهِيمُ لَمَحزُونُونَ».

هذا حزن جائز, وبكاء جائز, أما النياحة التي فيها رفع للصوت وكأنه يعترض على الله عَزَّ وَجَلَّ في تقديره فهذا هو الذي لا يجوز, أو يضرب الخدود ويشق الجيوب أو يكسر ما معه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عن زيد بن خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "صلىٰ لنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصبح بالحديبية علىٰ إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل علىٰ الناس فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **ولهما**: يعني: البخاري ومسلم, عن زيد بن خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: **"صلى لنا"**؛ يعني: صلى بنا," يعني: إمام والله أعلم.

"صلى لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصبح بالحديبية"؛ الحديبية هي قرية قريبة من مكة, يوجد بئر هناك سميت به.

"على إثر سماء"؛ يعني: بعد مطر من الليل, والسماء هنا يعني السحاب, يعني: **إثر** مطر من الليل.

"كانت من الليل"؛ يعني: الليلة الماضية, قال هذا في صلاة الصبح, وكان مطر بالليلة الماضية.

"فلما انصرف"؛ يعني: التفت إلى الناس, وليس انصرف قام من المكان, بل انصرف إلى الجهتهم.

"أقبل على الناس"؛ يعني: بوجهه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟». (هل) هنا استفهام.

«هَلْ تَدْرُونَ»؛ يعني: تعلمون, «مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»؛ يعني: إلهكم وخالقكم ورازقكم ومعبودكم.

قالوا: الله ورسوله أعلم. لأن هذا من الأمور الشرعية التي لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك الوقت.

قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي»؛ يعني: أصبح هذا اليوم من عبادي مؤمن بي مصدق بي, «وَكَافِرٌ».

قال: «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ»؛ يعني: أنه أتانا المطر بتقدر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومنته علينا.

«فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ»؛ يعني: مصدق بالله معتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو المتصرف وجاحد بالكوكب, لأنه ما نسب إليه شيء.

«وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن التحديث بعد الصلاة جائز في أي وقت, إن كان الأمر يستدعي ذلك؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدثهم بعد صلاة الفجر.

ومن الفوائد: أن الإنسان يُحدِّث بعد الصلاة مباشرة, وهذا جائز, حتى لو لم يُكمل الناس أذكارهم, لأن الحديث وسماعه من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, بل إن تعليم العلم من أعظم ما يكون.

فلذلك قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في الحديث القدسي: «وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» .

فالتحديث من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وعلى هذا إذا حدَّث بعد الصلاة مباشرة فهذا جائز, وأما أذكار الصلاة فللإنسان أن يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ بعد الحديث, فتنظر حتى ينتهي هذا الشخص من حديثه ثم أكمل أذكارك, لأن هذا الفاصل فاصل بعذر, فيكون الإنسان معذور بحيث أنه يستمع لهذا الشخص, ثم يعود لأذكاره, لأن الوقت ليس بالطويل, فباستطاعته أن يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ بعد هذا الكلام.

ومن الفوائد: حُسن تعليم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لذلك قال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»، وهذا من أساليب التعليم، أن الإنسان يلقي العلم بصيغة سؤال وجواب، لأن الإنسان إذا سؤال فإنه ينتبه ويأتي بجميع حواسه ينتظر الإجابة، وهذا من أسباب ثبوت العلم.

ومن الفوائد: أن قول: "الله ورسوله أعلم" في وقت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأمور الشرعية جائز.

واعلم أن قول: "الله ورسوله أعلم" على حالات:

الحالة الأولى: أن يكون في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا جائز في الأمور الشرعية، غير جائز في الأمور الكونية.

فالأمور الشرعية، لو سئل الإنسان في وقت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده وقال: كم نصاب الإبل –مثلًا– وهذا الإنسان لا يعلم، قال: الله ورسوله أعلم؟ هذا صحيح.

وأما الأمور الكونية هذا لا يجوز، حتى في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لو سئل شخص في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متى ينزل المطر، فإنه يقول: الله أعلم "فقط"، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعلم الغيب.

الحالة الثانية: بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا في الأمور الشرعية والأمور الكونية يقال: الله أعلم "فقط"، ولا يقال: الله ورسوله أعلم.

فالأمور الكونية الأمر واضح فيها، لأنه في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يجوز، وبعد موته من باب أولى.

وأما الأمور الشرعية بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات، فهو لا يعلم ما يحصل بعد موته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولذلك جاء في حديث ابن عباس أنه يقال له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ حين يُطرد بعض الناس عن الحوض قال: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوابَعْدَكَ».

ومن الفوائد: أن نسبة نزول المطر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى توحيد؛ ولذلك قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي» .

ومن الفوائد: أن نسبة المطر للنجوم كفر, وقد يكون كفر أكبر, وقد يكون كفر أصغر.

فإن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر وتأتي به دون تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ فهذا كفر أكبر.

وإن اعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يخلق المطر وهو الذي يرزق, وإنما هذه النجوم سبب, بحيث أنه قال إذا خرج النجم الفلاني نزل المطر؛ فهذا كفر أصغر.

وذلك أن نسبة المطر إلى النجوم على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: أن ينسب المطر إلى النجوم نسبة إيجاب, فهذا شرك أكبر.

القسم الثاني: أن ينسب المطر إلى النجوم نسبة سبب, بحيث أنه يعتقد أن النجوم سبب في نزول المطر, كما أن السحاب سبب في نزول الغيث , فهذا شرك أصغر.

والعلة في ذلك: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما جعل النجوم سبب, لا كوني ولا شرعي في نزول المطر.

القسم الثالث: أن ينسب المطر إلى النجوم نسبة وقت, فهذا جائز, كما لو قال مطرنا في وقت كذا, في النجم الفلاني, يريد الوقت, فهذا جائز, ولكن نبه العلماء على أنه لا يقول مُطرنا بنوء كذا يريد وقت كذا, وانما يقول: في, لأن (في) للظرفية.

فلو قال مثلًا: مُطرنا في وقت الصيف, فهذا جائز.

قال المصنِّف رحمه الله:

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: "قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: }فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}[الواقعة: ٧٥-٨٢].

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

قال: **ولهما:** يعني: البخاري مسلم, **من حديث ابن عباس بمعناه:** يعني: معنى ما تقدم, **وفيه:** يعني: زيادة.

"قال بعضهم–يعني: بعض القوم-: **لقد صدق نوء كذا وكذا"**؛ يعني: النجم الفلاني والنجم الفلاني.

فأنزل الله هذه الآيات: }فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ{[الواقعة: ٧٥-٨٢].

ففيه سبب نزول هذه الآية الكريمة.

وأهل الجاهلية قبل الإسلام كانوا ينسبون الأمطار إلى النجوم؛ ولذلك الإنسان يُنهى عن مشابهتهم, فلا يقول: مطرنا بنوء كذا , ولكن لو قال: مطرنا في نوء أو عند خروج النجم الفلاني يريد الوقت هذا جائز, لكن إذا جعلها سبب أو جعلها خالقة فهذا كما تقدم تفصيله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ الله:

باب قول الله تعالىٰ: }وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ{[البقرة: ١٦٥]

قَال الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: باب قول الله تعالى: }وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ{[البقرة: ١٦٥] .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المحبة لما كانت هي أصل العبادة وصرفها لغير الله شرك، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب يُبين أن صرف المحبة التي مبناها على كامل الذل والخضوع والتعظيم لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: وقول الله تعالى:}وَمِنَ النَّاسِ{؛(مِنَ) هنا للتبعيض.

} مَنْ يَتَّخِذُ{؛ يعني: يجعل له.

}مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: سوى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

}أَنْدَادًا{؛ يعني: مثلاء ونظراء في الحب والتعظيم.

والند: في اللغة هو المثيل والنظير.

قال:}يُحِبُّونَهُمْ{؛ يعني: يحبون هذه الأنداد.

}كَحُبِّ اللَّهِ{؛ يعني: كحبهم لله،(والكاف) هنا كاف التمثيل؛ يعني: كمثل محبتهم لله.

ففي الآية الكريمة يُبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن من بعض الناس من جعل له محبوب يحبه محبة تعظيم ورجاء وذل، كما أنه يحب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقوله تعالى:}كَحُبِّ اللَّهِ{؛ يعني: كحبه لله.

وقد فسر بعض المفسرين قوله تعالى:}يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ{؛ يعني: يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله.

}وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ{؛ يعني: من أصحاب الأنداد لأنداد.

ولكن الصحيح -والله أعلم-: أن المحبة هنا؛ أي: أن هؤلاء المشركون يحبون هذه الأنداد كحبهم لله، بحيث أنهم سوَّوا بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين غيره في المحبة ووقع الشرك، في هذه المحبة التي تُبنى على كامل الذل وكامل الخضوع وكامل التعظيم، فهم يجعلون هذا الذي هو حق أن يكون لله يجعلونه لغيره فيقعون في الشرك.

ولذلك الشرك عند المشركين إنما وقع في المحبة والتعظيم، فالمشركون لم يقولوا أن آلهتهم تخلق وترزق وتحيي وتميت، الذين بعث فيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كانوا يقولون هذا؛ ولذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.{

ويقول سبحانه:}وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ{[الزخرف: ٨٧].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ{[يونس: ٣١].

فهم يعتقدون أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الخالق وهو الرازق وهو المحيي وهو الذي يدبر الأمور؛ لأن قوله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ{،هذا عموم بعد خصوص عمَّ الذي قبله وغيره، فهم يعتقدون أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الخالق الرازق المحيي المميت، فيعتقدون أن هذه الآلهة ذليلة إلى الله وفقيرة إلى الله فيعتقدون أنها عبيد لله، ولكنهم سوَّوا بينها وبين الله عَزَّ وَجَلَّ في الذل والخضوع والحب والتعب فوقعوا في الشرك.

ولذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: أن المشركين ما قالوا أن الآلهة تخلق وترزق، وإنما أحبوهم وعظموهم كما يصرفون هذا لله، وكما يفعلون هذا لله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: قول الله تعالىٰ: }قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ{[التوبة: ٢٤]، إلىٰ قوله: }أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ.{

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: وقول الله تعالى:}قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ{[التوبة: ٢٤]، إلى قوله:}أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.{

والآية كاملة:}قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ.{

ففي هذه الآية الكريمة: وعيد لمن قدَّم محبة هذه الثمانية على محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ورسوله ومحبة ما يحب، لأن هذه الآية فيها توعد.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ{؛ يعني: الذين تفرعتم منهم.

}وَأَبْنَاؤُكُمْ{؛ يعني: الذين تفرعوا منكم.

إلى أن قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ{؛ يعني: إذا كانت هذه الأشياء تقدمون محبتها على محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ورسوله.

}فَتَرَبَّصُوا{؛ يعني: انتظروا ما يحل بكم من الوبال، وهذا فيه تهديد.

ففي الآية الكريمة: أنه يجب على المسلم أن يقدم محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومحبة رسوله على محبة هذه الثمان: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة -يعني: القبيلة الذين تكون عشرتكم معهم- والمساكن والتجارة وغير ذلك، لا تقدم هذه المحاب على محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله، والمحبة تنقسم من حيث العموم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: المحبة المبنية على كامل الذل وكامل التعظيم، فهذه عبادة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا تُصرف لغيره، ومن صرف ذلك لغيره فقد وقع في الشرك.

الثاني: عبادة لله وفي الله، وهي التي يكون سببها محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أو المحبة في الله أو لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذه المحبة لا يكون فيها ذل وخضوع كمحبة الله لا يكون فيها، وإنما يحب هذا الشيء إما محبة توقير أو محبة احترام أو نحو ذلك، أو محبة لله لأنه محبة في الله وهذه كمحبة الملائكة ومحبة الأنبياء ومحبة الصالحين ونحو ذلك.

وهذه المحبة قد تكون محبة أشخاص كالذين تقدموا، وقد تكون محبة شخص كمحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنت تحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لله ولا تحبه مع الله -انتبه أن تحبه لله ولا تحبه مع الله- بحيث أنك تعظمه وتذل له كمحبة الله، قد يغلط بعض الناس

فيحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محبة تعظيم وذل فيحبه مع الله ويشرك مع الله غيره فيقع في الشرك.

أما المحبة في الله؛ يعني: محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الله فهي أن تحبه محبة توقير واحترام وتقدر محبه تقدمه فيها على نفسك ولدك ووالدك والناس أجمعين في الله، ولكن ما تقترن محبتك له بتعظيم وخضوع وإنما تقترن بتوقير واحترام، كما كان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم لا يحدون البصر في وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توقيرًا واحترام، هذه محبة الشخص.

أيضًا قد تكون محبة مكان،كمحبة مكة فتحب مكة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا تحبها مع الله تعظمها وتذل لها لا، إنما تحبها لله وفي الله.

أيضًاقد يكون محبة زمان؛ كمحبة رمضان فتحبه في الله وتحبه لله.

وأيضًا قد يكون محبة أعمال؛ كمحبة الصلاة ومحبة الأعمال الصالحة عمومًا وما أشبه ذلك، فهذه تسمى محبة لله ومحبة في الله، وهذه تفاوت الناس فيها فكل من كان فيها أعظم فهو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أقرب.

الثالث: المحبة الطبيعية التي طُبع عليها الإنسان؛ كمحبة الطعام ومحبة الشراب ومحبة النوم ومحبة بعض ما أباح الله عَزَّ وَجَلَّ من الأشياء، فهذه لا يُلام عليها الشخص ولكن لا تشغله عن الله؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآية، يعني: محبة الأولاد والآباء هذه محبة طبيعية ما يمكن الإنسان أن ينفك منها ولكن لا تُقدم هذه المحبة على محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله.

وهذه قد تكون محبة احترام كمحبة الولد لوالده، وقد تكون محبة رحمة كمحبة الوالد لولده، وقد تكون محبة أنس وهي كمحبة الرجل لزوجته من باب المؤانسة، وقد تكون محبة جُبِل عليها الإنسان كمحبة العطشان للماء، ومحبة الذي أصابته الشمس للظل هذه محبة جُبِل عليها الإنسان، وما أشبه ذلك، هذه المحبة جائزة ولكن لا تُقدم على محبة الله ورسوله.

الرابع: المحبة المحرمة؛ كمحبة الكفر وأهل الكفر فهذه ناقضة من نواقض الإسلام، إذا أحب الكفار والكفر فقد انتقض إسلامه، أو محبة المعاصي بحيث يحب المعاصي أن تنتشر وأن تشيع في الذين آمنوا، ويحب المعصية على أن الله يُعصى لا أن نفسه تطوق إليها ، وإنما يحب المعصية على أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُعصى ويحب أن الله يُعصى ويحب أن يعصي الله، هذا محرم.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ{[النور: ١٩]، فهذه محبة المعاصي، لا أن الإنسان يحب أن يقع منه معصية ومع كرهه للمعصية هذا قد يقع.

فلذلك النفس قد تحب المعاصي ولكن لا يحب أن يُعصى الله ولا يحب أن تنتشر المعاصي ولا يحب المعصية على لأن الله يُعصى لا، ولكن لأن نفسه تشتهيها، فهذه إذا منع نفسه فهذا من أعظم ما يكون؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{[النازعات: ٤٠]؛ يعني: ما تهواه وتحبه نفسه ، فإن الجنة هي المأوى، فالنفس قد تهوى المعاصي أن تفعلها لأنها تشتهيها، ولكن إذا تركها لله فإنه على خير.

أما إذا أحب المعاصي على أن الله يُعصى، يحب أن الله يُعصى ويحب أن تنتشر المعاصي، فهذا محرم، هذا المحبة من حيث العموم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن أنس أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». أخرجاه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وعن أنسٍ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:**«لَا يُؤْمِنُ»؛ أي: لا يكمل إيمانه.

«أَحَدُكُمْ»؛ يعني: معشر المخاطبين يعني من هذه الأمة.

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى»)،حَتَّى) يُحتمل أنها للغاية.

«حَتَّىٰ أَكُونَ»؛ يعني: نفسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

«أَحَبَّ إِلَيْهِ»؛ يعني: يقدِّم محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ولده ، والده الذي كان سبب في وجوده في الحياة، وولده الذي تفرع منه.

«وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»؛ وهذا عموم بعد خصوص؛ يعني: جميع الناس، فيدخل فيها العشيرة ويدخل فيها الأزواج وغير ذلك.

«وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»؛ فيدخل فيها الناس أجمعين.

في هذا الحديث فُوائد:

من فوائد الحديث: أن الإيمان قد يُنفى ويراد به الكمال كمال الإيمان، وذلك لأن نفي الإيمان على مرتبتين:

الأول: نفي أصل الأيمان، وهذا لمن وقع في ناقض من نواقض الإسلام يُنفى عنه أصل الإسلام أصل الإيمان، كمن سجد لصنم فيقال عنه: ليس بمؤمن؛ أي: أنه خارج من الإيمان بالكلية.

الثاني: نفي كمال الإيمان؛ أي: أنه مؤمن ولكن ليس بكامل الإيمان؛ أي: أن هذا الرجل عنده إيمان ولكن ليس بكامل الإيمان، كما في هذا الحديث.

وكما في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»، هذا نفي كمال.

ومن الفوائد: أنه يجب على المسلم أن يقدم محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نفسه وعلى والده وعلى الناس أجمعين.

ولذلك جاء في الصحيحين من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يا رسول الله إنك لأحب إلي من ولدي ووالدي والناس أجمعين إلا من نفسي يا رسول الله، قال: «لَا يَا عُمَرُ»؛ يعني: لا يكمل الإيمان، ثم قال عمر بعد ذلك: ومن نفسي يا رسول الله، قال: «الْآنَ يَا عُمَرُ»؛ يعني كمل الإيمان.

ففي هذا الحديث: أنه يجب على المسلم أن يقدم محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نفسه أولًا وعلى ولده ووالده والناس أجمعين، فمحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يكمل إيمان الإنسان حتى يقدم محبته على محبة نفسه ومحبة الناس أجمعين، وليس هناك أحد يجب أن تقدمه على نفسك إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : أنه ليس هناك من الناس أحد يجب عليك أن تقدم محبته على نفسك إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهى كلامه.

وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خليل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فأنت تحبه لله، وأيضًا لأنه سبب في هدايتك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولذلك يجب عليك أن تقدم محبته على نفسك.

ولكن يُنبه على أن محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس فيها ذل وخضوع ولا يجوز للمسلم أن يساوي بين محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبة الله، لأن محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى محبة ذل وخضوع وتعبد، وأما محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي محبة توقير واحترام وعلى أنه رسول الله، فيُفرق بين هذا وهذا.

وأيضًا محبة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى محبة لذاته أن تحب الله عَزَّ وَجَلَّ لذاته لأنه الإله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا إله إلا هو، وأما محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنت تحبه لصفاته ما تحبه لذاته، فنحن أحببنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه رسول الله.

ولذلك يقول العلماء: أنه لا يُحب لذاته إلا الله، وأما باقي المخلوقات فتحب لصفاتها، الرسول يُحب لصفته لأنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك يُنبه على هذا الشيء.

ومن الفوائد: أن محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُقدم على الناس أجمعين، فتُقدم محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جميع الناس.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يكونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» .

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: **ولهما**؛ يعني: للبخاري ومسلم.

عنه؛ يعني: عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ»؛ يعني: ثلاث خصال.

«مَنْ كُنَّ فِيهِ»؛ يعني: كانت فيه هذه الخصال.

«وَجَدَ بِهِنَّ»؛ يعني: بهذه الثلاث.

«حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»؛ يعني: لذة الإيمان وطمأنينة الإيمان.

«أَنْ يكونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»؛ أي: أن يقدِّم محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبة رسوله على من سوى الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله، كمحبة الأولاد ومحبة الآباء ومحبة الأزواج ومحبة المال ومحبة العشيرة، وغير ذلك من الدنيا، فيقدّم محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبة رسوله على هذا كله.

«أن يحب المرء»؛ يعني: يحب الرجل.

«لا يحبه إلا لله»؛ يعني: يحب هذا الإنسان لا يحبه لشيء من أمور الدنيا ولا للونه ولا لبلده ولا لأصله وإنما يحبه لله، يحب هذا الشخص لله محبة لله.

«وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ»؛ يعني: يبغض أن يعود في الكفر، يعني: يرجع إلى الكفر بعد الإسلام.

«بَعْدَ إِذ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ»؛ يعني: بعدما أنقذه الله عَزَّ وَجَلَّ من الكفر.

« كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّار» يعني كقذفه في النار، فلو قيل له: نقذفك في النار أو تعود للكفر لاختار القذف في النار أهون عليه من العود للكفر، فهذا الرجل يجد حلاوة الإيمان.

قال: وفي رواية: «لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى ... »إلى آخره.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن للإيمان حلاوة، وهذه الحلاوة ليست طعم يذاق باللسان وإنما هو طعم يذاق بالقلب وهو الطمأنينة التي يجدها المؤمن والراحة في قلبه واللذة.

ولذلك يقول السلف: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة وهي جنة الإيمان والراحة.

وقد كان بعض السلف على البحر ومعه خبزة يابسة ويغمسها في البحر ويأكل هذه الخبزة اليابسة ويقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من الطمأنينة والراحة لجالدونا عليه بالسيوف.

فالإيمان هو الطمأنينة، وذلك أن الإنسان يتكون من أمرين: روح وبدن، الروح تحتاج إلى التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ حتى تطمئن وتهدأ، والبدن يحتاج إلى الراحة والطعام والشراب والنوم، وكثير من الناس يُمتع البدن وينسى الروح، الروح لا تطمئن إلا في عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ ولا تجد الأنس والطمأنينة إلا في عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ.

والإنسان مهما كان لابد أن يتذلل للشيء ويخضع له، فإذا هرب من المذلة لله عَزَّ وَجَلَّ والخضوع له عبد غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك يقول ابن القيم:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ والشَّيْطَانِ

يعني: ابتلاه الله عَزَّ وَجَلَّ برق نفسه حيث اتبع هواه وأصبح عبد لنفسه؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى} :وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا{[الكهف: ٢٨]؛ يعني: أمره ضائع ؛ فلذلك الإنسان ما يجد الطمأنينة والراحة إلا في الإيمان وهي جنة الدنيا.

ومن الفوائد: أن المسلم عليه أن يقدم محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبة رسوله على كل المحاب، وهذه واجبة ليست على الاستحباب بل يجب على المسلم أن يقدم محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبة رسوله على كل المحاب.

ومن الفوائد: فضل محبة الإنسان لله، بحيث أنك تحب هذا العبد تحبه لله لا تحبه لماله، ولا تحبه لجماله، ولا تحبه لبلده، ولا تحبه للونه، ولا تحبه لأمر من أمور الدنيا، وإنما تحبه لله فهذا له فضل.

ولذلك جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي».

وأيضًا جاء في الحديث الآخر: أنه من السبعة، الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله, قال: «وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ»؛ يعني: ما جمعهم إلا المحبة في الله، فيحرص المسلم على أن يحب أخيه المسلم في الله حتى يجد حلاوة الإيمان.

ومن الفوائد: أن الذي يكره أن يعود إلى الكفر والمعاصي بعد توبة الله عَزَّ وَجَلَّ عليه منها فإن هذا يجد حلاوة الإيمان.

ولذلك تجد أن بعض التائبين يكره أن يعود إلى المعاصي بعد إذ أنار الله عَزَّ وَجَلَّ قلبه، كما يكره أن يوضع في النار، هذا قد يجد حلاوة الإيمان.

وقد يدخل المسلم الذي لم يدخل الكفر في هذا الحديث، كيف ذلك؟ يكون ولد في الإسلام ويكره أن يقع في الكفر، كما يكره أن يقع في النار، هذا قد يدخل في الحديث: «يَجِدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ».

لا يلزم أن يكون كافر ثم أسلم لا يلزم بل قد يكون مسلم ولد في الإسلام ولكن يكره الكفر ويكره الوقوع فيه كما يكره أن يقع في النار، فهذا قد يجد حلاوة الإيمان.

وفي رواية: «لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذه الرواية لأنها صريحة فالأول فيها مفهوم، وفي هذه الرواية صراحة.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: **"من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته**

وصومه حتىٰ يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس علىٰ أمر الدنيا، وذلك لا يجدي علىٰ أهله شيئًا". رواه ابن جرير.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "من أحب في الله"؛ يعني: أحب هذه المحبة لله؛ يعني: لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ.

"وأبغض في الله"؛ يعني: أبغض الشخص لله ما أبغضه لشيء آخر.

"ووالى لله"؛ يعني: أحب ونصر في الله.

"وعادى في الله"؛ يعني: عادى هذا الشخص وجعله عدو له في الله؛ يعني: لأجل الله، كما لو كان كفر بالله فعاداه وأبغضه.

"فإنما تُنال ولاية الله بذلك"؛ يعني: تُنال محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ونصرته لعبده بهذا الشيء.

قال: "ولن يجد عبد طعم الإيمان"؛ هنا نفي من ابن العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

"ولن يجد عبد طعم الإيمان"؛ يعني: لذة الإيمان.

"وإن كثرت صلاته وصومه"؛ يعني: وإن كثر هذا منه الصلاة والصوم.

"حتى يكون كذلك"؛ يعني: يكون كما مضى.

"وقد صارت عامة مؤاخاة الناس"، (عامة) يعني: أكثر، هذا يقوله ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في زمنه.

"وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا"؛ يعني: ما ينفع.

رواه ابن جرير.

هذا الأثر فيه فوائد:

من فوائد الأثر: أن المحبة في الله والبغض في الله مطلوب، فيجب على المسلم أن يحب المؤمن لله، ويحب الإسلام لله، ويبغض الكافر لله، ويبغض الكفر لله.

ومن الفوائد: أنه أيضًا يجب على المسلم أن يعادي ويوالي في الله، فيكون في صف المؤمنين ويعادي الكفار والمشركين.

ومن الفوائد: أن من لم يكن كذلك فإنه لا يجد حلاوة الإيمان وطعمه، حتى لو كثرت منه الصلاة والصيام والتعبد حتى يكون محب في الله ومبغض في الله وموالي لله ومعادي في الله.

ومن الفوائد: أن كثير من الناس يحب لأجل الدنيا، كما يحب شخص لأجل المال، أو يحب الشخص لأنه من جنسه أو من لونه أو من غير ذلك، فهذا لا يُجدي عنه الشيء ولا ينفع إذا كان لم يصحبه شيء لله.

ففي الأثر: أنه لابد على المسلم أن يعادي ويوالي لله.

واعلم أن معاملة الكفار والمشركين على أقسام أربعة:

الأول: واجب، وهو أن يعتقد كفر الكافر ويبغضه لله، ويعتقد بطلان ما هو عليه من الدين، وهذا داخل فيه من يدين بغير الإسلام، كل من يدين بغير الإسلام لابد أن تعتقد بطلان ما هو عليه لأنه ليس هناك دين حق إلا الإسلام؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ{[آل عمران: ١٩].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ{[آل عمران: ٨٥].

فمن أحب الكفر أو رضي بالكفر أو اعتقد أن الكفار على دين صحيح مرضي عند الله عَزَّ وَجَلَّ أو شك في كفرهم فهو مرتد خارج من الإسلام لأنه مُكذب للنصوص من الكتاب والسنة.

فالله عَزَّ وَجَلَّ كفَّر الكفار، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال أنه: «لَايَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَايَهُودِيٌّ وَلَانَصْرَانِيٌّ وَلَايُؤْمِنُ بِي إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فلابد أن تعتقد بطلان كل الأديان سوى الإسلام، فليس هناك دين حق قائم إلا الإسلام.

الثاني من معاملة الكفار: ما هو مباح مع الكفار؛ يعني: يعاملهم الإنسان وهو مباح له، كالبيع والشراء والاستفادة من خبراتهم ونحو ذلك، وهذا جائز، وقد باع النبي صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المشركين واشترى، كما باع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واشترى مع بعض الكفار.

ولذلك مات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند يهودي،: وجاء رجل مشرك معه غنم فاشترى منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاة، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشتري منهم ويبيع، فهذا جائز، وأيضًا الاستفادة من خبراتهم ونحو ذلك.

الثالث: ما هو محرم وهو التشبه بهم في الأخلاق أو في الأقوال أو في الملابس، فهذا محرم، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

الرابع: المطلوب، يعني: قد يكون مستحب مطلوب من الإنسان مطلوب منه وهو العدل مع الكفار، فلا يجوز لك أن تظلم كافر، ولا أن تعتدي عليه بغير حق؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا{[المائدة: ٨]، فيجب عليك أن تعدل مع الكافر، فلو كان عندك كافر -مثلًا- ما يجوز لك أن تعذبه، أن تضعه في الشمس وتجلد ظهره وتصب عليه الماء الحار، هذا لا يجوز، فتعدل معه، مع أنك تعتقد بطلان ما هو عليه فتبغضه في الله.

وأيضًا كبر الوالد الكافر فهذا مطلوب؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا{[لقمان: ١٥]، أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بصحبتهما في الدنيا معروفًا.

وكما جاء في الصحيح: أن أسماء قالت: يا رسول الله, إن أمي جاءت وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: «صِلِي أُمَّكِ»، هذا مطلوب مع الكفار.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: }إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ{[آل عمران: ١٧٥]

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال رَحِمَهُ اللهُ: وقول الله تعالى: }إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ{[آل عمران: ١٧٥] .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يُبين في هذا الباب أهمية الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، لأن الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ من أفضل العبادات، والخوف من غير الله عَزَّ وَجَلَّ كخوف الله من الشرك.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:}إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ{، (إِنَّمَا) أداة حَصْر تدل على حصر الحكم في المذكور ونفيه عما سواه.

قال:}ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ{؛ يعني: هذا من الشيطان الذي يقع في قلوبكم هو من الشيطان بسبب الشيطان.

قال:}يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ{؛ يعني: يخوفكم بأوليائه، بحيث أنه يلقي في قلوبكم أن أولياء الشيطان أن لهم قدرة وأنهم ذو مناعة وهكذا حتى تخشون منهم.

ثم قال سبحانه:}فَلَا تَخَافُوهُمْ{، (اللام) لام النهي؛ يعني: لا تخافون هؤلاء أولياء الشيطان.

}وَخَافُونِ{؛ يعني: توجهوا إلي بالخوف وتعبدوا إلي بالخوف وخصوني به.

}إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ{؛ يعني: إن كنتم تؤمنون بالله عَزَّ وَجَلَّ، فجعل الخوف شرط في الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ .

ففي الآية الكريمة يُبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن الخوف عبادة، ولذلك أمر بالخوف منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فدل على أنه من أعظم العبادات.

ولذلك جعله شرط في الإيمان, فمن لم يخف الله عَزَّ وَجَلَّ بالكلية بحيث لا يقع في قلبه الخوف من الله من أصله هذا ليس بمسلم ليس بمؤمن، وأما من كان في قلبه خوف ولو كان ضعيف فإن هذا مؤمن.

ولذلك العاصي من المسلمين لابد أن يبقى في قلبه شيء من الخوف حتى لو بلغ ما بلغ من المعصية يبقى في قلبه شيء من الخوف، لأن الخوف ينقسم إلى قسمين:

الأول: خوف من الله.

والخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ على حالتين:

الأول: الخوف الذي يحمل على فعل الطاعة وترك المعصية، بحيث يكون الإنسان خائف من الله عَزَّ وَجَلَّ ويحمله ذلك على فعل الطاعة وترك المعصية، هذا من أعظم العبادات.

الثاني: الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ الذي قد يقترن به معصية بحيث أنه يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ ولكن قد يقع في معصية، كبعض عصاة المسلمين يكون عنده خوف ولكنه يعصي ويقع منه المعصية.

أما إذا خلا القلب من الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ من أصله فهذا ليس بمسلم، فدل على أن الخوف عبادة، والخوف من حيث هو هو ينقسم إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو الذي يتضمن كمال الذل وكمال الحب، فهذا من أعظم العبادات.

الثاني: الخوف المحرم وهو الذي يحمل على معصية الله، أو يحمل على ترك طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، بحيث يخاف من مخلوق في ترك طاعة أوفعل محرم ولا يصحبه ذل وخضوع، ما يصحبه ذل وخضوع ومحبة ما يصحبه هذا الشيء، لا يصحبه ذل ولا خضوع ولا محبة، وإنما يخاف في ترك واجب أو فعل محرم.

كما لو خاف –مثلًا– من الناس إذا صلى في المسجد أن يذموه، أو إذا أطلق لحيته يذموه، أو إذا قصر ثوبه يذموه، فيخاف من هذا الكلام، فهذا مذموم محرم.

أو على ترك واجب كما لو خاف –مثلًا– من مخلوق في ترك صلاة الجماعة، فهذا محرم لا يجوز.

الثالث: خوف الشرك وهو أن يخاف غير الله عَزَّ وَجَلَّ فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالذي يخاف من الأموات يخاف من الميت أن يغضب عليه، أو أن يذهب بماله، أو يصيبه بمرض في بدنه، هذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

أو يخاف من غائب أو حاضر كأن يخاف من -مثلًا- رجل أن يدخله النار ويبعده عن الجنة، هذا الشرك أكبر مخرج من ملة الإسلام، لأن هذا الشيء لا يقدر عليه إلا الله.

أو يخاف من الجن أن يصيبوه بمرض بدون سبب، بحيث أنه يقوم في قلبه ذل وخضوع للجن، ويخاف منهم أن يصيبوه بشلل -مثلًا- أو بعمى أو بذهب سمع، من غير سبب فهذا كله من الشرك لأن هذا أمر لا يقدر عليه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا غالبًا يصحبه ذل وخضوع لهذا المخوف منه، ويكون خائف من هذا الشيء بذل وخضوع، وهذا هو العبادة.

الرابع: الخوف الذي لا سبب له وهو الجبن، كأن يخاف من الظلام، أو يخاف من الحشرات الصغيرة، أو يخاف من أصوات الرياح، فهذا من الجبن.

ولذلك يقول العلماء: أن الجبن هو الخوف مما ليس بمخوف، فيخاف من الفئران -مثلًا- أو يخاف من الخنافس، فيخاف من شيء غير مخوف.

الخامس: هو الخوف الطبيعي الجائز، الذي طبع الله عَزَّ وَجَلَّ الإنسان على الخوف منه، وهذا غير ملوم عليه الإنسان، كأن يخاف من النار أن تحرقه فهذا جائز، أو يخاف من العقرب أن تلدغه فهذا جائز، أو يخاف من ظالم أن يقتله وهو عنده قدرة فيخاف من هذا الظالم أن يقتله إذا خرج إليه ولقيه فيخاف منه ويعرف أن هذا الظالم قادر على أن يوقع به فيخاف إذا لقيه وأن يقتله فهذا جائز؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلاَمِ:{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}[القصص: ٢١].

وكما جاء في الصحيح عن نبي الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أتى إلى خديجة فقال: وكان عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمَ يقول: «دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا»، من الخوف عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمَ، لأن هذا من الخوف الطبيعي، وهذا الخوف لا ينقص الإيمان فهو جائز.

لأن الله عَزَّ وَجَلَّ طبع الإنسان على الخوف من هذه الأشياء، ما يمكن أن يرى الإنسان السبع ويقول: ما أخاف منه لابد أن يقع في قلب شيء من الخوف.

حتى لو كان الخوف من الجن وخاف منهم بسبب فهو جائز -مثلًا- لو دخل مكان مظلم وعلم أن فيه جن وخاف أن يؤذوه بما يقدرون عليه بما قدرهم الله عَزَّ وَجَلَّ عليه فهذا جائز، أما إذا خاف من الجن في شيء لا يقدر عليه إلا الله فقد وقع في الشرك، هذا من حيث تقسيم الخوف.

قال المصنف رحمه الله:

وقوله تعالىٰ:}إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَىٰ الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ{[التوبة: ١٨].

قال الشارح وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله:}إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ.{

في هذه الآية الكريمة يُبين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من هو المؤمن بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى واليوم الآخر فذكر صفته قال: الذي يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة.

وقد جاء في الحديث حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»، الذي يعمر المساجد بالصلاة والطاعة فإنه يُشهد له بالإيمان.

وإن كان الحديث فيه مقال ولكن الآية دالة عليه دالة على معنى الحديث.

قال:}إِنَّمَا{، (إِنَّمَا) أداة حصر وهي حصر الحكم في المذكور ونفيه عما سواه.

}يَعْمُرُ{، العمارة تنقسم إلى قسمين: عمارة معنوية وعمارة حسية.

فأما الأول: وهو العمارة الحسية، فهو أن يبني المساجد وأن يطهرها وأن يُصلح من شأنها، فهذا عمارة حسية، وقد أمر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أن تُبنى المساجد بالدور وأن تُطيب وتُنظف، فهذا عمارة حسية.

وكما جاء في صحيح مسلم من حديث عثمان أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«مَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا لِلَّهِ بَنَىٰ اللهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ»، هذا عمارة حسية.

الثاني: عمارة معنوية، وهو أن يعمر المساجد بالصلاة وقراءة القرآن والدعوة إلى الله فيها والاعتكاف وما أشبه ذلك، فهذا يسمى عمارة معنوية.

كما جاء في الحديث:«من رأيتوه يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»، والمعنيان داخلان في الآية الكريمة.

قال:}إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ{؛ يعني: المساجد المبنية وأضافها الله عَزَّ وَجَلَّ إليه إضافة تشريف فهي بيوت الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال:}مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ{؛ آمن بقلبه ولسانه وجوارحه.

}بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ{، اليوم الآخر هو كل ما يكون بعد الموت فهو داخل في اليوم الآخر.

قال:}وَأَقَامَ الصَّلَاةَ{، (أَقَامَ)؛ يعني: أتى بها قائمة معتدلة بشروطها وأركانها وواجباتها، فيأتي بها قائمة كما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ أن تقام عليه.

و}الصَّلَاةَ{، الصلاة هي المعروفة.

}وَآتَى الزَّكَاةَ{،(آتى)؛ يعني: أعطى الزكاة وأداها للمستحقين، والزكاة حق مالي أو حق في أموال مخصوصة لطائفة مخصوصة في زمن مخصوص.

قال:}وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ{؛ يعني: لم يخاف إلا الله، وهنا نفي واستثناء فدل على الحصر؛ أي: لم يكن في قلبه خشية إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والخشية هي نوع من الخوف ولكنها أخص لأنها خوف مقترن بتعظيم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ:}وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ{[العنكبوت: ١٠].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: وقوله:}وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ.{

في هذه الآية الكريمة يُبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال بعض الناس أنه إذا لحقه الأذى في الله جعل الخوف من الناس كالخوف من عذاب الله، أَي تَرك عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ بسبب خوف الناس، فهو مثل الذي يستجير من الرمضاء بالنار كالذي يهرب من الرمضاء ويدخل في النار، فهذا كحال هذا الرجل.

قال:}وَمِنَ النَّاسِ{؛(مِنَ) للتبعيض؛ يعني: بعض الناس، والناس هنا للتبعيض.

}مَنْ يَقُولُ{، قد يقول بقلبه وقد يقول بلسانه، ولابد من الأمرين لأنه يقول بلسانه آمنا بالله فينطق -مثلًا- بشهادة التوحيد يقول: آمنت بالله.

}فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ{؛ يعني: لحقه الأذى بسبب تمسكه بدين الله.

}جَعَلَ{؛ يعني: صيَّر،}فِتْنَةَ النَّاسِ{؛ يعني: عذاب الناس وأذاهم له وفتنتهم له.

}جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ{؛(والكاف) كاف التمثيل؛ يعني: مثل عذاب الله، فيجعل الأذى من الناس كعذاب الله، فيهرب من أذى الناس ويترك الطاعة ويترك العبادة لأجل يبتعد عن الأذى ويقع فيما يسبب العذاب من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهو كما تقدم كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ففي هذه الآية يُبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن بعض الناس يخشى من الناس كخشيته من عذاب الله، ولذلك إذا تمسك بالدين وأطلق لحيته وقصر ثوبة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم أوذي في لله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا رأى ذلك ترك هذا كله ونكس على عقبه ووقع في بسبب ذلك في عذاب الله -نسأل الله العافية- فهذا حال ليست بحسنه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أبي سعيد رَضِي اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ: أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بسخط اللهِ، وأن تحمدهم على رزق اللهِ، وأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره». رواه ابن حبان في صحيحه.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال: **وعن أبي سعيد الخدري مرفوعًا**؛ يعني: مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ»، من ضعف يقين الإنسان.

«أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ»؛ بحيث يطلب هذا الرجل رضى الناس ولو أسخط الله عَزَّ وَجَلَّ، بحيث يفعل ما يرضي الناس ويسخط الله عَزَّ وَجَلَّ عليه بسبب هذا الفعل، هذا من ضعف اليقين إذ لو كان موقن ما فعل هذا فليرضي الله عَزَّ وَجَلَّ ولو سخط من سخط.

قال: «وأن تحمدهم علىٰ رزق الله»؛ يعني: تشكرهم وتضيف النعم إليهم وهي من الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذه من ضعف اليقين، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي ساق هذا الشخص حتى أعطاك هذا المال أو هذا الشيء، فلابد أن تحمد الله عَزَّ وَجَلَّ وتعرف أن النعمة منه، وتشكر هذا الشخص الذي أسدى النعمة ولكن لا تضيف إليه النعمةعلى أنه هو الذي أتاك بها.

قال: «وأَنْ تَذُمَّهُمْ»؛ يعني: تسبهم وتشتمهم، «عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ»؛ يعني: تشتم هؤلاء الناس فالله عَزَّ وَجَلَّ ما قدر هذا أن يأتيك، الله عَزَّ وَجَلَّ ما قدر أن يأتيك هذا الشيء، فتظن أنه بسبب هذا الشخص أنه لم يأتيك هذا الشيء وهو إنما هو من تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك الناس إنما هم مجرد أسباب، الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يسبب الأسباب ويصيرها كيف يشاء.

قال: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص».

«إن رزق الله»؛ يعني: ما رزق الله به العباد ما يوصله ولا يأتي به حرص حريص؛ يعني بمعنى: أن الإنسان مهما كان جاد في طلب الشيء فلم يأتيه إلا ما قُدر له لن يزيد، وليس

المراد أنه لا يعمل بل عليه أن يعمل ولكن يعتمد على الله فلا يعتمد على حرصه لن يجدي شيئا وإنما هو إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إن شاء أتاك بهذا الشيء وإن شاء ما أتاك بهذا الشيء.

قال:«ولا يرده كراهية كاره»؛ يعني: لو كره شخص أن يأتيك شيء فإن كراهته لن ترد ما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ سيأتيك، بل ولو كره من كره فإن ما أراده الله عَزَّ وَجَلَّ لك سيأتيك.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن اليقين قد يضعف وقد يقوى، واليقين هو العلم الذي لا يخالطه شك، فإن الإنسان قد يضعف يقينه وقد يقوى، ويضعف بسبب المعاصي بسبب الغفلة، فيضعف اليقين عند الإنسان وقد يقوى يقوى اليقين بسبب العلم وكل ما علم الإنسان زاد يقينه؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ{[الأنعام: ٧٥].

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حكاية عن إبراهيم قال:}رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي{[البقرة: ٢٦٠]، فليس الرائي كالذي يسمع، الإنسان كل ما زاد عنده العلم كل ما زاد عنده اليقين.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس كغيره من الناس فهو يعلم علم حق اليقين ليس هذا عن باقي الناس.

ولذلك جاء في حديث أنس أنه قال:«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

فالعلم الذي وصل إليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ليس كغيره، مع أن الصحابة الذي قال لهم هذا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ قد وصلوا المنتهى في العلم واليقين، ولكن هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أعظم يقين لأنه رأى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ الجنة ورأى النار ورأى ما وعد به الناس يوم القيامة ورأى أشياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

فالمراد أن اليقين قد يضعف وقد يزيد، ويزيد بالعلم وأيضًا بالطاعة، إذا أكثر الإنسان من العبادة فإن هذا سبب في زيادة اليقين، وأيضًا بالنظر في آيات الله الكونية والشرعية فتنظر

في ملكوت السماوات والأرض وتنظر في شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن هذا من سبب زيادة اليقين

.

ومن الفوائد: أن الرزق الذي يأتيك من الناس هو من الله عَزَّ وَجَلَّ، الرزق الذي يأتيك بسبب أيدي بعض الناس هو من الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما الله عَزَّ وَجَلَّ ساقه إليك بسبب هذا الإنسان، فعليك أن تضيف النعمة إلى الله وتعتقد أنها منه، وأيضًا تشكر هذا الذي أسدى لك النعمة، ولذلك أنت لابد لك من أمرين:

الأمر الأول: أن تعتقد بقلبك وتوقن أن هذا الشيء من الله، ولو شاء الله عَزَّ وَجَلَّ ما أتاك هذا الشيء فتحمد الله عَزَّ وَجَلَّ على هذه النعمة.

وأيضًا تعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل هذا الشخص سبب في أن تصل إليك النعمة فتشكره، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ»، الله عَزَّ وَجَلَّ ساق النعمة على يد هذا الشخص إليك فتشكره لأنه سبب، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل السبب.

ومن الفوائد: أن عليك أن تريح نفسك ولا تذم الناس، لأن الناس ليس بأيديهم شيء، ولذلك الأملاك التي يملكها الناس إنما هي مُلك مقيد، وإنما المالك مُلك حقيقي مطلق هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهو الذي يملك الناس وقلوبهم، فلو شاء الله عَزَّ وَجَلَّ وفَّق الناس هؤلاء أن يحنوا عليه ويعطوك ما بأيديهم، ولو شاء الله عَزَّ وَجَلَّ لأبعد عنك ما في أيديهم، فعليك أن لا تذم الناس إنما هم مجرد أسباب.

ومن الفوائد: أن الإنسان يعمل ويطلب الرزق ويسعى في الأرض ولكن يعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يقول إن هذا المال بسبب حرصي، أو سبب علمي بالتجارة، أو سبب ما حصل من اجتهادي، لا، بل عليه أن يعتقد أن هذا من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويعتمد على الله ويعمل بما شرع الله من الأسباب.

ولذلك على الإنسان أن يعمل ويسعى في الأرض، الله عَزَّ وَجَلَّ قد أمر بذلك قال:}فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ{[الملك: ١٥]، فأمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالسير في الأرض والعمل، ولكن اعتمد على الله.

ومن الفوائد: أن ما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ لك فسوف يأتيك حتى لو كره من كره، إذا قدر الله لك العلم فلن يستطيع أحد أن يحجبه عنك، وإذا قدر الله لك المال فلن يستطيع أحد أن يمنعه عنك، لو فعل من فعل فلن يستطيع أن يفعل شيئًا، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قدَّر ذلك.

ولذلك جاء في حديث ابن عباس أنه قال: «وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رواه ابن حبان في صحيحه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ الْتَمَسَ».

«مَنْ الْتَمَسَ»؛ يعني: من طلب.

«رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ»؛ يعني: أراد أن يرضى الله عَزَّ وَجَلَّ عنه ولو أسخط الناس.

«رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»؛ يعني: رضي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ عنه، «وَأَرْضَىٰ عَنْهُ النَّاسَ» .

«وَمَنْ الْتَمَسَ»؛ يعني: طلب.

«رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ»؛ يعني: طلب ما يرضي الناس ولو كان هذا يؤدي إلى سخط الله.

«سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ»؛ يعني: غضب عليه.

«وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»؛ يعني: أغضب عليه الناس.

قال: **رواه ابن حبان.**

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الإنسان العاقل ذي الذهن الصافي عليه أن يطلب رضا الله عَزَّ وَجَلَّ، لأنه إذا رضي الله عَزَّ وَجَلَّ عنه رضي عنه غيره.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ إذا رضي عن الإنسان رضي عنه المخلوق؛ لأن قلب هذا المخلوق بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فإذا رضي الله عَزَّ وَجَلَّ عنك أرضى عنك الناس.

فالعاقل عليه أن يطلب رضا الله ولا ينظر إلى الناس أرضوا أم لم يرضوا، لأنه في النهاية سيرضون عنك، ولذلك إذا رضي الله عَزَّ وَجَلَّ عن العبد أرضى عنه المخلوق.

كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ».

فالله عَزَّ وَجَلَّ إذا رضي عن العبد أرضى عنه الناس، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لموسى: }وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي{[طه: ٣٩].

قال المفسرون: معنى: }وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي{؛ أي: أحببتك وحببتك لخلقي.

فلذلك قيل: أن موسى كل من رأى أحبه، حتى أن فرعون لما رآه وقع في قلبه حبه فما قتله كما كان يقتل أبناء بني إسرائيل، وامرأة فرعون أحبته.

فهذا إذا طلب الإنسان رضا الله عَزَّ وَجَلَّ فإن هذا من أسباب أن يرضى عنه الناس، مع أن رضا الله عَزَّ وَجَلَّ هو المطلوب، ورضا الناس غير مطلوب وغير مقدور عليه.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: رضا الله عَزَّ وَجَلَّ مطلوب وهو مقدور عليه، ورضا الناس غير مطلوب وهو غير مقدور عليه.

فإذا كنت تريد رضا الناس فإن الناس ما يرضيهم شيء.

كما قال ابن القيم: إن الناس لهم تصورات وإرادات فيحملونك على ما يريدون، فإن خالفتهم سبوك وشتموك ، فالناس لا تطلب رضاهم وإنما تطلب رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن الفوائد: أن من طلب رضا الناس سخط الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عليه وأسخط عليه الناس وأبغضوه وعادوه، لأنه طلب الأدنى بترك الأعلى وهو رضا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الله فإذا سخط الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على هذا العبد أسخط عليه الناس.

كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: «وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ،ثُمّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ». فيصبح كل من رآه قال: إن هذا مُبغض في قلبي أكره هذا الشخص، بسبب أنه وضع له البغض في الأرض، لأنه أسخط الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يوصف بالسخط فهو من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، الله عَزَّ وَجَلَّ يسخط ويغضب، هذه من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى التي تليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وصفة السخط ثابتة في القرآن قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}[الزخرف: ٥٥].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}[المائدة: ٨٠]، فالسخط من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[المائدة: ٢٣]

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: باب قول الله تعالى: }وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ{[المائدة: ٢٣].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن التوكل لمَّا كان من أعظم العبادات وجب على العبد أن يصرفه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يُشرك معه غيره.

وقد أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليبين أن الواجب على العبد أن يتوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ دون غيره, ويبين أن التوكل من أفضل العبادات التي ينبغي للمسلم أن يخص الله عَزَّ وَجَلَّ بها ولا يُشرك معه غيره.

قال:}وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.{

في هذه الآية الكريمة يحث الله عَزَّ وَجَلَّ على التوكل عليه وتفويض الأمر إليه, وجعل ذلك شرط للإيمان.

قال:}وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا{. (على): جار ومجرور, وقُدِّم الجار والمجرور لإفادة الحصر؛ ولذلك إذا قُدِّم ما حقه التأخير دل على الحصر.

}وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا{؛ يعني: على الله لا على غيره ففوضوا أموركم.

}إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ{؛ أي: إن كنتم أهل الإيمان, فجعل التوكل شرط في الإيمان.

وعلى هذا: إذا انتفى التوكل بالكلية من القلب على الله عَزَّ وَجَلَّ بحيث أنه لا يتوكل على الله مطلقًا ولا يجد في قلبه ذرة توكل على الله فهو غير مؤمن بالكلية, وإذا كان عنده توكل على الله عَزَّ وَجَلَّ ولكن ضعيف في توكله فهو لم يكمُل إيمانه.

فالنفي قد يكون نفي للوجود, إذا كان ليس في قلبه مطلقًا توكل على الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد يكون نفي للكمال, إذا كان عنده إيمان ولكن ضعيف, عنده توكل ولكن ضعيف,فهنا نفي كمال.

فالواجب على العبد أن يفوض أمره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

والتوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ هو التفويض المطلق الكامل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في جلب المنافع ودفع المضار والاعتماد على الله اعتماد مطلقًا, ويصدق في قرارة قلبه على أنه معتمد على الله؛ ولذلك التوكل من أعظم العبادات.

والتوكل ينقسم إلى ثلاثةأقسام:

القسم الأول: التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ, وهو أن يشعر العبد في قلبه بذل وخضوع واحتياج إلى الله عَزَّ وَجَلَّ, ويعتقد في قرارة قلبه أن الله على كل شيء قدير, وأن الله قادر على جلب جميع المنافع ودفع جميع المضار, فهذا من أعظم العبادات.

وهذا ينشأ بمعرفة العبد بربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأن له ملكوت كل شيء, وأنه الخالق الرازق المحيي المميت, وأنه لا إله إلا هو, وأنه هو الذي له الملك والخلق والأمر, فهنا ينشأ التوكل, أو هو ينشأ بسبب توحيد الربوبية, فإذا اعتقد أن الله الرب الخالق الرازق المحيي المميت؛ فإنه هنا ينشأ هذا التوكل.

القسم الثاني: التوكل على السبب الذي جعله الله عَزَّ وَجَلَّ سبب والاعتماد عليه, فهذا شرك أصغر, كالذي يعتمد على رجل في معاشه, أو يعتمد على الطبيب في علاجه ويتوكل عليه, ونحو ذلك, فهذا شرك أصغر, وذلك أن التوكل عبادة.

القسم الثالث: التوكل على الأموات أو على مخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله, فهذا شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام, كمن يتوكل على رجل في إدخاله الجنة ونجاته من النار, أو يتوكل على الميت في مغفرة ذنبه, أو يتوكل على الأشجار أو الأحجار في أن تغفر ذنبه أو تشفي مرضه.

هذه أقسام التوكل الثلاثة.

وهناك حالة: وهي ليست من التوكل, وإنما هي تسمى وكالة, وهي أن يفوض شخص لآخر أمر ظاهر, كبيع سيارة أو شراء بيت أو عقد نكاح.

فيقول: يا فلان اذهب فبيع هذه السيارة, أو يا فلان خذ هذا المال واشتري لي بيت, هذا يسمى تفويض وليس توكل, تفويض أمر ظاهر, فهذا ليس من العبادة,بل هو جائز بحسب الأمر, إذا كان الأمر جائز فجائز, يسمى وكالة, وهذا يكون أمره ظاهر.

وهذا المفوض لا يجد في قلبه ذل للمفوض إليه, ليس من العبادة؛ لأنه لا يجد في قلبه ذل واحتياج لهذا المفوض إليه.

وأيضا يرى أنه أفضل منه, كالأب حين يقول لابنه: خذ هذه السيارة فبيعها, الأب أفضل من الابن,فليست من العبادة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ{[الأنفال: ٢].

|

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقوله:}إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ{[الأنفال: ٢].

في هذه الآية الكريمة يبين الله عَزَّ وَجَلَّ صفة كامل الإيمان, وهي أنهم إذا ذكروا الله عَزَّ وَجَلَّ خافت قلوبهم وارتجفت وزاد إيمانهم.

قال: وقوله:}إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ{.(إنما): أداة حصر تدل على حصر الحكم في المذكور ونفيه عما سواه.

وقوله:}الْمُؤْمِنُونَ{؛ يعني: الذين آمنوا بقلوبهم وبألسنتهم وبجوارحهم.

}الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ{.(الذين): اسم موصول يدل على العموم.

}الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ{؛ يعني ذُكرت عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وشديد عقابه وما أشبه ذلك.

}وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ{؛ يعني: خافت.

وفي إكمال الآية:}وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{, وهذا الشاهد, يعني: وعلى الله عَزَّ وَجَلَّ يفوضون أموره الدينية والدنيوية.

ففي هذه الآية الكريمة بيان أن المؤمن كامل الإيمان هو الذي يفوض أمره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

والحصر هنا }إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ{؛ يعني: كامل الإيمان,فالمسلم الفاسق ما يدخل في هذه الآية, يعني الذي عنده ضعف في الإيمان أو عنده فسق أو نحو ذلك ما يدخل في هذه الآية, وإنما يدخل فيها المؤمن كامل الإيمان.

وذلك أن الإيمان على درجتين:

الأول: إيمان كامل.

الثاني: مطلق إيمان, وهو الإيمان الذي فيه نقص.

الثاني يدخل فيه كل مسلم, سواء كان كامل الإيمان أو ناقص الإيمان.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{[الأنفال: ٦٤].

قَال الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

قال:وقوله: }يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{[الأنفال: ٦٤].

في هذه الآية الكريمة يبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن كافي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وكافي من اتبعه من المؤمنين أيضا, فالله عَزَّ وَجَلَّ يكفي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويكفي أتباعه.

قال:}يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ{, هذا نداءٌ خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنبي هو الذي أُنبِئ وأُخبِر, والنبي من النبأ وهو الخبر, وأيضًا من النبْوة وهو الرفعة, فالنبي مُخبَر وأيضًا ذو رفعة.

والنداء في القرآن للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أقسام ثلاثة:

الأول: ما دل الدليل على اختصاص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به فهو خاص.

كقوله تعالى:}أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ{[الشرح: ١], فهذا خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله:}لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ{[الفتح: ٢], فهذا خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: ما دل الدليل على دخول الأمة في اللفظ.

كقوله تعالى:}يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ{[الطلاق: ١], فجمع سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في الآية. فالخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته, يعني الخطاب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأدخل الله عَزَّ وَجَلَّ الأمة.

القسم الثالث: ما كان الخطاب موجه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتدخل الأمة تبعًا.

كقوله تعالى:}وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ{[البقرة: ١٢٠], فهذا الخطاب موجه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتدخل الأمة أيضًا تبعًا.

فيقال لكل مؤمن أيضا:}وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ{؛ معنى الآية: لن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبعهم على دينهم.

ولذلك هذا الخطاب موجه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأمة تدخل تبعًا, لا يقول أحد هذا خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, بل هو اللفظ موجه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتدخل الأمة أيضًا تبعاً, فيقال لكل مسلم: }وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.{

فالمسلم لن يرضى عنه اليهودي ولن يرضى عنه النصراني حتى يتبعه ويكون معه.

قال:}يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ{؛ يعني كافيك, فالحسب هو الكافي, }حَسْبُكَ اللَّهُ{؛ يعني: كافيك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

}وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{؛ أي: كافي من تبعك من المؤمنين.

ففي قوله:}وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يكفيك ويكفي من اتبعك, فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى المعتمد عليه وحده, وليس المراد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يكفي النبي صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأيضًا المؤمنون يكفون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ليس هذا المعنى, بل الله عَزَّ وَجَلَّ يكفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويكفي من تبع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق: ٣].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

وقوله: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق: ٣].

في هذه الآية الكريمة يبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن من يفوض أمره إلى الله؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يكفيه, سواء أمورها الدينية أو الدنيوية.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى:{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.}

(مَنْ): شَرْطِيَّة.

{يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}: فِعْلُ الشَّرْطِ, وَجَوَابُه:{حَسْبُهِ}؛ يعني كافيه.

ففي الآية شرط وفعل الشرط وجوابه.

قال:{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.}

(مَنْ): تدل على العموم؛ لأن أسماء الشرط تدل على العموم؛ يعني: أي إنسان يتوكل على الله, ليس للفلان دون فلان, بل أي إنسان يعتمد على الله.

{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}؛ يعني يفوّض أمره ويعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ في جلب المصالح ودفع المضار ويعتقد في الله عَزَّ وَجَلَّ الكفاية.

{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}؛ يعني: كافيه, فيكفيه الأمور الدينية والدنيوية, فإذا اعتمد الإنسان وصدق في اعتماده؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يكفيه ولا أحد يستطيع أن يتعرض له.

ولذلك لما اعتمد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أمر قومه أن يأتوا ويأتوا بآلهتهم ويجتمعوا ويقضوا إليه –يعني: اقتلوني–, قال: لن تصلوا إلي لأني اعتمدت على الله

عَزَّ وَجَلَّ, وكفاه الله عَزَّ وَجَلَّ, ما قدروا أن يصلوا إليه, وسيأتينا أن إبراهيم لما توكل على الله جعل الله عَزَّ وَجَلَّ النار بردًا وسلامًا عليه.

وقوله:}وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ{؛ يعني: كافيه.

والتوكل على الله قد يكون في الأمور الدينية, وقد يكون في الأمور الدنيوية.

فالأمور الدينية؛كأن يتوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ في قيام الليل, فيعتمد على الله ويفوض أمره إلى الله فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعينه, وأيضا كأن يعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ في القيام لصلاة الفجر فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعينه, كأن يعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ في الجهاد فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يُصبره وينصره ويُضعف الأعداء في عينه ويقويه.

وهذا في الأمور الدينية.

الثاني: في الدنيوية؛ كان يعتمد الإنسان على الله عَزَّ وَجَلَّ في إصلاح بيته مثلًا, أو في إصلاح سيارته, أو هكذا, فإن الله عَزَّ وَجَلَّ ييسر له ويكفيه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال ابن القيم في الفوائد: "أن من اعتمد على الله في الأول كفاه الثاني".

إذا اعتمد على الله في الأمور الدينية كفاه الأمور الدنيوية.

قَال المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن عباس قال: "حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا له: }إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا{[آل عمران: ١٧٣]". رواه البخاري والنسائي.

قَال الشَّارِح وفّقَه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**وعن ابن عباس قال: "حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ"**.

"حَسْبُنَا اللهُ"؛ يعني: كافينا الله, **"وَنِعْمَ الْوَكِيلُ"**؛ يعني: نِعم المتوكل عليه.

و(نِعْم): هذه كلمة ثناء, **"وَنِعْمَ الْوَكِيلُ"**؛ يعني: نِعم المفوض إليه الأمر.

قَالَهَاإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمَ:يعني: قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمَ, قال هذه كلمة: "حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَالْوَكِيلُ".

قَالَهَاإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمَ حِينَ أُلْقِيَ:يعني حين ألقاه قومه في النار, حين أخذوه بالمنجنيق فأضرموا نارا عظيمة ثم أخذوا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمَ فقذفوه في هذه النار بالمنجنيق, فقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمَ: "حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَالْوَكِيلُ", فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للنار:}كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ{[الأنبياء: ٦٩].

قال المفسرون: إن الله عَزَّ وَجَلَّ لو لم يقل بردا وسلامة لهلك إبراهيم من البرد, أصبحت النار باردة, ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال:}بَرْدًا وَسَلاَمًا{, فخرج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمَ وقد احترقت الحبال في يده.

وقد جاء في الأثر أن أبيه لما رآه قال:"نِعم الرب الذي أنجاك من هذه النار".

ولذلك خرج منها ولم يصبه شيء.

وقد جاء في الأثر-وإن كان فيه ضعف- أن جبريل عَلَيْهِ السَّلاَمَ عرض له عَلَيْهِ السَّلاَمَ وقال:"هل تريد شيء؟ قال: أما إليك فلا, وأما إلى الله فحسبنا الله ونعم الوكيل", فجعل الله عَزَّ وَجَلَّ النار برد, فتغيرت هذه النار المُحرقة إلى نار برد وسلام, وبقي مدة عَلَيْهِ السَّلاَمَ في النار ولم تصبه بشيء, والنار تُحرق إلا إبراهيم فكانت برد وسلام عليه, وخرج منها يمشي, ليس فيه بأس عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمَ.

قال:"**وَقَالَهَامُحَمَّدٌصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**"؛ يعني: قال هذه الكلمة محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمَ حين رجع عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمَ وقيل له إن كفار قريش قد جمعوا إليكم ليستأصلوكم, وكانوا أصيبوا بجراح وتعب فقالوا:"حَسْبُنَا اللهُوَنِعْمَالْوَكِيلُ", فكفاهم الله عَزَّ وَجَلَّ,ألقى في قلوب الكفار الرعب فرجعوا.

ولذلك قال:حِينَ قَالُوا له: }إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ{,}النَّاسَ{ هنا يعني: أبي سفيان ومن معه قد جمعوا لكم.

}إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ{ ,}فَاخْشَوْهُمْ{؛ يعني خافوهم.

}فَزَادَهُمْ إِيمَانًا{؛ يعني: توكلًا واعتمادًا على الله, وإيمانًا بأن الله هو الذي يُنجيهم.

}وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ{[آل عمران: ١٧٣-١٧٤]؛ فكفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى .

في هذا الأثر فوائد:

من فوائد الأثر: أن هذه الكلمة تقال عند المخوف "حسبنا الله ونعم الوكيل", فإذا خاف الإنسان من عدو أو من شيء أو نحو ذلك مما يخاف فإنه يقول هذه الكلمة؛ فإن الله سبحانه وتعالى يكفيه, إذا صدق وكان قائلها صادق في قوله؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يكفيه.

ومن فوائد هذا الأثر: اعتماد إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ على ربه؛ فإنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ كان وحده واعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ فأنجاه الله عَزَّ وَجَلَّ من النار.

ولذلك تمم التوحيد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ومن الفوائد: أن نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده عظيم التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ والاعتماد عليه وصدق الالتجاء إليه .

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ أنجاه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ, وقد كانوا رجعوا من غزوة وأصابهم الجراح ونحو ذلك, ولكنهم ما خافوا هؤلاء الكفار, وإنما اعتمدوا على الله؛ فأنجاهم الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن التوكل عبادة؛ لأن الإنسان إذا اعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ زاد إيمانه.

وهنا مسألة:وهي قول بعض الناس أنا متوكل على فلان, هل يجوز هذا؟ مثلًا يقول: أنا توكلت عليك في إنهاء هذا العمل, أو توكلت على الله ثم عليك؟

الجواب: أن هذا لا يجوز؛ لأن التوكل تفويض قلبي؛بحيث أنه يلتفت قلبي لهذا المتوكل عليك, فلا يجوز أن يقول أنا متوكل عليك, ولأن التوكل عبادة, والعبادة لابد أن تكون لله وحده لا شريك له, فلا يقول أنا متوكل عليك ولا أنا متوكل على الله ثم عليك, بل هذا كله لا يصح, فيقول متوكل على الله وحده لا شريك له, ولكن يقول وكلتك في كذا؛ لأن التوكل

تفويض كما تقدم, وليس هو توكل, التوكل عمل قلبي؛ بحيث أن المتوكل يشعر بالذل والخضوع لهذا المتوكل عليه, أما الوكالة لا يشعر بذل ولا خضوع, وإنما يكون أمر ظاهر للناس.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: }أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ{[الأعراف: ٩٩]

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: باب قول الله تعالى:}أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ{[الأعراف: ٩٩].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الخوف لما كان من أعظم العبادات وكان ، خلو القلب من الخوف من ضعف التوحيد، ولما كان الأمن من مكر الله سببه ضعف الخوف من الله وهو ضعف في التوحيد أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليبين أهمية الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، وأيضًا لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله إذا خاف منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال المؤلف:}أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ{؛ هذا استفهام إنكاري.

و}مَكْرَ اللَّهِ{سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو استدراجه للعبد من حيث لا يعلم، بحيث أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يُملي للعبد العاصي ثم يأخذه من حيث لا يحتسب.

قال:}فَلَا يَأْمَنُ{؛ يعني: لا يطمئن، من مكر الله،}إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ{؛ يعني: الذين خسروا أنفسهم، والخسارة ضد الربح.

ففي الآية الكريمة فيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ذكر حال الذين يأمنون من مكر الله أنهم يكون سبيلهم إلى الخسران، وذلك أن الإنسان إذا خلا قلبه من الخوف من الله فإنه يلج في المعاصي، ثم يكون سبب في خسارته.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله تعالىٰ:}وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ{[الحجر: ٥٦].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ}:وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ.{

في هذه الآية الكريمة فيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ذكر حال القانطين؛ يعني: المستبعدين لرحمة الله أنهم ضالون؛ يعني: مخطئون الطريق وتائهون عنه.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:وَمَنْ يَقْنَطُ{؛ القنوط: هو استبعاد الفرج من يستبعد الفرج وييأس منه.

}مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ{؛ يعني: يستبعد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يرحمه.

}إِلَّا الضَّالُّونَ{؛ يعني: الذين ضلوا الطريق وتاهوا، والضلال قد يطلق ويراد به التيه وهو المراد هنا: أنه تائه عن الصواب.

ففي هذه الآية بيان أن من لم يستشعر ويعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرحمه إذا تاب إليه واستغفره فإنه ضال.

وفي الآية الأولى أن من لم يخف من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو خاسر.

ففي الآية الأولى ذكر فيها الخوف وأنه ينبغي للمسلم أن يخاف من الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفي الآية الأخرى ذكر فيها أنه لا يقنط من رحمة الله مهما وقع فيه من ذنب فعليه أن يتوب ويستغفر الله، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر له ويرحمه، وفيها الجمع بين الخوف والرجاء.

والمسألة الجمع بين الخوف والرجاء مسألة مهمة، وقد اختلف العلماء هل يُغلب جانب الخوف أو يُغلب جانب الرجاء؟ على أقوال:

فذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: أن الإنسان يسير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بين الخوف و الرجاء فلا يرجح هذا على هذا، فإذا رجح هلك فيسير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بين الخوف و الرجاء.

وقال بعض العلماء: إذا خاف أن يقع في معصية فليغلب جانب الخوف، وإذا احتضر وصار في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة فليغلب جانب الرجاء.

وقيل: إذا رأى حاله وتقصيره غلَّب جانب الخوف وإذا نظر إلى سعة رحمة الله وأن الله عَزَّ وَجَلَّ رحيم غلَّب جانب الرجاء.

والأقرب -والله أعلم- أن الإنسان له حالات:

الحالة الأولى: حال الصحة والأمن، فهنا يسير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بين الخوف والرجاء لا يغلِّب هذا على هذا ولا هذا على هذا.

الحالة الثانية: أن يخشى الإنسان أن يقع في معصية بحيث تدعوه نفسه إلى المعصية ويكون في وقت يوشك أن يقع في المعصية، فهنا يغلِّب جانب الخوف.

والدليل على ذلك: قوله تعالى:}وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{[النازعات: ٤٠-٤١]، فإذا دعت النفس للمعصية وخاف أن يقع فليغلِّب جانب الخوف.

ولذلك ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السبع الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله أن رجل تدعوه امرأة ذات منصب وجمال فيقول: إني أخاف الله،فهنا امرأة ذات منصب وجمال ولكن غلَّب جانب الخوف فارتدع عن هذه المرأة والمعصية بها.

الحالة الثالثة: أن يكون الإنسان عنده توبة؛ بمعنى: أن الإنسان فعل معصية ثم تاب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فهنا يغلِّب جانب الرجاء، حتى يستشعر التوبة ويرجع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والدليل: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال:«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ عَبْدِي بِي مَا شَاءَ»,فإذا ظن العبد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر له ويرحمه فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر له ويرحمه.

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ{[طه: ٨٢].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا{[النساء: ١١٠]، فهنا عند التوبة فيغلِّب جانب الرجاء.

الحالة الرابعة: أن يكون عند الموت فيغلِّب جانب الرجاء، حتى يحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ كما جاء في الصحيح من حديث جابر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ»، فإذا احتضر الإنسان وصار عند خروجه من الدنيا وإقباله على الآخرة فإنه يغلِّب جانب الرجاء.

ولذلك من المستحب عند المحتضر أن تذكر له سعة رحمة الله وأن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر للتائبين، وأن الله غفور رحيم حتى يغلِّب جانب الرجاء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُم، أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عن الكبائِرِ، فقال: «الشِّركُ باللهِ، واليَأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، والأمنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ.»

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال:**وعن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عن الكبائِرِ.**

الكبائر: هي الذنوب العظام، وهي ما جاء فيها وعيد خاص.

قال:فقال: «**الشِّركُ باللهِ**»، الشرك بالله هو أن يسوي بين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وغيره فيما هو من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:«**واليَأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ**»، اليأس: هو استبعاد الفرج.

«**مِنْ رَوْحِ اللهِ**»؛ يعني: من رحمة الله.

«**والأمنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ**»؛ يعني: الاطمئنان واعتقاد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يمكر به ولا يأخذه إذا عصاه.

قال:**رواه البزار.**

هذا الحديث ذُكر أن رواته الثقات.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: الأقرب أنه موقوف على ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ.

ففي هذا الحديث فوائد:

من فوائد هذا الحديث: أن الذنوب منها كبائر ومنها صغائر، والكبائر على درجات منها موبقات، ومنها أكبر الكبائر ومنها كبائر.

وما هي الكبيرة؟ اختلف العلماء في ذلك، ولذلك سُئل ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ عن الكبائرأهي سبع؟ قال: "إلى السبعين أقرب".

وفي رواية: " إلى السبعمائة أقرب"، فهي كثيرة.

والأقرب -والله أعلم-: أن ما ورد فيه وعيد خاص فهو كبير؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، فما ورد فيه لعنة أو غضب أو حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة أو توعد بنار فإنه كبيرة.

ولذلك قال ابن عبد القوي:

ما فيه حد بالدنى أو توعد بأخرى - فسم كبرى على نص أحمد

وزاد حفيد المجد أو جاء وعيده - بنفي إيمان ولعن لمُبعد

فزاد شيخ الإسلام ابن تيمية إذا نفي الإيمان, ولكن نفي الإيمان فيه اشكال، لأن من المعاصي ما قد يُنفى الإيمان وليس بكبيرة.

مثل: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، هذا على هذا التعريف تكون كبيرة أو نفي إيمان، أما اللعنة فلا شك أنها كبير -مثلًا- لعن الله السارق هذا يدل على أنها كبيرة، مثلًا: لعن الله شارب الخمر هذا كبيرة، والربا، وهكذا.

والكبائر كما تقدم درجات، منها أكبر الكبائر على الإطلاق وهو الشرك بالله، كما بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، لما سُئل عن أعظم ذنب قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ».

فالكبائر درجات، وأيضًا من الذنوب صغائر، والصغائر هي الذنوب التي نُهي عنها نهي عام وليس فيها وعيد خاص.

مثل: حلق اللحية هذا منهي عنه. ومثل نظرة إلى منهي عنه،}قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ{[النور: ٣٠].

والفرق بين الكبيرة والصغيرة من حيث الحكم على الفاعل، فيقال: أن من فعل الكبيرة يفسق بمجرد الفعل، فمن زنى قيل عنه: فاسق بمجرد الفعل، وأما الصغيرة فلا يفسق بمجرد فعل الصغيرة حتى يُصر عليها، فإذا أصر على الصغيرة انتقلت إلى كبيرة.

ولذلك يقول العلماء: لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار، هذا من حيث الحكم.

وأما من حيث الحد فإن الكبيرة ما جاء فيه وعيد خاص فهو كبيرة، وما نُهي عنه نهي عام فهي صغيرة، ما دخل في النهي العام فهو من صغائر الذنوب.

وأيضًا من المسائل في ذلك: أن الذنوب الكبائر لا تُكفر إلا بتوبة لابد من توبة، فالصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، ما تُكفرها.

والدليل: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال:}إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ{[النساء: ٣١].

وجاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:« الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَىٰ الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ».

لابد ، أن يجتنب الإنسان الكبائر حتى تُكفر عنه الصغائر.

أما الصغائر فإنها مكفرة بالحسنات أو بالطاعات، ولذلك الطاعات تكفر الصغائر، والدليل: أنه جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«أَرَأَيْتم لَوْ كَانَ علىٰ باب أَحَدِكُمْ نَهَرٌ يَجْرِي، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هل يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شيء؟»، قالوا: لا يا رسول الله، قال:«ذلك مثل الصلوات الخمس».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»:من تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَىٰ إِلَىٰ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَىٰ ترفع درجة».

فهذا في صغائر الذنوب، والأدلة كثيرة على أن صغائر الذنوب تُكفر بالحسنات والطاعات.

ومن الفوائد: أن الشرك من أعظم الذنوب بل هو أعظم الذنوب، ولذلك لما سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكبر الكبائر قال:»الشِّرْكِ بِاَللَّهِ«، فذكره أول ما ذكر.

ومن الفوائد: أن اليأس من روح الله من كبائر الذنوب، فاليأس من روح الله واستبعاد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرحم العبد فهذا من كبائر الذنوب، بل إنه قد يصل إلى الكفر كما قال شارح الطحاوية قال: إذا اعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يغفر له وكذَّب بالنصوص التي فيها أن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر الذنوب وأن الله يتوب على التائب كذب هذا كله وقال: ليس بصحيح أن الله يغفر الذنوب فهذا كفر.

أما إن اعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر الذنوب ولكنه قنط من رحمة الله واستبعد الرحمة ولم يُكذب بالنصوص، فهذا من كبائر الذنوب كما في هذا الحديث.

وكيف يقع القنوط من رحمة الله؟ يقع بسبب الجهل فقد يفعل الإنسان معصيه وبسبب جهله يظن أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يغفر له، ثم يستبعد رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا قد يكون أعظم من الذنب الذي وقع فيه، قد ينظر إلى محرم ثم يستبعد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرحمه ويغفر له مع أنه تاب، يتوب ويعتقد أن الله لا يغفر له، فهذا وقع في ذنب أعظم من النظر إلى الحرام.

ومن الفوائد: أن الأمن من مكر الله عَزَّ وَجَلَّ من كبائر الذنوب، والأمن من مكر الله هو أن يقيم الإنسان على المعاصي ولا يخاف الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يأخذه بسبب معاصيه، وهذا قد يصل إلى الكفر؛ كما ذكر شارح الطحاوية رَحِمَهُ اللهُ أيضًا قال: إذا أقام على المعاصي وكذَّب بالنصوص التي فيها العذاب وأن الله عَزَّ وَجَلَّ قد يعذب العاصي وكذب بهذا فقال: هذا ليس بحق؛ يعني: يعتقد هذا في قلبه أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يعذب وأن هذه النصوص ليست بحق وأنها كذب، فهذا كفر –نسأل الله العافية–.

أما إذا اعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد يعاقب العبد ولكن أمن واطمئن،وهو مقيم على المعصية فإنه وقع في كبيرة من كبائر الذنوب، وكيف يقع الأمن من مكر الله؟

هو بترك عبادة الخوف بحيث أن الإنسان يغلِّب جانب الرجاء مع الإقامة على المعاصي، وهذا الرجاء مذموم فهو يعصي ويعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر له ويرحمه ويثيبه هذا من الغرور.

وأيضًا قد يقع بسبب الكبر والإدلاء على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كأن يكون رجل عابد وبسبب كثرة عبادته يعتقد أن له عند الله عَزَّ وَجَلَّ المقامات العظيمة، ويعتقد أنه وصل إلى مرحلة أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يعذبه،فيأمن من مكر الله ويعتقد أن له على الله الحق وأن الله لابد أن يجازيه وأن له حقوق عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فيترك عبادته الخوف، وهذا في غالب أنه يهلك.

ولذلك ذُكر في الأثر: أن رجل عبد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مدة من الزمن وكان في مكان ويعبد الله عَزَّ وَجَلَّ في هذا المكان ما خرج منه ويأتيه طعامه في هذا المكان، ولما مات وبعثه الله عَزَّ وَجَلَّ خيره الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بين أن يدخله الجنة برحمته أو أن يجازيه بعمله، فقال: يا ربي بل بعملي، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: زنوا عمل هذا الرجل ونعمة البصر، فوزنت فرجحت نعمة البصر فقال: اذهبوا به إلى النار، فقال: يا ربي بل برحمتك بل برحمتك.

فلذلك مهما عمل الإنسان فإنه محتاج إلى أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرحمه، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ يتجاوز عنه، ولذلك ينبغي للإنسان أن يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ حتى لو كان على الطاعة.

وقد جاء في الترمذي من حديث عائشة: أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون: ٦٠]، قالت: أَهُمُ الَّذِينَ يَزْنُونَ، وَيَسْرِقُونَ، وَيَشْرَبُونَ الْخَمْرَ؟ قَالَ: «لَا يَاابْنَةَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّ هُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ، وَيَصُومُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ»﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[المؤمنون: ٦١].

يقول العلماء في تفسير الحديث: أنه يخشى أنه قصَّر في العمل، يخاف أن يقع منه رياء أو تقصير في العمل فيخشى الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن مسعود قال: "أَكبَرُ الكبائِرِ: الإشراكُ باللهِ، والأمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، والقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، واليَأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ". رواه عبد الرزاق.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: وعن ابن مسعود قال:«أَكبَرُ الكبائِرِ»، أكبر الكبائر يعني أعظم الكبائر.

«الإشراكُ باللهِ»؛ يعني: تسوية الله عَزَّ وَجَلَّ بغيره مما هو من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:«والأمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ»؛ يعني: أن يطمئن وهو مقيم على المعاصي وأن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يعذبه.

قال:«والقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»، والقنوط هو شدة اليأس حيث يستبعد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرحمه.

قال:«واليَأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ»؛ يعني: ييأس من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذا الأثر فيه فوائد:

من فوائد الأثر: أن الكبائر كما تقدم على درجات، فأكبر الكبائر الشرك بالله، وأيضًا من أكبر الكبائر عقوق الوالدين، ومن أكبر الكبائر شهادة الزور، ، فالذنوب ليست على حد سواء بل هي كبائر وفيه أكبر الكبائر.

ومن الفوائد: أن الأمن من مكر الله من أكبر الكبائر، والأمن من مكر الله هو أن العبد يعصي ويقيم على المعصية ويعتقد أنه لا يُعذب، بحيث أن الإنسان –مثلًا- يزني ويشرب الخمر ويسرق وكأنه ما فعل شيء، ما يخطر في باله الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ بسبب هذه المعصية، فهذا من أكبر الكبائر.

فالزنا–مثلًا– ذنب وهو كبيرة من كبائر الذنوب، والأمن من مكر الله ذنب وهو من أكبر الكبائر، لأنه سوء ظن بالله عَزَّ وَجَلَّ،فالأمن من مكر الله سوء ظن بالله.

فإذا قال الإنسان –مثلًا–: إن الله غفور رحيم ثم زنا وشرب الخمر وسرق فإذا نهي عن ذلك قال: إن الله غفور رحيم، فهذا وقع في ذنب من أعظم الذنوب لانه أمن من مكر الله.

في هذا الأثر دليل على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب لأنه أكبر الكبائر.

ولذلك على الإنسان أن يحذر ليس من فعل معصية ثم خاف الله عَزَّ وَجَلَّ وندم ليس كالرجل الذي يعمل معصية ويأمن من مكر الله شتان بين هذا وهذا.

ومن الفوائد: أن القنوط من رحمة الله من أكبر الكبائر،والقنوط من رحمة الله هو أن يستبعد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يغفر ذنبه بحيث أنه يعصي–مثلًا–فيعظم عنده الذنب فيظن أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يغفر له، فهذا من أعظم الذنوب، وهذا كما تقدم يكون بسبب الجهل.

ومن الفوائد أيضًا: أن الإنسان يسير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بين الخوف والرجاء.

ولذلك ذكر شيخ الإسلام عن بعض السلف أن من عبد الله عَزَّ وَجَلَّ بالحب فقط فهو زنديق، ومن عبد الله عَزَّ وَجَلَّ بالخوف فقط فهو حروري خارجي، ومن عبد الله عَزَّ وَجَلَّ بالرجاء فقط فهو مرجئ، ومن عبد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد، فلابد أن يسير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بحب وخوف ورجاء، يحب الله عَزَّ وَجَلَّ حب ذل وخضوع، وأيضًا يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ، وأيضًا يرجو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى .

ولذلك مهما بلغ الإنسان من التقى عليه أن يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ، وخوف الله عَزَّ وَجَلَّ من المسلمين ينقسم إلى قسمين:

الأول: مؤمن تقي ويخاف أن يموت على غير تقى، أويخاف أن يزيغ، أو يخاف أنه قُدر له أن يضل في آخر عمره، أو يخاف أنه مُقصر في بعض العمل، أو يخاف أنه يرائي في عمله، أو يخاف النفاق على نفسه، مع تقاه.

ولذلك يقول أحد السلف: لقيت ثلاثين من الصحابة كلهم يخشى على نفسه النفاق، والصحابة أتقى الناس بعد الأنبياء ومع هذا يخافون، فكيف بغير الصحابة؟!

الثاني من المسلمين: من عنده معصية وعنده خوف عظيم من الله، وهذا عليه أن يستغفر ويتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وعبادة الخوف لابد أن تكون محدودة، وحد عبادة الخوف أن تحجز الإنسان عن المعصية ولا يترك الطاعة، فإذا زادت فقد تصل إلى القنوط.

وأيضًا الرجاء لابد أن يكون معه عمل، وهذا هو الرجاء المحمود أن يعمل ويرجو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالله عَزَّ وَجَلَّ بيَّن أن الذين يرجون هم الذين يعملون الصالحات، قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: }إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ{[البقرة: ٢١٨].

انظر كم عمل؟ }إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ{، فهذا الرجاء المحمود بحيث أن الإنسان يكون عنده عمل.

أما الإنسان الذي يكون عنده معصية ويرجو الله فهذا من الغرور، بل إن ابن عثيمين قال: أن هذا من سوء الظن بالله، إذا عمل الإنسان معصية واعتقد أن الله يغفر له وأن الله لا يعاقبه على هذه المعصية فإن هذا من سوء الظن بالله، بل عليه أن يخاف إذا عمل المعصية فيكون عنده خوف ووجل.

ومن الفوائد: أن الإنسان مهما بلغ من الذنب فعليه أن لا يقنط من رحمة الله ولا يستبعد مغفرة الله عَزَّ وَجَلَّ مهما بلغ من الذنوب ، بل حتى لو وقع في أعظم الذنوب فعليه أن يتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر الذنوب مهما كانت إذا تاب العبد ورجع إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة وهم فرقة من النصارى قالوا: أن الله ثالث ثلاثة، ثم قال بعد ذلك: }أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ{[المائدة: ٧٤], مع أنهم سبوا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وزعموا أنه ثالث ثلاثة، قال: }أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ.{

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ{[الزمر: ٥٣]، الإسراف هو أن يجاوز الإنسان الحد في الشيء، بحيث أنه أكثر من الذنوب حتى وصل إلى درجة الإسراف.

}قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا{، فجميعًا مؤكد, لئلا يخرج ذنب من هذه الذنوب، }إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{، فمهما بلغ الإنسان عليه أن يتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر له ويقبله.

ولذلك جمهور العلماء على أن القاتل له توبة، وهو الصحيح، أن القاتل له توبة وغيره من الذنوب أيضا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من الإيمان بالله: الصبر علىٰ أقدار الله

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد فيه أن يبين أهمية الصبر على أقدار الله, وذلك أن الاعتراض على قدر الله من أسبابه ضعف التوحيد, فإذا وحَّد الإنسان الله عَزَّ وَجَلَّ وأخلص له العبادة فإنه يرضى بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب من الإيمان.**

(من) هنا للتبعيض, والإيمان يعني التوحيد.

قال:**باب من الإيمان بالله:** يعني: من توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى والإيمان به سبحانه الصبر على أقدار الله.

الصبر لغة: هو الحبس.

وأما شرعًا: فهو حبس اللسان عن التشكي والقلب عن الجزع والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

وقوله: **على أقدار الله:** يعني: على ما يقدره الله عَزَّ وَجَلَّ كونًا أو شرعًا, فيصبر على أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الكونية والشرعية.

والصبر مهم جدًا؛ ولذلك قال الإمام أحمد: أن الصبر ذُكر في القرآن في تسعين موضع,في تسعين موضع من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ, وهذا يدل على أهمية الصبر.

وقد جاء في صحيح البخاري أن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: "وجدنا خير عيشنا في الصبر".

فالصبر مهم جدًا.

والصبر من حيث هو هو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر على طاعة الله, فطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لابد أن يصبر الإنسان عليها.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لنبيه: }وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{[الحجر: ٩٩].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِي اللهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَارَسُولَ اللهِ،وَأَنَا أُحِبُّكَ. قَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

فلابد أن يصبر الإنسان ويستعين بالله عَزَّ وَجَلَّ على الصبر في طاعته, وذلك أن الأوامر تحتاج لصبر, لأن الإنسان يُلزم نفسه بشيء, فأداء الصلاة يحتاج لصبر بعد توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وإعانته, وأداء الزكاة يحتاج لصبر, لأن المال محبوب للنفس, فكون الإنسان يُخرج هذا المال وهو محبوب لنفسه وقد يكون هذا المال كثير, كمن يملك المليارات يُخرج الملايين, فيكون ثقيل على نفسه, إلا من صبَّره الله عَزَّ وَجَلَّ, والحج والصيام يحتاج لصبر, لأن الإنسان يمسك عن الملذات لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وأيضا الحج يحتاج لصبر, وهلمَّ جرًّا جميع العبادات تحتاج لصبر.

الثاني: الصبر عن معصية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فالإنسان في ترك معصية الله عَزَّ وَجَلَّ يحتاج لصبر, وذلك أن الشهوات محبوبة للنفس, فكون الإنسان يترك هذه الشهوات ويفطم نفسه منها فيحتاج لصبر بعد توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ وإعانته.

فمثلًا: ترك الصلاة والنوم عنها أو الاشتغال بالدنيا, هذا يحتاج الإنسان لصبر لئلا يفعل هذه المعصية, وأيضا ترك الزنا وشرب الخمر وما أشبه ذلك من المعاصي يحتاج لصبر بعد إعانة الله عَزَّ وَجَلَّ للعبد, لأن النفس تحب هذا الشيء وتتوق إليه, ولكن إذا عصم الله عَزَّ وَجَلَّ العبد ثم صبر هذا العبد فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعصمه؛ ولذلك الشهوات محبوبة للنفس.

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[آل عمران: ١٤].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}[النازعات: ٤٠].

فالنفس تهوى, ولكن الإنسان لابد أن يصبر عن ترك هذه المعاصي, ولذلك يحتاج الإنسان لصبر حتى يترك هذه المعاصي.

الثالث من أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله, ما يقدره الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فأقدار الله عَزَّ وَجَلَّ بالنسبة للإنسان فيها حلو وفيها مر, قد يجد الإنسان الألم بسبب ما يُقضى عليه ويُقدر عليه فيحتاج لصبر.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن عبده أيوب: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[ص: ٤٤].

قيل: أنه بقي في المرض ثمانية عشر سنة والمرض فيه, فيحتاج الإنسان لما يُقدر الله عَزَّ وَجَلَّ عليه لصبر, أن يصبر بعد توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ والاستعانة به.

وهذه الثلاث: الصبر على طاعة الله, والصبر عن معصية الله, والصبر على أقدار الله المؤلمة لها أسباب, من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه جعل لكل شيء سبب, فالله عَزَّ وَجَلَّ من حكمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه جعل أسباب توصل إلى المطلوب, فإذا أخذ الإنسان بالسبب

واستعان بالله واعتقد أن الله هو الذي يُجري هذا السبب وأن هذا السبب مرتبط بتقدير الله وأخذ به؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يُوصله إلى المطلوب.

فمن أسباب الصبر على طاعة الله:

أولًا: أن يستعين بالله ويدعوه أن يُصبره, كما مر في حديث معاذ: "اللَّهم عني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك", فأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسأل الله أن يعينه على طاعته.

ومن أسباب الصبر على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ: أن ينظر الإنسان إلى فضل الطاعة في الدنيا والآخرة.

فمن فضائل الطاعة في الدنيا:انشراح الصدر والطمأنينة والحياة المطمئنة, فيعيش الانسان في الدنيا مطمئن.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{[النحل: ٩٧].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ{[الرعد: ٢٨].

فيعيش الإنسان مطمئن في هذه الحياة.

وأيضا العاقبة في الأخرى, فيفوز بالجنة وينجو من النار, فالطاعة من أسباب النجاة من النار ودخول الجنة, والله عَزَّ وَجَلَّ جعل الأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ{[النحل: ٣٢].

ومن الأسباب أيضًا: أن ينظر لفضل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عليه, وأنه يحتاج أن يشكر الله عَزَّ وَجَلَّ على نعمه, الله عَزَّ وَجَلَّ أنعم عليك بنعم فتحتاج هذه النعم لشكر, ومن أعظم أنواع الشكر أن يشكر الإنسان بجوارحه, فيتعبد لله بهذه الجوارح.

فمثلًا: إذا أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليك بنظر فلا تنظر إلى الحرام, إذا أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليك بعلم فانشره لعباد الله, إذا أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليك بقوة فقم الليل وصم النهار.

ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه, فقيل: يا رسول الله ألم يُغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال:«أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا».

فتنظر إلى فضل الله عَزَّ وَجَلَّ عليك, فيكون سبب في أن تشكره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وتعمل صالحًا.

ومن أسباب الحث على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: أنك إذا أطعت الله عَزَّ وَجَلَّ فإن هذا طريق لأن يُحبك الله, وإذا حبك الله فتح لك بواب الخيرات وعصمك من الشهوات والشبهات.

كما جاء في الحديث القدسي الصحيح قال:«وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».

فيحبك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فيفتح لك أبواب الخيرات ويعصمك من الشبهات والشهوات.

ومن أسباب الحث على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ: أن الجنة تُدخل بسبب الأعمال, فلا يمكن أن يدخل أحد الجنة إلا بسبب الأعمال, وليست الأعمال عِوض عن الجنة, فهناك فرق بين أن الأعمال سبب لدخول الجنة وبين أن تكون عِوض عن الجنة, فالأعمال سبب لدخول الجنة.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ{, والباء هنا باء السببية, فالأعمال سبب لدخول الجنة.

فهذه من الأسباب, والأسباب كثيرة.

أيضا الصبر عن معصية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ينشأ بأمور, وهي كثيرة:

منها: أن المعصية سبب في شتات الإنسان وضياعه في الدنيا والآخرة, أما في الدنيا فإنه يكون ضيق القلب مشتت الأفكار, لا يعرف لماذا يحيا ولماذا يعيش, فيكون حياته نكد ويكون ضيق الصدر, ونحو ذلك مما يعرض للإنسان من هموم ومشاكل.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا{[طه: ١٢٤].

فهو يعيش في ضنك وهم وغم.

وأيضا عاقبة المعاصي في الأخرى: أنها سبب في دخول النار, وسبب في عذاب القبر, وسبب في أن يُعذب الإنسان في النار, فالمعاصي سبب في العذاب.

والأدلة على ذلك كثيرة.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا{[النساء: ١٠].

فالمعاصي سبب في دخول النار والعذاب فيها.

أيضا من أسباب الحث على ترك المعاصي: أن يكون الإنسان عنده حياء من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فيستحي, كيف تعصي الله عَزَّ وَجَلَّ وهو يراك, إذا أغلقت بابك وأرخيت الستار وانقطعت عن الناس فالله عَزَّ وَجَلَّ ينظر إليك, لا يحجبه شيء بينك وبينه, فبصر الله عَزَّ وَجَلَّ نافذ, هذه الأجرام لا تحجب بصر الله عَزَّ وَجَلَّ.

الله عَزَّ وَجَلَّ يراك وأنت تفعل هذا المعاصي ولو كنت في الأرض السابعة,ولو كنت في حصاة صماء, الله عَزَّ وَجَلَّ يراك, هذه الأجسام ما تحجب بصر الله عَزَّ وَجَلَّ, فهو يرى سُبْحَانَهُ وَتعَالَى المخلوقات ولا يخفي عليه شيء, فتستحي من الله عَزَّ وَجَلَّ أن يراك و أنت تعصيه, كيف تفعل المعاصي والله عَزَّ وَجَلَّ ينظر إليك! فيكون عندك حياء من الله عَزَّ وَجَلَّ.

أيضا من أسباب الحث على عدم معصية الله عَزَّ وَجَلَّ: أن الإنسان ينظر إلى أنه سيفعل هذه المعصية وتذهب كأن لم تكن, وتبقى الحسرات والحزن وما يعقب هذه المعصية من عذاب إن لم يعفو الله عَزَّ وَجَلَّ عنه.

ولذلك المعصية تذهب كأن لم تكن وتبقى الذنوب, وذلك أن ملذات الدنيا ليست دائمة, إنما هي تُفعل وتذهب كأن لم تكن, كأنها حلم ليل, لا تبقى هذه اللذة.

لذلك الإنسان العاقل الذهين ينظر إلى اللذات التي لا تنتهي, وهذه في الآخرة لا توجد في الدنيا, في الجنة الملذات مستمرة, بل هي تزيد ولا تنقص وتتجدد, وكل ما تأتي لذة أحب وأفضل من التي قبلها, وأما في الدنيا فهي لذة تذهب في وقت قصير وتنتهي كأن لم تكن.

ولذلك يقول القائل:

تفنى اللَّذاذةُ مِمَّنْ نالَ صفوتها مِنَ الحرام ويبقى الوزر والعارُ

تبقى عواقبُ سوءٍ في مغبَّتها لا خيرَ في لذَّةٍ منْ بعدها النَّارُ

فهي لذة قليلة تذهب كأن لم تكن ثم يبقى بعدها الحسرات, فلماذا تفني نفسك في هذه اللذات التي تذهب وكأنها لم تكن؟!

فالآن لو أتيت إلى رجل عمره في الستين ومضى حياته كلها في المعاصي وقد تاب, اسأله هل تجد لذة المعصية الآن؟ سيقول لك: لا أجد شيء, ذهبت كأن لم تكن, هكذا لذات الدنيا تذهب.

أيضا من الأسباب: أن ينظر الإنسان إلى زوال الدنيا, وأن الدنيا ستزول وتنتهي.

ولذلك الإنسان ليس له عمر إلا هذا العمر, إذا انتهى وخرج من الدنيا لم يعود, فلماذا تفني عمرك في معصية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ لماذا لا تستغفر وتتوب؟

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أعْمارُ أُمَّتي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَىٰ السَّبْعِينَ».

فهذا العمر القصير الذي سيزول لماذا تفنيه في معصية الله؟!

وأيضا الدنيا ستزول وستذهب كأن لم تكن, ويخرب العالم ويخرج الناس إلى عالم آخر وهو عالم الآخرة, وتنتهي الدنيا كأن لم تكن, لأن الدنيا لها زمن محدود لن تتعدى هذا الوقت, الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الدنيا لها ابتداء ولها انتهاء, وأما الآخرة فهي الحياة السرمدية التي لا انتهاء لها.

لذلك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يقول:}وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{[العنكبوت: ٦٤].

يعني: لو كان الإنسان يعقل وينتبه سعى للحياة التي لا تنتهي, أما الحياة التي تنتهي العاقل ما يسعى لها.

ولذلك يقول القائل:

أين الجبابرة الأكاسرة الأُلى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

يقول: أين العظماء الذين كنزوا الكنوز وجمعوها, ذهبت الكنوز وذهبوا معها, ما بقي أحد, هكذا الدنيا تنتهي.

والأسباب كثيرة التي تكون سبب في حجب الإنسان عن معصية الله.

أيضا الثالث: الصبر على أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الصبر على أقدار الله عَزَّ وَجَلَّ ينشأ بسبب أمور:

أولًا: دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ, وهذه في الثلاث, دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ, لأنه إذا ما أعان الله عَزَّ وَجَلَّ العبد لن يفلح, إذا ما أعانك الله عَزَّ وَجَلَّ على طاعته وعن ترك معصيته وعلى الصبر على أقداره لن تُفلِح أبدًا, فلابد أن يلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويأخذ بالأسباب.

فمن الأسباب أولًا: دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُصبرك على أقداره, فإذا مشيت وأُصبت مثلًا بحادث وتكسرت الأقدام عندك فالجأ إلى الله, قل:(اللّٰهم صبرني,اللّٰهم أعني, اللّٰهم صبرني على هذه البلوى), فتلجأ إلى الله.

أيضًا من الأسباب: أنك تنظر أن هذا سبب في تكفير السيئات, فالمصائب التي تصيب العبد هي سبب في تكفير السيئات, فلا تحزن, ما تصيبك من مصيبة إلا وهي سبب في تكفير السيئات.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ«:مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًىٰ وَلَا غَمٍّ، حَتَّىٰ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ».

أيضا: أنه سبب, يعني وقوع المصائب عليك سبب في رفع الدرجات.

ولذلك جاء عند أبي داود أن العبد قد يكون له عند الله عَزَّ وَجَلَّ المنزلة, لا يبلغها بعمل, فيصيبها الله عَزَّ وَجَلَّ في نفسه وماله وولده حتى يبلغ هذه المنزلة.

فالمصائب قد تكون سبب في رفعة العبد.

أيضا من الأسباب التي تكون سبب في صبر العبد على أقدار الله: أن ينظر الإنسان إلى عاقبة الصبر, فعواقب الصبر حميدة, وإن كان الصبر فيه مرارة ولكن عواقبه حميدة.

كما قال القائل:

الصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

الصبر شجرة مُرة المذاق, كذلك الصبر مأخوذ من هذا الشيء, فيه مرارة ولكن العواقب أحلى من العسل.

وأبلغ من ذلك قوله تعالى:}إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ{[الزمر: ١٠].

والأسباب كثيرة.

قال المصنف رحمه الله:

وقوله تعالىٰ: }وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{[التغابن: ١١].

قال الشارح وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:وقوله تعالى:}وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{[التغابن: ١١].

في هذه الآية الكريمة: يبين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن الذي يؤمن أنها أصابه أنه بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره, فيؤمن ويستسلم؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يهديه للصبر ويوفقه ويهدي قلبه,بحيث أنه يتلقى هذه المصائب بنفس منشرحة راضية عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وعن أقداره.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ.{

(من) هنا شرطية.

قال:}وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ{؛ يعني: يُصدق أنها أصابه بتقدير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

}وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ{؛ يعني: يرشده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويهدي قلبه للصبر على هذه المصيبة,بحيث يتلقى ما أصابه بنفس منشرحة مطمئنة لا تعترض على قضاء الله وقدره.

قال:{يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}؛ أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يعلم الأشياء, أزلًا وأبدًا, جملةً وتفصيلًا, وعلمه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى محيط بكل شيء, لا يخفى عليه شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال علقمة: هو الرجل تُصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضىٰ ويُسلِّم.

قَال الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال علقمة رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية الكريمة: هو الرجل.

والرجل هنا للمثال, فيدخل فيها المرأة وما أشبه ذلك.

قال:**تُصيبه المصيبة**: يعني: يقع عليه الشيء الذي يكرهه,**فيعلم أنها من عند الله**: يعني: أنها بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره,**فيرضى ويُسلِّم**: فيرضى عن الله عَزَّ وَجَلَّ وعن قدره.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ»**.

قَال الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ»**؛ يعني: خصلتان في الناس هما بهم كفر, يعني هاتين الخصلتين كفر.

قال:**«الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ»**.

الطعن في اللغة: هو الوخز.

والطعن في النسب: هو أن يطعن في نسب شخص,فيقول هذا ليس ابن لفلان, أو هذا ليس من العشيرة الفلانية, فيطعن في نسبه, أو أن هذا فيه كذا وكذا, فيطعن في نسبه, فهذا من أنواع الكفر.

«وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ».

النياحة: هي رفع الصوت بتعديد محاسن الميت تسخُّطًا على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره.

إذا مات الشخص قال الكلمات التي فيها نوع من التسخط واعتراض على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أنه سيوجد في الناس من خصال الكفر, وهي الطعن في النسب والنياحة على الميت.

والكفر هنا منكَّر, وهو الكفر الأصغر, فهو نوع من الكفر, والإنسان المسلم قد يوجد عنده من خصال الكفر ولا يكون كافر حتى يقوم به حقيقة الكفر الذي هو الجحد لما هو معلوم من الدين بالضرورة أو نحوه, فلا يلزم أن الإنسان يكون عنده خصلة من خصال الكفر أن يكون كافر, وكذلك الكافر قد يكون عند خصلة من خصال الإيمان ولا يلزم أن يكون مؤمن.

فمثلًا: كافر يُكرم الضيف, هذه خصلة من خصال الإيمان, فلا يقال عن هذا أنه آمن, فليبقى على الكفر حتى يؤمن بالله عَزَّ وَجَلَّ واليوم الآخر.

والكفر هنا الكفر الأصغر, وذلك أن الكفر ينقسم إلى قسمين:

الأول: الكفر الأكبر, وهو المخرج من ملة الإسلام, وهذا يكون لمن جحد شيء مما هو معلوم من الدين بالضرورة, ومثله لا يجهل ذلك, أو يقع في شرك فيُطلق عليه أيضًا كافر, أو نحو ذلك, وهذا يسمى الكفر الأكبر.

القسم الثاني: الكفر الأصغر, وهو ما جاء في النصوص إطلاق الكفر عليه ولم يصل إلى حد الكفر الأكبر, كالطعن في الأنساب, والنياحة على الميت, وكقتال المسلم, ونحو ذلك.

وهذا لا يُخرج الإنسان من الملة, بل يبقى الإنسان مسلم وله ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين, ولكنه وقع في ذنب.

والفرق بين الكفر الأكبر والأصغر: هو أن إذا ورد الكفر معرَّف, فهذا يدل على حقيقة الكفر.

كما جاء في الصحيح: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ تَرَكُ الصَّلاةِ», فـ(ال) هنا معرَّف.

أما إذا جاء كفر منكَّر فهو يدل على أن هذا خصلة من خصال الكفر وهو كفر أصغر.

كم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ», كفر هنا منكَّر, وقتال المسلم كفر ولكنه لا يُخرج من الملة؛ لأنه كفر أصغر.

فهذا إذا فعله الإنسان يبقى على الإسلام, يعني الكفر الأصغر يبقى على المسلم, وله ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين, فإذا فعل هذا الشيء فإنه يُدعى له ويصلى عليه إذا مات ويرث ويورث.

ومن فوائد الحديث: أن الطعن في النسب من خصال الكفر, فعلى الإنسان أن يحذر منه.

ومن فوائد الحديث: أن النياحة من خصال الكفر, وهذا موضع الشاهد أن النياحة فيها اعتراض على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره.

فالنائح كأنه يعترض على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ, ففيه نوع من التسخط على قضاء الله وقدره.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: »لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: ولهما: يعني: البخاري ومسلم, عن ابن مسعود مرفوعًا: يعني: مرفوعًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«لَيْسَ مِنَّا»؛ يعني: ليس من هدينا.

وقال بعض العلماء: أنه ينبغي لمثل هذه النصوص أن تبقى على لفظها ولا تُفسر, فتُمر على لفظها لا تُفسر حتى تكون رادعة للناس, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَيْسَ مِنَّا», فنقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا», ونسكت.

«مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ»؛ يعني: عند المصيبة, بحيث إذا أُصيب بمصيبة ضرب خده, وهذا للتمثيل, لأنه بعض الناس إذا أُصيب ضرب خده اعتراضًا على ما وقع عليه.

«وَشَقَّ الْجُيُوبَ», والجيوب: هي مدخل الرأس, هذا يسمى جيب, وهذا عبارة أيضًا عن التسخط على قدر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ»؛ يعني: قال مثل قول أهل الجاهلية, كأن يقول: يا ويلاه, يا ثبوراه, وما أشبه ذلك, حيث أنهم كانوا يقولون هذا عند المصيبة.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: الردع لمن فعل مثل هذه المعاصي, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَيْسَ مِنَّا», وهذا فيه ترهيب من هذه الذنوب, على الإنسان يحذر منها.

ومن الفوائد: أن الإنسان عليه أن يحذر من التسخط على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره, فلا يضرب خده, ولا يشق جيبه, ولا يدعو بدعوى الجاهلية.

والأقدار التي يقدرها الله عَزَّ وَجَلَّ على خلقه أنواع:

الأول: قضاء كوني, وهذا على مراتب:

-الأول: أن يكون ملائم للإنسان, وهذا الرضا به لا يحتاج إلى أن يُدعى إليه, لأن الإنسان سيرضى به غالبًا.

فمثلًا: إنسان قُدِّر له أن رُزق بولد, هذا قضاء كوني, وهذا الرضا به أمر طُبع عليه الإنسان.

إنسان قُدر عليه أن يكون صحيح البدن, إنسان قُدر عليه أن يكون ذا مال أو ذا جاه, فهذا الرضا به أمر لا يحتاج إلى مزيد تعب, لأن النفوس ترضى به طبيعة.

-الثاني: أن يكون لا يلائم الإنسان, بحيث يقع عليه أمر لا يود أن يقع عليه, كفقد ولد, أو فقد مال, أو نحو ذلك مما يقع على الإنسان, فهذا يجب على الإنسان أن يصبر, بحيث أنه يحبس لسانه عن التشكي, وقلبه عن الجزع, وجوارحه عن لطم الخدود وشق الجيوب.

والصبر هو أن يذوق مرارة الشيء ولكن لا يجزع, يكون عنده إحساس بالمرارة ولكن لا يجزع.

والناس في هذا الشيء على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الصبر, وهو واجب.

المرتبة الثانية: أن يزيد الإنسان ويرضى, وهذا مستحب, الصحيح أنه مستحب ولا يجب, بحيث أن يرضى, فيكون في قلبه راضي بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره.

المرتبة الثالثة: أن يزيد الإنسان فيشكر, يشكر الله عَزَّ وَجَلَّ على المصيبة, يشكر الله عَزَّ وَجَلَّ على ما أصابه من ألم, فهذه مرتبة عالية لا يبلغها إلا من وفقه الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذه تنشأ بأمور:

أولًا: أن ينظر الإنسان لفضل الشكر.

وأيضًا ينظر للأجر الذي يترتب على هذه المصيبة.

وأيضًا ينظر أنه أصابه بسبب ذنب عنده أو تقصير, فيشكر الله يقول: الحمد لله الذي كانت في الدنيا وليست في الآخرة.

المرتبة الرابعة: أن يقع للإنسان أمر كوني فيجزع, فهذا لا يجوز, لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَيْسَ مِنَّا», فيحرم على الإنسان أن يجزع.

والجزع: هو أن يتسخط على قضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره, وقد يكون الجزع بالقلب, وقد يكون باللسان, وقد يكون بالجوارح.

بالقلب؛ كأن يقع في قلبه تسخط على ربه ويتهم الله عَزَّ وَجَلَّ في حكمته, فلو تكلم القلب لقال: إن الله قد ظلمني كيف يوقع علي هذه المصيبة, إن الله عَزَّ وَجَلَّ ما عَدَلَ فيَّ حين أوقع علي هذا الشيء, هذا تجزع القلب وإن كان لا يتكلم بلسان.

وقد يتكلم بلسانه, فيقول: واثبوراه, يا ويلاه, لماذا حصل لي كذا؟! ماذا صنعت أنا؟! والله ما فعلت معصية حتى يحصل لي مثل هذا, فهذا كله جزع لا يجوز.

وقد يكون بالجوارح, كما لو وقع عليه شيء فأخذ ما معه فكسره, أو شق جيبه, أو ضرب الذي أمامه, فهذا كله من الجزع.

مثل أن يقال للإنسان مات ولدك, فيأخذ –مثلًا– ما في يده فيضرب به الأرض حتى ينكسر, فهذا نوع من الجزع.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لهُ العُقُوبةَ في الدُّنْيا، وَإذا أَرَادَ بِعَبْدِه الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِه حَتَّىٰ يُوافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيامةِ**» .

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ**».

الإرادة هنا إرادة كونية, «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ**»؛ يعني: أراد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ به الخير.

«**عَجَّلَ لهُ العُقُوبةَ**»؛ يعني: قدَّم له العقوبة بسبب ذنبه, «**في الدُّنْيا**»؛ يعني: حال كونه في الدنيا.

«**وَإذا أَرَادَ بِعَبْدِه الشَّرَّ**»؛ يعني: أراد به أن يُزاد في عذابه ويكثر عذابه, «**أَمْسَكَ عَنْهُ**»؛ يعني: أمسك عنه في الدنيا بحيث لا يعاقبه على معاصيه.

«**بِذَنْبِه حَتَّىٰ يُوافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيامةِ**»؛ حتى يستوفي هذا الذنب يوم القيامة, فيأتي وقد وقر بالذنوب فيُعاقب أتم العقاب.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن وقوع المكروه على الإنسان في الدنيا خير له, فعليه أن يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ عليه, فإذا أُصبت بمصيبة فاحمد الله عَزَّ وَجَلَّ عليها, لأنه قد يكون ذنب وعُجل لك الجزاء في الدنيا, فيكون خير لك.

ولذلك روي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتاه رجل قد فعل معصية فقام الرجل فضرب الباب فانشق وجهه, فقال: «**هذا قُدِّم لك في الدنيا**».

والشيء إذا وقع على الإنسان في الدنيا فإنه من أسباب تكفير هذا الذنب, فإذا أُصيب الإنسان في الدنيا فإنه قد يُكفر عنه كبيرة من كبائر الذنوب, قد يعصي الإنسان ذنب كبير ثم يقع عليه أمر في الدنيا فيكون كفارة له.

ولذلك الحدود كفارة للإنسان, إذا زنا الإنسان وهو محصن ثم رُجم فهذا كفارة له, وإذا قَتل الإنسان مسلم فقُتل فإن هذا كفارة له, فإذا وقع على الإنسان في الدنيا شيء فإن هذا تكفير للسيء فاحمد الله.

وذلك أن المصائب التي تصيب الإنسان لها سببان:

السبب الأول: الذنوب, فإذا أُصبت بمصيبة فلوم نفسك, قل ما هي المعصية التي فعلتها أنا؟

فالمصائب قد تكون بسبب الذنوب؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}[النساء: ٧٩].

قال المفسرون: ما أصابك من مصيبة بسبب ذنوبك.

فالذنب سبب في أن يُعاقب الإنسان.

ولذلك يقول أحد السلف: كنت أعرف معصيتي في دابتي وزوجتي, إذا عصيت ثم ركبت الدابة قالت به كذا حتى سقطتني, وإذا دخلت على الزوجة بدت تسب وتشتم بسبب المعصية.

فيلوم الإنسان نفسه, إذا وقع عليك شيء فلوم نفسك, أول ما تبدأ بنفسك فإنه بسبب ذنب.

أيضًا قد تكون المصائب سببها رفعة درجة العبد, أراد الله عَزَّ وَجَلَّ وهو الحكيم العليم أن يرفع درجة هذا العبد ويبلغه درجة الصابرين.

والدليل: أنه جاء في السنن عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَىٰ الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

وجاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنَ اللهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ، ابْتَلَاهُ اللهُ فِي جَسَدِهِ، أَوْ فِي مَالِهِ، أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّىٰ يُبْلِغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ».

وأيضًا قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ{[الزمر: ١٠].

معلوم أن الحسنة بعشر أمثالها, إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة, ولكن الصابرون أجرهم بغير حساب }إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.{

فعلى الإنسان أن يتدبر هذا الشيء.

ومن الفوائد: أنه إذا عاش الإنسان على معصية وهو لم يُصب بشيء فعليه أن يحذر أشد الحذر, فلا يفرح بهذا الشيء, بل عليه أن يتوب ويستغفر الله قبل فوات الأوان.

ولذلك من الغرور أن بعض الناس يقيم على المعصية , على شرب الخمر والزنا والنظر إلى الحرام وسماع المحرمات والمعاصي بأنواعها, ولا يصاب بمكروه, هذا من الخطر, أن يستمر على معصية الله ويفرح أنه لم يُصب بشيء, فهذا قد يكون أريد به الشر, بحيث أنه أُخِّر عذابه إلى الآخرة, وذلك أن عذاب الآخرة أشد وأبقى.

ومن الفوائد: أن من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه يُمسك؛ ولذلك قال: «أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ», وهذه صفة فعلية لأنها تتعلق بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والضابط في ذلك: أن ما تعلق بمشيئة الله فهو صفة فعليه, وما تعلق بذات الله ولا ينفك عنها فهو صفة ذاتية.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ». حسنه الترمذي.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ»؛ الجزاء يعني الأجر.

«مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ»؛ يعني: مع عِظم المصيبة التي أصابت الإنسان.

«وَإنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ»، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أحب قوم وكانوا من أحبابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابتلاهم، يعني قدَّر عليهم المصائب.

قال: «فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا».

من الفوائد هذا الحديث: أن الذي يرضى بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره فإنه سبب في أن يرضى الله عَزَّ وَجَلَّ عنه.

والرضا عن الله عَزَّ وَجَلَّ في أقداره الكونية من حيث النظر إلى فعل الله هذا يجب، عليك أن ترضى بفعل الله، سواء كان المقدر طاعة أو معصية.

أما من حيث المفعول فإن كان طاعة فترضى، وإن كان معصية فتُبغض المعصية وتسعى في حربها وإزالتها.

وأما القضاء الشرعي فما يُقدره الله عَزَّ وَجَلَّ شرعًا من الطاعات والعبادات فيجب الرضا بها من حيث فعل الله ومن حيث المفعول يعني الصلاة، ترضى بالصلاة، ترضى بالصيام.

وأما إن كان معصية فمن حيث فعل الله ترضى، الله عَزَّ وَجَلَّ قدَّر المعاصي، أن يوقع على فلان معصية فترضى بقضاء الله، ترضى عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وفعله.

وأما المقضي المفعول مثل المعصية فلا ترضى بها, تُبغض المعاصي وتكره المعاصي, لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ما يحبها شرعًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في الرياء

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في الرياء**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الرياء لما كان مُخل بالتوحيد إذا كان يسير مُخل بالتوحيد إذا كان يسير، ومنافي للتوحيد إذا كان رياء في أصل الدين.

أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليحذر من الرياء، ويُبين ما جاء فيه من نصوص.

قال المؤلف:**باب ما جاء في الرياء**.

باب ما جاء؛ يعني: من النصوص من الكتاب والسنة.

قال:**في الرياء**؛ يعني: في شأن الرياء، والرياء مصدر رَاءَ يرائي مراءاة وهو أن يعمل العمل قاصدًا مدح الناس؛ بمعنى: أنه يتعبد لله مريدًا مدح الناس وأن يُثنى عليه بعبادته لربه، فأصل العمل لله ولكن يريد الثناء من الناس وأن يحمدوه على هذا العمل، والرياء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: رياء أكبر مخرج من ملة الإسلام، وهو الرياء الذي يكون في أصل الدين؛ بمعنى: أن يُسلم مراءاة للناس يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر، وهذا الذي يحصل من المنافقين، لأنه في أصل الدين.

بمعنى: أنه يظهر للناس أنه مسلم ويبطن في قلبه الكفر، كأن يبغض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلبه، أو يبغض الدين، أو يرى أن الدين باطل، أو يحب انتصار الكفر على الإسلام،

فهو يبطن الكفر ويظهر الإسلام ويظهر الصلاة ويظهر الصوم ونحو ذلك، وهذا مخرج من الملة، والضابط فيه: أنه في أصل الدين.

القسم الثاني: رياء يسير الرياء، وهو أن يكون في بعض الأعمال التي يعملها الإنسان يريد المدح في تعبده لله، فيصلي لله مريدًا المدح، ويصوم مريدًا المدح، وهكذا، فيكون أصل العمل لله ولكن يريد الحمد من الناس والمدح، وهذا قد يحصل من بعض المسلمين.

ويسير الرياء؛: إذا خالط العمل فله أحوال:

الحالة الأولى: أن يكون الباعث له على العمل مراءاة الناس، فهذا محبط للعمل كأن يصلي مريدًا المدح، يصلي لله ولكن يريد مدح الناس فهذا يحبط عمله؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في الحديث القدسي: «من عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ», فهذا عمله حابط وهو قد وقع في نوع من أنواع الشرك الأصغر.

الحالة الثانية: أن يكون الباعث له على العبادة الإخلاص لله ولكن يطرأ عليه الرياء، فله حالتان:

الحالة الأولى: أن لا يركن للرياء بل يجاهد نفسه لأجل أن يخلص العمل لله، ولا يركن للرياء ولا يطمئن إليه بل يجاهد حتى يُخلص لله فهذا لا يضره هذا، لما جاء في صحيح البخاري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَالَمْ تَعْمَلْ أَوْتَتَكَلَّمْ».

ولأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يكلف الإنسان إلا وسعه،}لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.{

الحالة الثانية: أن يطرأ عليه الرياء؛ بمعنى: أن يكون العمل خالصًا لله ويطرأ عليه الرياء ويركن إليه ويسترسل معه، فهذا إن كانت العبادة ينبني أولها على آخرها وآخرها على أولها فهي حابطة.

كالصلاة–مثلًا– إذا صلى مخلصًا لله ثم طرأ عليه الرياء ثم استرسل معه واطمئن إليه ورائى الناس، فهنا الصلاة تبطل جميع الصلاة لأن الصلاة مرتبطة بعضها ببعض، فلو طرأ عليه في الركعة الأخيرة واطمئن إليه فإن الصلاة جميعها تبطل لأنه ينبني بعضها على بعض.

وإن كانت العبادة لا ينبني بعضها على بعض فإن ما وقع فيه الرياء باطل وما لم يقع فيه فهو صحيح، كالصدقة –مثلًا– إذا تصدق الإنسان مخلصًا لله وذهبت هذه الصدقة ثم جاء فقير آخر فتصدق عليه في حالة رياء بمعنى: أنه كان عنده من يرائيه فتصدق مريدًا الثناء، فهنا هذا العمل باطل والأول صحيح، هذا حالات العبادة.

من المسائل: إذا وقع الرياء في وصف العبادة الذي ليس من الشروط ولا الواجبات، كالسنن –مثلًا– سنن الصلاة أو سنن العبادة فهذا أصل العمل صحيح إذا كان مخلص لله فيه، وما زاد من سنن وراءى فيها فإنها تبطل.

بمعنى مثلًا: إنسان صلى صلاة وراءى في السنن كرفع اليدين ويريد الثناء من الناس بهذا الفعل وأصل العمل لله، فهنا هذا الفعل باطل وأصل الصلاة صحيح لأنه رائى في السنن ولم يرائي في واجبات وأركان العبادة.

وهنا مسألة: فيه فرق بين الرياء والسمعة، وذلك أن الرياء من الرؤية من رؤية العين يعمل العمل ليُرى بالعين.

والسمعة في ما يُسمع بالأذن، كأن يقرأ القرآن يريد أن يسمعه غيره فيثني عليه ويقول: هذا قارئ جيد، يريد الثناء من الناس فيكون في ما يُسمع.

أيضًا هناك مسائل لا تدخل في الرياء:

منها: أن يفرح الإنسان بالعمل الذي كان مخلصًا لله فيه ومدح عليه بعد العبادة –فمثلًا– إنسان قرأ القرآن مخلصًا لله مريدًا وجه الله عَزَّ وَجَلَّ ثم مدح على هذا العمل ففرح، فرح شكر لله فهذا لا يضر العمل لا يضره لما جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيل له: يا رسول الله الرجل يعمل العمل من الخير فيحمده الناس عليه؟ قال: «ذَلِكَ عَاجِلُ بُشْرَىٰ الْمُؤْمِنِ»، فهذا لا يضره.

وأيضًا هناك مسألة قد تكون من السمعة وهي مشابهة للرياء ولكنها تكون من السمعة وهو: أن يسمع الإنسان بعمله؛ بمعنى: أن يعمل الأعمال الصالحة في الخفاء ثم يظهرها للناس يريد المدح، فهذا يسمى تسميع وهذا قد يحبط العمل، كأن –مثلًا– يقوم الليل ثم يأتي

في الغد ويقول: أنا قمت الليل، وأنا ما زلت في صلاة تلك الليلة الماضية يريد المدح ويسمع الناس، فهذا من السمعة وهذا محبط للعمل، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا.﴾

في هذه الآية الكريمة يُبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو بشر مثل باقي بني آدم وإنما يوحى إليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ففضله الله عَزَّ وَجَلَّ بالوحي، وأيضًا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبين للناس أن إلههم المعبود بحق دون غيره واحد وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه يُبين أن من كان يريد وجه الله عَزَّ وَجَلَّ أنه يخلص عمله لله ولا يشرك مع الله أحد.

قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا﴾، ﴿قُلْ﴾؛ يعني: قل يا محمد، ﴿إِنَّمَا﴾، (إِنَّمَا) أداة حصر تدل على حصر الحكم في المذكور ونفيه عما سواه.

﴿أَنَا﴾، الضمير هنا عائد إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾، ﴿بَشَرٌ﴾؛ يعني: من باقي البشر، والبشر سموا بذلك لأن أبشارهم بادية فهم يحتاجون لما يغطوا هذه البشرة بما يرزقهم الله عَزَّ وَجَلَّ به من ثياب ونحو ذلك.

قال: ﴿مِثْلُكُمْ﴾؛ يعني: مثلكم في البشرية آكل كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، وأنام كما تنامون، وأنكح النساء كما تنكحون، وهكذا فأنا بشر مثلكم ليس لي من صفات الألوهية شيء وإنما أنا بشر.

}يُوحَى إِلَيَّ{؛ يعني: يوحي إلي الله عَزَّ وَجَلَّ.

والوحي هو الإعلام في اللغة هو: الإعلام بخفية.

وأما في الشرع: فهو أن يوحي الله عَزَّ وَجَلَّ إلى رسول من رسله، إما رسول ملكي وإما رسول بشري.

}يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا{؛ يعني: يوحى إلي هذا الوحي.

}أَنَّمَا إِلَهُكُمْ{؛ يعني: معبودكم }إِلَهٌ وَاحِدٌ{، يعني: معبودكم الذي لا يُعبد بحق إلا هو واحد وهو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى،فهذا معنى (لا إله إلا الله)، }أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ.{

قال:}فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ} ،{يَرْجُو{؛ يعني: يؤمِّل لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ، واللقاء هنا يعني: رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ في جنات النعيم.

}فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ{؛ يعني: معبوده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}،فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا.{

}فَلْيَعْمَلْ{؛ يعني: يفعل العمل.

}فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا{، والعمل الصالح هو أن يكون موافقًا لشرع الله مخلصًا فيه لله، هذا هو العمل الصالح أن يكون الإنسان مخلصًا لله فيه متبعًا لشرع الله فيه.

}وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا{؛ أي: لا يخلط تعبده لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أحدًا؛ بمعنى: أن يجعل العبادة لله دون غيره فلا يعبد مع الله أحد، بل يصرف العبادة لله ويعتقد أن ما سواه لا يستحق العبادة وأن عبادته باطلة فيخلص لله العبادة.

ففي الآية الكريمة وجه الشاهد فيها: أن من كان يريد الصيرورة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ورؤيته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في الدار والآخرة فليعمل العمل الصالح الذي فيه إخلاص وفيه متابعة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضا يبتعد عن الشرك الأكبر والأصغر، ومنها الرياء لأن الرياء نوع من أنواع الشرك، فالرياء شرك فإذا كان في أصل الدين فهو أكبر، وإن كان في وصف العبادة فهو أصغر وهو محبط للعمل.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رواه مسلم.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: وعن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ»، هذا يسمى الحديث القدسي، والحديث القدسي هو الذي ينسب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لفظًا ومعنى؛ بمعنى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تكلم بهذا الحديث، وأيضًا معناه من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبليغًا، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغه لأمته.

قال: «أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ»، (أَنَا) الضمير عائد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»؛ يعني: إن كان الشريك يستغني عن شريكه فأنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ يعني: عن المشاركة أن يُشرك معي غيري في عبادتك.

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي».

«مَنْ عَمِلَ»، (مَنْ) هنا شرط، و (عَمِلَ) نكره في سياق الشرط فتفيد العموم؛ أي: عمل صالح.

«عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ»؛ يعني: أدخل في هذا العمل لغير الله بمعنى: أنه أشرك بالله غيره في هذا العمل، فجعل لغير الله عَزَّ وَجَلَّ مشاركة في هذا العمل.

«مَعِي فِيهِ غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، «تَرَكْتُهُ»؛ يعني: العمل، (الهاء) هنا عائدة إلى العمل.

«وَشِرْكَهُ»؛ يعني: وإشراكه.

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى غني عن خلقه؛ بمعنى: أنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يرضى الشرك ولا ينبغي أن يُشرك معه غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا يجوز ولا يصح، بل هو الغني سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فيتحتم على الإنسان ويستلزم عليه ويجب عليه أن يتوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة دون غيره.

ومن الفوائد: أن أي عمل خلط الإنسان فيه النية لغير الله العمل الصالح بمعنى: أراد الثناء أو أراد أمر من أمور الدنيا فإنه باطل وحابط، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أغنى الشركاء عن الشرك.

فمثلًا: إذا صلى الإنسان يريد مدح الناس؛ يعني: صلى لله مريدًا مدح الناس فهذا عمله حابط وليس له في الآخرة من خلاق في هذا العمل، فهذا العمل يبطل لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يرضى الشرك أبدًا.

ومن الفوائد: أن العمل الصالح لا يصح إلا بالإخلاص، وهذا أحد شروط قبول العمل، وذلك أن العمل الصالح لا يُقبل إلا بشرطين:

- الشرط الأول: الإخلاص؛بمعنى: أن يكون الباعث له على العمل إرادة وجه الله عَزَّ وَجَلَّ فيتعبد بالعمل الصالح مخلصًا فيه لله.

- الشرط الثاني: أن يكون فيه متبع لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا اختل أحد الشرطين لم يصح العمل، فإذا اختل الشرط الأول وقع الإنسان في الشرك، وإذا اختل الشرط الثاني وقع الإنسان في البدعة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيِ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»، قَالَوا: بَلَىٰ يا رسول الله، قَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**». رواه أحمد.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال:**وعن أبي سعيد الخدري مرفوعًا، مرفوعًا**؛ يعني: إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا قال المؤلف: مرفوع يعني:أن هذا الحديث منتهاه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأيضًا لأن الحديث له رفعه وشأن لأن منتهاه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقال: مرفوعًا.

قال:«أَلَا»،(أَلَا)أداة استفتاح وهي تدل على التنبيه، كأنه يقول: تنبه على ما سيلقى عليك.

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ»؛ يعني: أُبيِّن لكم،«بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي»؛ يعني: ما هو الشيء الذي أخاف عليكم منه،«عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»؛ يعني: أعظم من الخوف من المسيح الدجال.

قَالُوا: بَلَى؛ يعني: نريد هذا الشيء ما هو يا رسول الله؟قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ»، الشرك الخفي وهو الرياء لأنه يخفي عن الناس، لأن ظاهر العمل أنه لله ولكن في القلب يبطن غير ذلك فهو خفي الشرك هذا خفي.

«يَقُومَ»، ثم وضح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الشرك الخفي، قال:«يَقُومَ الرَّجُلُ»، الرجل هنا للمثال فيدخل فيها المرأة ويدخل فيها الصغير البالغ وغير ذلك.

ولذلك قال:«يَقُومَ الرَّجُلُ»،أيضًا حتى لو قامت المرأة فهذا داخل.

«يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ»،(فَيُصَلِّي) فأصل الصلاة لله، ولكن «فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ»، فيزيِّن هذه الصلاة.

«لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»؛ يعني: يرى أن الرجل ينظر إليه فيريد أن يمدحه عليه فيزيِّن هذه الصلاة فيرائيها.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الدجال من أعظم الفتن، أن فتنة الدجال من أعظم الفتن، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب به المثل فدلَّ على أن فتنة الدجال من أعظم الفتن.

ولذلك جاء في مسند أحمد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (ما من فتنة أعظم من فتنة الدجال منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة).

فمن أعظم الفتن فتنة الدجال؛ ولذلك ضرب به المثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففتنة الدجال عظيمة.

ومن الفوائد: أن الشرك الخفي والرياء أعظم من فتنة أو أخوف على الإنسان من فتنة الدجال، وذلك أن الرياء قد يعرض للقلب كثيرًا، ولأن هذا الكلام وجه للصحابة الذين هم من أعظم الناس إخلاصًا فكيف بمن بعدهم؟

إذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاف على أصحابه فكيف بمن بعدهم؟ ولأن الرياء يعرض للقلوب.

فالإنسان قد يقع في قلبه حب المدح وحب الثناء فقد يقع في رياء، ولذلك يحذر الإنسان أشد الحذر لأنه من أعظم الفتن على الإنسان.

ومن الفوائد: أن الرياء شرك خفي؛ بمعنى: أنه لا يُرى، وذلك أن المعاني القلبية لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالرياء معنى قلبي يقوم بقلب الإنسان ثم يظهره على جوارح، الإنسان يُرى الجوارح أنها لله ولكن في قلبه غير ذلك فهو يبطن غير ما يظهر فهو شرك خفي، فيزين الصلاة ويحسنها فيرى الرائي أن هذا من أحسن الناس صلاة وهو في قلبه يريد مدح هذا الشخص,وهذا شرك خفي.

ومن الفوائد: أن الرياء هو تزيين العمل يريد المدح عليه؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ», أما إذا كان أصل العمل لغير الله فهذا شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام.

بمعنى: أن الإنسان لا يصل إلا مراءاة للناس ما يريد وجه الله مطلقًا، فهذا شرك أكبر وهذا رياء المنافقين لأنه في أصل الدين أما إن عمل العمل لله ولكن يريد الثناء عليه، فأصل عمله لله ولكن يريد الثناء، فهذا يسير الرياء وهو شرك أصغر لأن أصل العمل لله ولكنه أراد الثناء من الناس.

فتنبه لهذا لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«فَيُصَلِّي»؛ يعني: يصلي لله فيزين صلاته التي لله يريد المدح.

ومن الفوائد: أن الإنسان عليه أن يخلص عمله لله فلا يرائي الناس، لأن الناس لن يثيبوه ولن يعاقبوه بأعماله التي يعملها لله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما الذي يثيب الإنسان على العمل ويعاقبه على العمل السيء هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك جاء في حديث محمود بن لبيد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يقول يوم القيامة، للمرائين: «اذْهَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً».

فالناس لن يثيبوك على العمل وإنما الذي يثيبك هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فأنت اخلص العمل لله.

ومن الفوائد: أن الإنسان لا يترك العمل من أجل الخوف من الرياء، لا يترك العمل لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أرشد لترك العمل وإنما أرشد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لإخلاص العمل.

ولذلك على الإنسان أن يعمل ويخلص لله، والله عَزَّ وَجَلَّ ما يأمر العبد بما لا يستطيع، ما يمكن أن الله عَزَّ وَجَلَّ يأمر العبد وهو لا يستطيع العمل، فالإخلاص يسير ولكن يعمل الإنسان مخلصًا لله لأنه يسير، إذ لو كان غير مستطاع ما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ به.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}، فما يمكن أن يكلف الله عَزَّ وَجَلَّ الإنسان بالإخلاص وهو لا يستطيع، بل هو مستطاع إذا استعان بالله وأخلص عمله لله.

ولذا أسباب الإخلاص كثيرة:

منها: أن يزهد الإنسان في مدح الناس، فلا تنظر إلى مدح الناس مدحوك أو سبوك، لا تنظر إلى المدح ولا تتشوق له، اعمل العمل لله.

ومن أسباب الإخلاص: أن ينظر الإنسان إلى فضل الإخلاص وما يؤول إليه؛ بمعنى: أن الإنسان يُجازى على العمل فيكون له الدرجات العلا إذا أخلص العمل لله.

وأيضًا ينظر إلى عاقبة الرياء وهو أنه يحبط عمله ويكون هباءً منثورًا، وأنه قد يُعاقب على هذا العمل.

ومن أسباب إخلاص العمل: أن يُكثر الإنسان من دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ، أن يعينه على الإخلاص ويُكثر من ذلك، يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعينه على الإخلاص في العمل.

ومن أسباب الإخلاص: أن يعمل الإنسان الأعمال الخفية يُكثر من الأعمال الخفية من صلاة وصوم ونحو ذلك من الأعمال الخفية فيُكثر منها.

ومن أسباب الإخلاص: أن يكون الإنسان عمله في السر والعلن واحد لا يزيد؛ بمعنى: أنه إذا رأى الناس زاد وإذا كان وحده ضعف، فليُكثر من العمل حال وجود الناس وحال خفاء الناس.

فبهذه الأسباب يكون سبب في نجاة الإنسان بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ من الرياء.

وما هو علامات المرائي؟ هل للمرائي علامات؟ نعم.

من علامات المرائي: أنه يعمل إذا رآه الناس ويترك إذا كان وحده، إذا رآه الناس أكثر من العمل، وإذا كان وحده ترك العمل، فهذا يدل على أن هذا الإنسان عنده شي.

وأيضًا من علامات المرائي: أنه يحب المدح، تجد أنه يتشوف للناس أنا عملت كذا، أنا حصل مني كذا، أنا قرأت الكتاب الفلاني في الفقه، أنا عملت كذا، أنا صمت النهار، أنا تصدقت على فلان، يريد الناس أن تثني عليه، فهذا دليل على أن في قلبه شيء فيحب المدح.

ومن علامات المرائي: أنه يترك العمل إذا قُدح فيه، فإذا قالوا -مثلًا-: فلان فعل كذا من العمل فقُدح فيه فتجد أنه يتقاعس ويترك العمل، فيدل على أنه ينظر إلى الناس ما ينظر إلى الله، لو كان عمله خالصًا لله ترك الناس وقدحهم.

أيضًا المخلص له علامات

فمن علامات المخلص: أنه يُكثر من دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأيضًا من علامات المخلص: أنه يُكثر من الأعمال الخفية، فتجد أنه يُخفي عمله، لا يحب أن الناس تطلع على عمله.

ولذلك مر معنا في أول كتاب التوحيد أن أحد السلف لما قال: من رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قال: أنا، ثم تدارك قال: أما أني لم أكن في صلاة، يريد ألا ينسبوا إليه شيء وهو لم يفعله.

وأيضًا قد كان من السلف من يصوم سنين طويلة ما يعلم عنها أحد إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، لا أهله ولا الناس الذي يعمل معهم، كان يأخذ الطعام من أهله على أنه يأكله ثم يتصدق به، ثم إذا جاء في السوق إذا قالوا: كل، قال: أخذت الأكل من أهلي، فهو صادق أخذه من أهله وتصدق به حتى ما يعلم عنه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فلذلك المخلص تجد أنه يحب أن يخفي العمل.

أيضًا من علامات المخلص: أنه لا يحب المدح، تجد أنه يكره المدح لأنه ما يريد من الناس شيء، ويرى أنه مُقصر مهما حصل يظن أنه في تقصير.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مُدح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ قيل له-: يا خيرنا وابن خيرنا، قال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْبَعْضِ قَوْلِكُمْ».

أو قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ» :إِنَّمَا أَنَا عَبْد، فقولوا: عبدُالله وَرَسُوله».

فلذلك المخلص لا يحب المدح، فتجد أنه يرى أنه مقصر في جنب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولكن يُنبه على أن الإنسان يخلص العمل لله عَزَّ وَجَلَّ، لأن العمل إذا خلطه الرياء فإنه يحبط هذا العمل، فيكون الإنسان عمله حابط، وأيضًا قد وقع في نوع من أنواع الشرك والشرك خطير فيخلص الإنسان عمله.

وأيضًا إذا عمل الإنسان العمل أو أراد أن يعمل العمل فلا يتركه خوفًا من الرياء، لا يقول أترك العمل خوفًا من الرياء بل يعمل العمل، ولذلك قد يسول الشيطان للإنسان قد يسول له أن يترك العمل خوفًا من الرياء، فتجد أنه يترك العمل يخاف أن يقع في رياء وهذا من التشبيه من الشيطان، بل الإنسان عليه أن يعمل ويخلص عمله لله عَزَّ وَجَلَّ .

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا** .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الإنسان إذا أراد بعمله الصالح الدنيا فقد وقع في الشرك. فأتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليُبين حكم ذلك، وما يقع للإنسان إذا أراد ذلك، وما يكون عاقبة الإنسان إذا أراد ذلك.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب من الشرك**)،**من**) هنا للتبعيض.

باب من الشرك،الشرك: هو أن يصرف العبادة التي اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بها لغيره.

قال:**إرادة الإنسان**، الإرادة هي: ميل القلب والقصد،قصد القلب وميله.

إرادة الإنسان بعمله؛ يعني: العمل الصالح بعمله الصالح،**الدنيا**؛ يعني: هذه العاجلة أراد هذه الدنيا.

وهذا الباب أعم من الباب الذي قبله، لأن هذا يريد عموم الدنيا فيدخل فيه الرياء ويدخل فيه المال ويدخل فيه الجاه وما أشبه ذلك.

وأما الباب الذي قبله فهو خاص بإرادة المدح، لأن المرائي يريد المدح من الناس، وأما الذي يريد الدنيا فإنه يريد إما مال وإما جاه وإما مراعاة للناس ليُمدح، فيشمل الرياء وغيره.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالى: }مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ{[هود: ١٥].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف: وقول الله تعالى:}مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ.{

في هذه الآية الكريمة يُبيِّن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حال الذين يريدون بأعمالهم الدنيا، أن الله عَزَّ وَجَلَّ يوفِّي إليهم أعمالهم فيعطيهم ولكن هذا الإعطاء مُقيَّد، مُقيَّد لمن أراد الله عَزَّ وَجَلَّ وليس لكل من أراد الدنيا.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في الآية الأخرى:}مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا{[الإسراء: ١٨].

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا.{

فقيَّد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هذا الأمر؛ أي: أن من أراد الدنيا فإنه يُعطى منها، ولكن من شاء الله وليس لكل أحد.

ففي الآية الكريمة أن إرادة الإنسان بأعماله الدنيا أنه قد يُعطى عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب، وهذه الآية نزلت في المشركين ولكن الأصل بعموم اللفظ.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{،(مَنْ) هنا }مَنْ كَانَ يُرِيدُ{، مَنْ شرطية أو ذِكر حالة الشخص.

قال:}مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{؛ يعني: يريد بعمله الحياة الدنيا، والدنيا سميت دنيا لأنها دون الآخرة فهي قبلها، ولأنها دنية ليست عالية كالآخرة.

قال:}مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا{؛ يعني: زخرف الحياة من مال وجاه وسمعة وما أشبه ذلك.

}نُوَفِّ{؛ يعني: نعطيهم كامل الأجر في الدنيا.

}نُوَفِّ{، والوفاء هو أن يُعطى الشيء كامل.

}إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ{؛ يعني: جزاء مالهم.

}نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ{؛ يعني: لا يُنقصون.

فإذا –مثلًا– أراد الجاه فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعطيه الجاه، من كان يريد الجاه بعمله وهذا لمن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم ليس له في الآخرة من نصيب.

فهذه الآية فيها أن إرادة الإنسان بعمله الدنيا أنه مضيع لأجره في الآخرة، والناس من حيث إرادة الدنيا ينقسمون إلى قسمين:

الأول: الذي يكفر بالآخرة الذي لا يعترف بالآخرة، فهذا ليس له نصيب في الآخرة نهائيًا، لأن بعض الكفار يعمل الأعمال الصالحة ولكن لأجل الدنيا فقط، كأن يطعم الفقراء، ويكفل الأيتام، ويحسن الجوار، ولكن يريد الدنيا لأن الآخرة لا تطرأ على باله بل هو يكفر بها، هذا ليس له إلا الدنيا، وأما في الآخرة فليس له نصيب بل يحبط عمله في الآخرة؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن حال الذين يكفرون بالله عَزَّ وَجَلَّ} :مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ{[إبراهيم: ١٨]، فالكافر يذهب عمله كأن لم يكن.

القسم الثاني من الناس الذين يؤمنون بالآخرة، فهؤلاء على أقسام، إذا أرادوا الدنيا على أقسام:

القسم الأول: أن يعمل العمل الصالح الذي لم يرغب فيه بشيء في الدنيا ويريد به الدنيا، كمن صلى يريد عافية البدن، يجعل الصلاة –مثلًا– تمرين لبدنه، يريد الدنيا فقط يريد أن يمرن بدنه حتى لا يمرض، يريد بالعمل الدنيا فقط فهذا عمله حابط وليس له أجر في الآخرة في هذا العمل، فمن صلى على هذه النية أو ما أشبه هذه النية فعملهم حابط.

أيضًا من صام يريد العافية أو يريد –مثلًا– إنقاص البدن، صام لأجل أن ينزل وزنه وأراد هذا الشيء فقط، فهذا ليس له في الآخرة من نصيب في هذا العمل فعمله حابط، وهذا نوع من الشرك، وهلمَّ جرا.

الثاني: أن يكون العمل مرغَّب فيه لأجر في الدنيا أجر مقدم في الدنيا، فيكون عمل صالح ورُتب عليه أجر في الدنيا، كصلة الرحمة –مثلًا– فهذا إن أراد الآخرة وكانت الدنيا تبع فهذا لا يضر، فأراد الآخرة والدنيا تبع لأنه يُغتفر في التوابع ما لا يُغتفر في المقاصد.

فمثلًا: رجل وصل رحمه طلبًا لرضى الله عَزَّ وَجَلَّ، وأيضًا يريد أن الله عَزَّ وَجَلَّ ينسأ له في أثره ويطيل في عمره ويكون هذا تابع لا قصدًا، فهذا يغتفر.

والدليل: أن في الشرع رُغِّب في صلة الرحم، كما جاء في الصحيحين من حديث أنس حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ،أَوْيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ،فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»،فرُغب فيه.

الثاني: أن يريد بالعمل الذي رُغِّب فيه في الدنيا يريد الدنيا وتكون الآخرة تبعًا، فيكون المراد الدنيا والآخرة تبعًا، فهذا محبط لعمله لأنه ما أخلص لله عَزَّ وَجَلَّ بل أراد الدنيا,كمثلًا: من بر والديه ليبره أبنائه ما يريد إلا هذا الشيء، ويكون التعبد تبعًا.

والفرق بين الأمرين: أن مريد الآخرة يعمل وإن لم يأتيه شيء من الدنيا فإنه يعمل؛ بمعنى: أنه يعمل ويصل الرحم حتى لو لم يطل في عمره فيكمل العمل، وأما مريد الدنيا فإنه إذا لم يحصل له شيء من الدنيا ترك العمل، فإذا ما بره أبنائه ترك البر، وإذا ما أطيل في عمره ترك الصلة، هذا يريد الدنيا ما يريد الآخرة.

ولذلك حتى العمل الصالح إذا أُعطي الإنسان شيء من الدنيا فقد يُنقص أجره من الآخرة.

والدليل: ما جاء في الصحيح في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ، إِلَّا تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ. وَيَبْقَى لَهُمُ الثُّلُثُ».

هذا يدلك على أن الإنسان إذا أعطي شيء من الدنيا فقد ينقص أجره من الآخرة، وأما إذا لم يأتي شيء من الدنيا فإنه يتم له الأجر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ

يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السقاية كَانَ فِي السقاية إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**وفي الصحيح**:يعني: صحيح البخاري ومسلم.

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ»، (تَعِسَ) يعني: سقط أو هلك أو انقلب على رأسه.

«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ» ،«عَبْدُ الدِّينَارِ»؛ بمعنى:أن الدينار تعبده فصار يعبد الدينار.

قال:«تَعِسَ»؛ يعني هلك أو انقلب على رأسه.

«تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»،أيضا عبد الدرهم، والدينار هو من الذهب، والدرهم من الفضة.

قال:«تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ»،(تَعِسَ) يعني: انقلب على رأسه أو هلك أو سقط.

«عَبْدُ الْخَمِيصَةِ»، والخميصة كساء له أعلام.

قال:«تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ»، والخميلة أيضًا نوع من اللباس.

«إِنْ أُعطِيَ رَضِيَ» ،«إِنْ أُعْطِيَ»؛ يعني: أُعطي من الدينار أو من الدراهم أو من ما مضى رضي،«وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»، فهذا معنى أنه عبد لها.

«تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»،(تَعِسَ) يعني: هلك وسقط.

«وَانْتَكَسَ»؛ يعني: انقلب على رأسه.

«وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»؛ يعني: اذا أصابته شوكة فلا قدر على إخراجها.

قال:«طُوبَىٰ»،(طُوبَى) يعني: حسن أو شجرة في الجنة أو الجنة.

«طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ»؛ يعني:آخذ بسير ولجام الفرس.

«فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ»؛ يعني: خارج في الجهاد في سبيل الله.

«أَشْعَثَ رَأْسُهُ»؛ يعني: متلبد رأسه دخل بعضه في بعضه .

«مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ»؛ يعني: قد لحق الغبار قدميه فبان فيهما.

«إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ»؛يعني: اذا كان في الحراسة؛ يعني: يحرس الجيش أو نحو ذلك فهو فيها.

«وَإِنْ كَانَ فِي السقاية كَانَ فِي السقاية»؛ يعني: ما يسقي القوم.

«إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ»؛ يعني:إذا استأذن على الأمراء أو على الوجهاء لم يؤذن له، لأنه لا جاه له.

قال:«وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»، لا تُقبل شفاعته لأنه ليس له جاه، فلو شفع عند الأمير أو عند القائد فإنه لا يُقبل شفاعته لأنه ليس له جاه.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الإنسان قد يتعبده الدينار والدرهم، وكيف ذلك؟

الجواب: أن الإنسان قد يتعبد هذه الأشياء بحيث تأخذ قلبه، فيميل قلبه حبًا لها، ويرضى إذا قبض هذا المال يرضى ويطمئن، وأيضًا يغضب ويحزن قلبه إذا أُخِذت منه أو حيل بينه وبينها، فيصبح كالعبد لهذه الدراهم فتملأ قلبه كما أن الإنسان يمتلأ قلبه بمحبة ربه فذلك عبد الدينار وعبد الدرهم يمتلأ قلبه بحب هذه الدنانير والدراهم فتأخذ بقلبه فيكون همه هذه الدراهم.

ومن الفوائد أيضًا: أنه قد يكون الإنسان يتعبد لشيء من الخِرق والثياب والأمتعة لأنها تأخذ بقلبه أيضًا، فيحب هذه الخميصة وهذه الخميلة ويمتلأ قلبه بحبها.

ومن الفوائد: أن الإنسان يحذر إذا وجد في قلبه رضا إذا أُعطي مال أو سخط إذا أُخذ منه أو حيل بينه وبينه، فيحذر من هذا الشيء، وليس هذا حال المؤمن، المؤمن إذا أُعطي شكر وإذا لم يُعطى صبر، أما الذي يتعبد للدينار والدرهم فإنه إذا أُعطي رضي وفرح واطمئن وإذا لم يُعطى سخط وغضب ورأى أنه قد ذهب عنه هذا الشيء.

ومن الفوائد: فضل الجهاد في سبيل الله؛ ولذلك قال:«طُوبَىٰ»، فطوبى هي حُسنى أو كلمة من الكلمات الحسنة، وأيضًا يُطلق على الجنة ويُطلق على شجرة في الجنة.

ففيه أن الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ اشترى من المؤمنين أنفسهم، لأن الصفقة بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين عباده حيث أن جعل لهم الجنة إذا جاهدوا في سبيله، وهذا الوعد في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن،في هذه الثلاث الكتب الكريمة اشترى الله عَزَّ وَجَلَّ من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة، فالبيع من الله عَزَّ وَجَلَّ فهو الذي اشترى هذه النفس التي يملكها.

وأيضًا من فضائل الجهاد: أن الجهاد سبب لمغفرة الذنوب، ولذلك جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله رجل قال:أيغفر لي إذا قُتلت في سبيل الله؟ قال:«نعم»، فلما ولَّى الرجل قال:«إِلَّا الدَّيْنَ».

ومن فضائله أيضًا: ما جاء عند الترمذي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ،وَيَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ،وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ،وَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»، فيدلك على فضله، وفضائله كثيرة.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ».

ومن الفوائد: أن الإنسان لا يطلب الجاه عند الناس، بل يطلب المنزلة عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن الرجل قد يكون له المنزلة عند الله عَزَّ وَجَلَّ ولا يكون له منزلة عند الناس، والمراد الذي ينبغي أن يسعى إليه الإنسان ويصرف إليه همته: أن يكون له منزلة عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك جاء في الصحيح في حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ»؛ يعني: تغلق عليه الأبواب ويُخرج،«مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ»؛ يعني: رجل لا يراه الناس شيئًا ولكن عند الله عَزَّ وَجَلَّ لو أقسم لو قال: يا ربي أنزل المطر.

قال –مثلًا– أقسم على الله قال: اللّهم أنزل المطر، أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ المطر إكرامًا له،فيطلب الإنسان المنزلة عند الله عَزَّ وَجَلَّ وليس المنزلة عند الناس، لا يقاس الإنسان بمنزلته عند الناس، قد يكون الإنسان في أرض بعيدة ولكنه عند الله عَزَّ وَجَلَّ ذو منزلة عالية، فكل الشأن أن يكون الإنسان له منزلة عند الله وليس منزلة عند الناس؛ لذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«إذا شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

هذا الباب الذي ذكره المؤلف مهم وهو أن الإنسان عليه أن يتفطن لأعماله الصالحة، فعليه أن يخلص عمله فلا يكون للدنيا في عمله الصالح شيء، فلا يخص بعمله إرادة الدنيا.

لذلك من الخطأ أن يذكر الأنسان لناس فضائل الدنيا فقط ولا تذكر فضائل الأخرة فيُقال –مثلًا– صل إذا أردت السعادة، وبر بوالديك إذا أردت أن يبرك أبنائك، لأن هذا يربط الناس بالدنيا، قد يعمل الإنسان للدنيا ويترك الآخرة فيكون ليس له في الآخرة من نصيب.

فلذلك يُربط الناس بما عند الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا قويت العقيدة وأصبح الناس يسعون إلى الآخرة فلا بأس أن تذكر لهم شيء من الدنيا تبعًا، لأنهم سيجعلون هذا تبع، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للصحابة :«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، ويُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله للصحابة الذين من أعظم الناس سعيًا إلى الآخرة.

فإذا قوي الإيمان فلا بأس أن تذكر شيء من الدنيا، ولكن تأتي إلى أناس همهم الدنيا وترغبهم في الأعمال الصالحة في الدنيا، هذا ليس من منهج الدعوة الصحيح، منهج الدعوة الصحيح أن ترغبهم في الآخرة، تذكرهم بأجر الآخرة ثم تذكرهم بالدنيا تبع.

والمراد أن يعمل الناس للآخرة، الله عَزَّ وَجَلَّ أخبرنا عن حال المؤمنين أنهم يريدون الآخرة أنهم يرجون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالدنيا ليست مطلب وليس هي هم يسعى له الإنسان، بل هي مجرد وسيلة توصل الإنسان إلى الآخرة.

ولذلك من المنهج الصحيح أنك تُبين للناس الفضل في الآخرة، تقول -مثلًا-: الصلاة تغفر الذنوب، ومن أراد أن يرضى الله عَزَّ وَجَلَّ عنه ويدخله الجنة وينجيه من النار فعليه بالصلاة، ثم إذا قوي الإيمان عند الناس فتذكر لهم ما يترتب عليه من الدنيا.

وهنا مسائل: قد يعمل الإنسان العمل الصالح ويصيب شيء من الدنيا، فهذا إذا كان عمله لله عَزَّ وَجَلَّ وأصاب شيء من الدنيا تبعًا هذا لا يضره، كمن -مثلًا- طلب العلم أو درس ليأخذ الشهادة وأراد أن يدعو الناس إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ويتعلم العلم، ثم ترتب على ذلك أن أُدخل وظيفة وحصل له مال وكذا، هذا يكون تبع فلا يضره.

فالمراد والضابط في ذلك: أن العمل الذي يكون مستحضر الإنسان فيه أجر الآخرة ويدخل الدنيا تبع، فهذا لا بأس به، بشرط أن رُتب عليه شيء في الدنيا.

كالجهاد -مثلًا- فالجهاد قد يصيب الإنسان غنيمة، فإذا كان قصده الآخرة وآخذ الدنيا تبع فهذا لا يظر، أما إذا جاء يريد الغنيمة فقط ما تعبد لله طرفة عين ولا يريد ما عند الله ولا يريد أن يُعلي كلمة الله، هذا ليس له في الآخرة من نصيب في هذا العمل.

أما إذا كان الدنيا هي المرادة وهي المسعى وكان الآخرة تبع، وهذا يُعرف بأنه إذا فقد ما في الدنيا ترك العمل.

فمثلًا: إنسان صلى بالناس إمام على أنه يحصل على وظيفة ويأخذ راتب، صلى بهم مدة ثم قيل له: ليس فيه وظيفة في هذا المسجد فترك العمل، قال: إذًا: ما في مال أترك العمل، هذا عمله للدنيا وكانت الآخرة تبع.

أما رجل -مثلًا-: صلى بالناس ولم يحصل على وظيفة قال: أُكمل العمل إذا، فهذا يكون الدنيا تبع.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابًا** .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان الطاعة نوع من أنواع العبادة التي يجب أن يُخص الله عَزَّ وَجَلَّ بها، نبه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب على وجوب تخصيص الله عَزَّ وَجَلَّ بها، والتحذير من ضد ذلك.

قال:**باب من أطاع العلماء**.

باب من أطاع، الطاعة هي: موافقة المراد فعلًا للمأمور وتركًا للمحذور، هذه هي الطاعة.

قال:**أطاع العلماء**، والعلماء هم الذين آتاهم الله عَزَّ وَجَلَّ علمًا.

قال:**والأمراء**؛ الأمراء هم القادة والخلفاء ونحوهم.

في تحريم ما أحل الله، التحريم هو: المنع بحيث يمنع نفسه.

التحريم لغة: هو المنع.

ما أحل الله؛ يعني: ما جعله الله عَزَّ وَجَلَّ مستحل حلالًا، كالخبز –مثلًا– أو اللحوم، أو ما أشبه ذلك.

قال:**أو تحليل ما حرم الله**؛ يعني: صيرورة ما حرم الله إلى حلال؛ بمعنى: أن ما منع الله عَزَّ وَجَلَّ منه فيحلله العلماء أو الأمراء ثم يحلله هذا الشخص اتباعًا لهم.

قد اتخذهم أربابًا؛ يعني: صيَّرهم أربابًا مُشرعين مع الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي هذا الباب الذي ذكره المؤلف: أن الطاعة يجب أن يُخص الله عَزَّ وَجَلَّ بها، والطاعة المرادة هنا هي الطاعة الخاصة التي هي في تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ بمعنى: أن يتبع

العلماء أو الأمراء في تحريم ما أحل الله، ويعتقد أن ما أحله هو الحق، مع أنه يعرف ويعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد حرم والعكس، فهي الطاعة الخاصة.

والطاعة تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي المتضمنة للذل والخضوع وكامل التعظيم، التي تتضمن كامل الذل مع كامل التعظيم.

الثاني: طاعة الرسول، وهذه الطاعة لا تتضمن ذل ولا خضوع ولا تعظيم؛ يعني: لا تتضمن كمال الذل وكمال الخضوع وكمال التعظيم، وهذه الطاعة تابعة لطاعة الله وليست مستقلة.

القسم الثالث: طاعة الأمراء والعلماء، والولد لوالده، والزوجة لزوجها، وإن شئت أن تقول طاعة غير الرسول من المخلوقين، فهذه الطاعة مقيدة وهي لا تتضمن ذل ولا خضوع ولا تعظيم، وهي مقيدة في غير معصية الله، فإذا أمر هؤلاء بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة.

فإذا أمر الزوجة بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة، وإذا أمر الوالد ولده بالمعصية فلا سمع ولا طاعة، وإذا أمر الأمير من هو تحته بالمعصية فلا سمع ولا طاعة، وإذا أمر العالم العامي بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة، إن كان الإنسان يعلم أنها معصية فلا يجوز له أن يتبعه، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**».

وهذه الطاعة بينها فروق، أو يقال: أن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ وطاعة المخلوقين بينهما فروق:

من هذه الفروق: أن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ عبادة وهي التي تتضمن كامل الذل وكامل الخضوع وكامل التعظيم، فهي عبادة، وأما طاعة ما سوى الله فلا تشمل هذا الشيء لا تشمل كامل الذل ولا كامل الخضوع ولا كامل التعظيم، فهي مجردة من هذا الشيء.

ومن الفروق أيضًا: أن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ طاعة لذاته، فإذا أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء فتطيع من غير أن تنظر لهذا الشيء، فلو أمر الله عَزَّ وَجَلَّ الإنسان بشيء فيطيع الله عَزَّ وَجَلَّ

لذاته، يطاع الله عَزَّ وَجَلَّ لذاته لأنه الإله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي لا إله إلاهو، الذي له الأمر وله الحكم فهو يطاع.

ولذلك لما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ الملائكة بالسجود لآدم فالطاعة هنا واجبة، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يطاع لذاته بغض النظر عن الفعل الذي أمر به، فإذا أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء فتطيع بدون توقف.

أما طاعة ما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ فهي تابعة لطاعة الله لا يُطاع لذاته وإنما يطاع لأنه مأمور بطاعته في الله، ولذلك حتى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يطاع لأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أمر بطاعته، فيطاع لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي أمر بطاعته؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ{[النساء: ٨٠].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ{[النساء: ٦٤]، الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر أنه ما أرسل رسول إلا ليطاع بإذن الله، الله عَزَّ وَجَلَّ أذن بطاعة الرسول فيطاع.

وطاعة الرسول مطلقة؛ بمعنى: أنك تطيع الرسول من غير أن تنظر في الأمر لأنه لا يأمر إلا بما فيه طاعة لله، ولأنه لا ينطق عن الهوى فالرسول يطاع طاعة مطلقة، بحيث أنك لا تنظر هل أمر الرسول يوافق أمر الله أم لا؟

لأن الرسول لا يأمر إلا بما فيه طاعة لله، أما طاعة من سوى الرسول من المخلوقين كالعلماء والأمراء فلهم طاعة ولكنها مقيدة، بحيث لا تكون معصية فتنظر إذا كان الأمر طاعة، أو كان من ما هو مباح فإنك تطيع الأمير فيما أباح الله عَزَّ وَجَلَّ، فهنا يكون واجب في حقك لأن الأمير أمر به، ولكن إذا أمر بمعصية فتتوقف.

أيضًا من الفروق: الطاعة في تحريم الحرام وتحليل الحلال هذا من خصائص الله ولا يكون لغير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه من مقتضى ربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ لخلقه، ولأن من أطاع غير الله في هذا المعنى فقد اتخذه ربًا ومُشرعًا له، ولأنه يذل له ويخضع لأن هذه طاعة خاصة.

والدليل على ذلك: ما جاء في الصحيح من حديث أبي سعيد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فُتحت خيبر وقع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم في البصل وكانوا جياع فأكلوا أكلًا

شديدًا، ثم دخلوا المسجد فشم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رائحة البصل فقال: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ فَلَا يَقْرَبَنَّا مَسْجِدًا»، ا فخرج الصحابة وهم يقولون: حُرمت البصل حُرمت البصل، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَيْسَ لِي أن أُحرِّم مَا أَحَلَّ اللهُ، وإنما هي شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحها».

فهذا فيه دليل على أن هذه الطاعة الخاصة من خصائص الله، فالذي يحلل ويحرم هو الله وحده لا شريك له، قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ}[الشورى: ٢١]، فالمشرع الذي يجعل الشيء حلال وهذا الشيء حرام هو الله وحده لا شريك له، وطاعة العلماء والأمراء تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن يطيعهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، مع علمه بأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حلل هذا الشيء أو حرمه ويفعله معتقدًا أن لهم حق في التشريع ولهم حق في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فهذا مشرك وهو ناقض من نواقض الإسلام إن كان الإنسان على الإسلام، لأنه الآن اتخذهم أربابًا من دون الله وجعل ما هو من خصائص الله عَزَّ وَجَلَّ لغيره.

القسم الثاني: أن يطيعهم في تحليل الحرام أو تحريم الحلال مع اعتقاده أنه عاصم وأن الحلال ما أحله الله، وأن الحرام ما حرمه الله، ولكن أطاعهم لأجل الدنيا أو لأجل أمر من أمور الدنيا، فهنا قد فعل ذنب من الذنوب وليس هذا بشرك، إذا اعتقد أن التحليل والتحريم من خصائص الله ولكن أطاعهم لأجل الدنيا فهذا فسق وليس بكفر.

وهنا ينبه على أن طاعة المخلوق قد تكون واجبة، ولكن كما تقدم لا تشتمل على ذل وخضوع، فطاعة النبي واجبة يجب على المسلم أن يطيع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاعة مطلقة؛ بمعنى: أن الإنسان لا يتوقف إذا أمر الرسول بشيء أو نهى عن شيء فيقول: انتظر حتى أنظر هل يوافق أمر الله ؟

لأن الرسول {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}[النجم: ٣-٤]، فهو ما يأتي بشيء من عنده إنما يُبلغ رسالات الله، فتطيع بدون توقف.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ{، فكرر الفعل.

قال العلماء: أنه لما كرر الفعل دل على أن طاعة الرسول مستقلة.

أيضًا طاعة الأمراء في غير معصية الله واجبة، وأيضًا طاعتهم في المباح واجبة، هنا قد يغلط الإنسان ويرى أن الأمير ليس له طاعة وهذا خطأ بل له طاعة بل إن طاعته واجبة في غير معصية الله.

وطاعة الأمير أو العالم مقيدة؛ بمعنى: أنه لا يأمر بمعصية، أما ما دون ذلك فيطاع حتى لو أمر الأمير بمباح فإنه يجب عليك أن تنفذ، فيصبح في حقك واجب.

والدليل على ذلك: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ورسوله أمروا بطاعة ولاة الأمر؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ{[النساء: ٥٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أن أولي الأمر هم العلماء والأمراء.

الله عَزَّ وَجَلَّ أمر بطاعة الأمير فتطيع، فلا تتوقف إذا أمر الأمير بأمر فيجب عليك أن تطيع، بل يحرم عليك إن عصيت حتى لو كان هذا الشيء مباح.

الضابط: أنه ما لم يأمر بمعصية، فما دون ذلك يجب عليك أن تسمع وتطيع.

والدليل من السنة أيضًا: ما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَىٰ أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي».

فولاة الأمر من العلماء والأمراء لهم طاعة ولكنها مقيدة ما لم يأمر بمعصية، فإذا أمر المخلوق بمعصية فإنه لا سمع ولا طاعة، لما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:»إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ«.

وفي حديث علي:»لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ«.

فهذا هو الواجب ولذلك قد يغلط الإنسان ويرى أن ولاة الأمر لا سمع لهم ولا طاعة، وهذا بسبب جهله لأنه لو علم أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ورسوله أمروا بطاعة ولاة الأمر لما توقف، لذلك أنت إذا أطعت الأمير في غير معصية الله فإنك مطيع لله وتؤجر على هذا الفعل.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما: "يُوشِكُ أَنْ تنزِلَ عَليكُم حجارَةٌ من السَّماءِ، أقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟".

قَال الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

وقال ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما: "يُوشِكُ"؛ يعني: يقرب ويدنو.

"أَنْ تَنزِلَ عَليكُم حجارَةٌ"، الحجارة معروفة تكون من الصخر ونحوه.

"حجارَةٌ من السَّماءِ"؛ أي: أنكم يخشى أن ترجموا من السماء.

"أقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ"؛ يعني: أقول لكم هذا الأمر قال به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقولون قال أبو بكر وعمر؛ يعني: وتردون علي أن أبا بكر وعمر قالوا أن هذا لا يصح، وأنا أقول أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول يصح، فأخشى أنكم بهذا القول أن تنزل عليكم حجارة من السماء.

وهذا الحديث له مناسبة:

مناسبة هذا الحديث: أنه لما أمر ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ بالمتعة وكان يرى رَضِي اللهُ عَنْهُ أنها واجبة، يرى أن المتعة واجبة؛ بمعنى: أن الإنسان إذا ذهب إلى الحج يجب عليه أن يعتمر ثم يتحلل ثم يحج من عامه، يرى أن هذا واجب، فقيل له: أن أبا بكر وعمر ينهون عن المتعة فرد عليهم بهذا القول.

ففيه أن في هذا الحديث: أن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقدم عليه قول أحد لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ما ينطق عن الهوى كما تقدم، فهو يُبلغ عن الله رسالات،فإذا ثبت عند

الإنسان أن هذا قال به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يلتفت لقول أحد، مع أن أبا بكر وعمر أفضل هذه الأمة بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا كان هذا في أبي بكر وعمر فغيرهم من باب أولى من العلماء والأمراء وغيرهم.

وأبو بكر وعمر كانوا خليفتين وكانوا أفضل الأمة، ومع هذا أمر أن لا يطاعوا في الأمر الذي أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعمر اجتهدا في أن الناس إذا تمتعوا خلا البيت في باقي السنة، إذا خرج الإنسان واعتمر وحج ثم رجع إلى أهله قد يخلو البيت من معتمر باقي السنة أو غير ذلك رَضِيَ اللهُ عَنْهُم حُمل على هذا قولهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال الإمام أحمد بن حنبل: "عَجِبتُ لقَومٍ عَرَفُوا الإسنادَ وصحَّتَهُ، يذهَبُونَ إلىٰ رَأْيِ سُفْيانَ، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣] أتَدري ما الفِتنةُ؟ الفِتنةُ: الشِّركُ، لعلَّهُ إذا رَدَّ بعضَ قولِهِ أن يَقَعَ في قلبِهِ شيءٌ مِنَ الزَّيغِ؛ فيَهلِكَ".

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال: وقال الإمام أحمد بن حنبل: "عَجِبتُ لقَومٍ عَرَفُوا الإسنادَ وصحَّتَهُ".

"عَجِبتُ": العجب هو خروج الشيء عن نظائره.

فيقول أحمد رَحِمه اللهُ :تعجبت لقَومٍ عَرَفُوا الإسنادَ، الإسناد هو سلسلة الرجال الموصلة إلى المتن.

"وصحَّتَهُ"؛ يعني: يعرفون السلسلة الصحيحة الموصلة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"يذهَبُونَ"؛ يعني:يذهَبُونَ إلى رَأْيِ سُفْيانَ.

كان سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ له مدرسة فقهية وكان فقيه رَحِمَهُ اللهُ، والإمام أحمد يتعجب كيف يذهبون لرأيه وهم يعرفون أنه ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحديث.

قال: والله تعالى يقول:{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .{

قال: "أَتَدري ما الفِتنةُ؟"؛ يعني:يُبين الإمام أحمد ما هي الفتنة؟

قال:"الفِتنةُ: الشِّركُ"؛ يعني: الفتنة هي الشرك، قد يُفتن الإنسان فيقع في الشرك إذا خالف قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"لعلَّهُ إذا رَدَّ بعضَ قولِهِ أن يَقَعَ في قلبِهِ شيءٌ مِنَ الزَّيغِ؛ فَيَهلِكَ".

لذلك إذا ثبت في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان الإنسان يعرف معناه يعرف معنى الحديث فإنه لا يلتفت لقول أحد.

وقد جاء عن أبي بكر رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه قال إني أخاف إن رديت شيء ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقع في قلبي شيء فأزيغ، هذا يقوله أبو بكر صديق هذه الأمة، فكيف بمن بعده إذا عرف صحة الحديث ثم رده، كفعل أهل البدع من الذين يؤولون الأحاديث ويردونها ويقولون: ما وافق العقل قبلناه، وما خالف العقل أولناه أو رددناه، فهؤلاء ردوا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهم على خطر عظيم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن عَدِي بن حاتم رَضِي اللهُ عَنْهُ: أنه سمع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقرأُ هذه الآية: }اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ{[التوبة: ٣١]. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ؛ قَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ». فَقُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رواه أحمد والترمذي وحسنه.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وعن عدي بن حاتم؛ عدي بن حاتم الطائي رَضِي اللهُ عَنْهُ كان نصرانيا فأسلم رَضِي اللهُ عَنْهُ، وكان مقدم في قومه رَضِي اللهُ عَنْهُ.

قال:أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقرأُ هذه الآية؛يعني: يقرأ هذه الآية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

}اتَّخَذُوا{؛ يعني: صيَّروا.

}أَحْبَارَهُمْ{، الأحبار جمعوا حَبر أو حِبر وهو العالم المتبحر في العلم، أو العالم الذي يحبر الكلام ويحسنه.

}وَرُهْبَانَهُمْ{، والرهبان جمعوا راهب، والراهب هو الذي يعبد الله عَزَّ وَجَلَّ بخوف، الذي يتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بخوف وخشية، أو الذي يعمل مقترنًا بخوف، هذا هو الراهب وهم العُبَّاد.

}أَرْبَابًا{؛ أي: مشرعين مع الله عَزَّ وَجَلَّ.

}مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: سوى الله.

"فَقُلْت لَهُ: إنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ"، قال عدي رَضِي اللهُ عَنْهُ:"إنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ"؛ يعني: ظن رَضِي اللهُ عَنْهُ أن العبادة هي السجود ونحو ذلك.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ قال: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ»؛ يعني: يحرمون الشيء الذي أحله الله عَزَّ وَجَلَّ.

«وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ»؛ يعني: يحللون الحرام فتحلونه لأجل ذلك.

"فَقُلْت: بَلَى"؛يعني: هذا هو الواقع.

قال:«فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»؛يعني: هذه العبادة المرادة هنا أنهم اتخذوهم أربابًا.

قال:**رواه الإمام أحمد والترمذي وحسنه.**

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أن اتخاذ الأحبار والرهبان اتخاذهم معبودين قد يكون بغير السجود وبغير الدعاء الذي يتضمن الذل والخضوع، وذلك في تحليل الحرام وتحريم الحلال مع اعتقاده أن لهم حق التشريع، فهنا قد اتخذهم أربابًا، وذلك أن الذي يضع الشرع ويحكم بين الناس هو الله وحده لا شريك له، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يُصير الأشياء حرام ويصير

الأشياء حلال، فما أحل الله عَزَّ وَجَلَّ فهو الحلال، وما حرمه فهو الحرام، وليس للخلق أن يحللوا أو يحرموا حسب ما شاءوا.

فمن اعتقد أن من المخلوقين من له حق وقدرة على التحليل والتحريم سوى الله عَزَّ وَجَلَّ فقد اتخذ هذا المخلوق رب من دون الله، لذلك يُنتبه لهذا.

والتحليل والتحريم من خصائص الله عَزَّ وَجَلَّ من ربوبيته لخلقه، وأيضًا الطاعة من مقتضى عبادته؛ بمعنى: أن الإنسان إذا اتخذ له غير الله مُشرع يرضى بحكمه ويعتقد أن ما أحله هو الحلال وما حرمه هو الحرام، ويفعل هذا الشيء بذل وخضوع فهنا اتخذه رب وتذلل له وعبده، فهو وقع في الشرك من وجهين:

- الوجه الأول: أنه اعتقد أن له حق التشريع.

- والوجه الثاني: أنه تذلل له في طاعته ، لهذا الشيء وترك ما نهى عنه ذلًا وخضوعًا، فيكون قد اتخذ غير الله عَزَّ وَجَلَّ معبود له.

ومن الفوائد: أن التحليل والتحريم من خصائص الله عَزَّ وَجَلَّ، فما أحله الله عَزَّ وَجَلَّ هو الحلال، وما حرمه هو الحرام، وليس للخلق أن يحللوا ويحرموا من أنفسهم، ومن اعتقد أن للمخلوق حق التحليل والتحريم فقد اتخذه رب وجعله معبود له من دون الله، فجعله ربًا له من دون الله.

ففيه أن الإنسان يحذر من طاعة غير الله عَزَّ وَجَلَّ في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

وقد ذكر بعض العلماء أن الشرك أقسامه أربعة:

الأول: شرك الدعاء، وهو أن يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يسأل ميت، أو يسأل غائب، أو يسأل حي حاضر ولكن في أمر لا يقدر عليه إلا الله، كأن يسأل -مثلًا- عالم يقول: أسألك أن تدخلني الجنة وتنجيني من النار، هذا شرك أكبر لأنه دعاه وتوجه له بالدعاء، والدعاء عبادة هنا.

الثاني: شرك القصد والإرادة والطلب؛ بمعنى: أن الإنسان يقصد بجميع أعماله الدنيا فيعمل للدنيا وينسى الآخرة ولا تطرأ له على بال، بحيث يكون عمله وسعيه وفعله كله

للدنيا، ولا يخطر بباله الآخرة كأنها ليست موجودة، فهذا شرك في النية، كما تقدم في الباب الذي ذكره المؤلف إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

فإذا كان جميع أعماله للدنيا كفعل المنافقين، المنافقون يعملون للدنيا لأنهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فجميع أعمالهم من صلاة وصيام وزكاة هذا كله للدنيا، لأجل أن يحفظوا أموالهم ودمائهم ويسلموا من القتل، فهم عملوا للدنيا.

الثالث: شرك الطاعة، وهو أن يتخذ له سوى الله عَزَّ وَجَلَّ مُشرع، يعتقد أن ما أحله هو الحلال وما حرمه هو الحرام؛ بمعنى: أن يتخذ عالم من العلماء -مثلًا- ويعتقد أن ما أحله العالم حلال، وما حرمه فهو الحرام، مع علمه -انتبه- مع علمه أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد حرم هذا الشيء ولكن يتبع العالم لأن العالم أحله.

كما -مثلًا- لو قال العالم: الخمر حلال، والإنسان الذي قيل له هذا يعرف أن الخمر حرام، فيعتقد في قلبه أن الخمر حلال ويستحله، حتى لو لم يشرب الخمر فإنه أشرك لأنه جعل غير الله عَزَّ وَجَلَّ مُشرع، وكذلك في الأمراء وكذلك في غيرهم من المخلوقين.

الرابع :شرك المحبة وهو أن يحب غير الله كمحبة الله فيحب غير الله بكامل الذل والتعظيم كما قال تعالى }وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ{

ومن الفوائد: أن أنواع العبادة كثير، كالسجود الذي يتضمن الذل والخضوع، هذه عبادة، والدعاء الذي يتضمن الذل والخضوع فيما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ عبادة، وكذلك التشريع حيث يعتقد أن التحليل والتحريم من خصائص الله فهو عبادة.

ولكن يُنبه على مسألة وهو: أن الإنسان إذا كان عامي ليس عنده علم فأطاع العلماء أو الأمراء واعتقد أن هذا هو شرع الله، فإن هذا إن كان غير مُفرط فإنه معذور؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .{

وقوله تعالى: }فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ{[التغابن: ١٦].

فإن -مثلًا- قال العالم: هذا الشيء حرام، وهذا العامي ليس عنده علم واعتقد أنه حرام، يعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ حرمه لا أن العالم حرمه، فهنا إذا كان غير مُفرط في طلب الحق فإنه لا يُلام معذور.

وكذلك الأمراء إذا قال الأمراء: هذا الشيء حلال، واعتقد أنه من الله عَزَّ وَجَلَّ، يعني: تشريع من الله عَزَّ وَجَلَّ، لا أن الأمير أتى به من نفسه, بل اعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي أحله، فإن هذا إن لم يكن مُفرط فإنه لا يُلام.

فهذا الباب أراد فيه المؤلف أن يُبين أن الطاعة الخاصة التي هي في تحليل الحرام وتحريم الحلال من خصائص الله، فلا يجوز للإنسان المسلم أن يعتقد أن لغير الله عَزَّ وَجَلَّ حق في التشريع بتحليل الحرام وتحريم الحلال، لذلك تعتقد أن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله.

ويُنبه أيضًا أن الإنسان قد يفعل الشيء ويكون كالمستحل له مع أنه لا يستحله، كمدمن الخمر ، ومدمن الزنا، ومدمن عقوق الوالدين، وغيره من المعاصي، هذا لا تقول مستحل -انتبه- لأنه قد يفعل ويداوم ولكنه يرى في نفسه أنه عاصي، وليس هو بمستحل، ولذلك قد يفعل الإنسان ويداوم على المعصية مع أنه لا يستحل هذه المعصية.

والدليل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ،وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ».

فهنا قال: «يَسْتَحِلُّونَ»، الاستحلال هنا هو بمعنى: أنهم يفعلون فعل المستحل، بمعنى: أنهم يداومون عليها.

أما إذا استحل الإنسان الشيء المحرم استحله ورأى أنه حلال وهذا الشيء مجمع عليه أنه مُحرم ومعلوم من الدين بالضرورة أنه محرم ومثل هذا الإنسان لا يجهل، كمن استحل -مثلًا- قتل المسلم، كمن استحله بغير تأويل كفعل الخوارج -مثلًا- يعني: يعرف يقرأ النصوص التي فيها تحريم قتل المسلم وليس عنده تأويل وليس عنده جهل فهذا يكفر.

كذلك من استحل الخمر مع أنه يقرأ الآيات التي فيها تحريم الخمر، يعرف أن الخمر حرام ويعتقد أنه من شرع الله ثم يستحله، فهذا يكفر، لكن ينبه أنه قد يكون الإنسان متأول فيُحتاط في هذا الشيء.

أما إذا كان ليس عنده تأويل وليس عنده عذر من الأعذار ثم بعد ذلك يستحل المحرمات، يستحل الزنا يقول: الزنا حلال تقرأ عليه الآيات تقول: أن الله حرم الزنا، أن الله حرم الخمر يقول: نعم أعرف أن الله حرم ولكنها حلال عندي حلال، فهذا يخرج من دين الإسلام، لأنه استحل ما حرم الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}[النساء: ٦٠]

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: باب قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}[النساء: ٦٠] .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن التحاكم إلى شرع الله عَزَّ وَجَلَّ من مقتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله، فمن آمن بأن محمدًا رسول الله تحاكم إلى الشرع الذي جاء به ونبذ كل ما سواه.

ولذلك أتى المؤلف بهذا الباب ليُبين أن الواجب على المسلم أن يتحاكم إلى شرع الله وينبذ ما خالفه.

قال: باب قول الله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ يعني: ألم تنظر وترى،﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ يعني: يزعمون على قولهم أنهم آمنوا بالشرع الذي جئت به وأنزله الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عليك.

﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ يعني :ما أنزل من الشرائع التي قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿يُرِيدُونَ﴾؛ يعني: يميلون بقلوبهم.

﴿أَنْ يَتَحَاكَمُوا﴾؛ يعني: يتحاكموا فيما شجر بينهم.

﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، والطاغوت هو الحكم بغير ما أنزل الله.

﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾؛ يعني: قد أُمر هؤلاء أن يكفروا بالطاغوت ويجحدوه ويروا أنه لا شيء.

﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾؛ يعني: الشيطان من حيث حثهم على ذلك يريد أن يضلهم بحيث يجعلهم يتيهوا عن الطريق المستقيم.

﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾؛ يعني: يتيهوا عن صراط الله عَزَّ وَجَلَّ تيهًا بعيدًا ويبعدوا عن شرع الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي الآية الكريمة: أن الواجب التحاكم إلى شرع الله وترك ما سواه، وأن التحاكم إلى غير شرع الله مما يدعو إليه الشيطان، فعلى المسلم أن يحذر من التحاكم إلى غير شرع الله.

وهذا الباب فيه: أن الواجب على المسلم أن يتحاكم إلى شرع الله، وأن يُحكِّم الكتاب والسنة، وذلك أن التحاكم إلى شرع الله من مقتضى ربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ، بحيث أنك إذا اعتقدت أنه هو الرب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وهو الذي له الحكم فتتحاكم إلى الشرع الذي أنزله وتترك ما سواه.

وذلك أن التحاكم إلى غير شرع الله قد يكون من نواقض الإسلام، والناس في التحاكم إلى غير شرع الله على قسمين:

القسم الأول: من يبتدع شرع بحيث يضع شريعة تضاهي شرع الله عَزَّ وَجَلَّ فيجعل حلال وحرام من عند نفسه، فيحلل ويحرم ويضع قوانين يضعها من تلقاء نفسه تضاهي شرع

الله عَزَّ وَجَلَّ فيحل فيها ما يشاء ويحرم فيها ما يشاء، كأن يحل -مثلًا- الخمر، ويحرم -مثلًا- الزواج بالمرأة الثانية وهكذا، فهذا واضع الشرع كافر خارج من ملة الإسلام، لأنه جعل نفسه طاغوت ودعا الناس إلى عبادته.

فهذا الذي يضع هذا الشرع كافر لأنه نازع الله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته، بحيث أنه جعل نفسه مُشرِّع، والذي له حق التشريع هو الله وحده لا شريك له هو الذي يضع الشرع فيجعل هذا حلال وهذا حرام، والذي يعمل بهذا الشرع إن اعتقد أن العمل بهذا الشرع أحسن من شرع الله فهو خارج من ملة الإسلام.

إذا اعتقد أن هذا الشرع الذي وضع هذا المبتدع أحسن من شرع الله فهو كفر بالله العظيم، أيضًا إذا اعتقد أنه مساوي لشرع الله بحيث اعتقد أن هذا الشرع الذي وضع هو وشرع الله سيان فهذا كافر وخارج من ملة الإسلام، لأنه جعل لله مشارك في ربوبيته.

أيضًا إذا اعتقد أنه يجوز الخروج من شرع الله إلى هذا الشرع أو غيره، بحيث يعتقد أنه يحل له أن يعمل بهذا الشرع أو بغيره ويترك شرع الله, فهذا كافر.

وقد أجمع العلماء على أن من اعتقد أنه يسعه الخروج عن الشريعة التي جاء بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر، وذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب من نواقض الإسلام.

إذًا: من عمل بغير شرع الله لا يخلو من ثلاث حالات، هذا غير الذي وضع الشرع، والذي وضع الشرع كافر وانتهينا منه، ولكن هذا الذي يعمل بغير شرع الله لا يخلو من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يعتقد أن غير شرع الله أحسن من شرع الله، فهذا كافر.

الثانية: أن يعتقد أنه مساوي لشرع الله يقول: هذا الشرع الذي وضعه الناس وشرع الله سيان، فهذا كافر.

الثالثة: أن يعتقد أنه يسعه الخروج عن شرع الله وأنه يحل له أن يتحاكم بما شاء، فهذا كافر.

أيضًا القسم الثاني من الناس الذين يتحاكمون إلى هذا الشرع فهؤلاء على أحوال:

الحالة الأولى: أن يعتقدوا أن هذا الشرع المبتدع أحسن من شرع الله ويتحاكموا إليه فهذا كفر أيضًا.

الثانية: أن يعتقدوا أنه مساوي لشرع الله فهذا كفر أيضًا.

الحالة الثالثة: أن يعتقدوا أنه باطل، يعتقدون أن هذا الشرع باطل ولكن تحاكموا إليه إجبارًا قهرًا بحيث أن الإنسان أُخذ فوضع في محكمة تحكم بغير ما أنزل الله قهرًا، وضع فيه السلاسل فأُخذ حتى حُكم عليه بغير شرع الله فهذا معذور، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ عذر الإنسان حتى في الكفر،﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل: ١٠٦].

فإذا كان الإنسان مجبر أُخذ بسلاسل حتى وضع في محكمة تحكم بغير شرع الله فهذا معذور.

الحالة الرابعة من الناس: أن يتحاكم إلى غير شرع الله اختيارًا مع اعتقاده أنه عاصي وأنه مذنب وأن شرع الله أحسن الشرائع، وأنه لا يجوز له الخروج عن شرع الله، وأنه لا يساوي شرع الله أحد، وأن هذا الشرع الذي تحاكم إليه باطل ولكن ذهب إليه اختيارًا، فهذا على خطر ولا شك أنه فعل محرم.

الحالة الخامسة: أن يتحاكم إلى غير شرع الله اضطرارًا، بحيث أنه لا يصل إلى حقه إلا بهذا التحاكم كمن –مثلًا– في بلاد الكفر ولا يجد إلا محكمة تحكم بغير شرع الله وأخذ ماله، فهذا إذا كان المال كثير ويضر الإنسان ذهابه فإذا تحاكم إلى هذه المحاكم فلابد من شروط:

الشرط الأول: أن يكون كاره يكره هذا الحكم بغير ما أنزل الله.

الشرط الثاني: أن لا يأخذ إلا ما وافق شرع الله، فإذا حكم له هذا القاضي الذي يقضي بغير شرع الله وحكم له كحكم الله فيأخذه على أنه وافق شرع الله لا أن هذا الرجل حكم به.

الشرط الثالث: أن يرى أن الحكم بغير ما أنزل الله أنه باطل وأن الواجب التحاكم إلى شرع الله، وهذا إذا كان الإنسان يتضرر، أما إذا كان المال قليل مثل ألف ريال أو خمسمائة

ريال أو في بلادها مثل ألف دولار أو خمسمائة دولار -مثلًا يعني ما يعادل مثلًا عندنا الآن خمسمائة ريال أو ألف ريال- فهذا ذهابها خير من أن يذهب دين الإنسان أو يتضرر دينه.

أما إذا كان المال كثير مثل مائة ألف دولار- مثلًا- أو أكثر، أو ذهبت أراضي له كثيرة فتحاكم للاضطرار. فلابد من هذه الشروط ، فإذا حصل له حق أخذه، وإذا حصل له أكثر فلا يجوز له الأخذ، وإذا كان أقل فيأخذه ويتعوض الله عَزَّ وَجَلَّ فيما ذهب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله تعالىٰ:}وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ{[البقرة: ١١].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال:**وقوله**:}وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ.{

في هذه الآية الكريمة يوبخ الله عَزَّ وَجَلَّ المنافقين، وذلك أنهم إذا دعوا إلى كف الفساد عن الأرض في نشر المعاصي والتحاكم إلى غير شرع الله قالوا:}إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ{، إنما نريد الإصلاح، ثم بيَّن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنهم هم المفسدون بفعلهم هذا.

قال:}وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ{؛ يعني: للمنافقين،}لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ{؛ يعني: لا تنشروا الفساد في الأرض بفعل المعاصي والتحاكم إلى غير شرع الله،}قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ{؛ يعني: ظنوا أن فعلهم هذا هو إحسان وهو فعل باطل.

ففي الآية الكريمة: يأمر الله عَزَّ وَجَلَّ بعدم الإفساد في الأرض، ومن الإفساد في الأرض أن يتحاكم الإنسان إلى غير شرع الله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا{[الأعراف: ٥٦].

وقوله: }أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ{[المائدة: ٥٠].

قَال الشَّارِحُ وفّقَ اللهُ:

قال: وقوله:}وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا.{

أيضًا في هذه الآية الكريمة ينهى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن الفساد في الأرض بعد إصلاحا،ه فلا يفسد بنشر المعاصي والتحاكم إلى غير شرع الله بعد إصلاح الله عَزَّ وَجَلَّ الأرض بنشر العدل ونشر التوحيد والتحاكم إلى شرع الله فهذا عدل، وضد ذلك الفساد التحاكم إلى غير شرع الله أو نشر المعاصي فهذا من الإفساد في الأرض، وذلك أن الإفساد في الأرض ينقسم إلى قسمين:

الأول: الإفساد المعنوي، وهو بنشر المعاصي والتحاكم إلى غير شرع الله ونشر الكفر والفسوق، فهذا من الإفساد في الأرض.

الثاني: الإفساد الحسي، كالذي يقتل الأنفس البريئة، ويقطع الأشجار، ويحرق الأموال أموال الناس بغير حق، ويفسد في الأرض، إفساد حسي إما بأخذ المال، وإما بقتل النفس التي حرم الله عَزَّ وَجَلَّ بغير حق وهكذا، فهذا من الإفساد الحسي، فالله عَزَّ وَجَلَّ ينهى عن هذا وهذا، ينهى عن الفساد الحسي والمعنوي.

والإصلاح يكون بالتمسك بشرع الله، فإذا تمسك الإنسان بشرع الله في نفسه وفي غيره فإن هذا من أعظم أسباب الصلاح في الأرض.

قال: وقوله:}أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ.{

في هذه الآية الكريمة يُبين الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا حكم أحسن من حكم الله، فهذا استفهام انكاري، وقوله:}أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ{؛ يعني: المنسوب إلى الجهل.

}يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ{، فلا أحسن من حكم الله عَزَّ وَجَلَّ، فحكم الله عَزَّ وَجَلَّ أحسن الأحكام وأعدلها وأصوبها، فلا حكم يوافق حكم الله عَزَّ وَجَلَّ، فيجب على الناس أن يتمسكوا بحكم الله وأن يحكّموه فيما شجر بينهم.

ولذلك من أعظم الوجبات: أن يتمسكوا الناس بحكم الله فيجعلوا شرع الله عَزَّ وَجَلَّ هو القائم عليهم، وذلك أن من مقتضيات ربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ للخلق أن يتحاكموا إلى

شرعه، فالتحاكم إلى شرع الله عَزَّ وَجَلَّ من اعتقاد أنه الرب الذي له الحكم وإليه التحاكم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأما حكم الجاهلية فهو جهل وضلال لأنه يضل بالإنسان، فذلك أن حكم الجاهلية لا يصح.

ولذلك مهما وضع الناس من قوانين وشرَّعوا من شرائع فهي لا تخلومن النقص مهما وضعوا، مهما اجتمعوا، مهما تكاتفوا لابد أن تكون ناقصة.

لذلك الذين يضعون الشرائع الآن تجد أن كل سنة يغيرون يرون أن هذا خطأ، وأن هذا خطأ، وأن هذا خطأ، كل سنة يغيرون أو أقل أو أكثر، فتجد أن -مثلًا- يضع رجل - شرع ثم يأتي الآخر فينقضه فيقول: هذا فيه خطأ كثير، ويأتي الثالث فيقول: هذا الماضي كله خطأ وهكذا، لأن هذا من فعل البشر، والإنسان عقله محدود ما يعرف المصالح التي تصلح، أما الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو الحكيم العليم الذي يضع الشيء موضعه.

ولذلك يقول أحد العلماء: أن العقل إذا حرم الله عَزَّ وَجَلَّ شيء فإن العقل يقتضي تحريم ، وإذا أباح شيء فإن العقل يؤيده.

فالله عَزَّ وَجَلَّ حكيم ويعلم حال البشر وما يصلح لهم وما يفسدهم، فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إذا أمر بشيء ففيه صلاح البشر وفيه الخير لهم، وإذا نهى عن شيء ففيه الفساد لهم، فلابد أن يُحكِّموا شرع الله عَزَّ وَجَلَّ حتى يطمئنوا في هذه الحياة الدنيا.

فالحكم المصيب العدل الكامل من جميع الوجوه هو حكم الله عَزَّ وَجَلَّ، وأما ما سواه فهو حكم ناقص مهما كان، لو اجتمع الكثير من الناس وأتوا بما استطاعوا ووضعوا لهم شرع لابد أن تجد فيه نقص ، أما شرع الله عَزَّ وَجَلَّ فهو كامل صالح لكل زمان ومكان، فيجب على الناس أن يُحكِّموا شرع الله عَزَّ وَجَلَّ فيما شجر بينهم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**» .

قال النووي: "حديث صحيح رويناه في كتاب "الحجة" بإسناد صحيح".

|

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: وعن عبد الله بن عمرو رَضِي اللهُ عَنْهُما، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

قال النووي: "هذا حديث صحيح رويناه في كتاب "الحجة" بإسناد صحيح".

هذا الحديث فيه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لا يكمل إيمان إنسان حتى يهوى ويطمئن للشرع الذي جئت به، ويكون هواه تبعًا لهذا الشيء.

قال:وعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يُؤْمِنُ»، النفي هنا نفي كمال الإيمان لا أصله؛ أي: لا يكمل إيمان الإنسان حتى يفعل ما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال:«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ»، (حَتَّى) للغاية؛يعني: حتى يصل إلى هذه الدرجة.

قال:«حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ»، الهوى هو ما تميل إليه النفس فهواه ما تميل له نفسه.

«تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»؛ يعني: ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شريعة.

وهذا الحديث فيه مقال، قد ضعفه ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في شرح الأربعين.

ولكن هذا الحديث دل على معناه القرآن؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ{[النساء: ٦٥]، فقد دل القرآن على معنى الحديث فلابد للناس أن يتحاكموا إلى الشرع الذي جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيكون هواهم تبعًا لما جاء به.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة؛ فقال اليهودي: نتحاكم إلىٰ محمد- لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة- وقال المنافق: نتحاكم إلىٰ اليهود -

لعلمه أنهم يأخذون الرشوة- فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة فتحاكما إليه، فنزلت:}أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ{[النساء: ٦٠].

وقيل: نَزَلَتْ فِي رَجُلَين اختَصَمَا، فقال أَحَدهُمُا: نَترَافعُ إِلىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال الآخرُ: إلىٰ كَعْبِ بن الأَشرَفِ، ثم ترافعا إلىٰ عمر، فذكر له أحدهما القصة. فقال: للذي لم يَرْضَ برسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أكذلك؟ قال: نعم، فَضَرَبَهُ بالسَّيفِ فَقَتَلَهُ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال:**وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين**؛ المنافقون هم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

ورجل من اليهود خصومة؛ يعني: كان بينهم نزاع في شيء.

فقال اليهودي نتحاكم إلى محمد؛ يعني: إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن اليهود يعلمون أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسل من الله وأنه لا يحكم إلا بشرع الله، وأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لا يأخذ الرشوة فأراد اليهودي هذا الشيء لأنه عرف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيعدل.

فلذلك قال:**عرف أنه لا يأخذ الرشوة**؛ والرشوة: هو المال الذي يُقدم إلى الحاكم ليحكم للإنسان.

كالقاضي –مثلًا- يأتي إليه الشخص فيعطيهم مال فيقول: أحكم لي على هذا الشخص مع أنه ليس له حق، فيميل معه القاضي لأجل هذا المال، هذا ملعون على لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ«.

قال:**أنه لا يأخذ الرشوة- وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود**.

المنافق عرف أن اليهود يأخذون الرشوة،أراد أن يدفع شيئًا من المال حتى يُقضى له.

قال:**لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، قال:فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة**؛ يعني: ما تحاكموا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا إلى اليهود وإنما اتفقوا على هذا الكاهن.

فتحاكما إليه، فنزلت؛ هذا سبب نزول هذه الآية الكريمة:}أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ{، الآية.

وقيل: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اختَصَما، فقال أَحَدهُمَا: نَتَرَافَعُ إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال الآخرُ: إلى كَعْبِبن الأَشْرَفِ، وكعب بن الأشرف من رؤوس اليهود.

ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة؛ يعني: هذه القصة.

فقال: للذي لم يَرْضَ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أكذلك؟ قال: نعم، فَضَرَبَهُ بالسَّيفِ فَقَتَلَهُ.

فدل على أن هذا الفعل رِدَّة فعل رِدَّة، وإن كان الأثر فيه مقال ولكن إذا إعتقد أن التحاكم إلى غير شرع الله أنه أحسن أو مساوي أو أنه جائز،فإن هذا رِدَّة -كما تقدم-.

وهنا مسألة: تقدم أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر، ولكن الإنسان قد يحكم بالقوانين الوضعية وهو يعتقد أنه مذنب وعاصي وأن الواجب عليه أن يتحاكم إلى شرع الله ويعتقد أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله، ولكن فعل هذا لأجل دنيا خوفًا من كفار، أو لأجل أموال في الدنيا أو مناصب فهل هذا يكفر؟

المسألة: لا يخلو الإنسان فيها من حالات:

الحالة الأولى: أن يحكم مرة أو مرتين أو قلائل من هذا الشيء على هذه العقيدة، فهذا لا يكفر.

كما قال ابن عباس: "هو كفر دون كفر".

وجاء عن طاوس رَحِمَهُ اللهُ ، وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وعن غيرهم من السلف: "أنه إذا تحاكم بهذه العقيدة التي مرت أنه لا يكفر ويكون له كحال أهل الذنوب".

فإذا كان حكم لأجل الدنيا بقضية كالقاضي -مثلًا- أتى عنده خصمان فتخاصما في شيء، وكان أحد الخصمين قريب له فحكم له لأجل القرابة، مع أنه مخالف لشرع الله، فهذا لا يكفر وإنما هو فعل ذنب كبير، وهو كفر دون كفر كما قال ابن عباس.

الحالة الثانية: أن يُحكم الإنسان القانون بحيث يكون ديدن لا يحكم إلا بغير شرع الله، ولكنه على ما تقدم من العقيدة يرى أنه مذنب وعاصي وأن الواجب عليه التحاكم إلى شرع الله، ولكن يفعل هذا إما لمناصب في الدنيا، وإما رغبة يطلبها عند الكفار، أو رهبة منهم، أو لأجل مال، أو غير ذلك من أمور الدنيا، فهذا قد اختلف فيه العلماء هل يكفر أو لا يكفر؟

فقيل: أنه يكفر، لأنه لا يفعل هذا إلا وقد اعتقد أن القوانين الوضعية أحسن من حكم الله، أو اعتقد أنها مساوية، أو اعتقد أنه يحل له أن يتحاكم إلى غير شرع الله، لأنه لا يُعقل أن الإنسان يُحكم غير شرع الله في جميع شئونه.

يعني: يرى أن الخمر مباح، ويرى أن الزنا مباح، ويرى أن قطع اليد السارق لا يجوز ما تقطع يده، ويرى أن الزواج بالمرأة الثانية لا يجوز، ويرى أن الرجل الذكر يرث مثل الأنثى، فيجعل هذه القوانين جميعًا يحكم بها جميعًا، فهذا يبعد أن يكون قد كفر بالطاغوت، وإن كان قد يوجد ولكن يبعد؛ ولذلك ذهب كثير من العلماء أنه يكفر، منهم الشيخ محمد بن إبراهيم.

وقيل: أنه لا يكفر حتى يستحل، فإذا كان بالعقيدة الماضية يعتقد أنه عاصي وأنه لا يجوز التحاكم لغير شرع الله، ويعتقد أن شرع الله أحسن، ويعتقد أنه فعله على خطأ، وأن الواجب عليه الرجوع إلى حكم الله ولكنه فعل ذلك لأجل الدنيا أو لمناصب أو لأموال، فإن من العلماء من قال: لا يكفر حتى يستحل يرى أن فعله هذا حلال.

ويقولون: أن له حكم من استمر على الذنوب وأدمن عليها.

فهذا القول لا شك أنه قول له حظ، لأن الإنسان قد يستمر على غير شرع الله عَزَّ وَجَلَّ مع اعتقاده أنه مذنب وعاصي وأن شرع الله أحسن.

ولذلك هذا اختيار الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ قال: "أنه ما يكفر حتى يستحل، إذا استحل فإنه يكفر، إذا كان على العقيدة المتقدمة".

والشيخ قال: أنه يبعد أن الإنسان يستمر على غير شرع الله مع اعتقاده أنه لا يجوز، يعني: يبعد هذا، ولكن إن كان يوجد ذلك فإن الشيخ يقول: أنه لا يكفر حتى يستحل -

والله أعلم- في هذه المسألة، لكن الإنسان على خطر عظيم إذا حكم بغير شرع الله فعليه أن يحذر أشد الحذر.

ولذلك المؤلف أتى بهذا الباب ليُبين أن مقتضى عبودية الإنسان لربه واعتقاده أن له الحكم وإليه التحاكم أنه يتحاكم إلى شرع الله، وينبذ ما سواه من الأحكام التي يضعها البشر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن التوحيد لما كان ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليُبين أن من جحد الأسماء والصفات على وجه الإنكار أنه يناقض التوحيد، إذا جحد الأسماء والصفات على وجه الإنكار أنه ينافي التوحيد.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب من جحد**، الجحد: هو إنكار الشيء أن ينكر الشيء.

قال:**من جحد شيئًا**، (شيئًا) نكره فتفيد العموم.

من الأسماء والصفات؛يعني: أي شيء من الأسماء والصفات؛ يعني: جحد اسم من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ الذي تسمى به جحدًا أو صفة من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ التي يتصف بها جحدًا، فإذا فعل ذلك فإنه ينافي التوحيد، وجحد الأسماء والصفات لا يخلو فيها الإنسان من أقسام ثلاثة، جحد الأسماء والصفات على أقسام ثلاثة:

الأول: جحد تكذيب، بحيث أنه يعرف أو يعلم أن هذا الاسم من أسماء الله، أو أن هذه الصفة من صفات الله ثم يجحد بها تكذيبًا، يكذب القرآن أويكذب السنة الثابتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا كفر مخرج من الملة.

بمعنى –مثلًا- يجحد اسم الله عَزَّ وَجَلَّ الرحمن، وهو يعرف أنه من أسماء الله ويقرأ القرآن ويعرف أنه من أسماء الله وأن الله تسمى به ويجحده تكذيب يكذب، فهذا كفر.

أيضًا إذا جحد صفة ثابتة لله عَزَّ وَجَلَّ وهو يعرف ويعلم أنها من صفات الله، ويجحد ذلك تكذيبًا كاستواء الله عَزَّ وَجَلَّ على العرش، يعلم أن الله استوى على العرش وأنه من صفاته ثم يجحد تكذيبًا يكذب يقول: لا أقبل أن الله على العرش تكذيب، فهذا كفر.

الثاني: جحد تأويل؛ بمعنى: أنه يتأول يقول: هذا الاسم ليس من أسماء الله، أو هذه الصفة ليست من صفات الله تأويلًا، حمله على ذلك إما تنزيهًا لله فيما يظن، أو أن هذه الصفة أو الاسم لم يثبت عنده، فهذا لا يكفر.

فإن كان هذا الشخص يريد الحق وأخطأ فهذا قد يكون مغفور له، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يكلف الإنسان إلا ما يستطيع، فإن كان يريد الحق وطالب للحق وأراد تنزيه الله عَزَّ وَجَلَّ فيما يظن، أو أن الصفة أو الاسم لم يثبت عنده ثم نفى، فهذا يسمى متأول، فهذا إن كان مريد للحق فإنه قد يُغفر له خطأه، أما إن كان نفع بسبب هوى في نفسه وجهل عنده بحيث أنه لم يبحث فهذا فسق، إن كان الجحد من باب الهوى وليس من باب التكذيب ولكنه اتبع هواه وهو جاهل فهنا يفسق فسق.

ولذلك باب الأسماء والصفات لابد للمسلم أن يُسلِّم لما جاء في الكتاب والسنة تصديقًا بالخبر واعتقادًا على الوجه الذي ورد في الشرع، ولذلك باب الأسماء والصفات لابد للمسلم أن يعتقد ويثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تكييف ولا تمثيل، من غير تحريف ولا تعطيل، فيسير على هذا المنهج القويم في هذا الباب، والناس في الأسماء والصفات على أقسام أربعة:

الأول: من أثبتوا الأسماء والصفات لله عَزَّ وَجَلَّ على الوجه اللائق بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ وأراد رسوله إثباتًا لما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ وتنزيهًا لله عَزَّ وَجَلَّ عن مشابهة خلقه، وهذا هو الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة أثبتوا ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ لنفسه أو أثبته له رسوله من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل، وهذا هو الحق.

الثاني: من أثبتوا الأسماء والصفات وظنوا أنها مثل صفات المخلوقين، فسمعوا أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال:}الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{[طه: ٥]، فظنوا أنه مثل الرجل إذا استوى على الكرسي وقالوا: هذا مثل هذا.

وسمعوا أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال:}لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ{[ص: ٧٥]، فظنوا أنها كيد الإنسان وقالوا: هذه مثل هذه، يد الله كيد زيد من الناس تماثلًا، فهذا الفعل كفر لأن من شبه الله عَزَّ وَجَلَّ بخلقه كفر، كما قال حماد شيخ البخاري رَحِمَهُ اللهُ.

القسم الثالث: من تبادر لأذهانهم أن أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته مثل أسماء الخلق وصفاتهم، فتبادر في أذهانهم هذا أولًا، ثم نفوا لذلك فقالوا: ليس هذه من أسماء الله فتأولوا النصوص، تأولوا النصوص بحيث أنه طرأ لهم في قلوبهم أن صفات الله عَزَّ وَجَلَّ تماثل صفات الخلق، ثم لما وقع هذا في قلوبهم نفوا فقالوا: لا يمكن أن يكون هذا ثم بدأوا يتأولون النصوص فقالوا:}الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{؛ أي: استولى على العرش.

يد الله، قالوا: نعمة الله، وهكذا فتأولوا النصوص، وهؤلاء يسمون المؤولة وهذا التأويل قد يكون تأويل كلي كفعل غلاة الجهمية، وقد يكون تأويل جزئي كفعل بعض الأشاعرة.

فيتأولون النصوص لأنه بدأ لهم في قلوبهم أن هذه الصفات تماثل صفات المخلوقين، فلما طرأ هذا في قلوبهم نفوا الأسماء والصفات نفي تأويل لا نفي جحد، فتأولوا.

فإذا سألت أحدهم ما معنى }الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{؟ قال: معناه: استولى على العرش، لئلا يكون مماثله فيما يظن أي لئلا يماثل الإنسان في ظنه الخاطئ.

القسم الرابع: من أعرضوا عن هذه النصوص الأسماء والصفات قالوا: لا نبحث فيها، ولا نعرف معناها، ولا ندري ما معنى هذه الأسماء والصفات.

فإذا سألت أحدهم ما معنى }الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{؟ قال: الله أعلم ما أدري، ما معنى يد الله؟ قال: الله أعلم ما أدري، نفوض الأمر إلى الله، الله يعلم بذلك هل هي يد حقيقية؟ يقول: لا أدري الله أعلم.

وهؤلاء يسمون المفوضة ومذهبهم يقول شيخ الإسلام: أنه من شر مذاهب أهل البدع والإلحاد، لأنهم جعلوا أهل العلم كالإنسان الذي لا يعرف شيء، كالصبي الذي لم يميز، ولذلك لو سألت أحد المفوضة ما معنى }الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{؟ قال: الله أعلم ما أدري.

ما معنى يد الله؟ قال: لا أدري، ما معنى مجيء الله؟ قال: لا أدري، وهكذا، فجعلوا الإنسان كأنه أُمِّي لا يعرف أن يقرأ ولا يكتب، وهذا يقول الشيخ الإسلام: أنه من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.

والأسماء والصفات لابد أن يعتقد الإنسان أنه ليس لله عَزَّ وَجَلَّ مثيل في صفاته، يعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس له مثيل في أسمائه وصفاته مماثله، ولا يرد على هذا اتفاق الاسم والمعنى العام.

وذلك أن المعاني الكلية والاسم العام هذا قد يشترك فيه الخالق والمخلوق ويكون الاشتراك في الذهن ليس في الخارج،–فمثلًا- الخالق حي والمخلوق حي وهذا في المعنى العام وهذا اشتراك في الذهن.

أما عند التخصيص فهنا ينتفي المماثلة فإذا قلت: حياة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهي الحياة التي لم تُسبق بعدم ولا يلحقها زوال،يعني: الحياة الكاملة من جميع الوجوه، وإذا قلت: حياة المخلوق اختصت به بضعفه الذي سُبق بعدم ويلحقه موت وغير ذلك.

ففي الذهن غير ما في الخارج، فالله عَزَّ وَجَلَّ له خصائص، ولذلك لما وقع عند نفاة الأسماء والصفات هذا الاشتباه نفوا، الصفات لذلك لابد من نوع من الاشتراك، ولكن هذا الاشتراك يكون في الذهن لا في الخارج.

فمثلًا: الله عليم والمخلوق عليم، ولكن ليس علم الله كعلم المخلوق، علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى علم واسع يتعلق بالماضي الأبدي الذي لا قبله شيء والمستقبل الذي لا بعده شيء، ويتعلق بكل شيء جملة وتفصيلًا، ويتعلق بالمعدوم والموجود، وغير ذلك.

أما علم المخلوق فهو قاصر مسبوق بجهل، ملحوق بنسيان، فلا يرد على هذا النوع من الاشتراك.

ولذلك لو لم يكن عندنا هذه الأسماء وهذه الصفات ما علمنا صفات ربنا عَزَّ وَجَلَّ، فاشتراك في الذهن.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ: }وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ{[الرعد: ٣٠].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وقول الله تعالى:**}وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ.{

في هذه الآية الكريمة يوبخ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذين يكفرون بالرحمن، ويرشد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أن يرد عليهم ويقول: هو ربي، الذي كفرتم به هو ربي لا إله إلا هو عليه اعتمدت وإليه مرجع.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: وقوله تعالى:}وَهُمْ يَكْفُرُونَ{،الضمير هنا عائد إلى كفار قريش، وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»:اكتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ»، قال سهيل بن عمرو: ما نعرف ما الرحمن؟ «اكتُبْ»، ما كنا نعرف، «بِاسْمِكَ اللَّهُمّ».

فقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ.}

وقيل: أنها نزلت لما أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفار قريش بتوحيد الله وإخلاص العبادة له سمعوه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو ساجد يدعو ويقول: «اللهم يا رحمن يا رحيم يا الله يا رحمن يا الله»، فقالوا: انظروا إلى محمد يدعونا لأن ندعو إله واحد، وهو يدعو إلهين؛ فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ.}

ولذلك جاء في الآية الأخرى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠].

ففي الآية الكريمة: أنه لابد للإنسان أن يُسلِّم ويؤمن بأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته، لئلا يشابه هؤلاء الذين كفروا باسم الرحمن وصفته سبحانه.

قال: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي.}

{قُلْ}؛ أي: يا محمد، {هُوَ}؛ يعني: الضمير عائد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

{هُوَ رَبِّي}؛ يعني: خالقي ورازقي ومعبودي الذي ليس لي معبود سواه، ولذلك قال: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}؛ يعني: لا معبود بحق إلا هو.

{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}؛ يعني: عليه اعتمدت وفوضت أمري.

{وَإِلَيْهِ}، (والهاء) هنا عائده إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

{وَإِلَيْهِ مَتَابِ}؛ يعني: مرجعي وتوبتي.

ففي الآية الكريمة: أن المسلم عليه أن يثبت ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ لنفسه من الأسماء والصفات لئلا يشابه الذين يكفرون بالرحمن.

ولذلك أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ لابد للمسلم إذا تسمى الله عَزَّ وَجَلَّ بأسماء فلابد أن يثبتها لله كما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أعلم بنفسه وأعلم بخلقه فإذا سمى نفسه اسم فعلينا أن نسميه به، لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي تسمى به، ولا نتأول ولا

نجحد،فلذلك إذا جحد الإنسان فقد يكفر، يعني يعلم أنه من أسماء الله ثم يجحد هذا كفر؛ولذلك قال:}وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ.{

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي صحيح البخاري قال علي:«حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وفي صحيح البخاري قال علي**؛ يعني: ابن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،«حَدِّثُوا النَّاسَ»، الحديث هو الخبر وما يقوله الإنسان ويدخل في الحديث الأشياء الماضية، فيقول: حدث كذا.

«حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ»؛ يعني: بما تعرفه قلوبهم،بحيث إذا سمعوا هذا الشيء لا يمكن أن ينكرونه، لا ينكرونه.

ثم قال ذكر العلة:«أَتُرِيدونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟»؛ يعني يقول: لا تحدثون الناس بما تنكر قلوبهم لئلا يتطرق ذلك إلى تكذيب الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله بسبب الحديث الذي تأتون به.

وقال هذا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما كثر القُصاص الذين يأتون بالقصص والمواعظ، وفيها شيء من الغرابة يذكرون أشياء غريبة، فأراد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يُحدث الناس بما يعرفون، في هذا الأثر أن الإنسان عليه أن يحدث الناس بما لا ينكرونه فإذا خشي أن الناس تنكر عليه بسبب ما جاء به من أخبار وقصص يبعد أن تكون يعني لا يعرف الإنسان صحة هذه القصص، فعليه أن يحذر حتى لا يؤل ذلك إلى تكذيب الله ورسوله؛ بمعنى: أنه يحدثهم بما هو حق ثم يظنون أنه مثل الأول.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وروىٰ عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأىٰ رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصفات -استنكارًا لذلك- فقال: "مَا فَرقُ هؤلاء؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِندَ مُحكَمِهِ، وَيَهلَكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ".

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

قال: **وروى عبد الرزاق**،عبد الرزاق صاحب المصنف العالم اليماني رَحِمَهُ اللهُ.

عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأى رجلًا انتفض؛ يعني: ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ رأى رجلًا انتفض يعني: ارتعب.

لما سمع حديثًا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصفات؛ يعني: حديث ورد فيه ذكر صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو حديث ثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا الرجل لما سمع هذا الحديث انتفض؛ يعني: كأنه استنكر كيف يكون هذا من صفات الله؟! استنكارًا لذلك؛ولذلك قال: استنكارًا لذلك فقال: "مَا فَرَقُ"؛ يعني: ما أخاف هؤلاء.

روي بفتح الراء؛ يعني: ما أخاف هؤلاء.

وروي بإسكان الراء؛ يعني: ما فرَّق هؤلاء وتشديدها.

قال: "مَا فَرقُ هؤلاء؟"؛ يعني: بين الحق والباطل.

"هؤلاء يَجِدُونَ رِقَّةً"؛ يعني: لين وطمأنينة للقلب.

"عِندَ مُحكَمِهِ"؛ يعني: عند محكم القرآن.

"وَيَهلَكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ"؛ يعني: الذي يشتبه عليهم يهلكون عنده، فإما أن ينكرونه ،وإما أن يضطربون فيه، يكون فيه اضطراب عندهم.

هذا الاثر فيه فوائد:

من فوائد الاثر: أن المسلم عليه أن لا يستنكر ما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته، فعليك أن تُسلِّم فإذا سمعت صفة من صفات الله، أو اسم من أسماء الله،

فعليك أن تثبته لله عَزَّ وَجَلَّ على الوجه اللائق ولا تستنكر ولا يكون في قلبك خوف ووجل بل عليك أن تسلم.

وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم بنفسه، وهو الذي سم نفسه أو وصف نفسه، عليك أن تُسلِّم، وأيضًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم الخلق بربه فإذا وصف ربه بشيء أو سمى ربه باسم فعليك أن تُسلِّم، تعتقد أن ما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق ولا يكون في قلبك خوف ولا وجل.

وذلك لا يرد عليك أن الله عَزَّ وَجَلَّ يماثل الخلق، الله عَزَّ وَجَلَّ نفى ذلك قال:}لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ{[الشورى: ١١].

وأيضًا لا يرد عليك أن ما تسمى الله عَزَّ وَجَلَّ به أنه ليس من أسماء الله ، بل عليك أن تثبت ذلك لأن الله أثبته لنفسه قال:}وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.{

فالقاعدة: أنك تثبت ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ، وتنفي عنه مماثلة الخلق، لأن أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته خصائص له إذا أضيفت إلى الله فهي خصائص له.

فإذا قلت مثلًا: يد الله، اختصت بالله لا يشارك أحد فيها ولا يماثلها أحد ، وإذا أطلقت قلت: يد وسكت، هنا يشترك فيها الخالق والمخلوق وتعرف معنى اليد، ولكن إذا أضفت قلت: يد الله، هنا انتفت المماثلة.

ولذلك إذا وصف الله عَزَّ وَجَلَّ نفسه بوصف وهذا الوصف عند المخلوق لا يخطر ببالك أنه مثل صفة المخلوق، بل عليك أن تثبت من غير مماثلة، وعند الإطلاق هذا اللفظ عام.

مثال ذلك: السمع، لفظة السمع ومعنى السمع هذا لفظ عام، ومعنى عام أي يشترك فيه الخالق والمخلوق في الذهن وليس في الواقع ، فإذا قلت: سمع وسكت هنا لابد من تخصيص حتى تنتفي المماثلة.

إذا قلت: سمع مخلوق فهو يليق بضعفه وذله ومسكنته.

وإذا قلت: سمع الخالق هذا السمع يليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وهذه الصفة العظيمة التي لا يماثلها أحد فيها، التي وسعت الخلائق جميعًا.

وذلك صفات الله عَزَّ وَجَلَّ لا تماثل صفات الخلق عند التخصيص.

فمثلًا: سمع الله عَزَّ وَجَلَّ, الله عَزَّ وَجَلَّ يسمع من في السماوات ومن في الأرض ومن تحت الثرى ومن هو في العوالم جميعًا في آن واحد في وقت واحد, ولا يشغله سماع هذا عن هذا، ولا تختلط عليه الأصوات، هذا سمع الله عَزَّ وَجَلَّ.

فلو وقف الناس جميعًا في صعيد واحد وسألوا الله كل واحد مسألة لسمعهم الله عَزَّ وَجَلَّ في آن واحد وعلم كل مسألة ولم يختلط عليه هذا سمع الله.

وأما المخلوق إذا سمع رجل أو رجلان أو ثلاثة تكلموا عنده اشتبكت عليه الأصوات ولم يفهم أحد منهم، لذلك لابد أن تعتقد أن صفات الله خصائص له.

ومن الفوائد: أن القرآن فيه محكم وفيه متشابه، فإذا اقترن المحكم بالمتشابه، يعني قلت: محكم ومتشابه في آن واحد فالمحكم ما اتضح معناه، والمتشابه ما خفي معناه.

وإذا افترقا قلت: القرآن محكم؛ أي: المعنى؛ أي: أنه متقن، وإذا قلت: القرآن متشابه؛ أي: أنه يُشبه بعضه بعضًا في الحسن والجودة والكمال.

فإذا قُرن فقلت: القرآن منه متشابه ومنه محكم، فالمتشابه ما عُرف معناه واتضح بحيث لا يخفى على الناس، فمثلًا قوله تعالى: }وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ{، هذا معنى واضح ظاهر.

}كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ{[البقرة: ١٨٣]، هذا واضح ما تحتاج لأحد يشرح لك ما معنى هذا الكلام.

الثاني: متشابه والمتشابه يخفى على غير الراسخين في العلم، قد يخفى على بعض الناس غير الراسخين في العلم، وهذا لابد من رده إلى المحكم، إذا خفي المعنى فرده إلى المحكم، وهذا التشابه ينقسم إلى قسمين:

تشابه كلي أو تشابه عام، وهو الذي يشتبه على جميع الخلق، وهو كيفية صفات الله وكيفية ذات الله، هذا من المتشابه الذي لا يعرفه الخلق ولا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فيسمى التشابه المطلق أو التشابه العام.

الثاني: التشابه النسبي؛ أي: أنه يشتبه على بعض الناس دون بعض فيشتبه على العامي ولا يشتبه على الراسخ في العلم، وهذا معاني القرآن، المعاني ليست متشابهة، حتى معاني الأسماء والصفات ليست من المتشابه بل هي معلومة المعنى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولمَّا سَمِعَت قريش رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكُرُ: "الرَّحمن" أنكروا ذلك. فأنزل الله فيهم قوله: }وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ.{

|

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: ولمَّا سَمِعَت قريش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكُرُ: "الرَّحمن" أنكروا ذلك. فأنزل الله فيهم قوله: }وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ.{

في هذا الحديث أن قريش لما سمعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر "الرحمن".

لذلك كما تقدم في صلح الحديبية لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي: «اكتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم»، قال سهيل بن عمرو: ما نعرف ما الرحمن؟ «اكتُبْ»، ما كنا نعرف، «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فأنكروا اسم الرحمن.

فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ} :وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ{؛ يعني: سبب نزول هذه الآية.

وقد قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "أن العرب أو أهل الجاهلية ما كانوا ينكرون الأسماء والصفات إلا على وجه الجحد"؛ يعني: يعرفون الأسماء والصفات ولكن ينكرونها جحد، وقد كانوا يعرفون صفات الله عَزَّ وَجَلَّ ويعلمون ذلك، بل أنهم يعتقدون صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، يعتقدون أن الله عَزَّ وَجَلَّ في العلو، ويعرفون أن الله قدر الأمور.

ولذلك يقول الشاعر الجاهلي:

يا عبل أين من المنية مهربي إن كان ربي في السماء قضاها

هذا رجل على غير الإسلام الذي يقول هذا الكلام، فهم يعرفون ولكن ينكرون جحدًا وتكذيبًا.

لذلك ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ يقول: ما كانوا ينكرون الرحمن على وجه الجهل وإنما كانوا ينكرونه على وجه التكذيب، لأنه يقول: وجد في بعض أشعارهم أنهم سموا الله عَزَّ وَجَلَّ بالرحمن.

فملخص الباب: أن المسلم عليه أن يثبت ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ لنفسه من الأسماء والصفات، وأن يحذر من التمثيل ويحذر من التعطيل، ويحذر من التحريف، ويحذر من التكييف، فيكون على حذر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: }يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ{[النحل: ٨٣]

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب قول الله تعالى:** }يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ{[النحل: ٨٣].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان نسبة النعم لغير الله عَزَّ وَجَلَّ تُخل بتوحيد الربوبية، ناسب أن يعقد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب ليُحذر من نسبة النعم لغير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب قول الله تعالى:** }يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ{، يعرفونها؛ يعني: يعرفون أن هذه النعمة من الله عَزَّ وَجَلَّ، ونعمة مفرد مضاف فتعم جميع النعم التي من الله

عَزَّ وَجَلَّ، فيعرفون أن هذا المال من الله عَزَّ وَجَلَّ، ويعرفون أن الأولاد من الله عَزَّ وَجَلَّ، ويعرفون أن المساكن من الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن الزوجات من الله عَزَّ وَجَلَّ، وهكذا.

ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ} :ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا{؛ يعني: يجحدونها، بحيث أنهم ينسبونها إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك سيأتي قول السلف رَحِمَهُم اللهُ في تفسير هذه الآية الكريمة، فهم يعرفون أن هذه النعم من الله ثم يقولون: هي من فلان، فينسبونها إلى غير الله، فنقرأ تفسير السلف رَحِمَهُم اللهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي.

وقال عَونُ بن عبد الله: يقولون: لَولا فُلانٌ لم يكُن كذا.

وقال ابن قُتَيبةَ: يقولون: هذا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنا.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ اختلاف السلف في معنى هذه الآية الكريمة.

قال مجاهد؛ يعني: مجاهد بن جبر العالم بالتفسير.

ما معناه؛ يعني: هذا معنى كلامه وحاصل كلامه.

هو قول الرجل ،(الرجل) هنا نكرة وهو للمثال فيدخل فيه الرجل والمرأة.

قال:**هو قول الرجل: هذا مالي**؛ يعني:**(هذا)** اسم إشارة، و **(مالي)**؛ يعني: ما يتموله الانسان ويكون عنده، والمال يطلق على الدراهم، ويطلق على الأمتعة، ويطلق على النعم،فالإبل مال، والبقر مال،والشياه مال، والأوراق النقدية مال، فهذه كلها أموال.

قال:**هذا مالي ورثته**؛ يعني: هذا المال الذي في يدي الآن ورثته؛ يعني: أصابني ورث.

عن آبائي، فينسب النعمة التي أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ بها عليه لآبائي، فيقول: ورثت هذه الإبل من أبي فينسبها إلى أبيه ويتناسى الله عَزَّ وَجَلَّ، وينسى أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أنعم عليه وعلى آبائه.

قال:**وقال عَونُ بن عبد الله: يقولون: لَولا فُلانٌ.**

)**لَولا**)؛: يعني: أن الحاصل هذا بسبب فلان، أو بجهد فلان.

لَولا فُلانٌ،ففلان: يطلق على الشخص ونحوه.

قال:**لَولا فُلانٌ لم يكُن كذا**؛ يعني: لولا فلان ما أتاني هذا المال، أو لولا فلان ما نجينا من هذه المصيبة، فينسب النعمة إليه دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقال ابن قُتَيبةَ: يقولون: هذا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنا.

يعني: هذه النعمة التي أصابتنا بشفاعة آلهتنا الباطلة التي يعتقدونها، وهذا أشد الأقوال، فهم يتعبدون لغير الله عَزَّ وَجَلَّ ويزعمون أن النعم جاءتهم بسبب هذا التعبد لغير الله.

فذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أقوال السلف في هذه الآية، ونسبة النعم لغير الله على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: أن ينسب النعم إلى غير الله على وجه الإيجاد من العدم، كما لو اعتقد أن أباه هو الذي خلق هذه النعمة وأوجدها من العدم، فهذا كفر وشرك في ربوبية الله عَزَّ وَجَلَ.

الثاني: أن ينسب النعمة لغير الله مع اعتقاد أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أوجدها، ويلتفت قلبه إلى هذا السبب ويتناسى الله فيقول بلسانه ويميل قلبه إلى هذا السبب الصحيح، وينسى الله عَزَّ وَجَلَّ ، مع اعتقاد أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أوجد النعمة، فهذا شرك أصغر.

كأن مثلًا - يرزق بمال بسبب رجل فيقول: هذا المال من فلان ويميل قلبه إلى هذا الشخص ويتناسى الله عَزَّ وَجَلَّ، ويكون في قلبه ميل إلى هذا الشخص، فهذا شرك أصغر.

الثالث: أن ينسب النعمة لغير الله من باب الخبر مع اعتقاده أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أنعم عليك وعلى هذا الشخص، وأن النعم من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإنما ينسبها لهذا الشخص من باب الخبر ولا يكون في قلبه ميل إليه، فهذا جائز.

كما لو سُئل شخص من أين لك هذا المال؟ قال: ورثته من أبي من باب الخبر، مع أنه في قلبه يشكر الله عَزَّ وَجَلَّ الذي أنعم عليه وعلى أبيه وعلى آبائه وعلى نفسه ولا يميل قلبه إلى أبيه، فهذا جائز.

والدليل: ما جاء في صحيح مسلم من حديث العباس أنه قال: يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك ويغضب لك، فهل نفعت بشيء؟ قال: «إِنَّهُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ –هذا من باب الخبر– وَلَوْلا أَنَا لكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ»، فهو يخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعله سبب في أن شفع له فنجاه الله عَزَّ وَجَلَّ من شدة العذاب إلى أن هون عليه العذاب.

هذه الآية الكريمة والآثار: وفيها أن على الإنسان أن ينسب النعمة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أوجد النعم وهو الذي ابتدأها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولا يمنع من ذلك أن يشكر من ساق الله عَزَّ وَجَلَّ على يديه تلك النعمة لا يمنع ذلك.

بمعنى: أنه يعتقد في قلبه أن هذه النعمة من الله ويحمد الله ويشكره على ذلك، ويتعلق قلبه بربه يعتقد أن هذه النعمة من الله وينسبها إلى الله ابتداء فيقول: هذه النعمة من الله ثم يشكر هذا الشخص الذي ساق الله عَزَّ وَجَلَّ النعمة على يديه.

والدليل: ما جاء عند الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ الله»، فهذا جائز إذا كان بهذا الاعتقاد.

وفيها أيضًا من المسائل هنا: أن الإنسان يحذر من لسانه فلو رزق بنعمة أو رزق بشيء فإنه ينسب هذه النعمة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ثم يقول: إن الله ساقها على يد فلان، أو كان فلان سبب هذه النعمة، حتى يعرف السامع أن هذه النعمة من الله عَزَّ وَجَلَّ، وأيضًا يُذكر نفسه أن النعمة من الله عَزَّ وَجَلَّ.

وتقدم أن نسبة النعمة لغير الله من باب الخبر جائز، ونسبة النعمة لغير الله من باب الخبر إذا قرن بها الله عَزَّ وَجَلَّ ، فهذا لا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يجمع بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين غيره الذي أسدى له النعمة ويريد الخبر بالواو، كأن يقول مثلًا: هذا المال من الله ومن أبي، من الله خلقًا ورزقًا ونعمة، ومن أبي من

باب الخبر ورثته من أبي فهذا لا يجوز، لأنه لا يجوز أن يشرك الله عَزَّ وَجَلَّ مع غيره في بالواو التي تقتضي المساواة ، أو قد تدل على المساواة.

الثاني: أن ينسب النعمة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ثم يأتي بثم التي تدل على الترتيب والتراخي، فهذا جائز إذا كان من باب الخبر.

كما لو سئل شخص وقيل له: من أين لك المال؟ قال: من الله يريد أنه خلقًا وإيجادًا ونعمة وإنعامًا، ثم يقول: ثم من فلان، ثم ورثته من فلان من باب الخبر،فهذا جائز.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال أبو العبَّاس –بعد حديثِ زيد بن خالدٍ الذي فيه: «**أن الله تعالىٰ قال: أصبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمِنٌ بي وكافِرٌ...**» الحديث –وقد تقدم-: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يَذُمُّ سبحانهُ مِن يُضِيفُ إنعَامَهُ إلى غيرِهِ، ويُشرِكُ بِهِ.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الرِّيحُ طَيِّبةً، والمَلَّاحُ حاذِقًا، ونحوِ ذلك مما هو جارٍ على ألسِنَةِ كَثيرٍ.

قَال الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**وقال أبو العبَّاس**؛ يعني: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ولقب رَحِمَهُ اللهُ بأبي العباس مع أنه لم يولد له بل لم يتزوج، وإنما هو لقب له رَحِمَهُ اللهُ.

قال:**بعد حديثِ زيد بن خالدٍ الذي فيه**؛ يعني: الحديث الذي تقدم.

«**أن الله قال: أصبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمِنٌ بي وكافِرٌ...**»الحديث—وقد تقدم-.

الحديث؛ يعني: أكمل الحديث.

قال:**وقد تقدم**.

قال:**وهذا كثير في الكتاب والسنة، يَذُمُّ سبحانهُ مِن يُضِيفُ إنعَامَهُ إلى غيرِهِ، ويُشركُ بِهِ**.

ففي كلام شيخ الإسلام أن إضافة النعم لغير الله إن كان من باب الالتفات لهذا الشخص والاعتماد على السبب، فإن هذا شرك أصغر، وتقدم أن إضافة النعم لغير الله على أقسام ثلاثة.

فإذا أضاف النعمة لغير الله يعتقد أن غير الله أوجد النعمة، كما لو اعتقد -مثلًا- أن النجوم هي التي أنزلت الغيث أو، كما لو اعتقد -مثلًا- أن أباه هو الذي خلق هذا الماء وأوجده من العدم، أو أعتقد أن هذا الرجل هو الذي أوجد هذا الشيء من العدم ورزقه إياه هذا كفر وكفر أكبر، لأنه جعل غير الله يخلق.

الثاني: أن يضيفه إلى غير الله ويميل إلى هذا السبب ويكون السبب صحيح، فهذا قد وقع في الشرك الأصغر، لأنه يجب على المسلم أن يكون قلبه متعلق بالله عَزَّ وَجَلَّ ولا يتعلق بالأسباب،فالأسباب المشروعة لا يجوز للمسلم أن يتعلق قلبه بها،فالسبب الشرعي الصحيح لا يجوز الإنسان أن يعلق قلبه به، بل عليه أن يعتمد على الله ويفعل هذا السبب.

قال: وقال بعض السلف؛ السلف هم الماضون، والسلف له معنيان:

المعنى الأول: السلف وقتًا وزمنًا، وهم الصحابة والتابعون ومن تابعيهم، فيسمون السلف وهو المراد هنا.

الثاني: السلف عقيدة ومنهجًا، فهذا يشمل كل من كان اعتقاده على ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتابعين، السلف اعتقادًا فمن كان على مثل ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ومن تبعهم فهو من السلف عقيدة ومنهجًا ولو كان في أزمان متأخرة.

قال المؤلف:**قال بعض السلف: هو كقولهم**؛ يعني:الكاف كاف التشبيه هنا.

قال:**هو كقولهم: كانت الرِّيحُ طَيِّبةً**؛ يعني بمعنى: أن الإنسان إذا كان -مثلًا- في الفلك ثم هبت الرياح الشديدة ثم وفَّق الله عَزَّ وَجَلَّ السائق لهذه السفينة ثم أنجاهم الله عَزَّ وَجَلَّ وسرت هذه الفلك باتزان قالوا: هذا من الريح، فنسبوا النعمة إلى الريح، فقالوا: هذه الرياح

طيبة هي التي سيرت هذه السفينة، فينسبون النعمة إلى الرياح، وينسون أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أجرى هذه الرياح.

قال: **والمَلَّاحُ حاذِقًا**؛ يعني: أيضا لو هبت الرياح وتلاطمت بهم الأمواج ثم وفَّق الله عَزَّ وَجَلَّ هذا السائق للسفينة أو هذا الملاح فكان سبب في أن لا تغرق هذه السفينة، مع أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي جعله سبب، فإذا نجوا قالوا: إن السائق كان حاذقًا؛يعني: جيد في القيادة كان جيد في قيادته ولولا ذلك لغرقنا، فينسبون النعمة إلى هذا السائق، مع أن هذا السائق قد وفِّق من الله عَزَّ وَجَلَّ، ولولا أن الله عَزَّ وَجَلَّ أنجاهم لغرقوا جميعًا هم وسائقهم.

قال: **ونحوِ ذلك**؛ يعني: مما يشابه ذلك.

مما هو جارٍ على ألسِنَةِ كثير، من الناس،لأن كثير من الناس قد ينسب النعمة إلى غير الله عَزَّ وَجَلَ.

يقال –مثلًا – لمن يحفظ القرآن: كيف حفظت القرآن فيقول: من فلان الذي حفظني القرآن فينسبه إلى هذا المحفظ، ليس من باب الخبر وإن من باب نسبة النعمة، فيكون في قلبه ميل إلى هذا الشخص، هذا لايجوز.

وأيضًا قد يكون الإنسان طالب علم جيد فيقال: من شيخك؟ فينسب النعمة إلى فلان ، أما إذا كان من باب الخبر قيل: من من أخذت هذا العلم؟ قال: من فلان من باب الخبر هذا جائز كما تقدم، لكن لو قاله ونسي أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي علَّمه وعلم فلان فهذا هو الخطأ.

ولذلك هذا الباب جدير بالاهتمام أن ينسب الإنسان النعم إلى الله، ويفرق بين نسبة النعم لغير الله والتفات القلب إلى هذا الشيء، وبين الإخبار بأن هذه النعمة بسبب فلان مع أنه معتمد على الله،فهذا جائز،فالأخير جائز.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :باب قول الله تعالى: }فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ{[البقرة: ٢٢] .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان بعض الألفاظ مخلة بتوحيد العبد أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب لينبه على الألفاظ التي قد تقدح في توحيد العبد، وهي من وضع الأنداد لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.{

في هذه الآية الكريمة يرشد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عباده أن لا يجعلوا له نظير في عبادته، مع أنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي خلقهم وأوجدهم.

قال:}فَلَا تَجْعَلُوا{، (اللام) هنا لام النهي.

}فَلَا تَجْعَلُوا{؛ يعني: لا تُصيِّروا.

}لِلَّهِ أَنْدَادًا{، أنداد جمع ند، والند هو النظير والشبيه ونحو ذلك، فينهى سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يجعل له ند ونظير، لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا شبيه له ولا ند ولا نظير، فهو الإله وما سواه عبد، وهو الخالق وما سواه مخلوق.

قال:}أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ{، (وَأَنْتُمْ) والحال فيكم أنكم تعلمون.

}وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ{؛ يعني: تعلمون أنه هو الخالق لا خالق غيره ولا رب سواه، فإن كنتم تعلمون أنه لا يخلق إلا هو فلا تجعل له ند ولا تجعل له نظير.

فينهى سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن التنديد به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والتنديد أو جعل الأنداد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ينقسم إلى قسمين، أو جعل الند لله عَزَّ وَجَلَّ ينقسم إلى قسمين:

الأول: شرك أكبر، وهو أن يجعل لله ند في التعبد والتوجه وفي الخلق والرزق كفعل الله عَزَّ وَجَلَّ، أو يعتقد أن غير الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم الغيب، أو أن غير الله يخلق أو يرزق كرزق الله، أو أن غير الله عَزَّ وَجَلَّ يستحق العبادة فيتوجه إليه بالتعبد، فهذا شرك أكبر.

الثاني: شرك أصغر، وهو أن يساوي غير الله عَزَّ وَجَلَّ في مشيئته بحرف يقتضي المساواة، ولا يعتقد أنه مساوي لله في مشيئته ولكن يكون باللفظ، كقول: ما شاء الله وشئت، أو يقول: ما لي إلا الله وأنت، أو الحلف بغير الله إن كان لا يُعظم المحلوف به كتعظيم الله، فهذا تنديد ولكنه أصغر.

إذًا الملخص: أن التنديد أكبر وأصغر، الأكبر شرك أكبر وقد تقدم، والثاني تنديد أصغر وهو شرك أصغر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن عباس وفي الآية: "الأنداد: هو الشِّركُ أخفىٰ من دبيبِ النمل علىٰ صَفاةٍ سَوداءَ في ظُلمةِ الليل؛ وهو أن تقول: واللهِ، وحَياتكِ يا فُلانةُ وحَياتي، وتقول: لولا كُليبةُ هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشِئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفُلان. لا تجعل فيها فُلانًا هذا كُلُّهُ به شرك". رواه ابن أبي حاتم.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في الآية**؛ يعني: في تفسير الآية الكريمة.

قال: "الأنداد: هو الشِّركُ"؛ يعني: التنديد معناه أن تشرك بالله.

قال: "وهو أخفى من دبيبِ النمل "،دبيب النمل؛ يعني: أثر النمل.

"دبيبِ النمل على صَفاةٍ سَوداءَ"، يعني: إذا كان دبيب النمل أو أثر النمل لا يرى على الصفاة السوداء، قال: "في ظُلمةِ الليل "؛ يعني: وفي ظلمة الليل فكذلك الشرك خفي أخفى من هذا.

قال: "وهو"، ثم مثَّل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: "وهو أن تقول: واللهِ، وحَياتكِ يا فُلانةُ"؛ يعني: من أمثلة التنديد "أن تقول: واللهِ، وحَياتكِ يا فُلان"؛ يعني: يحلف بحياة فلان من الناس.

"وحَياتي"؛ يعني: يحلف بحياته هو.

"لولا كُليبةُ هذا لأتانا اللصوص"؛ يعني: "لولا" هذا حرف يؤتى به لنسبة الشيء لهذا الشخص أو لهذا الشيء، يؤتى بهذه الكلمة لنسبة الفضل لهذا الشيء.

قال: "لولا كُليبةُ"، كليبة يعني: تصغير الكلبة, فمن باب تصغير الكلب قال (كليبة).

"كُليبةُ هذا"؛ يعني: هذا المشار إليه "لأتانا اللصوص"؛ يعني: السراق.

"ولولا البط"، البط المعروف في الدار التي يسكن فيها هذا الشخص,"لأتانا اللصوص"؛ يعني: ينسب الفضل للكلب، وينسب الفضل للبط.

قال: "وقول الرجل لصاحبه"؛ يعني: هذا أيضا من الأمثلة.

"وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشِئتَ"؛ يعني: يقول لصاحبه ما شاء الله وشئت يا فلان،-مثلًا يقول- يأمره بشيء فيقول: إن شاء الله وشئت، فيجعل مشيئة العبد مقارنة بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بحرف الواو.

قال: "وقول الرجل: لولا الله وفُلان"؛ يعني: ومن أمثلة ذلك أن يقول الرجل: لولا الله وفلان، فينسب الفضل لله ولهذا الشخص.

قال: "لا تجعل فيها فُلانًا"؛ يعني: لا تجعل مساوي لله في هذا فلانًا.

"هذا كُلُّهُ به شرك"؛: الضمير عائد إلى لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، بمعنى أن هذه الكلمات فيها شرك وشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: **رواه ابن أبي حاتم.**

هذا الأثر فيه فوائد:

من فوائد الأثر: أن الأنداد كما تقدم هو الشرك وقد يكون أكبر وقد يكون أصغر، فإن كان في التعبد واعتقاد الخلق ونحوه وعلم الغيب ونحو ذلك فهو أكبر، وإن لم يعتقد ذلك وإنما تلفظ بكلمات فيها تسوية الله عَزَّ وَجَلَّ بغيره، فهو تنديد أصغر.

ومن الفوائد: أن الشرك خفي، ولذلك قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:(أخفى من دبيبِ النمل على صَفاةٍ سَوداءَ).

"من دبيب النمل" والدبيب هنا أثر أقدام النملة إذا مشت على هذه الصفاة، وهذه الصفاة سوداء وفي ظلمة الليل فهل يمكن للإنسان أن يرى أثر هذا الدبيب على هذه الصفاة، وفي ظلمةاالليل ؟

الجواب: لا، فكذلك الشرك خفي.

والشرك قد يقع في الأفعال أو الأقوال أو النيات، قد يقع الإنسان في شرك بنيته.

ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:"أن شرك النيات هو البحر الذي لاساحل له، وقليل من ينجو منه"، لأن الإنسان قد يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وهو في نفسه يدعو لنفسه، يريد أن الناس تثني عليه، يريد أن يظهر أمام الناس، وأيضًا قد يصل الإنسان رحمه يريد الثناء من الأقارب يريد أن يقولون: فلان صاحب صلة، وأيضًا قد يطلب الإنسان العلم ويريد الشهادة ويريد المال فهو بحر لاساحل له.

لذلك الإنسان عليه أن يتفقد النية، ومنها الأفعال كأن يصلي يريد الثناء أو يريد المدح، أو يصوم يريد المدح ويريد الثناء، فهذا من الشرك.

ومنها الأقوال ومن شرك الأقوال كأن يحلف بغير الله، وكأن يساوي بين الله عَزَّ وَجَلَّ وغيره في المشيئة، أو التوكل كأن يقول: ما لي إلا الله وأنت، الله كافيني وأنت، أو توكلت على الله وعليك، فهذا كله من الشرك، ولذلك الشرك خفي وقد يقع الإنسان فيه وهو لا يدري.

ومن الفوائد: أن الحلف بغير الله شرك، وسيأتينا حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إن شاء الله بعد هذا الحديث.

ومن الفوائد: أن الإنسان عليه أن يحذر من نسبة النعم لغير الله، فإذا أنجاك الله عَزَّ وَجَلَّ من مصيبة أو من سُراق أو من حوادث أو نحو ذلك فلا تنسب النعمة لغير الله، فلا تقل لو أن هذا السائق كان حذر لهلكنا، أو لولا أن هذا الكلب طرد هؤلاء السُّراق لسرقنا، أو لولا أن هذه البط نبهت على هؤلاء السراق لذهب مالنا،فلا تنسب هذا الشيء لهذه

المخلوقات، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي جعلها سبب فانسب النعمة دائمًا وأبدًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولا يمنع أن تجعل هذه المخلوقات سبب وتنسب النعمة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولا شك أن هذا الكلب الذي نبَّه أو طرد السرَّاق سبب، وأيضًا هذه البطة التي نبَّهت سبب، ولكن لا تنسب النعمة لهذا السبب، وإنما انسب النعمة للذي خلق هذا السبب وأوجد هذا السبب، وذلك أن الناس مع الأسباب على أقسام:

القسم الأول: أن يعتقد الإنسان أن هذا السبب هو موجد هذا الشيء؛ بمعنى: أن الإنسان ينسب الخلق والإيجاد لهذا السبب فيعتقد -مثلًا- أن هذا المخلوق هو الذي أوجد هذا الشيء من العدم كفعل الله عَزَّ وَجَلَّ، فيعتقد أن المخلوق أوجد هذا الشيء من العدم كفعل الله عَزَّ وَجَلَّ -فمثلًا- لو رزق طعام على يد شخص فيعتقد في نفسه أنه هو الذي خلق هذا الطعام وأوجده من العدم، فهذا شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام، لأنه جعل مع الله عَزَّ وَجَلَّ خالقين.

الثاني: أن ينسب النعمة إلى السبب مع اعتقاده أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي أوجد ولكن يميل قلبه إلى هذا السبب وينسب النعمة إليه، فهو شرك أصغر، كهذا الحديث قول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:"لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص"، لأنه نسب النعمة لهذا السبب وتناسى الله عَزَّ وَجَلَّ فهذا شرك أصغر.

الثالث: أن ينسب النعمة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ويعتقد أن هذا السبب جعل الله عَزَّ وَجَلَّ له أثر وأن هذا الأثر مقيد بمشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ، إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ أمضى وإن شاء حجب، فهذا هو التوحيد.

وهذا هو الصواب لأن الله عَزَّ وَجَلَّ من حكمته أنه جعل أسباب وهذه الأسباب لها أثر ووقوع، ولكن هذا الأثر مرتبط بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره وخلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فمثلًا: الطعام يشبع الجائحة، فلو أن إنسانًا أكل هذا الطعام فإنه يشبع بإذن الله، لا أن الطعام هو بذاته مشبع وإنما هو بجعل الله عَزَّ وَجَلَّ له أنه مشبع، ولذلك قد يصاب الإنسان بمرض فيأكل ولا يشبع.

قد ذكر أن أناس يصيبون بمرض فيأكلون ولا يشبعون، مهما أكل ما يشبع لأن هذا السبب سلب الله عَزَّ وَجَلَّ منه التأثير.

القسم الرابع: أن ينفي الأسباب يقول: هذه الأسباب لا أثر لها، الطعام لا يشبع، السكين ما تقطع، وهكذا، فهذا قدح في العقل وضلال في الدين، لأن هذا قدح في عقل الإنسان كيف أن السكين ما تقطع؟! لو قلت لشخص أن السكين ما تقطع لأنكر عليك قال: أنا أرى أنها تقطع!

أيضًا لا يقال أن النار ما تحرق ليست هي السبب لا تحرق، فمن اعتقد ذلك فهو يقدح في عقل الإنسان، لأنه إذا وضع يده في هذه النار احترقت، وأيضًا ضلال في الدين لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى جعل أسباب ومسببات.

ومن الفوائد: أن الإنسان عليه إذا أنجاه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من مصيبة فعليه أن ينسب الفضل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ثم يقول: أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل هذا الشيء سبب، ونسبة الشيء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وإلى السبب على أقسام:

الأول: أن يقول: هذا بفضل الله وهذا البط ،مثلًا كأن يقول مثلًا: أنجانا الله عَزَّ وَجَلَّ من السراق بفضل الله وبفضل البط، فهذا شرك، لأنه جعل البط مساوي لفضل الله عَزَّ وَجَلَّ فهذا شرك.

الثاني: أن يقول: هذا بفضل الله ثم بسبب البط، هذا بفضل الله ثم بسبب هذا البط، فهذا جائز لأن (ثم) تدل على التراخي والترتيب، فجعل هذا السبب تحت تقدير الله عَزَّ وَجَلَّ ومشيئته.

الثالث: أن يقول: هذا من الله وحده لا شريك له وهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي أنجانا، ويعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ ولا ينفي هذه الأسباب،فهذا هو التوحيد، لا ينفي هذه الأسباب وإنما يعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ ويرى أن هذا السبب له أثر بقضاء الله وقدره .

الرابع: أن ينسب الفضل إلى الله فيقول: هذا من الله هو الذي أنجانا من هؤلاء اللصوص، ويكون في قلبه أن هذا البط سبب ولكن لا ينسب إليه شيء ما يتلفظ، هذا هو الأفضل، لأن الواجب على الإنسان أن ينسب النعم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن عمر بن الخطاب رَضِي اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ حَلَفَ بِغيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفرَ أَوْ أَشْرَكَ». رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

قَالَ الشَّارِحُ وفَقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:وعن عمر بن الخطاب أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ». رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

في هذا الحديث أن الحلف بغير الله شرك أو كفر.

وهذا الحديث الظاهر -والله أعلم- أنه من حديث ابن عمر، وهذا الحديث له سبب وهو أن ابن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ كان عند الكعبة فسمع رجلًا يحلف بالكعبة يقول:والكعبة، فنهاه ابن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ وقال: إني سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم ذكر الحديث.

ففيه: أن من حلف بغير الله عَزَّ وَجَلَّ فقد وقع إما في شرك وإما في كفر.

قال:«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ»، (من) شرطية، و«حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ » فعل الشرط، وجوابه:« فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ».

وقوله:«مَنْ حَلَفَ»، الحلف هو توكيد الشيء بذكر معظم، كأنه يقول هذا الحالف: بقدر تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ في قلبي أؤكد لك هذا الأمر، ففيه تعظيم .

قال: «بِغَيْرِ اللهِ»؛ يعني: سوى الله، يعني: حلف بالنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أو بالكعبة أو بالسماء أو بالأرض أو بالوالدين أو بالأمانة أو بالذمة أو بالحياة أو غير ذلك، فهذا شرك.

ولا يفرق لأنه قال: «بِغَيْرِ اللهِ»، ويدخل فيه من سوى الله عَزَّ وَجَلَّ فمن حلف بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامَ أو حلف بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:والنبي، أو قال: بذمتي، أو قال: وأمانتي، أو بوالدي أو بشنبي، هذا كثير على كلام الناس أو بلحيتي أو برقبتي أو بالكعبة، وغير ذلك مما قد يقع عند بعض الناس، فهذا شرك وهو داخل في هذا.

قال: «بِغَيْرِ اللهِ»؛ يعني ما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

«فَقَدْ كَفَرَ»، (قد) تدل على التوكيد من وجوه:

الأول: قد.

والثاني: الحلف المقدر.

قال: «فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»، (أو) الظاهر -والله أعلم- أنها بمعنى الواو، يعني: كفر وأشرك، لأن (أو) قد يراد بها الواو، فقد يراد بها الجمع، وقد يراد بها التنويع، وقد يراد بها الشك.

قال: «فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»؛ يعني:صار إما إلى الكفر وإما إلى الشرك أو وقع في الكفر والشرك، وهذا الشرك شرك أصغر إذا كان مجرد لفظ لا يقصد التعظيم وإنما جرى على لسانه اللفظ.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الحلف بغير الله محرم بل هو شرك.

ولذلك قال شيخ الإسلام: أن جمهور العلماء على أن الحلف بغير الله لا يجوز.

وهو كذلك أنه لا يجوز، وذكر أنه شرك لأن الحلف فيه تعظيم، كأنه يقول: بقدر عظمة هذا المخلوق في قلبي أؤكد لك هذا الشيء، إذا قال ذلك فقد وقع في الشرك.

وذلك أن من أركان العبادة التعظيم فإذا جعله لغير الله فقد أشرك، وهذا يشمل جميع من حلف به سوى الله عَزَّ وَجَلَّ، فلو حلف كما تقدم بأبيه أو بأمه أو بوالديه أو بالنبي صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأن يقول: والنبي أو بالنبي، أو يقول: والكعبة بالكعبة، أو برقبتي أو ورقبتي، أو وذمتي أو بذمتي، أو وأمانتي، فقد وقع في الشرك.

لأن حروف القسم ثلاثة:(الواو والباء والتاء) فإذا قال: والله فهذا حلف، وإذا قال: بالله فهذا حلف، وإذا قال: تالله فهذا حلف، وقد جاءت هذه الحروف في القرآن الكريم، قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{[الشعراء: ٩٧-٩٨].

}قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ{[التغابن: ٧].

وغيرها من الآيات، فقد جاءت هذه الحروف وهي حروف القسم.

ومن الفوائد: أن الحلف بغير الله كفر أو شرك أو هما معًا، والحلف بغير الله إذا حلف الإنسان بغير الله عَزَّ وَجَلَّ لا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يحلف بمخلوق أو بشيء ويعظمه كتعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ، كفعل عباد القبور، كما لو قال مثلًا: وزينب، أو البدوي، وهو يعظمه كتعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ، بل إن بعضهم إذا حلف بهؤلاء قد يقشعر جلده، فقد يخاف إن لم يصدق أن يخسف به الأرض، هذا يعظمه كتعظيم الله فهذا شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام.

الحالة الثانية: أن يجري على لسانه من غير قصد التعظيم، هذا شرك أصغر، لأن اللفظ أصله للتعظيم، فإذا حلف بغير الله من غير اعتقاد تعظيم فإنه قد وقع في الشرك الأصغر.

فلو قال مثلًا: بذمتي وهو لم يقصد التعظيم فقد وقع في الشرك الأصغر.

الثاني: إذا حلف بغير الله ولم يقصد التعظيم إنما جرى على لسانه مجرد كلمة قال: وذمتي، بذمتي، فهذا شرك أصغر وهو المراد من هذا الحديث.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "لأَنْ أَحلِفَ باللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إليّ مِن أَن أَحلِفَ بغيرِهِ صَادِقًا".

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "لأَنْ أَحلِفَ باللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إليّ مِن أن أَحلِفَ بغيرِهِ صَادِقًا".

فهذا الأثر الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه يقول: والله لو أحلف بالله كذبًا أنه أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا، فهذا يدلك على ماذا؟ على أن الحلف بغير الله أعظم من وزر الكذب وهو يحلف بالله.

قال: "لأَنْ أَحلِفَ"؛ يعني: تقدير الكلام (لحلفي).

"باللهِ"؛ يعني: أحلف بالله.

"كَاذِبًا"؛ يعني أقول: والله لقد حصل كذا وأنا كاذب في هذا الكلام.

"أَحَبُّ"؛ يعني: أحسن وأفضل عندي.

"إليّ مِن أن أَحلِفَ بغيرِهِ صَادِقًا"؛ يعني: كأنه -مثلًا- يحلف بالكعبة ويكون صادق، يقول: والكعبة ويكون هذا الكلام صادق، فيقول: هذا أشر عندي.

ففي هذا الأثر: أن الحلف بغير الله أعظم من الكذب وهو حالف بالله.

فلو قال الإنسان -مثلًا-: والله ما ذهبت إلى المكان الفلاني وهو كاذب، وقال الآخر: والكعبة لقد ذهبت إلى المكان الفلاني وهو صادق، فالثاني أشد وزرًا من الأول وأعظم جُرمًا من الأول، مع أن الأول وقع في اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، والثاني وقع في الشرك، والشرك أعظم فيدلك على أن جنس الشرك أعظم من الذنوب الكبائر، فجنس الشرك من حيث هو هو أعظم من الذنوب الكبائر.

وذلك أن الشرك عظيم حتى لو كان أصغر فهو أعظم من الكبائر، أعظم من قتل النفس، وأعظم من غيره، من حيث جنسه، ولكن من حيث التفصيل هذا يختلف.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**». رواه أبو داود بسند صحيح.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: وعن حذيفة رَضِي اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لَا تقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ». رواه أبو داود بسند صحيح.

في هذا الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرشد إلى الطريقة الصحيحة في الألفاظ فيقول: لا تجمعوا بين مشيئة الله ومشيئة العبد، وإنما قولوا: ما شاء الله ثم شاء العبد.

قال: وعن حذيفة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا تَقُولُوا»، هذا نهي من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ»؛ يعني: لا تقولوا ما شاء الله وفلان، يعني: لا تجمعوا بين مشيئة الله ومشيئة غيره، وفلان هنا لم يُذكر فيدخل فيه من غير الله عَزَّ وَجَلَّ .

«وَلَكِنْ قُولُوا»، وهذا إرشاد من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»؛ يعني: قولوا: ما شاء الله، ثم ثنوا بذلك بقول: ما شاء فلان، فلا تجمعوا.

هذا الحديث فيه فوائد:

من الفوائد: النهي عن قول ما شاء الله وشاء فلان، وذلك أن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ مشيئة كاملة من جميع الوجوه، ومشيئة نافذة، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ من صفاته، فلا ينبغي للمسلم أن يشرك مع الله عَزَّ وَجَلَّ غيره في صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن للعبد مشيئة، ولذلك قال: «وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»، فدل على أن العبد له مشيئة، فالإنسان يأكل الطعام بمشيئته، ويلبس الثياب بمشيئته، ويمشي في الأرض بمشيئته لا يُجبر ليس هو مجبر بل له مشيئة، ولكن هذه المشيئة مقيدة وليست مطلقة بل هي مقيدة بمشيئة الله، فلا يشاء العبد إلا وقد شاء الله عَزَّ وَجَلَّ قبل ذلك؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ{[الإنسان: ٣٠]، ولكن العبد له مشيئة، فإذا فعل المعصية فهو يفعلها بمشيئته ليس بمجبر.

والله عَزَّ وَجَلَّ يُنسب إليه الخلق والتقدير، الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي قدر وخلق وأراد كونًا ما العباد فاعلون، وإذا شاء العبد فقد شاء الله قبل ذلك.

ففيه: أن العبد له مشيئة.

ومن الفوائد: أن الإنسان عليه أن يتحرى الألفاظ الصحيحة، فإذا أراد أن يثبت مشيئة للعبد فعليه أن يتحرى الألفاظ الصحيحة.

فيقول أولًا: ما شاء الله ثم شاء هذا العبد، وذلك أن المراتب ثلاث:

- المرتبة الأولى: أن يقول: ما شاء الله وحده، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهذا هو الأفضل، يقول -مثلًا-: ما شاء الله وحده.

- الثاني: أن يقول: ما شاء الله ثم شاء هذا الشخص، هذا جائز كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ».

- الحالة الثالثة: أن يقول: ما شاء الله وشئت، فهذا شرك، لأنه ساوى بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين غيره بحرف الواو الذي يدل على التسوية.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نهى عن شيء يرشد إلى ما هو مباح وجائز، وهذه فائدة دعوة، إذا نهيت الناس عن شيء فافتح لهم باب المباح لا تغلق الباب وتذهب، بل إذا كان هناك باب للمباح فافتحه لهم.

فإذا نهيت - عن الغناء -مثلًا- وكان الشخص مولع بالغناء ونهيته عن الغناء فقل: يا أخي استمع للقرآن الكريم، فأنت تؤجر ويطمئن قلبك وتستلذ بكلام الله عَزَّ وَجَلَّ، فتنهاه عن المحرم وترشده إلى ما هو صالح له.

وإذا نهيت - الذي يشرب الدخان -مثلًا- وهو شخص مولع بالدخان ويشرب الدخان، فقل: يا أخي اشرب من هذه القهوة ومن هذا الشاي ومن هذه العصائر التي أباحها الله عَزَّ وَجَلَّ التي تنفعك ولا تضرك، فهذا من أساليب الدعوة أنك إذا رأيت أن هذا الشخص إذا أُغلق عليه الباب لم يترك هذا الشيء فعليك أن تفتح له باب مباح أو باب فيه أجر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يُكرَهَ أن يقول الرَّجُلُ: أعوذُ باللهِ وبِكَ، ويُجَوزُ أن يقولَ: باللهِ ثم بِكَ. قال: ويقولَ: لولَا اللهُ ثم فلانٌ. ولا تقولوا: لولَا اللهُ وفلانٌ.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وجاء عن إبراهيم النخعي**؛ وهو أحد السلف رَحِمَهُم اللهُ.

قال: **أنه يُكرَهَ**؛ الكراهة عند السلف هو التحريم، غالبًا السلف إذا قال: أكره كذا فهو يريد التحريم، لأن اصطلاح الكراهة عند الفقهاء المتأخرين، فيريدون السلف بالكراهة التحريم، وأما عند المتأخرين فيريدون الشيء الذي يتنزه عنه الإنسان ولا يحرم.

قال: **أنه يُكرَهَ أن يقول الرَّجُلُ: أعوذُ باللهِ**، شرك كيف يكون تنزيه؟

يقول: **أعوذُ باللهِ وبِك**؛ لأنه اعتصم بالله وبهذا الشخص، هذا شرك.

ويُجَوزُ أن يقولَ: باللهِ ثم بِكَ؛ يعني: يجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك.

قال:**ويقولَ: لولَا اللهُ ثم فلانٌ**؛ يعني: هذا جائز.

لا قولوا: **لولَا اللهُ وفلانٌ**؛ لأن هذا ما يجوز كما تقدم في أثر ابن عباس أنه من الشرك ومن التنديد.

هذا الأثر فيه فائدة: أن قول الشخص: أعوذ بالله ثم بك نقول: جائز.

والاستعاذة بالمخلوق لابد فيها من ثلاث شروط: أن يكون حاضر، وأن يكون قادر، وأن يكون حي، مع أن بعض العلماء نهى عن ذلك حتى لو كان هذا المخلوق حي حاضر قادر قال: لا ينبغي، لأن الاستعاذة فيها اعتصام قلبي وميل قلبي.

فالأحوط أن لا يقول هذا اللفظ الإنسان، الأحوط أن لا يقول: أعوذ بك، أو أعتصم بك.

وإن كان إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ يرى أنه لا يكره هذا الشيء.

ملخص هذا الباب: أن الإنسان عليه أن يحذر من ألفاظه، فيحذر من الحلف بغير الله، ويحذر من نسبة النعم لغير الله ، ويحذر أن يقرن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ بمشيئة غيره.

وهذا الباب باب واسع شرك الألفاظ باب واسع، فمن شرك الألفاظ أن يقول: متوكل على الله وعليك، هذا شرك.

ومنها: أن يقول: لولا الله وأنت، هذا شرك.

ومنها أن يقول: ما لي إلا الله وأنت، هذا شرك.

ويقول مثلًا : هذا بالله وبك، هذا من الله ومنك، هذا من عطاء الله وعطائك، الله في السماء لي وأنت لي في الأرض، هذا بفضل الله وفضلك، هذا من عطائك وعطاء الله، لولا الله وأنت ما وظفت في هذه الوظيفة -مثلًا-، الله حسبي وأنت حسبي، حسبي الله وأنت، الله يكفيني وأنت تكفيني، فهذا باب واسع.

والضابط في ذلك: أن الإنسان عليه ألا يقرن مع الله عَزَّ وَجَلَّ غيره، بالواو التي تدل على المقارنة والمساواة، لأن الواو تدل على مطلق المساواة.

فمثلًا تقول: دخل زيد وعمرو، تُشعر أنهما دخلا جميعًا.

أما إذا قلت: دخل زيد ثم عمرو، فهنا لا يدل على أنهما دخلا جميعًا، وإنما يدل على الترتيب؛ أي: أن الأول دخل ثم الثاني دخل، هذا إذا كان الألفاظ جائزة تستخدم ثم حتى تنجو من هذا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان من حُلف له بالله لا يرضى أو لا يقنع، وكان ذلك يدل على عدم تعظيمه لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليُبين أن من كمال تعظيم العبد لله أنه إذا حُلف له بالله فليرضى وليطمئن وليصدق، إن كان يعلم صدق مخبره أو يجهل ذلك.

قال المؤلف: **باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله.**

قوله: **باب ما جاء**؛ يعني: من النصوص والتحذير من ذلك.

فيمن لم يقنع؛ يعني لم يقنعه بحيث يكفيه، من لم يكفيه.

من لم يقنع بالحلف بالله، الحلف بالله يعني: القسم بالله، والإنسان إذا حُلف له بالله فهو على قسمين:

القسم الأول: أن يحلف له بالله عند قاضي أو حاكم، فهذا يجب عليه أن يرضى لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»: شَاهِدَاكَ أَوْ يَمِينُهُ».

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»: وَالْيَمِينُ عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَ»؛ كما جاء عند البيهقي وأصل الحديث في الصحيحين، فإذا كان الإنسان عند قاضي أو حاكم فحلف له بالله فعليه أن يرضى ويسلم.

القسم الثاني: أن يكون الإنسان عند غير قاضي أو عند غير حاكم فيحلف له بالله على شيء، فهذا الذي حلف له لا يخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن يتيقن أن الذي حلف كاذب، فهذا لا يجب عليه أن يرضى ولا يجب عليه أن يصدق لأنه يعلم كذب من حلف.

والدليل على ذلك: ما جاء في الصحيحين في حديث الرجل الذي قتلته اليهود فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» : تَحْلِفُونَ، وَتَسْتَحِقُّونَ دَمَ صَاحِبِكُمْ؟»، فقالوا: يا رسول الله لم نشهد، فقال: «فَتَحْلِفُ لَكُمْ يَهُودُ»، فقالوا: يا رسول الله كيف نقبل بأيمان قوم غير مسلمين؟ فلم يقبلوا بأيمانه.

الحالة الثانية: أن يعلم أن الذي أخبره صادق فيجب عليه أن يرضى وجوبًا، لوجهين:

الوجه الأول: أنه حلف له بالله.

الوجه الثاني: أنه يعلم أن مخبره صادق، كحلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حلف قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ»، فهذا يجب أن تصدق لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق ولأنه حلف بالله.

الحالة الثالثة: أن تجهل هذا المخبر تجهل حاله، فإن كان على دين الإسلام فيجب عليك أن ترضى لأنه حلف بالله، إذا كنت تجهل صدقه من كذبه بمعنى: أنه لا تعلم هل هو صادق أم كاذب؟

فيجب عليك أن ترضى تعظيمًا لله لأنه حلف بالله عَزَّ وَجَلَّ، والعادة أن المسلم عنده تعظيم لله فلا يُقدم على الحلف بالله إلا وهو صادق، ولأنه حُلف لك بالله فمن عظمة الله في قلبك عليك أن ترضى وتسلم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللهِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ**». رواه ابن ماجه بسند حسن.

|

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»، اللام هنا نهي، لام النهي؛ يعني: لا تؤكدوا الشيء بتعظيم آبائكم.

«لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»، وهذا للمثال يعني: لا تحلف لا بأبيك ولا بغيره، وإنما أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا التعيين لأنه كان يكثر عند العرب في الجاهلية الحلف بالآباء فنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك.

قال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ»؛ يعني: من قرن خبره بتعظيم الله فعليه أن يصدق، لأنك أنت إذا أخبرت بشي وقرنته بتعظيم الله،يعني قلت: والله، فيجب

عليك أن تصدق لأن الله عظيم، ما ينبغي أن تُخبر بشي وهو كذب وتقرن بقولك الحلف بالله، يعني: تقرن هذا الخبر بالحلف بالله.

ولذلك قال: «فَلْيَصْدُقْ»، والصدق هو مطابقة الخبر الواقع.

قال: «وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ»؛ من حُلف له يعني: من أخبر بخبر فحلف له بالله، «فَلْيَرْضَ»؛ يعني: يرضى بهذا القول وهذا الخبر على التفصيل السابق.

قال: «وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللهِ فَلَيْسَ مِنْ اللهِ»، هذا فيه شدة خطأ من لم يرضى بالحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: «فَلَيْسَ مِنْ اللهِ».

ففي هذا الحديث: أنه على الإنسان أن يرضى ويقنع إذا حُلف له بالله.

ويدخل في هذا الحديث من لم يرضى بالحلف بالله وإنما رضي بالدعاء على النفس أو بالحلف بالطلاق بمعنى: أنه إذا حُلف بالله ما يرضى، وإذا قيل له: فعل الله بي كذا وكذا إن كنت كاذب رضي، فهذا يدخل في هذا الحديث فهو ليس من الله.

ويدل على أنه ليس عنده تعظيم كامل لله عَزَّ وَجَلَّ، فهو سوء أدب مع الله عَزَّ وَجَلَّ، فمن الناس من لم يرضى ولا يقنع بالحلف بالله وإذا قيل له أو قال له المخبر: فعل الله بي كذا، أو أعمى الله بصري إن كنت كاذب، أو أخذ الله ولدي إن كنت كاذبًا صدقه ورضي، فهذا داخل في هذا الحديث لأنه ما رضي بالله ورضي بالدعاء على النفس، فكان الدعاء على النفس عنده أعظم.

وأيضًا إذا حُلف له بالطلاق رضي إذا قال الشخص مثلًا: علي الطلاق أو بالطلاق أني فعلت كذا وكذا رضي، وإذا قيل له: والله ما يرضى، هذا داخل في هذا الحديث.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول: ما شاء الله وشئت

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب قول: ما شاء الله وشئت.**

هذا الباب داخل في الباب الذي قبله وهو:}فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ{[البقرة: ٢٢].

وإنما خصه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هنا لأنه أتى فيه أثار فهو داخل في الذي قبله:}فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.{

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب قول: ما شاء الله وشئت.**

ما شاء الله، مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى صفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:**ما شاء الله وشئت**، ومشيئة العبد صفة للعبد من صفاته من صفات العبد، والواو هنا لمطلق الجمع و هذا لا يجوز، لا يجوز أن يقول الإنسان ما شاء الله و شاء فلان أو شاء العبد، لأن هذا الجمع يوهم أن الله عَزَّ وَجَلَّ والعبد تساوت مشيئتهم؛ يعني: لا يشاء الله شيء إلا أن يشاء هذا العبد، ولا يشاء العبد هذا شيء إلا أن يشاء الله، فكانه جعل لله عَزَّ وَجَلَّ ند، ولذلك لا يجوز أن يأتي بهذا اللفظ، والمراتب في هذا اللفظ ثلاث:

المرتبة الأول:أن يقولك ما شاء الله وحده و يسكت،فهذا أكمل ما يكون، يقول: ما شاء الله و يسكت.

الحالة الثانية: ما هو جائز وهو أن يقول: ما شاء الله ثم شئت،: «قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شِئْت»، كما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحالة الثالثة: أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان، فهذا شرك،هذا شرك أكبر إن اعتقد أن مشيئة هذا العبد مساوية لمشيئة الله، إذا اعتقد في قلبه أن مشيئة الله ومشيئة العبد متساويتان لا تزيد هذا على هذا، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

وإن اعتقد أن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ هي النافذة وهي الكاملة وأن هذا العبد مشيئته هي القاصرة والضعيفة ولكنه قرن بهذا اللفظ، فهذا شرك أصغر، لأن مجرد اللفظ شرك.

وهنا فائدة: يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: أن جميع أجناس الشرك الأصغر قد يكون شرك أكبر بحسب نية قائله أو بحسب عقيدة المتكلم، جميع أنواع الشرك الأصغر قد يصل إلى الأكبر بسبب اعتقاد قائله.

فمثلًا من قال: ما شاء الله وشاء فلان واعتقد في قلبه أن مشيئة الله ومشيئة هذا العبد متساويتان لا تزيد هذا على هذا، هذا شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام، أما إذا اعتقد أن مشيئة الله هي النافذة وهي الكاملة وأن هذا العبد مشيئته قاصرة، وإنما أتى بهذا اللفظ فقد وقع في الشرك الأصغر، لأن اللفظ قرن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ بغيره.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عن قتيلة: "أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَن يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شِئْتَ". رواه النسائي وصححه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:عن قتيلة: "أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ"؛ يعني: هذا اليهودي يقول للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنكم تشركون يا معشر المسلمين.

"تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ"؛ يعني: هذا اليهودي يقول: إنكم تشركون، ووجه الشرك أنكم تقولون: ما شاء الله وشئت، لأن هذا قرن كما تقدم، قرن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ بمشيئة غيره.

"وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ"، وهذا قسم بالكعبة، اليهودي يقول: أنتم تشركون لأنكم تقولون: والكعبة وتقسمون بها.

"فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ"،هذا القول الصواب لأن الله عَزَّ وَجَلَّ رب الكعبة ورب جميع الخلق.

قال: "وَأَن يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ"، (ثم) تفيد التراخي والترتيب، فهي تدل على أن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ هي الأعلى، ومشيئة هذا العبد هي التي أقل فهي للترتيب.

فيقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قولوا هذا اللفظ،فيدل على أن هذا اللفظ جائز.

قال:**رواه النساء وصححه.**

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن اليهود يعلمون الشرك، ولذلك أتى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بمسائل من الشرك وأقره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر أمته أن ينتهوا عن مثل ما قال هذا اليهودي، ومع هذا يقعون في الشرك.

بل إنهم ينسبون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ النقائص تعالى الله وتقدس عن قولهم، فيقولون: أن له ولد؛ يعني: بعض اليهود يقولون: أن لله ولد، وبعضهم ينسب إليه النقائص فيقول: أنه يتعب، فلذلك يعرفون الشرك وينسبون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ النقائص.

وأيضًا يعرفون أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول من رب العالمين ولكنهم لا يقبلون الحق لحسد في أنفسهم، اليهود عندهم حسد ولذلك تركوا الحق بسبب الحسد، وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«يَامَعْشَرَالْيَهُودِ،وَيْلَكُمْ،اتَّقُوااللهَ،فَوَاللهِ الَّذِي لَاإِلَهَ إِلَّاهُوَ،إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّ يرَسُولُ اللهِ حَقًّا»، قالوا: لا نعلم ذلك.

ولذلك عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان من أحبار اليهود، وكان اليهود يحبونه حبًا كثيرًا لأنه عالم من علمائهم ويثنون عليه، فلما أسلم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، قال:«وماذا؟»، قال: انظر يا رسول الله اسألهم يا رسول الله عني قبل أن يعلموا عن إسلامي، فقال:«ما تقولون في عبد الله؟»، قالوا: صالح وابن صالح وسيدنا وشيخنا وعالمنا، وما نحو هذا من الكلام؛ يعني: هذا معنى كلامهم.

فخرج إليهم وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فقالوا: سيئنا وابن سيئنا وما رأينا مثله، فبدأوا يثنون عليه شرًا بعد أن كانوا يثنون عليه خيرًا، فهم يعرفون الحق، ولكن حال بسبب ذلك بينهم وبين الحق الحسد وهذا المعنى يطول.

ومن الفوائد: أنه لا يجوز قول ما شاء الله وشاء فلان، لأن هذا اليهودي أخبر أنه شرك وأقره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجوز أن يقول الإنسان ما شاء الله وشاء فلان.

ومن الفوائد: أنه لا يجوز الحلف بالكعبة، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك وأقر اليهودي على أنه شرك ولا يجوز.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نهى عن شيء أرشد إلى ما هو مباح، ولذلك لما نهى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ عن قول: ما شاء الله وشئت، أرشدهم إلى قول: "مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شِئْتَ"، وهذا جائز.

وأيضًا لما نهى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ عن الحلف بالكعبة أرشدهم إلى الصحيح أن يقولوا: "وَرَبِّ الْكَعْبَةِ"؛ يعني: خالقها خالق الكعبة، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الرب وما سواه مربوب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولـه أيضًا عن ابن عباس: أن رجلًا قال للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فقال: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وله**؛ يعني: للنسائي.

عن ابن عباس أن رجلًا،(رجلًا) هنا نكرة؛ يعني: لا يُعرف من هذا القائل، وإذا أُبهم من حدث له الحادثة في الحديث فهذا الإبهام له ثلاث فوائد، فائدة الإبهام ما هي؟ هي ثلاثة:

- إما أن يكون الراوي تعمد أن يخفي هذا الرجل، لأن الحكم ما يتغير، قال رجل: حصل من رجل كذا، الحكم ما يتغير.

- وإما أن يكون الراوي نسي فلأن لا يخطئ على أحد من الناس قال:قال رجل، فيدخل فيه هذا الرجل.

- وإما أن يكون الراوي قصد إخفاء الرجل إخفاء هذا الاسم، كأن يقول هذا الرجل قول: يستحي منه فأراد الستر عليه فقال: قال رجل، ما قال قال فلان،فهذا فائدة إخفاء من حصل له الحادثة في الحديث.

ولذلك قال:**أن رجلًا قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ**؛ يعني: هذا الرجل توجه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا اللفظ قال:**مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ**، فأنكر عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال:«أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟»، أجعلتني لله نظير؟

ثم أرشده فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:«أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»، فاعترف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لربه بالكمال وأن المشيئة النافذة هي مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنما هو عبد ورسول كريم.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن قول: ما شاء الله وشئت تنديد كما تقدم؛ بمعنى: أنه يجعل لله عَزَّ وَجَلَّ ند، والند: هو النظير والشبيه، فمن قال لشخص: ما شاء الله وشئت فقد جعله لله ند، الله عَزَّ وَجَلَّ ليس له ند وليس له نظير سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا مثيل.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينكر الشرك أشد إنكار، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينكر الشرك ولا يرضاه ويحاربه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أشد الحرب، ولذلك رد على هذا الشخص قال:«أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»، حتى ما أتى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ باللفظة المباحة ما قال ما شاء الله ثم شئت، بل قال:«مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»، فعظم الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن أفضل المراتب ما شاء الله وحده، هذا أفضل المراتب كما تقدم في التقسيم، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى بأفضل المراتب ولو كان فيه أفضل منها لأتى بها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولابن ماجه عن الطفيل -أخي عائشة لأمها- قال: "رأيت كأني أتيت علىٰ نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله! قالوا: وأنتم لأنتم القوم! لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

ثم مررت بنفر من النصارىٰ فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته، فقال: «**هَلْ أخبَرتَ بِها أَحَدًا**»؟ قلت: نعم، قال: فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «**أَمَّا بَعدُ؛ فإنَ طُفيلًا رأىٰ رُؤيا، أَخبَرَ بها مَنْ أَخبَرَ مِنكُم، وإنَّكُم قُلتُم كَلِمَةً كانَ يَمنَعُني كَذا وكَذا أَن أنهاكُم عَنهَا! فلا تقُولُوا: ما شَاء اللهُ وشَاء مُحمَّدُ، ولكن قُولُوا: ما شاء اللهُ وَحدَهُ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**ولابن ماجه.عن الطفيل -أخي عائشة لأمها-**؛ يعني: أخيها من أمها رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.

قال:**رأيت كأني أتيت**، رأيت؛ يعني: في المنام.

كأني أتيت على نفر من اليهود، النفر يعني: الجماعة.

قلت؛ يعني:لليهود.

قلت: إنكم لأنتم القوم؛ يعني: لأنتم القوم ونعم الرجال.

لولا, لولا حصول هذا الشيء منكم.

لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، عزير رجل قرأ التوراة وحفظ التوراة وادعوا فيه أنه ابن لله عَزَّ وَجَلَّ.

قالوا: وأنتم؛ يعني: رد اليهود.

قالوا: وأنتم لأنتم القوم؛ يعني: أنتم نعم القوم أيها المسلمون.

لولا؛يعني: لولا أن يحصل منكم هذا.

لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، هؤلاء اليهود لما أنكر عليهم الطفيل ردوا عليه قالوا: وأنتم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فأنكروا عليه.

ثم مررت بنفر من النصارى؛ يعني: بجماعة من النصارى.

فقلت: إنكم لأنتم القوم؛ يعني: نعم القوم أنتم ونعم الرجال.

لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، المسيح يعني: عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامَ، وسمي المسيح لأنه لم يمسح ذاعاهه إلا أشفاه الله عَزَّ وَجَلَّ بإذن الله.

وقيل غير ذلك، قال: ابن مريم.

قال: **وأنتم**، رد الجماعة من النصارى (قالوا: وأنتم لأنتم القوم)؛ يعني: نعم القوم أنتم أيها المسلمون.

لولا؛ يعني: لو لم يحصل منكم هذا.

لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، مثل ما قال اليهود.

فلما أصبحت؛ يعني: قمت من الصباح.

أخبرت بها من أخبرت؛ يعني: أخبرت من أخبرت من الناس.

ثم أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني: بعد ذلك، (فأخبرته)؛ يعني: أخبرته بالرؤيا.

فقال:«هَلْ أخبَرتَ بِها أَحَدًا»؟ قلت: نعم..

قال: فحمد الله؛ يعني: قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطيبًا.

فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال :«أَمَّا بَعدُ؛ فإنَ»، هذه الكلمة يؤتى بها للانتقال.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ :«فإنَ طُفيلًا رأىٰ رُؤيا»؛ يعني: في المنام.

«أَخبَرَ بها مَنْ أَخبَرَ مِنكُم، وإنَّكُم قُلتُم كَلِمَةً كانَ يَمنَعُني كَذا وكَذا أَن أنهاكُم عَنهَا».

يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ: كنتم تقولون كلمة وكان يمنعني عنها كذا وكذا.

وجاء عند أحمد: "أنه كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يمنعه الحياء"، والحياء؛ أي: الحياء من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن ينهى عن شيء لم يأمره الله عَزَّ وَجَلَّ بالنهي عنه، فالحياء من الله وليس

من الناس بل يستحي من ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن ينهى عن شيء والله عَزَّ وَجَلَّ ما أمره أن ينهى عنه، وليس الحياء من الناس الحياء المذموم الذي يُذم لا، بل هو الحياء من الله عَزَّ وَجَلَّ المحمود، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ استحيى من ربه أن ينهى عن شيء ما قال الله عَزَّ وَجَلَّ انهى عنه.

قال: «يَمنَعُني كَذا وكَذا أَن أنهاكُم عَنهَا فلا تقُولُوا»؛ يعني: هذه الرؤيا رؤيا حق.

«فلا تقُولُوا: ما شَاء اللهُ وشَاء مُحمَّدُ، ولكن قُولُوا: ما شاء اللهُ وَحدَهُ»؛ يعني: انتهوا عن هذه الكلمة لأن قد نُبهنا في هذه الرؤيا، فهذه الرؤيا حق وهي سبب للتشريع.

هذا الأثر فيه فوائد:

من فوائد الأثر: أن الرؤى قد تكون صادقة، لأن الطفيل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأى رؤيا ووقعت حق كانوا يقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، فهو رآه في المنام، رؤيا صادقة، وأيضًا أنكر على اليهود قولهم، فهي رؤيا حق.

ومن الفوائد: أن الرؤى قد تكون سبب لتشريع الأحكام ولكن هذا في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بعد مماته، وأما بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يعتمد على الرؤى والأحلام، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذه الرؤيا نهي عن هذا القول.

وأيضًا جاء في السنن من حديث زيد بن عبد ربه أنه رأى رؤيا في المنام أنه رأى رجل أذن في المنام وأقام، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ، فَقُمْ فألقها إلىٰ بلال»، فأذن بها فأصبح الأذان إلى يومنا هذا، وهو مشروع.

ففي حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كانت رؤيا حق فهي سبب للتشريع، أما بعد وفاته فلا يعتقد في الرؤى والأحلام وإنما يستأنس بها.

والرؤى التي يراها الإنسان في منامه هي أمثال يضربها الملك في أحداث قد تحصل للإنسان في المستقبل يطلعه الله عَزَّ وَجَلَّ عليها، وهي قد تكون محذرة، وقد تكون مبشرة، إذا كانت من الله عَزَّ وَجَلَّ قد تكون محذرة وقد تكون مبشرة.

ولذلك جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ، لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ».

وجاء في الحديث الآخر أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح».

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ :«إنه لم يبقىٰ من النبوة إلا المبشرات»، فيبشر الإنسان بحصول أمر يحصل له في المستقبل، أو يحذر من شيء يقع عليه في المستقبل، وما يراه الإنسان في منامه لا يخلو من ثلاث أقسام:

القسم الأول: ما هو من الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو أن يبشره أو يحذره، وما أشبه ذلك، فهو من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إما يبشر الله عَزَّ وَجَلَّ عبده المؤمن الصادق، وإما أن يحذر الله عَزَّ وَجَلَّ عبد من الناس لأجل أن يرتدع رحمة منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

القسم الثاني: حديث النفس وهو ما يحدث به الإنسان نفسه، تجد أن الإنسان يحدث نفسه بأمر ويشغله ثم يراه في المنام كأنه يحصل.

فمثلًا: راعي غنم يرى أنه يرد هذه الأغنام ويأتيها من الخلف ويأتيها من هنا ومن هنا، ثم ينام فيرى في المنام أنه يحصل من هذا، فيسمى حديث نفس.

وأيضًا لو كان -مثلًا- رجل يطلب العلم -مثلًا- فيرى أنه يقرأ وأنه يكتب وأنه يأتي بهذه الكلمة ويكتب هذه الكلمة ثم ينام ويرى هذا في المنام، فيسمى حديث نفس.

وأيضًا امرأة -مثلًا- حامل -تحدث نفسها أنها تلد وأنه يخرج الولد منها وأنها كذا وكذا ثم تنام فترى هذا في المنام، فيسمى حديث نفس، هذا ليس له أثر.

القسم الثالث: تهويل من الشيطان؛ يعني: تخويف وترهيب من الشيطان يريد أن يخوف هذا الإنسان ويدخل عليه الأحزان.

ولذلك جاء في الحديث أن رجلًا أتى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله ما رأيت من رأسي البارحة انقطع فتبعته، فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «لَاتُخْبِرْبِتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بِكَ فِي الْمَنَامِ».

والتهويل، الغالب: يكون غير مميز لا يوجد له رموز إما يرى أنه يسقط من جبل ويتقطع، أو أنه يرى أنه يأتيه شيء يخيفه، ويكون الأحداث التي يراها في المنام تتغير مرة يرى رجل، مرة امرأة، مرة قريب، مرة بعيد، فلا يكون مميز الحلم.

فهذا الإنسان عليه أن يستعيذ بالله وينفس عن يساره ثلاثًا ولا يحدث أحد بهذا الشيء، وإذا رأى الإنسان الشيء يفرحه بشرى -مثلًا- أنك ستفوز بكذا -مثلًا- أو تنجح بكذا، أو يأتيك مولود أو نحو ذلك، فهذا يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ على هذه الرؤيا ويحدث بها من يحب فقط، ويحذر من الناس الذين قد يحسدونه.

ولذلك يعقوب عَلَيْهِ السَّلاَمَ قال لابنه يوسف: ﴿يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾[يوسف: ٥]، وكانت رؤياه مبشرة أنه سيؤتيه الله عَزَّ وَجَلَّ ملك، وأنه سيكرمه يُكرم بهذا الملك فقال: لا تخبر إخوتك بهذه الرؤيا.

أما من يحب فيجوز له أن يخبره لأنه لا يحسدك في الغالب يحب لك الخير.

الثاني: أن يرى الإنسان شيء يخيفه؛ يعني: يحدث له في المستقبل أمر يخيفه، فهذا عليه أولًا: أن يستعيذ بالله عَزَّ وَجَلَّ ثلاثًا، وينفس عن يساره ثلاثًا، فيقول -مثلًا-: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاث مرات، وأيضًا ينقلب على جنبه الآخر فإن كان مضطجع على اليمين ينقلب إلى اليسار، وإذا كان مضطجع على اليسار ينقلب إلى اليمين.

وأيضًا الثالث: ألا يحدث أحد فإنها لا تضره، كما جاء في الحديث قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ».

وأيضًا الرابعة: أنه يقوم فيصلي لله عَزَّ وَجَلَّ، يقوم يصلي ما شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فَمَنْ رَأَى رُؤْيَا فَكَرِهَ مِنْهَا شَيْئًا فَلْيَنْفُثْ عن يساره،وليتعوذ مِنَ الشَّيْطَانِ، فأنها لَاتَضُرُّهُ وَلَايُخْبِرْبِهَا أَحَدًا».

وفي الحديث الآخر قال: «وَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِ».

وأما إذا رأى من الشيطان؛ يعني: تهويل من الشيطان فعليه أن يسكت ولا يخبر أحد، لأن الشيطان يحرص على أذء هذا المسلم، ولكن عليه أن يتحرز بالأذكار الشرعية، فيقرأ آية الكرسي، ويقرأ أذكار النوم، ويستعيذ بالله من الشيطان، فإنه إذا فعل ذلك لا يأتيه إن شاء الله الشيطان.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يستحي من الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينهى عن شيء لم يأمره الله عَزَّ وَجَلَّ به، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، إنما هو وحي يوحى إذا أمره الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء بلغه، وإذا لم يأمره بشيء سكت عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

فلذلك سكت عن هذا اللفظ ولم يرضيه ما رضي به ولكنه سكت، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمره بالنهي.

ولذلك لما كان في أول الإسلام كان شرب الخمر مباح ما كان ينهى عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، حتى نزل النهي عن الخمر، فنهى عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ وحذر منه.

فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ كان يستحي من ربه لا ينهى عن شيء إلا ما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينهى عنه.

ومن الفوائد: أن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ نافذة وأنها كاملة وأنه لا يجوز للإنسان أن يشارك الله عَزَّ وَجَلَّ مع غيره في اللفظ، ومن باب أولى في الاعتقاد، أن يعتقد أن لله مثيل أو شبيه كما يفعل الممثلة الذين يقولون: أن يد الله -مثلًا- مثل يدي، أو سمع الله كسمعي، فهذا كفر، الذي يعتقد أن لله مثيل فهذا كافر، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ومن الفوائد: أن الله عَزَّ وَجَلَّ له مشيئة، وأن العبد له مشيئة، فالله عَزَّ وَجَلَّ يوصف بأن له مشيئة ومعنى مشيئة معروف ولكن كيف مشيئة الله؟ الله أعلم بذلك، والعبد له مشيئة، ومشيئة العبد معلومة، والمشيئة هي الميل إلى الشيء وإرادته هذه تسمى مشيئة، إذا

أراد أن يفعل شيء ومال إليه فهذه تسمى مشيئة، هذا من حيث المعنى، وأما كيفية مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يعلمها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا فيه رد على الذين ينفون صفات الله زعمًا منهم أن إثبات الصفات تشبيه، وليس الأمر كذلك، بل إثبات الصفات هو الحق، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ وصف نفسه، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الإنسان: ٣٠]، الله عَزَّ وَجَلَّ وصف نفسه أن له مشيئة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف ربه بأن له مشيئة قال: «وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»، فالله عَزَّ وَجَلَّ وصف نفسه بأن له صفات، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف ربه بأن له صفات.

فكيف يأتي إنسان من الناس ويقول: هذه الصفة لا تثبت لله؟! كيف ينفي عن الله عَزَّ وَجَلَّ ما وصف به نفسه ووصف به رسوله الذي أعلم بربه منك؟! كيف تنفي عن الله عَزَّ وَجَلَّ؟!

لا يخاف الإنسان من إثبات صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، بل عليه أن يثبت فيقول: نعم الله عَزَّ وَجَلَّ أثبت أن له صفات، ولكن يعتقد أن صفة الله عَزَّ وَجَلَّ ليست كصفة الإنسان، فالمشيئة من حيث الإطلاق لفظ مشترك، ولكن من حيث التخصيص ينتفي المشابه، إذا قلت: مشيئة الله فهنا لا يشابه أحد فيها، وإذا قلت: مشيئة الإنسان فهي على حسب نقصه وضعفه.

فالقاعدة: أن يثبت ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ لنفسه وأثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينفي المماثلة والمشاركة في هذه الصفات، كما أن الله عَزَّ وَجَلَّ نفى عن نفسه المشابهة, قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم: ٦٥].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من سب الدهر فقد آذى الله

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من سب الدهر فقد آذى الله.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان سب الدهر متضمن للشرك أو منقص للتوحيد،أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليحذر من ذلك، فسب الدهر متضمن للشرك الأكبر، نعتقد أن الدهر هو الذي يدبر الأمور ومتضمن لتنقص الله عَزَّ وَجَلَّ إن كان يعتقد أن الله الفاعل، ولذلك أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب.

قال:**باب من سب الدهر**، السب: هو الشتم.

قال:**سب الدهر**، الدهر: هو الزمن.

قال:**فقد آذى الله**.

فقد؛ يعني: حصل منه.

آذى الله؛ يعني: حصل منه أذى لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وسب الدهر على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: أن يسب الدهر اعتقادًا منه أن الدهر هو الذي يقلب الليل والنهار، يعتقد أن الدهر هو الذي يقلب الأمور ويصرف الأشياء، هذا شرك أكبر لأنه جعل مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خالقين.

الثاني: أن يسب الدهر ويعتقد في قلبه أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يدبر الأمور ولكن يسب الدهر لأنه وقع له فيه أذى، فهذا محرم ولا يجوز، وهو يعود في الحقيقة السب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن فاعل هذا الشيء لا يكفر لأنه لما سب ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ وإنما أراد الزمن.

الثالث: أن يصف الدهر من باب الخبر، كأن يقول مثلًا: اليوم حر، أو هذا اليوم كثير الغبار وتعبنا في هذا اليوم من كثرة الغبار،فهذا جائز؛ لقوله تعالى:}فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ{[فصلت: ١٦]؛ يعني: أيام مشؤمات.

فإذا كان من باب الخبر أو الوصف الذي لا يريد بها السب فهذا جائز، والأولى ترك ذلك.

وسب الدهر لا يجوز لأن الذي يدبر الأمور هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، الليل والنهار والمطر والغبار هذا لا يأتي بنفسه وإنما الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يدبره ويرسله.

ولذلك جاء عند ابن ماجه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ مِنْ خَيْرِهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا» .

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ:}وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ{[الجاثية: ٢٤].

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**وقول الله تعالى:**}وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ{[الجاثية: ٢٤].

في هذه الآية الكريمة يُبين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حال الكفار أنهم يقولون: أنا نحيا ونموت بهذه الدهور وليس هناك بعث ولا نشور ولا غير ذلك، وإنها يموت البعض ويحيي البعض، فأنكر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عليهم.

قال:**وقول تعالى:**}وَقَالُوا{؛ يعني: الكفار.

}مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا{؛ يعني: ليس هناك إلا هذه الحياة.

}مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا{، التي نعيشها الآن.

}نَمُوتُ{؛ يعني: نموت نحن،}وَنَحْيَا{؛ يعني: أبناؤنا فيموت البعض ويحيي البعض.

}وَمَا يُهْلِكُنَا{؛ يعني: ما يقضي علينا وما يكون سبب في موتنا،}إِلَّا الدَّهْرُ{؛ يعني: إلا الزمن وطول الأيام، فإذا مضى للإنسان مدة في الزمن مات وانقضى ثم يأتي آخرون، فهم يعتقدون أنهم يحيون ويموتون بسبب الدهر، فرد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عليهم، ففيها أنهم ينسبون الأمور للدهر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقلِّب اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**». وفي رواية: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: : وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال اللهُ تَعَالَىٰ»، هذا يسمى الحديث القدسي, وهو من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لفظًا ومعنى، ومن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبليغًا.

«قال اللهُ تَعَالَىٰ»؛ يعني تعالى في ذاته وفي أسمائه وفي الصفات سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: «يُؤْذِينِي»؛ يعني: يحصل من ابن آدم لله عَزَّ وَجَلَّ أذى، والأذى هو ما خف أثره، ولله المثل الأعلى كالكلام السيء بالنسبة للإنسان، فالأذى هو ما يخف أثره ولا يصل إلى الشيء، فمثلًا ولله المثل الأعلى قد يتأذى الإنسان من الكلام ولكن لا يصل إليه ضرر.

قال: «ابْنُ آدَمَ»؛ يعني: الإنسان.

«يَسُبُّ الدَّهْرَ»؛ يعني: يشتم الدهر يشتم الزمن،كأن يقول: هذه ساعة سيئة، لعن الله هذا اليوم الذي عرفتك فيه، أو لعن الله هذه الساعة التي رأيت وجهك فيها، أو لعن الله هذا الغبار.

«وَأَنَا الدَّهْرُ»، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «وَأَنَا الدَّهْرُ»؛ أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يقلبه فهو الفاعل لهذا التقليب؛ ولذلك قال: «أُقلِّب اللَّيْلَ وَالنَّهَار»؛ أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يقلب الليل والنهار فيذهب الليل ويأتي النهار، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يفعل ذلك.

قال:وفي رواية: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ»، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذه الرواية لأن فيها النهي الصريح.

قال: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ»؛ يعني: لا تشتموا الدهر.

«فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»؛ أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يقلب الدهر،فإذا سببتم الدهر فإن هذا يقع على مقلبه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد يؤذيه ابن آدم، قد يؤذي الإنسان الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولكن لا يضره سبحانه لأن هناك فرق بين الأذى وبين الضرر:

فالأذى قد يصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من المخلوق، والأذى هو كالكلام السيء كأن يقول: لله ولد، أو يقول مثلًا كقول اليهود -عليهم من الله ما يستحقون- يقولون: أن الله لما خلق السماوات والأرض تعب فاستراح، فهذا أذى لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هذا يسمى أذى، وهذا لا يصل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وإنما هو كلام قد يتأذى الله عَزَّ وَجَلَّ منه، وليس كمثله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى شيء؛ ولذلك قال الله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}[الأحزاب: ٥٧]، فأثبت الله عَزَّ وَجَلَّ أن الإنسان قد يؤذيه.

وأما الضرر فلا يصل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى القهار الذي قهر الخلق، وهو الجبار سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فلا يمكن أن يصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ الضرر أبدًا، والضرر هو الذي يصل إلى الشيء، كالضرب للإنسان هذا يسمى ضرر، أو تفقع عينه هذا يسمى ضرر، أو تقطع يده هذا يسمى ضرر، وأما الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يصل إليه الضرر.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في الحديث القدسي في صحيح مسلم: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي».

والدليل على أن الأذى غير الضرر: قوله تعالى قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى}[آل عمران: ١١١]، فنفى سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الضرر وأثبت الأذى، فالكفار لا يمكن أن يضروا المسلمين وإنما قد يؤذونهم بألسنتهم بالسب والشتم ونحو ذلك، أما الضرر فلا يصلون إليهم نفاه الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم.

فالمراد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد يتأذى من الخلق ولكن لا يلحقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ضرر من الخلق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو القهار الجبار الذي قهر الخلق وله العزة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من جميع الوجوه: عزة الامتناع؛ أي: أنه لا يصل إليها أحد في ضرره سبحانه، وعزة القهر، وعزة الغلبة، فله العزة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن الإنسان قد يؤذي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كما لو سب الدهر، فإذا سب الإنسان الدهر فإنه يؤذي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإذا قال مثلًا: لعن الله الساعة هذه التي عرفتك فيها، أو لعن الله هذا الغبار أذانا، أو يشتم الدهر، فإن هذا يعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن هذا الدهر مدبر مفعول والفاعل الله عَزَّ وَجَلَّ، هذا الدهر مفعول والفاعل له الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو الذي يدبره، فإذا سب الإنسان الدهر فإنه يعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن الدهر ليس من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ، لأنه قال:« وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقلِّب اللَّيْلَ»، فدل على أن المقلِّب ليس هو المقلَّب، ولذلك قال:«وَأَنَا الدَّهْرُ».

ثم فسر ذلك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فقال:«أُقلِّب اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، فالمقلَّب هو الدهر، والمقلِّب هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فليس الدهر من أسماء الله، ولذلك ينبه على أن الدهر ليس من أسماء الله لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الدهر اسم جامد، وأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كلها تحمل معاني، وأما الدهر ليس له معنى.

الوجه الثاني: أن الدهر مقلَّب، والله عَزَّ وَجَلَّ هو المقلِّب، فليس المقلَّب هو المقلِّب، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يقلِّب الدهر والدهر هو الزمن والله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يقلبه.

الثالث: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنكر على المشركين أنهم قالوا: ما يهلكنا إلا الدهر، فلو كان الدهر من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ لما أنكر الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم لكان كلامهم صحيح، فقالوا: ما يهلكنا إلا الدهر؛ يعني: الله، لكان الكلام صحيح ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ أنكر عليهم أنهم أرادوا بالدهر الزمن.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ} :وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ{؛ يعني: الزمن.

ومن الفوائد: أن الذي يقلب الليل والنهار هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهذا الليل وهذا النهار إنما هو مفعول؛ بمعنى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يدبره، فهذه المخلوقات التي تتقلب وتتغير إنما هي يُفعل بها كذا، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يدبرها.

ومن الفوائد: أنه على المسلم أن يحذر من سب الدهر لئلا يقع في سب ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإذا سب الإنسان الدهر فإنه يعود السب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, مع أن المسلم لا يريد ذلك ولو أراد الإنسان ذلك لكفر، لو أراد أن يسب الله عَزَّ وَجَلَّ لكفر، ولكنه يريد الزمن ولا يريد الله عَزَّ وَجَلَّ, ولكن السب يعود إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال في الحديث القدسي: «يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ».

وأمثلة سب الدهر كثيرة، كأن يسب –مثلًا– الإنسان الرياح يقول: لعنة الله على هذه الرياح، ما أقبح هذه الرياح، أو يسب اليوم يقول: لعنة الله على هذا اليوم، أو ما أقبح هذه الساعة، هذا سب، أو يقول: هذا يوم ما أشين هذا اليوم فيسب الدهر، فالمراد: أن السب والشتم الذي فيه تنقص فإنه يسمى سب.

ومن الفوائد: أن سب الدهر يُضعف توحيد العبد، وذلك على المسلم أن يُعظم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والذي يسب الدهر يؤذي ربه عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان الموحد يجب عليه أن لا يشرك مع ربه أحدًا في أسمائه وصفاته مما اختص الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ به من الأسماء،والصفات أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب لينبه على التحذير من ذلك.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب التسمي**) ،(**التسمي**) السين والتاء تدل على الطلب،(**التسمي**) من السيمة وهي العلامة على الشخص.

وقيل: أنه العلم على الشخص، فالاسم هو العلم على الشخص.

بقاضي، القاضي هو الحاكم الذي يقضي بالحكم.

بقاضي القضاة؛ يعني: بالذي يقضي على القضاة ويحكم عليه.

ونحوه؛ يعني: ما يكون في منزلة هذه الأسماء، كقول ملك الملوك ونحو ذلك، فهذه الأسماء كقول ملك الملوك وغيرها من الأسماء التي تشبه هذا الاسم.

ففي هذا الباب أنه لا يجوز للإنسان أن يتسمى بالأسماء التي تشعر بمشاركة الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك أن أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ تنقسم إلى قسمين:

أسماء اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بها كالرحمن، وكرب العالمين، فهذه الأسماء إذا جُعلت في غير الله فقد وقع الإنسان في الشرك، إذا سمى الإنسان غير الله عَزَّ وَجَلَّ برب العالمين فقد وقع في الشرك في الأسماء والصفات.

الثانية من الأسماء: ما يطلق على الله عَزَّ وَجَلَّ ويطلق على غيره، كالملك والعزيز والقوي، فهذا لا يجوز لإنسان أن يجعل لغير الله منتهى هذه الاسماء،كأن يقول: ملك الملوك لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، كأن يقول: فلان ملك الملوك فهذا مشاركة لله عَزَّ وَجَلَّ، لأن في الحقيقة ملك الملوك هو الله وحده لا شريك له.

فالملوك نواصيهم بيد الله عَزَّ وَجَلَّ فهو الذي يتصرف فيهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ كيف يشاء، وهم فقراء إليه فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الغني، وأما الملوك فهم فقراء إلى الله.

فإذا قال الإنسان مثلًا: فلان ملك الملوك، فهنا كأنه جعل ما لله لغيره، وأيضًا لو قال: أقوى الأقوياء، أو أعز الأعزاء، هذا لا يجوز لأن أعز الأعزاء هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ، فكل

عزيز عند الله عَزَّ وَجَلَّ ذليل، كل عزيز من الخلق مهما وصل من العزة فإنه لله ذليل والله الذي له العزة المنتهيه، وأيضًا كل قوي فهو عند الله ضعيف، فمهما بلغ الإنسان من القوة فإنه عند الله ذليل ضعيف، لا يعدوا أن يكون بشر فقير.

وأيضًا يدخل في هذا النهي أن يقول مثلًا: قاضي القضاة، كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هنا، لأن قاضي القضاة هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو الذي يحكم في كل حاكم،وهو الذي يقضي سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولكن إذا أتى الإنسان بأسماء لا تدل على مشاركة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، يعني يقول مثلًا: قاضي قضاة مصر –مثلًا– أو قاضي قضاة كذا وكذا، فهذا أخف لأن هذا يفهم منه أنه قاضي قضاة للبشر هذا أخف.

وإن كان الأحواط للإنسان أن يبتعد عن مثل هذه الأسماء، لأن هذه تشعر الإنسان بالزهو والفخر، فإذا قيل له: أنت قاضي قضاة مصر –مثلًا– رأى في نفسه والأفضل أن يقال له: قاضي أو رئيس القضاة–مثلًا– فهذا جائز.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الْأَمْلَاكِ،لا مَالِكَ إِلَّا اللهُ».

قال سفيان: "مِثْلُ شاهَانْ شَاهْ".

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**وفي الصحيح**: صحيح البخاري.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ أَخْنَعَ»؛ يعني: أوضع.

«اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ»،(رَجُلٌ) نكرة فتشمل من وقع عليه.

«تَسَمَّىٰ»؛يعني: سمى نفسه.

«مَلِكَ الْأَمْلَاكِ»، يسمى نفسه أنه ملك الأملاك،فهذا من أوضع الناس عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولذلك قال:«لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ»، فلا مالك في الحقيقة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والإنسان ملكه مقيد.

قال سفيان: أحد السلف.

"مِثلُ شاهَانْ شَاهْ" هذه ببعض اللغات و يطلق شاهان شاه؛على: ملك الأملاك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي رواية: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ القيامةِ وأَخْبَثُهُ». قوله: «أَخْنَعُ»؛ يعني: أَوْضَعَ.

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه اللهُ:

قال: وفي رواية:«أَغْيَظُ»؛ يعني: أغيظ الرجال.

«أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ»، والغيظ شدة الغضب.

«أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ القيامةِ»؛ يعني: يوم القيامة من أشد الناس الذين يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم.

«وأَخْبَثُهُ»؛ يعني: وأخبث هؤلاء الرجال، ولذلك فسر ذلك قال:قوله:«أَخْنَعُ»؛ يعني: أَوْضَعَ.

في هذا الحديث فوائد:

الرواية الأولى والثانية فيها فوائد:

من فوائد الحديث: أن الإنسان إذا استعمل الأسماء التي لا تجوز إلا لله عَزَّ وَجَلَّ فإنه يذل، فيذله الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إذا سمى نفسه –مثلًا– ملك الأملاك، أو قاضي القضاة، أو حاكم الحكام، فإن هذا يذله الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أنه لا يجوز للناس أيضًا أن يسموا الإنسان بهذه الأسماء، كملك الأملاك، لا يقال أن رجل من الناس هو ملك الأملاك، فهذا لا يجوز لهم أن يسموه ولا يجوز له أن يرضى إن سمي بذلك، فإن لم يرضى لم يضره، وإن رضي فإنه مثلهم في الإثم.

ومن الفوائد: أنه لا ملك في الحقيقة إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأما الأملاك التي لغير الله عَزَّ وَجَلَّ إنما هي أملاك مقيدة، الذي في يد الإنسان هو ملك مقيد، وأما المالك على الحقيقة فهو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك جاء في صحيح مسلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يقول لعبد يوم القيامة: «ما فعلت في مالي الذي آتيتك أو ملكتك؟»، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في الحديث: «ما فعلت في مالي الذي ملكتك؟»، فهو ملك مقيد عند الإنسان.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ}[الحجر: ٢٣]؛ أي: أن الأملاك تعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لأنه هو الذي يملكها، وأما ملك الإنسان فهو مقيد، ولذلك الإنسان لو كان يملك عمارات وسيارات -مثلًا- وقال: أريد أن أهدم هذه العمارات وأحرق هذه السيارات، نقول: يحرم عليك ولا يجوز لك أن تفعل ذلك، لأن هذا المال مال الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يجوز لك أن تتصرف فيه إلا بما أباح الله عَزَّ وَجَلَّ لك.

ولذلك لا مالك على الحقيقة للأشياء والأمور إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فكل من في السماوات والأرض وما يملكون وهم ملك لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا مَالِكَ -يعني: علىٰ الحقيقة- إِلَّا اللهُ»، وإنما الإنسان يملك ملك مقيد.

ومن الفوائد: أن الإنسان قد يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه ويسخط عليه ويبغضه بسبب منازعة الله عَزَّ وَجَلَّ في أسمائه وصفاته، فالإنسان إذا أراد أن يتكبر ويتجبر ويدعو الناس إلى إطرائه ويريد أن يكون ما لله من الأسماء والصفات له فإنه يذله الله عَزَّ وَجَلَّ ويبغضه.

فعلى الإنسان أن يحذر من التسمي بهذه الأسماء التي قد يشعر منها أنه شارك لله عَزَّ وَجَلَّ في أسمائه وصفاته.

ومن الفوائد: أن الشرك قد يقع في الأسماء والصفات، وذلك أن الشرك ينقسم إلى قسمين:

- الأول: شرك بمعناه العام، وهذا يدخل في الأسماء والصفات وفي الربوبية والألوهية، ولذلك من سمى نفسه الرحمن فقد وقع في الشرك، ومن قال مثلًا: أن غير الله يعلم الغيب فقد وقع في الشرك، ومن قال: أن غير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يخلق ويرزق كرزق الله فإنه وقع في الشرك، وهكذا، ومن عبد غير الله فإنه وقع في الشرك.

- الثاني: الشرك بمعناه الخاص، وهو أن يجعل لله عَزَّ وَجَلَّ ندًا يدعوه ويخافه ويرجوه، كما يدعو الله ويخاف الله ويرجو الله، وهذا الغالب في القرآن الكريم والسنة أن النهي عن هذا النوع.

ومن الفوائد: أن المسلم عليه أن يتسمى بالأسماء التي ليس فيها نزاع لا ينازع الله عَزَّ وَجَلَّ فيما هو من حقه.

ومن الفوائد: أن لله عَزَّ وَجَلَّ حقوق لا يجوز أن تُصرف لغيره، فمن حقوق الله عَزَّ وَجَلَّ أن يسمى بأعظم الأسماء التي تسمى بها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا سمى غير الله عَزَّ وَجَلَّ بالأسماء التي يختص الله عَزَّ وَجَلَّ بها فإن هذا سبب في وقوعه في الشرك، فلو سمى أحد غير الله عَزَّ وَجَلَّ برب العالمين أو الرحمن أو غير ذلك مما هو من خصائص الله فقد وقع في شرك الأسماء والصفات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب احترام أسماء الله تعالىٰ وتغيير الاسم لأجل ذلك

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان التسمي بأسماء اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بها يُخلّ بالتوحيد أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليحذّر من ذلك وينبّه عليه.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب احترام.**

الاحترام كلمة يراد بها التقدير, ونحوها من الكلمات التي يكون للشيء حرمة, يعني يكون له حرمة, ومنه المرأة تسمى حرمة لأنها يُمنع من القرب منها الرجال الأجانب.

فالاحترام هو احترام الشيء, بمعنى تجعل له حُرمة.

قال:**أسماء الله.**

أسماء الله؛ يعني: التي تدل على الله عَزَّ وَجَلَّ, وأسماء الله هي التي تدل على ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وعلى صفاته.

والاسم هو ما دل على المسمّى.

قال:**أسماء الله تعالى وتغيير.**

التغيير يعني الذهاب بشيء ويؤتى بغيره.

وتغيير الاسم لأجل ذلك: يعني: لأجل أن الله عَزَّ وَجَلَّ اختص بها فتُغير.

ففيه أن الإنسان عليها ألا يتسمى بأسماءٍ اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بها, أو يتسمى باسم يحمل صفة, كما سيأتي في الحديث إن شاء الله.

وأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما يُسمى به الله ولا يجوز أن يُسمى به غيره, كالرحمن وكرب العالمين, فهذا اسم يختص الله عَزَّ وَجَلَّ به وإطلاقه على غيره شرك, شرك في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته, فهذا مما يختص الله عَزَّ وَجَلَّ به ولا يسمى به غير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الثاني: ما يُطلق على الله عَزَّ وَجَلَّ ويُسمى به غيره, كعزيز ورحيم, فهذا إطلاقه على غير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يصح في صورتين:

الصورة الأولى: أن يُقرنبـ(ال), فيقال مثلًا: العزيز, لأن (ال) تدل على كامل المعنى.

الصورة الثانية: أن يُطلق على غير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويراد به الصفة, كأن يكون هذا المخلوق متصف بهذه الصفة فيطلق عليه الاسم, مثلًا إنسان عنده حكمة فيقال فلان حكيم يسمى حكيم, أو الحكيم, فهنا لاينبغي.

الثانية أن يكون الإنسان متصف بصفة فيسمى بالاسم الذي يوافقها, كما لو كان رجل مثلًا فيه حكمة فيقال فلان الحكيم, لأن هذا من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فهو الذي له الأسماء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى المتضمنة للصفات.

أما إذا سُمي بها غير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأريد الاسم بغض النظر عن الصفة ولم يقترن بـ(ال) فهذا جائز, كأن يقال فلان رحيم, وإن كان ليس فيه رحمة, أو يقال فلان عزيز ويكون ليس فيه عزة, أو يقال فلان حكيم ويكون ليس فيه حكمة,فهذا جائز.

وهنا قواعد في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته:

فمن هذه القواعد: أن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أعلام وأوصاف, فمن حيث دلالتها على الذات فهي أسماء, ومن حيث دلالتها على الصفات فهي تدل على الصفة.

فمثلًا: الرحمن من أسماء الله, يدل على ذات الله, فإذا قلت يا رحمن, فأنت تريد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

أيضا تدل على الصفة, يعني الذي يتصف بالرحمة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى. وإذا شئت أن تقول أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ من حيث دلالتها على الذات مترادفة, ومن حيث دلالتها على الصفات متباينة.

فمثلًا: الرحمن والعزيز والرحيم والقدوس والملك, يدل على ذات واحدة وهي ذات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ومن حيث دلالتها على الصفات فهي متباينة, فالرحمن يدل على صفة الرحمة, والعزيز يدل على صفة العزة, والقوي يدل على صفة القوة, ومعنى القوة يختلف عن معنى الرحمة, ومعنى الرحمة يختلف عن معنى العزة, وهكذا.

الثاني: أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إذا كانت متعدية فلابد إذا آمنت بها أن تؤمن بثلاثة أمور:

الأول: الاسم, أنه من أسماء الله.

الثاني: الصفة.

الثالث: الأثر.

فمثلًا: العليم من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ, فلابد أن تؤمن أنه من أسماء الله العليم, وتؤمن أيضًا بالصفة أن الله عَزَّ وَجَلَّ متصف بالعلم, وأيضًا تؤمن بالأثر, أي أنه يعلم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, عليم بكل شيء.

فلابد من هذه الأمور الثلاثة.

وإذا كانت غير متعدية فلابد أن تؤمن بأمرين:

الأمر الأول: أنه اسم من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثاني: أن تؤمن بالصفة, كالحي, الحي تؤمن بأنه اسم من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ, وتؤمن بصفة الحياة, وهذه الحياة لازمة لذات الله عَزَّ وَجَلَّ لا تتعدى للمخلوق.

ومن القواعد: أن أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه.

وقسم علمه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أحد من خلقه.

الثالث: قسم استأثر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى به في علم الغيب عنده.

والدليل على هذه الأقسام: ما جاء عند أحمد من حديث ابن مسعود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ».

ومن القواعد أيضًا: أن أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ تنقسم إلى قسمين -كما تقدم-:

قسم لا يسمى به إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, كالله والرحمن, وهذا من خصائص الله, لا يسمى به غيره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقسم يسمى به غير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ولكن إذا سُمي به غير الله فهو فيما يختص بحاله الضعيف, وإذا سمي به الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فله كامل المعنى.

فمثلًا العزيز, الله عَزَّ وَجَلَّ عزيز, ومن المخلوقين من يكون عزيز, ولكن إذا قلت العزيز وتريد الله عَزَّ وَجَلَّ فله كامل المعنى, يعني العزة المنتهية, منتهى العزة له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وإذا قلت للمخلوق فلان عزيز, فتريد عزة تليق به وبضعفه, وليست عزة منتهية,

لأنه ذليل لله عَزَّ وَجَلَّ, ولأنه قد يُغلب حتى من الخلق, أما عزة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فلا غالب له, فله منتهى العزة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهكذا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن أبي شريح أنه كان يُكنىٰ أبا الحكم، فقال له النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**» قَالَ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**». قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**». رواه أبو داود وغيره.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**عن أبي شريح أنه كان يُكنى.**

يُكنى: يعني يُلقب.

والكنية: ما صُدِّر بأم أو أب.

واللقب: ما أشعر بمدح أو ذم, كالفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يشعر بمدح, فهذا لقب.

ولذلك يقال عمر لُقِّب بالفاروق, و كأبي جهل, فهذا لقب و يشعر بأنه متصف بالجهل.

قال:**أنه كان يُكنى أبا الحكم.**

من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ الحكيم, ومن صفات الله عَزَّ وَجَلَّ أنه الحكم.

ولذلك له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ**»؛ يعني هو الحاكم بين عباده عَزَّ وَجَلَّ بحكمه الكوني و حكمه الشرعي,«**وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**»؛ يعني: إليه يتحاكم الخلق عَزَّ وَجَلَّ.

فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ: يعني تنازعوا في شيء, والاختلاف هوالتنازع في شيء من الخُلف.

فِي شَيْءٍ: يعني: في أي شيء,**أَتَوْنِي**:يعني: جاؤوا إليَّ,**فَحَكَمْتُ**: يعني: قضيت,**بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ**:يعني: رضي هؤلاء وهؤلاء بما قضيت لهم.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«مَا أَحْسَنَ هَذَا»؛ يعني: ما أحسن هذا الفعل منك.

والمراد هنا ما أحسن الإصلاح بين الناس,.

ثم قال:«**فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟**».**قَالَ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ:**«**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**»؛ يعني: من أكبر أولادك؟

قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ:«**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**»؛ يعني: من اليوم فتتكنى بأبي شريح.

قال:**رواه أبو داود وغيره.**

في هذا الحديث فوائد:

من فوائد الحديث: أنه لا يسمى غير الله عَزَّ وَجَلَّ بأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ إن أريد الصفة.

فمثلًا يكون الإنسان حكيم فيقال فلان أبا الحكيم ونحو ذلك.

فإذا كان المراد الصفة فلا يتسمى بها؛ لأن من احترام أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ أن لا يسمى غير الله بأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ التي تحمل صفة, فهذا من باب الاحترام.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الحكم, ومن أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ الحكيم.

والحكيم له معنيان:

الأول: الحاكم بين عباده, فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يحكم بين عباده بحكمه الكوني وبحكمه الشرعي.

الثاني: الحكمة, وهي وضع الشيء في موضعه, وحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حالية وغائية.

حالية كحال بعض العبادات مثلًا, فالصلاة مثلًا فيها ركوع وسجود, فهذا حالية, وإن شئت أن تقول صورية,يعني على هذه الصورة.

الثاني: غائية, يعني الغاية من هذه العبادة وهي الذل والخضوع لله عَزَّ وَجَلَّ والاستكانة, فالسجود مثلًا ذل لله,وهذا حكمة.

وأيضا تقدم أن من معاني الحكيم الحاكم, الحاكم بين عباده بحكمه الكوني وحكمه الشرعي, فالله عَزَّ وَجَلَّ يحكم كونًا, وحكم الله الكوني لابد أن يقع, فهو يحكم كونًا بالشيء

فيقع, لابد أن يقع, وهذا قد يكون فيما أحبه الله عَزَّ وَجَلَّ وقد يكون فيما لا يحبه الله لذاته, فهو يحكم كونًا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

أيضًا يحكم بين عباده بحكمه الشرعي, وهذا لا يكون إلا فيما يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ, فيحكم بوجوب الصلاة, ويحكم بالنهي عن المعاصي والذنوب.

ومن الفوائد: أنه يجوز أن يتحاكم الناس إلى غير قاضي, إذا كان عدلًا وعند علم فيجوز التقاضي إليه ولو كان في البلد قاضي, فإذا قالوا نتقاضى عند فلان فيجوز.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقر على ذلك وقال:«مَا أَحْسَنَ هَذَا», فإذا قضى فيجب على هؤلاء أن يقبلوا بقضائه, إذا كان رجل عدل وعنده علم فيجب أن يقبلوا بقضائه.

ومن الفوائد: أن الإنسان يكن بأكبر أبنائه بأكبر أبنائه.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»؛ لأنه أكبر الأبناء .

ومن الفوائد: أنه يجوز تغيير الاسم لغيره.

وقد ورد في السنة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيَّر أكثر من اسم.

فمثلًا: عبد المطلب غيَّره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ إلى المُطَّلب, وحَزَن غيَّره إلى سهل, ومنها هذا الموضع, قال له:«فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ», فيجوز تغيير الاسم, ولكن الأفضل أن يكون لحاجة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان الاستخفاف بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أو بكتابه أو برسوله كفر وناقض من نواقض الإسلام أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب ليحذر من ذلك ويبين عاقبة من وقع في ذلك.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب من هزل**.

الهزل: هو الاستخفاف.

بشيء: شيء نكرة, فيدخل فيه أي شيء.

قال:**بشيء فيه ذكر الله:** يعني: هزل بشيء فيه ذكر الله, يعني كأن يستهزئ بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أو بأسمائه أو بصفاته أو بشيء يعود إلى الله عَزَّ وَجَلَّ, أو بالصلاة أو بالصيام أو بالذكر, يستهزئ بالتسبيح والتهليل مثلًا, أو يستهزئ بغير ذلك فيه ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أو بالقرآن أو نحو ذلك.

أو القرآن: كأن يستهزئ بالقرآن, أو بآية منه أو بكلمات في القرآن أو غير ذلك بما يختص به القرآن.

أو الرسول: الرسول هنا اسم جنس, فيدخل فيه رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره من الرسل, كأن يستهزئ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخلقه أو خُلقه, أو بأحد من أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ بخلقه أو خُلقه, أو غير ذلك, أو بدينه.

وهذا الباب من أهم أبواب كتاب التوحيد؛ لأن هذا من نواقض الإسلام الذي أجمع عليه الأمة.

ولذلك أجمع العلماء على أن من هزل بشيء فيه ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ أو القرآن أو الرسول فإنه كافر ولا يعذر فيه بالجهل, بل إن الجهل لا يرد هنا, الجهل يقولون أنه لا يرد.

ولذلك يقولون يكفر كفرًا ظاهرًا وباطنًا, حتى أن العلماء لا يستتيبونه.

لذلك يقول إسحاق بن راهويه رَحِمَهُ اللهُ:"أن المسلمين أجمعوا على أن من هزل بشيء من ذلك أنه يكفر". ونقل الإجماع صاحب التيسير "تيسير العزيز الحميد" نقل الإجماع على أن من هزل بشيء من ذلك أنه يكفر, ونقله غير واحد من أهل العلم.

فالاستهزاء بشيء من هذا كفر, ولا يتصور الجهل في ذلك.

والاستهزاء بالله عَزَّ وَجَلَّ كفر, فإذا استهزأ بأسمائه أو صفاته أو غير ذلك؛ فإن هذا الرجل الذي فعل ذلك كافر خارج من ملة الإسلام.

أيضا إذا استهزأ بالقرآن, إذا استهزأ بالقرآن وسخر منه؛ فإنه يكفر ويخرج من ملة الإسلام.

أيضا إذا استهزأ بالرسول أو سخر منه؛ فإنه يكفر.

والاستهزاء قد يكون ظاهر, كالكلام مثلًا, كأن يسب سب واضح, يسب الله عَزَّ وَجَلَّ سب واضح.

الثاني: إشارة, كأن يستهزئ بشفتيه أو يمد لسانه عند آية من كتاب الله استخفافًا بها, أو يمد لسانه إلى الرسول يستهزئ به, أو يفعل غير ذلك مما يُفهم منها الاستهزاء.

وهذا الثاني يقول العلماء: أنه بحر لا ساحل له.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ: }وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ{[التوبة: ٦٥].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: وقول الله تعالى:}وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ{[التوبة: ٦٥].

في هذه الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يُنكر على المنافقين الذين سخروا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبآيات الله عَزَّ وَجَلَّ وبالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وقالوا إنما فعلنا ذلك خوضًا ولعبًا, فأنكر عليهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى .

قال:}وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ{؛ يعني:ولئن سألتهم يا محمد,}لَيَقُولُنَّ{؛ يعني: لو قلت لهم لما سخرتم بالله عَزَّ وَجَلَّ وبآياته وبرسوله,}لَيَقُولُنَّ{؛ ليكون هذا جوابهم.

}لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا{؛ يعني: إنما كان هذا منّا إرادةً,}نَخُوضُ{؛ يعني: نخوض في الكلام ونتجادل.

والخوض: هو الإفاضة في الشيء.

}وَنَلْعَبُ{؛ يعني: من باب اللعب والمرح.

}قُلْ{؛ يعني: قل لهم يا محمد,}أَبِاللَّهِ{؛ العظيم الجليل,}وَآيَاتِهِ{؛ يعني: كتابه وآياته المنزلة,}وَرَسُولِهِ{؛ يعني: الذي أرسله وبعثه إلى الناس,}كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ{؛ يعني: تستهزئون بهذه الأمور العظيمة.

ثم تكملت الآية قال:}لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ{, لا يُقبل لكم عذر, وقد وقع عليكم الكفر بعد الإيمان.

ففي الآية الكريمة فيها أن الاستهزاء بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أو بآياته أو برسوله كفر, لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال:}قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ{, فأثبت لهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الكفر بعد الإيمان.

وهؤلاء الذين خاضوا كانوا منافقين, هذا الأقرب والله أعلم أنهم كانوا منافقين, وإنما أظهروا الإسلام وكانوا يبطنون الكفر, ثم أظهروا الكفر بألسنتهم .

الاستهزاء بالله عَزَّ وَجَلَّ أو بآياته أو برسوله كفر..

وجه كونه كفر أن عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لها ركنان:

الركن الأول: التعظيم.

الركن الثاني: الحب.

فمن استهزأ بالله عَزَّ وَجَلَّ أو بآياته أو برسوله الذي بعثه فقد اجتث التعظيم من قلبه فيقع في الكفر, فلا يمكن أن يعبد الله عَزَّ وَجَلَّ وهو غير مُعظِّم له, فكيف يقول أن أُعظم الله وأسب الله؟! ما يمكن أن يجتمع سب الله عَزَّ وَجَلَّ وتعظيمه, فمن عظَّم الله ذلَّ له ومن سب الله عَزَّ وَجَلَّ لم يكن في قلبه تعظيم لله؛ لأن التعظيم ينمحي من قلبه بالكلية.

أيضًا إذا سب آيات الله عَزَّ وَجَلَّ, لأنه يعود إلى الله, فالقرآن صفة من صفات الله.

وأيضًا إذا سب الرسول, لأن الرسول بعثه الله, فكيف يسب الذي بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ؟! الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم من يبعث, ما بعث إلا من هو يستحق أن يكون رسول, إذا سب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد طعن في الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وفي حكمته.

ففيه أن الاستهزاء كفر.

وأمثلة الاستهزاء كثيرة.

والاستهزاء ينقسم إلى قسمين:

استهزاء بالدعاء, كأن يقول لعنة الله على الدين, أو لعنة الله على الصلاة, أو غير ذلك من الأمثلة التي يصعب ذكرها, فهذا كفر.

الثاني: أن يكون في العرف, في العرف يُفهم منها الاستهزاء, فما عدَّه الناس في العرف أنه استهزاء فهو استهزاء.

فمثلًا إذا قيل: يا قبيح الوجه, هذا عند عرف الناس استهزاء, هذا يسمى استهزاء, أو قال يا مجنون, فهذا يسمى استهزاء, أو قال يا جبان - أو يا سفيه, فهذا يسمى استهزاء عند عرف الناس فإذا وجه هذا الكلام مثلًا إلى رسول فهذا كفر, وأشد منه إذا دعا عليه, إذا دعا على رسول فهذا كفر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة - دخل حديث بعضهم في بعض - أنه قال رجل في غزوة تبوك: "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء; يعني رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه القراء. فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فذهب عوف إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنان الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا

بنسعة ناقة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: }إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ {ما يلتفت إليه وما يزيده عليه".

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة - دخل حديث بعضهم في بعض:**يعني: أن هذا الحديث مجموع من روايات.

أنه قال رجل.

(رجل) نكرة مقصود, لأنه مرفوع قال:**أنه قال رجل في غزوة تبوك:** يعني: حين غزى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبوك, وهي قبل وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقليل.

قال: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء.

)**ما رأينا**)؛ يعني: ما علمنا,(**مثل قرائنا هؤلاء**), القراء: يعني الذين يقرؤون القرآن ويعلمون معانيه, فالقارئ في عُرف السلف هو الذي يعلم معاني القرآن.

قال:**قرائنا هؤلاء** .

هو يريد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه القراء.

أرغب: من الرغبة, يعني الميل للشيء, أرغب بطونًا: يعني: يحبون الأكل, يكثرون من الأكل, يعني كأنه يقول هؤلاء لا يهمهم إلا الأكل.

ولا أكذب ألسنًا:, يعني أنهم يقولون الكذب, ويعني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

قال:**ولا أجبن عند اللقاء.**

الجبن: هو الخوف, فيجبن ويتراجع, ويعني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه, فهذا كله شتم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

قال:**ولا أجبن عند اللقاء:** يعني: عند لقاء العدو, كالغزو مثلًا في الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ. ويعني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه القراء.

وقد كذبوا أعظم الكذب في ذلك؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أشجع الناس, وكذلك أصحابه القراء.

فقال له عوف بن مالك: كذب.

عوف أنكر رَضِي اللهُ عَنْهُ لأنه كان مؤمن قال كذبت,والكذب: هو مخالفة الخبر للواقع, وكما قال عوف رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه كذب لأنه خالف الواقع, الواقع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه هم من أشجع الناس, وصدق الناس وقل الناس اهتمام في الأكل.

ثم قال:**ولكنك منافق**:يعني: ما قلت هذا القول إلا بسبب ما في قلبك من النفاق.

والنفاق: هو أن يُظهر الإيمان ويبطن الكفر, فالمنافق هو الذي يظهر لك أنه مسلم وأنه موحد, وفي قلبه يكفر ويشرك ونحو ذلك.

قال:**لأخبرن رسول الله**.

هنا (لأخبرن) فيها ثلاثة مؤكدات:

الأول: القسم المقدر(والله).

الثاني: اللام.

الثالث: نون التوكيد.

فهو أراد أن يخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأكد هذا الكلام, قال:**لأخبرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

فذهب عوف إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخبره: يعني: ليخبره خبر هذا المنافق الذي قال هذا الكلام.

فوجد القرآن قد سبقه: يعني: عالم الغيب والشهادة قد أوحى إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما قال هذا المنافق.

فجاء ذلك الرجل: يعني: الذي قال هذا الكلام,**إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد ارتحل:** يعني: ركب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والارتحال: هو الصعود, يعني اتخذ هذه الناقة راحلة.

وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث: يعني: إنما كان هذا الاستهزاء إنما هو خوض, يعني نتبادل الكلام ونفضي في الشيء ونحب أن نُسلي أنفسنا بهذه الكلمات الخطيرة.

ونتحدث: يعني: يُحدث بعضنا بعضًا, بحيث أسمع حديث فلان ويسمع حديثي, فيشتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ويقول القول العظيم ويريد أن هذا مجرد حديث.

حديث الركب: يعني: حديث الركب والجماعة التي تمشي.

نقطع به عنان الطريق: يعني: نريد أن نستهزئ ونقطع بهذا الاستهزاء عنان الطريق, يعني نسلي أنفسنا.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه. الكاف كاف التشبيه.

كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة: يعني: باللجام أو الخيط.

ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن الحجارة تنكب رجليه: يعني: تضرب في رجليه, وهو متعلق والناقة تمشي, فتضرب الحجارة في رجليه.

وهو يقول: يعني: يُردد هذه الكلمة,**يقول: إنما كنا نخوض ونلعب.**

فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد غضب من هذا الكلام, فكان يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ولا يرد عليه إلا بالقرآن.

}أَبِاللَّهِ{, ووجه الاستهزاء بالله عَزَّ وَجَلَّ أن من طعن في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد طعن في الله؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم من يستحق أن يُرسل, فإذا طعن في الرسول فكأنه طعن في الله, كأنه يقول كيف ترسل هذا الرجل, فهو طعن في الله, فالله عَزَّ وَجَلَّ ما أرسل الرسول إلا لأنه مستحق.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول:}اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ{[الأنعام: ١٢٤]؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ يعلم عن خلقه, ويعلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الناس قلبًا وأصدقهم لسانًا, وأقومهم بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ, كذلك إخوانه من الرسل, فأرسلهم الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال:}وَآيَاتِهِ{؛ يعني: كتابه, فمن طعن في الرسول أيضا يطعن في كتاب الله,لأنه مبلغ لكتاب الله.

قال:}وَرَسُولِهِ{؛ يعني: الذي بعثه, }كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ{؛ يعني: تتنقصون, ما يلتفت إليه وما يزيد عليه.

هذا الأثر فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الأثر: أن الإنسان عليه أن يحذر من لسانه, لأن الرجل قد يتكلم بالكلمة يخرج بها من دين الإسلام وهو لا يدري؛ ولذلك جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

وجاء عند الترمذي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«وإنَّ أحدَكُمْ ليتكلَّمُ بالكلمةِ من سَخَطِ اللهِ ما يَظُنُّ أنْ تَبْلغَ ما بَلغتْ، فَيَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بها سَخَطَهُ إلىٰ يَوْمِ يَلْقاهُ».

فاللسان خطير, قد يتكلم الإنسان بكلمة يخرج بها من دين الإسلام.

ومن الفوائد: أنه يجب على المسلم أن ينكر المنكر, فإذا كان المنكر كفر فيجب الإنكار ويشتد وجوبه, فإذا استهزأ رجل عندك بكتاب الله أو بسنة رسوله فإنه يجب عليك أن ترد عليه, فإذا كنت ضعيف ولا تقدر الرد فتقوم عن هذا المكان ولا تبقى فيه لئلا تكون مثله.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال:}وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ{[النساء: ١٤٠].

فلابد أن تنكر, إما باللسان وإما بمغادرة هذا المكان إذا كنت تضعف عن الرد.

ولذلك عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ردَّ ولم تأخذه في الله لومة لائم, بل قال لرجل كذبت , وأيضا قال: له ولكنك منافق.

ومن الفوائد: أنه يجوز للإنسان أن يقول للشخص منافق إذا سمع منه استهزاء بالله عَزَّ وَجَلَّ أو بآياته أوبرسوله؛ لأنه لا يمكن أن يستهزئ بالله عَزَّ وَجَلَّ أو برسوله أو بآيات الله مؤمن, فإن كان مؤمن فقد خرج من الإسلام.

ومن الفوائد: أن الإخبار عن أهل الشر, يُخبر الإمام بهم أن هذا من النصح وليس من الغيبة والنميمة.

فلو كان شخص مثلًا يطعن في ولاة الأمر مثلًا, ثم أتيت الأمير فقلت فلان يطعن فيك, فإن هذا من النصح.

أيضا لو كان شخص يسب الدين أو يُظهر البدع ثم أخبرت الإمام حتى يؤخذ بيده فإن هذا من النصح.

ولذلك عوف قال: لأخبرن رسول الله, حلف.

ومن الفوائد: أن نزول القرآن قد يكون لسبب, ليبين حادثة أو ليبين قول أو نحو ذلك, وقد يكون لغير سبب, وهذه الآية الكريمة نزلت لسبب, وهو أن هذا الرجل قال هذه الكلمات.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغضب مما يُغضب الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُغضبه ما يُغضب ربه عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: "ماانتقم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه أبدًا, فإذا انتُهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء". فكان يغضب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ من انتهاك حرمات الله.

هذا من فوائد هذا الحديث.

هذا الباب مهم كما تقدم, وهذا الباب باب واسع, فيدخل فيه الاستهزاء بالدين ويدخل فيه الاستهزاء بالصالحين ونحو ذلك.

و الاستهزاء بالصالحين ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستهزئ بهم لما يحملون من الدين, كأن يستهزئ بلحاهم, أو بثيابهم إذا قصَّروها, ويُعرف أنه يريد الدين إذا ستهزئ بكل من تمسك بهذه السنة أو هذه الشعيرة, فكل من ربَّى لحيته استهزئ به, وكل من قصَّر ثوبه استهزئ به,فإذا كان كذلك فهو كافر لأنه , إذا فعل ذلك فهو يرجع إلى دين الشخص, فهو يستهزئ بالإسلام, ما استهزئ بهذا الشخص لعينه, وإنما يستهزئ بدين الإسلام الذي حملوه.

الثاني: أن يستهزئ بأخلاقهم أو صفاتهم, فهذا فسق ولا يجوز, وإن كان يحملون الدين, فإذا استهزئ مثلًا بلحية شخص أو بثوبه وأراد عين الشخص لا الدين الذي يحمله فهذا فسق وليس كفر.

وضابط ذلك: أنه يريد الشخص بعينه, فلو أن هذه الشعيرة فعلها غيره ما استهزئ به.

فلو رأى مثلًا عالم يربي لحيته لاحترمه وقدَّره, أو أنه رأى عالم قصَّر ثوبه إلى الساق لاحترمه وقدَّره, وإذا فعله الشخص الذي يبغضه مثلًا ضحك منه واستهزئ به بلحيته وبثوبه, هذا يريد الشخص لا يريد الدين, فهذا فسق وليس بكفر.

والاستهزاء بالدين كفر ومُخرج من الملة وردة عن الإسلام, وقد اختلف العلماء فيمن استهزئ بالدين هل يُستتاب أو يُقتل بلا استتابة؟

ومذهب الحنابلة من أشد المذاهب في ذلك, فهم يقولون: يُقتل ولا يُستتاب.

فلو استهزئ بالله أو برسوله أو بدين الإسلام؛ فإنه يكفُر ويقولون يُقتل, ولا نقول تُب, بل يُقتل كُفرًا ولا يُقبل في الظاهر, وأمره إلى الله في الآخرة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: }وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي{[فصلت: ٥٠]

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب ما جاء في قوله تعالى**: }وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي{[فصلت: ٥٠].

مناسبة هذا الباب الذي وضعه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: أن إضافة النعم للنفس منقص للتوحيد، إضافة النعم التي ينعم الله عَزَّ وَجَلَّ بها على العبد لنفسه للسبب أو لنفسه منقص للتوحيد، فجاء المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليُبين هذا الشيء ليبينه ويحذر منه.

قال المؤلف:**باب ما جاء في قوله تعالى:** }وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ{؛ يعني: أذاقه الله عَزَّ وَجَلَّ} ،رَحْمَةً مِنَّا{؛ يعني: صحه وعافيه فيرحمه الله عَزَّ وَجَلَّ فيعافيه ويصح ببدنه.

وقوله:}مِنَّا{؛ يعني: من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو المتفضل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:}مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ{؛ يعني: بعد مرض أو ألم مر به، والضراء يراد به المرض ونحوه.

}مَسَّتْهُ{؛ يعني: أصابته.

}لَيَقُولَنَّ{؛ يعني: ليكون هذا قولهم.

}هَذَا لِي{؛يعني: هذا لي وأنا مستحق له، ففيه أنه أضاف الشيء لنفسه وأنه يستحقها على ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا خلاف الواجب فالواجب أن الإنسان يضيف النعم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويشكر الله عَزَّ وَجَلَّ عليها.

في هذه الآية الكريمة فيها: أن النعم التي ينعم بها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على العبد ومن ذلك الشفاء بعد المرض عليه أن يضيف النعمة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويعتقد أنها من الله عَزَّ وَجَلَّ تفضلًا وليس له حق بأن يشفيه الله عَزَّ وَجَلَّ من المرض، أو أنه له حق عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإنها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يتفضل على الإنسان فيشفيه ويخرجه من هذه الآلام، والإنسان عليه أن يضيف النعمة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وسيأتي إن شاء الله تفسير السلف رَحِمَهُمُ اللهُ لهذه الآية الكريمة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال مجاهد: "هذا بعملي وأنا محقوق به".

وقال ابن عباس: "يريد من عندي".

قَالَ الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقال مجاهد: "هذا بعملي وأنا محقوق به"؛ يعني: أن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ فسر هذه الآية الكريمة بأنه هذا الرجل لما شفي قال: هذا بعلمي، أو هذا العطاء بعلمي، وأنا محق به؛ يعني: مستحق له.

وقال ابن عباس: "يريد من عندي".

وهذا تفسير من ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال: "يريد من عندي"؛ يعني: أن هذا الشفاء من عندي وهو من قبلي.

ففيه: أن هذا الإنسان الذي أصابه ضراء ثم أشفاه الله عَزَّ وَجَلَّ لم يضيف النعمة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وإنما أضافها لنفسه، وهذا خلاف الواجب على الإنسان، وهذا منقص للتوحيد ومضعف له، لأن الإنسان عليه أن يضيف النعم إلى الله هو المتفضل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والإنسان ليس له حق على الله عَزَّ وَجَلَّ وإنما إن أعطاه الله عَزَّ وَجَلَّ فهو تفضل منه وإنعام.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله تعالىٰ:}إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي{[القصص: ٧٨].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال:**وقوله تعالى:**}إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي{[القصص: ٧٨].

في هذه الآية الكريمة يُبين الله عَزَّ وَجَلَّ حال العبد أيضًا أنه إذا كُشف عنه ما أصابه.

قال:}إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي{، أو إذا أوتي الإنسان مال أو نحو ذلك من المكاسب قال: إنما هذا بخبرتي وهذا بعلمي فيضيف النعم لنفسه وينسى أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي فتح عليه.

فمثلًا: إذا رزقه الله عَزَّ وَجَلَّ بمال وفتح عليه في المكاسب قال: هذا بسبب الخبرة التي عندي، وهذا بسبب علمي لوجوه التجارة، وهذا خلاف الواجب،الواجب عليه أن يقول: أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي تفضل علي وفتح علي من أبواب رزقه، ولذلك سيأتي تفسير السلف رَحِمَهُمُ اللهُ في هذه الآية الكريمة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال قتادة: "علىٰ علم مني بوجوه المكاسب". وقال آخرون: "علىٰ علم من الله أني له أهل".

وهذا معنىٰ قول مجاهد: "أوتيته علىٰ شرف".

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

نعم ذكر قول قتادة رَحِمَهُ اللهُ أنه قال في تفسير الآية: "على علم مني"؛ يعني: على إدراك مني بالواقع.

"مني بوجوه المكاسب"؛ يعني: بطرق المكاسب، فلما كنت أعرف طرق المكاسب وكان عندي علم أتاني هذا المال فأضاف النعمة لنفسه ونسي أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي تفضل عليه.

قال: وقال آخرون؛ يعني: من السلف، "على علم من الله أني له أهل".

وهذا أناس آخرون، هذا آخر من الناس قد يظن أنه له حق عند الله وأنه لما كان له المقامات العظيمة عند الله أن الله عَزَّ وَجَلَّ أعطاه فيظن أنه إنما أوتي هذا المال لاستحقاقه له.

ولذلك قال: "على علم من الله"؛ يعني: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم أني ذو شرف وذو رفعة فأعطاني هذا المال، فيظن أن هذا المال بسبب محبة الله عَزَّ وَجَلَّ له، وبسبب عظم منزلته عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك قال: وهذا معنى قول مجاهد: "أوتيته على شرف"، الشرف؛ يعني: العزة والمكانة.

ففيما تقدم أن الإنسان عليه أن يضيف النعم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والناس في هذا منهم من يضيف النعم التي ينعم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بها عليه إلى خبرته فيقول: بسبب خبرتي أوتيت هذا المال.

ومنهم من يضيف النعمة إلى شرفه فيظن أن له مكانة وذو شرف وأن الله عَزَّ وَجَلَّ أعطاه هذا المال بسبب هذا الشرف، وهذا من الخطأ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يعطي من يحب من الدنيا ومن لا يحب، ويعطي الشريف والوضيع، فالدنيا ليست مقياس للشرف، أو أن الرجل هذا له عند الله عَزَّ وَجَلَّ مكانة فإذا أعطى الله عَزَّ وَجَلَّ العبد فهو تفضل منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإذا منعه فهو عدل، فالإنسان دائر بين فضل الله وبين عدل الله.

وأيضًا إذا أُنعم على الإنسان فعليه أن يضيف النعمة إلى الله، لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو المتفضل، والذي يضيف النعم لنفسه أو لشرفه فإنه قد وقع في الشرك لأنه أضاف النعمة للسبب وهذا منقص للتوحيد، فعلي الإنسان أن يضيف النعمة إلى مسبب الأسباب وهو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإضافة النعم على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: أن يظن أن هذه النعمة أوجدها هو بنفسه من العدم، وهذا شرك أكبر لأنه جعل مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خالقين، فالذي يخلق ويرزق هو الله وحده لا شريك له.

الثاني: أن يضيف النعمة للسبب فيقول: أوتيت هذا المال بخبرتي أو بشرفي، فهذا شرك أصغر لأنه أضاف النعمة للسبب.

الثالث: أن يضيف النعمة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويخبر إخبارًا أنها أتته هذه النعمة بسبب كذا، كما لو كان –مثلًا– تاجر من الناس فقال: إني بعت في هذا المكان الفلاني فرزقت بهذا المال، ويعتقد أن الرزق من الله وأن هذا من باب الخبر فقط، فهنا جائز.

والناس كما تقدم ليس لهم على الله عَزَّ وَجَلَّ حق؛ بمعنى: أن الإنسان إذا شفي فإن له حق عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أو إذا أوتي مال أن له شرف عند الله، فليس هذا وإنما الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يتفضل على العبد.

ولذلك يقول القائل:

ما للعباد عليه حقٌّ واجبٌ ... كلّا ولا سعيٌ لديه ضائعُ

إن عُذِّبوا فبعدْلِه، أو نُعِّموا ... فبفضله،وهوالكريم الواسعُ

فالعطاء من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تفضل على العبد، فعليه إذا أوتي مال أو أوتي منصب أو أوتي شرف ونحو ذلك, فعليه أن يشكر الله ويعتقد أنه ذليل فقير إلى الله، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يتفضل فينسب النعمة إلى الله؛ ولذلك هذا هو المقصود من العبد.

وينبه على أن إذا أوتي الإنسان مال أو منصب فإن هذا ليس لشرفه عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وليس لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يحبه فأعطاه ذلك، ليس هذا مقياس، ولذلك الدنيا يعطي الله عَزَّ وَجَلَّ منها من يحب ومن لا يحب.

فقد آتى الله عَزَّ وَجَلَّ قارون أموال عظيمة طائلة، وأعطى الله عَزَّ وَجَلَّ فرعون ملكًا عظيمًا، والنمرود أيضًا أعطاه الله عَزَّ وَجَلَّ ملك عظيم، ولكن ليس لأنه له منزلة عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن الدنيا يعطيها الله عَزَّ وَجَلَّ من يحب ومن لا يحب، وإنما الشرف والفضل أن يؤتي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الدين الصلاح للشخص، فهذا هو الفضل من الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك يقول الشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: معنى كلامه:أن غاية الكرامة أن يلزمك الله الاستقامة، فهذا معنى كلامه رَحِمَهُ اللهُ، فحق الكرامة أن يهديك الله عَزَّ وَجَلَّ ويبصرك بهذا الدين.

فالمراد: أن الإنسان عليه أن ينسب النعم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ويعتقد أنه ليس له على الله عَزَّ وَجَلَّ حق، وأن ما أوتي من مال ليس لخبرته أو عقله أو تدبيره، فلو أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وكله لنفسه لهلك وضاعت مكاسب وذهب ما عنده من مال، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي تفضل على هذا العبد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

في الحديث عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَىٰ فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذهبُ عَنِّي الذي

قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بهِ قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ - شَكَّ إسحاقُ- فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. قال: فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بهِ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عنه وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ أو الأبل فَأَعْطَي بَقَرَةً حَامِلًا قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. فَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَن يَرُدُّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ فَأَعْطَي شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ الإِبلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ البَقَرِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الغنَمِ. قال: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قد انقطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ- بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي فَقَالَ: الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المال؟! فَقَالَ: إنما وَرِثْتُ هذا المالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قال: وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا فَقَالَ له: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قال: ثم أنه أَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدَ انقطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ: شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إلي بَصَرِي فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَع ما شِئْتَ فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلهِ فَقَالَ: أَمْسِكْ عليك مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ؛ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ». أخرجاهُ.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:«إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ»؛ يعني: رجل أبرص، والبرص هو لون يخرج في البدن، وهو البياض الذي يخرج في البدن.

قال:«وَأَقْرَعَ»؛ يعني: أصلع.

«وَأَعْمَىٰ»؛ يعني: لا يرى.

«فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ»؛ يعني: شاء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يبتليهم، والابتلاء والاختبار أراد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يختبرهم.

قال:«فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا»؛ يعني: ملكًا من الملائكة، والملائكة رسل من الملائكة من يرسلها الله عَزَّ وَجَلَّ.

«فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَىٰ الْأَبْرَصَ»؛ يعني: هذا الملك أتى إلى الأبرص فقال:«فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟»؛ يعني: ما هو الشيء الذي تحبه؟قَالَ:لَوْنٌ حَسَنٌ؛ يعني: أريد لون حسن يذهب عني هذا البرص وهذا البياض.

«وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذهبُ عَنِّي الذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ به»؛ يعني: الذي كره الناس مجالستي بسببه وهو البرص.

قَالَ:«فَمَسَحَهُ»؛ يعني: الملك مسح هذا الرجل،«فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ»، ذهب عنه هذا البرص،«فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا»، ذهب البرص وأبدله الله عَزَّ وَجَلَّ بلون حسن وجلد حسن.

«قَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟»؛يعني: ما هو المال؟ هو ما يتمول ويدخل فيه الأوراق النقدية والذهب والفضة والسيارات والمنازل كل هذه أموال، لأنه الشيء الذي يتمول.

«قَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ -شَكَّ إسحاقُ-»؛ يعني: راوي الحديث.

قال:«فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ»؛ يعني: ناقة قد حملت ومضى لها عشرة أشهر.

قال:«فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا»؛ يعني: أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ فيها الخير ونفعك الله عَزَّ وَجَلَّ بها.

«قال: فَأَتَىٰ الْأَقْرَعَ»؛ يعني: الأصلع؛ يعني: هذا الملك أتى الأقرع أيضًا.

«فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟»، قال الأقرع يعني:«شَعَرٌ حَسَنٌ»؛ يعني: هذا الأصلع يريد شعر حسن.

«وَيَذْهَبُ عَنِّي الذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ به»؛ يعني :الشيء الذي جعل الناس يبتعدون عني بسببه وهو الصلع أريد أن يذهب عني.

قال:«فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عنه»؛ يعني: ذهب عنه الصلع.

«وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا»؛يعني: أبدله الله عَزَّ وَجَلَّ بشعر وكان هذا الشعر حسن.

فقال:«فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ أو الأبل»؛ يعني: هذا أيضًا في الشك.

قال:«فَأَعْطِي بَقَرَةً حَامِلًا قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا»؛ يعني: أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ فيها الخير لك.

قال:«فَأَتَىٰ الْأَعْمَىٰ»؛ يعني: الرجل الذي لا يرى.

«فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَن يَرُدُّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي»، فهنا الأعمى نسب النعمة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ قال: أريد من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يرد إلي بصري.

قال:«فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ»؛ يعني: أرى الناس أمامي وأرى طريقي ونحو ذلك.

«فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ فَأَعْطِي شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ»؛ يعني: صاحب الإبل وصاحب البقر.

«وَوَلَّدَ هَذَا»؛ يعني: صاحب الغنم.

«فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ الإِبلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ البَقَرِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الغَنَمِ»؛ يعني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فتح على صاحب الإبل فرُزق بكثير من الإبل، وأيضًا فتح سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على صاحب البقر فرُزق ببقر كثير، وكذلك صاحب الغنم، فأصبح لكل واحد منهم ملئ الوادي.

قال:«ثُمَّ إِنَّهُ»؛ يعني: هذا الملك،«أَتَىٰ الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ»؛ يعني: في شكله الذي كان عليه وهو لونه يعني في شكل الأبرص لما كان أبرص.

«وَهَيْئَتِهِ»؛ يعني: في حالته التي كان عليها في صفته.

«فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ»، يقولها الملك.

«فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ»، والمسكين هو الذي أسكنته الحاجة وأضعفت من حركته.

«فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قد انقطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ»؛ يعني: انقطعت بي أسباب ما أتوصل بها في طريقي.

«الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ»؛ يعني: لا بلاغ لي إلا أن ينجيني الله عَزَّ وَجَلَّ, ثم إنك تكون سبب في نجاتي من ذلك إذا أعطيتني هذه الناقة.

«أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ»؛ يعني: أسألك بالله فهو الذي أعطاه اللون الحسن.

«وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ- بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ به فِي سَفَرِي»؛ يعني: بعير واحد لا أريد أكثر من ذلك يكون سبب في نجاتي في هذا الطريق.

«فَقَالَ: الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ»، قال هذا الرجل: الحقوق كثيرة عندنا –مثلًا- كما يقال: اللوازم كثيرة الحقوق،فالحقوق التي تُطلب منك كثير.

فَقَالَ لَهُ؛ يعني: الملك،«كَأَنِّي أَعْرِفُكَ»؛ يعني:الكاف كاف التشبيه كأني عرفتك.

قال:«أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ»؛ يعني: يكره الناس مجالستك بسبب البرص.

«فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المال؟!»؛ يعني:وكنت فقيرًا ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رزقك بهذه الإبل.

«فَقَالَ: إنما وَرِثْتُ هذا المالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ»؛ يعني يقول: هذا المال أتاني كابر عن كابر يعني: عن أب، عن جد، عن أب لجد، ونحو ذلك، فهو يقول: إن هذا المال توارثناه كابر عن كابر، وهنا نسب النعمة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ»؛ يعني: ردك الله عَزَّ وَجَلَّ إلى ما كنت عليه.

وهنا الملك قيد الدعوة بكذب هذا الرجل فإن كان كاذب فرده الله عَزَّ وَجَلَّ لما كان.

«قال: وَأَتَىٰ الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ»؛ يعني: آتى الأقرع في صورته؛ يعني: في صورة الأقرع لما كان أقرع.

قال:«فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا»؛ يعني: كما قال للأبرص.

«وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا»؛ يعني: الأقرع رد عليه كما رد الأبرص.

فقال:«إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ».

قال:«وَأَتَىٰ الْأَعْمَىٰ فِي صُورَتِهِ»؛ يعني: رجل أعمى في صورة الأعمى.

«فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ»؛ يعني: عابر الطريق، «قَدِ انقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي»؛ يعني: في طريقي.

«فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ؛ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ: شَاةً»؛ يعني أقول: أسألك بالله الذي رد عليك بصرك.

«شَاةً»؛ يعني: واحدة.

«أَتَبَلَّغُ»؛ يعني: تكون سبب في بلاغي، «بِهَا فِي سَفَرِي».

فقال؛ اعترف هنا الأعمى بنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ عليه وأضاف النعمة إلى الله.

«فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَىٰ»؛ يعني: كنت لا أرى،«فَرَدَّ اللهُ إلي بَصَرِي»، فهذا أول نعمة أضافها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وهي رد البصر.

«فَخُذْ مَا شِئْتَ»، وأيضًا أضاف المال إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ.

قال:«فَخُذْ مَا شِئْتَ»؛ يعني هذه الغنم أمامك فخذ ما شئت ما تريد منها.

«وَدَع ما شِئْتَ؛ فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ»؛ يعني: لا أجادلك ولا أخاصمك.

«الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلهِ»؛ يعني: ما دام أنك تأخذ لله فخذ ما شئت.

«فَقَالَ: أَمْسِكْ عليك مَالَكَ»؛ يعني: اترك مالك عندك.

«فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ»؛ يعني: اختبرتم،«فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ»، أيها الأعمى،«وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيْكَ»؛ يعني: صاحبيك في الابتلاء.

قال: **أخرجاهُ:** البخاري ومسلم.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد هذا الحديث: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأيضًا رسوله يذكران لنا أحوال الأمم الماضية، وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله لأحوال الأمم الماضية لفوائد:

منها: لنعتبر فإن كانت خير فنقتدي به، وإن كانت شر فنحذر مما صنع، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قد يذكر أحوال الأمم الماضية، وأيضًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يذكر أحوال الأمم الماضية لنعتبر إن كان خير نعمل وإن كان شر نحذر.

وليس المراد للتسلية فقط ولكن لنعتبر، وأيضًا إذا كان صاحب خير نحبه في الله عَزَّ وَجَلَّ فنحب المحسن، وإن كان صاحب شر فنبغضه في الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن البرص قد يستقذره الناس، ولذلك هذا الرجل قال: «قَذِرَنِي النَّاسُ به»؛ بمعنى: أنهم تركوا مجالسته.

وعلى هذا لو أن المرأة تزوجت برجل فوجدت به برص فإنه يجوز لها الفسخ، وأيضًا العكس لو أن رجل تزوج امرأة ووجد بها برص يجوز له أن يتركها ويأخذ ماله كاملًا.

ولذلك روي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل على امرأة فلما وضعت من ثيابها وجد بها برص، فقال: «الْحَقِي بِأَهْلِكِ»، فالبرص قد يستقذره بعض الناس.

وأيضًا من الفوائد: أن القرع قد يكون مما يُستقذر، فلو وجد الرجل -مثلًا- المثال السابق وجد المرأة صلعاء ولم يُخبر بذلك فيجوز له أن يفسخ هذا النكاح فهو من العيوب.

وأيضًا العمى، وقد يكون العمى من أشد هذه العيوب، فلو وجد الرجل المرأة عمياء أو أن المرأة وجدت الرجل أعمى فالمرأة لها الفسخ والرجل أيضًا له الفسخ.

فالصواب: أن للرجل الفسخ وللمرأة الفسخ.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد يبتلي العبد، والابتلاء قد يكون بالسراء وقد يكون بالضراء، قد يكون بالسراء كأن يؤتي الله عَزَّ وَجَلَّ العبد منصب ابتلاء منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأيضًا قد يؤتي العبد مالًا كثيرًا ابتلاءً منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وقد يؤتي العبد صحة في البدن وقوة ابتلاءً منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هذا من باب الاختبار فليحذر الإنسان.

وأيضًا قد يكون بالضراء فيصاب الإنسان في بدنه أو في ولده أو نحو ذلك، ويكون هذا من باب الابتلاء، فإن كان أصابه خير فعليه أن يشكر الله عَزَّ وَجَلَّ وأن يضيف النعم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإن أصابه شر فعليه أن يصبر.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٥]، الله عَزَّ وَجَلَّ يبتلي الناس بالسراء والضراء، فلا تظن أن من أوتي منصب أو مال أو نحو ذلك أنه لفضله وإنما هو يُختبر.

ولذلك قد يهلك الإنسان في السراء، قد يؤتى الإنسان منصب فيظلم فيقع في الظلم ويظلم من تحته، وقد يؤتى الإنسان مال فيصرفه في هلكة المعاصي والذنوب ويكون هذا المال سبب في هلاكه ويمنع الزكاة ويقع بسبب هذا المال في الذنوب والمعاصي.

وأيضًا قد يبتلي الله عَزَّ وَجَلَّ العبد بالضراء فيكون سبب في تسخطه على قضاء الله وقدره، ولذلك على الإنسان إذا وقع في سراء عليه أن يشكر، وإذا وقع في ضراء عليه أن يصبر.

ولذلك يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلاّ لِلْمُؤْمِن».

فالدنيا دار اختبار، الله عَزَّ وَجَلَّ يختبر العبد بالنعماء والضراء، وعليه أن يعتقد أنه إذا أتاه الله عَزَّ وَجَلَّ منصب أو مال فإنه في اختبار فليؤدي هذا الشيء على وجهه الصحيح، وإن أصابه ضراء فهو في اختبار فعليه أن يصبر.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على كل شيء قدير، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على كل شيء قدير، ما من موجود إلا والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قادر على أن يُعدمه، وما من شيء معدوم إلا والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قادر على إيجاده.

فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لو شاء لأهلك الخلق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[إبراهيم: ٨]، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على كل شيء قدير.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[فاطر: ١٥-١٧]، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قادر على أن يأتي بخلق جديد.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أشفى هذا الأبرص وأشفى هذا الأقرع وأشفى هذا الأعمى، فإذا كان الإنسان به مرض فلا يقنط من رحمة الله فإن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قادر على أن يزيل هذا المرض مهما بلغ هذا المرض ومهما استعصى فإنه على الله عَزَّ وَجَلَّ يسير.

ومن الفوائد: أن الملك قد يتشكل بصورة الإنسان فيأتي بصورة البشر، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أرسل هذا الملك بصورة هؤلاء الرجال.

ومن الفوائد: أن الإنسان قد تكون النعمة سبب في هلاكه، كما تقدم قد تكون النعمة سبب في هلاكه، فلذلك قد يُنعم على الإنسان بمال أو بصحة البدن فيهلك بسبب ذلك.

ولذلك حال الكفار إذا دخلوا في البحر وضربت بهم الأمواج دعوا الله وأخلصوا له الدعاء، فإذا أنجاهم إلى البر رجعوا إلى الشرك وعادوا إلى الكفر، كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت: ٦٥].

وهذا البغي على الإنسان نفسه لا يضر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى شيئًا، فالله عَزَّ وَجَلَّ بيَّن أن بغي الإنسان يرجع على نفسه، فالله عَزَّ وَجَلَّ غني لا يضره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى معصية أحد، فإذا عصى الإنسان فإنه يضر نفسه، إذا عصى الإنسان ولم يشكر النعمة فإنه يضر نفسه والله غني ما ينقص من ملكه شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا يضره شيء، والدنيا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا تساوي عنده شيء، وسيعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فقيرًا ذليلًا ويحاسبه.

فإذا كان الأمر كذلك فعلى الإنسان إذا أعطاه الله عَزَّ وَجَلَّ نعم أن يشكر الله وأن يصرفها فيما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ منه، فإذا فعل ذلك فإنه يفوز ببقاء النعمة وأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يرضى عنه.

كما قال أحد السلف: أن الشكر قيد الموجود، يقيد النعمة الموجودة، وصيد المفقود، فإذا شكرت فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يزيدك من فضله.

وأيضًا من الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يرضى عن العبد إذا شكره على نعمه، ولذلك هذا الرجل الأعمى لما نسب النعمة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ورأى أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنعم عليه شكر الله على هذه النعمة فرضي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عنه.

وفيه: أن الإنسان إذا نسب النعمة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأدى النعمة فيما يرضي الله فإن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يرضى عنه وتبقى النعمة.

ومن الفوائد: أن كفر النعم من أسباب زوالها، ولذلك جاء في الأثر أن هذين الرجلين عادا لما كان، وأن الشكر سبب في بقاء النعمة، ولذلك هذا الرجل قال له الملك: أمسك عليك مالك، فيكون سبب في بقائه.

ومن الفوائد: أنه يجوز أن تقيد الدعوة بصدق الشخص أو كذبه، فتقول مثلًا: اللَّهم إن كان هذا عبدك كاذب فافعل به كذا وكذا، وإن كان صادق فافعل به كذا وكذا، فهذا جائز، ولذلك الملك قيد هذه الدعوة.

ومن الفوائد: أن شرع من كان قبلنا شرع لنا إذا لم يأتي شرعنا بخلافه، وهذا ما عليه أكثر العلماء، ونسبه ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ للجمهور، فشرع من كان قبلنا شرع لنا ما لم يأتي شرعنا بخلافه.

ففي هذا الحديث أيضًا من الفوائد: أن الإنسان عليه أن ينسب النعمة إلى الله وأن يحذر من نسبة النعم لنفسه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: }فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{[الأعراف: ١٩٠]

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب قوله تعالى:** }فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا{[الأعراف: ١٩٠] .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه يجب على العبد أن لا ينكر نعم الله عَزَّ وَجَلَّ التي أنعمها عليه، وأن يحذر من تسمية التعبد لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، بهذا الباب أتى المؤلف ليحذر من نسبة العبودية لغير الله في التسمية وأيضًا نسبة النعم لغير الله.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب قول الله تعالى:** }فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا{[الأعراف: ١٩٠] .

في هذه الآية الكريمة يُبين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه لـما أنعم على عبدين من عباده نعمة الولد نسب هذه النعمة لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، نسب هذه النعمة لغير الله في التسمية.

قال:}فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا{، في قوله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا{؛ يعني: آتى رجل وامرأة من الناس.

}صَالِحًا{؛ يعني: صالح في البدن، لأنهما قد دعيا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يرزقهم ذلك.

}جَعَلَا{؛ يعني: صيَّر،}لَهُ شُرَكَاءَ{؛ يعني: أشركوا بالله عَزَّ وَجَلَّ في التسمية.

}فِيمَا آتَاهُمَا{؛ يعني: فيما أسدى اليهم من نعمة الولد.

ثم قال تعالى:}فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{؛ يعني: تعالى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وترفع سبحانه عن كل مشرك من ذرية آدم.

وهذه الآية الكريمة قد اختلف فيها العلماء من المراد بهذا الخطاب؟

فقيل:أن المراد آدم وحواء.

وقيل:أن المراد رجل وامرأة من ذرية آدم وحواء.

والثاني هو الأقرب -والله أعلم-.

وهذه الآية ابتدأها الله عَزَّ وَجَلَّ بذكر آدم عَلَيْهِ السَّلاَم، ثم انتقل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إلى زوجة آدم، ثم انتقل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إلى الذرية، هذا أقرب ما يقال في هذه الآية الكريمة.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ{[الأعراف: ١٨٩]؛ يعني: أوجدكم يا البشر من نفس واحدة وهو آدم عَلَيْهِ السَّلاَم، فجميع البشر يعودون إلى آدم، جميع البشر من نساء ورجال يعودون إلى آدم فهو أصل البشر.

ولذلك آدم هو أصل البشر بحيث أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خلق جميع الناس من آدم النساء والرجال ليس من ذكر وأنثى بل من آدم عَلَيْهِ السَّلاَم، حتى حواء خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ من آدم فهو أصل البشر، ولذلك قال:}خَلَقَكُمْ{؛ يعني: أوجدكم،}مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ{، وهو آدم عَلَيْهِ السَّلاَم.

}وَجَعَلَ{؛ يعني: خلق، جعل هنا خلق.

}وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا{؛ يعني: حواء عَلَيْها السَّلاَم، فخلقها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من ضلع آدم.

قال:}لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا{؛ يعني: ليطمئن من السكون وهو الطمأنينة وقلة الحركة فيسكن ويطمئن إليها.

}إِلَيْهَا{؛ يعني: إلى حواء.

}فَلَمَّا تَغَشَّاهَا{، فهنا اختلف العلماء في هذا المراد هل هو آدم وحواء في سياق الآية أو أنه انتقال إلى الذرية؟

فالإمام محمد رَحِمَهُ اللهُ وأئمة الدعوة قالوا: أن الآية مازالت في آدم وحواء، وهو قول ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ أيضًا ونسبه لجمهور المفسرين، لأنه سيأتينا أنه جاء في ذلك أثار.

والقول الثاني وهو الأقرب -والله أعلم- كما تقدم: أن هذا انتقال أيضًا إلى الذرية انتقال من آدم وحواء إلى الذرية، الانتقال إلى الذرية، وهذا قول الحسن وعكرمة واختاره ابن القيم وابن كثير والسعدي وابن عثيمين -رحمهم الله جميعًا- على هذا القول أن هذا ليس المراد به آدم وحواء .

لذلك يقول ابن القيم: "أن الآية فيها انتقالات"،في هذه الآية الكريمة انتقالات.

هنا انتقل الخطاب إلى نوع من الذرية أو أناس من الذرية؛ ولذلك قال:}فَلَمَّا تَغَشَّاهَا{؛ يعني: جامعها.

}حَمَلَتْ{؛ يعني: هذه المرأة حملت وهذا من الذرية وهذا هو الأقرب -والله أعلم- كما سيأتي الدليل على ذلك.

قال:}فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ{؛ يعني: حملت بالولد.

}حَمْلًا خَفِيفًا{؛ لأن أول الحمل يكون الولد خفيف في رحم المرأة.

}حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ{؛ يعني: ذهبت به وأتت فلم تشعر به، لأنه ما زال نطفة ثم علقة فهو لا يثقل المرأة.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :فَلَمَّا أَثْقَلَتْ{؛ يعني أثقلها الحمل بحيث كبُر الولد في البطن.

}فَلَمَّا أَثْقَلَتْ{؛ يعني: أثقلها الحمل بحيث أن الولد كبُر في بطن المرأة فأصبحت ثقيلة.

}دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا{؛ يعني: هذا الرجل وهذه المرأة وهؤلاء من الذرية.

}دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ{، اشتراط.

}لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا{؛ يعني: رجا ابنًا صالحًا في البدن والعقل ونحو ذلك.

}آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{؛ يعني: لنكونن يا ربنا لك من الشاكرين على هذه النعمة والتي أسديتها إلينا.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا{؛ يعني: آتاهما الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الولد الصالح السوي.

}جَعَلَا{؛ يعني: صيَّر.

}لَهُ شُرَكَاءَ{؛ يعني: سمي هذا الولد بأسماء فيها تعبد لغير الله، كعبد الحارث –مثلًا– أو عبد مناة، أو عبد العزة، ونحو ذلك، فسمياه بأسماء فيها تعبد لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا كثير في ذرية آدم وحواء.

فمن الناس من يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقها الولد الصالح ثم إذا رزقه نسب هذه النعمة لغير الله.

قال:}جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا{؛ يعني: فيما آتاهما من الولد.

}فَتَعَالَى اللَّهُ{؛ يعني: تعالى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الشرك، لأن الشرك فيه تنقص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله يتعالى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الشرك.

}فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{، عما يشركون به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سواء كان هذا الشرك أكبر أو أصغر في التعبد أو في التذلل أو غير ذلك أو في التسمية أو في غير ذلك، }فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.{

وهذا كما تقدم أن الآية قد اختلف فيها السلف هل المراد آدم وحواء أم المراد رجل و امرأة من ذرية آدم وحواء؟ وسيأتي أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أتى بآثار تدل على أن المراد آدم وحواء.

ولكن الأقرب –والله أعلم–: أن المراد ذرية من ذرية آدم وحواء.

ويدل لذلك أدلة:

منها أولًا: أن الأصل عدم الشيء حتى يثبت فلابد من إثبات هذا الشيء أن المراد آدم وحواء، لأن الآية الكريمة فيها انتقالات فلابد من إثبات،فالأصل عدم هذا الشيء أن المراد آدم وحواء حتى يثبت بدليل.

ولذلك الشيء إذا ادعاه الشخص فلابد أن يأتي ببينة بشهود –مثلًا– تبين هذا الشيء.

ولو قال قائل:إنه ورد آثار تدل على أن المراد آدم وحواء، وسيذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ إن شاء الله شيء منها.

فيقال: أن هذه الآثار لا تثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "أنه لا يثبت حديث مرفوع إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن المراد آدم وحواء".

وإن قال: ورد عن الصحابة، فيقال: إذا ثبت عن الصحابة فإن هذا قد يكون من آثار أهل الكتاب.

ولذلك قال ابن كثير: والأقرب أن ما ورد من الآثار أنه من آثار أهل الكتاب، وآثار أهل الكتاب لا تُصدق ولا تكذب فنتوقف فيها.

الأمر الثاني: أن الأنبياء معصومون من الشرك، وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي وقد عصمه الله عَزَّ وَجَلَّ من الشرك، فيبعد أن يكون المراد آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وزوجه يبعد ذلك.

أيضًا من ما يدل على أن المراد غير آدم وحواء: أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين يعتذر يوم القيامة للناس عن الشفاعة يعتذر بمعصيته من أكله من الشجرة، ولا يذكر هذه المسألة، مع أن هذه أعظم هذا الشرك شرك أصغر أعظم من المعصية، ولا يذكر هذا الشيء آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فلو كان وقع هذا لذكر هذا الشيء لقال: أنا أكلت من الشجرة، وأنا سميت ابني بتسمية لغير الله،لذكر هذا الشيء وهو لا يذكرها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يوم القيامة.

أيضًا لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر توبته لآدم من أكله من الشجرة، ولم يذكر هذه الحادثة التي أن آدم تاب من الشرك، ومقتضى حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن يذكر هذا الشيء، فإذا وقع من آدم هذا الشيء من حكمة الله أن يذكر أنه تاب عليه ووفقه إلى التوبة بعد ذلك.

يعني: لو أن هذا الشيء وقع لذُكر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تاب على آدم بعد قوله هذا الفعل ولم يكن هذا.

ولذلك الراجح -والله أعلم-: أن المراد رجل وامرأة من الذرية وليس المراد آدم وحواء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن حزم: "اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبَّد لغير الله؛ كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب".

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وقال ابن حزم: "اتفقوا"؛ يعني: العلماء.

"اتفقوا على تحريم"؛ يعني: أن هذا الشيء محرم.

"تحريم كل اسم"، الاسم هو ما يدل على المسمى ويعينه.

"على كل اسم معبَّد"؛ يعني: فيه تعبد، كعبد الكعبة -مثلًا-، أو عبد شمس، أو عبد كذا وكذا.

"لغير الله"، ولذلك مثل رَحِمَهُ اللهُ قال: "كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك"؛ يعني: ما يشابه هذه الأسماء التي فيها تعبد لغير الله، يعني: أن العلماء أجمعوا على أن هذا محرم ولا يجوز.

وهو كما قال رَحِمَهُ اللهُ: لأن التسمية فيه تعبد لغير الله وهذا لا يجوز، فالواجب أن يسمى بعبد الله، بعبد الرحمن، أما عبد النبي وعبد الكعبة ونحوذلك ما يجوز.

ثم قال: "حاشا"؛ يعني: استثنى "عبد المطلب"؛ يعني: أن عبد المطلب لم يجمعوا على أنه محرم.

والجواب عن هذا الإشكال أن العلماء لم يجمعوا عليه: لأن عبد المطلب إنما أريد به عبودية الرق وليس عبودية الذل والخضوع وإنما هو عبودية الرق، ولذلك ما أجمعوا عليه.

والصواب -والله أعلم-: أنه لا يجوز التسمية حتى بعبد المطلب، لا يجوز التسمية بعبد المطلب بل يحرم ولا يجوز لأنه تعبيد لغير الله.

ولو قال قائل: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسب نفسه أنه ابن عبد المطلب.

فالجواب على هذا الإشكال: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبر عن أمر واقع وقع قبل ولادته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالشيء إذا كان واقع وتخبر عنه فهذا جائز.

كما لو تقول: فلان عبد النبي هذا إخبار ما في إشكال جائز، أما أن تنشئ الاسم تقول: فلان ابني اسمه أو أسميه عبد المطلب هذا يحرم ولا يجوز، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عن شيء واقع ولم ينشئ هذا الاسم،ولذلك نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن التسمية لغير الله، ففرق بين الإخبار والإنشاء، الإخبار تخبر بشيء واقع، والإنشاء تنشئ تسمي الآن هذا هو الذي يحرم.

فالأقرب: أنه لا يجوز التسمية باسم فيه تعبد لغير الله، لأن التعبد لله وحده لا شريك له من خصائصه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فلا يجوز أن يشرك مع الله عَزَّ وَجَلَّ غيره لا في التسمية ولا في الذل ولا في الخضوع ولا غير ذلك من الاشراك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما في الآية قال: "لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن-يخوفهما- سمياه: عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت فأتاهما، فقال: مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت فأتاهما، فذكر لهما فأدركهما حب الولد، فسمياه: عبد الحارث فذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف: ١٩٠]". رواه ابن أبي حاتم.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تفسير الآية الكريمة من أثر ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.

قال: في معنى الآية؛يعني: في معنى الآية المتقدمة.

"لما تغشاها"؛ يعني: تغشى آدم حواء بحيث جامعها.

"فأتاهما إبليس"، إبليس هو أبو الجن، وسمي إبليس لأنه أبلس من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ وانقطع منها.

قال: "فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة"؛ يعني: أنا إبليس الذي تسببت في إخراجكما من الجنة.

لتطيعني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن؛ يعني: يقول لآدم وحواء إن لم تفعل ما أقول لأفعلن بابنكما هذا الشيء.

"ولأفعلن-يخوفهما-, سِّمياه: عبد الحارث"؛ يعني: سميا هذا الابن عبد الحارث، والحارث يقال: أنه كان اسم لإبليس قبل أن يطرد من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

"فأبيا أن يطيعاه"؛ يعني: أبيا أن يطيعاه في التسميه لغير الله عَزَّ وَجَلَّ.

"فخرج ميتًا، ثم حملت فأتاهما"؛ يعني: المرة الثانية.

"فذكر لهما"؛ يعني: مثل ما قال.

"فأدركهما حب الولد، فسمياه: عبد الحارث، فذلك قوله تعالى:}جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا{"؛ يعني: في التسميه، يعني: سمياه عبد الحارث وهنا مجرد طاعة للشيطان كما سيأتي عن قتادة رَحِمَهُ اللهُ، فهو طاعة للشيطان في التسميه وليس شرك.

قال:**رواه ابن أبي حاتم**.

هذا الأثر يقول ابن حزم: أنه موضوع.

وقال ابن كثير: أن هذا الأثر فيه ثلاث علل ولا يثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فهذه القصة لا تثبت.

وقد جاء في معنى هذه القصة ما روى الامام أحمد من حديث سمرة ابن جندب أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أن حواء كانت لا تلد فطاف بهما إبليس وكان اسمه عبد الحارث فقال: سمياه عبد الحارث وتلد، فسمياه، ثم فُسرت بها الآية، ولكن هذا الحديث أيضًا ضعيف يقول الذهبي: ضعيف لا يثبت.

فهذه الأثار لا تخلو من حالتين:

- الحالة الأولى: أن تكون ضعيفة ولا تثبت.

- الحالة الثانية: أن تكون ثابتة ولكنها من آثار أهل الكتاب التي لا تصدق ولا تكذب.

كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: أن هذه الأثار الذي يظهر أنها من آثار أهل الكتاب.

ولذلك هذا الأثر فيه إشكالات كثيرة:

فمن إشكالات هذا الأثر: أن إبليس اعترف بنفسه، فكيف آدم يطيع إبليس مع أنه يعرف أنه عدوه؟!والله عَزَّ وَجَلَّ قال إنه عدوك وعدوك وزوجك، أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ آدم أن إبليس عدو له ولزوجه فكيف يطيعه وهو يعرف أنه عدوه؟ لا يمكن أن آدم يطيع عدوه وهو يعرف أنه عدوه قال:أنا إبليس.

وأيضًا إبليس في الأثر أنه أخبر بنفسه وقال:أنا الذي تسببت في إخراجكم من الجنة، كأنه يقول لا تطيعني إذًا، فكيف يطيعه آدم مع أنه اعترف بهذا الشيء؟!

أيضًا من الإشكالات في الأثر: أن آدم عَلَيْهِ السَّلاَم يعرف أن إبليس لا يقدر على هذا الشيء لا يقدر أن يخلق لهذا الابن قرني أيل، يعني: تيس جبل ما يقدر عليه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فكيف آدم يخفى عليه هذا الشيء؟ ما يمكن أن يخفى على آدم، وهو الذي علمه الله عَزَّ وَجَلَّ أسماء كل شيء.

وأيضًا من الإشكالات: كيف أن آدم عَلَيْهِ السَّلاَم يسمي ابنه باسم فيه تعبد لغير الله، ما يمكن هذا.

ومن الإشكالات أيضًا: كيف أن آدم عَلَيْهِ السَّلاَم وهو نبي من الأنبياء كيف يقدم محبة الولد على محبة الله؟ لأنه عَلَيْهِ السَّلاَم يحب الله عَزَّ وَجَلَّ أكثر من يحب الولد وغيره.

فلو كان الأثر صحيح لقال آدم افعل ما تفعل فلن أعصي ربي، فلا يمكن أن يكون هذا الأثر صحيح.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وله بسند صحيح عن قتادة قال: "شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته".

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: }لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا{ قال: "أشفقا ألا يكون إنسانًا". وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وله بسند صحيح عن قتادة قال: "شركاء في طاعته"؛ يعني: قتادة رَحِمَهُ اللهُ وجه الآية لئلا يكون شرك في العبادة وجه الآية أنه شرك في الطاعة، والشرك في الطاعة يختلف عن الشرك في العبادة، لأن الشرك في الطاعة هو مجرد معصية لا شرك أكبر ولا شرك أصغر، كحال بعض المعاصي الصغائر فتكون شرك في الطاعة.

فالذي يطيع الشيطان –مثلًا– في معصية هو أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ في طاعته، فالشرك في الطاعة ليس كالشرك في العبادة؛ بمعنى: أن من أطاع الشيطان في معصية الله فقد أشرك بالله في طاعة الشيطان ، فوجه هذه الآية إلى هذا التفسير رَحِمَهُ اللهُ.

ولذلك قال: "ولم يكن في عبادته" وعلى هذا يزول الإشكال لأن الأنبياء قد يقع منهم صغائر من الذنوب ولكن لا يقرون عليها بل يتوبون ويرجعون ويتوب الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم، وإن كان في الطاعة فلا إشكال.

ولذلك من وقع في طاعة الشيطان بمعصية فإنه قد وقع في شرك في الطاعة، وعلى هذا كل من عصى الله عَزَّ وَجَلَّ في معصية فهو قد وقع في نوع من الشرك، لأن من قدم هواه على طاعة الله أو قدم طاعة الشيطان على طاعة الله فقد وقع في نوع من الشرك، ولكن هذا الشرك ليس شرك في التعبد والتذلل والخضوع إنما هو شرك في الطاعة.

ولكن هذا على صحة الآثار، ولكن الصحيح –والله أعلم–: أن هذا لا يرد أيضًا لأن المراد غير آدم وحواء.

قال: وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: }لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا{, قال: "أشفقا ألا يكون إنسانًا".

يعني: خافا أن هذا الولد لا يكون إنسان، فسألا الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرزقهما صالحًا، صالحًا بحيث يكون إنسان ولا يكون بعضه حيوان وبعضه إنسان ونحو ذلك.

وذكر معناه عن الحسن؛ الحسن رَحِمَهُ اللهُ ثبت عنه أن الآية ليست في آدم وحواء.

يستفاد من هذا الباب: أن التسمية في اسم فيه تعبد لغير الله لا يجوز وهو نوع من الشرك، فمن سمى ابنه -مثلًا- عبد الكعبة أو عبد الحارث أو عبد النبي فقد وقع في شرك في التسمية وفعله محرم ولا يجوز.

ومن فوائد الباب: أن الإنسان عليه أن ينسب النعم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي أسدى هذه النعم.

ومن الفوائد أيضًا فوائد هذا الباب: أن الإنسان يصدق مع الله عَزَّ وَجَلَّ إذا عاهده، فإذا عاهد الله عَزَّ وَجَلَّ ألا يعصيه فعليه أن يستمر، وإذا عاهد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يطيعه بنذر ونحوه فعليه أن يوفي، وهكذا.

ومن فوائد الباب: أن الشرك في الطاعة يختلف عن الشرك في العبادة، فالشرك في الطاعة يدخل فيه المعاصي، وأما الشرك في العبادة فهو أن يذل ويخضع لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا هو الشرك الذي لا يُغفر.

ومن الفوائد فوائد الباب: أن هبة الولد الصالح من النعم التي يتحتم على العبد أن يشكر الله عَزَّ وَجَلَّ عليها.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: }وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{[الأعراف: ١٨٠]

قَال الشَّارِحُ وفّقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب قول الله تعالى:** }وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{[الأعراف: ١٨٠].

مناسبة هذا الباب: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ رد فيه على الذين يتوسلون بالأموات وبالغائبين وبالوسائل الغير مشروعة، وبيّن في هذا الباب أن المشروع التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحسنى، ورد فيه على الذين يلحدون في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب قول الله تعالى:** }وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.{

في هذه الآية الكريمة يرشد الله عَزَّ وَجَلَّ عباده إلى أن يدعوه ويتوسلوا إليه بأسمائه الحسنى البالغة في الحسن منتهاه، ويحذر الذين يلحدون؛ يعني: يميلون في أسمائه أنهم سيلاقون وبال فعلهم.

قال:}وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى{، الأسماء جمع اسم، والاسم هو ما دل على المسمى، والحسنى صيغة مبالغة؛ يعني: البالغة في الحسن منتهاه التي بلغت في الحسن منتهاه.

قال:}فَادْعُوهُ بِهَا.{

}فَادْعُوهُ{؛ يعني:اسألوه بهذه الأسماء، وأيضًا تعبدوا له بمقتضى هذه الأسماء فهو يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

قال:}بِهَا{؛ يعني: بهذه الأسماء.

}وَذَرُوا{؛ يعني:اتركوا،}الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ.{

}يُلْحِدُونَ{؛ يعني: يميلون.

}فِي أَسْمَائِهِ{؛ يعني: في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيميلون بها عن غير الحق إما أن يجحدوها، وإما أن يجحدوا معانيها، وإما أن يضيفوا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ما لم يسمي به نفسه، وإما أن يشتقوا لمعبوداتهم منها.

ففي الآية الكريمة يُنبه الله عَزَّ وَجَلَّ عن التوسُّل المشروع، والتوسُّل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ينقسم إلى قسمين:

الأول: مشروع.

والثاني: ممنوع.

فأما المشروع فهو أنواع:

الأول: التوسُّل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحسنى وهو على وجهين:

الوجه الأول: أن يتوسُّل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بجميع أسمائه، كما جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَك».

الثاني: التوسُّل باسم خاص مناسب للمقام، التوسُّل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ باسم خاص مناسب للمقام.

كأن يتوسُّل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ باسمه الغفور إذا أراد أن يُغفر له فيقول: يا غفور اغفر لي، ويتوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ باسمه القهار إذا أراد أن ينصره الله عَزَّ وَجَلَّ فيقول: يا قهار انصرني، ويتوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ باسمه الرحمن إذا رأى أنه قد أذنب وأخطأ وأراد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرحمه فيقول: يا رحمن ارحمني لا تأخذني في هذه المعصية.

الثاني: التوسُّل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بصفاته وهو على وجهين أيضًا:

الأول: التوسُّل إلى الله بجميع صفاته يعني يقول: اللَّهم إني أسألك بصفاتك العلا، فهذا مشروع.

الثاني: أن يتوسل بصفة خاصة مناسبة للمقام، كقول: اللَّهم بعلمك الغيب أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، كما جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، فأَحْيِنِي مَا كانت الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي»، فيتوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بصفة تناسب المقام.

كمن أذنب وخاف أن يؤخذ فيقول: اللَّهم إنك حليم فلا تأخذني على المعصية، فلا تأخذني وأنا قد عصيت، أو يكون عنده جهل فيقول: اللَّهم إنك أنت الفتاح فافتح علي في هذه المسألة، فيسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بصفاته فهذا مشروع.

الثالث: سؤال الله عَزَّ وَجَلَّ بذكر حاله أن يذكر الداعي حاله، كأن يكون –مثلًا– مريض فيقول: اللَّهم إنه قد مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، أو يذكر مرضه فيقول كما قال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[الشعراء: ٨٠].

وكما قال أيوب: عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ} أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ{[الأنبياء: ٨٣]، فذكر حالته.

وكما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ}:رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ{[القصص: ٢٤]؛ يعني: محتاج يا ربي لأن تطعمني وتسقيني فأنا فقير إليك.

الرابع: سؤال الله عَزَّ وَجَلَّ بالعمل الصالح، كأن يتوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بصدقته، أو ببره لوالديه، أو بصلاته ويقول: اللّٰهم بصلاتي فاغفر لي، اللّٰهم إن كنت أقيم الصلاة ابتغاء مرضاتك فوفقني وهكذا.

والدليل على ذلك: ما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر عن خبر الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فتوسل كل واحد منهم بعمله الصالح، فتوسل أحدهم بعفته عن الزنا، وتوسل الآخر ببره لوالديه، وتوسل الآخر بأمانته، ففرَّج الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم.

الخامس: التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالإيمان به وبرسوله فيقول: اللّٰهم بإيماني بك وبرسولك وفقني وأهدني وأصلحني وهكذا، كما قال المؤمنون وقد حكى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عنهم:}رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ{[آل عمران: ١٩٣]، فسألوا الله عَزَّ وَجَلَّ بإيمانهم به وبرسوله سمعنا مناديا ينادي للإيمان فآمنا.

السادس: التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بدعاء الرجل الصالح الحاضر الذي ترجى إجابته، كما جاء في صحيح البخاري عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال:"اللّٰهم إنا كنا نتوسل بنبيك فتسقينا، وإنا نتوسل بعم نبيك"، والتوسل هنا التوسل بدعائه وليس بذاته بل هو التوسل بدعائه.

ولذلك جاء في بعض الروايات أيضًا أنه قال:"قم يا عباس فادعوا ".

ولو كان التوسل بالذات لما عدلوا عن نبي الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، فهو أعظم جاه عند الله عَزَّ وَجَلَّ، فدل على أن التوسل بالدعاء، فتأتي إلى رجل صالح وتقول: يا فلان ادعو الله لي.

ويدل عليه أيضًا ما جاء في الصحيحين من حديث أنس أن رجلًا دخل يوم الجمعة ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادعوا الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يديه فقال: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»، فتوسل بدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا جائز.

وسؤال الشخص أن يدعو لا يخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن تقول للشخص: ادعو للمسلمين فهذا مستحب، فتقول: يا فلان ادعو للمسلمين أن الله عَزَّ وَجَلَّ ينصرهم، وأن الله يرفع ما أصابهم، وهكذا، هذا مستحب.

الثاني: أن تنوي بقولك: يا فلان ادعو الله لي أن يقول له مثل ما لك، لأن الإنسان إذا قلت –مثلًا– له: ادعو الله لي فدعا لك فإن الملك يقول: ولك بمثله، فإذا نويت هذه النية فهذا حسن.

ولذلك جاء في الحديث أن الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك: ولك بمثل.

الثالث:أن ينوي نفع نفسه فقط، فهذا ما ينبغي لأنه داخل في مسألة الناس، ولذلك بايع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا ولكنه جائز من ما لا ينبغي.

هذا القسم المشروع من التوسل.

القسم الثاني: الممنوع، وهو التوسل بالأموات كأن يجعلهم وسيلة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فيسألهم أن يوصلوا دعائه إلى الله، فيأتي إلى الميت مثلًا ويقول: يا فلان أدعو الله لي، أو يا فلان اسأل الله عَزَّ وَجَلَّ لي أن يغفر ذنبي، فهذا شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام والعلة في ذلك بل العلل في ذلك كثيرة:

منها: أنه ما أتى إلى هذا الشخص إلا وقد امتلأ قلبه تعبدًا لهذا الميت من حب وتعظيم ورجاء، وهو يرجو هذا الميت ويعظمه كتعظيم الله، ويحبه كحب الله، هذا يوجد عند الذين يدعون الأموات والغائبين.

وأيضًا لأنه إذا فعل ذلك توجه بالدعاء إلى غير الله فقوله: يا فلان هذا دعاء وهذا ميت والميت غائب، ودعاء الغائب شرك، ولأنه رجى النفع من غير الله عَزَّ وَجَلَّ، فالله عَزَّ وَجَلَّ

أخبرنا أن الأموات لا يضرون ولا ينفعون، ولأنه إذا قال ذلك كأنه دعا الصنم، فما هو الفرق بين قوله يا أيها الميت ادعو الله لي وقوله يا لات أو يا عزى ادعو الله لي، ما هو الفرق؟

هذا يشابه هذا بل هذا مثل هذا، لأن هذا ميت وهذا ميت أيضًا، وإن قال هذا الميت له شعور أو له حياة خاصة فيقال: أيضًا هذا الحجر له حياة خاصة وله شعور خاص.

والدليل: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أخبرنا أنه ما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا يسبح بحمد الله.

وأيضًا جاء في الصحيح: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان قبل البعثة في مكة كان يمر بحجر فيسلم عليه فيقول: السلام عليك يا رسول الله، وأيضًا موسى عَلَيْهِ السَّلاَمُ الحجر هرب بثوبه، وأيضًا سمع الصحابة تسبيح الحصى في أصابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه المخلوقات لها شعور.

وأيضًا الله عَزَّ وَجَلَّ قال للسماوات والأرض:}ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ{[فصلت: ١١].

فهذه المخلوقات لها شعور، كما أن الميت له حياة خاصة هذه المخلوقات لها شعور خاص.

أيضًا من التوسل الممنوع: ما هو وسيلة للشرك، كالتوسل بذوات الأموات يأتي عند الميت فيقول: اللَّهم إني أسألك بهذا الميت، فهذا بدعة وموصل إلى الشرك وليس هو بشرك، لأنه سأل الله عَزَّ وَجَلَّ ولم يتوجه إلى الميت.

أيضًا سؤال الله عَزَّ وَجَلَّ بحق المخلوق،كأن يقول: الله إني أسألك بحق نبيك أو بحق ملائكتك أو بحق كذا من المخلوقات، فهذا بدعي وموصل إلى الشرك.

أيضًا التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالذوات أو المخلوقات أو غير ذلك مما لا يجوز، فهذا بدعي وقد يوصل إلى الشرك.

إذا قال –مثلًا–: اللَّهم إني أسألك بحق فلان، أو بجاه فلان، أو بذات فلان، فإن هذا كله من البدع وهو وسيلة إلى الشرك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما: }يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ{[الأعراف: ١٨٠]: يشركون.وعنه: "سمَّوا اللَّات من الإله، والعُزَّىٰ من العزيز".

وعن الأعمش: "يُدْخِلُونَ فيها ما لَيْسَ مِنها".

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال:**وذكر ابن أبي حاتم:** ابن أبي حاتم الرازي.

عن ابن عباس:}يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ{[الأعراف: ١٨٠]: يشركون.

فسر ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ الشرك بأنه إلحاد في أسمائه الله عَزَّ وَجَلَّ.

وعنه: يعني: عن ابن عباس.

"سموا اللَّات من الإله"؛ يعني: اشتقوا اسم اللَّات من الإله.

"والعُزَّى من العزيز"؛ يعني: العزَّى اشتقوها من العزيز.

وعن الأعمش: "يُدخلون فيها ما ليس منها"؛ يعني: يدخلون في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ ما ليس منها كفعل النصارى يقولون: أنه أب، وكفعل الملاحدة الذين يقولون: أنه العلة الفاعلة أو هو مبدأ هذا الوجود أو هكذا، فيدخلون فيها ما ليس منها.

فذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تفسير السلف لهذه الآية الكريمة.

والإلحاد في اللغة: هو الميل ومنه اللحد، لأنه يمال في وسط الحفرة .

فالإلحاد في اللغة: هو الميل والإلحاد في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ، أو الإلحاد قد يكون في العبادة لله، فالمشرك ملحد لأنه صرف العبادة ومال بها عن غير الله وتوجه إلى غير الله.

ولذلك قال ابن عباس: "يشركون"، فالمشرك مائل وملحد، والملحد هو المائل فيلحد في تعبده لله عَزَّ وَجَلَّ، وأيضًا من الإلحاد الإلحاد في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ، والإلحاد في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ أقسام:

منها: أن يشتق من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ لمعبوداته الباطلة، كفعل هؤلاء الكفار الذين اشتقوا اللّات من الإله، وهذا على قول، والعزَّى من العزيز.

ومن الإلحاد أيضًا: أن يسمي الله عَزَّ وَجَلَّ ما لم يسمي به نفسه، كأن يسمي الله عَزَّ وَجَلَّ أب كفعل النصارى، أو يسميه علة فاعلة وهكذا،فيسمي الله عَزَّ وَجَلَّ ما لم يسمي به نفسه فهذا من الإلحاد.

ومن الإلحاد: أن ينفي أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ فيقول: الرحمن ليس من أسماء الله، والعزيز ليس من أسماء الله، والقوي ليس من أسماء الله، فهذا من الالحاد كفعل غلاة الجهمية الذين ينفون الأسماء لله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الالحاد أيضًا: أن ينفي معانيها فيقول: الله عَزَّ وَجَلَّ رحيم ولكن بلا رحمة، عزيز ولكن بلا عزة، سميع ولكن بلا سمع، وهكذا، كفعل غلاة المعتزلة فهم ينفون المعاني ويقولون: الله عزيز رحيم قوي ولكن بلا معاني، فهو رحيم بلا رحمة، وقوي بلا قوة، وعزيز بلا عزة، وهكذا، فهذا من الإلحاد.

وهذا الباب فيه أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد أن التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يكون بأسمائه، ، والتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه.

فالتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه في السؤال كأن يقول: يا رحمن أرحمني، فيعتقد في قلبه أن لله عَزَّ وَجَلَّ رحمة، أو يقول يا غفور اغفر لي، ويعتقد في قلبه أن الله غفور، فهذا من التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه في سؤاله.

الثاني: التعبد إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في الذل والخضوع، فيتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بمقتضى هذه الأسماء، فيتوب إلى الله لأنه تواب، ويخشى الله عَزَّ وَجَلَّ لأنه عزيز قوي جبار، ويستغفر الله عَزَّ وَجَلَّ لأنه غفور، ويتعرض لرحمة الله عَزَّ وَجَلَّ لأنه رحيم، ويخشى عقاب الله عَزَّ وَجَلَّ لأنه قد يأخذه لأنه عزيز ذو انتقام سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وهكذا، فيتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بمقتضى هذه الأسماء.

وأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ ليس لها حصر محدود؛ بمعنى: أن الخلق لا يحصر أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ فلله أسماء لا يعرفها الخلق لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والدليل: أنه جاء في حديث ابن مسعود قال: «أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَك»، ولذلك من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ ما لا يعلمها الخلق لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ كثيرة ليس لها حد يحصرها الخلق.

ومن أسماء الله تسعة وتسعين اسم من أحصاها دخل الجنة، كما جاء في حديث أبي هريرة.

وقول:(من) للتبعيض؛ يعني: ليس هي كل أسماء الله، بل هذه الأسماء من شأنه أن من حفظها وعمل بمقتضاها وتعبد لله بمقتضاها وحصرها فإنه يكون سبب في دخوله الجنة.

ولذلك جاء في حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إلا وَاحِدٍ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، فهذه الأسماء تسعة وتسعين اسم في الكتاب والسنة، وليست هي جميع الأسماء بل هي أكثر ولكن تسعة وتسعين من أحصاها دخل الجنة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب لا يقال: السلام على الله

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: **باب لا يقال: السلام على الله.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى منزه عن النقص، وسؤال السلامة لله عَزَّ وَجَلَّ يوهم بأنه يحتاج إلى تكميل، وهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الكامل من جميع الوجوه، فلا يُسأل له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى السلام لأنه سالم من كل نقص، فإذا سأل الإنسان لله

السلامة فإنه يوهم ذلك أنه يحتاج إلى ما يكمله، ولأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يُسأل ولا يُسأل له، فلا يقال السلام على الله ولاكن تقول: اللّهم سلمني، ولا تقول: اللّهم سلم نفسك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فأتى المؤلف بهذا الباب ليُنبه على هذا المقام.

قال: **باب لا يقال**، (لا) هنا نفي وهي أبلغ من النهي، والنفي يدل على الماضي والحاضر والمستقبل، كأنه لا ينبغي أن يُقال هذا لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل.

لا يقال ؛ مبني للمجهول، يعني: لا أحد يقول هذا الشيء.

لا يقال: السلام على الله، السلام مصدر سَلَمَ يُسلم تسليمًا، وهو الدعاء بالسلامة من النقائص.

وقيل: أن السلام هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فقوله: السلام عليك؛ يعني: الله عليكم بالحفظ والكلاءة والرعاية.

لا يُقال السلام على الله؛ يعني: لا يُسأل السلامة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه هو الكامل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو الذي يُطلب منه السلامة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فسؤال السلامة لله عَزَّ وَجَلَّ يوهم بأمور:

الأول: أنه يوهم بأن الله عَزَّ وَجَلَّ يحتاج لما يُكمله، لأنه في العادة لا يُسأل السلامة لشيء إلا وهو قابل للنقص، فأن تقول: اللّهم سلِّم فلان؛ يعني: من الناس لأنه قابل للنقص، والله عَزَّ وَجَلَّ كامل من جميع الوجوه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ويوهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يحتاج لمن يسأل له، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الغني ذو الرحمة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ذو العزة، فهو الذي يُسأل ولا يُسأل له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الصحيح عن ابن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ أنه قال :كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ» .

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**وفي الصحيح**: يعني: في الصحيحين.

قال: عن ابن مسعود أنه قال:كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني: كنا معشر الصحابة إذا كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصلي -.

فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ؛ يعني: يسلمون على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيقولون: السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ.

وفعل ذلك الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم لأنهم ظنوا أن السلام تحية، ولذلك فسر بعض العلماء أن السلام تحية، أو لأنه قبل أن يعرفوا حكم هذا الشيء، فالإنسان قبل معرفة الحكم معذور، قبل أن يُنزل في الحكم شيء معذور.

السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ، فلان يعني: جبريل، كما جاء في بعض الروايات.

وَفُلَانٍ؛ يعني: ميكائيل، كما جاء في بعض الروايات أيضًا.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني: عند ذلك، «لَا تَقُولُوا»، اللام لام النهي.

«لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ»؛ يعني: لا تقولوا هذا اللفظ.

«لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»، (إن) هنا مؤكدة.

«فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»، (وهو) ضمير فصل يدل على التوكيد.

«فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»؛ يعني: السالم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من كل نقص، والمُسلم لمن شاء من خلقه، فهو السالم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من كل نقص المُسلم لمن شاء من خلقه.

(وال) للعموم.

(ال) في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ يدل على العموم، وقوله: «السَّلَامُ»؛ يعني: السالم من كل نقص ولا يلحقه نقص بوجه من الوجوه.

وقوله -مثلًا- في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ: العليم؛ يعني: الذي اتصف بالعلم الذي أحاط بكل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي لا منتهى لعلمه.

والعزيز أيضًا الذي لا منتهى لعزته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، (فالـ) في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ تفيد العموم واستغراق المعنى.

ففي هذا الباب: أن المسلم عليه أن يُنزه ربه عَزَّ وَجَلَّ، فيحتاط لألفاظه إذا كانت الألفاظ توهم ما لا يجوز فإن الإنسان يبتعد عنها، فلا يقول -مثلًا-: اللّهم - - يدعو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو نحو ذلك، هذا لا يجوز لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يُدعى وهو الذي يُسأل وهو الذي يعطي وهو الغني عن الخلق، والخلق جميعًا محتاجون إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا غنى لمخلوق عنه سبحانه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب قول: اللّهم اغفر لي إن شئت** .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الإنسان إذا قيَّد دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ بالمشيئة يُشعر أن الإنسان يستغني عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويُشعر أيضًا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يتعاظمه الشيء ، وأيضًا يُشعر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يعطي الشيء وهو كاره له ، فأتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليُبين حكم هذا القول.

وقال المؤلف:**باب قول: اللّٰهم) ،اللّٰهم)** أصلها (يا الله) حذفت الياء وأبدلت بالميم ليجمع العبد قلبه على ربه عند الدعاء.

ولذلك قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: أن (اللّٰهم) مجمع الدعاء.

قال:**اللّٰهم اغفر لي ،اغفر لي**؛ يعني: استر ذنبي وتجاوز عنه، المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذي يُتقى به من السهام في الحرب.

اغفر لي إن شئت؛ يعني: إن شئت وهذا تقييد بمشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقول:**اللّٰهم اغفر لي إن شئت**، يشعر بأمور:

الأول:يُشعر بأن أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد يتعاظمه شيء، والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يمتنع عليه شيء أراده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لا يمتنع عليه شيء بل هو على كل شيء قدير.

وأيضًا يُشعر بأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد يعطي العبد وهو كاره وهذا منافي لكمال التوحيد، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يعطي بغير حساب ويعطي ولا يبالي سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

لذلك جاء عند الترمذي قال:«غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي»؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يتعاظمه شيء ويعطي الشيء وهو كامل القدرة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وكامل الحكمة.

وأيضًا يُشعر بأن العبد مستغني عن الله كأنه يقول: إن غفرت يا ربي لي أم لم تغفر لي فهذا عندي سيان، فكأنه يُشعر أن العبد مستغني عن الله، والعبد فقير ذليل محتاج لله عَزَّ وَجَلَّ في كل آن وفي كل وقت، ومن أعظم ما يحتاج فيه العبد إلى الله عَزَّ وَجَلَّ مغفرة الذنب، فيحتاج العبد أن يغفر الله عَزَّ وَجَلَّ ذنبه.

فينبغي أن يجزم ويسأل الله عَزَّ وَجَلَّ وهو بإلحاح وذل وخضوع ويرى من نفسه الاستكانة إلى الله وأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الغني.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَقُولَن أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ» .

ولمسلم: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال: **وفي الصحيح:** يعني: في الصحيحين.

عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَقُولَن»، لا هنا نافية والفعل بعدها مجزوم.

قال: «لَا يَقُولَن أَحَدُكُمْ»، «أَحَدُكُمْ»؛ يعني: معشر الصحابة ومعشر هذه الأمة.

«لَا يَقُولَن أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْت»؛ يعني: لا يقول إذا دعا اللّٰهم اغفر لي إن شئت فيقيد بالمشيئة، فنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك.

«اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إنْ شِئْت»؛ يعني: لا يقول أيضًا اللّٰهم ارحمني إن شئت فيقيد بالمشيئة، فنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك.

قال: «لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ»، «لِيَعْزِمَ»؛ يعني: ليجزم وليكون عنده شدة إلحاح وشدة طلب المسألة.

«الْمَسْأَلَةَ»؛ يعني: دعاء المسألة، فإذا سأل الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء فعليه أن يلح ويسأل الله عَزَّ وَجَلَّ ويرى من نفسه الافتقار والحاجة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وأن يعطيه هذا الشيء.

قال: «فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ»، ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا العلة.

«فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ»؛ يعني: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يكره أحد على إعطاء الشيء، فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يعطي عن كمال القدرة وعن كمال الغناء وعن كمال الحكمة وهلمَّ جرا في صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الكامل من جميع الوجوه والخلق محتاجون إليه، وهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى واسع العطاء،فالله عَزَّ وَجَلَّ واسع عليم.

قال: «لَا مُكْرِهَ لَهُ».

قال: **ولمسلم:** يعني: في صحيح مسلم.

«وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ»، «وَلْيُعَظِّمِ»؛ يعني: ليكون طلبه عظيم فيسأل الجنة ويسأل الفردوس ويسأل المغفرة ويسأل الأمور العظام، لأنها على الله عَزَّ وَجَلَّ يسيرة.

ولذلك جاء في حديث ابن مسعود في الرجل الذي يدخل آخر رجل يدخل الجنة يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «لك مثل الملك من ملوك الدنيا، ثم قال: ولك وعشرة أمثاله».

وفي بعض الروايات: «أنه لك الدنيا وعشرة أمثاله، فقال العبد: أتهزأ بي وأنت الملك؟ فضحك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ من قول العبد فقال: إني لا أهزأ بك ولكني علىٰ ما أشاء قادر»؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ واسع العطاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ»، الرغبة: هي السؤال بتضرع في طلب الوصول إلى الشيء المحبوب، هذه هي الرغبة.

قال: «فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ»؛ يعني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يعظم عليه شيء فما من شيء إلا وهو يسير على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولذلك «شَيْءٌ أَعْطَاهُ»، الله عَزَّ وَجَلَّ يعطي.

ولذلك جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ الله عَزَّ وَجَلَّ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مما فِي يَمِينِهِ شيء»، فهو واسع العطاء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهو الغني ذو الرحمة.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن ما لا ينبغي من القول والفعل، وهنا نهى عن هذا اللفظ.

ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن ما لا ينبغي من الأقوال والفعل؛ ولذلك قال: «لَا يَقُولَن أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ».

ومن الفوائد: أن العبد عليه إذا سأل الله عَزَّ وَجَلَّ ألا يقول اللّٰهم اغفر لي إن شئت، اللّٰهم ارحمني إن شئت، هذا إذا دعا لنفسه، وأيضًا إذا دعا لغيره مثلًا يقول: يا فلان غفر الله لك إن شاء الله، أو أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يوفقك إن شاء الله، أو أسأل الله أن يدخلك الجنة إن شاء الله، فهذا من الخطأ وهو داخل في هذا النهي، بل عليه أن يعزم المسألة إذا سأل لنفسه أو لغيره فيقول لنفسه -مثلًا-: اللّٰهم اغفر لي، اللّٰهم ارحمني، اللّٰهم وفقني، وهكذا ويعزم.

وأيضًا إذا دعا لغيره يقول: اللّهم وفق فلان، أو وفقك الله يا فلان، أو رحمك الله يا فلان، أو أشفاك الله يا فلان، ما يقول: إن شاء الله.

وقد يقول قائل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل على رجل وهو مريض فقال: «طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ»،فهذا قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لغيره؟

فالجواب: أن هذا من باب الخبر وليس من باب الطلب، من باب الخبر فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ»؛ يعني معنى الكلام: أن هذا قد يكون طهور إذا صبر واحتسب، وقد يكون غير طهور إذا لم يصبر الإنسان ولم يحتسب، فهو إذا احتسب الإنسان فهو طهور؛يعني: من ذنبه وليس هو دعاء، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما دعا لهذا الرجل وإنما أخبر خبر أن هذا المرض قد يكون طهور فإذا صبر الإنسان واحتسب يكون طهور.

ومن الفوائد: أن الإنسان محتاج إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في مغفرة ذنبه وأن يرحمه الله عَزَّ وَجَلَّ، فالإنسان مهما بلغ من العلم والتقى والعبادة فإنه يحتاج أن يغفر الله عَزَّ وَجَلَّ ذنبه وأن يرحمه.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال لنبيه:﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[محمد: ١٩].

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ».

وفي رواية: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»، فالإنسان عليه أن يكثر من دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ ويستغفر ويتوب ويسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يتوب عليه ويغفر له.

قال ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كنا نعد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد اللّهم اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا سأل الله عَزَّ وَجَلَّ فإن عليه أن يعزم بمعنى: أن يكون عنده إلحاح وشدة طلب وهذا مما يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك قال القائل:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

فالله عَزَّ وَجَلَّ يحب العبد اللحوح، وهذا من أسباب إجابة الدعاء أن يلح الإنسان؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ{[النمل: ٦٢].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ{[الأنفال: ٩].

فإذا ألح الإنسان فإنه من أسباب أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعطيه.

ومن الفوائد: سعة غنى الله عَزَّ وَجَلَّ فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يعطي الشيء مهما عظم ولا مكره له،فلا يعطي الشيء وهو كاره له بحيث أنه يثقل عليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، بل كل شيء عليه يسير بخلاف بني آدم.

فالإنسان إذا أردت منه الشيء فإنك تقول له: أعطني إن شئت،فهذا طيب لأن الإنسان قد يعطيك وهو عاجز، أو يعطيك وهو كاره، أما الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو واسع العطاء وواسع الجود وواسع القدرة وهو على كل شيء قدير ولا مكره له سبحانه، فتسأله وتلح عليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يعطيك.

ومن الفوائد: أن الشيء مهما عظم فهو على الله يسير، فاسأل من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما ترى أنه مفيد لك، فاسأل من الله عَزَّ وَجَلَّ الفردوس، واسأل من الله عَزَّ وَجَلَّ أعلى الدرجات، واسأل من الله عَزَّ وَجَلَّ المال، واسأل من الله الولد، واسأل من الله كل شيء ترى أنه مفيد لك؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يتعاظمه شيء.

ولكن لا يجوز أن يسأل الإنسان ما لا يقع قدرًا، كأن يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعله حي ميت لأن هذا ليس بشيء حتى يُسأل، أو يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجمع بين النقيضين فهذا لا يجوز لأن هذا يسمى ممتنع لذته ، أو يسأل من الله عَزَّ وَجَلَّ ما لا يجوز شرعًا كأن يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعله نبي ويقول: اللّهم اجعلني من الرسل، اللّهم اجعلني من الأنبياء، فهذا لا يجوز لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ختم الأنبياء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأن النبوة فضل من الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يهبها من يشاء وليس هي طلب من الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب لا يقول: عبدي وأمتي

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هنا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب لا يقول: عبدي وأمتي.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن هذه الألفاظ لما كانت تُشعر بمشاركة الإنسان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ربوبيته أو في عبوديته لخلقه، فأتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليحذر من هذه الألفاظ وأنه قد جاء النهي عنها.

قال: **باب لا يقول**) ،**لا**) هنا نفي وهي أبلغ من النهي، لأنها تدل على الماضي والحاضر والمستقبل، فأنه لا ينبغي أن يقع هذا لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل.

لا يقول؛ يعني: مبني للمجهول؛ يعني: أي أحد لا يقول هذا اللفظ.

لا يقول: عبدي) ،**عبدي**) هذا مضاف للإنسان، والمراد هنا: بالعبد قد يراد به عبودية الذل والخضوع، وقد يراد به عبودية الرق، والمراد الثاني غالبًا بمعنى أن الإنسان يريد عبودية الرق.

قال: **وأمتي**، أمتي بمعنى: العبد، الأمة يطلق على الأنثى وهذا قد يراد به الذل والخضوع، وقد يراد به عبودية الرق، والذي يريده الناس غالبًا الثاني يعني عبودية الرق.

ففي هذا الباب أنه لا يقول هذه الألفاظ، وإضافة العبودية للإنسان تنقسم إلى قسمين:

الأول: أن يضيفها الإنسان لنفسه فيقول: هذا عبدي وهذه أمتي، فهذا منهي عنه وقد جاء النهي عن ذلك، كما سيأتينا إن شاء الله في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي».

الحالة الثانية: أن يضيفها غيره إليه على وجه الخبر، فهذا جائز إذا –مثلًا– قال: فلان عبد فلان، فهذا جائز.

والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[النور: ٣٢].

وجاء في صحيح المسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَيْسَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ فِي عَبْدِهِ وَلَا فِي فَرَسِهِ صَدَقَةٌ، إِلَّا زَكَاةُ الْفِطْرِ فِي الرَّقِيقِ»، فأضاف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العبد لهذا الرجل، فهذا من باب الخبر جائز، وأيضًا يقال في ذلك: أمتي، كما يقال: في عبدي.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي ومَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **في الصحيح:** يعني: في الصحيحين.

عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يَقُلْ»، (لا) هنا ناهية والفعل بعدها مجزوم بلا الناهية.

قال «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ»؛ يعني: معشر هذه الأمة من الصحابة وغيرهم.

«أَطْعِمْ رَبَّكَ»؛ يعني: سيدك أطعم سيدك.

«وَضِّئْ رَبَّكَ»؛ يعني: ائت بالوضوء إلى سيدك.

قال: «وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي ومَوْلَايَ»، سيدي هو معنى الرب، ولكن الرب لفظ مشكل، أو لفظ مشترك قد يراد به ربوبية الخلق والملك، وقد يراد به ربوبية السيادة.

قال: «وَلْيَقُلْ»؛ يعني: ليقل هذه الألفاظ.

«سَيِّدِي ومَوْلَايَ»، فلو قال مثلًا: وضئ سيدك هذا جائز، أو أطعم مولاك فهذا جائز، لأن هذا لا يُشعر بمشاركة الله عَزَّ وَجَلَّ لخلقه في ربوبيته.

قال: «وَلَا يَقُلْ»، هنا نهي والفعل بعدها مجزوم.

قال: «وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي»؛ يعني: لا يقل هذا اللفظ، لأن هذا اللفظ قد يراد به عبودية الذل والخضوع، وقد يراد به عبودية الرق.

«وأَمَتِي»، أيضًا لا يقول هذا اللفظ لأنه قد يراد به عبودية الذل والخضوع، وقد يراد به عبودية الرق.

«وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي»؛ يعني: لو قال- مثلًا-: تعال يا فتاة أو اذهب يا فتاة، تعالي يا فتاتي، اذهبي يا فتاتي، فهذا جائز.

قال: «وَغُلَامِي»؛ يعني يقول: يا غلامي تعال، أيها الغلام، يا غلامي، هذا جائز.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أنه لا ينبغي للمسلم أن يقول أطعم ربك، أو وضيء ربك، لأن هذا اللفظ قد يراد به ربوبية الخلق والملك والتدبير وهذه إلى الله وحده لا شريك له، فينهى عن هذا اللفظ، وإضافة الرب لغير الله عَزَّ وَجَلَّ على حالات:

الحالة الأولى: أن يضيفها الإنسان لنفسه فيقول: وضيء ربك، أو أطعم ربك، أو اسمع كلام ربك أيها الغلام، فهذا منهي عنه نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، لأنه يُشعر بمشاركة الله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته لخلقه.

الحالة الثانية: أن يضيفها غير الإنسان له، فهذا الظاهر -والله أعلم- أنه لا ينبغي إذا كان ذكر، فلا يقول -مثلًا-: أيها الغلام أطعم ربك، أو أيها الغلام اذهب إلى ربك، لأن هذا يشعر أن هذا الرجل مشارك لله عَزَّ وَجَلَّ في الربوبية.

الحالة الثالثة: أن يضيفها الإنسان لغير المكلف فيقول: أنا رب هذه الشاة أو رب هذا البعير، فهذا جائز، لأن هذا لا يُشعر بمشاركة الله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته لخلقه، فهذه البهائم لا يتصور منها عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ، فمعلوم أن الإنسان أراد أنه صاحب هذه الدابة أو صاحب هذه الشاة.

والدليل: ما جاء في الصحيحين من حديث زيد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «دَعْهَا حَتَّىٰ يَجِدَهَا رَبُّهَا»، في الإبل، قال: «دَعْهَا حَتَّىٰ يَجِدَهَا رَبُّهَا»؛ يعني: صاحبها.

الحالة الرابعة: أن يكون هذا الشي غير ذات نفس أو غير ذات روح، كما لو كان بيت فيقول: أنا رب هذا البيت ، فهذا جائز، يعني: أنه يريد صاحب هذا الشيء، لأن لفظ رب قد يراد به صاحب؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :رَبِّ الْعِزَّةِ{[الصافات: ١٨٠]؛ يعني: صاحب العزة.

ومن الفوائد: أن الألفاظ المشكلة أو الألفاظ المشتركة ينبغي أن لا تطلق على غير الله عَزَّ وَجَلَّ إلا مقيدة بحيث لا تُشعر بالمشاركة، لأن الربوبية قد يراد بها ربوبية الخلق والرزق والملك والعبادة، وقد يراد بها عبودية المصاحبة رب هذا الشيء؛ يعني: صاحبه فلذلك يبتعد عن مثل هذه الألفاظ.

ومن الفوائد: أنه جائز أن يضيف الأنسان السيادة لنفسه فيقول: أطعم سيدك، وإضافة السيادة إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ على حالات:

الحالة الأولى: أن تكون مطلقة فيقول السيد فلان، هذا ماينبغي لأن (الـ) تدل على الاستغراق وهذا خاص بالله عَزَّ وَجَلَّ، فلا يقال لإنسان من الناس: هذا فلان السيد، لأن السيد هو الذي له السؤدة والشرف،(والـ) للاستغراق وهذا ليس إلا لله عَزَّ وَجَلَّ.

الحالة الثانية: أن تكون مقيدة فهذا جائز، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«**أطعم سيدك**»، وليقل: أطعم سيدك.

ولما جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاء الأنصار -يعني: جاءوا إلى سعد- قال:«**قُومُوا لِسَيدكُم**»،فهذا السيادة المقيدة جائز، ولكن لا تكون هذه مقيدة بجميع الناس فيقول: فلان سيد الناس، فهذا لا يصح لأنه خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ»:**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**»، فلا يقول سيد الناس، ولكن يقول: سيد بني فلان، سيد فلان، سيد الغلام، هذا جائز.

ومن الفوائد: أنه لا ينبغي إضافة عبد لغير الله إلا إذا كان من باب الخبر وكان هذا الشخص غير موجود عند الشخص، أما إذا كان موجود فقال: هذا عبد فلان فهذا لا ينبغي، لأنه قد يوقع في قلب هذا السيد الكِبر فيرى أنه له سيادة ونحو ذلك فيقع في قلبه الكِبر، ولأنه

قد يوقع في قلب العبد الذل والخضوع لغير الله، فلا ينبغي أن يضيفه الإنسان لغيره عنده، أما إذا كان غائب فهذا ، جائز لأن هذه العلة تزول، والعبودية تنقسم إلى قسمين:

الأول: عبودية ذل وخضوع، وهذه خاصة بالله عَزَّ وَجَلَّ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى} :إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا{[مريم: ٩٣]؛ يعني: ذليلًا خاضعًا لله.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى} :وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا{[الفرقان: ٦٣]، وهذه عبادة الذل والخضوع لله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه خاصة بالله عَزَّ وَجَلَّ.

الثاني: عبادة الرق وهي في المملوك، إذا كان الشخص يملك عبد فإن هذا يسمى عبودية الرق.

ومن الفوائد: أنه أيضًا لا يضيف الإنسان المرأة إذا كانت من عبيده إليه، كقول: أمتي، لأن هذا قد يكون لفظ مشترك كما تقدم، فلا يُطلق إلا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيقول: أمة الله، ولذلك لا يقول مطلقًا إلا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما إذا كان من الخبر وفي غياب هذه الأمة هذا جائز؛ كما قال سبحانه: }وَإِمَائِكُمْ.{

ومن الفوائد: أن الأنثى تسمى أمة الله، ولذلك ينبغي للمرأة إذا قالت بعض الأذكار أن تقيد بأمتك، ما تقول: عبدك، وإن كان يقول بعض العلماء: أنه جائز ولكن الأفضل أن تقول: أمتك.

ولذلك الرجل يقول: اللّٰهم أنت ربي خلقتني وأنا عبدك، والمرأة تقول: اللّٰهم أنت ربي خلقتني وأنا أمتك.

ومثلًا: الرجل (أنا عبدك)، والمرأة تقول: (أنا أمتك).

وإن كان شيخ الإسلام يقول: يصح لأن في اللغة العبد يطلق على الذكر والأنثى، ولكن الأفضل أن تقول: أمتك، كما في هذا الحديث.

ومن الفوائد: أن قول: فتاي وفتاتي جائز، فلو قال الإنسان -مثلًا- لمملوكة: تعال يا فتاي، اذهب يا فتاي، أو يا فتاتي، أو يا غلامي فإن هذا جائز.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب لا يرد من سأل بالله

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب لا يردمن سأل بالله.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن من تعظيم العبد لربه أن لا يرد من سأل بالله، فمن كمال التوحيد أن لا يرد من سأل بالله، وإن رد فإنه قد يدل على أنه لا يُعظم الله عَزَّ وَجَلَّ، فأتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب.

قال:**باب لا يردمن سأل بالله،** (السين) تدل على الطلب.

قال:**سأل بالله**؛ يعني: سأل الشخص بالله بحيث أنه قرن سؤاله بالله فقال أسألك بالله.

والمؤلف أتى بالنفي قال:**لايرد،** والنفي أبلغ من النهي لأن النفي يدل على الماضي والحاضر والمستقبل، كأنه لا يُرد لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل فهو أبلغ من النهي، والسائل بالله لا يخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن يسأل ما لا يقدر عليه الإنسان قدرًا، فهذا لا يجاب، كما لو قال: أسألك بالله أن تصعد إلى السماء، أو قال: أسألك بالله أن تشرب ماء البحر، فهذا لا يجاب لأنه غير مقدور عليه بالنسبة للإنسان.

الحالة الثانية: أن يسأل ما لا يجوز شرعًا، كما لو قال: أسألك بالله أن تترك الصلاة، أو قال: أسألك بالله أن تشرب معي الخمر، أو قال: أسألك بالله أن تسرق معي، فهذا لا يجاب ولا يجوز أن يجاب لأن هذا لا يجوز شرعًا.

الحالة الثالثة: أن يسأل ما يضر الإنسان كما لو قال: أسألك بالله أن تخبرني ما تفعل أنت وزوجتك، أو قال: أسألك بالله أن تخبرني بسرك أو ما يضر الإنسان، فهذا لا يجاب لأنه يلحق الإنسان ضرر.

الحالة الرابعة: أن يسأل الإنسان ما يستعين به على المحرم، كما لو قال: أسألك بالله دراهم لأشتري بها دخان أو لأشتري بها أشرطة غناء، فهذا لا يجاب لأنه يسأل المحرم.

الحالة الخامسة: أن يسأل مجموعة من الناس ولا يخص واحد بعينه، فالإجابة هنا فرض كفاية إذا قام بها واحد سقط عن الباقين.

الحالة السادسة: أن يسأل أمر مقدور عليه ومباح، فهنا يجب الإجابة، كما لو قال: أسألك بالله أن تدفع الزكاة لي وهو مستحق لها فهنا يجب أن يجاب ويعطى الزكاة، أو قال: أسألك بالله أن تعطيني من الماء الذي معك وهو يقدر عليه ولا يضره الأخذ منه فيجب الإجابة تعظيمًا لله سبحانه وتعالى، وهو المراد في هذا الباب وفي حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **وعن ابن عمر رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «مَنْ سَأَلَ بِاللهِ»؛ يعني: من قرن سؤله بالله.

«فَأَعْطُوهُ»؛ يعني: اعطوه إذا قدرتم عليه ولم يكن محرم ولم يكن فيه ضرر على الإنسان وكان الإنسان قادر عليه فأعطوه تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: «وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ»؛ يعني: من التجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فكفو شركم عنه فهو معنى (فَأَعِيذُوهُ)؛ يعني: كفو شركم عنه لأنه التجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: «وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ»؛ يعني: من دعاكم إلى وليمة فأجيبوه، فإن كانت هذه الوليمة عرس فيجب الإجابة بشروط، وإن كانت وليمة مباحة فيستحب الإجابة.

قال:«وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ» ،«مَن صَنَعَ»؛يعني: من أسدى إليكم بمعروف يعني شيء حسن لكم أحسن إليكم بمال أو بجاه ونحو ذلك.

«فَكَافِئُوهُ»؛ يعني: أعطوه كما أعطاكم، المكافئة هو: المناظرة بحيث أن يكون هذا مكافئ لهذا فيساوي هذا بهذا.

قال:«فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا»؛(لَمْ) نفي هنا، (تَجِدُوا)؛ يعني: ما تكافئوه به.

«مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ»؛ يعني: توجهوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بالدعاء له.

«حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»،«حَتَّىٰ تَرَوْا»، (تَرَوْا) بالفتح يعني: تعلم، وبالضم تظن.

«حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»؛ يعني: قد أسديتم إليه مثل معروفه بكثرة الدعاء.

قال:**رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح**.

في هذا الحديث فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: أنه يجب إجابة من سأل بالله، لأن هذا أمر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأمر يدل على الوجوب، كما في الأصول، فالأمر المطلق يدل على الوجوب، وتقدم تقسيم السائل بالله.

والمراد هنا: إذا سألكم شيء مباح أو واجب عليكم وكان في مقدرتك ولا يضرك إعطائه فيجب أن تعطيه تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن المسلم عليه أن يعظم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لأنه قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:«مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوه»، وهذا يدل على أن تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ واجب على المسلم.

فلو قال –مثلًا-: أسألك أن تعطيني، ما واجب عليك، ولكن لما قرنه بالله واجب عليك أن تعطيه تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن من استعاذ بالله فإنه يعاذ ولكن هذا إذا استعاذ بالله في أمر مباح أو أمر لا يجوز لك، كما لو قال– مثلًا-: أسألك بالله مال لأشتري به طعام وأنت تقدر ولا ضرر عليك فيتحتم عليك إعطائه تعظيمًا لله.

ومن الفوائد: أن من التجأ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فيتحتم عليك أن تكف شرك عنه، فإذا قال: أعوذ بالله منك فيتحتم عليك أن تكف أذاك عنه، وهذا فيما إذا لم يسأل محرم، أو فيما إذا لم يستعيذ من أمر واجب عليه، وذلك أن من استعاذ بالله فلا يخلو من حالات:

الحالة الأولى: أن يستعيذ بالله منك في ترك واجب أو فعل محرم، كما لو قلت له -مثلًا-: أقم الصلاة، قال: أعوذ بالله منك، فهنا لا تعيذه بل يجب عليك أن تأمره بالصلاة، أو في فعل محرم كما لو وجدت -مثلًا- إنسان يسرق ثم أردت أن تكف أذاه فقال: أعوذ بالله منك فهنا لا تكف أذاك عنه، لا تكف عنه بل تأخذه.

الحالة الثانية: أن يستعيذ بالله عَزَّ وَجَلَّ منك في أمر مباح له فيتحتم عليك أن تكف أذاك عنه، فلو قال -مثلًا-: أعوذ بالله منك وأردت -مثلًا- منه أمر مباح فعليك أن تكف عنه تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك لما دخلت ابنة الجون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما رأت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت:أعوذ بالله منك، قال:«لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ فالْحَقِي بِأَهْلِكِ»، فطلقهاعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

«الْحَقِي بِأَهْلِكِ»، وهذا من تعظيمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لربه، فإذا كان استعاذ في أمر مباح له فعليك أن تعيذه تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أنه يجب إجابة الدعوة، والدعوة المرادة هنا -والله أعلم- أنها دعوة العرس، كما هو مذهب جمهور العلماء أن الدعوة التي يجب أن تجاب هي دعوة العرس، لأن الأحاديث التي في الصحيح تقيد وليمة العرس فهي الواجبة ولكن بشروط كما هي في كتب الفقه.

وأما الدعوة المباحة فيستحب أن تجيب إذا كان لا ضرر عليك، فلو دعاك -مثلًا- لعشاء أو لغداء فيستحب لك أن تجيب، والدليل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ»، قال في الحديث:«لَأَجَبْتُ»»،لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ كُرَاعٍ أو ذِرَاعٍ لَأَجَبْتُ».

ومن الفوائد: أنه ينبغي للمسلم أن يكافئ من صنع إليه معروف، فإذا أحسن إليك شخص فيستحب لك أن ترد عليه بالمثل، فلو أعطاك -مثلًا- مال قرضًا ثم احتاج في زمن لاحق فيستحب لك أن تعطيه، أو -مثلًا- دعاك إلى وليمة فيستحب لك أن تكافئ فتدعوه كذلك، وإذا أعطاك -مثلًا- هدية فيستحب لك أن تكافئه فتعطيه هدية، وهكذا، وفي المكافئة فائدتين:

الفائدة الأولى: كسر ما يقع في نفس الإنسان، لأن المهدي إليك أو المتفضل عليك قد يكون في قلبك ذل وخضوع له، شيء من الذل والخضوع له فلأجل أن تكسر هذا الذل والخضوع له فتكافئه حتى ما يكون له عليك فضل.

الثاني: أنه سبب في أن يزيد المحسن من إحسانه، فإذا كافأته ورأى أنه استفاد أمر دنيوي وأمر ديني إذا كان نيته لله فهنا يزيد في الإحسان.

ومن الفوائد: أن الدعاء مكافئة، فالدعاء إذا دعوت لشخص وهو قد أحسن إليك فهو يكافئ هذا الشخص على إحسانه، وهذا له نظائر كثيرة:

من ذلك الدعاء للوالدين فإن هذا يرد شيء من الإحسان منهم عليك، ولذلك جاء عند الإمام أحمد أن الرجل يوم القيامة ترفع درجته في الجنة فيقول: يا ربي بما هذا؟ قال:فيقال: باستغفار ولدك الصالح لك، هذا شيء من المكافئة، الله عَزَّ وَجَلَّ أمر بالدعاء لهم لأن هذا شيء من المكافئة.

وأيضًا جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ خَيرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ»، فالدعاء سبب في المكافئة، وقد تكثر من الدعاء فتكون أنت المتفضل عليه.

ففي هذا الباب: أن الإنسان عليه أن يُعظم ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإذا سُئل بالله وهو يقدر ولا ضرر عليه فليُعط السائل، وإذا استعيذ بالله منه في أمر مباح فإنه عليه أن يعيذ الشخص.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:أن المسلم يجب عليه أن يُعظم صفات ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فلا يسأل الأمور الدنيوية بصفات الله العظيم، ومن ذلك الوجه وهو من أعظم الصفات، فلا يسأل بوجه الله العظيم الأمور الدنيوية.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**باب لا يسأل**، (اللام) هنا نافية كما تقدم تدل على الماضي والحاضر والمستقبل.

لا يسأل، ويسأل نكرة مبني للمجهول.

قال:**بوجه الله**؛ يعني: بصفة الله وجهه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والوجه من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذاتية الخبرية.

قال:**بوجه الله إلا الجنة) ،(إلا)** هنا استثناء.

إلا الجنة؛ يعني: لا يسأل بوجه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إلا الجنة، وعلى هذا لا يسأل إلا الله لأن الجنة لا يملكها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى،فدل على أنه لا يسأل إلا الله، والسؤال بوجه الله عَزَّ وَجَلَّ لا يخلو فيه الإنسان من حالات:

الحالة الأولى: أن يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بوجهه سبحانه، فإن كان الذي سأله الجنة أو ما كان في الدار الآخرة فهو جائز، كما لو قال:أعوذ بوجه الله من النار، قال: اللّهم أني أعوذ بوجهك من النار، أو قال: اللّهم إني أسألك بوجهك الجنة، أو قال: اللّهم أني أسألك بوجهك أن تعيذني من النار، أو قال: اللّهم إني أسألك بوجهك أن تثبتني على

الصراط،وهكذا،فهذا كله جائز لأن هذا مآله إلى الجنة، فإذا أعاذه الله عَزَّ وَجَلَّ من النار وثبته على الصراط فإن مآله إلى الجنة، فهو داخل في قول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

الحالة الثانية: أن يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بوجهه أمور الدنيا فهذا لا ينبغي،لا ينبغي أن يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بوجهه أمور الدنيا، لأن وجه الله عَزَّ وَجَلَّ جليل عظيم فلا يُسأل به إلا المطالب العالية أما مطالب الدنيا فكلها دنية قليلة، فلا يقول –مثلًا–: اللّٰهم إني أسألك بوجهك زوجة حسنة، أو اللّٰهم إني أسألك بوجهك الكريم سيارة، أو اللّٰهم إني أسألك بوجهك العظيم طعام، فهذا لا ينبغي لأن المسلم عليه أن يُعظيم ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الحالة الثالثة: أن يسأل الإنسان غير الله عَزَّ وَجَلَّ بوجه الله، فهذا كله لا ينبغي بل قد يتحتم النهي عنه، لأن السائل لغير الله لا يسأله إلا من أمور الدنيا، فلا يقول –مثلًا– لشخص: أسألك بوجه الله أن تتعشى عندي، أو أسألك بوجه الله أن تعطيني الزكاة، أو أسألك بوجه الله أن تدفع إلي الصدقة، أو هكذا، فهذا ينهى عنه.

ولذلك جاء عند الطبراني وحسنه العراقي من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«ملعون من سأل بالله، وملعون من سُئل بالله فلم يجب إلا أن يسأل هجرًا».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن جابر قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ**». رواه أبو داود.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال: وعن جابر قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«لَا يُسْأَلُ»، (لا) هنا نفي تدل على الماضي والحاضر والمستقبل.

«لَا يُسْأَلُ»؛ يعني: لا يسأل أحد لأنه مبني على المجهول فيدخل فيه كل سائل.

«بِوَجْهِ اللهِ»؛ يعني: يقرن سؤله بوجه الله تعالى يقول: أسألك بوجه الله.

«بِوَجْهِ اللهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ»؛ يعني: إلا الجنة،فإن هذا جائز، وما هو نهايته إلى الجنة، كما لو سأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينجيه من عذاب القبر، أو يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بوجهه أن ينجيه يوم الحساب أو ينجيه من النار، فهذا كله عائد إلى الجنة لأنه إذا نجى من هذا فإن مآله إلى الجنة.

قال:**رواه أبو داود.**

هذا الحديث ضعفه ابن معين والنسائي، والحديث ضعفه العلماء لأن فيه راوٍ ضعيف، ولكن الحديث له شواهد:

منها: ما جاء في سنن أبي داود من حديث ابن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«من سأل بوجه الله فأعطوه».

وفي رواية:«من سأل بالله فأعطوه».

ومنها: ما جاء عند الطبراني من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«ملعون من سأل بالله، وملعون من سئل بالله فلم يعطي إلا أن يسأل هجرًا»، الحديث له شواهد.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أنه يجوز السؤل بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ، بحيث أن يسأل الإنسان ربه بصفاته وهذا من التوسل المشروع، كما مر علينا فيقول –مثلًا-: اللّهم إني أسألك بوجهك الجنة، أو يقول: اللّهم إني أسألك برحمتك أن تنجيني من النار، وهذا التوسل بالصفة جائز.

أما سؤال الصفة فهذا قد نص شيخ الإسلام على أنه كفر، إذا سأل الصفة فقد نقل شيخ الإسلام على أن هذا كفر، فلو قال –مثلًا-: يا وجه الله اغفر لي، أو يا وجه الله ادخلني الجنة، أو قال –مثلًا-: يا رحمة الله ارحميني، أو قال: يا قوة الله انصريني، فهذا قد نص شيخ الإسلام على أنه كفر، ووجه كونه كفر لأنه جعل الصفة إله يعبد من دون الله، فكأنه جعل الصفة شيء منفصل عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يُدعى ويُتعبد له دون الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأما حديث: «بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»؛فهذا من التوسل برحمة الله وليس هو سؤال الرحمة، بل هو من التوسل إلى الله برحمته والتوسل إلى الله بصفاته جائز، أما سؤال الصفة فإنه لا يجوز، بل إن شيخ الإسلام نقل أن هذا كفر.

ومن الفوائد: أن من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ الوجه، وهو وجه حقيقي ولا يعلم كيفية هذا الوجه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أما الخلق فلا يحيطون بالله علمًا ولا يعلمون كيفية هذا الوجه، وأما المعني معلوم، وقد دل الكتاب والسنة والإجماع على أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من صفاته الوجه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ{[الرحمن: ٢٧]، (وذو) صفة للوجه.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ لوَجْهِكَ الكريم».

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ» :لَوْ كَشَفَهُ –يعني: الحجاب- لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

والأدلة كثيرة والإجماع قائم على هذا الشيء، وهو وجه حقيقي له كيفية والله أعلم بهذه الكيفية، أما الخلق فلا يعلمون كيفية صفات الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، الكيفية لا يحيط أحد بها لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال: }وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا{[طه: ١١٠]، فهو وجه جليل عظيم.

ومن الفوائد: أنه يجوز أن تسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بوجهه الجنة لأنه قال: «إِلَّا الْجَنَّةُ»، فإذا سألت الله عَزَّ وَجَلَّ بوجهه الجنة فهذا جائز، أو الإعاذة من النار فهذا جائز؛ لأن هذا أمر عظيم، لأن النجاة من النار ودخول الجنة أمر عظيم، فإذا سألت الله عَزَّ وَجَلَّ بوجهه الجنة فإنك قد سألت شيء عظيم.

ومن الفوائد: أن المسلم عليه أن يجل ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويعظمه، فلا يسأل بصفاته العظيمة أمور دنيوية، فلا يقول –مثلًا-: اللّهم إني أسألك بوجهك امرأة حسنة، فهل من اللائق أن يسأل الإنسان ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بوجهه العظيم امرأة حسناء؟! هذا غير لائق، وأيضًا لا يقول: اللّهم إني أسألك بوجهك الكريم ملح الطعام –مثلًا- فهذا ينافي تعظيم

الإنسان لربه، مع أن الإنسان لو سأل الله عَزَّ وَجَلَّ ملح الطعام فهذا مستحب، ولذلك كان السلف يسألون الله عَزَّ وَجَلَّ حتى ملح الطعام، فهذا جائز.

فلا يتوسل بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ العظيمة لِمثل هذا الشيء، ولكن له أن يقول -مثلًا-: اللّٰهم إني أسألك طعام، اللّٰهم إني أسألك امرأة حسناء، فهذا كله جائز، أما أن يتوسل بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ العظيمة فهذا لاينبغي لأن الإنسان عليه أن يُعظيم الرب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في اللو

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب ما جاء في اللو**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان الواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله وقدره وما كتبه سبحانه، وكان الاعتراض على ذلك منقص للتوحيد إذا اعترض على قدر الله، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليُبين ذلك.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب ما جاء؛ (ما جاء)**؛يعني: من النصوص والآيات والأحاديث.

ما جاء في اللو.

اللو؛ يعني: في هذا الحرف،(لو) وهو حرف امتناع الامتناع؛ أي: امتنع القادم لامتناع السابق، فهو يؤتى به لإرادة شيء يخالف الواقع، فهذا الحرف يؤتى به لشيء يخالف الواقع.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ:{يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}[آل عمران: ١٥٤].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **وقول الله تعالى:**{يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}[آل عمران: ١٥٤].

يُبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية الكريمة أن الأمر لا يتغير، وأن الترجي وإرادة خلاف الواقع لا يفيد شيء، ويبين حال المنافقين وأنهم يريدون أن ما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ ما يقع على ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ ويظنون أنهم يخالفون ذلك.

قال:**وقول الله تعالى:**{يَقُولُونَ}؛ يعني: المنافقين.

{يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا}؛ يعني:(لو) هنا حرف امتناع كما تقدم فهم يتمنون غير ما وقع.

{لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}؛ يعني: من الشأن ويرجع إلينا في الأمور.

{شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}؛ يعني: ما ذُبحنا في هذا المكان ومتنا فيه، فهم يظنون أن قدر الله عَزَّ وَجَلَّ يمكن أن يتغير، والأمر لا يتغير على ما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي الآية الكريمة أن ما كتبه الله عَزَّ وَجَلَّ لابد أن يقع، وكلمة (لو) لا تغيير قدر الله لا تجدي شيء ولا تجوز لأنها اعتراض على قدر الله عَزَّ وَجَلَّ وهي لا تفيد إلا الاعتراض، أما غير الاعتراض لا تفيد فلا تغير شيء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله تعالىٰ:{الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}[آل عمران: ١٦٨].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **وقوله تعالى:**{الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}[آل عمران: ١٦٨].

في هذه الآية الكريمة يبين الله عَزَّ وَجَلَّ أيضًا حال المنافقين أنهم يقولون لإخوانهم إما في النسب وإما في الظاهر من المؤمنين أنهم لو أطاعونا؛يعني: ما خرجوا إلى الغزو وقعدوا

معنا لا سلموا من القتل، فرد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عليهم أن ما كتبه الله عَزَّ وَجَلَّ لا بد أن يقع، وأن من كُتب عليه الموت سيأتي إلى مضجعه وسيموت فيه.

قال:**وقوله**}:الَّذِينَ قَالُوا{، (الذين) اسم موصول.

قال: }قَالُوا{؛ يعني: قالوا هذا الكلام.

}قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ{؛ يعني: إخوانهم في النسب أو في الظاهر، لأن المنافقين يتظاهرون بالإسلام يتظاهرون بالإيمان والإسلام، أو إخوانهم في النسب.

}وَقَعَدُوا{؛ يعني: هؤلاء المنافقون يقولون هذا الكلام وهم جالسون.

}وَقَعَدُوا{؛ يعني: عن الغزو والقتال.

}لَوْ أَطَاعُونَا{؛ يعني: لو أخذوا مشورتنا وسمعوا كلامنا.

}مَا قُتِلُوا{؛ يعني: ما قُتلوا في هذا الغزو، فظنوا أنهم يقدرون على أن يغيروا من قدر الله شيء، فرد الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم في إكمال الآية.

ففيه: أن استعمال كلمة (لو) في الأمور المقدرة التي حتمًا ستقع وقدرها الله عَزَّ وَجَلَّ لا يجدي شيء بل هي من الاعتراض على قدر الله ليس فيها إلا ذلك.

واستعمال كلمة لو لها حالات:

الحالة الأولى: أن تكون للاعتراض على قدر الله، فهذا منهي عنه لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى رد على المنافقين في هذه الآيات الكريمة، ولأنه ينقص الإيمان بالقدر خيره وشره، فما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ لا بد أن يقع، ولابد أن يؤمن الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيب، فما وقع على الإنسان لا يمكن أن يتغير هذا قدر الله.

فإذا أصيب الإنسان بمرض أو بحادث أو بموت ولد أو بذهاب بصر بأي سبب، فلا يقول: لو كان كذا وكان كذا، لأن هذا أمر كتبه الله ولابد أن يقع.

الحالة الثانية: أن يقول ذلك اعتراضًا على شرع الله، فهذا محرم، كأن يقول -مثلًا-: لو أن الله ما حرم الخمر، أو لو أن الله أباح الغناء، أو لو أن الله ما أوجب الصلاة، هذا لا يجوز

لأن المؤمن يجب عليه أن يطيع الله عَزَّ وَجَلَّ راضيًا بحكمه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الشرعي، فإذا اعترض على قدر الله الشرعي فهذا محرم.

الحالة الثالثة: أن يقول ذلك حزنًا على الماضي لأمور دنيوية لا اعتراضًا على قضاء الله وإنما هو حزن على الماضي، كما لو قال –مثلًا-: لو أني ما طلقت زوجتي، لو أني ما بعت في هذا اليوم، فهذا ما ينبغي وهذا يفتح باب الشيطان، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» : احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، ولا تَقُلْ: لَوْ أَنِّيٰ فَعَلْتُ كَذَا كان كذا وَكَذَا»،فهذا يفتح باب الشيطان ويجلب الحزن وقد يقود الإنسان إلى الاعتراض على قدر الله.

الحالة الرابعة: أن يقول ذلك من باب الخبر المحض، فهذا جائز، كما لو قال –مثلًا-: يا فلان لو علمت بك البارح لدعوتك للعشاء عندي ، لو علمت أنك سافرت إلى البلد الفلاني لذهبت معك،هذا جائز لأنه من باب الخبر ليس فيه اعتراض وليس فيه حزن على الماضي بل هو مجرد خبر.

الحالة الخامسة: أن يقول ذلك تمنيًا للخير، فهذا يؤجر الإنسان عليه ويستحب، والدليل على ذلك: ما جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ وَلَأَحَلَلْتُ»، فتمنى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعتمر وهو قد حج عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ قارن وتمنى المتعة ولكنه قد ساق الهدي فلا يمكنه أن يتحلل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ولما جاء في حديث الأنماري عند الترمذي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:» إِنَّمَاالدُّنْيَالِأَرْبَعَةِنَفَرٍ»، وذكر:«عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ. قَالَ: فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ. قَالَ: وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، قَالَ: فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، قَالَ: فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ». صححه الترمذي.

الحالة السادسة: أن يقول ذلك تمنيًا للشر، فهذا لا يجوز ويأثم الإنسان على ذلك، كما لو قال: لو أني ذهبت لهذه المرأة ففعلت فيها الفاحشة، أو لو أني شربت الخمر البارحة مع فلان وفلان، أو لو أني نمت عن الصلاة ليلة البارحة، فهذا لا يجوز ويأثم الإنسان على ذلك.

والدليل: ما جاء في حديث الأنماري أيضًا عند الترمذي وصححه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر: «إِنَّمَاالدُّنْيَالِأَرْبَعَةِنَفَرٍ»، وذكر منهم: «وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ. قَالَ: وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، قَالَ: هِيَ نِيَّتُهُ، فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ».

وفي هذه الآيات التي ذكرها المؤلف هو من اعتراض المنافقين على قدر الله، فهم يظنون أن قدر الله عَزَّ وَجَلَّ قد يتغير، فهو لا يتغير ما كتبه الله عَزَّ وَجَلَّ لابد أن يقع.

وفيها أيضًا: أن المؤمن عليه أن يُسلم لما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ وما أراده؛ ولذلك جاء في حديث عبادة بن الصامت أنه وعظ ابنه وقال: "واعلم أنه ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك".

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعَكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَز، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لكانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» .

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **وفي الصحيح:** يعني: في صحيح مسلم.

عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «احْرِصْ»، الحرص هوبذل الجهد في الشيء في تحصيله، هذا يسمى حرص.

«احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ»، ما ينفعك في دينك ودنياك، في دينك من طلب العلم وقيام الليل وصيام النهار وغير ذلك ما ينفعك، وأيضًا ما ينفعك في الدنيا كالبحث عن وظيفة، وكالبحث عن زوجة، وكالبحث عن طعام وشراب، احرص على هذا الشيء، «احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ» .

«وَاسْتَعِنْ بِاللهِ»، السين والتاء تدل غالبًا على الطلب؛ يعني: أطلب الاستعانة من الله، والاستعانة: طلب العون؛ يعني: أطلب الإعانة من الله لا تعتمد على نفسك وإنما أطلب من الله أن يعينك في الأمور الدينية والأمور الدنيوية.

فإذا أردت أن تطلب العلم فاجتهد في ذلك واستعن بالله أطلب العون من الله أن يعينك، لأنك إذا بقيت مع نفسك ضعت ولم تأتي بشيء، وإذا أعانك الله عَزَّ وَجَلَّ وفقت.

وأيضًا في أمورك الدنيوية إذا بحثت عن عمل فلا تعتمد على نفسك، وإنما اعمل واحرص على البحث وأطلب العون من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:«وَلَا تَعْجَز»؛ يعني: لا يدخلك العجز، والعجز هو ترك العمل مع القدرة عليه تكاسلًا،بحيث أنه يقدر على العمل ولكنه تكاسل، فهذا عجز.

قال:«وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ»؛ يعني: إذا بذلت الجهد واستعنت بالله وأصابك شيء في هذا الطريق أصابك شيء.

«فَلَا تَقُلْ»، هنا (اللام)لام النهي، وشيء نكرة يشمل الكثير والقليل، أصابك شيء كثير أو شيء قليل.

«فَلَا تَقُلْ»، اللام هنا نهي، «فَلَا تَقُلْ»؛يعني: لا تقل هذا الكلام.

« فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ»؛يعني: لو أني فعلت هذا الشيء.

«لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لكَانَ كَذَا وَكَذَا»؛ يعني: لا تقل هذا الكلام، لا تقل: لو أني –مثلًا– طلبت العلم عند فلان لأدركت العلم، ولا تقل: لو أني –مثلًا– بحثت في الوظيفة في البلد الفلاني لوجدت، ولا تقل –مثلًا–: لو أني ما سلكت هذا الطريق ما أصبت بهذا الانقطاع وهكذا، لا تقل هذا.

إذا كنت قد اجتهدت وحرصت واستعنت بالله ثم وقع عليك شيء عائق يعوقك فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا.

«وَلَكِنْ»،ولكن هنا للاستدراك.

«وَلَكِنْ قُلْ»؛يعني: قل هذا الكلام.

«قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»،«قَدَّرَ اللهُ»؛يعني: قدر الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الامر في الأزل أن يكون، وما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ في الأزل لابد أن يقع، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قدره فأنت قل: قدر الله وما شاء فعل.

وفي ضبط: قَدَرُ الله، في آخر: قَدَّر الله.

«قَدَّرَ اللهُ»؛ يعني: قدَّر في الماضي.

وقَدَرُ الله؛ يعني: هذا قدر الله.

«وَمَا شَاءَ»؛ يعني: ما شاء الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فعل؛يعني: هذا شيء شاء الله عَزَّ وَجَلَّ وفعله.

«فَإِنَّ لَوْ»، هنا ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علّة النهي عن اللو في هذا الموضع، لأن هذا حزن على الماضي.

قال:«فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»؛ يعني: باب قد يدخل منه الشيطان فيدخل على العبد إما أن يدخل عليه الحزن، أو يدخل عليه الاعتراض على قدر الله، فيعترض على قدر الله عَزَّ وَجَلَّ فيقع فيه المنهي عنه.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: أن العبد مأمور بالحرص على ما ينفعه في أمور دينه ودنياه، مأمور ففي أمور الدين يحرص على طلب العلم، وعلى صيام النهار، وعلى بر الوالدين، يحرص أشد الحرص ويجاهد نفسه ويعمل هذا الشيء ويحرص عليه.

ومن الفوائد أيضًا: أنه عليه أن يستعين بالله إذا حرص على ما ينفعه، فلا يعتمد على نفسه بل عليه أن يستعين بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإذا حرص على طلب العلم فإن عليه أن

يطلب العون من الله لا يعتمد على نفسه، لأن الإنسان مهما أوتي من الذكاء والفهم فإنه ضعيف معرض إلى الجهل والنسيان والغفلة، فعليه أن يستعين بالله ليفتح عليه، لذلك من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ الفتاح وهو الذي يفتح على العبد يفتح عليه.

وأيضًا في الأمور الدنيوية إذا عمل الإنسان عمل دنيوي فلا يعتمد على قوته وبدنه وعلى بصره، فإذا -مثلًا- سار في طريق مظلم في الليل لا يقول: أنا قوي النظر أرى ما أمامي لا، بل عليه أن يستعين بالله، وأيضًا إذا طلب الإنسان زوجة فلا يقول: أنا عندي علم بالمرأة التي تصلح لي التي تصلح لمثلي،بل عليه أن يستعين بالله يطلب العون يقول: اللَّهم ارزقني المرأة الصالحة، وهكذا، فعليه أن يستعين بالله.

ومن الفوائد: أن العمل لا ينافي التوكل، لأنه قال:«**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ**»؛ يعني: اعمل، وقال:«**وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»؛ يعني: توكل عليك وفوض أمرك إليه فهو داخل في الاستعانة بالله، فإذا طلب الإعانة من الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه يستلزم أن يفوض الأمر إليه، يستلزم تفويض الأمر إليه.

ولذلك لا يبقى الإنسان في مكان ويقول: أنا مستعين بالله، أو أنا متوكل على الله،بل عليه أن يعمل يكدح بهذه الدنيا في الأعمال الدينية والأعمال الدنيوية، فعليه أن يعمل.

فالتوكل لا ينافي العمل، بل إن الإنسان لا يكون متوكل حتى يعمل، كيف يتوكل وهو جالس؟ما يمكن لأن التفويض هو أن يفوض أمره في شيء يعمله، يعمل شيء ثم يفوض أمره إلى الله هذا يسمى توكل.

ومن الفوائد: أن الإنسان عليه أن يحذر من العجز والكسل والخمول والتقاعس ونحوه، فإذا عمل في أعماله الدينية أو الدنيوية فعليه أن يجتهد ويحرص غاية الحرص ويستعين بالله ولا يعجز.

ولذلك في أعماله الدينية -مثلًا- إذا طلب العلم فلا يتكاسل لا يعجز يقول: هذا العلم طريقه طويل وأنا عجزت وتعبت وأنا أريد النوم، أريد الطعام، أريد البيع والشراء، وأيضًا

إذا صام الإنسان من أيام السنة صام الاثنين والخميس، وأيام البيض لا يقول: أنا تعبت وعجزت لا أستطيع سأترك الصيام لا، عليه أن يستمر.

وإذا قام الإنسان الليل وأحيى الليل لا يعجز، ولذلك يُكره للإنسان أن يكون له عمل صالح معتاد عليه ثم يتركه، والدليل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»، ما ينبغي للمسلم أن يأتي بالعمل الصالح ثم يتركه كسلًا.

وأيضًا أعماله الدنيوية لا يعجز عنها، لا ينام عن طلب المعيشة إذا كان الإنسان -مثلًا- في وظيفة لا ينام ويعجز ويقول: تعبت وأريد النوم أريد الكسل أريد الخمول، لا، عليه أن يقوم ويجاهد نفسه، وهكذا.

ومن الفوائد: أن الإنسان كُتِب عليه ما هو واقع عليه فعليه أن يرضى ويسلم، ولذلك قال:«وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ كانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ»؛ يعني: قدَّر الله هذا الشيء لابد أن يقع، وما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ لابد أن يقع لا يمكن أن يتغير.

ومن الفوائد: أن الإنسان في هذه الحياة معرض للإصابة بالبلاء والفتن والأمراض ونقص الأولاد والمعيشة، فإنه قد يصاب لأنه قال:«وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ»، قد يصيبك شيء وشيء نكرة تعم.

فالأمور التي قد تقع على الإنسان في الدنيا قد تكثر وقد تقل،والله عَزَّ وَجَلَّ رحيم بعباده.

ومن الفوائد: أن ما شاء الله عَزَّ وَجَلَّ لابد أن يقع، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقل أيضًا:«وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، ما شاء الله عَزَّ وَجَلَّ لابد أن يقع، وأعلم أن مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مقترنة بالحكمة، الله عَزَّ وَجَلَّ إذا شاء شيء ووقع فأعلم أنه في غاية الحكمة، وأن هذا هو عين الصواب.

الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حكيم والحكمة هي وضع الشيء في موضعه،فإذا وقع عليك شيء أو مصيبة أو بلاء أو غيره أو حصل للإنسان شيء،فاعلم أنه من حكمة الله وقوع هذا الشيء،

وأنه في غاية الحكمة وأن هذا عين الصواب، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ حكيم فهو يضع الأشياء في موضعها.

ومن الفوائد: أن كلمة (لو) تفتح عمل الشيطان؛ يعني: تفتح الباب للشيطان على الإنسان بحيث يدخل معه، ومثل كلمة (لو):(ليت) مثلًا يقول: ليتني ما فعلت كذا،ليتني ما ذهبت إلى المكان الفلاني، فكل حرف أو كلمة تدل على الاعتراض على قدر الله أو إرادة أو الحزن على الماضي فإنه ينهى عنها.

ومن الفوائد: أن الشيطان له أبواب يدخل على الإنسان منها، ولذلك أبواب الشيطان التي يدخل على الإنسان منها كثير:

ومن أعظمها: الغضب، من أعظم ما يدخل الشيطان على الإنسان عند الغضب وعند الشهوة، فقد يدخل الشيطان على الإنسان فإذا –مثلًا- اشتهى المعاصي والذنوب فقد يدخل عليه الشيطان ويسول له ويزين له المعصية، فعلى الإنسان يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ الخراج من هذه المعاصي،فيكون دائمًا مستعين بالله وسائل منه الهداية.

فهذا من فوائد هذا.

ولذلك على الإنسان أن يحذر من كلمة (لو) للاعتراض على الأمور المقدرة،بل عليه أن يرضى ويُسلم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب النهي عن سب الريح

قَالَ الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب النهي عن سب الريح.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: لما كان سب الريح ينافي كمال التوحيد، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب لينبه على ذلك، وذلك أن الريح مأمورة والآمر لها هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالذي يسب الريح ينتقل السب إلى الآمر لها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهذا ينافي كمال التوحيد.

قال:**باب النهي**، النهي: هو الزجر عن الشيء.

قال:**النهي عن سب الريح**، السب هو: الشتم، كاللعن، والكلام الذي يفهم منه القدح، كاللعن وقول بعض الكلمات التي يفهم منها القدح، فهذا داخل في السب.

قال:**سب الريح**، الريح: هي التي يبعثها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ففي هذه الترجمة:**النهي عن سب الريح**، والريح غالباً تطلق على التي يكون فيها نوع من العذاب أو فيها عذاب، وإن كانت تأتي بالخير يرسلها الله عَزَّ وَجَلَّ بالخير، أو يبعث الله عَزَّ وَجَلَّ فيها الخير.

وأما الرياح فهي غالباً تأتي على ما فيه الخير من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فيبعث الله عَزَّ وَجَلَّ فيها الخير، لذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[فصلت: ١٦].

وأما الرياح فهي غالبًا تأتي بما فيه خير، كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}[الحجر: ٢٢].

والريح أربعة أنواع:

الأول: ريح الصبا، وهي التي تأتي من المشرق إلى المغرب.

الثاني: ريح الدبور، وهي التي تأتي من المغرب إلى المشرق، ودل على هذين النوعين قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» .

الثالث من الرياح: ريح الجنوب وهي التي تأتي من جهة الجنوب.

الرابع: ريح الشمال وهي التي تأتي من الشمال.

فهذه الرياح الأربعة.

وسب الريح لا يخلو فيه الإنسان من حالات:

الحالة الأولى: أن يعتقد أن الريح هي التي تفعل بذاتها، وتخلق نفسها فهذا شرك أكبر لأنه جعل مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من يخلق، أو جعل مع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خالقين، فالريح مدبرة وليست هي تفعل بذاتها.

الحالة الثانية: أن يسب الريح مع اعتقاد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الفاعل ولكنه سب الريح لذاتها، فهذا منقص للتوحيد أو لا يجوز هذا الشيء، لأن هذا السب يعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، إذا كنت تعتقد أن الريح مدبرة وأن الذي يدبرها هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فإذا سببتها فهذا السب يعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقد تقدم معنا أن الإنسان إذا سب الدهر فإن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال: يؤذيني بهذا الشيء،«**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ**»، فالريح من الدهر ولكن خصها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لأنه يكثر السب للريح.

الحالة الثالثة: أن يصف الريح من باب الوصف أو الخبر، كأن يقول -مثلًا-: هذه الريح كثيرة الغبار، أو هذه الريح باردة من باب الوصف فهذا جائز إن كان من باب الوصف فقط.

والدليل ما تقدم قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ}، فوصفها الله عَزَّ وَجَلَّ أنها في أيام نحسات، هذه الريح، فالوصف للريح من باب الوصف والخبر هذا جائز إذا كان لا يتضمن سب، وأنواع السب للريح كثيرة:

من أمثلة ذلك: أن يقول: لعن الله هذه الريح، لم نستطع -مثلًا- أن نبقى في المكان بسببها هذا من السب، أو يقول: قبَّح الله هذه الريح، أو ما أشين هذه الرياح، أو نحو ذلك من الكلمات التي يفهم منها السب، فهذا كله لا يجوز.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**». صححه الترمذي.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وعن أبي بن كعب أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ»، (لا) هنا نهي.

«لَا تَسُبُّوا»؛ يعني: لا تشتموا ولا تقدحوا.

قال: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ»، الريح؛ يعني: الرياح التي يبعثها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، يدخل فيها الرياح التي فيها غبار، والتي فيها عواصف ومعاصير ونحو ذلك.

قال: «فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ»؛ يعني: من هذه الرياح، رأيتم ما تكرهون كشدة برد أو شدة غبار أو نحو ذلك.

قال: «رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا»، أرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذا القول.

«فَقُولُوا: اللَّهُمَّ»، (اللَّهُمَّ) هذا سؤال يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ.

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ»، (إِنَّا) يعني: نحن الضمير عائد إلى الداعين.

قال: «نَسْأَلُكَ»؛ يعني نطلب منك يا رب، «مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ»، من خيرها؛ يعني: من الخير التي جعلت فيها كتلقيح السحاب وذهاب -مثلًا- بعض المؤذيات -كمثلًا- بعض ما يؤذي الناس كالبعوض -مثلًا- أو البكتيريا أونحو ذلك فهي قد تذهب بهذا إذا كانت فيها غبار فتكون سبب في ذهاب هذا الشيء بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: «خَيْرَ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا»؛ يعني: ما خير ما في هذه الرياح.

«وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ»؛ يعني ما أمرتها به يا رب نسألك من خير هذا الشيء.

«وَنَعُوذُ بِكَ»؛ يعني: نلتجئ ونعتصم إليك.

«مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ»، «مِنْ شَرِّ»؛ يعني: من الشر الذي في الريح.

«مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا»؛ يعني: من شر ما في أيضًا تتضمن هذه الرياح كالعواصف التي تسقط البنيان وتقلع الأشجار، أو يكون فيها غبار كثير يتأذى الناس به.

«وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ»؛ يعني: ما أمرتها به يا رب، كالريح التي فيها عذاب أو نحو ذلك.

قال: **صححه الترمذي.**

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: أن الريح لا يجوز أن تُسب، وذلك أن سب الريح ينتقل السب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يرسل الرياح، أو يرسل الريح، الذي يسب الريح إنما هو يسب مدبر هذه الريح الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يدبرها، الريح ليست هي تسير بنفسها.

بمعنى: أنها تأتي بذاتها دون تقدير الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يبعثها وهو الذي يأمرها.

ومن الفوائد: أن الريح قد يكون فيها خير من ذلك تلقيح السحاب فهي تلقحه بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ويكون فيها خير في توجيه السحاب -مثلاً- أو يكون فيها خير لغير ذلك من ما هو خير.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا خاف من شيء من المخلوقات فإنه ينبغي له أن يلتجئ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، حتى ولو كان هذا الشيء ليس له روح؛ ولذلك قال: أعوذ بك من شر هذه الرياح، الرياح ليست لها روح.

قد قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: أن الهواء جسم ولكنه لا يرى.

ولذلك إذا مشى الإنسان يصطدم به هذا الهواء فهو من الأجسام التي يراها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا يراها البشر، فينبغي للإنسان إذا خاف من الشيء أن يلتجئ إلى الله من أي مخلوق.

يقول البغوي: أن الرياح جسم ولكن هذا الجسم لا يراه الناس، والدليل: أنك إذا مشيت يضرب في وجهك وفي بدنك تحس بضرب هذا الجسم، هذا دليل أنه جسم ولكن الله أعلم بكيفيته، ففيه أن الإنسان عليها أن يلتجئ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن الريح قد يكون فيها شر تبعث بالشر وتبعث بالعذاب، وقد تستأصل المباني، وقد تذهب بالأشجار.

لذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ.}

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ{[الحاقة: ٦].

}تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ{[القمر: ٢٠]؛ يعني: تنزع الرجل بحيث أنها ترفع به ثم تقلبه ثم ينقلع رأسه فيسقط كأنه شجرة مقطوع رأسه وهو ريح شديد.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ{[الأحقاف: ٢٥].

فالرياح قد تكون عذاب يبعثها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على من يشاء؛ ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى البرق والرياح والسحاب كان يدخل ويخرج حتى ينزل المطر، فكانت عائشة تسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لماذا تفعل ذلك؟ قال:«أخشىٰ أن يكون عذاب»، وما يدريه أن يكون عذاب؟ لذلك يخاف الإنسان إذا هبت الرياح فيسأل الله عَزَّ وَجَلَّ ويلتجئ إليه.

ومن الفوائد: أن الريح مدبرة مرسلة، ولذلك قال: «وَمَا أُمِرَتْ بِهِ»، فهي تؤمر، والآمر لها هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو يأمر الريح فتجيب، وفيه أن الريح لها شعور تعلم به عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، المخلوقات لها شعور تعلم عن الله عَزَّ وَجَلَّ، فالجبال والرياح والأشجار لها شعور تعلم عن الله عَزَّ وَجَلَّ أمره، قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى للأرض والسماء:}ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ{[فصلت: ١١] وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: أوثرت بالضعفاء والمساكين، ففصل الله عَزَّ وَجَلَّ بينهما.

فهذه المخلوقات لها شعور الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم هذا الشيء ولا يعلمه البشر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ{[الإسراء: ٤٤]؛يعني: في السماء وفي الأرض من المخلوقات.

}وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ{؛ يعني:ما تفهمون ولا تعرفون،كالأشجار والبحار والنجوم والجبال، وغير ذلك من المخلوقات تسبح.

وفيه: أن الإنسان لا تسبقه هذه المخلوقات غير المكلفة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فتكثر من التسبيح وهو معرض عن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فيه على أن الإنسان يستحي على نفسه أن

لا تسبقه الجبال والأشجار والنجوم بكثرة ذكر الله وهو لا يذكر الله، هذه فائدة نستفيدها من هذا الشيء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب قول الله تعالىٰ: }يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ{[آل عمران: ١٥٤]

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب قول الله تعالى:** }يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ{[آل عمران: ١٥٤].

في هذه الآية الكريمة التي ذكرها المؤلف في هذا الباب: أن سوء الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منافي للتوحيد، وأن سوء الظن من صفات المنافقين، فأتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليُبين ذلك ويحذر منه.

قال:}يَظُنُّونَ بِاللَّهِ{ ،}يَظُنُّونَ{، الظن هو الذي يدور في النفس، وغالبًا أن الظن يكون راجح في نفس الإنسان، وذلك أن العلوم غير المؤكدة عند الإنسان لا تخلو من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: الشك وهو أن يقف الشيء بين أمرين لا مرجح بينهما، أن يقف الأمر بين الشيئين لا مرجح لهما.

فإن كان راجح فهو الظن هذا الثاني.

وإن كان مرجوح فهو الوهم،وهذا الثالث.

إذًا: العلوم غير المؤكدة عند الإنسان لا تخلو من ثلاث حالات:

- الحالة الأولى: الشك وهو التردد بين أمرين.

- الحالة الثانية: الظن وهو الجانب الراجح من الشك.

- الحالة الثالثة: الوهم وهو الجانب المرجوح من الشك.

قال: }يَظُنُّونَ بِاللَّهِ{؛ يعني: بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بربهم.

}غَيْرَ الْحَقِّ{؛ يعني: غير الظن الحق، وغير الحق يكون غير صحيح.

قال: }ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ{؛ يعني: مثل ظن الجاهلية، والجاهلية هي ما كان قبل الإسلام.

}يَقُولُونَ{،: قد يكون قول بلسان الحال، وقد يكون قول بلسان المقال، والظاهر أنها الثاني يقولون بلسان المقال.

}يَقُولُونَ هَلْ لَنَا{؛ يعني: هل استفهام.

}هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ{؛ يعني: من الحكم، هل لنا من الحكم من شيء؟ يعني: هل يرجع إلينا في الحكم من شيء؟ يعني: هل نقدر على شيء أن نمنعه أو شيء نأتي به؟

}قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ{؛ يعني: الحكم والقضاء والقدر.

}إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ{، فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يتصرف في الأمور كيف يشاء، فليس لكم شيء وإنما أنتم عبيد له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يتصرف بكم كيف يشاء.

ففي الآية الكريمة فيها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ينكر على المنافقين ويبين أن ظنهم كظن أهل الجاهلية، والظن الذي ظنه المنافقون هو أنهم ظنوا أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لن ينصر رسوله وأن الإسلام سيذهب.

والثاني: أنهم ظنوا أن ما وقع ليس لله فيه حكمة، فنفوا حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وتقديره.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: }الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ{[الفتح: ٦].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**وقوله:** }الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ{[الفتح: ٦].

في هذه الآية الكريمة يُبين الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن الذين ظنوا به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى غير الحق وظنوا به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الظن السيء أن السوء عائد إليهم، وأن عاقبة أمرهم الخسران، لأنهم إذا ظنوا بربهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الظن السيء فإن السيئات تعود عليهم، وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى :**وقوله:**}الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ{؛ يعني: الظن السيء فهم ظنوا أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لن ينصر رسوله وأن الإسلام سيذهب ويضمحل، وظنوا أيضًا أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما فعل هذا لحكمة، فنفوا قدر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:}عَلَيْهِمْ{؛ يعني: عائد إليهم هؤلاء.

}دَائِرَةُ السَّوْءِ{؛ يعني: وقع عليهم السوء فأحاطبهم من جميع الجهات، والدائرة تحيط بالشخص من جميع الجهات، فحاط بهم السوء لأنهم جوزوا بما يناسبهم.

ففي الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان أن يحذر من سوء الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فعليه أن يحسن الظن بربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والظن بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أقسام:

الأول: الظن بحكم الله الكوني، أن تظن الظن بحكم الله الكوني، فهذا يجب عليك أن تظن بالله الظن الحسن، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما خلق شيء أو قدر شيء سواء كان هذا الشيء من الطاعات أو المعاصي أو غير ذلك أنه لحكمة، فتظن بالله عَزَّ وَجَلَّ الظن الحسن بما قدره كونًا.

فتقدير الله عَزَّ وَجَلَّ للطاعات وللمعاصي وللخيرات التي تكون على الناس وللمجاعات والقتل الذي يقع على الناس، فتظن بالله أن الله عَزَّ وَجَلَّ فعله أنه خير من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، يحسن الظن بالله لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما فعل ذلك إلا لحكمة، فتقدير الطاعات حكمة، وتقدير المعاصي حكمة.

فالمعصية كشرب الخمر والزنا وانتشار الفواحش والمعاصي في تقدير الله عَزَّ وَجَلَّ لها حكمة،فالله عَزَّ وَجَلَّ حكيم فيما يفعل، فإذا وقع شيء فتظن بالله أنه حكيم في فعله، وأما

هذا الشيء إذا كان محرم فإنك تسعى إلى تغييره فيما شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، وأما فعل الله عَزَّ وَجَلَّ له فهو خير.

فمثلًا: المعاصي إذا وقعت وقدرها الله عَزَّ وَجَلَّ فهو خير من حيث فعل الله ، وذلك أن المعاصي إذا وقعت تكون مبغضة لله عَزَّ وَجَلَّ في ذاتها ومحبوبة لما يترتب عليها.

فمثلًا: المعصية إذا وقعت يترتب عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا محبوب إلى الله، ويترتب عليها أن الإنسان إذا رأى المبتلى يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ وهذا يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ، ويترتب عليها أيضًا أنك تعرف أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على كل شيء قدير فهو يخلق الخير ويخلق الشر.

ومنها: أنه يظهر الجهاد في سبيل الله، وتجاهد الكفار بالسيف والسنان، وتجاهد الفساق باللسان وبالقلب, فيظهر الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومنها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خلق للنار أهل فلابد أن تخلق لهم معاصي حتى يكون للنار أهل، فلو كان –مثلًا– جميع الناس مطيعين لله عَزَّ وَجَلَّ لما كان أحد إلى النار فيكون منافي للحكمة فالله عَزَّ وَجَلَّ حكيم.

فالمراد: أنك تظن بفعل الله عَزَّ وَجَلَّ الكوني خيرًا.

الثاني: الظن بشرع الله، فتظن أيضًا خيرًا، الله عَزَّ وَجَلَّ قدَّر –مثلًا– وجوب الصلاة فتظن أن هذا خير، يجب عليك أن تظن أن هذا خير، وقدَّر الجهاد في سبيل الله فتظن أن هذا خير، فقدَّر –مثلًا– الصوم فتظن أن هذا خير، وقدَّر الحج فتظن أن هذا خير،وهلمَّ جرا.

وأيضًا قدَّر منع المعاصي، منع الخمر فتظن أن منع الله عَزَّ وَجَلَّ خير، منع القتل بغير حق فتظن أن هذا خير، منع الاعتداء على الأعراض والأموال وغير ذلك فتظن أن هذا خير، وهكذا، فتظن بشرع الله عَزَّ وَجَلَّ خيرًا.

أيضًا في فعل الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبد في نفسه وفي غيره فتظن بالله خير، فإذا وقع عليك مرض أو نقص في مال أو ولد أو تسلط الأعداء فتظن بالله خير، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما

أوقع عليك إلا وله الحكمة البالغة، فإذا صُبت بمرض أو وقع عليك نقص مال أو غير ذلك فتظن أن هذا هو الخيرإذا نظرت لفعل الله.

وأيضًا بفعله لغيرك فإذا وقع على أحد الناس مرض أو نقص مال أو تسلط الأعداء أو غير ذلك مما يقع فتظن أنه من الله عَزَّ وَجَلَّ خير فتظن بالله خير.

ولذلك هؤلاء المنافقون ظنوا أن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس له حكمة في ما وقع على الرسول وعلى المؤمنين، ولذلك ينبغي للمسلم أن يظن بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خيرًا وأنه قد يبتلي المؤمنين ،وهو خير منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابن القيم في الآية الأولىٰ: فُسّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، وفُسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يظهره الله علىٰ الدين كلهاً وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل علىٰ الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرىٰ بقضائه وقدره أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، }ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ{[ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله تعالىٰ وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلىٰ الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا علىٰ القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيًا.

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذا التفسير من ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وقد ذكر في الزاد.

قال: **وقال ابن القيم في الآية الأولى:** يعني: الآية الأولى قوله تعالى:﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ.﴾

قال:(**فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل**)؛ يعني: ظنوا هذا الشيء أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لن ينصره الله عَزَّ وَجَلَّ وأن أمره سيضمحل يعني: سيذهب.

)**وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر**)؛ يعني: نفوا القدر قالوا: أن هذا وقع وما قدر الله عَزَّ وَجَلَّ فنفوا القدر.

قال:(**لم يكن بقدر وحكمة**)؛ يعني: ليس فيه حكمة، وهذا فيه سوء ظن بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:(**ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر**)؛ يعني: بهذين الأمرين.

)**وإنكار أن يتم أمر رسوله**)؛ يعني: أن يتم الله عَزَّ وَجَلَّ أمر رسوله.

)**وأن يظهره الله على الدين كله**)؛ يعني: على جميع الأديان.

(**وهذا هو ظن السوء**) هذا هو الظن السيء.

)**الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح**)؛ كما في قوله تعالى:﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، فهم ظنوا ظن السوء في الله عَزَّ وَجَلَّ.

)**وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه**)، لا يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يقدر الشيء وليس له فيه حكمة، فهذا ينافي حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأيضًا ينافي حكمة الله أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يُذهب هذا الدين وقد وعد أن يظهره على الدين كله وألا ينصر رسوله، والله عَزَّ وَجَلَّ وعده بأن ينصره، فهذا ينافي ما وعد الله عَزَّ وَجَلَّ به.

قال:(**غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.**)

)**فمن ظن أنه يديل**)؛ يعني: يتابع.

)**يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة**(؛ يعني:يوالي الباطل حتى يغلب الحق.

)**مستقرة**(؛ يعني: مستمرة.

)**يضمحل معها الحق**(؛ يعني: يتلاشى حتى يذهب،فيكون الانتصار للباطل وحتى يذهب الحق.

)**أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره**(؛ يعني: ما وقع من مصائب ، أنكر أن يكون قدره الله عَزَّ وَجَلَّ وقضاه.

)**وأنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد**(؛ يعني: الله عَزَّ وَجَلَّ قدَّر هذا الشيء لحكمة بالغة، الله عَزَّ وَجَلَّ حكيم فيما يفعل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

)**بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة**(؛ يعني: بعض الناس يظن أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما يقدِّر الشيء إلا لمشيئته فقط، لأنه شاء الشيء فوقع من غير حكمة وهذا لا يصح لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما قدَّر شيء وما أوقع شيء إلا وهو مقترن بالحكمة.

هذا قاعدة: أن ما قدره الله عَزَّ وَجَلَّ وأوقعه فهو غاية الحكمة، الله عَزَّ وَجَلَّ ما يشاء شيء إلا لحكمة بالغة.

)}ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ{[ص: ٢٧].(

)**وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء**(؛ يعني: كثير من الناس يظن بالله عَزَّ وَجَلَّ ظن السوء إما في نفسه وإما في غيره، فإذا رأى في نفسه نقص مال أو نقص ولد أساء الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إلا من رحم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كما يخصص المؤلف، أو رأى في غيره كأن يرى رجل –مثلاً- يظهر عليها الصلاح والتقى فيصاب –مثلاً- بفقده للولد أو بفقده للمال أو يصاب بأمراض أو بشلل أو نحو ذلك فقد يقع في قلب الإنسان شيء فيظن بربه، أن هذا ليس لحكمة .

)**وأكثر الناس يظنوا بالله ظن السوء فيما يختص بهم**(؛ يعني: في نفسه.

)**وفيما يفعله بغيرهم من الناس، ولا يسلم** ،(

من الناس من ينجيه الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال:(**ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله تعالى وأسماءه وصفاته**)، كحال المؤمنين إذا أوقع الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم شيء ظنوا بالله ظن الخير.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا{[الأحزاب: ٢٢].

فالصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم لما رأوا الأحزاب تحزبوا وتجمعوا قالوا: هذا ما وعد الله، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ وعد أنه سيقع على أتباع الأنبياء ابتلاء، قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا{[البقرة: ٢١٤]، فعرفوا أن هذا من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وقالوا: صدق الله ورسوله،فرسوله أخبره أن المؤمن يبتلى قال:«**يبتلىٰ الرجل في دينه وماله وأهله**»، فأخبرهم بذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمُ، وأخبرهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أيضًا قبل ذلك بذلك.

قال:(**من عرف الله بأسمائه وصفاته**)، وفيه أنه إذا تعلم الإنسان معاني صفات الله وأسمائه فإنه حري به أن يظن بالله عَزَّ وَجَلَّ الظن الحسن.

قال:(**وموجب حكمته وحمده فليعتني اللبيب**) اللبيب؛ يعني: العاقل.

)**اللبيب الناصح لنفسه**)، الذي ينصح نفسه يريدها أن تنجو من عذاب الله.

)**بهذا، وليتب إلى الله**)، إذا وقع في نفسه شيء والإنسان غير معصوم فعليه أن يتوب إلى الله، ويجتهد في أن لا يقع في قلبه مرة أخرى مثل ذلك، إذا وقع في قلبه سوء ظن بربه بما يقع في نفسه أو في الناس حوله فليتب وليستغفر وليحسن الظن بالله ويجدد التوبة.

قال:(**وليستغفر من ظنه بربه السوء، ولو فتشت**)؛يعني: بحثت في القلوب.

)**من فتشت لرأيت عنده تعنتًا**)؛ يعني: عناداً.

)**تعنتًا على القدر**)؛ يعني: في قرارة نفسه كأنه يقول: يا ربي لماذا فعلت بي هذا؟ لما أوقعت على فلان ذلك؟ فإن فلان لا يستاهل، كما يقول بعض الناس: فلان لا يستاهل، أو فلان لا ينبغي أن يقع عليه مثل هذا الشيء.

)**تعنتًا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي**)؛ يعني كأنه يقول: لو لم تقضي هذا يا رب وقضيت هذا الشيء، كان ينبغي أن تفعل هذا الشيء، وهو بسبب جهله وضياع حكمته ما يعرف الحكمة البالغة التي يقضي بها الرب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:(**وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا**)؛ يعني: إذا وقع به –مثلاً- مرض كأن يقول في نفسه: يا ربي لو أوقعت لي العافية، وجعلتني –مثلاً- مقيم للصلاة وهو يجهل، قد يكون العافية لهذا الشخص سبب في إفساده في الأرض، ويكون المرض خير له.

قال:(**فمستقل ومستكثر**)؛ يعني: مستقل من هذا الظن ومستكثر.

)**وفتش نفسك, هل أنت سالم؟**)؛ يعني: ابحث في نفسك، وفيه أن الإنسان يكون أول ما ينكر على نفسه، ولذلك أفضل ما يكون أن ينكر الإنسان عن نفسه، ابدأ بنفسك تبدأ بنفسك فتنهاها وتأمرها بالمعروف وتنهاها عن المنكر وتلومها إذا فعلت معصيه ووقع في قلبك كبر أو عجب أو نحو ذلك، فأول ما تبدأ بنفسك.

لذلك هذا أفضل ما يكون أن يكون أكثر الإنكار على النفس، وهكذا كان السلف رَحِمَهُم اللهُ كانوا ينكرون على أنفسهم أولاً، فإذا صلح حاله أنكر على غيره، بخلاف بعض الناس الآن ينكر على غيره وهو عنده من الذنوب الشيء الكثير، أو عنده من التقصير الشيء الكثير، فيترك نفسه وينهى غيره، الله عَزَّ وَجَلَّ نهى عن ذلك: أ}أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{[البقرة: ٤٤]، فيبدأ الإنسان بنفسه.

قال:(**هل أنت سالم؟فإن تَنْجُ**)؛ يعني: من الظن بالله غير الحق.

)**مِنهَا تَنْجُ مِن ذِي عَظِيمَةٍ**)؛ يعني: عظيمة لا شك أن سوء الظن بالله عظيم.

)**وَإِلَّا فإِنِّي**)؛ يعني: أنا،(**لا إِخَالُك**) لا أظنك،(**نَاجِيًا**)؛ يعني: أن تنجو من هذا الظن، ولذلك ينبغي للمسلم أن يحذر من سوء الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: كان رجل يصاحبني كثير الصلاة وكثير الصوم، وتقدم به السن فمرض فاشتد المرض،عليه قال: فدخلت عليه أعوده، فقال هذا الرجل: إن كان

يريد أن يميتني فليمتني، أما هذا التعذيب فلا وجه له، هذا من الظن السيء بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأيضًا ذكر حالة شخص فقيه ولكنه كان كثير الاعتراف يعترض كثيرًا فأصيب بجرب، فدخل عليه يعوده فرآه فإذا به جرب شديد فقال: أليس ينبغي أن يكون هذا الجرب في بعير وليس فيَّ؟ ؛ ولذلك الإنسان عليه أن ينصح نفسه ويحذر من الظن السيء بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن المسلم أو المؤمن عليه أن يكون دائمًا محسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما فعل هذا الشيء إلا لحكمة بالغة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في منكر القدر

قَالَ الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في منكر القدر**.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان الإيمان بالقضاء و القدر من كمال إيمان العبد بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأن إنكار القدر إنكار لتقديره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وكان قد, ينافي التوحيد إذا كان على وجه التكذيب, أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليحذر و يبين النصوص الواردة في ذلك.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في منكر**.

ما جاء: يعني من النصوص,**في منكر**.

المنكِر والجاحد, منكر القدر.

والقدر شرعًا: هو تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى للمخلوقات بحسب ما سبق به علمه واقتضته حكمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

والقدر من أصول الإيمان, الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة, كما سيأتينا إن شاء الله في الحديث الذي ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

والقدر من حيث هو هو ينقسم إلى أقسام ثلاثة:

- **الأول:** ما يختص بالرب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهو على أربع مراتب :

- الأول: العلم؛ أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى علم ما الخلق عاملون, ويعلم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن الأمور أزلًا و أبدًا, إجمالًا وتفصيلًا, الكليات والجزئيات, فهذه الأمور جميعًا لا تخرج عن علم الله, فعلم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى شمل الأمور جميعًا, أزلًا و أبدًا, جملة وتفصيلًا, الكليات والجزئيات, وعلمه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بنفسه وبخلقه, الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم عن نفسه ويعلم عن خلقه, فعلم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى شامل لكل شيء.

- الثاني: الكتابة؛ أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كتب في اللوح المحفوظ ما الخلق عاملون, من الطاعات والمعاصي والأقدار وما يقع في الخلق, فكل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ.

وهذه الكتابة العامة تشمل المكلفين وغير المكلفين, فتشمل الإنس والجن والمخلوقات والبهائم, و غير ذلك مما سيخلقه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

- الثالث: المشيئة؛ أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى شاء الأمور, وما وقع شيء في الخلق أو ما وقع شيء في الوجود إلا وقد شاءه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قبل ذلك, ولا يقع شيء إلا بمشيئة الله, فكل ما وقع وكل ما سيقع فهو بمشيئة الله, لا يخرج شيء عن مشيئة الله.

- الرابع: الخلق, فما من مخلوق إلا والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خالقه؛ لأن الوجود ينقسم إلى قسمين:

- الأول: خالق, وهو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الأول الذي ليس قبله شيء, الذي لم يكن له بداية, بل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الأول الذي لا قبله شيء.

- الثاني: المخلوق, وكل ما سوى الله فهو محدث بعد أن لم يكن, حتى ما في القِدم, على قول أهل السنة أن المخلوقات تتسلسل في الماضي, فأعلم أنها محدثة بعد أن لم تكن, المخلوقات تتسلسل في الماضي ومع ذلك هي محدثة بعد أن كانت عدم, فهي خلق من خلق الله, وكانت في حيز العدم فأجدها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذا فيما اختص بالرب.

- **القسم الثاني من مباحث القدر:** مايختص بالمكلف, سواء كان الإنس أو الجن.

وهذا القسم لا يخلوا فيه المكلف من حالتين:

الحالة الأولى: الأفعال الاختيارية للمكلف, بحيث أنه يختار ويفعل باختياره, وهذه لابد فيها من كمال القدرة وكمال الإرادة, فإذا وُجدت وجُد الفعل بإذن الله تعالى, وهذه يختارها المكلف وهو محاسب عليها.

وهذا الاختيار لا يخرج عن اختيار الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومشيئته وتقديره, فإذا اختار العبد شيء وأراده فاعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قد أراده قبل ذلك وشاءه, ولا يقع إلا ما شاء الله عَزَّ وَجَلَّ, وهذا هذا مناط التكليف, هذا الذي يحاسب عليه العبد؛ لأنه راجع له ويختاره ويفعل باختياره, فإذا صلى قلنا صلى فلان, وإذا صام قلنا صام فلان, وإذا سرق قلنا سرق فلان, فهو باختياره لا يُكره على هذا العمل, مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خلق عمله وقدَّره عليه وشاءه منه.

الثاني مما يختص بالعبد: الأفعال الاضطرارية, وهي التي لا يكون فيها اختيار للمكلف, فهذه غير محاسب عليها, كحركة المرتعش أو سقوط الإنسان من مرتفع بغير اختيار, فهذه لا يحاسب عليها.

ولذلك لو صلى إنسان وأصيب بكثرة حركة في الصلاة من غير اختيار ما نقول تبطل صلاته, بل صلاة صحيحة لأنه من غير اختيار, ولو فعل ذلك باختيار لبطلت صلاته, إذا كان كثير متوالي من غير حاجة.

- **القسم الثالث من مباحث القدر:** ما يختص في القدر نفسه من حيث الكلام فيه.

فالكلام في القدر لا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: حالة جائزة, يجوز لك أن تتكلم في القدر, وهي البحث عن الحِكم وعن مراتب القدر وعن الأشياء التي قدَّرها الله عَزَّ وَجَلَّ, فتتعلم الحِكم وما يكون غير مستور عن العبد, فهذا جائز.

كما لو قيل مثلًا: ما الحكمة من أكل التمر عند الإفطار؟ لماذا يبدأ الصائم بأكل الرطب مثلًا أو التمر, فتبحث عن الحكمة, فهذا جائز, هذا من تقدير الله ولكن البحث فيه جائز.

ولو بحثت مثلًا عن حكمة كون الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة ما هي الحكمة فهذا جائز.

ولو بحثت مثلًا عن بعض المخلوقات فقلت مثلًا كم أعمار هذه المخلوقات وبحثت في أعمارها ونحو ذلك فهذا جائز, مع أن الله عَزَّ وَجَلَّ قدر الأعمار ونحو ذلك, يعني تقيس كم تعيش في العادة ونحو ذلك.

كالإنسان مثلًا تقيس كم يعيش, ستين سبعين وقليل من يتجاوز ذلك, فهذا من الأشياء التي يجوز الخوض فيها في القدر.

الثاني مما يختص في القدر: الجانب الخفي الذي لا يعلمه الله, الذي خفي علمه على الخلق , فهذا لا يجوز الخوض فيه, كالبحث عن الأسرار التي سترها الله عَزَّ وَجَلَّ عن الخلق.

كأن يقول مثلًا لماذا هدى الله فلان؟ لماذا أضل الله فلان؟ لماذا أطال في عمر فلان وأمات فلان؟ لماذا أعطى الله فلان ومنع فلان؟ لماذا أعز الله فلان وأذل فلان؟ وهكذا, فهذا لا يجوز الخوض فيه؛ لأن هذا سر الله عَزَّ وَجَلَّ في خلقه, لماذا جعل الله مثلًا فرعون من أهل النار وجعل مثلًا فلان من الناس من أهل الجنة؟ فلا يجوز الخوض في مثل هذا؛ لأن هذا سر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في خلقه, وهذا الموضع هو سبب ضلال من خاض في القدر, جميع من خاضوا في القدر سبب ضلالهم هو الخوض في أسرار القدر.

ولذلك قال شيخ الإسلام:

وَأَصْلُ ضَلَالِ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... هُوَ الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الْإِلَهِ بِعِلَّةٍ

فإنهمو لَمْ يَفْهَمُوا حِكْمَةً لَهُ فَصَارُوا عَلَى نَوْعٍ مِنْ الْجَاهِلِيَّةِ

يقول رَحِمَهُ اللهُ في النبوات: أن أصل الضلال هو الخوض في أسرار الله عَزَّ وَجَلَّ, في سر الله في قدره, الله عَزَّ وَجَلَّ أخفى هذا الشيء فلا نبحث فيه, ولا نعرف هذا الشيء حتى يقع, إذا وقع علمه الخلق, إذا صار أهل النار إلى النار وأهل الجنة إلى الجنة عرف الخلق مَنْ أهل النار.

إذا مات الإنسان على شيء أو ظهر للناس شيء فإن هذا مما ظهر من القدر, وهذا سر الله عَزَّ وَجَلَّ في خلقه ما يُبحث فيه.

ولذلك جاء في حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«أُخِّر الكلام في القدر لشرار هذه الأمة».

.وجاء في حديث عمرو من شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج على بعض أصحابه وكانوا يتكلمون في القدر, فغضب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ حتى كأن وجهه فقُع فيه حب الرمان من شدة الغضب, فقال:»إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ في مثل هذا«, فلا يُبحث في الجانب الخفي.

فالخوض في أسرار القدر والبحث فيه لا يجوز

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال ابن عمر: "والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبِله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». رواه مسلم.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

مناسبة هذا الحديث: أن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أُتي إليه شخص فسأله عن أُناس ينكرون القدر, وكان أول من أنكر القدر معبد الجهني, ثم أتى هؤلاء إلى ابن عمر فسألوه عن حُكم إنكار القدر, فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "والذي نفس ابن عمر بيده", حلف.

"والذي نفس ابن عمر بيده"؛ يعني: يحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, لأن الذي بيده نفسه ابن عمر هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: "لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبًا".

أُحد: جبل في المدينة, وهو جبل ضخم يحيط بالمدينة من بعض الجوانب.

قال: "لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبًا", لو كان مثل هذا الجبل العظيم ذهب, "ثم أنفقه"؛ يعني: أنفق هذا الذهب, أنفقه ما بقي منه شيء, "في سبيل الله"؛ يعني: في طاعة الله تصدق به ونحو ذلك.

قال: "ما قبِله الله منه"؛ يعني: ما قبِل الله منه هذا العمل.

وفيه: أن من أنكر القدر فإنه على خطر؛ لأنه إذا لم يقبل منه مثل هذا العمل العظيم فهو على خطر عظيم.

قال: "حتى يؤمن بالقدر". ثم استدل بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يعني: استدل ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

هذا وجه الشاهد: (وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ).

وفيه: أن القدر من أصول الإيمان, وإنكار القدر على حالتين:

الحالة الأولى: أن يُنكر إنكار تكذيب, فهذا كفر.

الثاني: أن يُنكر إنكار شُبهة, فإن كان الإنكار في العلم في علم الله عَزَّ وَجَلَّ أو كتابته فهو كفر أيضا, إذا كان ينكر علم الله عَزَّ وَجَلَّ أو كتابته فهو كفر, وقد كان قديمًا من الناس من ينكر علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وكتابته, ولكن يقول شيخ الإسلام أنهم انقرضوا.

الثاني: أن يكون شُبهة فينكر عموم المشيئة, فهذا بدعة.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: أن الإنسان إذا أنكر القدر فهو على خطر عظيم؛ لأن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أقسم أنه لا يُقبل منه العمل ولو كان كثيرًا.

ولذلك قال: "لو أنفق مثل أُحد"؛يعني: تصدق بصدقه تبلغ جبل أُحد من الذهب ما قُبِل منه إذا كان يُنكر القدر.

ومن الفوائد: أن أصوله الإيمان ستة, و هي في هذا الحديث, و إنكار شيء من أصول الإيمان كفر, فإذا أنكر الله عَزَّ وَجَلَّ أو أنكر الملائكة أو أحد الملائكة أو أنكر كتب الله عَزَّ وَجَلَّ أو شيء من الكتب أو رسل الله عَزَّ وَجَلَّ أو رسول أو أنكر اليوم الآخر أو القدر خيره و شره فقد كفر, إذا كان أنكر أصل أو أكثر من أصل فقد كفر؛ لأن هذه أصول الإيمان التي لا يصح إيمان عبد إلا إذا اجتمعت فيه.

وأما إذا وقع في تقصير في شيء من مراتب الإيمان فهذا لا يخرج من الإيمان.

كما لو أن الإنسان ترك الحياة, يعني أخلَّ بالحياة, كان عنده نوع قلة حياة, فهذا لا يخرج من الإيمان, أو وضع الإنسان الأذى على الطريق على الناس فهذا لا يخرج من الإيمان؛ لأن هذه تسمى شُعب الإيمان.

فإذا أخلَّ بشيء من شُعب الإيمان فإنه لا ينقص إيمانه و لا يخرج من الإيمان, أما إذا أخلَّ بأصول الإيمان فإنه يخرج من الإيمان؛ ولذلك من أنكر القدر خرج من الإيمان.

ومن الفوائد: أن القدر منه خير ومنه شر, فأما الخير فهو في فعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وفي مفعوله, فالخير في فعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وفي مفعوله.

فمثلًا: فعل الله عَزَّ وَجَلَّ تقدير الله عَزَّ وَجَلَّ لخلق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهذا خير من حيث تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خير, من حيث فعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, ومن حيث مفعوله فمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي من أولي العزم وأفضل الرسل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ, ففي مفعول الله عَزَّ وَجَلَّ خير, وكذلك الملائكة.

وأما الشر ففي فعل الله خير وفي مفعول الله شر, الشر في المفعول لا في الفعل, ففعل الله عَزَّ وَجَلَّ للشر خير, وفي المفعول الذي هو المخلوق هذا شر.

فمثلًا: الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قدَّر على فلان من الناس أن يسرق, ففي تقدير الله خير؛ لأن الشر لا يُنسب إلى الله أبدًا, الله عَزَّ وَجَلَّ إذا قدَّر شيء فأعلم أنه خير, وأما في المفعول المخلوق هذا العبد إذا سرق فهذا شر, فالشر يُنسب إلى المخلوقات أو بعض المخلوقات ولا ينسب إلى فعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, بل فعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كله خير.

ولذلك جاءفي الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ».

إذًا: الشر لا يُنسب إلى فعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وإنما يُنسب إلى المفعول.

فإبليس مثلًا من حيث خلق الله عَزَّ وَجَلَّ له خير, خير عظيم, إبليس من حيث خلق الله عَزَّ وَجَلَّ خير.

ووجه ذلك: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خلق إبليس ليفتن به من شاء من خلقه, فتظهر الحكمة, فيظهر الصادق من الكاذب.

وأيضا خلق إبليس ليظهر الجهاد, جهاد الشيطان وجهاد أولياء الشيطان.

وأيضا من الحكم في ذلك: أنه يظهر الأمر بالمعروف والنهي على المنكر, فلو لم يكن فيه إبليس يوسوس ويحض على المعاصي ما كان فيه أمر بالمعروف ونهي على المنكر.

ومنها أن الإنسان يعرف أو يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على كل شيء قدير, يخلق الخير ويخلق الشر سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وغير ذلك مما يجهلنا من الحكم الكثيرة.

وأما المفعول إبليس بذات شر.

وأيضا المرض بالنسبة لفعل الله خير, فإذا قدَّر الله عَزَّ وَجَلَّ على رجل مثلًا أن يصاب بشلل, فمن حيث تقدير الله وفعله فهو خير لا شر فيه بوجه من الوجوه, وأما من حيث المفعول فهو شر بالنسبة للعبد من وجه وخير من وجه آخر.

وأيضا خير لمن يعتبر به, وخير لأناس آخرين.

فمثلًا: هذا العبد قدر الله عَزَّ وَجَلَّ عليه أن يصاب بمرض, فمن حيث فعل الله خير لأن الله حكيم, فنجهل الحكمة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في تقدير هذا الشيء على العبد, وقد نعلم شيء منها.

أما من حيث وقوعه على العبد فهو شر بالنسبة إليه لأنه أصيب بمرض, فأصبح لا يقدر أن يتحرك, هذا شر بالنسبة له, ولكنه قد يكون له خير أيضا من وجه آخر بحيث أنه يتوب إلى الله.

وأيضا قد يعرف أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى له نِعم عليه.

وأيضا قد يكون سبب في إظهار الضعف والذل والخضوع إلى الله, فيكون خير لهذا العبد.

وأيضا قد يكون سبب في دخوله الجنة, هذا القعود يكون سبب في دخوله الجنة.

وأيضا خير للخارج من الناس, فإذا رآه أحد حمد الله, قال: الحمد لله الذي عافاني مماابتلى هذا الشخص, فكان فيه خير أن حمد الله هذا الإنسان.

وأيضا خير لمن يُحسن إليه, كالأطباء مثلًا, فيسعى في فعل الأسباب التي تكون سببًا في شفاء هذا الشخص, فيكون خير لهذا الشخص بحيث أنه يؤجر, وهكذا.

فالشر لا يُنسب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في فعله, وكما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَم: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ».

قَال المُصَنِّف رَحِمَهُ الله:

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: "يا بُني إنك لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**». يا بُني سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ مَاتَ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي**»."

وفي رواية لأحمد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه.**

مناسبة هذا الحديث: أن ابن عبادة ابن الصامت دخل على أبيه وهو في فراش الموت وأراد من أبيه أن يعظه فقال له هذا الأثر.

قال: وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: "يا بُني", هذا نداء منه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لابنه.

"يا بُني إنك لن تجد"؛ يعني: لن تُحصل,"طعم الإيمان",وطعم الإيمان هي اللذة والسرور التي يجدها المؤمن في قلبه بسبب تقربه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والإيمان به ونحو ذلك.

قال: "طعم الإيمان حتى تعلم".

(حتى) هنا الظاهر أنها للغاية، حتى تصل إلى هذه المرحلة.

"حتى تعلم"؛ يعني: توقن وتعلم بقلبك,"أن ما أصابك".

"ما أصابك"؛ يعني: ما وقع عليك من الأمور الدينية والدنيوية من المرض وغير ذلك,"ما أصابك لم يكن ليُخطئك"؛ يعني: لم يكن ليتجاوز عنك.

"وما أخطأك"؛ يعني: الشيء الذي لم يصيبك,"وما أخطأك لم يكن ليصيبك"؛ يعني المعنى أن ما قُدر عليك لابد أن يصيبك, وما لم يقدَّر عليك لا يمكن أن يصيبك, لابد أن تعتقد هذا الشيء.

سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ»؛ يعني: حين خلق القلم.

«فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ»؛ أمر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ القلم لما خلقه قال له اكتب, «قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟»؛يعني: القلم يقول لربه ماذا أكتب يا ربي؟

«قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»؛ يعني: إلى قيام الساعة, إلى أن تقوم القيامة الكبرى.

قال: "يا بُني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ مَاتَ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»."

ففيه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتبرأ ممن لم يؤمن بهذا الشيء.

قال: رواه أبو داود .

وفي رواية لأحمد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقَلَمَ».

«إِنَّ أَوَّلَ»؛ يعني: أول المخلوقات القلم؛ أي: أول المخلوقات المشاهدة التي نعلمها, وإن كان فيه شيء قبلها, كما سيأتي إن شاء الله في الفوائد أن قبلها العرش وغيره من المخلوقات.

«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ»؛ يعني: أمره الله عَزَّ وَجَلَّ حين خلقه أن يقول له اكتب.

«فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»؛ يعني: ما سيكون مكتوب مسطر في اللوح المحفوظ, ما من شيء يقع في هذا الخلق إلا وقد كتبه الله عَزَّ وَجَلَّ, حتى وضعُك يدك على خدك هذا مكتوب, حتى نبض العِرق في جسدك مكتوب, حتى الأنفاس التي تخرج منك وترجع مكتوبة,وهذا يدلك على سعة علم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ وقدرته.

ولذلك قال ابن عباس: "حتى إذا وضعت يدك على خدك فهو مكتوب".

لو قال الشخص هكذا فاعلم أن هذا مكتوب,وهذا يدلك على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ.

قال: وفي رواية لابن وهب قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

ففيه: تنفير ممن لم يؤمن بالقدر أنه يصليه الله عَزَّ وَجَلَّ النار إذا أنكر القدر وكذب به.

هذا الحديث الذي ذكره عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيه فوائد كثيرة:

من فوائد هذا الحديث: نصح عبادة لابنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ, لأنه نصحه بالإيمان بالقدر وهو من أصول الإيمان.

ومن الفوائد: أن ما أصاب الإنسان لم يكن ليُخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ولذلك في وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس عند الترمذي لما أوصاه قال: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ». وقال: «رُفِعَت الأقلامُ وجَفتِ الصُّحُفُ».

فما يقع على العبد وما يُصرف عنه يعلم يقينًا أن ما وقع أنه مكتوب ولابد أن يقع, وما صُرف عنه يعلم يقينًا أنه لن يقع وأنه غير مكتوب عليه, لابد أن يؤمن الإنسان بهذا.

ومن الفوائد: أن أول المخلوقات القلم, وهذا المخلوقات المشاهدة, هذا هو الأقرب الله أعلم.

وقد اختلف العلماء في أول ما خُلِق بالنسبة لما نعلمه من المخلوقات:

فقيل: أن أول ما خُلِق القلم, والدليل عليه: هذا الأثر أو هذا الحديث.

وقيل: أن أول ما خُلِق العرش, وهذا هو الراجح وعليه جمهور العلماء؛ كما قال ابن كثير.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ الخلاف في أبيات, ثم رجح أن العرش مخلوق قبل ذلك.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

والنَّاسُ مختَلِفُونَفيالقَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ القَضَاءُ بِهِ من الدَّيَّانِ

هَلْ كَانَ قبلَ العرشِ أو هو بعدَهُ؟ ... قولَانِ عندَ أبِي العَلَا الهَمَذانِي

والحقُّ أنَّ العرشَ قبلُ لأنَّهُ ... قَبْلَ الكتابةِ كانَ ذَا أركَانِ

يعني: كان أركان العرش ثابتة حين خُلِق القلم, فهذا هو الأقرب والله أعلم.

ولذلك جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ», الواو هنا حالية, يعني حين قدَّر فالعرش كان على الماء.

فالأقرب والله أعلم والصواب: أن العرش كان قبل ذلك.

ومن الفوائد: أن الأمور مكتوبة مقدرة, والأقلام التي وردت في النصوص خمسة:

الأول: القلم العام, وهو الذي في هذا الحديث, وهذا يشمل جميع الخلق, الإنس والجن, وهو في هذا الحديث.

القلم الثاني: ما هو خاص ببني آدم؛ ولذلك كتب الله عَزَّ وَجَلَّ أهل الجنة وكتب أهل النار من بني آدم.

وقد جاء في الأثر أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أخرج ذرية آدم, فقال: «خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، وَخَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ» .

الثالث من الأقلام: ما هو خاص بالإنسان في بطن أمه, خاص بشخص معين.

ودل عليه ما جاء في حديث ابن مسعود قال: حدثني الصادق المصدوق إلى آخر الحديث, قال: «فَيُكْتَبُ رِزْقُهُ، وَعَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»,فهذا خاص بهذا المخلوق الإنسان.

الرابع: الأقلام التي في أيدي الملائكة التي يكتبون الحسنات والسيئات.

الخامس: الكتابة في ليلة القدر, يُكتب ما هو كائن إلى السنة المقبلة.

ومن الفوائد: أن الأشياء مكتوبة إلى يوم القيامة, وأما بعد ذلك فلا نعلم, الله أعلم, لأنه قال: «بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ», فما بعد القيامة الله أعلم.

فنعلم أنه كُتب إلى يوم القيامة فيما في اللوح المحفوظ, أما بعد ذلك فالله أعلم.

والقدر من المباحث التي لا ينبغي للإنسان أن يتعمق فيه, ولكن يأخذ فيما جاء في الكتاب السنة ولا يتعمق, لأن التعمق قد يوقع في قلب الإنسان شيء,والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يظلم الخلق, وذلك أن من يدخل الجنة ويدخل النار لابد أنه يدخل بعمل.

ولذلك يقال: أن هناك قواعد في القدر أو في ضبط باب القدر:

أولًا: أن تؤمن بأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يظلم الخلق, لابد أن تؤمن بهذا,﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦],﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٩]؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ لا يظلم أحد أبدًا, لا يقع منه ظلم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لأحد.

ومن القواعد أيضا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خلق أسباب ومسببات, فهي من خلق الله, فالأسباب إذا وقعت وقع المسببات.

فمثلًا: الله عَزَّ وَجَلَّ جعل مثلًا هذا الشيء سبب لوقوع الإنسان في المعصية, فإذا وقع السبب وقعت المعصية, فالله خلق هذا السبب وخلق المسبب, فلا شيء يخرج عن خلق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن القواعد: أن الإنسان لن يدخل الجنة إلا بعمل, ولن يدخل الآخر النار إلا بعمل, ما يمكن أن يدخل الجنة إلا بعمل, ولا يمكن أن يدخل الآخر النار إلا بعمل.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى﴿:ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ», قال:«اعْمَلُوا», ومرهم بالعمل.

وأيضا: الذي يدخل النار بعمل, لن يدخل النار إلا بعمل,﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[الزمر: ٢٤]؛ يعني: عاقبة أعمالكم السيئة..

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى﴿:فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[الليل: ٥-١٠],سييسر يعني: يعمل.

وقال عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامَ:«وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»؛ يعني: يعمل أعمال أهل النار حتى يدخل النار بعمل.

ومن القواعد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ييسر أهل السعادة للسعادة, فالعبد لا يستقل بعمله إن لم يهديه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وييسر أهل الشقاوة للشقاوة, فكلٌّ مُيسر لما خلق له.

كما قال عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامَ :«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

وكما مر معنا في الآية قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{[الليل: ٥-١٠].

وجاء فيها الصحيحين من حديث علي وجابر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ:«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» .

فهذه من القواعد المهمة في القدر.

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: "أتيت أُبي بن كعب فقلت في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي. فقال: لو أنفقت مثل أُحد ذهبًا ما قبله الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، ولو مت علىٰ غير هذا لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". حديث صحيح. رواه الحاكم في صحيحه.

قَال الشَّارِحُ وفّقَه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:وفي المسند: يعني: مسند أحمد, والسنن: يعني: عند أهل السنن.

عن ابن الديلمي قال: "أتيت أُبي بن كعب فقلت في نفسي شيء من القدر"؛ يعني: وقع في قلبي شيء من مباحث القدر.

"فحدثني بشيء"؛ يعني:أخبرني بشيء, "لعل الله أن يذهبه من قلبي"؛ لعل الله عَزَّ وَجَلَّ يذهب ما وقع في قلبي, هذا بسبب كلامه.

"فقال له: لو أنفقت مثل أُحد ذهبًا ما قبِله الله منك حتى تؤمن بالقدر"؛ كما تقدم في قول ابن عمر.

قال:"وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليُخطئك وما أخطأك لم يكن ليُصيبك"؛ كما تقدم في نصيحة ابن عبادة بن الصامت.

قال:"ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار"؛ يعني: لو مت على غير إيمان بالقدر منكر له فأنت من أهل النار؛ لأنك أنكرت أصل من أصول الإيمان.

قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"؛ يعني: يحدثوني عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثل هذا الحديث.

فاجتمع أربعة من الصحابة على هذا القول, فابن عمر كما تقدم وعبد الله بن مسعود وحذيفة وزيد بن ثابت, وبعضهم رفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.,

ففيه: أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان, فيحذر الإنسان من إنكار القدر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في المصورين

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في المصورين.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان التصوير مضاهاة لخلق الله عَزَّ وَجَلَّ وقد يوصل التصوير إلى الشرك، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب ليحذر من التصوير، ويذكر النصوص التي وردت في هذا.

قال:**باب ما جاء**، **ما جاء**؛ يعني: من النصوص والوعيد.

في المصورين، المصورون جمع مصور وهو الذي يصنع الصورة، والصورة هي تمثيل شيء بشيء إما نحتًا وإما نقشًا وإما تخطيط، فهذا كله داخل في التصوير الذي لا يجوز.

والتصوير مما جاء فيه الوعيد، كما سيأتي إن شاء الله في هذا الباب من ذكر بعض الأحاديث، والتصوير ينقسم إلى أقسام:

الأول: التصوير بالنحت؛ بمعنى: أن الإنسان يأتي إلى صخرة أو إلى خشبة فينحت هذه الخشبة أو هذه الصخرة على صورة رجل، أو على صورة جمل، أو على صورة ذات روح، فهذا محرم إجماعًا، وقد نُقل الإجماع على ذلك،فهو محرم وقد نقل الإجماع على ذلك.

الثاني: التصوير بالتخطيط، إما نقشًا كأن يأتي إلى -مثلًا- إلى ستارة وينقش عليها صورة رجل بالنقش بالخيوط -مثلًا- فيصنع صورة رجل، أو صورة جمل، أو صورة ذات روح، أو يضع بالتشكيل في ورقة يأتي بورقة ويشكِّل صورة رجل أو صورة جمل أو صورة ذات روح، فهذا جمهور العلماء على أنه محرم أيضًا.

والدليل على ذلك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل على عائشة وقد سترت جانب بيتها بقرام -وهو نوع من الستائر عليه صورة-، فغضب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ فأخذها وشقها وقال:«مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ».

الثالث من التصوير: ما يكون بآلة التصوير الحديثة كالجوال ونحوه، فهذه إن كانت متحركة، فهذه الذي يظهر -والله أعلم- أنها لا تدخل في التصوير المنهي عنه، إذا كانت صورة مباشرة إذا كان يصور -مثلًا- بجواله صورة مباشرة فيديو فهذه الظاهر -والله

أعلم- أنها لا تدخل في التصوير، لأن علة التصوير لا تشملها، فعلة التصوير مضاهاة خلق الله، والذي يصور هو خلق الله ولا يصور مثل خلق الله، وإنما هو خلق الله الذي يصور.

وأيضًا لأن من علل التصوير: الشرك وهذا لا يتصور في هذه الصورة المتحركة، وإن كانت الصورة ثابتة فهذه فيها خلاف.

فالفتوى اللجنة الدائمة على منع هذا الشيء.

وابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ يقول: أن هذه لا تدخل في التصوير المحرم.

ولذلك يقول ابن بسام في شرح بلوغ المرام: "أن التصوير بآلة الجوال كالصورة على الماء ولكنها ثُبتت"، إذا رأى الإنسان صورته على الماء هذا لا إشكال فيه ومثله التصوير بالجوال، وإنما ثُبتت هذه الصور، ولذلك كان قديمًا يسمى الصورة الفوتوغرافية عكس ولا تسمى تصويرولكن الآن غلب عليه إسم التصوير .

والأحوط في هذا: أن يبتعد الإنسان عن التصوير، لأن هذا الشيء من المشتبه، ولذلك هذا فيه خلاف الآن:

عند العلماء منهم من يقول: أنه جائز.

ومنهم من يقول: أنه ممنوع.

فإذا كان كذلك فهو يكون من المشتبه، والسلامة لا يعدلها شيء فتركها أفضل أو تركها أحوط فيبتعد الإنسان.

وهذه الأقسام هي تصوير ما فيه روح، الأقسام الماضية يراد بها تصوير ما فيه روح كالرجل –مثلًا– أو الطير أو الجمل، أو غير ذلك من الأشياء التي فيها روح.

أما إذا كان الإنسان يصور ما لا روح فيه، أو يقال: تصوير ما لا روح فيه هذا قسم آخر، تصوير ما لا روح فيه لا يخلو من حالات أيضًا:

الحالة الأولى:أن يصور ما صنعه الانسان، كتصوير السيارة أو تصوير الأواني، فهذا جائز بلا إشكال سواء كان هذا نحت أو نقش أو بتصوير آلة الجوال أو غير ذلك، فهذا جائز.

الثاني:أن يصور ما لا حياة فيه مما خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ، ما لا حياة فيه كالجبل –مثلًا– والبحر، فهذا الظاهر –والله أعلم–أنه جائز، لأنه جاء في الحديث يقال للمصور: ويؤمر أن ينفخ فيها صور الروح، والجبل ليس فيه روح والبحر ليس فيه روح.

الثالث:أن يصور ما فيه حياة وليس فيه روح، كالشجرة –مثلًا– الشجرة فيها حياة تنمو وتزدهر ولكن ليس فيها روح، فهذه أيضًا الذي يظهر –والله أعلم–أنه يجوز تصويرها.

ويدل على ذلك حديث ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُ لما نهى الرجل عن التصوير فقال: "إن كنت فاعل فصور ما لا روح فيه"، صور الشجر وما لا روح فيه، فيجوز تصوير الشجر ونحوه.

فالمراد: بالتصوير ما فيه روح هذا الذي جاء فيه الوعيد، والذي يصور ما فيه روح لا يخلو من حالات:

الحالة الأولى:أن يعتقد أن هذه الصورة التي صورها أحسن من خلق الله أو مثل خلق الله، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

الحالة الثانية:أن يصور الشيء الذي فيه روح ويأمر بعبادته من دون الله ويرضى بذلك، فهذا شرك ومناقض للإسلام لأنه من رضي بالكفر فهو كافر.

الحالة الثالثة:أن يصور ما فيه روح من باب التجارة،أو من باب اللهو واللعب،أو من باب الهواية ولا يعتقد ما مضى،ما يعتقد أنها أحسن من خلق الله ولا يريد أن تُعبد من دون الله، فهذا من كبائر الذنوب لأنه ورد فيه وعيد شديد، كما سيأتينا إن شاء الله في الأحاديث.

التصوير من كبائر الذنوب؛ لأنه جاء في الحديث: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ» .

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله تعالىٰ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً».

أخرجاه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «قال الله تعالىٰ»، هذا هو الحديث القدسي الذي ينسبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه لفظًا ومعنى، فاللفظ من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والمعنى من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والتبليغ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«قال الله تعالىٰ: وَمَنْ أَظْلَمُ»، «وَمَنْ أَظْلَمُ»؛ يعني: لا أحد أظلم وهذا استفهام استنكاري؛ يعني: لا أحد أظلم من هذا.

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»، «ذَهَبَ يَخْلُقُ»؛ يعني: يصنع ويوجد «كَخَلْقِي»؛ يعني: مثل خلقي.

«فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً»، وهذا للتعجيز.

«فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً»؛ يعني: ليوجدوا ذرة، والذرة هي النملة الصغيرة.

"أو"، وهنا للتنويع.

«فَلْيَخْلُقُوا»؛

يعني: يوجدوا من العدم، «حبة»؛ يعني: حبة تنمو فيها حياة.

«أَوْ لِيَخْلُقُوا»، هذا أيضًا للتنويع.

«أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»؛ يعني: ليوجدوا من العدم شعيرة، الشعيرة هي الحبة الصغيرة التي تنمو فيها حياة.

وهذا الحديث فيه تعجيز.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن المصور من أظلم ما يكون إذا كان يضاهي خلق الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهنا مسألة: قال: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي».

وجاء في بعض النصوص: "من أظلم ممن يفعل كذا"، كقوله تعالى: }وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا{[البقرة: ١١٤].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.{

يُقال أن الجواب عن هذا: أن الظلم هنا في بابه في الصفة التي فيها،فيقال: أظلم الكاذبين من كذب على الله، وأظلم المصورين من ضاهى خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، وأظلم المانعين من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، وهكذا، فهو في صفته.

ومن الفوائد: أن الخلق لا يقدروا على أن يوجدوا ذرة، فلو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا ذرة صغيرة ما استطاعوا لذلك سبيلًا، لأن الخلق من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ التي يختص بها؛ ولذلك قال: "فليخلقوا ذرة"، وهذا فيه تعجيز ولا يستطيع الإنسان أن يخلق ذرة ولا إنس ولا جن يقدروا على ذلك.

وهنا مسألة أيضًا: ورد في القرآن ما يدل على أن غير الله عَزَّ وَجَلَّ يخلق، كقوله تعالى: }فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ{[المؤمنون: ١٤].

والجواب عن هذا الإشكال: أن الخلق هنا هو تحويل شيء من شيء إلى شيء آخر، فهذا يقدر عليه الإنسان، كتحويل –مثلًا- الشجرة إلى باب، أو تحويل الحديد إلى سيارة، فهذا خلق ولكنه تحويل شيء من شيء إلى آخر، أما إيجاد الشيء من العدم فهذا لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فإيجاد الحديد من العدم لا يقدر عليه إلا الله، وإيجاد الشجرة والخشب من العدم لا يقدر عليه إلا الله، فالخلق وإيجاد الشيء من العدم لا يقدر عليه إلا الله.

أما المخلوق قد يحول شيء من شيء إلى آخر,كمثلًا: الآن تحويل الرجل من رجل إلى امرأة هذا مما هو موجود الآن –نسأل الله العافية- يحول الرجل من رجل إلى امرأة هذا تحول

شيء من شيء إلى آخر وليس إيجاد من العدم، ولذلك ما يستطيع أحد أن يخلق امرأة أو يخلق رجل لأن هذا من خصائص الله عَزَّ وَجَلَّ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ{[فاطر: ٣]، فالخلق صفة الخلق هو من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى التي اختص بها.

ومن الفوائد: أن الناس أو الخلق لا يستطيعوا أن يوجدوا حبة كحبة الأرز –مثلًا– ولو قال قائل: الآن يُصنع أرز.

فالجواب على هذا الإشكال أيضًا: أن هذا الذي يُصنع ليس فيه نمو وحياة، فلو وضعت هذه الحبة التي صنعت في الأرض ما نبتت لو بقيت ملايين السنين فهي مجرد تحويل شيء من شيء إلى آخر فهو ليس خلق، فالخلق هو إيجاد شيء من العدم الذي يكون فيه روح أو فيه حياة هذا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا شريك له، فلا يشكل عليك هذا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

قال: **ولهما**: يعني: البخاري ومسلم.

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»؛ يعني: أشد من يكون معذب يوم القيامة من الناس، «**الذين يضاهئون**»؛ يعني: يشابهون، »**بِخَلْقِ اللهِ**».

ففي الحديث: أن أشد الناس عذابًا الذين يريدون إيجاد تصوير شيء يضاهي خلق الله عَزَّ وَجَلَّ.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله، وهذا فيه إشكال، وذلك أن التصوير إذا كان مجرد هواية أو للتجارة أو نحو ذلك فليس بكفر فكيف يكون أشد عذابًا من الكافر؟

فالجواب عن هذا الإشكال: أن يقال: أن أشد الناس؛ يعني: من أشد الناس، فيكون من أشد الناس عذابًا الذي يصور هذا التصوير.

وأيضًا جواب آخر: أن يقال: أن الذي يصور ويدخل في هذا الوعيد هو الذي يريد أن يوجد تصوير مثل خلق الله، فيعتقد في نفسه أنه خلق مثل خلق الله، وتقدم أن هذا كفر، فيكون أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذي يصور صورة ويعتقد أنها مثل خلق الله، أو يعتقد أنها أحسن من خلق الله، فينازع الله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته فيكون أشد الناس عذابًا يوم القيامة.

الجواب الثالث: أن يقال: أن هذا من أشد الناس عذابًا في هذه الصفة؛ بمعنى: أن أشد المصورين عذابًا هو الذي يصور صورة يضاهي بها خلق الله، فالمصور يكون على درجات: أعلاهم الذي يصور صورة، يعني: أعلاهم عذابًا الذي يصور صورة يضاهي بها خلق الله فهي في الصفة -والله أعلم-.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عن ابن عباس: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **ولهما**: يعني: البخاري ومسلم.

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كُلُّ مُصَوِّرٍ»، (كُلُّ) من صيغ العموم.

«كُلُّ مُصَوِّرٍ»؛ يعني: مخترع للصور، «فِي النَّارِ»؛ يعني: يدخل النار، لأن (في) تدل على الظرفية.

«فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ»، «يُجْعَلُ»؛ يعني: يُصير، «لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ»؛ يعني بكل صورة صورها في الدنيا.

«صَوَّرَهَا نَفْسٌ»؛ يعني: الصور التي صورها في الدنيا توضع فيها أنفس، توضع في هذه الصورة التي صورها أنفس، فلو أنه صور –مثلًا– مائة صورة وضع في هذه المائة صورة أنفس فتكون حية قال: «يُعذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ»، فهذه الصور تعذبه.

فهذه الصورة التي صورها في الدنيا يخلق فيها نفس، يخلق الله عَزَّ وَجَلَّ فيها نفس فتعذبه في النار، فتكون هي عذابه.

قال: «فِي جَهَنَّمَ»؛ يعني: في النار ويعذب بتلك الصور، ففيه أن الصور يوم القيامة تعذب الإنسان فكل ما كثرت كثر عذابه.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن التصوير من أسباب دخول النار، ولذلك قال: «كُلُّ»، وكل من صيغ العموم، «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ».

وقد جاء في الأثر: "أنه يخرج من النار عنق له عينان تبصران ولسان يتكلم، ويقول هذا اللهب: وكلت بثلاثة"، وذكر منهم المصورين، ففيه دليل على أن المصور قد يدخل بسبب التصوير النار.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا صوَّر صور في الدنيا فإنها تكون سبب في عذابه في الآخرة، فإذا صور وأكثر من الصور زاد عذابه، ولذلك فإذا أكثر الإنسان من التصوير زاد عذابه في النار؛ لأنه قال: «بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولهما عنه مرفوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال: **ولهما:** يعني: البخاري ومسلم.

عنه: يعني: عن ابن عباس.

مرفوعًا: يعني: مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«مَنْ »، (مَنْ) شرطية.

«مَنْ صَوَّرَ صُورَةً في الدُّنْيَا»، وهذا فعل الشرط.، وجواب الشرط: «كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»؛ يعني: يُكلَّف يوم القيامة أن يحيي هذه الصورة بحيث أنه ينفخ فيها الروح ولا يقدر، لأنه قال: «وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن من صور صورة فإنه قد كلف نفسه بما لا يطيق، لأنه يوم القيامة يقال له: أحيي هذه الصورة التي صورتها في الدنيا ولا يقدر على ذلك، فهو يكلف نفسه ما لا يطيق.

ومن الفوائد: أن التصوير المحرَّم هو ما كان فيه روح كما تقدم، لأنه قال: «كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ»، فتصوير ما فيه روح هو الذي لا يجوز وهو محرَّم، والذي فيه روح كالبشر -مثلًا- كالإنسان أو كالحصان أو كالجمل أو كالشاة أو كالدجاجة أو كالصقر.

فالضابط في ذلك: أن الشيء الذي فيه روح إذا خرجت مات فهذا هو الذي لا يجوز تصويره، والتصوير يكون بالنحت؛ بمعنى: أن يأتي بصخرة ثم ينحت هذه الصخرة على صورة رجل له وجه وله جسم وهكذا، أو ينحت هذه الصورة على صورة صقر له رأس وعين ووجه وله جسد.

وأيضًا يشمل التصوير بالخط، كأن يأتي بورقة ويأخذ القلم ويصور صورة رجل له وجه وعين، يرسم رسمًا له وجه وعين ويتبسم، أو بوجه عبوس، أو نحو ذلك.

وهنا ينبه لمسألة مهمة: وهو أن التصوير المراد به الرأس، فإذا صور الرأس فقد دخل في المنهي عنه حتى ولو لم يصور البدن، وأما إذا صور البدن بدون رأس فهذا جائز، لأنه يكون كهيئة التمثال.

والدليل على ذلك: ما جاء في حديث عائشة أن جبريل عَلَيْهِ السَّلاَم لما امتنع أن يدخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب التمثال وبسبب الكلب، فقال جبريل عَلَيْهِ السَّلاَم: مر بالكلب فليخرج، ومر بالتمثال فليقطع رأسه، فليكن كهيئة الشجرة.

ولذلك إذا كان بدن بلا رأس فهذا جائز لأنه ليس فيه صورة، فالصورة هي الوجه والرأس.

ولذلك جاء عن ابن عباس أنه قال: "الصورة هي الرأس"، أو كما قال رَضِي الله عَنْهُ.

إذا صور بدون بلا رأس يسمى كهيئة الشجرة، ولذلك لو صور الإنسان رأس بلا بدن فقد دخل في هذه النصوص.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ولمسلم عن أبي الهياج قال: "قال لي علي: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته".

قَالَ الشَّارِحُ وفَقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**ولمسلم عن أبي الهياج قال: "قال لي علي"**؛ يعني: أمره علي رَضِي اللهُ عَنْهُ.

"ألا"، أداة تنبيه وتشويق.

"ألا أبعثك"؛ يعني: أرسلك.

"أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله"؛ يعني: مثل ما بعثني عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"ألا تدع"؛ يعني: لا تترك.

"صورة"، ذات روح.

"إلا طمستها"؛ يعني: محوتها، فإن كانت –مثلًا- على صخرة حطمت هذا الرأس محوت تصوير الوجه، وإن كان –مثلًا- على قرام محوته وطمسته طمست المعالم حتى يصبح كأنه ليس له صورة.

قال: "ولا قبرًا مشرفًا"؛ يعني: مرتفعًا.

"إلا سويته"؛ يعني: سويته بالقبور فيكون على هيئة القبور الأخرى.

فهذا الأثر فيه فوائد:

من فوائد هذا الأثر: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث علي رَضِي اللهُ عَنْهُ لتحطيم الصور وطمسها؛ ولذلك قال: "على ما بعثني عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ."

ففيه: أن الصورة إذا كانت عند الإنسان فعليه أن يطمس هذه الصورة، فإذا وجد صورة فليطمس هذه الصورة.

وعلة التصوير هي: أن المصور يضاهي خلق الله عَزَّ وَجَلَّ هذه العلة الأولى؛ بمعنى: يريد أن يشابه خلق الله عَزَّ وَجَلَّ إذا صور هذه الصورة، وهذا منازع لله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته، الله عَزَّ وَجَلَّ لا يرضى أن أحدًا من الخلق ينازعه في خصائصه، فإذا نازع أحد من الخلق الله عَزَّ وَجَلَّ في خصائصه فإن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يهلكه.

ولذلك جاء في الحديث في الصحيح أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال في الحديث القدسي: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهُمَا عذبته»، فمن أراد أن يتكبر من البشر أو أراد أن يضاهي الله عَزَّ وَجَلَّ يريد العزة التي اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بها فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يهلكه ويعذبه.

ولذلك فرعون لما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[النازعات: ٢٤]، أخذه الله عَزَّ وَجَلَّ نكال الآخرة والأولى، فإذا تكبر الإنسان فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يأخذه، وهكذا إذا نازع الإنسان الله عَزَّ وَجَلَّ في ما اختص به من الخلق فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يهلكه.

العلة الثانية: أن التصوير سبب للشرك، فلذلك أول ما وقع الشرك بسبب التصوير؛ كما جاء في صحيح البخاري من حديث ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا

تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}[نوح: ٢٣]، قال: "هذه أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح فهلكوا، فأوحى الشيطان أن ينصبوا على مجالسهم التي كانوا يجلسون عليها أنصاب وسموهم بأسمائهم، فلما طال عليهم الأمد عُبدت من دون الله".

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "قال غير واحد من أهل العلم: أنه لما هلكوا نصبوا وعكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوه".

فالتصوير من أسباب الشرك؛ لذلك تجد أن الصور إذا عُظِّمت من أسباب أن يقع الشرك، وخاصة إذا كان هذا المُصور له تقدير في قلوب الناس، فهذا من أسباب الشرك ولذلك يحذر من التصوير.

والتصوير -كما تقدم- من كبائر الذنوب، فعلى الإنسان أن يحذر من التصوير أشد الحذر سواء كان ذلك نحتًا أو خطًا في يده، أو كان ذلك بالتقاط بجواله -مثلًا- فليحذر من هذا كله، لأن الشيء إذا كان محرم أو فيه شبهة فعلى الإنسان أن يبتعد عنه، لأنه أحوط له في دينه وأبرأ لذمته.

وهنا مسألة: ما هو الفرق بين التصوير واتخاذ الصور؟

التصوير هو أن يصنع الإنسان صورة، فهذا هو المحرم إذا كانت هذه الصورة ذات روح، وأما اتخاذ الصور فله حالتان:

الحالة الأولى: أن يكون على وجه التعظيم كأن يضع صورة معظم -مثلًا- في مجلسه ويرفع هذه الصورة، أو يضعها على ثوبه على صدره -مثلًا -أو يضعها -مثلًا- على عمامته فيكون لها تعظيم، فهذا محرم لا يجوز لأن هذا من أسباب وقوع الشرك وخاصة إذا كان هذا معظم أو كان ميت.

فيحذر الإنسان من تعليق الصور في مجالسه، أو في الموضع الذي يكون هو فيها، أو يضعها على ثيابه فيكون لها تعظيم فهذا لا يجوز.

والدليل: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ أَو صُورَةٌ»، الصورة؛ يعني: الصورة المعلقة.

وقد جاء عن بعض الصحابة أنه دعاه رجل لطعام فسأله قال: هل عندك صورة؟ قال نعم، فأبى أن يدخل حتى كسر هذه الصورة ثم دخل.

ولذلك جمهور العلماء على أن الإنسان إذا دخل مكان وكان فيه تصوير وهذه الصورة معظمة يجب عليه أن ينكر أو يخرج من المكان، من كان يقدر أن ينكر بلسانه فلينكر، وإذا كان لا يقدر أن ينكر بلسانه فلينكر بقلبه وجوبًا، لأنه لا يجوز أن تعظم هذه الصور.

الحالة الثانية: أن تُتخذ هذه الصور مهانة تهان، كأن توضع –مثلًا– فراش أو وسادة، فهذا جمهور العلماء على أنه جائز.

والدليل: ما جاء في حديث عائشة في الصحيحين أنها قالت: فشققنا تلك القرام فوضعتها رَضِي اللهُ عَنْهَا على مخدتين، قالت: فرأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متكئ على إحداهما.

ولما جاء في حديث جبريل أيضًا أنه قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره أن توضع كالوسادة، فإذا كانت الصورة تهان كأن يكون بساط، أو –مثلًا– تهان، فإن هذا جمهور العلماء على أنه جائز، وإن كان بعض العلماء يرى أنه لا يجوز أيضًا.

لكن الذي يظهر –والله أعلم– أنه جائز إذا كانت تهان، لأن العلة هو التعظيم، إذا كانت تهان زالت هذه العلة.

وهنا يُنتبه أن فيه فرق بين الذي يصور وبين الذي يتخذ الصور، فالذي يصور يحذر من مضاهاة خلق الله، والذي يتخذ الصور يحذر من التعظيم.

ومن الفوائد: أن القبور لا يجوز أن تُرفع ولذلك قال: "ولا قبرً مشرفًا"؛ يعني: مرتفعًا، "إلا سويته".

والعلة في ذلك: لئلا يُعظَّم القبر، ففتنة القبور من أعظم ما يكون سببًا للشرك، ولذلك ما وقع الشرك إلا بسبب تعظيم القبور وتصوير الصور.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في كثرة الحلف

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في كثرة الحلف.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان توكيد الخبر بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ يدل على تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأن كثرة الحلف في الإخبار بالشيء أنه ينافي كمال تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب لينبه على أنه لا ينبغي كثرة الحلف؛ لأن ذلك يدل على ضعف التوحيد في قلب العبد.

قال:**باب ما جاء:** يعني من النصوص,**في كثرة**: الكثرة يعني الزيادة، **في كثرة الحلف**.

الحلف: هو توكيد الشيء بذكر معظم، فيؤكد الإنسان الخبر بذكر بمعظم، فكأنه يقول أؤكد لك هذا الخبر بقدر عظمة الله في قلبك.

وحروف القسم ثلاثة: الواو والتاء والباء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ: }وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ{[المائدة: ٨٩].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وقول الله تعالى :}وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ{[المائدة: ٨٩].

في هذه الآية الكريمة يرشد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده لأن يحفظ أيمانهم, يعني الحلف, يحفظوا أيمانهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى} :وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ{؛ يعني: احفظوا أيمانكم, فلا تُكثروا من الحلف,فهو داخل في حفظ اليمين.

واحفظوا أيمانكم إذا وقعتم فيما حلفتم ألا تفعلوه فكفروا, فهذا من حفظ اليمين.

واحفظوا أيمانكم أيضًا إذا حلفتم على شيء واجب أو مستحب أو مباح فافعلوه, إن كان فعلًا فافعلوه, وإن كان تركًا فاتركوه, فهذا كله داخل في حفظ اليمين.

فحفظ اليمين يكون بثلاثة أمور:

الأول: عدم كثرة الحلف, فهذا من حفظ اليمين.

الثاني: أن يحفظ الإنسان يمينه بحيث يُكفر إذا وقع في الحنث, إذا حنث في يمينه فليُكفر, فهذا من حفظ اليمين.

الثالث: ألا يُكثر من الحلف.

فهذا كله داخل في حفظ اليمين.

وقال بعضهم أيضا: ألا تحلف إلا بالله, فهو داخل في حفظ اليمين, فلا تُقسم إلا بالله عَزَّ وَجَلَّ.

ففي هذه الآية يرشد الله عَزَّ وَجَلَّ العبادة أن يحفظوا أيمانهم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ للكَسْبِ**». أخرجاه.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:عن أبي هريرةرَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ للكَسْبِ**». أخرجاه.

في هذا الحديث يبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كثرة الحلف سبب في رواج الشيء ولكنه يُذهب البركة.

قال:عن أبي هريرةرَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الْحَلِفُ**»؛ يعني الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ.

«الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ»؛ يعني: رواج,بحيث أنها تذهب وتروج.

«لِلسِّلْعَةِ»؛ السلعة: هي التي تُعرض للبيع.

قال:«مَمْحَقَةٌ للكَسْبِ»؛ يعني: مُذهبة للبركة,بحيث أن الإنسان إذا كسب من هذه السلعة شيء من المال فإن البركة تذهب, وإذا ذهبت البركة فلا خير في المال.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الحلف سبب لرواج السلعة, ولكنه لا ينبغي للإنسان أن يحلف على السلعة, لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عظيم وجليل, فكيف أن هذا الإنسان يروج هذه الأموال والبضائع الدنيوية الزائلة الضائعة ويذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ ويحلف عليها ويؤكد الخبر بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ, فهذا ما ينبغي, لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى جليل لا يُحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ إلا في الأمور المهمة, أما أمور الدنيا بيع السلع والأموال هذا لا يُحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ لتروج.

وقد جاء عند الإمام أحمد: أن الحلف الكاذب أنه هو الذي يمحق البركة.

فيحلف الإنسان مثلًا يقول: والله إني قد اشتريت هذه السلعة بمئة ريال, وهو قد اشتراها بخمسين ريال, فيصدقه هذا الشخص ويشتري بأكثر من ذلك بسبب أنه حلف, ولكن إذا فعل ذلك فإن البركة تذهب, فيكون هذا المال الذي كسبه لا فائدة فيه.

ولذلك تجد من الناس من يكون عنده أموال كثيرة ولكن لا بركة فيها تذهب, ومن الناس من رزقه الله عَزَّ وَجَلَّ قليل من المال وتجد أنه قد سد حاجته وزاد عنده؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أنزل فيه البركة, فالبركة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أنه ينبغي على المسلم أن يُعظم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فلا يحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ لأمور دنيوية, لبيع سلع وتجارة.

فهذا الحديث فيه خبر وليس إقرار, يخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الحلف منفقة للسلعة ولكن من باب الخبر.

ومن الفوائد: أن كثرة الحلف كذبًا سبب لمحق البركة, فيصاب المال بذهاب البركة, فقد يذهب المال بالكلية بسبب كثرة الحلف,بحيث أن الإنسان يُقدَّر عليه أمر فيذهب ماله كله.

يكون مثلًا إنسان يبيع في الإبل مثلًا ويكذب, يقول: والله شريتها بكذا, والله قيمتها كذا, ثم يزيد ماله, ثم في لحظة يذهب المال بالكلية, كأن تصاب مثلًا هذه الإبل بأمراض, أو يأتيها شيء يقدره الله عَزَّ وَجَلَّ فتذهب ولا يبقى في يده شيء فتذهب البركة.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنها ممحقة للكسب, تُذهب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن سلمان أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وعائِلٌ مُستكبِرٌ، وَرَجُلٌ جعَلَ اللهَ بِضاعَتَهُ، لا يَشتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ**». رواه الطبراني بسند صحيح.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

في هذا الحديث الذي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قال:وعن سلمان:سلمان الفارس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ, وكان من أبناء ملوك فارس.

قال: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ثلاثةٌ**», ثلاثة أصناف وليس ثلاثة أشخاص, يعني يدخل فيه من دخل في هذا الوصف.

«**ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ**», لا يكلمهم الله بكلام يرضونه, بحيث أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يكلمهم كلام رضا.

قال:«**ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يُزَكِّيهِمْ**»؛ يعني: لا يطهرهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, «**وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ**»؛ يعني: عذاب موجع.

قال:«**أُشَيْمِطٌ زَانٍ**».

أُشيمط: تصغير أَشمط, وهو الرجل الذي اختلط سواد شعره مع بياضه, فيكون رجل بلغ في السن حتى شاب شعره واختلط بالسواد.

قال:«أُشَيْمِطٌ زَانٍ»؛ يعني: يفعل الزنا, يزني مع أنه كبير في السن ذهب عنه الشهوة ولكن باقي فيه الخبث يزني.

قال:«وعائِلٌ مُستكبِرٌ».

عائل: يعني فقير, مستكبر: يعني يتكبر, والسين والتاء تدل غالبًا على الطلب, فهو يطلب الكِبر مع أنه فقير, ومثله لا ينبغي له أن يتكبر, ومع هذا يتكبر ويرى أنه أكبر من غيره.

قال:«وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضاعَتَهُ»؛ يعني: جعل الله عَزَّ وَجَلَّ رواج لسلعته,بحيث أنه يحلف بالله فتروج هذه السلعة.

«لَا يَشتَرِي»؛ يعني: لا يشتري من أحد,«إِلَّا بيَمِينِهِ», حتى يحلف, إذا أراد أن يشتري من أحد مثلًا حلف, لابد أن يحلف إذا أراد أن يشتري.

قال:«وَلا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ»؛ يعني: ما يبيع سلعة في يده إلا وقد حلف معها يقرنها بالحلف؛ ولذلك قال:«جَعَلَ اللهَ بِضاعَتَهُ»؛ يعني أنه -نسأل الله العافية- جعل الله عَزَّ وَجَلَّ رواج لهذه السلعة, إما في الشراء وإما في البيع,فإذا أراد أن يشتري حلف وإذا أراد أن يبيع حلف.

قال: رواه الطبراني بإسناد صحيح.

هذا الحديث قال الهيثمي:أن رواته ثقات, وصححه الألباني .

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن من الناس ثلاثة لا يكلمهم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم, وهؤلاء الثلاثة ليس ثلاثة أشخاص, بل هو ثلاثة أوصاف, فكل من اتصف بهذا الوصف فهو داخل في هؤلاء الثلاثة.

فمثلًا: لو كان رجل كبير في السن وشاب رأسه وهو يزني مستمر على الزنا فإنه داخل في هذا.

وأيضا إذا كان رجل فقير لا مال له ويتكبر ويرى أنه فوق الناس فهو داخل في هذا.

وأيضا إذا كان رجل لا يبيع ولا يشتري إلا بالحلف ويكذب في بيعه وشراءه فهو داخل في هذا.

ومن فوائد الحديث: أن من الناس من لا يكلمهم الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهنا إشكال: ورد أن من الناس أيضا من يكلمهم الله عَزَّ وَجَلَّ, وورد في بعض النصوص أنه لا يكلمهم.

فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن الكفار:}وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ{[الصافات: ٢٤].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في آية أخرى:}فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ{[الرحمن: ٣٩].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا:«لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ».

والجمع بين هذه النصوص إما أن يقال: أن يوم القيامة له مراحل, فهو يوم طويل, مرة لا يكلمهم الله عَزَّ وَجَلَّ, ومرة يكلمهم, فهو يوم طويل, ففي بعض الأحيان يكلمهم وبعض الأحيان لا يكلمهم؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ساخط عليهم.

وإما أن يقال: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يكلمهم بكلام يرضونه, وإنما يكلمهم بكلام توبيخ وعدم رضا عنهم.

ومثل هذا أيضا ما جاء في النصوص كقوله تعالى:}فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ{[الرحمن: ٣٩].

قال في آية أخرى:}وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ {[الصافات: ٢٤]؛ يعني: عن الذنوب.

فالجواب: أنهم يسألون لما فعلتم هذا, ولا يسألون هل فعلتم هذا, فيوجد فرق, لا يُستفهم لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يعلم أنهم عملوا, ولكن يسألون لما عملتم هذا الشيء, وكذلك هنا في التكليم.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يتكلم, وكلام الله عَزَّ وَجَلَّ حقيقي, صفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وكلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى صفة ذاتية من حيث أصل الكلام ومن حيث آحاد الكلام فهو صفة فعلية,بحيث أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يتكلم متى شاء إذا شاء بما

شاء بصوت وحرف ويُسمع,فإذا كلم الله عَزَّ وَجَلَّ المخلوق يسمع كلام الله عَزَّ وَجَلَّ, والكلام صفة كمال.

ولذلك قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَم عن الأصنام:}مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ{[الصافات: ٩٢], فوبخهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَم, فدل على أن الذي لا ينطق ناقص,والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى له الكمال من جميع الوجوه, ومن الكمال الكلام, فالله عَزَّ وَجَلَّ يتكلم.

ومن الفوائد: أن هؤلاء الثلاثة لهم عذاب شديد مؤلم؛ لأنه قال:«عَذَابٌ أَلِيمٌ», فيحذر الإنسان من مثل هذه المعاصي.

وأيضا يدل على أن الناس ليسوا في العذاب على حد سواء, فقد يكون الإنسان وآخر يفعلان نفس المعصية ولكن ذنب هذا ليس كذنب هذا.

فمثلًا:إنسان شاب ويزني, وآخر كبير في السن وذهب عنه الشهوة ويزني, هذا زنا وهذا زنا, ولكن ذنب الكبير في السن ليس كذنب الشاب,فالكبير في السن أشد وإن كان الجميع كبيرة من كبائر الذنوب, الزنا كبيرة من كبائر الذنوب, وعظيمة من عظائم الأخطاء, ولكن ذنب الكبير في السن يزيد, وكذلك الطاعة.

وأيضا لو كان الإنسان مثلًا ظاهره الالتزام بالسنة ويفعل المعصية, وآخر ليس بظاهره السنة ويفعل نفس المعصية, الذي ظاهره السنة أشد عليه الذنب, فيحذر الإنسان.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال لنساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} :يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ{[الأحزاب: ٣٠].

لأنهُنَّ رَضِي اللهُ عَنهُنَّ لما كنَّ أفضل النساء كان الخطأ أشد, وكان الأجر لهن أكثر, قال:}وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ{[الأحزاب: ٣١]؛ فالأجر لها مرتين ليس كالنساء الأخريات.

ومن الفوائد: أن زنا الذي ذهب منه الشهوة وكبر في السن عظيم ,فهو يتسبب له ألا يكلمه الله عَزَّ وَجَلَّ ولا يطهره وله عذاب موجع, فإذا كان هذا الرجل قد ذهب عنه الشهوة

بسبب الكبر ثم زنا فهذا يدل على أن نفسه خبيثة, فهذا الرجل لا يزني لشهوة وإنما يزن لخبث في نفسه, ويدل على أنه متساهل في معصية الله ولا يبالي.

ومن الفوائد: أن التكبر محرم ولا يجوز, وإذا كان من فقير فهو أشد؛ وذلك أن الكبر قد يكون بسبب مال أو بسبب رئاسة أو بسبب جاه, يكون وجيه, له وجاهة عند الناس ويتكبر بسببه, وإن كان هذا على خطأ وعلى ذنب, أما إذا كان يتكبر وهو فقير فهذا يدل على خبث في نفسه.

لذلك ذكر بعض العلماء أن الكبر ينقسم إلى قسمين:

الأول: الكبر في الصفات في هذا الشخص, كأن يكون ذا جاه أو ذا مال أو ذا منصب ورئاسة, فيتكبر بسبب هذه الصفات,فهذا على خطأ وعلى ذنب ولكنه أهون من الثاني.

الثاني: كبر في النفس, يعني ليس عنده صفة يتكبر بها ولكنه يتكبر في نفسه.

ومن الفوائد: أنه ينبغي ويتحتم على المسلم أن يحفظ يمينه, فلا يُكثر الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ إلا للأمور المهمة.

الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ قد يكون مطلوب, كما لو حلف الإنسان على شهادة مثلًا يشهد لشخص وحلف, أو حلف لشخص ينفي عنه التهمة, فهذا مطلوب.

وقد يكون أيضًا مستحب, كما لو حلف على أمر قدَّره الله عَزَّ وَجَلَّ, كأن يقول: والله ليقيمن الله الساعة, والله ليأتين أمر الله, هذا حسن.

وقد يكون مباح, كما لو حلف الإنسان ألا يفعل شيء, مباح له, أو يفعله, فيكون مباح.

وقد يكون لا ينبغي, كأن يُكثر الإنسان الحلف لِأسباب لا تستدعي ذلك, كقول تعال هنا والله لتأتي, والله العشاء عندي, والله الغداء عندي, والله لتركب معي, وهكذا فيحلف على كل شيء, هذا ما ينبغي, وهذا مخالف لما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أمر بحفظ اليمين.

وقد يكون محرم ومن الذنوب الكبار, كأن يحلف لأجل أن يقتطع مال امرئ مسلم بغير حق, هذا كبيرة من كبائر الذنوب.

وأيضا كأن يحلف على الكذب, الكذب في البيع والشراء ونحو ذلك, فهذا من الذنوب

.

فيحذر الإنسان من مثل هذا.

ومعنى الحلف كأنه يقول: والله بقدر تعظيم الله في قلبي أني أؤكد لك هذا الخبر أو أنفي هذا الخبر أو أثبت هذا الخبر, فإذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ في قلبك عظيم فلا تحلف إلا وأنك صادق.

وأيضا لا تكثر الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ إلا لأمور مهمة,فإذا كنت تعظم الله عَزَّ وَجَلَّ فلا تحلف إلا وقد تيقنت من خبرك وكان هذا الحلف مما يباح أو يستحب أو يكون مطلوب.

ومن الفوائد: أنه لا ينبغي للبائع والشاري أن يقرن البيع والشراء بالحلف بالله, لأنه قد يكون منفقة للسلعة ثم تذهب البركة, فإذا أردت مثلًا أن تبيع أو تشتري فلا تقرن بالحلف, لماذا تقول والله أني اشتريت بكذا؟! والله أني بعتك بكذا؟! أليس الله عَزَّ وَجَلَّ عظيم في قلبك؟!إن قلت نعم فلماذا تحلف على أمور دنيوية سلع تذهب وتروح؟! كيف تحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ العظيم في أمور دنيوية؟!فاحفظ يمينك, لا تحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ لأمور دنيوية تزول وتذهب كأن لم تكن, فإذا اشترى منك الشخص فأهلًا وسهلًا, فبيع بصدق واصدق في البيع والشراء, إن أراد أن يشتري فأهلًا وسهلًا.

وأيضًا إذا أرادت أن تشتري مثلًا فقل تبيع بكذا أو خذ هذا المال وأعطني هذه السلعة بكذا ولا تحلف, إن باعك فحسن وإذا لم يبيعك,فهو وسلعته.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي الصحيح عن عِمرانَ بن حُصينِ رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. «**ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**».

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وفي الصحيح عن عِمرانَ بن حُصينٍ رَضِي اللهُ عَنْهُماقال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» :خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي». خير أمتي: يعني الذين أجابوني, الأمة هنا أمة الإجابة, والخير هو أفضل الفاضلين.

»خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي», قرني: يعني: الذين يعيشون معي, والقرن: هو الناس الذين يعيشون مقتدين بوقت وفي زمن.

واختلف العلماء في تحديد القرن، وأقرب ما قيل: أنه مائة سنة –والله أعلم-.

ولذلك جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مره غلام فقال:«إِنْ يَعِشْ هَذَا الْغُلَامُ، فَعَسَىٰ أَنْ لَا يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»؛ يعني: تموتون، تموتون يا من تعيشون في هذا الوقت, فبلغ هذا الغلام مائة سنة، وما بقي من الذين ذكر منهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد.

ولذلك ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ يقول: "أن أقرب ما قيل أنه مائة سنة".

قال:»قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»؛ يعني: التابعين.

قال:«ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»؛ يعني: تابعي التابعين.

قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَبَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْثَلَاثًا: يعني:هل هو قرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ثم قرن بعده ثم قرن بعده ثم قرن بعده, أو أنه قرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قرن بعده ثم قرن بعده، ثلاثة قرون؟ فهل هي أربعة قرون أم ثلاثة قرون؟

والأقرب والله أعلم: أنها ثلاثة قرون, كما سيأتي في الحديث الذي بعده.

قال:**فَلَاأَدْرِي أَذَكَرَبَعْدَقَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْثَلَاثًا**.

«ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ»؛ يعني: يتقدمون بالشهادة,«وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ»؛ يعني: لا يُطلب منهم, يتقدمون بالشهادة وهم لم يُطلب منهم, وهذا دليل على أنهم يتهاونون بالشهادة.

قال:«وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ».

«وَيَخُونُونَ»؛ يعني: يوقعون بالشخص في موقع الائتمان, هذه هي الخيانة.

«وَلَا يُؤْتَمَنُونَ»؛ يعني: لا يأتمنهم أحد على المال، ولا على النفس, ولا على غير ذلك، لعدم تقواهم لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:«وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ»؛ يعني: يُلزمون أنفسهم بطاعة لله عَزَّ وَجَلَّ ولا يوفون ذلك.

فيقول مثلًا: إن حصل لي كذا فلله عليَّ كذا, ثم يحصل ولا يوفي.

قال:«وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»؛ يعني:ضخامة في الأجسام يظهر فيهم، ترى أن فيهم ضخامة في الاجسام بسبب كثرة الأكل ونسيان الآخرة, فيكون همَّ الإنسان أن يأكل ويشرب وينسى الآخرة, و يُكثر من الأكل وينفتح على الدنيا,فيكون همه بطنه.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست على حد سواء, فأفضل هذه الأمة هم من هم في وقت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, والمراد بقرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم الصحابة.

والصحابة أفضل ممن بعدهم إجمالًا وفردًا فردًا, بحيث أن جميع الصحابة أفضل ممن بعدهم, وأفراد الصحابة أفضل من أفراد من بعدهم, فكل صحابي أفضل ممن بعده من التابعين, وهذا ما عليه جمهور العلماء؛ كما قال بن حجر: أن الجمهور على أن الصحابة أفضل ممن بعدهم.

بل إن صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الناس بعد الأنبياء, بعد الأنبياء أفضل الناس صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين صحبوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وهذا يدلك على شدة بعد الرافضة عن الحق, فكيف يقدحون بأفضل أصحاب الأنبياء!

ولذلك يقول أحد السلف: أن اليهود والنصارى أفضل من الرافضة في أمور.

فلو سألت مثلًا نصراني من أفضل من أمة عيسى؟ قال أصحابه الحواريون.

ولو سألت اليهود من أفضل الأمة التي بُعث فيها موسى لقالوا أصحابه الذين صحبوا موسى.

ولو سألت الرافضة من أسوأ الناس لقالوا أصحاب محمد! فهم أسوأ من اليهود والنصارى في هذا الموضع.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي»؛ يعني: الصحابة.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عارض الرافضة, يقول: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي»؛ يعني: صحابتي, والرافضة يقولون" أسوأ الناس أصحاب محمد.

ولذلك الرافضة يريدون القدح في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و قد قال مالك و غيره: أن هؤلاء القوم أرادوا أن يقدحوا في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعلوا الواسطة في ذلك أصحابه, فيقدحوا في الصحابة حتى يتوصلوا للقدح في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, فهم ما يريدون الصحابة, يردون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, ولكن ما يصرحون.

والقرن الذين كان فيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم أفضل الناس, أفضل الناس بعد الأنبياء.

ومن الفوائد: أن التابعين أفضل الناس من هذه الأمة من حيث العموم والإجمال, وأما من حيث الأفراد فقد يكون من تابعي التابعين من هو أفضل من بعض التابعين, من حيث العلم والعبادة والطاعة والتقوى, هذا إذا كان من التابعين.

فمن حيث الإجمال من تبع الصحابة أفضل ممن بعدهم من حيث الإجمال, وأما من حيث الأفراد فقد يكون تابعي التابعين أفضل من التابعين.

ومن الفوائد: أن تابعي التابعين أفضل أُناس بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتابعين.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

وقد اختلف العلماء متى انتهى وقت هذه القرون الثلاثة:

فقيل: أنه انتهى الى ١٣٠ تقريبًا.

وقيل: الى ٢٢٠.

والاقرب -والله اعلم-:أنهم قبل ذلك,يعني قبل المائتين من الهجرة, لأن القرن هم الناس المقتدون في الزمن من حيث أكثر الناس.

فمثلًا قرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا ذهب أكثر الصحابة فقد ذهب القرن الاول, وإذا ذهب أكثر التابعين فقد ذهب القرن الثاني, وإذا ذهب أكثر تابعي التابعين فقد ذهب القرن الثالث, فهو أقل من المائتين -والله أعلم-.

ولذلك يقول شيخ الإسلام: أن البدع خرجت بعد القرون المفضلة -يعني: انتشرت- وإن كان خرج بعض البدعة في القرون المفضلة, وأما القول بخلق القرآن, هذا بعد القرون المفضلة.

ومن الفوائد: أن من الناس من لا يُطلب منه الشهادة لفسقه؛ ولذلك قال:«وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ».

وهنا إشكال: ورد في حديث زيد في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:« خَيْرُ الشُّهَدَاءِ مَنْ أَدَّىٰ شَهَادَتَهُ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا».

وفي هذا الحديث:«يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ»

.

والجمع بين الحديثين: أن المراد بمن كان عنده شهادة حق وهو يُرضى وشهِد فهذا من خير الشهداء, ومن كان عنده شهادة باطلة وهو متساهل بالشهادة لفسقه ويَشهد فهذا مذموم.

فإذا كان الإنسان مثلًا يشهد شهادة باطلة وهو يظهر عليه الفسق ولا يراد منه أن يشهد ويشهد فهذا مذموم, وأما إذا كان رجل تقي وعنده شهادة حق وتقدم بالشهادة قبل أن يُسأل فهذا حسن, وهذا من أفضل الشهداء.

هذا الجمع بين الحديثين والله أعلم.

ومن الفوائد: أن الخيانة مذمومة, والخيانة: هي أن يأتمنك شخص مثلًا فتُوقع به من حيث موضع الائتمان .

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ لا يوصف بالخيانة مطلقًا لأنها صفة ذم على الإطلاق؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ{[الأنفال: ٧١], ما قال فخانهم, لأن الخيانة صفة ذم.

وأما المكر والكيد والخداع فهذه قد تكون صفة مدح, إذا كانت لمن يفعل ذلك أو لمن يستحق؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ{[النساء: ١٤٢], فهذه في موضعها صفة مدح, فيوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بها في موضع المدح.

وأما الخيانة فهي صفة نقص على الإطلاق, لأنها الإيقاع بالشخص في موضع الائتمان, وهذا لا يكون في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أنه يأتي بعد قرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أناس يقع منهم تساهل في الشهادة؛ لذلك يحذر الإنسان من أن يقدم الشهادة إلا على شيء يثق فيه.

وقد جاء عند ابن ماجه من حديث ابن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«هَلْ تَرَىٰ الشَّمْسَ؟». قال: نعم. قال: «عَلَىٰ مِثْلِهَا فَاشْهَدْ». والحديث ضعيف, ولكن المعنى صحيح أن الإنسان لا يشهد إلا على شيء يعلمه, فإذا كان الإنسان مثلًا في محكمة وقال له شخص اشهد معي فلينظر ما هي الشهادة التي يشهد, ما يتقدم إلا وهو يتأكد من هذه الشهادة, حتى لا يقع في ظلم للناس بسبب شهادته.

فيظهر بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُناس يتساهلون في الشهادة, وأيضا يقع من بعضهم الخيانة فيأتمنه الشخص فيخونه, وأيضا يقع من بعضهم عدم الائتمان,وهذا يدلك على أن الناس قد يحصل عند بعضهم شيء من التقصير.

وهذا كما قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما أتاه أناس يشتكون له ما فعل الحجاج بن يوسف, قال: "اصبروا, فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم, سمعت ذلك من نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ."

فكلما بعُد الناس عن الرسالة فإن الذنوب تكثر والمعاصي تكثر والظلم يكثر.

ومن الفوائد: أنه لا ينبغي للإنسان أن يترك النذر من غير وفاء, فإذا نذر فعليه أن يُوفي.

ولذلك جاء في صحيح البخاري من حديث عائشة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْ».

ومن الفوائد: أنه إذا سمِن الإنسان بسبب التوسع في الملذات ونسيان الآخرة فإن هذا مذموم.

ولذلك ذهب شيخ الإسلام إلى أن الإنسان الذي يتعمد السمنة ويأكل حتى يسمن ويريد من باب التمتع بالدنيا ولا يبالي فإن هذا يُنهى عنه, وأما إذا سمن الإنسان من غير تقصد وكان تقي ويخاف الله عَزَّ وَجَلَّ فإن هذا لا بأس عليه؛ لأن الطعام والشراب إذا كان مباح فهو مباح, وذلك أن الأكل قد يكون واجب, فيكون واجب إذا خاف الإنسان أن يموت.

لو أن إنسانًا مثلًا أحجم عن الطعام, ترك الطعام إحجامًا عنه وأوشك على هلاك, فهنا يجب عليه أن يأكل وجوبًا, وإن لم يفعل أثم.

وقد يكون مستحب, قد يكون الطعام مستحب, كالأكل مع الضيف مؤانسة له مثلًا, أو أكل أكلة السحر, أكل يريد السحر, أو أكل مع والديه يريد أن يُدخل السرور عليهما, أو غير ذلك, فيكون مستحب.

وقد يكون مباح, إذا أكل الإنسان ما يكفيه من غير إسراف أومخيلة؛ كما جاءعن ابن عباس: "مَاأَخْطَأَتْكَ خصلتان: سرف ومخيلة".

وقد يكون مكروه, كأكل البصل, مثلًا إذا أراد الإنسان أن يذهب إلى الصلاة, أو أكل الإنسان وكثر مما يسبب له التخمه والثقل عن الطاعة.

وقد يكون محرم, كأن يأكل ما حرم الله عَزَّ وَجَلَّ, كالخنزير أو يأكل الميتة أو يأكل النجسات أو يأكل من مال مغصوب أو نحو ذلك, فيكون محرم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفيه عن ابن مسعودٍ أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

قال إبراهيم: "كانوا يَضْرِبُونَنا علىٰ الشَّهادةِ والعَهْدِ ونحنُ صِغارٌ".

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وفيه: يعني: وفي الصحيح, عن ابن مسعود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»؛ يعني: الذين يعيش فيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم الصحابة.

«ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»؛ يعني: التابعين, «ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»؛ يعني: تابعي التابعين.

«ثُمَّ يَجِيءُ»؛ يعني: يأتي بعد هؤلاء القرون المفضلة, «قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ»؛ يعني: تتسابق الشهادة واليمين, بحيث أن أحيانًا تسبق الشهادة.

«وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»؛ يعني: تسبق اليمين الشهادة, فلا يبالي أحلف أو شهد من غير أن يبالي, فيكون يشهد على غير مبالاة ويحلف على غير مبالاة, فلا يهتم لا بشهادة ولا بحلف, فيكون أحيانًا تسبق اليمين وأحيانًا تسبق الشهادة.

فلو قيل لهم مثلًا: أتشهد وتحلف, لتسابق عنده الأمران الشهادة والحلف, فيسبق هذا تارة ويسبق هذا تارة.

قال: قال إبراهيم: "كانوا يَضْرِبُونَنا"؛ يعني: التابعين, "على الشَّهادةِ والعَهْدِ ونحنُ صِغارٌ"؛ تَرْبِيَةً لَهُمْ.

هذا الحديث فيه فوائد:

فيه من الفوائد كما تقدم: أن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل هذه الأمة, وأيضًا القرن الذين يلونهم أفضل من حيث الجملة, ثم الذين يلونهم من حيث الجملة أفضل, ثم إنه بعد ذلك يأتي التساهل, لأنه قال: «ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ»؛ هذا خبر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى, إذا قال قول لابد أن يقع.

قال: «قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ»؛ يعني: لا يبالي بالشهادة ولا يبالي باليمين.

وفيه: أنه يُذم الذي يفعل مثل هذا,بحيث أنه يحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ ولا يبالي ويشهد ولا يبالي, فهذا فيه عدم تعظيم لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

لو أن هذا الشخص عظَّم الله عَزَّ وَجَلَّ لما شهد على الباطل, ولما شهد إلا وهو متأكد من خبره.

وأيضا لو كان معظم لله عَزَّ وَجَلَّ ما أكثر الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ وهو لا يدري, أو على كذب,لعظم الله عَزَّ وَجَلَّ وأحجم عن الحلف هو الشهادة بغير حق.

ولذلك الإنسان التقي ما يمكن أن يشهد على باطل, ولا يمكن أن يحلف على باطل, الإنسان التقي الذي يخشى الله عَزَّ وَجَلَّ.

أما الذي تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ ضعف في قلبه وتوحيده ضعف قد يشهد ولا يبالي, وقد يحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ وهو لا يبالي.

ومن الفوائد في آثر إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ: أن التابعين كانوا يربون أبناءهم على الدين؛ ولذلك قال: كانوا يَضْرِبُونَنا على الشَّهادةِ والعَهْدِ"؛ لأجل أن يتربى.

وفيه: أن الضرب إذا كان يسير ومن باب الأدب؛ فإن هذا, قد يكون مطلوب.

ولذلك جاء في السنن سنن أبي داود من حديث عمروبن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ»؛ يعني: الصلاة.

فقد يكون الضرب مطلوب من باب الأدب.

وله شروط:

من أهمها: ألا يكون مُضر, من أهم الشروط, ويكون المراد بها الأدب والتأديب, وألا يزيد إن كان من باب الأدب, على عشرة أسواط؛ كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

فملخص هذا الباب: أن الإنسان عليه أن يحفظ اليمين, بحيث أنه يعظم الله عَزَّ وَجَلَّ في قلبه, فلا يحلف إلا على أمر مهم.

والله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أمر رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أن يحلف في ثلاثة مواضع:

أولًا: على البعث.

قال:}وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي{[يونس: ٥٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{[التغابن: ٧].

فأمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يحلف في ثلاثة مواضع في القرآن:

قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى}:قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ{[سبأ: ٣].

فأمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يحلف في هذه الثلاثة مواضع.

ولذلك يقول ابن القيم: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حلف في أكثر من ثمانين موضع, ولو كان الحلف منهي عنه لكان أبعد الناس عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ.

لكن الإنسان لا يحلف إلا على شيء مهم, أما إذا كان الأمور الدنيوية فلا يحلف بالله عَزَّ وَجَلَّعلى ذلك, لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عظيم.

ولذلك جاء في صحيح البخاري:«رَأَىٰ عِيسَىٰ بن مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَىٰ: آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي».

فترك عقاب هذا السارق بسبب الحلف.

يقول العلماء: لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ عظَّم الله عَزَّ وَجَلَّ أن يحلف الإنسان بالله كاذب.

ولذلك الشيطان لما حلف لآدم عَلَيْهِ السَّلاَمَ صدَّقه, قال:}وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ{[الأعراف: ٢١], فحلف لآدم فصدَّق آدم, ظن أنه لا يمكن أن يحلف أحد بالله وهو كاذب.

فإذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ عظيم في قلب الإنسان فإنه يحذر من أن لا يحلف به إلا صادقًا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان الوفاء بعهد الله عَزَّ وَجَلَّ من كمال التوحيد، وأن عدم الوفاء بعهد الله عَزَّ وَجَلَّ ينافي كمال التوحيد، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب لينبه على هذا الأمر.

قال:**باب ما جاء في ذمة الله**؛ يعني ما جاء من النصوص والتحذير من عدم الوفاء بذمة الله وذمة رسوله.

وقوله **وذمة نبيه**؛ يعني: عهد نبيه.

وقوله:**نبيه**؛ يعني: المنبئ من الله عَزَّ وَجَلَّ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقول الله تعالىٰ:}وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا{[النحل: ٩١].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

وقول الله تعالى:}وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا{[النحل: ٩١].

في هذه الآية الكريمة يرشد الله عَزَّ وَجَلَّ عباده أنهم يوفون بما عاهدوا عليه الله عَزَّ وَجَلَّ ولا ينقضوا الإيمان، ولا ينقضوا العهود من بعد توكيدها بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:**وقوله تعالى:**}وَأَوْفُوا{، الوفاء هو أن يأتي بالشيء كاملًا وافيًا؛ كما قال تعالى:}وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{[النجم: ٣٧]؛ يعني: أتى بكل ما طُلب منه.

قال:}وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ.{

}بِعَهْدِ اللَّهِ{؛ يعني: بذمة الله، وهذا يشمل ما عاهد الإنسان عليه ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من تأدية الفرائض، وأيضًا ما عاهد الله عَزَّ وَجَلَّ عليه قبل خلقه أن يعبده ولا يشرك به شيئًا.

}وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ{، وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مسح على ظهر آدم فأخرج منه ذريته فقال:}أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى{[الأعراف: ١٧٢]، فلابد أن يوفي الإنسان بهذا العهد حيث يعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو خالقه ومعبوده ليس له معبود سواه.

قال:}إِذَا عَاهَدْتُمْ{؛ يعني: إذا وقع منكم عهد، وهذا يشمل العهود أيضًا بين الناس وبين الإمام والرعية ونحو ذلك.

قال:}وَلَا تَنْقُضُوا{، النقض هو حل المبرم، فينهى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يُنقض؛ يعني: تحل هذه العقود.

}الْأَيْمَانَ{، الأيمان جمع يمين وهي: العهد الذي يعاهد الإنسان عليه ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أو يعاهد عليه الناس.

}بَعْدَ تَوْكِيدِهَا{؛ يعني: بعد أن وكدتم هذه العهود بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، كما لو أن الإنسان عاهد آخر وقال أعاهدك بالله، أو عاهد المسلم الكافر وقال:أعاهدك بالله، فهو داخل في هذا فلا ينقض لأنه وكَّده.

ففي الآية الكريمة ينبه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على أن نقض العهد لا ينبغي، فالذي ينبغي هو أن يوفى بالعهد الذي عاهد عليه.

والعهود تكون بين الإنسان وبين ربه، وبين المسلم وأخيه المسلم، وبين المسلم والكافر، فقد تحصل عهود فإذا عاهد الإنسان ربه عَزَّ وَجَلَّ أن يطيعه ولا يعصيه فيجب عليه أن يوفي بهذا العهد.

ولذلك إذا نقض العهد بينه وبين الله عَزَّ وَجَلَّ قد يتسبب ذلك في ضلاله؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ{[التوبة: ٧٥-٧٦]، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ{[التوبة: ٧٧]، لأنهم أخلفوا الله عَزَّ وَجَلَّ عهدهم.

وأيضًا إذا عاهد المسلم أخيه المسلم فعليه أن يوفي بالعهد، وأيضًا إذا عاهد المسلم الكافر كما لو قال –مثلًا-: أدخل هذه البلاد وأنا أجيرك وأنت في جواري –مثلًا- أو أنا أؤمنك فيجب أن يوفي بعهده، وإذا عاهد المسلمون الكفار فعليهم أن يفوا بالعهد ولا ينقضوا العهد فإذا عاهد –مثلًا- الإمام الكفار أن لا يقاتلونا ولا نقاتلهم وأوفو فعلينا أن نوفي وجوبًا، ففيه أن الوفاء بالعهد من كمال الإيمان.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن بُرَيدَةَ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَىٰ جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، فقَالَ: «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ خِلَالٍ-، فَأَيَّتُهُنَّ ما أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَىٰ دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تعالىٰ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ، أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا**». رواه مسلم.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

وعن بُرَيدَةَ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا.

أَمَّرَ أَمِيرًا؛ يعني: جعله أمير بحيث يسمع له ويطاع.

إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، والجيش ما بلغ فوق الخمسمائة يسمى جيش وإذا كان دون ذلك يسمى سرية؛ ولذلك قال:أَوْ سَرِيَّةٍ، والسرية هي: القطعة من الجيش التي تخرج.

قال:**أَوْصَاهُ**، الوصية هي العهد في أمر هام.

أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ؛ يعني: أوصاه أولًا أن يتقي لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وتقوى الله هو أن يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال:**وَمَنْ مَعَهُ**؛ يعني: يوصي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أيضًا من مع هذا الأمير بتقوى الله.

وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا؛ يعني: يوصيه أن يتقي الله عَزَّ وَجَلَّ في من معه من المسلمين.

فقال:«**اغْزُوا**»؛ يعني: أخرجوا في الغزو، فالغزو هو الجهاد في سبيل الله.

«**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ**»؛ يعني: مستعينين بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:«**فِي سَبِيلِ اللهِ**»؛ يعني: أخرجوا قاتلوا في سبيل الله، والقتال في سبيل الله هو أن ينوي الإنسان أن يكون كلمة الله هي العليا ويخرج لذلك، هذا هو القتال في سبيل الله أن ينوي أن تكون كلمة الله هي العليا ويخرج لذلك.

قال:«**قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**»،«**قَاتِلُوا**»، المقاتلة هي المدافعة وإن أدى ذلك إلى القتل.

«**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**»؛ يعني: من جحد بالله، هذا يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من ملل الكفر.

قال:«**اغْزُوا**»؛ يعني:أخرجوا في الغزو.

«**وَلَا تَغُلُّوا**»، الغلو هو الأخذ من الغنيمة خفية قبل أن تُقسم.

قال:«**وَلَا تَغْدِرُوا**»، الغدر هو أن يُوقع بالشخص في موضع الائتمام، يعني: يغدر بالكفار أو نحو ذلك، فنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك.

قال:«وَلَا تُمَثِّلُوا»، التمثيل هو قطع وجدع الأنف وقطع الأطراف وقطع القدم -مثلًا- فهذا يسمى تمثيل، وبقر البطن حتى يمثل بهذا الشخص، فنهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك.

قال:«وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»؛ يعني: صغيرًا، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ :«لَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»، لأنه ليس من أهل الحرب، ليس من أهل القتال، فنهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتله، وأيضًا يدخل في ذلك النساء والشيخ الكبير الذي لا يقاتل وإذا قالتلوا قتلوا.

قال:«وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

«وَإِذَا لَقِيتَ»؛ يعني: إذا قُدِّر أن لقيت عدوك، يعني: الذي عداك في الدين،بحيث أنك تعاديه في دينك.

«عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»؛ يعني من الذين أشركوا بالله.

«فَادْعُهُمْ إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ»؛ يعني: أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن القائد يدعو هؤلاء الكفار إلى ثلاثة أمور أو ثلاثة أشياء.

قال:«أَوْ خِلَالٍ»، وهذا قريب المعنى الخصال قريب من معنى الخلال، يعني: إلى ثلاثة أشياء.

«فَأَيَّتُهُنَّ أَجَابُوكَ»؛ يعني:أيًّا ما أخذوا واحدة من هذه الثلاث، قال:«فَاقْبَلْ مِنْهُمْ»؛ يعني: اقبلها منهم.

«وَكُفَّ عَنْهُمْ»؛ يعني: توقف عن قتالهم.

«ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ»؛ يعني:ادعهم إلى الإسلام، وهذا فيه أن يدعوهم إلى الإسلام.

«فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ»، أجابوا الإسلام وهذا هو المطلوب،«فَاقْبَلْ مِنْهُمْ».

«ثُمَّ ادْعُهُمْ»؛ يعني: بعد أن قبلوا الإسلام،«ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَوُّلِ»؛ يعني: ينتقلوا،«مِنْ دَارِهِمْ إِلَىٰ دَارِ الْمُهَاجِرِينَ»،لأن المهاجرين هاجروا إلى المدينة.

«وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ»؛ يعني: هاجروا إلى المدينة.

«فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ»؛ يعني: لهم ما للمهاجرين من الغنائم ونحو ذلك.

«وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ»، من الجهاد وبذل النفس ونحو ذلك.

قال:«فَإِنْ أَبَوْا»؛ يعني: امتنعوا عن أن يهاجروا إلى المدينة.

قال:«أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا»؛ يعني: من ديارهم،«فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ»؛ يعني: كالأعراب الذين يعيشون في البادية يكونون كهم ليس لهم كما للمهاجرين.

«كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ»؛ يعني: يجري عليهم الإسلام.

«يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تعالىٰ»، الذي يجري على المؤمنين، لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ هو الحكم وهو الذي شرع الدين فيجري عليهم هذا الدين.

قال:«وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ».

«وَلَا يَكُونُ»؛ يعني: لا يكون لهؤلاء الذين بقوا في ديارهم، من الغنيمة والغنيمة هي ما أخذ من مال الكفار بعد قتال.

«وَالْفَيْءِ»، هو في اللغة: الرجوع، فاء يعني: رجع، وهو المال المأخوذ من الكفار من غير قتال.

«شَيْءٌ»، نكرة هنا؛ يعني: لا يأخذون شيء لا قليل ولا كثير.

«إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ»، هذا استثناء منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني: إذا خرجوا هؤلاء الذين بقوا في بلادهم مع المسلمين وجاهدوا معهم فإن لهم من الغنيمة لأنهم حضروا القتال.

وقد جاء في الحديث: أن الغنيمة لمن حضر القتال.

قال:«فَإِنْ هُمْ أَبَوْا»؛ يعني: امتنعوا.

«فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ»،أبوا الإسلام امتنعوا عن الإسلام، «فَسَأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ»، والجزية مال يُضرب على الكفار لبقائهم على الكفر و يدفع هذا المال، يقر على الكفر و يدفع مال.

«فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ»؛ يعني: أعطوك الجزية فاقبل منهم.

«وَكُفَّ عَنْهُمْ»؛ يعني:اترك قتالهم، لأنهم إذا دفعوا الجزية أصبحوا أذلاء تحت راية الإسلام، فبذلوا المال و هم أذلاء و هذا هو المطلوب إذا لم يسلموا.

قال:«فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»؛ يعني: اطلب العون من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«وَقَاتِلْهُمْ»؛ يعني: جاهد في سبيل الله هؤلاء الكفار، قاتلهم لأنهم أبوا الإسلام و أبوا أن يدفعوا الجزية فليس لهم إلا القتال.

قال:»وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ»، الحصن هو المكان المحصن المدار حوله بحصون وأشياء تمنع الوصول إليه.

«فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ»؛ يعني: هؤلاء أهل الحصن قالوا: اجعلنا في ذمة الله؛ يعني: اعهد إلينا بعهد الله.

«وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ»؛ يعني: اعهد إلينا بعهد نبيه، يعني: نبي الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال:«فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ»، لا تقل أنتم في عهد الله وفي عهد نبيه، أو أعاهدكم بالله و بعهد نبيه لا تقول هذا الشيء.

«وَلَكِنِ»،(لكن) للاستدراك.

«وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِك»، قل: أنتم في عهدي وفي ذمتي، أو في ذمة أصحابي، أو أنتم في عهدي و عهد أصحابي ألا يحصل مني ما لا تريدون.

قال:«فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا»؛ يعني: لا توفوا.

«ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ، أَهْوَنُ»؛ يعني: أقل خطئًا.

«مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا»؛ يعني: لا توفوا بذمة الله و ذمة نبيه، يعني:عهد الله وعهد نبيه، فإذا قال –مثلًا-: أعاهدك بالله أو أعاهدك بعهد رسول الله ألا يصل إليك مني شيء، ثم يصل وقد عاهد بالله فهذا أمر عظيم هذا ليس من كمال التوحيد.

قال:»وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ»؛ يعني: إذا حاصرتهم، والحصار هو أن يضيق عليهم.

»أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ»؛ يعني يقولون –مثلًا-: أحكم فينا بحكم الله، أحكم فينا بشرع الله –مثلًا-.

«فَلَا تُنْزِلْهُمْ»، فلا تقول أحكم فيكم بحكم الله لا تقول هذا الشيء.

«وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ»، قل: أنا أحكم ولكن باجتهادي فيما أرى أنه من شرع الله، لا أقول أنا أحكم بكم بشرع الله.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ :«فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا»،فلو قال الإنسان –مثلًا–: أنا أحكم فيكم بشرع الله ثم أخطأ، فهذا شيء عظيم –مثلًا– وقع منه ظلم فكيف تنسب شرع الله عَزَّ وَجَلَّ للظلم الله عَزَّ وَجَلَّ لا يظلم أحد.

بل قل أحكم فيكم بما أرى أنه هو الحق؛ يعني: على اجتهادي.

رواه مسلم.

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

من فوائد الحديث: أن القتال لابد فيه من راية وإمام يُقاتل من ورائه، لأن هذا الجيش بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأيضًا جعل عليه أمير.

ولذلك من شروط الجهاد جهاد الطلب: أن يكون هناك إمام يقاتل من ورائه، وقد جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ، يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ».

وعلى هذا الذين يخرجون بلا إمام ويقاتلون هؤلاء على خلاف الصواب،بحيث أن –مثلًا– شباب يخرجون ويقاتلون في بلاد الكفار ويقاتلون من غير راية ومن غير إمام هؤلاء على خلاف ما كان يفعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلاف الصواب فهم على خطأ، فهؤلاء إن سلموا من الإثم فهم على خير الأجر بعيد ولكن إذا سلموا من الإثم فهم على خير.

ولذلك جهاد الطلب لابد فيه من راية وأمير يقاتل من ورائه، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَّر أمير على الجيش.

ويدل على ذلك أيضًا أن أسامة لما أمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخرج لقتال الكفار ثم مات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توقف أسامة حتى كان أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خليفة

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم بعث هذا الجيش، فلابد من إمام يقاتل من ورائه ويسمع له ويطاع في غير معصية الله.

ومن الفوائد: أن أمير الجيش والذي يخرج في القتال عليه أن يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فينظر إلى ما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فيأتي به، وهذه أول وصية أوصى بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الأمير، فيتقي الله عَزَّ وَجَلَّ بحيث أنه يبحث عن ما يرضي الله ويجتنب ما يغضب الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن أمير الجيش والقائد عليه أن ينظر لأصحابه ويكون يلاحظهم ما يشق عليهم، وينظر إلى ما هو من مصلحتهم، ولذلك أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القائد أن يستوصي بالمسلمين خير.

ومن الفوائد: أن المسلمين إذا خرجوا للجهاد في سبيل الله فعليهم أن يستعينوا بالله، وأن يثقوا بالله لا يثقوا بقوتهم ولا بأنفسهم ولا بما معهم من عتاد ونحوه، فليثقوا بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن النصر هو من عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإذا نصر الله عَزَّ وَجَلَّ العبد فلا غالب له، وإن خذله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فلا ناصر له، فالنصر من عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}[البقرة: ٢٤٩]، فالنصر إنما هو من عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وإنما الإنسان يأخذ بالأسباب، والنصر حقيقة إنما يكون من عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ}[التوبة: ٢٥]، إلى آخر الآيات الكريمات.

فالنصر إنما يكون من عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولا يمنع ذلك أن يأخذ الإنسان بأسباب القوة لا يمنع من ذلك.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ}[الأنفال: ٦٠].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»، الله عَزَّ وَجَلَّ أمر بأن يأخذ الإنسان بالأسباب، فيأخذ بالأسباب ويعتمد على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن القتال قد يكون في سبيل الله وقد يكون في غير سبيل الله.

فالضابط فيما كان في سبيل الله: هو أن يريد الإنسان أن تكون كلمة الله هي العليا، فإذا أراد الإنسان أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الكفر هو الأسفل فهذا في سبيل الله، فهذا إن قتل فله ما للشهيد من الأجر العظيم.

أما من يقاتل حمية لبني جنسه، أو يقاتل لبلد، يقاتل يريد هذا البلد أن ينتصر بغض النظر عن القتال في سبيل الله، أو يقاتل ليقال: فلان شجاع لا يخاف الموت، أو يقاتل ليقال: فلان صاحب طاعة يجاهد في سبيل الله يرجو ثواب الله، يريد الثناء من الناس، فهذا عمله باطل وليس في سبيل الله.

ولذلك الرجل الذي خرج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان يجابه الكفار ويقتل فيهم وأوغر في الكفار، ثم جُرِح هذا الرجل فقال الصحابة: هنيئًا لفلان الجنة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فذهب إليه أحد الصحابة فوجده جريح.

وفي بعض الآثار أنه سأله لما خرجت؟ قال: خرجت لأقاتل عن قومي حمية لقومي، ثم انتحر ومات، جعل ذبابة سيفه على صدره وقتل نفسه، فأتى هذا الصحابي وقال: يا رسول الله أشهد أنك رسول الله قال:«بماذا؟»، فأخبره؛ فلذلك الإنسان عليه أن يخلص لله العمل.

ومن الفوائد: أن الكفار يقاتلون لأنهم كفروا بالله، فالكافر عدو للمؤمن، أيًّا كان نوع هذا الكافر فهو يقاتل لأنه كفر بالله لا لأن لونه كذا، ولا لأن جنسه كذا، ولا لأن عرقه كذا، وإنما يقاتل لأنه كفر بالله، فالكافر عدو للمؤمن لأن المؤمن يعادي من يعادي الله، فالكافر عدو لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والمؤمن يوالي ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فيعادي من يعادي ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فقتال الكفار إنما يقاتلون لكفرهم.

ومن الفوائد: أنه لا يجوز الغلول، والغلول هو أن يأخذ الإنسان من الغنيمة قبل أن تُقسم، والغلول من كبائر الذنوب، إذا أخذ الإنسان من الغنيمة قبل أن تُقسم فإنه قد فعل كبيرة من كبائر الذنوب.

ولذلك جاء في الحديث أن رجلا كان يقاتل مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقتل فقالوا: هنيئًا له الجنة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا»..

فالغلول من كبائر الذنوب، ولا يدخل في هذا شيء قليل يأكله كالتمرة وقطعة الخبز -مثلًا- أو طعام قليل يأكله في الجهاد فهذا جائز لا يدخل في الغلول.

ومن الفوائد: أنه لا يجوز للمسلم أن يغدر بالكفار، والغدر هو أن يؤتمن هذا المؤمن -مثلًا- ثم يغدر بالكافر، فمثلًا يقول الكفار للمؤمنين مثلًا: بيننا وبينكم عهد ألا نتقاتل -مثلًا- سنة، ثم يخرج هؤلاء ثم يغدر بهم هؤلاء المسلمين، فهذا لا يجوز لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الغدر.

ومن الفوائد: أنه لا يجوز أن يمثل بالكافر إذا قُتل، إذا كان ليس هناك مصلحة ولم يفعلوا ذلك فإنه لا يجوز أن يُمثل به، وأما إذا مثَّل الكفار بالمسلمين فهل يُمثل بهم؟ اختلف العلماء في ذلك:

فمن العلماء من قالوا: أنا لا نمثل بهم، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن التمثيل بالكفار قال:«وَلَا تُمَثِّلُوا».

وجاء في صحيح البخاري أنه نهى عن النهبة والمثلة.

وذهب الشيخ الإسلام وابن القيم إلى أنهم إذا مثلوا مثلنا؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال:﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠]، فهم إذا قطعوا أنف المسلم -مثلًا- نقطع أنف هذا الكافر الذي قطعه إذا مات، وإذا قطع يد المسلم قطعنا يد هذا الكافر الذي فعل ذلك، وهكذا.

والأحوط أن لا يمثل الإنسان، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن التمثيل مطلقًا، وإن كان الآية الكريمة صريحة لأنها مخصصة لهذا الشيء.

وقال تعالى:﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ١٩٤]، فأجاز الله عَزَّ وَجَلَّ نفعل بهم مثل ما فعلوا بنا، وهذا القول أقوى، والأول أحوط.

ومن الفوائد: أنه لا يقتل الولدان، الصغار لا يقتلون، فإذا رأى الإنسان -مثلًا- وهو خارج يجاهد في سبيل الله وليد صغير أو طفل صغير أو نحوه فإنه لا يقتله، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»، ولأن هذا الصغير ليس من أهل القتال فهو لا يقاتلنا فلا يُقتل.

ويدخل في ذلك النساء، وقد وجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأة مقتولة فنهى عن قتل النساء، وأيضًا الشيخ الكبير لا يُقتل، إلا إذا كان له رأي في القتال.

ولذلك في قتال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الطائف لما كان رجل كبير في السن كان له رأي وكان صاحب رأي وشجاعة وأشار عليهم، قُتل هذا الرجل وهو كبير في السن، فإذا كان له رأي فإنه يُقتل.

ومن الفوائد: أن الكفار يُدعون إلى ثلاثة أشياء:

- الأول: الإسلام وهذا هو المطلوب، فإذا أسلموا فهذا الذي نحب وهذا هو المطلوب الذي نريد الوصول إليه.

- الثاني: دفع الجزية.

- الثالثة: الهجرة وهي على حالتين:

الحالة الأولى: في وقت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل فتح مكة، فهذا واجب لمن أسلم خارج المدينة يجب عليه أن يهاجر للمدينة.

الحالة الثانية: بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا إذا كان لا يقدر أن يُظهر دينه في البلد الذي هو فيه وجب عليه الهجرة مع القدرة، وإن كان يقدر على أن يُظهر شعائر دينه ويتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ ولا يؤذى من الكفار فالهجرة في حقه مستحبة وليست واجبة.

ومن الفوائد: أنه إذا أجاب الكفار وأسلموا فإنه يجب الكف عنهم، لأن الإسلام يحقن الدم والمال، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ تعالىٰ»، فإذا أسلموا وجب علينا أن نكف عنهم وعن أموالهم وغير ذلك مما يختص بهم.

ومن الفوائد: أنه ينبغي الدعوة إلى الإسلام قبل القتال وهذا على حالتين:

- الحالة الأولى: أن يكون هؤلاء الكفار لم يبلغهم الإسلام فيجب وجوبًا أن ندعوهم إلى الإسلام قبل القتال.

- الحالة الثانية: أن يكون قد بلغهم الإسلام، فهؤلاء يستحب دعوتهم ولا يجب، لما جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل عن الكفار يبيتوه، فأذن في ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهذا لمن بلغته الدعوة.

ومن الفوائد: أن قبل فتح مكة يجب على الكافر إذا أسلم أن يهاجر إلى المدينة وجوبًا، وهذا قبل فتح مكة لما كانت المدينة في بدء الإسلام وانتشار الإسلام فيها أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من أسلم يهاجر إليها حتى يتقوى المسلمون هناك.

وأما بعد فتح مكة فلا يجب الهجرة إلى المدينة؛ كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ»؛ يعني: بعد فتح مكة ولكن إسلام ونية، «وإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا».

ومن الفوائد: أن الكافر إذا أسلم وهاجر إلى المدينة فإن له ماللمهاجرين من الغنيمة والفيء، وعليه ما على المهاجرين من الجهاد ونصرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغير ذلك.

ومن الفوائد: أن الكفار إذا أبوا الإسلام فإنهم يسألون الجزية، و الجزية مال يضربه الإمام على الكفار لبقائهم على الكفر، نقرهم على الكفر و يدفعوا هذا المال كل سنة.

ومعنى إقرارهم على الكفر؛ أي: أن نبقيهم على الكفر، لا أن نرضى الكفر بل نعتقد أن الكفر باطل و نبغضهم و نبغض الكفر، و لكن نبقيهم نقول: ابقوا على هذا الكفر وادفعوا

الجزية و أنتم صاغرون و أنتم ذليلون صاغرون مع أن نعتقد أنكم على كفر و على باطل و لكن إذا دفعتم هذا المال فلكم منا أن ندعكم و شأنكم.

وهنا مسألة: هل الجزية على جميع الكفار أم هي خاصة؟ اختلف العلماء في ذلك:

فذهب الجمهور إلى أن الجزية تؤخذ من اليهود و النصارى والمجوس فقط دون بقية الكفار، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خص اليهود و النصارى و لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ الجزية من مجوس هجر.

قال الله تعالى:}قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ{[التوبة: ٢٩].

وجاء في حديث في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ الجزية من مجوس هجر، فهؤلاء يؤخذ منهم الجزية بتخصيص الآية الكريمة و يؤخذ من المجوس لفعل النبي صلى الله عليه وسلم .

و ذهب مالك و شيخ الإسلام و هو الأقرب -والله أعلم-: أن جميع الكفار يؤخذ منهم الجزية إذا أعطوا الجزية للدليل و التعليل.

أما الدليل: ففي هذا الحديث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:«وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، هذا أمر، كل مشرك من اليهود و النصارى و المجوس و عبدة الأوثان و غير ذلك، لأنه قال:«مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

و أيضًا للتعليل والتعليل لأن دفع الجزية مع بقاء الكافر في الديار قد يرى الإسلام ويرى عدل الإسلام و يرى إحسان الإسلام ثم يدخل في الإسلام، و هذا هو المطلوب وهذه هي الحكمة و هذا هو الأقرب -والله أعلم-.

ومن الفوائد: أنهم إذا امتنعوا عن الجزية فإنهم يقاتلون، و لكن على الإنسان أن يستعين بالله ؛ لأنه قال:«فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ»، ويقال أيضًا: أن الإنسان لا يعتمد على قوته بل يعتمد على ربه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا حاصر قوم كفار فلا ينزلهم على عهد الله عَزَّ وَجَلَّ ولا عهد رسوله، لا يقول: أعاهدكم بالله عَزَّ وَجَلَّ إن فعلتم كذا ألا أفعل كذا، ولا يقول -مثلًا-: أعاهدكم بعهد رسول الله إن فعلتم كذا ألا أفعل كذا، لأن خفران عهد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وعهد رسوله عظيم، فكيف تعاهد بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ثم تخالف؟

ومن أعظم ما يقدح في الإسلام ويشوه صورته عند غير المسلمين هو عدم الوفاء بالعهد فيعاهد الكفار ثم يغدر بهم، هذا من أعظم أسباب التسبب في إبعاد الناس عن الإسلام.

ولذلك الكفار قد يبتعدون عن الإسلام بسبب فعل بعض المسلمين تجد أنه يسرق، أو يفعل معاصي عند الكفار، أو يخون ويأخذ المال، أو يقتل بغير حق، ثم عند ذلك الكافر ينسب هذا الشيء للإسلام ما ينسبه للشخص وإنما ينسبه للإسلام، فيكون هذا سبب في صد الناس عن الإسلام، ولذلك المسلم عليه أن يحذر وأن يكون فتنة للكفار بحيث أنهم لا يسلمون بسببه.

ومن الفوائد: أنه يجوز أن يعاهدهم بعهده أو بعهد أصحابه، هذا الذي يقاتل يجوز له أن يعاهد الكفار بعهده أو بعهد أصحابه؛ لأنه قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ: «وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ».

مع أنه لا يجوز أن يغفر بذمته أيضًا وبذمة أصحابه، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَهْوَنُ»؛ يعني: هو معصيه ولكنه أقل من الذي قبله.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا حاصر قوم وأرادوا منه أن ينزلهم على حكم الله فلا ينزلهم على حكم الله، لأن الإنسان قد يجتهد ويرى أن هذا حكم الله عَزَّ وَجَلَّ ثم يخطئ فيكون قادح في شرع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فيتسبب أيضًا في أن يقع الكفار في شرع الله فيقولون: هذا شرع الله الذي ظُلمنا فيه، فيقدحون في شرع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وحكمه تعالى وتقدس.

ومن الفوائد: أن الإنسان قد يحكم ويصيب وقد يحكم ويخطيء، فإن كان مجتهد -مثلًا- اجتهد الإمام أو اجتهد العالم يرى أن هذا هو شرع الله اجتهد ثم أخطأ فإنه مخطيء من حيث الحكم ولكنه له أجر من حيث الاجتهاد، وأما إذا أصاب فإن له أجران:

- الأجر الأول: أجر الإصابة.

- الثاني: أجر الاجتهاد.

إذًا: ينقسم المجتهد إلى قسمين: المجتهد كالإمام -مثلًا- أو الأمير أمير الجيش، أو القائد، أو العالم،العالم إذا حكم مع اجتهاد وبذل وسع لأن يصل إلى حكم الله عَزَّ وَجَلَّ ويرى أن هذا هو حكم الله عَزَّ وَجَلَّ فاجتهد في ذلك فإنه لا يخلو من حالتين:

- الحالة الأولى: أن يصيب فله أجر إصابة الحق وله أجر الاجتهاد.

- الحالة الثانية: أن يخطئ الحكم فإن له أجر الاجتهاد وعمله ليس بالصحيح؛ ولذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ :«فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا»، وذلك أن الحق واحد، فالحق لا يتبدل كما قال سُبْحَانَهُ وَتعالَى} :فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ{[يونس: ٣٢]،فالحق واحد ولكن الإنسان قد يجتهد ويصيب وقد يجتهد ويخطئ، ولكن إذا اجتهد فإنه على خير فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر.

كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ».

ففي هذا الباب أنه على الإنسان إذا عاهد بعهد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أو عاهد بعهد نبيه فإنه عليه أن يوفي.

وهنا مسائل:

من المسائل: أن الإنسان إذا عاهد أحد من الناس فعليه أن يعاهده بعهده الخاص لا يقول:أعاهدك بالله، أو أعاهدك بعهد رسول الله، لأنه إذا لم يوفي فإنه قد فعل ذنب عظيم، وقد يكون سبب في عدم تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن الإنسان إذا عاهد الله عَزَّ وَجَلَّ فعليه أن يفي، إذا عاهد الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء كما لو قال -مثلًا-:أعاهدك يا ربي ألا أعصيك -مثلًا- فعليه أن يفي، مع أن الإنسان عليه أن لا يعاهد الله عَزَّ وَجَلَّ وإنما يقول: يا ربي أتوب إليك -مثلًا- إذا فعل معصية، فإذا أراد أن يفعل طاعة فلينوي بقلبه ولا يعاهد، لأن العهد إذا ما وفى به الإنسان فإنه على خطر.

وفيه أن الوفاء بعهد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من كمال التوحيد، وأن عدم الوفاء بعهد الله من ضعف التوحيد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في الإقسام علىٰ الله

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في الإقسام على الله.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان الإقسام على الله على وجهه التحجر سوء فعل من الإنسان ومنافي للتوحيد أو منافي لكمال التوحيد، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب لينبه على هذا الأمر.

قال:**باب ما جاء في الإقسام على الله.**

ما جاء: يعني: من النصوص المحذرة من ذلك أو المبينة لذلك.

قال:**ما جاء في الإقسام**، الإقسام: هو أن يحلف على أن يفعل الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الشيء، أو يحلف أن لا يفعل الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الشيء، فيقول مثلًا: أقسم عليك يا ربي أن تفعل كذا، أو يقول الإنسان: أقسم عليك يا ربي أن لا تفعل هذا، فيقسم على الله عَزَّ وَجَلَّ، والإقسام على الله عَزَّ وَجَلَّ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الإقسام على ما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله به أنه سيقع فيقسم على أنه سيقع،فيقول –مثلًا–: أقسم أن الله سيوقع القيامة، فهذا جائز، فيقسم أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى سيوقع هذا الشيء فيقول: أقسم بالله أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى سيوقع يوم القيامة، أو أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى سيدخل المؤمنين الجنة وهكذا،فهذا جائز.

الثاني: أن يقسم على الله عَزَّ وَجَلَّ على وجه حسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأنه لا حق له على الله، وأنه هو الذليل والله هو العلي الكبير، وأنه هو الفقير والله هو المتعال، ولكن يقسم على الله عَزَّ وَجَلَّ ويحمله على ذلك حسن الظن بالله، فهذا قد يكون جائز.

والدليل: ما جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«رُبَّ أَشْعثَ أغبرَ مدْفُوعٍ بالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبرَّهُ» .

و جاء في الصحيحين من حديث أنس أن أنس ابن النضر كُسرت ثنية أخته الربيع فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: "والله لا تكسر ثنية الربيع"، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ»، فرضي القوم وتركوا القصاص، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ أَبَرَّهُ».

الثالث: أن يقسم على الله عَزَّ وَجَلَّ ويحمله على ذلك الكبر والعجب بالنفس، وأن له حق عند الله ويدلي على الله بعمله ويرى أن له المقامات العظيمة عند الله، فهذا لا يجوز وهو محرم.

والدليل: ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب قال: عن جُندُب بن عبد الله قال: قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«قَالَ رجلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رواه مسلم.

فإذا كان الحامل على القسم الكبر والعجب، أو أن يتحجَّر رحمة الله، فهذا لا يجوز وهو محرم.

والإقسام على الله عَزَّ وَجَلَّ لابد فيه أن يكون الإنسان متبع لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويكون على تقى ، أما أن يقسم على الله عَزَّ وَجَلَّ وهو على معاصي وذنوب ويفعل الموبقات فهذا لا يجوز، لأن النصوص التي جاءت في من أقسم على الله من كان صالح كأنس بن النضر، والرجل الذي أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لو أقسم على الله لأبره؛ يعني: من صلاحه، أما أن يكون الإنسان على معاصي وذنوب وموبقات ثم يقسم على الله فهذا لا يجوز.

ومما ينبه عليه: هو أن الإقسام على الله عَزَّ وَجَلَّ الأفضل ألا يفعل الإنسان ولذلك غالبًا يحمل الإنسان، على الإقسام على الله عَزَّ وَجَلَّ العجب بالنفس غالبًا، وإن كان في بعض الصور يكون بسبب حسن الظن بالله تعالى .

ولكن الغالب أن الإنسان يرى أن له المقامات عند الله عَزَّ وَجَلَّ، كما فعل هذا الرجل في هذا الحديث الذي سيذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

والإقسام على الله عَزَّ وَجَلَّ إذا كان الحامل له الكبر أو العجب، أو أن له حق عند الله عَزَّ وَجَلَّ، أو أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يحتاج لعمل هذا الشخص، أو أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يجب عليه أن يثيب هذا الشخص لعمله، أو أن هذا الشخص يعتقد أن له عند الله حق على عمله، أو يرى لنفسه الفضل ولغيره القصور، فهذا من سوء الظن بالله، وقد يتدرج بالإنسان إلى أن يصل إلى الكفر فيحبط عمله كما وقع لهذا الرجل على بعض الأقوال.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن جُندُب بن عبد الله قال: قال رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ رجلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فقال اللهَ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**». رواه مسلم.

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«قَالَ رجلٌ»،(رجلٌ) نكرة، وهذا الرجل ممن كان قبلنا من الأمم .

«قَالَ رجلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ».

«وَاللهِ»، أقسم بالله،«لَا يَغْفِرُ»؛ يعني: لا يتجاوز، «اللهُ لِفُلَانٍ»، فلان؛ يعني: من الناس لرجل من الناس.

«فقال اللهَ عَزَّ وَجَلَّ»، عندما قال هذا الرجل هذا القول،»مَنْ ذَا الَّذِي»، يعني:(من) استفهام.

«مَنْ ذَا الَّذِي»؛ يعني: من هذا،«الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ»؛ يعني: يحلف علي يقسم علي.

«أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ»؛ يعني: ألا أتجاوز عن فلان، من هذا الشخص الذي يقول أنا لا أغفر لفلان؟!

«إِنِّي»،(إن) مؤكدة والضمير عائد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:«إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ»؛ يعني: لهذا الشخص الذي أقسم هذا الشخص أن لا يغفر الله له.

«غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»، الحبوط هو السقوط، كما لو قيل: حبط الجدار؛ يعني: سقط،فالحبوط هو السقوط والوقوع، وكما لو قيل: حبطت البهيمة إذا أكلت ثم سقطت من شدة الأكل،فالحبوط هو السقوط والمراد هنا حبوط العمل.

قال:«وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»؛ يعني: محل ثواب هذا العمل وسقط.

قال:**رواه مسلم**.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أنه لا يجوز الإقسام على الله عَزَّ وَجَلَّ أن يفعل أو أن لا يفعل إذا كان الحامل له العجب بالنفس والتحجر على الله عَزَّ وَجَلَّ أن لا يرحم فلان أو أن لا يغفر لفلان.

فلو أن –مثلًا– إنسان من الناس كان على معصية ويقع في المعاصي فلا يجوز للإنسان أن يقول: والله لا يغفر الله لك مهما عمل هذا الشخص، ولا يقول أيضًا: والله لا يهديه الله، فلو أن إنسانًا –مثلًا– كان صاحب معاصي وموبقات ويتكرر منه الذنب فلا يجوز للإنسان أن يقول: والله لا يهدي الله فلان، أو فلان الهداية عنه بعيدة، أو نحوذلك من هذه الكلمات،فهذا كله لا يجوز، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بيده مقاليد الأمور إن شاء هدى هذا الشخص وإن شاء أبقاه على ضلالة، فلا تتحجر على الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن الإنسان قد يقول الكلمة فيغضب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه؛ ولذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ،لَايُلْقِي لَهَا بَالًا،يَهْوِي بِهَافِي جَهَنَّمَ».

أو قال:«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَىٰ أَنْ يَلْقَاهُ».

فيحذر الإنسان من الكلمات لأنه قد يقول الكلمة وهو غافل فتكون سبب في غضب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه.

ومن الفوائد: أن الإنسان لا ينظر لعمله، فلا يُدلي بعمله على الله عَزَّ وَجَلَّ، فلا ينظر أن له المقامات عند الله عَزَّ وَجَلَّ وأنه رجل صالح، وأنه قد فعل الطاعات وترك المعاصي، لأن الفضل لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أولًا وآخرًا، وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى له على الإنسان فضائل منها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بيَّن للإنسان هذا العمل، الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي بيَّن لك الطاعة وبيَّن لك المعصية لتحذر منها، ولأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي هداك وشرح صدرك ووفقك للعمل،فلولا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ما عملت، فلولا الله ما كنت من أصحاب هذا العمل.

ولذلك يقول الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم: والله لولا الله ما اهتدينا وما صلينا وما زكينا، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي هداك لهذا العمل.

أيضًا منها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يثيبك على هذا العمل، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي بيَّن العمل ثم هداك إليه ثم يثيبك عليه، فالمنة لله فلا تدلي بعملك على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، بل عليك أن تذل وتخضع وترى أنك الفقير والله هو الغني العزيز، وترى أن الفضل لله وأنك أنت مقصر، ويرى الإنسان من نفسه القصور.

أيضًا من الفوائد: أن الإنسان مهما عمل من المعاصي فقد يغفر الله عَزَّ وَجَلَّ له إذا كان دون الكفر، ولكن هذه المغفرة مقيدة بمن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ وليست لكل أحد، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال:}إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ{[النساء: ١١٦]،

فقيَّد الله عَزَّ وَجَلَّ مغفرته بمن يشاء، بحيث أن من شاء الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغفر له غفر له، ومن شاء أن يأخذه على ذنبه أخذه، ولذلك كثير من المسلمين يدخلون النار ثم يخرجون منها إما بالشفاعة أوغير ذلك، ولكن كثير من المسلمين يدخلون النار، بل إن من المصلين من يدخل النار، وممن يحج يدخل النار.

والدليل على ذلك: ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، أن المؤمنين حين يشفعون عند الله عَزَّ وَجَلَّ يقولون: يا ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا وكانوا يحجون معنا، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «أُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ»، فدل على أنهم دخلوا النار.

وفي حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ»، فهم يسجدون في الدنيا ويصلون ولكنهم دخلوا النار بسبب الذنوب، فلا تظن أن الذنوب يسيرة بل قد تكون سبب في دخول الإنسان للنار، ومع هذا فقد يغفر الله عَزَّ وَجَلَّ لبعض الناس.

ومن الفوائد: أن الإنسان عليه أن لا تحمله الغيرة على أن يتجاوز الحد، الإنسان إذا وقع له غيرة على دين الله عَزَّ وَجَلَّ أو بسبب المعاصي فلابد أن يكون على حكمة ولا يقع في الطيش، فقد يغضب الإنسان لله ثم يقع في معصية أعظم.

كما لو -مثلًا- رأى الإنسان أبيه يعصي ثم حملته الغيرة فسبَّ أباه بسبب الغيرة فهذا وقع في معصية أعظم بسبب الغيرة، فعلى الإنسان أن يُحكم عقله بحيث أنه إذا وقع في قلبه غيرة عليه أن يتوقف ينظر إذا كان الإنكار يحمل إلى معصية أعظم فليتوقف، ولذلك هذا الرجل بسبب الغيرة قال هذه الكلمة وتحجر على الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومن الفوائد: أن هذا الرجل الذي في هذا الحديث حبط عمله، وقد أشكل على العلماء ما معنى حبط عمله ؟

فقيل: أن هذا شرع من كان قبلنا وكان هذا حكمهم.

وقيل: أنه حبط العمل الذي افتخر به، كما لو كان -مثلًا- كثير الصلاة فافتخر بكثرة صلاته فحبط هذا العمل دون باقي أعماله.

وقيل: أن هذا الشخص قد وقع فيما يوجب الكفر، لأن هذا الشخص تحجر رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ كأنه أمر الله عَزَّ وَجَلَّ أن لا يغفر لفلان أو يغفر لفلان فهو تألى على الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك جاء في الحديث الآخر عند أبي داود أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال في الحديث القدسي: «أَكُنْتَ بِي عَالِمًا،أَكُنْتَ عَلَىٰ مَافِي يَدِي قَادِرًا»، فهذا الشخص قد يكون وقع في كفر بسبب فعله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رَجُلٌ عابِدٌ، قال أبو هريرة: "تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْ بَقَتْ دُنياهُ وآخِرَتَهُ".

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال: **وفي حديث أبي هريرة أن القائل**؛يعني: قائل هذا المقال.

رَجُلٌ عابِدٌ، العابد يعني: كثير الطاعة يعني كثير التذلل والخضوع لله عَزَّ وَجَلَّ والعبادة.

قال أبو هريرة: "تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ"؛ يعني: بكلمة واحدة.

"أَوْ بَقَتْ"؛ يعني: أهلكت.

"دُنياهُ وآخِرَتَهُ"،بحيث أنه في الدنيا حبط عمله وفي الآخرة هلك فيها، إن كان على الكفر فقد هلك.

وما جاء في هذا الرجل أنه كان رجلان وكان أحدهم عابد كثير الطاعة، وكان أحدهم يعصي، وكان الطائع يراه ويقول: أقصر أقصر، فلما كان يوم من الأيام قال له هذا العاصي:دعني وربي، فغضب هذا العابد فقال: والله لا يغفر الله لك، فغفر الله عَزَّ وَجَلَّ لهذا العاصي وأحبط عمل هذا العابد.

في هذا الحديث الآخر فيه فوائد:

من الفوائد: أن الإنسان مهما كان على طاعة فعليه أن لا يرى الفضل لنفسه و الاحتقار لغيره، ولذلك هذا مما قد يوقعه الشيطان في قلب الإنسان فيرى –مثلًا– أنه صاحب قيام ليل

وصيام للنهار، وأنه يسبح ويهلل، ثم يرى من يشرب الخمر أو يرى من يُقصِّر في الطاعة فيحتقره في قلبه، فقد يكون بسبب هذا الاحتقار أن هذا العمل يوبق هذا الإنسان ويُغفر لهذا الذي احتُقر، قد يكون هذا الذي احتُقر في قلبه ذل وخضوع لله، ويكون هذا العابد في قلبه كبر وعجب فيوبقه هذا العمل، ولذلك على الإنسان أن لا يحتقر العصاة وأن لا يحتقرهم ولا يمنع من بغضهم في الله.

فرق بين الاحتقار والبغض في الله، فأنت تبغض العاصي بسبب معصيته، ولكن لا تبغضه مطلقًا لأنه مسلم تبغضه من ناحية المعصية وتحبه لما عنده من الطاعة، ويكون هذا لله وليس لأنك فعلت وهو لم يفعل، وإنما تفعل هذا لله، وأيضًا تنظر لهذا العاصي بنظرين:

- النظر الأول: نظر الرحمة والشفقة وأنه وقع عليه الأمر الكوني.

- النظر الثاني: أن تنظر إليه على أنه عاصي فتزجره وتأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر وتبغض هذه المعصية التي فعلها وتبغضه بسببها، بغض مقيد لأنه مسلم تبغضه بغض مقيد.

ولذلك يقول ابن القيم في ذا الخلق:

واجعَلْ لقلْبِكَ مُقْلَتينِ كِلاهُما ... فِي ذَا الخَلقِ ناظرتان

فانظُرْ بِعَينِ الحُكْمِ وارحَمْ بِهَا ... إذْ لَا تُرَدُّ مشيئَةُ الدَّيَّانِ

وانظُرْ بعينِ الحُكْمِ واحْمِلْهُمْ عَلَى ... أَحْكَامِهِ فَهُمَا إذًا نَظَرَانِ

فتنظر إليهم بنظر الرحمة والشفقة وأنه قُدر على هذا الشيء وتسعى في صلاحه، وتدعو له وتسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعافيه من هذه المعصية، وترحمه وتنظر إليه نظر شرع أنه عاصي وأنه فعل المعصية وتزجره وتقيم عليه الحد ولا تأخذ فيه رأفة في دين الله، وتقيم عليه ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به.

فيقول لك: فيه نظران.

فهذا الباب فيه: أن الإنسان لا يرى أن له الفضل وأنه له المقامات العظيمة عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ويُدلي على الله عَزَّ وَجَلَّ بعمله، ويرى أن غيره محتقر وأنه ناقص ونحو ذلك،بل عليه أن يذل لله عَزَّ وَجَلَّ ويخضع ويستكين ويرى أن الفضل لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وأنه لولا الله ما صلى، ولولا الله ما زكى، وهكذا.

ويسأل الله عَزَّ وَجَلَّ دائمًا الثبات، ولا يحمله فعل العاصي على ما لا يجوز فينكر بالحكمة إذا أنكر ينكر بالحكمة، وذلك أن إنكار المنكر إذا كان يترتب عليه أعظم منه فلا يجوز الإنكار.

كالإنكار مثلًا على الإنسان بقول قبيح -مثلًا- يسب ويشتم، أو يقع في عقوق للوالدين كما لو -مثلًا- رأى أباه يشرب الدخان ثم قام فصفع أباه بسبب الغيرة ويريد أن ينكر على أبيه، فهذا فعل منكر أعظم، بل عليه أن ينصح أباه بطريقة الحسنة فيقول: يا أبتاه إنك عصيت وإن هذا خطأ وإن هذا معصيةفعليك أن تطيع الله وأن تحذر من المعاصي وهكذا، فإن قبل فبها ونعمت، وإن لم يقبل فقد أديت الذي عليك.

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامَ قال: يا أبتي، والله عَزَّ وَجَلَّ لما أرسل موسى وهارون إلى فرعون قال:}فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا{[طه: ٤٤]، مع أن فرعون قد عتى وتكبر ومع هذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ : }فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا{، فالإنسان يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بحسب المقام.

ومن الفوائد: أن الإنسان عليه أن يحذر من لسانه اللسان، لأن الإنسان قد يتكلم بالكلمة فتكون هذه الكلمة السبب في هلاكه، وقد جاء في الحديث:«وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ،لَايُلْقِي لَهَا بَالًا،يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وقد يكون الكلمة سبب في خروج الإنسان من الإسلام، كما لو استهزأ -مثلًا- بالدين، أو سب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا يخرج من الإسلام يكفر بسبب كلمة، ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ} :وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ{[التوبة: ٧٤]، فقد يقول الإنسان كلمة فتكون سبب في كفره وخروجه من الإسلام، فيحذر الإنسان من لسانه.

ومن الفوائد: أن الطاعة سبب في رفعة الإنسان، وذلك ضُرب المثل برجل عابد فدل على أن له مقام ولكنه وقع بسبب ما قال، فهو له مقام ولكنه بسبب فعله ذهب عنه هذا المقال، فالرجل العابد له مقام، فالله عَزَّ وَجَلَّ قال: }هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ{[الزمر: ٩].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{[القلم: ٣٥-٣٦].

فليس الرجل العابد الطائع المحسن كالرجل العاصي المفسد، لا يستوي هذا وهذا، بل الرجل العابد الصالح أفضل وأحسن، ويدل على ذلك أن هذا الرجل ضُرب به المثل فدل على أنه كان له مقام، فهو رجل عابد ولكنه بسبب ما قال أوبقته هذه الكلمات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب لا يستشفع بالله علىٰ خلقه

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب لا يستشفع بالله على خلقه.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان الاستشفاع بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على خلقه فيه نوع تنقص لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن غالبًا يكون الشافع يشفع عند من هو أعلى منه، أتى المؤلف رحمه الله بهذا الباب لينبه على ذلك.

قال:**باب لا يستشفع.**

الشفاعة لغة: ضد الزوج،بحيث أن الشافع ضم قوله إلى الآخر فأصبح زوجًا بعد أن كان فردًا.

وأما شرعًا: فهي التوسط للغير لجلب نفع أو دفع مضرة،وإن شئت أن تقول:هي الدعاء للغير لجلب الخير.

والشفاعة هي: أن يشفع الشافع عند غيره لغيره، وغالبًا يكون الشافع أقل منزلة من المشفوع عنده، كما لو شفع –مثلًا– الوزير عند الأمير، أو شفع الأمير عند الملك فيكون الشافع أقل منزلة من المشفوع عنده.

قال:**لا يستشفع بالله ،بالله**؛ يعني: أن يتخذ الله عَزَّ وَجَلَّ شفيع عند الغير.

قال:**على خلقه**، أيًّا كان هذا المخلوق ملك أو نبي أو رسول أو غير ذلك، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا أحد فوقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بل هو الأعلى وما سواه الدون، وهو الأكبر وما سواه هو الأقل والأهون، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الإله الغني في ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عمن سواه.

ففيه: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يستشفع به عند أحد من الخلق.

واتخاذ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى شفيع عند المخلوق كأن يقول المخلوق –مثلًا–: إني أستشفع بالله عليك أن تقبل هذا الشيء مني، أو تقبل من فلان، فيجعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى جاه الله عَزَّ وَجَلَّ عند هذا المخلوق، وهذا فيه تنقص لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أعلى من كل شيء وأكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء وما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ فهو الذليل الفقير إليه، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.{

قال المفسرون:}مِنْ دُونِ اللَّهِ{؛ يعني: لأنه أقل وهو ذليل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولأن ما سوى الله فهو دون الله،فالله عَزَّ وَجَلَّ هو العلي الكبير، فكل من دعي سوى الله فهو دون الله أيًّا كان هذا المدعو.

وقوله:**خلقه**؛ يدل على أنهم راجعون إليه فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي أوجده، فلا يصح ولا يستقيم أن يُجعل الخالق شفيع عند المخلوق.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن جُبَيرِ بن مُطعِمٍ قال: جاءَ أعرابيٌ إلىٰ النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:يَا رَسُولَ اللهِ نُهِكَتِ الْأَنْفُسُ وَجَاعَ الْعِيَالُ وَهَلَكَتْ الْأَمْوَالُ، فاسْتَسْقِ لنا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاَللهِ عَلَيْك وبِك عَلَىٰ اللهِ، فقال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبحانَ اللهِ! سُبحانَ اللهِ!**»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ؛ ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَك أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إنَّ شَأنَ اللهِ أَعظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إنَّهُ لا يُستَشفَعُ باللهِ على أَحَدٍ**»، وذكر الحديث. رواه أبو داود.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:**عن جُبَيرِ بن مُطعِمٍ قال: جاءَ أعرابيٌ**.

جاءَ: يعني: ورد على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأعرابي هو ساكن البادية.

قال:**جاءَ أعرابيٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ يعني: أنه أتى هذا العربي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال:يَا رَسُولَ اللَّهِ، هذا نداء إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يَا رَسُولَ اللَّهِ، ياء النداء.

يَا رَسُولَ اللَّهِ نُهِكَتِ الْأَنْفُسُ؛ يعني: جهدت وتعبت.

الْأَنْفُسُ: يعني: من الرجال والنساء والولدان، جُهدت يعني: تعبت وهلكت.

وَجَاعَ الْعِيَالُ:يعني: لحقهم الجوع، والعيال يعني: الأبناء والبنات.

وَهَلَكَتْ الْأَمْوَالُ:يعني: هلكت المواشي وهلكت الإبل وهلكت الأغنام ونحو ذلك.

قال:**فاسْتَسْقِ لنا رَبَّكَ:** يعني: تطلب (السين والتاء) تدل على الطلب.

فاسْتَسْقِ لنا رَبَّكَ:يعني:اطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أن يسقينا.

فَإِنَّا: يعني: الضمير عائد إلينا نحن يعني هذا القائل وأتى بضمير الجمع.

قال:**فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ:** يعني: نجعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى شفيع عندنا.

نَسْتَشْفِعُ بِاَللَّهِ عَلَيْك:يعني: نطلب منك أن تقبل منا ويجعلنا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى شافع عندك، وهذا هو الذي سبح لأجله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال:**نَسْتَشْفِعُ بِاَللَّهِ عَلَيْك وبِك عَلَى اللَّهِ**:يعني: بك نجعلك شفيعًا عند الله تطلب من الله لنا، وهذا ما فيه بأس.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«سُبحانَ اللهِ!»؛ يعني: تنزيهًا لله، ثم كرر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ:«سُبحانَ اللهِ!»، تنزيهًا لله، والله عَزَّ وَجَلَّ يُنزه عن ثلاثة أشياء: عن مشابهة المخلوقين، وعن النقص في صفات الكمال، وعن النقص في الصفات مطلقًا.

قال:فَمَا زَالَ، هذه جملة تدل على الاستمرار.

فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ:يعني: يُنزه الله عَزَّ وَجَلَّ يكرر مرة ومرتان وثلاث وأربع وخمس الله أعلم كم قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، عُرف الغضب في وجوه أصحابه لأنهم يغضبون لأجل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ قَالَ: »**وَيْحَك**«، (ويحك) هذه كلمة يُنتهر بها الإنسان.

ثُمَّ قَالَ: »**وَيْحَك أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟**«؛ يعني: أتعلم ما الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ ما صفة الله أتعرف صفة الله؟

«إِنَّ شَأنَ اللهِ أَعظَمُ مِنْ ذَلِكَ»؛ يعني: أعظم مما تظن، الله عَزَّ وَجَلَّ عظيم وشأنه عظيم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«إِنَّهُ»، ثم بين الوجه في ذلك.

قال:«إِنَّهُ لا يُستَشفَعُ باللهِ علىٰ أَحَدٍ»؛يعني: لا يُجعل الله عَزَّ وَجَلَّ شفيع عند أحد، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إذا أراد الشيء قال له كن فيكون فلا يحتاج إلى أن يطلب من أحد، ولا يحتاج أن يأتي إلى أحد سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فيطلب منه الشيء، بل إذا أراد الشيء قال له: كن فيكون، والخلق هم المحتاجون إلى الله وهو الغني عنهم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:**وذكر الحديث**، وإكمال الحديث أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ قال:«وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ»؛ يعني: من عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وكبريائه يئط العرش يعني:يكون له صوت من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وهذا الحديث فيه جبير بن محمد بن مطعم وفيه كلام، ولكن الحديث له شواهد، ولذلك ابن القيم صحح الحديث وبحث هذا الحديث وصححه وصحح غيره, وضعفه غيره من العلماء، والحديث فيه خلاف.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الأعراب كانوا يسألون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالأعراب كانوا يأتون من البادية فيسألون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كان الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم يفرحون إذا أتى الرجل العاقل من البادية فسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أتى رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولم يعمل عملًا مثلهم ،فقال: أنت من أحببت، ففرح الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم بذلك، فكان الرجل الأعرابي يأتي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسأله فيجيبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيستفاد منه: أن العالم إذا أتاه أحد من غير بلده يريد السؤال فإنه يجيب بما علَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن الماء إذا أُمسك من السماء فإنه سبب في هلاك الأنفس والأموال، وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى جعل من الماء كل شيء حي، فكل شيء جعله الله عَزَّ وَجَلَّ حي من الماء فيحتاج الأنفس إلى الماء لتحيا بسببه؛ وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[الأنبياء: ٣٠].

ومن الفوائد: أنه يجوز الطلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ لنا، وسؤال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ لا يخلو فيه الإنسان من حالات:

الحالة الأولى: أن يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حال حياته وفي حال حضوره، فهذا جائز، والأدلة على هذا كثيرة:

منها: هذا الحديث.

ومنها: ما جاء في الصحيحين حديث أنس عن الرجل الذي دخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الجمعة وقال: يا رسول الله ادعو الله أن يغيثنا، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ:«اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا».

وجاء الطفيل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله إن دوس قد عصوا فادعوا الله عليهم فقال:«اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ».

وقالت امرأة سوداء كانت تُصرع فتتكشف: يا رسول الله إني أُصرع فأتكشف فادعوا الله ألا أتكشف، فادعوا الله يذهب عني هذا الشيء، فقال:«إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»، فقالت: يا رسول الله اصبر ولكن ادعو الله ألا أتكشف.

وكان ابن عباس يقول: "إذا أردت أن تنظر إلى امرأة من أهل الجنة فانظر إلى هذه السوداء".

والأدلة على هذا كثيرة، فهذا من الأمر الجائز.

الحالة الثانية: أن يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد مماته فيقول: يا رسول الله ادعو الله لي، أو يا رسول الله اشفع لي عند الله بعد موته، فهذا شرك أكبر مخرج من ملة الإسلام، وهذا ما كان يفعله المشركون مع آلهتهم لأنهم كانوا يجعلونها شفعاء عند الله فهم يعتقدون أنها لا تضر ولا تنفع ولا تحي ولا تميت ولكن جعلوها شفعاء عند الله، فهذا الفعل مثل هذا الفعل.

وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته انتقل إلى دار أخرى تخالف الحياة الدنيا، ولأن الداعي إذا دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا القول سأله والدعاء عبادة، فإذا توجه به الإنسان لغير الله فقد وقع في الشرك.

وأيضًا لأنه ظن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينفع ويضر بعد موته، ومن اعتقد ذلك فهو مشرك.

وأيضًا لأنه لما أتى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقع في قلبه من الذل والخضوع والتعظيم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لا يصح إلا لله فوقع في الشرك.

الحالة الثالثة: أن يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر لايقدر عليه إلا الله،كما لو قال –مثلًا-: يارسول الله أنزل الغيث من السماء، أو قال:يا رسول الله أحي الموتى، أو قال:يا رسول الله أدخلني الجنة وأنجني من النار، فهذا شرك أكبر في ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

في حال حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد مماته، سواء كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حي أم ميت، فلو أتى الى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله اغفر ذنبي،أو كفر سيئاتي،أو أدخلني الجنة وانجني من النار،والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حي فهذا شرك لأن هذا أمر لا يقدر عليه إلا الله.

وأما مسألة غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسأل الله لك فهذا على حالات:

الحالة الأولى:أن تسأل هذا الشخص الرجل الصالح الذي تظن فيه الصلاح فتقول: ادعو الله للمسلمين أن ينصرهم الله،أو أن يزيل الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم الأمراض،فهذا جائز ولا كراهة فيه، لقول عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما استسقى ابن عباس قال:"قم فادعوا الله لنا"، هذا جائز لا كراهة فيه.

الحالة الثانية:أن تقول للشخص الرجل الذي تحسب أنه صالح: ادعو الله لي وتريد أن الملك يقول: ولك بمثله، تريد أن تنفع هذا الشخص، فهذا جائز أيضًا.

وقد جاء في صحيح المسلم من حديث أبي هريرة:«دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَوَلَكَ بِمِثْلٍ»، فاذا أردت هذه النية فهذا جائز.

الحالة الثالثة:أن تسأل الشخص أن يدعو الله لك وتنوي نفع نفسك خاصة، فهذا لا ينبغي وهو داخل في مسألة الناس.

وقد جاء عند أبي داود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا،وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟»، ونهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مسألة أخذ العهد على الصحابة أن لا يسألوا الناس شيئًا، فكان أحدهم يسقط سوطه فلا يسأل أحد يناوله لا يقال:

ناولني، فاذا كان يريد نفع نفسه خاصة فهذا ما ينبغي وإن كان الأمر جائز ولكنه خلاف الأولى.

ومن الفوائد:أنه لا يجوز أن يُجعل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى،شفيعًا عند العبد لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء وأعلى من كل شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا يحتاج لأحد ولا يذل لأحد سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: ولم يتخذ وليًا من الذل؛ يعني: ليس بذليل سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فيتخذ وزير،أو من يواليه فهو غني سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والخلق جميعًا فقراء إليه أذلاء بين يديه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك يقول شيخ الإسلام:"الغنى وصف له ذاته"؛ يعني: وصف لله، كما أن الفقر وصف لي ذاتي، قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ{[الإسراء: ١١١]؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يحتاج لأحد يؤازره سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويظاهره، لأنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الغني.

لذلك والأمر كذلك فلا يجوز أن يستشفع به عند أحد سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه إذا أراد الشيء قال له: كن فيكون، ولأن الاستشفاع بالله عَزَّ وَجَلَّ عند خلقه تنقص له، فكيف تجعل العلي الكبير العظيم الجليل يشفع عند المخلوق الفقير إليه؟

والعادة أن الشفيع يكون شافع عند من هو أعظم منه، كما أن الأمير يأتي عند الملك فيشفع لك –مثلًا- فيقول:اقبل شفاعتي في فلان، ولا يأتي الملك ويشفع عند الوزير أو عند الأمير غالبًا ما يكون هذا، الغالب أن الملك يقول للأمير- مثلًا-: افعل كذا، فلان أتاني فافعل به كذا، ويقول للوزير: افعل كذا يأمره أمر، ما يأتي ويقول: يا أمير افعل كذا، وأنا اسألك لفلان، هذا ما يكون في العادة، وإن كان قد يحصل ولكن هذا بالنسبة إلى الخلق قد يجوز،وأما في حق الله فإنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يستشفع به عند أحد.

ومن الفوائد: أنه يجوز الاستشفاع بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الله، بحيث أنك تقول للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اشفع لي عند الله، وطلب الشفاعة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معناها طلب الدعاء فتقول: ادعوا الله لي، والاستشفاع بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بدعائه جائز في حال حياته لا بعد مماته، والاستشفاع به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ بذاته أو بحقه أو بجاهه لا يجوز لا في حال حياته ولا بعد مماته.

فلو قال –مثلًا–: اللّٰهم إني أسألك بحق نبيك، أو بجاه نبيك، أو بمحمد، فإن هذا من البدع وهو وسيلة إلى الشرك ولا يجوز، فلا يجوز أن يقول الإنسان: اللّٰهم أني أسألك بنبيك، أو أسألك بجاه رسولك، فهذا لا يجوز.

وإن كان السؤال بالإيمان به فتقول: اللّٰهم إني أسألك بإيماني برسولك، فهذا جائز وهو من الوسائل الجائزة، أو يقول:اللّٰهم إني أسألك بإيماني به فهذا جائز.

كما استشفع المؤمنون بالإيمان بالله وبرسوله، والاستشفاع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني الوسائل التي يتوسل بها الإنسان إلى الله عَزَّ وَجَلَّ منها صحيح ومنها باطل، فأما الصحيح فهو التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه وصفاته وبالعمل الصالح وبدعاء الرجل الصالح، هذا الوسيلة الصحيحة والأدلة على هذا كثيرة.

التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه و صفاته،أو التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالعمل الصالح،أو التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بدعاء الرجل الصالح، هذا كله صحيح.

وأما الوسائل الباطلة فهي التوسل الى الله عَزَّ وَجَلَّ بالشرك، كأن يسأل المخلوق الميت يقول:اسأل الله لي، إني أستشفع بك إلى الله، فهذا شرك أكبر مخرج من ملة الاسلام.

و قد قال شيخ الإسلام: "أن هذا من أعظم أنواع الشرك،أن يجعل المخلوق الميت شفيع عند الله،أو يسأله أن يسأل له الله، فان هذا من الشرك".

الثاني:أن يستشفع بجاه المخلوق أو بحقه، فان هذا من البدع و هو وسيلة إلى الشرك، كأن يقول –مثلًا–: اللّٰهم اني اسألك بجاه فلان،أو بحق فلان،أو بحق رسولك،أو بجاه رسولك، فهذا كله لا يجوز.

و قد قال شيخ الإسلام: "كل حديث فيه التوسل إلى الله بجاه مخلوق أو بحقه فإنه لا يصح و هو ضعيف".

والتوسل والوسيلة الفرق بينهما:أن التوسل هو الطلب فإذا طلبت الله عَزَّ وَجَلَّ فهذا يسمى التوسل، والوسيلة هو ما تقرن به هذا الطلب، كالعمل الصالح.

والتوسل الذي يظنه بعض المشركين الذين يتوسلون بجاه الأنبياء –مثلًا- يتوسلون بدعاء الاموات،أو يسألونهم أن يشفعون لهم عند الله، فهذا كله من الشرك، و هذا هو فعل من بُعث فيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الفعل كهذا الفعل، لأن الذين بُعث فيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا لا يعتقدون أن هذه الأصنام تضر ولا تنفع، و أنها لا تحي ولا تميت، وأنها فقيرة و الله هو العلي الكبير، و يعتقدون أن المعطي والمانع هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولكن يجعلونها شفعاء عنده و هي لا أرواح لها و يسألونها فيتوجهون إليها بالعبادة بالدعاء و الذل و الخضوع.

كذلك الذي يسأل الأموات فهو يتوجه للأموات بالذل والخضوع، والسؤال يعني: الدعاء فهذا مثل هذا.

ومن الفوائد: أنه ينزه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عندما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإذا كان أمر لا يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يُنزه.

ولذلك لما كان الشرك تنقص لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى نزه الله نفسه عنه، ولما كان نسبة الولد إلى الله تنقص له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى نزه نفسه عنه، ولما كان الاستشفاع بالمخلوق عند الله تنقص لله نزه رسول الله ربه عن ذلك، فيُنزه الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عندما لا يليق به.

وقول: "سبحان سبحان" لا تقال إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فلا يقال لمخلوق سبحانك لأن هذا مما هو من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأن فيه تنزيه ولا يليق هذا الشيء إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم يغضبون لغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا لشدة حبهم له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَم وتوقيرهم له، والصحابة كانوا يعرفون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدره وينزلونه منزلته فيرون أنه رسول وأنه يوقَّر ويُحترم ويسمع قوله ولا يرد عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَم، وأما ما يقع فيه بعض الناس الذي يظن أنه يوقِّر

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُعظمه وهو لا يفعل ذلك وإنما يقع في الشرك بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويجعله مشارك لله، كالذي يحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كحب الله، يحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذل وخضوع وتعظيم كحب الله.

أو يظن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له من خصائص الله كعلم الغير يعتقد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب، أو يعتقد أنه يُدخل من شاء الجنة وينجي من شاء من النار، فيجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شريك لله، فهذا وقع في الشرك برسول الله، وهذا خلاف لما بُعِث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له،فهذا الفعل الذي فعله هؤلاءهو الذي بُعِث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليجاهد هذا الشيءويحاربه وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ينهى الناس أن يقعوا في هذا الشيء.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد فقير إلى الله ذليل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، والله هو العلي الكبير الذي له الكبرياء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ومع ذلك هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ كريم عند ربه ورسول من الله، ويجب على الخلق أن يوقِّروه ويعرفوا له حقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، وأن لا يُرد قوله وأن يُسمع له بدون توقف، فإذا قال: افعل تفعل بدون أن تتوقف، وإذا قال: لا تفعل لا تفعل بدون أن تنظر، لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لا ينطق عن الهوى، وتوقِّره لأنه رسول من الله ولأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى اتخذه خليل.

فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أرفع البشر منزلة، ومع ذلك هو عبد فقير إلى الله محتاج إلى الله؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى حكاية عن رسوله:﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[الأعراف: ١٨٨].

وقد دخل عليه ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان يوعك وعكًا شديدًافقال: يا رسول الله إنك توعك، قال:«إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلَانِ مِنْكُم»، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يُصاب بما يُصاب به البشر.

وقد جاء عند الإمام أحمد: "أنه خرج عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ فخطب وهو عاصب إصبعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ من قرصة عقرب"، فهو يقع عليه ما يقع على البشر، فيُعرف عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ أنه رسول لا يُكذَّب وعبد لا يُعبد، كما قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ.

ومن الفوائد: أن معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مشروعة، ومعرفة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تنقسم إلى قسمين:

الأول: معرفة حقيقة ذاته العلية، أو حقيقة صفاته، أو كيفية ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أو كيفية صفاته، فهذه غير مطلوبة من الخلق، وغير مقدور عليها من الخلق، ولا يصل إليها أحد من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة.

فحقيقة صفات الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كيف هي هذا الأمر محجوب عن الخلق؟ فكيف يد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ كيف نزول الله عَزَّ وَجَلَّ إلى السماء الدنيا؟ كيف يتكلم الله عَزَّ وَجَلَّ؟ هذا علمه عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولا يعلمه أحد من الخلق لا نبي مرسل ولا ملك مقرب وهذا لا يحصل لا في الدنيا ولا في الآخرة، في الدنيا لا يحيطون به سبحانه، وفي الآخرة لا يحيطون به كذلك، لأنه أعظم وأجل أن يحيط به أحد من خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، أو يصل أحد إلى معرفة كنه ذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}[طه: ١١٠].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}[الأنعام: ١٠٣]، فلا تحيط به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لأنها أجل وأعظم.

وسيأتينا في آخر الباب أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يجعل السموات والأرض والخلق ويجعل المخلوقات على أصابعه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، هذا على أصبع وهذا على أصبع وهذا على أصبع، وهذا على أصبع، حتى عد خمسة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، خمسة أشياء.

فإن كان الخلق على أصابع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى كيف يحيط هذا الخلق بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟!

الثاني: معرفة معاني صفاته ومعرفة عظمته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ومعاني ذلك، فهذا مطلوب بل إن هذا أشرف العلوم على الإطلاق؛ فلذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ شَأْنَ اللهِ عَظِيمٌ».

فتعرف معاني صفات الله فهذا مطلوب، وهذا زبدة رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى والتعبد له والتذلل هذا هو زبدة ما بُعِثَ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعلى هذا معاني صفات الله عَزَّ وَجَلَّ قد تُعْرَف، فتعرف ما معنى سمع الله، وتعرف ما معنى نزول الله، معنى الصفة، أما كيف الصفة؟ فهذا لا تعرفه ولا تعلمه وليس مطلوب منك.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عظيم، ولذلك قال:«إِنَّ شَأْنَ اللهِ عَظِيمٌ».

وفي إكمال الحديث قال:«وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ» .

والأطيط معناه: الصوت عند الحِمل الثقيل، فإذا حمل -مثلًا- الإنسان ولله المثل الأعلى حمل المتاع على دابة، وكان عليها -مثلًا- الركاب ثم زاد الحِمل خرج لهذا الشيء صوت فهذا يسمى أطيط.

وهذا يدل على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولا يدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى محتاج للعرش فالعرش وحملة العرش محمولون بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالعرش لا يقل الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويحمله، ولا يصح أن يعتقد الإنسان هذا لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى غني عن العرش وعن حملة العرش وعن الخلق جميعًا.

فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الذي يحمل العرش ويحمل حملة العرش ويحمل الخلق جميعًا بقدرته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فالخلق جميعًا قائمون بإقامة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ{[فاطر: ٤١]، فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى الذي يُمسك الخلق، فلو ترك سُبْحَانَهُ وَتعَالَى السماء والأرض لزالت وذهبت.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في حماية النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمىٰ التوحيد وسده طرق الشرك

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ :**باب ما جاء في حماية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى التوحيد وسده طرق الشرك.**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنه لما كان بعض الكلام يكون فيه غلو، والواجب سد هذا الطريق، أتى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب لينبه على بعض الأقوال التي ينبغي أن تُترك ويُبتعد عنها.

قال:**باب ما جاء.**

ما جاء؛ يعني: من الآثار.

في حماية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحماية هي: التعاهد للشيء بحيث يحميه ويكون دونه لئلا يوصل إليه.

حماية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي يسعى في حماية التوحيد.

قال:**حمى التوحيد**، الحِمى ما يكون قريب الشيء، والتوحيد؛ يعني: توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة.

قال:**وسده طرق الشرك**، والسد هو: المنع بحيث يوضع سد يكون سبب في منع وصول الشيء.

طرق، طرق جمع طريق وهو الذي يوصل إلى المقصود، وسُمي طريق لأن الناس يطرقونه بأقدامهم، فالمراد هنا الطريق قد يكون طريق معنى أو طريق حسي أيضًا.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعى في ألا يقع الشرك سعى في ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والشرك هو أن يشرك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غيره في التعبد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عن عبد الله بن الشِّخِّيرِ، قال: انطلقتُ في وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إلىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رواه أبو داود بسند جيد.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:عن عبد الله بن الشِّخِّيرِ، قال: **انطلقتُ في وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ**.

انطلقتُ؛ يعني: فيمن ذهب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

في وَفْدِ، الوفد هو الجماعة من الناس.

وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ؛ يعني: الذين ينسبون إلى عامر.

قال: **إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يعني: يريدون أن يلاقوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، (أَنْتَ) الضمير عائد إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَنْتَ سَيِّدُنَا؛ يعني: أشرفنا وأعظمنا فضلًا، والسيد من السؤدد وهو ذو الشرف والرفعة.

فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ**»؛ يعني: ذو الشرف الكامل الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، والذي له العظمة والكبرياء هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**»، «**تَبَارَكَ**»؛ يعني: تعاظم في ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبارك في من يشاء من مخلوقاته.

«وَتَعَالَىٰ»؛ يعني: تعالى سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله وفي كل ما يخصه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، (وَأَفْضَلُنَا) الفضل هو الزيادة والمزية؛ يعني: أكثرنا مزايا.

وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا؛ يعني: إذا كان أحد منا له فضل فأنت زائد على فضله.

وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا؛ يعني: أعظمنا في العطاء ونحوه، والطول هو العطاء كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :ذِي الطَّوْلِ{[غافر: ٣]؛ يعني: ذو العطاء وذو الإنعام سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا،فَقَالَ، عند ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ»؛ يعني: المعتاد، بقولكم المعتاد.

«أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ»؛ يعني: بعض قولكم المعتاد.

«وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»؛ يعني: لا يجعلكم الشيطان جري له بحيث يجعلكم رسول له يستعملكم فيما يريد، والشيطان من شطن إذا بعد.

قال:**رواه أبو داود بسند جيد**؛ يعني: أن هذا الحديث سنده جيد.

وقد قال ابن حجر: أن رواته ثقات.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يلاقيه الوفود، والوفود وفدوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة (٩) من الهجرة؛ ولذلك في تلك السنة ما حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب كثرة الوفود، فكان يأتيه الناس جماعات بعد جماعات فيسلمون ويبايعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن هؤلاء وفد بني عامر؛ يعني: ذو عامر، فكان يأتيه الوفود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ليبايعوه، وكان يتلقاهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ وقد ينشغل بهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ولذلك دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أم سلمة بعد صلاة العصر فصلى ركعتين، فقالت: يا رسول الله سألت عن تلك الركعتين، فقال:«إِنَّهُ أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ بِالإِسْلَامِ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَشَغَلُونِي عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ فَهُمَاهَاتَانِ »، ثم حافظ عليها

بعد ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ وكان إذا عمل عمل أثبته، وهذا من خصائصه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ فقد ينشغل بهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ومن الفوائد: أن السيد الذي له السؤدد والشرف من جميع الوجوه هو الله وحده لا شريك له،(فالـ) تفيد الاستغراق وهي لا تطلق إلا على الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فلا يقال لشخص من الناس: أنت السيد، أو فلان السيد.

(فال) تفيد الاستغراق؛ يعني: جميع معاني السؤدد وهذا الاسم، لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالذي له الشرف وله السؤدد وله الكبرياء والعظمة هو الله وحده لا شريك له، والخلق جميعًا فقراء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «السَّيِّدُ اللهُ»، وهل يجوز إطلاقه على غير الله عَزَّ وَجَلَّ؟ على حالات:

الحالة الأولى: أن يكون من غير اقتران (بالـ)، فيقال: فلان سيد، أو فلان سيد قومه، أو فلان سيد القراء، أو فلان سيد هؤلاء الرجال، فهذا جائز.

وقد جاء في الصحيحين،أن سعد بن معاذ رَضِي اللهُ عَنْهُ لما أتى قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومه:«قُومُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُم».

وقال عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ "**أَبُوبَكْرٍسَيِّدُنَاوَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا**"؛ يعني: بلالـ. رواه البخاري، فإطلاق سيد بني فلان، أو سيد قومه، هذا جائز.

ولكن الأحوط: أن يقال في غيبة هذا الشخص ولا يقال في وجهه، لأنه قد يوقع في قلبه شيء من العجب ونحو ذلك، إذا كان –مثلًا– غائب عن المجلس وقيل له: فلان سيد قومه فهذا جائز.

أما إذا كان حاضر فالأحواط والأفضل أن لا يقال لأنه قد يشعر في نفسه بالعجب وأن له مكانه ونحو ذلك، وهذا ينافي العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، إذ أن العبد لابد أن يكون ذليل فقير إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

الحالة الثانية: أن تطلق السيد على فاسق أو كافر، فيقال لهذا الكافر: هذا فلان الكافر سيد أو سيدي، أو فلان المنافق سيدي، فهذا لا يجوز.

وقد قال ابن القيم: "أن هذا محرم".

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :«لا تقولوا للفاسق سيداً فإنه إن يك سيد فقد أغضبتم ربكم»، فالفاسق لا يقال عنه سيد، أو سيدي فلان الكافر أو الفاسق، فلا يقال له، لأن السؤدد من له شرف، والكافر والمنافق ليس لهم شرف .

الحالة الثالثة: أن تطلق السيد على امرأة، فيقال: فلانة سيدتي، أو فلانة سيدة الرجال، فهذا لا يصح ولا ينبغي لأن المرأة السيد عليها الرجل وليست هي السيدة، ولذلك من الخطأ أن يقال عند إلقاء كلمة أو نحو ذلك يقال: سيداتي وسادتي فهذا خطأ، وهذا خطأ من وجهين:

الوجه الأول: أنه جعل النساء سيدات مع أن الرجل هو السيد على المرأة.

والخطأ الثاني: لأنه قدم النساء على الرجاء فقال: السيدات، قدم النساء والمقدم عادة يكون أفضل، فالمرأة لا يُطلق عليها سيدة لأن الرجل هو الذي له السؤدد عليها؛ ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ{[يوسف: ٢٥]؛ يعني: يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لما لحقت به المرأة، ثم إذ بزوج المرأة في وجهه عند البعض فسمى الله عَزَّ وَجَلَّ الرجل سيد للمرأة.

الحالة الرابعة:أن تطلق على من له فضل، كالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهنا إذا كان في غير الصلاة فما كان السلف يطلقون ذلك، السلف ما كانوا يقولون سيدنا محمد، أو سيدنا رسول الله ما كانوا يقولون هذا، ولكن لو قيلت فهو صحيح وهو جائز.

والدليل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْر»؛ فهو سيد البشر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ فهو أفضل البشر،فهو الذي له الشرف على جميع البشر، ولكن الأفضل أن لا تقال.

الحالة الخامسة: أن تقال في الصلاة،فيقال –مثلًا– في الصلاة:(اللّٰهم صلي على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه) إلى آخره في الصلاة عند التشهد، فهذه لم ترد، ولذلك أنكر ابن حجر وغيره هذه اللفظة في التشهد، فلا تقال في التشهد لأن التشهد جاء على صفة فلا يضاف فيه ولا يزاد عليه.

الحالة السادسة : أن تطلق على غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأمهات المؤمنين – مثلًا– فيقال: السيدة عائشة، السيدة خديجة، السيدة زينب، فهذا الأفضل أن تُترك ويُبتعد عنها، لأن هذا ما كان السلف يفعلونه.

وإنما يقول العلماء: أنها وردت من الغرب كانوا يقولون: السيدة فلانة، السيدة فلانة، فهذه الألفاظ ينبغي أن يُبتعد عنها، ولذلك السلف ما كانوا يقولون السيدة عائشة كانوا يقولون: أم المؤمنين، أم عبد الله، وهكذا، ما كانوا يقولون السيدة عائشة، السيدة خديجة.

أيضًا إطلاقها على آل البيت فيقول: السادة آل البيت، فهذا ما كان يُعرف عند السلف أيضًا، ولذلك أنكر العلماء هذا اللفظ يقولون: لا أصل له، والأفضل أن الإنسان يتقيد بالألفاظ التي جاءت في الشرع أو مما أُثر عن السلف، لأنهم كانوا على الكتاب والسنة، فلا يقال –مثلًا–: السادة آل البيت، وهكذا، فالأفضل أن تُترك.

ومن الفوائد: أنه يطلق على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تبارك، وتبارك لا تطلق إلا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبارك في ذاته، ومبارك في فعله، أو مبارك في من شاء من خلقه، فهو مبارك في ذاته ومبارك في فعله.

فالبركة في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ؛ أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو العظمة والكبرياء، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو العظمة والكبرياء.

وأيضًا هو المبارِك هو الذي يضع البركة في من شاء من خلقه، فيجعل هذا الرجل مبارك، ويجعل هذا الطعام مبارك، ويجعل هذا المكان مبارك، وهذا الوقت مبارك، فالبركة من الله.

ولذلك جاء في صحيح البخاري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ».

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ» :اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا».

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ :«اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِيبُكُورِهَا»، فالبركة من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فتُسأل منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى متعالي، فهو متعالي في ذاته سبحانه، فهو فوق خلقه عالٍ على عرشه منفصل عن خلقه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ليس حال فيهم ولا هم حالون فيه، فهو فوق العرش سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأيضًا متعالٍ في صفاته فله أعظم الصفات.

ومن الفوائد: أنه ينبغي ألا يغلو الإنسان في الألفاظ، ولذلك هؤلاء الوفد لما قالوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَفْضَلُنَافَضْلًاوَأَعْظَمُنَاطَوْلًا"، نهاهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك لئلا يغلو حتى يتجاوزوا الحد.

وإن كان هذه الألفاظ صحيحة بالنسبة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو أفضل الفضلاء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، وأعظمهم طولًا وأجودهم، ولكن نهاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سدًا لطريق الشرك، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ كان حريص على ألا يقع الإنسان في الغلو، والغلو سبب للهلاك.

ولذلك يقال: أنه ما من أناس هلكوا إلا بسبب الغلو، فالجهمية –مثلًا– غلو في التنزيه حتى نفوا صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، والرافضة أيضًا غلو في آل البيت حتى عبدوهم من دون الله وحتى كفَّروا الصحابة لذلك، والخوارج غلو حتى قالوا عن فاعل الكبيرة كافر، وهلمَّ جرى.

فإذا نظرت إلى أهل البدع فتجد أن الذي أهلكهم هو الغلو، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:«فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُالْغُلُوُّ»، قال:»إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ»، فيحذر الإنسان من الألفاظ التي قد تجره إلى الغلو في الأشخاص.

حتى في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له مقام مقامه أنه رسول يوقَّر ويحترم، وأيضًا أنه عبد فهو عبد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يتعبد لله ويتذلل له ويخضع له ولا يُرفع فوق منزلته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ،فلا يُظن فيه أنه يعلم الغيب، أو أن له تصرف في

الكون، أو أنه يحيي ويميت، أو أنه يدخل من شاء الجنة ويخرج من شاء من النار، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له من هذا شيء، وإنما هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عبد ورسول كريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهو من حيث الفضل هو أفضل الخلق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومع ذلك فهو عبد لله عَزَّ وَجَلَّ.

وذلك أن الحقوق ثلاثة أنواع:

الأول: حق لله لا يشاركه فيه معه أحد وهو حق التعبد والتذلل والتعظيم بالأسماء والصفات واعتقاد الربوبية، فهذا الحق لله لا يشرك مع الله عَزَّ وَجَلَّ فيه أحد غيره.

الحق الثاني: حق للرسل ومنهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحقهم التوقير والتصديق والاحترام والمجاهدة معهم في سبيل الله، ونحو ذلك مما هو من حقوقهم، واعتقاد أن ما قالوه صدق وأنهم أفضل البشر أفضل الناس من بني آدم وهكذا، هذا حق للرسل.

الثالث: حق مشترك بين الله عَزَّ وَجَلَّ ورسله وهو الإيمان، فتؤمن بالله وتؤمن برسله، فلو آمنت بالله وما آمنت برسله فلست بمؤمن، ولو آمنت بالرسل ولم تؤمن بالله فلست مؤمن، فلابد أن تجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل، فهذا حق مشترك وهو لله أصلًا وللرسل تبعًا لحق الله.

فالفائدة هنا: أن الإنسان يحذر من الغلو في الكلمات.

ومن الفوائد: أن بعض المدح جائز، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ»؛ يعني: المعتاد يا رسول الله، يا نبي الله، فالمدح المعتاد الذي مبناه على الصدق ويكون فيه مصلحة هذا جائز.

وإن كان الأفضل أن يبتعد عن المدح إلا إذا كان هناك مصلحة وكان صدق، ويترتب عليه مصلحة فيجوز هنا المدح، والأفضل أن يكون المدح في غير وجه الشخص فيقال في غيبته: هذا الأفضل، لأنه إذا كان في حال حضوره فقد يوقع في قلب الشخص شيء من العجب فيهلك بسبب هذا المدح.

ولذلك أتى رجل إلى عثمان رَضِي اللهُ عَنْهُ فمدحه، فقام أحد الصحابة فحثى في وجهه التراب، فقال: مه؟ فقال: أني سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:«احْثُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ».

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجل لما مدح أخاه:«وَيْلَكَ، قَطَعْتَ رقبته».

فالمدح قد يوقع في قلب الشخص عجب ونحو ذلك، وخاصة إذا كان هذا الشخص غير أهل لهذا المدح، كأن يكون –مثلًا– ظالم أونحو ذلك، أو غير صالح فيقال عنه: أنت فلان الذي فيك وفيك من المدح، وعلى سوى عمل هذا الشخص فقد يقع في قلبه عجب فيظن أنه كذلك، والأصل الابتعاد عن المدح إلا إذا كان يسير فيه مصلحة.

ومن الفوائد: أن الشيطان قد يستخدم الشخص في أغراضه، وأغراض الشيطان من أعظمها الإغواء عن طريق الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك ابن القيم لما ذكر حالات الشيطان مع الإنسان أنها سبعة وقال: "آخرها أن يثير عليه جنوده"؛ يعني: إذا ما قد رأى الشخص لم يوقعه في الشرك، ولم يوقعه في البدعة، ولم يوقعه في الكبيرة، ولم يوقعه في الصغيرة، ولم يوقعه في المكروه، ولم يوقعه في المفضول دون الفاضل.

أتى إلى المرحلة السابعة وهي أنه يثير عليه جنده حتى يقعوا في عرضه ويشتموه ويقعوا فيه، فالشيطان قد يجعل الإنسان رسول له، وقد يتعاظم الشخص حتى يكون الشيطان مثله أو أقل منه، كفرعون –مثلًا– فرعون وصل إلى مرحلة فوق الشيطان ادعى الربوبية من دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك الإنسان عليه أن يحذر من خطوات الشيطان، الشيطان قد يأتي إلى الشخص من طرق فينظر إلى هذه الطرق فيسد هذه الطرق ومنها الغلو، من طرق الشيطان الغلو، ولذلك ما عُبدت القبور وعُبدت الأضرحة إلا بسبب الغلو.

قال الشيطان لهم: إن دعاء الصالحين والذبح لهم والتقرب لهم من محبته، فظنوا أن هذا كذلك فوقعوا في الشرك، ووقعوا في ما هو من أبغض الأشياء إلى الصالحين، ووقعوا في أن

نازعوا الله عَزَّ وَجَلَّ بخلقه, فجعلوا عباده شركاء له بسبب الغلو والشيطان الذي سول له، فهو يوقع الإنسان في أن هذا الشيء يحبه الله، وأنه يقرب إلى الله، ثم يقع في أمر لا يحبه الله وهو لا يدري، وفي أمر يبغضه الله وهو لا يدري، فيحذر الإنسان من ذلك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن أنس رَضِي اللهُ عَنْهُ أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله: يا خَيرَنَا وَابْنَ خَيْرِنا ، وسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». رواه النسائي بسند جيد.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال: **وعن أنس رَضِي اللهُ عَنْهُ أنَّ ناسًا**، ناسًا؛ يعني: مجموعة من الناس ، والإنسان سمي بذلك لأنه يأنس لمن يجالسه، ولا يحب الاعتزال.

وقيل: سموا أناسًا من النوس، وهو الاضطراب والحركة، لأنهم يذهبون ويأتون ويتحركون.

وقيل: سمي إنسانًا لأنه ينسى، وينسى ما كان منه في الماضي، قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ:{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}[طه: ١١٥]، فالإنسان ينسى، والنسيان من نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ على الإنسان، لأنه لو بقي يتذكر ما حصل له في حياته قد لا يعيش بسبب هذا الشيء.

قالوا: يا رسول الله، (الياء) هنا ياءالنداء.

يا رسول الله؛ يعني: يا مرسل من الله، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسل من الله فهو مبعوث من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى برسالة.

قالوا: **يا خَيْرَنَا**؛ يعني: يا عظمنا خيرة.

وَابْنَ خَيْرِنَا؛ يعني: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن خيرهم.

وسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا؛ يعني: يا من له الشرف علينا، ومن هو ابن له الشرف علينا.

فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ»» ،يَا أَيُّهَا النَّاسُ»، هنا نداء من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس، والناس هنا عام أريد به الخصوص، فاللفظ خاص والمعنى عام.

فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ»؛ يعني: يا من أخاطبهم هؤلاء.

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ»؛ يعني: المعتاد.

«وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ»؛ يعني: لا يستهويكم بحيث يُقعكم في الهوى، ويوقعكم في ما لا يجوز.

«أَنَا مُحَمَّدٌ»، محمد، سُمي به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لكثرة محامده، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلاَمَ كثير المحامد.

«أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ» ،«عَبْدُ اللهِ»؛ يعني: المتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ حبًا وتعظيمًا وخضوعًا.

«وَرَسُولُهُ»؛ يعني: مرسل منه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وقدم العبودية على الرسالة لأن أشرف مقامات الإنسان أن يكون عبد لله، أشرف ما يكون الإنسان أن يكون عبد لله، أشرف المقامات هي مقام العبودية.

ولذلك قدم العبودية على الرسالة فالإنسان كونه يكون عبد لله فهذا أشرف مقام للإنسان، والإنسان كل ما تذلل لله وخضع رفعه الله وأعزه وجعل له المقامات العظيمة، وكل ما تكبر على الله عَزَّ وَجَلَّ وعصى الله عَزَّ وَجَلَّ وترك طاعة الله فإن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يذله ويخزيه حتى يكون من أذل المخلوقات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ}[الحج: ١٨].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[التين: ٥].

فالإنسان إذا أراد أن يتكبر على الله عَزَّ وَجَلَّ ويترك عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ ويحارب أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ ويريد أن له العزة، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يذله ويهينه.

قال:«أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ»؛ يعني: ما أود، والمحبة هي ميل القلب إلى المراد.

«مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي»،ترفعوني بقولكم.

«تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي»،وهذا يدل على أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ له منزلة، لا يتجاوز الإنسان هذه المنزلة.

قال:«الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ له منزلة والتي أنزله إياها هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذه المنزلة ذكرها قبل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ وهي منزلة العبودية ومنزلة الرسالة، فهو عبد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لا يُعبد، ورسول لا يُكذب ويوقَّر ويُصدق.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الإنسان عليه أن يحذر من الغلو في ألفاظه، ولذلك لما قالوا:(يا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا ، وسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا)، أنكر عليهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، مع أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ خير البشر ، وهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ من أفضل الناس نسبًا ، نسب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الناس نسبًا.

ولذلك جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ إِسْمَاعِيلَ من وَلَدِ إبراهيم، واصطفىٰ كنانة من إسماعيل، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَىٰ بني هاشم مِنْ قُرَيْشٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ خير الناس من حيث النسب، وأيضًا من بني هاشم وهم خير الناس نسبًا، فأفضل هذه الأمة نسبًا هو نسب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك كان الإمامة في قريش، وكان بنو هاشم لا تُدفع إليهم الزكاة حُرمت عليهم الزكاة، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ من خير الناس ولكنه مع هذا أنكر عليهم حتى لا يغلو فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

ومن الفوائد: أنه يجوز للإنسان أن يقول بقوله المعتاد، فيقول: يا رسول الله، يا نبي الله، فهذا جائز، ولذلك قال :«قُولُوا بِقَوْلِكُمْ»؛ يعني: المعتاد.

ومن الفوائد: أن الشيطان قد يوقع الإنسان في الهوى فيظن أنه على صواب وهو على خطأ، فالشيطان يزين الطرق للإنسان ولا يأتيه بصورة العمل على ما هو عليه، فالمعاصي

والسيئات ونحو ذلك هي في ذاتها ليست بحسنة، ولو رأى الإنسان صورة المعاصي على ما هي عليه لابتعد عنها، ولكن الشيطان يزين هذه الصورة ويحسنها في عين الإنسان حتى يراها على غير ما هي عليه.

فمثلًا: الكذب سيء في ذاته ، وصورة الكذب سيئة ، ولكن الشيطان يُحسن الكذب – مثلًا–فيقول لك:فيه مصلحة، والكذب قد يجوز في مكان، وقد يُحسن الكذب على الإنسان حتى يراه أنه حسن، وهكذا الشيطان في الطرق، فيحذر الإنسان من تزيين الشيطان فهو يوقع في قلب الإنسان الهوى حتى يقع في المعاصي.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، بل إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخص الناس عبادة، وذلك أن العبادة عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ثلاثة أنواع:

عبادة عامة، وهذه لا يخرج عنها أحد، جميع الخلق داخلون في هذه العبادة شاءوا أم أبوا، وهذه عبادة القهر والذل الكوني، فجميع الخلق مُذللون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى مقهورون له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى تجري عليهم أحكامه الكونية؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[مريم: ٩٣-٩٥].

فجميع الخلق مهما وصلوا إليه ومهما ذهبوا إليه فهم عبيد لله في هذه العبودية العامة لا يخرجون عنها، أحد جميع الخلق من إنس وجن وملائكة ومؤمنون وكفار وبر وفاجر، جميعهم داخلون في هذه العبادة العبودية العامة التي هي عبودية القهر والذل والخضوع لأحكام الله الكونية.

الثاني: عبادة الاختيار، وهذه عبادة خاصة بالمؤمنين، وهذه العبادة فيها اختيار الإنسان بحيث أنه يختار التعبد وهي التذلل لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بفعل أوامره واجتناب نواهيه حبًا وتعظيمًا، وهذه خاصة بالمؤمنين ومن تعبد لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى باختياره؛ كما قال سُبْحَانَهُ

وَتعَالَى} :وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}[الفرقان: ٦٣].

الثالث: عبودية أخص، وهي عبودية الرسل والأنبياء ومنهم نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أعظم الناس في هذه العبادة؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}[ص: ٤٥].

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لنبيه:}سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ}[الإسراء: ١].

وقال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في أول سورة الكهف: ال}الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا}[الكهف: ١].

فهذه عبودية أخص من الأولى وهي عبودية الرسل، وهي أعظم من عبادة ما سواهم من الناس.

والتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ على درجات، فأعظم الناس عبادة لله عَزَّ وَجَلَّ هم الرسل والأنبياء، وأعظمهم عبادة هم أولو العزم، وأعظم أولو العزم هو نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد لله يتذلل لله حبًا وخضوعًا وتعظيمًا واستكانة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولذلك كان يسجد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ويطيل السجود، والسجود من أعظم ما يتذلل به الإنسان لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وقد جاء في الأثر أن أبا طالب قيل له: لِمَ لا تسجد؟ قال:أفأسجد فتكون استي فوق أنفي يعلو على أنفي؟ يقول: يكون أنفي في الأرض،واستي: يعني: مقعدته أعلى، كأنه يقول: هذا ما ينبغي لي أن أفعله.

فالسجود من أعظم الذل، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر السجود لله، بل إنه كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ يسجد، وقالت أحد أمهات المؤمنين: يا رسول الله سجدت معك حتى خفت أن يخرج ما في أنفي من الدم بسبب طول السجود، فكان يتذلل لربه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ، وهكذا المسلم عليه أن يقتدي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول، والرسول يأتي برسالة وله مرسل وهو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول والرسول أعلى من النبي، فكل رسول نبي ولا عكس وليس كل نبي رسول.

ولذلك عرَّف العلماء أن الرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، هذا تعريف جمهور العلماء.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحب أن يُغلى فيه، وعلى هذا الذين يدعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دون الله ويذبحون له ويتوجهون له في الدعاء فهؤلاء من أبغض الناس لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفعلوا الذي يبغضه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبغض الغلو فيه، فكيف بالتعبد له و جعله آلهة مع الله؟!

هذا أشد بغض للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأشد كراهة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك الذين يقولون: يارسول الله اشفع لي، يارسول الله ادعو الله لي، هؤلاء وقعوا فيما هو من أبغض الاشياء لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل إن رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءت لتحذِّر من هذا الشيء.

ومن الفوائد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له منزلة، و جميع الخلق لهم منازل حتى الملائكة، فلكل مخلوق منزلة لا يتجاوز هذه المنزلة، والذي أنزلهم إياها هو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[الصافات: ١٦٤]؛ يعني: معلوم لا يتجاوزه.

و جاء في الأثر ن جبريل لما عرج بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوصل إلى فوق السماء السابعة توقف فقال: "لو تجاوزت مكاني لاحترقت"،فجميع الخلق لهم منزلة، والذي له الكبرياء والإحاطة هو الله وحده لا شريك له، و جميع من سواه فهم عبيد له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لهم منازل لا يتجاوزونها.

فإذا أراد الإنسان أن يتجاوز المنزلة التي أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ إياها أذلَّه الله؛ ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عن الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ

نَجْزِي الظَّالِمِينَ{[الأنبياء: ٢٩]، فمن أراد أن ينازع الله عَزَّ وَجَلَّ فيما هو من خصائصه فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعذبه.

ففي هذا الباب الذي ذكره المؤلف فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذَّر من الغلو في الأقوال، فيحذر الإنسان من الغلو في الأقوال فيحذر من ذلك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: }وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ{[الزمر: ٦٧]

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب ما جاء في قول الله تعالى:** }وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{[الزمر: ٦٧] .

مناسبة هذه الآية أو هذا الباب لكتاب التوحيد: أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يختم هذا الكتاب بذكر تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وما جاء في ذلك من النصوص، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو المستحق للعبادة دون غيره.

قال: **باب ما جاء**؛ يعني: ما جاء في هذا الباب.

باب ما جاء في قول الله تعالى؛ يعني: في هذه الآية الكريمة.

}وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ{، (ما) نافية.

}قَدَرُوا اللَّهَ{؛ يعني: ما عظموا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

}وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ{؛ يعني: حق تعظيمه.

}وَالْأَرْضُ{؛ يعني: والحال أن الأرض،}وَالْأَرْضُ جَمِيعًا{؛ يعني: بحذافيرها جميع الأرض.

}قَبْضَتُهُ{؛ يعني: في قبضة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، بحيث أنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يقبض عليها بيده الكريمة.

}يَوْمَ الْقِيَامَةِ{؛ يعني: في ذلك اليوم تكون الأرض جميعًا في يد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قابض عليها.

}وَالسَّمَاوَاتُ{، السماوات يعني: السبع.

}مَطْوِيَّاتٌ{؛ يعني: تطوى هذه السماوات السبع كطي سجل للكتب.

}بِيَمِينِهِ{؛ يعني: بيمين الرحمن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ففي الآية الكريمة: أن الكفار ما قدروا الله عَزَّ وَجَلَّ وما عظموه حق تعظيمه، وهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى العظيم الذي يجعل هذه المخلوقات العظيمة في يديه، فيقبض الأرض سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ويطوي السماوات السبع فتكون في يده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى صغيرة، فإذا كان الأمر كذلك فإن الناس عليهم أن يعظموا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فهو أكبر من كل شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: }وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ{[الزمر: ٦٧] .

وفي رواية لمسلم: »وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا اللهُ«.

وفي رواية للبخاري: «يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ». أخرجاه.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: عن ابن مسعود قال: "جَاءَ"؛ يعني: ورد على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"حَبْرٌ"، الحبر هو العالم من علماء اليهود.

قال: "حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"؛ يعني:أتى هذا العالم اليهودي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ"، فنادى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسمه العلم.

"إِنَّانَجِدُ"؛ يعني: نجد في التوراة.

"نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ"؛ يعني: يُصير السماوات.

"عَلَى إِصْبَعٍ"؛يعني: السماوات السبع على إصبع من أصابع الرحمن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

"وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ"؛ يعني: جميع الأرضين على إصبع من أصابع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

"والشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ"، أيضًاجميع الأشجار على إصبع من أصابع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: "وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ"؛يعني: أيضًا على إصبع من أصابع الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

"وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ"؛ يعني:الثرى الذي يكون في الأرض.

"وَسَائِرَ الخَلْقِ"؛ يعني: باقي الخلق، وهذا عموم بعد خصوص.

"وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ"؛ يعني: أنا الذي أملك ولي الملك الكامل.

"فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، ضحك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لموافقة هذا الذي في التوراة لما جاء في القرآن.

"فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، ضحك فرح؛ يعني: تبسم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ.

قال: "حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ"،النواجد يعني: مقدمة الأسنان.

قال: "تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ"؛ يعني: مصدقًا لقول هذا الحبر العالم اليهودي.

ثُمَّ قَرَأَ؛ يعني: عند ذلك}وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ{، فالحق موافق لبعضه.

قال:}وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.{

ثم قال: وفي رواية لمسلم: »وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ«؛ يعني: هذه رواية أخرى.

«ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ»، هذه الزيادة أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إذا جعل هذه المخلوقات على أصابعه يهزهن والهز هو التحريك.

«فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا اللهُ»، يمجد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى نفسه الكريمة.

قال:وفي رواية للبخاري: »يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ«. أخرجاه.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد هذا الحديث: أن اليهود يعلمون الحق ويعلمون عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فكثير من اليهود يعرف الحق ويعرف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ولكنه عارض الحق حسدًا وكبرًا، ونحو ذلك مما يكون في النفس.

فكثير من اليهود يعرف الحق ويعرف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسل من الله، ولذلك كانوا يحدثون أهل المدينة ببعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يبعث، وكانوا يقولون للأوس والخزرج: سيخرج رسول نقاتلكم معه فنقتلكم شر قتلة،أونحو ذلك من الكلام.

ولذلك لما لقيا الأوس والخزرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«لا تسبقكم عليه يهود فإن هذا الذي كانت تخبركم به اليهود».

وأيضًا جاء في صحيح البخاري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لليهود:«يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَيْلَكُمْ، اتَّقُوا اللهَ، فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَأَنِّي رَسُولُ اللهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ، فَأَسْلِمُوا»، قالوا: لا نعلم.

وجاء عن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما أسلم قال: يا رسول الله إن يهود قوم بهت، فسأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لماذا؟ فقال: انظر يا رسول الله اسألهم ماذا يقولون عني؟ فقال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تقولون عن عبد الله بن سلام؟»، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، ثم خرج وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فقالوا: هو شرنا وابن شرنا، فقال: انظر يا رسول الله فهم قوم بهت يعرفون الحق ولكنهم يعارضون الحق بسبب الحسد والكبر؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}[النساء: ٥٤].

فأخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه منعهم الحسد بغيًا وحسد، فاليهود كثير منهم يعرف الحق، ولذلك هذا اليهودي يعرف الحق وأتى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ العظيمة، ومع ذلك تركوا الحق حسدًا وكبرًا.

ومن الفوائد: أن الشرائع هي في الأصول واحدة، فالشرائع في تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في السماء، وأن الله هو الإله، وأن القيامة آتية، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الرسل حق، وأن الملائكة حق، والإيمان باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، هذا كله واحد في جميع الشرائع.

ولذلك جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ».

فمن حيث الأصول فأصول الأنبياء واحدة، فالأنبياء يعتقدون أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في السماء، وأن الله هو الإله وحده لا شريك له، وأن الجنة حق، والنار حق، ولذلك فرعون قال لهمان: {ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى}[غافر: ٣٦-٣٧].

ففيه أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامَ أخبره أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في السماء، فالأنبياء من حيث الأصول أصولهم واحدة، وأما من حيث الشرائع أعداد الصلوات، وما يجب، وما يُنهى عنه الإنسان، هذه تختلف من أمة لأمة.

ومن الفوائد: أن السماوات سبع، وهذا ثابت بالكتاب والسنة؛ لأنه قال:«يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ»،والسماوات جمع سماء، والسماء هو ما سما وعلا.

في اللغة يقولون: سما البصر إذا علا، فكل ما علاك فهو سماء، والمراد هنا السماء المبنية وهي سماء لها جرم ولها أبواب وليست هواء كما يقول بعض الناس، بل هي لها أبواب ولها جرم، ولذلك سيأتينا في الحديث أن سُمك السماء خمسمائة عام، فهي سماء عظيمة ولها جرم ولها أبواب وهي سبعة سماوات، والأدلة على هذا من الكتاب والسنة كثيرة.

ومن الفوائد: أن الأرضين أكثر من أرض؛ لأنه قال: والأرضين، ولذلك ثبت أن الأرضين أيضًا سبع كما جاء في حديث عبد الله بن زيد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:« مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى} :اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ{[الطلاق: ١٢]؛ يعني: هن كذلك وليس في الوصف، مثلهن في العدد، فالأرضين سبع.

ومن الفوائد: أن لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أصابع، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقر هذا الحبر قال:«يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ»، إلخ.

فلله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أصابع وهي من صفاته الذاتية سُبْحَانَهُ وَتعَالَى التي لا تشابه خلقه، فلله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى صفات تليق به سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وفي هذا الحديث أنه ذكر خمسة أصابع فهل يؤخذ من هذا أن لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خمسة أصابع؟

فالجواب: أن الإنسان يسكت عن مثل هذا لأن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم لم تكلموا في مثل هذا، ولأن بعض الروايات ذُكر أكثر من خمسة، ولكن لا تثبت، يعني:أكثرمن خمسة لا يثبت.

وفي بعض الروايات ثلاثة كما في الحديث الذي بعده قال:«السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ»؛ يعني: هذه الرواية فيها ثلاث أصابع، ولكن نثبت الأصابع ولا نسأل كم العدد، لأن هذا حال السلف كانوا يثبتون من غير أن

يعدوا، وإن كان بعض العلماء يرى أن لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خمسة أصابع، ولكن التوقف في مثل هذا أحسن لأنه لابد من دليل.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عظيم كبير أكبر من كل شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وذلك أنه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يجعل هذه المخلوقات العظيمة الكبيرة على أصابعه، السماوات حجمها كبير، والأرضين حجمها أيضًا كبير، وسائر الخلق أحجامها كبيرة، ومع هذا يجعلها الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على أصابعه، فالمخلوقات بالنسبة لله عَزَّ وَجَلَّ صغيرة ليست بشيء فهو أكبر من كل شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ولذلك سيأتينا أن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وسُمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، ومع هذا يجعلها الله عَزَّ وَجَلَّ على أصابعه، وسائر الخلق؛ يعني: جميع الخلق، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أكبر من كل شيء، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلا الآية بعدما ذكر هذا الحبر هذا القول.

ومن الفوائد: أن الضحك عند موضعه مدح أو محمود، الضحك قد يكون محمود في موضعه، فيكون صفة مدح فإذا كان في محله فهو صفة مدح، ولذلك آخر رجل يدخل الجنة يقول الله عَزَّ وَجَلَّ» :أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مِنْ مِلُوكِ الدُّنْيَا»، فيقول العبد: أتهزأ بي وأنت الملك؟ فضحك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى منه، الضحك هنا صفة مدح لأنه في موضعه،فهذا العبد يظن أن هذا شيء عظيم، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عليه يسير.

وأيضًا هنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضحك عند موضعه، لأن الضحك هنا مدح، وأما الضحك في غير موضعه فقد يكون صفة ذم، قد يكون استهزاء، قد يكون في غير ذلك مما لا يليق، أما إذا كان في موضعه فهو صفة مدح.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ضحكه التبسم، ولذلك تقول عائشة: ما ضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى رؤي لهاته ؛ يعني: ما يضحك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ ضحك شديد وإنما يتبسم، وإذا اشتد ضحكه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ بدت نواجذه، أما أن يقهقه فلم يكن يفعل ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ وإنما كان يتبسم تبسمًا.

ومن الفوائد: أن ما كان في الشرائع الماضية قد يوافق ما في شرعنا، وما جاء عن الأمم الماضية لا يخلو من ثلاث حالات:

- الحالة الأولى: أن يصدقه الكتاب أو السنة، فنأخذ به ونصدق به ونرى أنه حقًا، كهذا الحديث لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدق هذا الحق.

- الحالة الثانية: أن لا يصدقه الكتاب والسنة ولا ينكره، لا يصدق في شرعنا ولا يُنكر، فهذا لا نصدقه ولا نكذبه، لما جاء فيه الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بما أُنزل إلينا وأنزل إليكم»، لأن قد نصدق بباطل وقد ننكر حق، فلا نصدق ولا نكذب.

- الحالة الثالثة: أن يأتي في شرعنا ما يكذبه، فهذا نرده ولا نصدق به، كما لو قال -مثلًا- يهودي أو نصراني: إن إبراهيم كان من اليهود والنصارى، لو قال هذا نرد هذا القول، ولو أتى بنص نقول: هذا القول غير صحيح؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى قال: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} [آل عمران: ٦٧].

فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أخبرنا بأنه مسلم وأنه لم يكن لا يهودي ولا نصراني، فنرد هذا القول.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إذا أخذ هذه المخلوقات يوم القيامة يهزهن، وهذا فيه أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يري الخلق أنه العظيم والجليل.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان على المنبر وكان يقول بيده هكذا يهزها يمجد الرب نفسه فيقول: «أَنَا الْمَلِكُ أَنَا اللهُ»، قال ابن عمر: فرأيت المنبر يهتز برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: أساقط برسول الله؟ فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يهز هذه المخلوقات ليبين سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أنه الإله الذي لا إله إلا هو.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى هو الملك حقًا، فملك الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى ملك حقيقي، بمعنى: أن جميع المخلوقات هي ملك لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى خلقًا ورجوعًا، فالمخلوقات هي من الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وراجعة إليه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّبعَ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

قَالَ الشَّارِحُ وفقه اللَّهُ:

قال: **ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا**؛ يعني: مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ»؛ يعني: يطوي هذه السماوات كطي السجل للكتب.

«يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ يعني: في يوم القيامة في ذلك اليوم.

«ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ»؛ يعني: بعد ذلك يأخذ هذه السماوات بيده يمنى.

«ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»، يقول بعد ذلك أنا الملك.

«أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟»، الجبارون جمع جبار، والجبار هو الذي لا ينثني ولا يقبل الحق.

«أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»، المتكبرون جمع متكبر وهو الذي يرى نفسه أعظم مما هي عليه ويريد العلو لنفسه الضعيفة.

«ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ»؛ يعني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أيضًا يطوي الأرضين السبع.

«ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ»؛ يعني بيده الشمال سُبْحَانَهُ وَتعَالَى وسيأتينا هل هذه اللفظة ثابتة بشماله أم لا إن شاء الله.

قال: «ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»؛ يعني: بعد ذلك يقول: أنا الملك.

«أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ»، وهذا سؤال من الله عَزَّ وَجَلَّ ولا يجيب أحد، لأن الخلق قد ماتوا ولم يبقى إلا الواحد القهار سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالجبارون والمتكبرون قد ماتوا وذهبوا.

ولذلك جاء في حديث الصور الطويل أنه يقول: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ»، فلا يجيب أحد، فيقول: «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار»، ليس هناك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كما أنه كان أول ليس قبل الشيء فهو آخر ليس بعد الشيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذا الحديث فيه فوائد:

من فوائد الحديث: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يطوي السماوات يوم القيامة، وهذه المخلوقات السماوات والأرض هي مخلوقات مؤقتة وليست دائمة؛ بمعنى: أن لها يوم تنتهي فيه، هذه السماوات وهذه الأرضين لها يوم تنتهي فيه فهي ليست دائمة كالجنة والنار، ولذلك يأخذ الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى السماوات والأرضين وتنتهي الدنيا.

ومن الفوائد: أن لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى يمين؛ يعني: يد يمين فنثبت هذا، والأدلة على هذا كثيرة:

منها: ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيبَ إلا أخذها الله عَزَّ وَجَلَّ بيمينه»، الحديث.

وجاء في الحديث أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامَ قال: " اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِين"، فاليمين ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

ومن الفوائد: أن لله عَزَّ وَجَلَّ يد شمال، من هذا الحديث، ولكن هذه اللفظة اختلف فيها العلماء هل هي ثابتة أم شاذة؟

ولذلك هذه اللفظة قيل: أنها شاذة وقد رويت من طرق غير هذا الطريق ولم تذكر بشماله، ولذلك توقف كثير من العلماء عن إثبات الشمال، وقد دل أدلة أخرى أنه لا يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بشمال.

ولذلك في الحديث الذي فيه أن آدم قال: "اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيْه يَمِين"، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ».

وقال: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عزوجل، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ».

فالمراد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ يوصف باليمين ويقال يده الأخرى ولا يقال الشمال.

ومن العلماء من أثبت الشمال من حيث الاسم، وأما من حيث الفضل فهي يمين ليس كالمخلوق شماله أنقص من يمينه، هذا ليس إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ، بل إن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ كلتا يديه يمين في الفضل والعظمة.

فقال: نثبت الشمال ولكن نقول: كلتا يديه يمين في الفضل وفي الكرم وفي الكمال، وهو اختيار المؤلف رَحِمَهُ اللهُ مؤلف الكتاب والدارمي قبله.

ولكن كثير من العلماء ما أثبت الشمال لأن هذه اللفظة غير ثابتة، يرى أن هذه اللفظة غير ثابتة، ولكن لو ثبتت اللفظة فلا إشكال، إذا أثبتنا الشمال فهي يمين من حيث الكمال ومن حيث الفضل ومن حيث الكرم ومن حيث الجلال؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وروي عن ابن عباس قال: "ما السَّماواتُ السَّبعُ والأَرَضُونَ السَّبعُ في كَفِّ الرَّحمنِ إلَّا كَخَرْدَلَةٍ في يَدِ أَحَدِكُمْ".

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أنه قال: "ما السَّماواتُ السَّبعُ"؛ يعني: جميع السماوات السبع.

"ما السَّماواتُ السَّبعُ والأَرَضُونَ السَّبعُ في كَفِّ الرَّحمنِ"؛ يعني: في كف الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ.

"إلَّا كَخَرْدَلَةٍ"؛ يعني: قطعة صغيرة.

"كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ"؛ يعني: كما أن الإنسان يضع في يده قطعة صغيرة من الحديد ونحو ذلك تكون صغيرة، كذلك السماوات السبع والأرضين في يد الله هكذا.

هذا الأثر فيه فوائد:

منها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى له كف وهو ثابت في هذا الأثر وغيره، فالله عَزَّ وَجَلَّ ثبت له اليدين، وثبت له الأصابع، وثبت له الأنامل، وثبت له البسط، وثبت له القبض، وثبت له أنه يحثوا بيده سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فكل هذا ثابت بالأدلة، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس كمثله شيء فأثبت على قاعدة:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[الشورى: ١١]، تثبت من غير تنفيه، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى له صفات.

ومن فوائد هذا الأثر: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عظيم، فهذه المخلوقات العظيمة الكبيرة تكون في يد الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى صغيرة ليست بشيء.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما السَّماواتُ السَّبعُ في الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبعَةٍ أُلقِيَتْ في تُرْسٍ»**.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :**«ما السَّماواتُ السَّبعُ في الكُرْسِيِّ»**.

الكرسي هو موضع قدمي الرب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسند صحيح.

«إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبعَةٍ»؛ يعني: كسبعة دراهم.

«أُلقِيَتْ في تُرْسٍ»، ترس هنا يعني: الأرض الواسعة، فالسماوات السبعة عند الكرسي كأنها سبعة دراهم ألقيت في أرض واسعة هذه السماوات السبعة، والكرسي عند العرش

كسبعة دراهم ألقيت بين أرض واسعة فإذا كان كذلك فكيف بالذي أنشأها وخلقها؟ وكيف بالذي يجعلها على أصابعه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

هذا يدلك على أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عظيم وأنه أكبر من كل شيء سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولذلك المخلوقات جميع المخلوقات عند الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى صغيرة ليست بشيء فهو أكبر من كل شيء، فهو محيط بالخلق سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بقدرته وعظمته وجلاله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما الكُرسِيُّ في العَرْشِ إلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَديدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَي فَلاةٍ مِنَ الأَرضِ».

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

قال: وقال أبو ذر: سمعته رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:«ما الكُرسِيُّ»؛يعني: الذي تقدم أنه موضع قدمي الرب سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«في العَرْشِ»، والعرش غير الكرسي، لأن العرش هو السريرذوالقوائم الذي استوى الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، يعني: علا عليه علو خاص يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا نعلم كيف ذلك، ولا يعلم ذلك إلا هو، وهل له كيفية ؟ يعني هل استواء الله عَزَّ وَجَلَّ على العرش له كيفية؟

الجواب: نعم له كيفية ولكنها مجهولة لنا معلومة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فالله عَزَّ وَجَلَّ استوائه على العرش له كيفية ولكن هذه الكيفية مجهولة لنا معلومة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال:«ما الكُرسِيُّ في العَرْشِ»؛ يعني: هذا الكرسي الذي تقدم أنه بهذه السعة عند السماوات السبع،«إلَّا كَحَلَقَةٍ»، الحلقة هي القطعة من الحديد المستديرة.

«مِنْ حَديدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَي فَلاةٍ»؛ يعني: أُلقيت هذه الحديد القطعة الصغيرة بين أرض واسعة.

«فَلاةٍ»؛ يعني: الأرض الواسعة من الأرض.

فالكرسي عند العرش كأنه قطعة حديد أُلقِيت في أرض واسعة، صحراء واسعة لا يُرَى سعة هذه الأرض، هذا الكرسي عند العرش.

والسموات السبع التي سيأتينا كيف حجمها عند الكرسي؟ سبعة دراهم ألقيت في أرض واسعة، وهذه كلها مخلوقات، فكيف بالذي خلق هذه المخلوقات وأوجدها سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟

قَال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن ابن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: "بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسمِائَةِ عَامٍ وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وسماء خَمْسُمِائَةِ عَامٍ وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ لا يَخْفىٰ عليه شيءٌ مِن أَعمالِكُمْ". أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله وروراه بنحوه عن المسعودي عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله.

قاله الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ. قال: "ولهُ طُرُقٌ".

قَال الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

قال:وعن ابن مسعود رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: "بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسِمِائَةِ عَامٍ"؛ يعني: السماء الدنيا للتي تلي الأرض سميت دنيا لأنها أقرب إلى الأرض.

"السَّمَاءِ الدُّنْيَاوَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسِمِائَةِ عَامٍ"، بين السماء الدنيا و التي تليها خمسمائة عام، يعني: السماء الدنيا و التي بعدها بينهما خمسمائة عام.

ثم ذكر: "وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وسماء خَمْسُمِائَةِ عَامٍ"؛ يعني: السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، والتي تليها خمسمائة عام، والتي تليها خمسمائة عام، إلى السماء السابعة.

والكرسي؛يعني: من السماء السابعة إلى الكرسي خمسمائة عام.

"وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ"؛ يعني: فوق الكرسي فوقه الماء.

"خَمْسُمِائَةِ عَامٍ,وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ"؛ يعني عرش الرحمن سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فوق الماء.

"وَاَللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ"؛ يعني: عالٍ عليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

"لا يَخْفى عليه شيءٌ مِن أَعمالِكُمْ"؛ يعني: ما يخفى على الله عَزَّ وَجَلَّ شيء من أعمال الخلق.

هذا الأثر فوائد:

من فوائد الأثر: أن السماوات حجمها عظيم، حجم السماوات عظيم، فلو أراد الإنسان أن يسير من سماء إلى سماء لبقي يسير خمسمائة عام، خمسمائة عام وهو يسير حتى يصل إلى السماء التي تليها، وعلى هذا حتى يصل إلى السابعة.

فإذا كان هذا يقطع في هذا الوقت الطويل فكيف بحجمها؟ فحجمها عظيم، ومع هذا هي عند الكرسي كدراهم سبع أُلقيت في أرض واسعة، والكرسي مع حجمه عند السماوات هو كحلقة؛ يعني: قطعة حديدألقيت في أرض واسعة عند العرش، فإذا كان هكذا المخلوقات فكيف بالذي خلقهاوالمحيط بالعرش الذي هذه المخلوقات تكون على أصابعه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى؟ هذا يدلك على أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عظيم.

ولذلك لا تحيط العقول بعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، ولا يقدر الإنسان أن يتصور لله عَزَّ وَجَلَّ عظمة، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أعظم مما تحيط به العقول.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ لا يمكن أن يحاط به، وإن كنا نعلم شيء من معاني صفات الله عَزَّ وَجَلَّ ولكن لا نحيط بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، لأنه أعظم وأجل من أن تحيط به عقولنا الضعيفة.

ومن فوائد الأثر: أن الكرسي دون الماء، لأنه قال: الكرسي خمسمائة عام ثم بعدها الماء.

ومن الفوائد: أن العرش على الماء، فيؤخذ من هذا أن عرش الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على الماء وهو الآن على الماء، ولذلك إبليس أراد أن يتشبه بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فأتى فوضع عرشه على الماء ويريد التشبه بالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، فإبليس الآن يضع عرشه على الماء.

ولذلك جاء في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَضَعُ إِبْلِيسَ عَرْشَهُ عَلَىْ مَاءٍ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فأعظمهم قرب منه أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً»، الحديث، فعرش الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى على الماء فوق الماء.

ومن الفوائد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فوق العرش، فهو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى عالٍ على العرش علو خاص يليق بجلاله وعظمته، فالله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في العلو في السماء فوق عرشه وهذه العقيدة ثبتت في الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

فكل هذه الأدلة تدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في السماء وأنه عال على العرش، ومع ذلك يأتي من الناس من ينفي هذا الشيء فيقع في الضلال البعيد فينفي الحقائق، فدلالات القرآن على علو الله كثيرة:

منها: الإثبات أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في العلو.

ومنها: صعود الأشياء إليه.

ومنها: نزول الأشياء منه.

ومنها: التصريح بأنه في السماء في العلو.

والأدلة على هذا كثيرة.

وأيضًا ثبت في السنة الفعلية بحيث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مد إصبعه إلى السماء يشير إلى الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

وأيضًا في السنة اللفظية، قال: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَىٰ».

وأيضًا في السنة الإقرارية,فأقر الجاري على أن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في السماء.

وأيضًا بالفطرة ما من مخلوق ذو شعور إلا ويشعر من نفسه إذا طلب الله أن يتجه إلى السماء، ما من مخلوق ذو شعور أراد أن يطلب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى إلا شعر من نفسه انجذابًا إلى العلو، كل المخلوقات حتى النمل، حتى البهائم، حتى الوحوش تطلب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى في العلو، ومن باب أولى المكلف الإنسان والجن يطلب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى من العلو هذه فطرة فطر الله عَزَّ وَجَلَّ عليها الخلق.

ولذلك سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامَ لما خرج يستسقي وجد نملة رافعة قوائمها إلى السماء تسأل الله عَزَّ وَجَلَّ في العلو، فهذه فطرة.

ولذلك كان أبو المعالي الجويني يقرر أن الله عَزَّ وَجَلَّ كان ولا ما كان, يريد نفي العلو، فقال له الهمداني: يا فلان اتركنا من هذا، ولكن ما هذا الشيء الذي أجده في قلبي إذا قلت: يا الله أني أنظر إلى السماء؟

فضرب على رأسه وقال: حيرني الرجل؛ يعني: هذه الفطرة ماأحد يستطيع أن ينكر هذه الفطرة.

وأيضًا بالعقل لأن كل عاقل يعتقد أن العلو صفة كمال، والله عَزَّ وَجَلَّ ثابت له الكمال من جميع الوجوه، فهو في العلووعلى هذا الذي ينفي العلو ضل ضلالًا عظيم، والذين ينفون العلو اختلفوا:

منهم من قال: أن الله عَزَّ وَجَلَّ في كل مكان، وهذا يترتب عليها مفاسد عظيمة:

منها: نفي النصوص وتكذيب جميع النصوص التي أثبتت أن الله عَزَّ وَجَلَّ في العلو.

ومنها: مخالفة إجماع السلف.

ومنها: مخالفة الفطرة في القلب.

ومنها: نفي الكمال عن الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومنها: أنه يترتب عليه أنه يُلزم بأمور لا محيد له عنها، أليس الخلاء مكان؟ أليس أماكن اللهو مكان؟

الجواب:بلا، فكيف يستثني هذه الأماكن؟

ومنهم من قال: أن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال ، ولا داخل العالم، ولا منفصل عن العالم، وهذا لو قيل صف العدم ما استطعت أن تأتي بمثل هذا الوصف.

ولذلك قال بعض السلف: أنه لو قيل لك: صف العدم لوصفته بهذا الوصف، هذا عدم، ولذلك الإنسان يحذر من أن ينفي ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ لنفسه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وعن العبَّاس بن عبد المُطَّلب قال: قال رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بينَ السَّماءِ والأرضِ؟»، قُلنا: اللهُ ورَسُولُهُ أَعلَمُ.قال: «بينَهُما مَسِيرةُ خَمْسمِائَةِ سَنَةٍ، ومِنْ كُلِّ سَماءٍ إلىٰ سَماءٍ مَسيرَةُ خَمْسمِائَةِ سنةٍ وَكِثَفُ كُلِّ سَماءٍ مَسيرَةُ خَمْسمِائَةِ سَنَةٍ، وبينَ السَّماءِ السَّابعةِ والعَرْشِ بَحْرٌ بينَ أَسْفَلِهِ وأَعلاهُ كَمَا بينَ السَّماءِ والأَرضِ، واللهُ تعالىٰ فوقَ ذَلِكَ، وليسَ يَخْفَىٰ عليهِ شَيءٌ مِنْ أَعمالِ بَني آدَمَ». أخرجه أبو داود وغيره.

قَالَ الشَّارِحُ وفقه الله:

قال:وعن العبَّاس بن عبد المُطَّلب قال: قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«هَلْ تَدْرُونَ»، (هل) استفهامية.

«هَلْ تَدْرُونَ»؛ يعني: تعلمون.

«كَمْ بينَ السَّماءِ والأَرضِ؟»، هذا فيه تشويق.

قُلنا: اللهُ ورَسُولُهُ أَعلَمُ.

قال: «بينَهُما مَسِيرةُ خَمْسمِائَةِ سَنَةٍ»، هذا بين السماء والأرض.

«ومِنْ كُلِّ سَماءٍ إلىٰ سَماءٍ مَسيرَةُ خَمْسمِائَةِ سنةٍ وَكِثَفُ»؛ يعني: سُمك.

«وَكِثَفُ كُلِّ سَماءٍ مَسيرَةُ خَمْسمِائَةِ سَنَةٍ، وبينَ السَّماءِ السَّابعةِ والعَرْشِ بَحْرٌ بينَ أَسْفَلِهِ وأَعلاهُ كَمَا بينَ السَّماءِ والأَرضِ، واللهُ تعالىٰ فوقَ ذَلِكَ»؛ يعني: فوق العرش سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

«وليسَ يَخْفَىٰ عليهِ شَيءٌ مِنْ أَعمالِ بَني آدَمَ».

أخرجه أبو داود وغيره.

هذا الحديث معناه تقدم في الأثر الذي قبله، وهذا فيه اختلاف هل هو صحيح أو غير صحيح؟ابن القيم صحح الحديث وأطال في تصحيحه.

والحديث الذي قبله شاهد له.

ولكن يُستفاد من هذا الحديث: أن سُمك كل سماء خمسمائة سنة، كل سماء سمكها خمسمائة سنة، وفيه أن السماء لها جرم وليست هي هواء كما قيل بل هي لها جرم؛ولذلك إذا خافت السماء من الله عَزَّ وَجَلَّ ترتجف.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى ءاله وصحبه أجمعين.